تفسير الثعالبي

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي
(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه
الشيخ علي محمد معوض
والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وشارك في تحقيقه
الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة

خبير التحقيق بمجمع البحوث الإسلامية
وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
وعضو لجنة المصحف بالأزهر الشريف

الجزء الثالث

دار إحياء التراث العربي — مؤسسة التاريخ العربي
بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836551 - 836696 - 836766

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الثعالبي
الجزء الثالث

سورة الأعراف

مَكِّيَّةٌ، كلها. قاله الضحاك[١]، وغيره.

وقال مقاتل: هي مَكِّيَّةٌ، إلا قوله سبحانه: «واسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ» إلى قوله: «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» فإن هذه الآيات مدنية[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله جَلَّتْ عظمتُهُ: ﴿الٓمٓصٓ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم القول في تَفْسِيرِ الحروف المقطعة في أوائل السور، والحَرَجُ: الضيقُ ومنه: الحَرِجَةُ؛ الشجر الملتف الذي قد تَضَايَقَ، والحرج هاهنا يعم الشَّك، والخوف، والهم، وكلَ ما يَضِيقُ الصدر، والضمير في «منه» عائد على الكتاب، أي: بسبب من أسبابه.

وقوله سبحانه: ﴿فَلاَ يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه﴾ اعتراض في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إن فيه تَقْدِيماً وتأخيراً.

وقوله: ﴿وذكرى﴾ معناه تَذْكرة وإرشاد.

وقوله سبحانه: ﴿اتبعوا ما أنزل إِلَيْكُمْ مِنْ ربكم﴾ أَمْرٌ يعمُّ جَمِيعَ الناس، ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾، أي: من دون ربكُمْ ﴿أولياء﴾ يريد: كل مَنْ عُبِدَ، واتبعَ من دون اللّه، و﴿قليلاً﴾: نعت لمصدر نصب بفعل مُضْمَر.

وقال مكي: هو منصوب بالفِعْلِ الذي بَعْدَهُ، و«ما»[٣] في قوله: ﴿ما تذكرون﴾ مصدرية.

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٣).

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكم من قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فجاءها بَأْسُنَا بَيَاتاً أو هُمْ قَائِلُونَ﴾ قالت فرقة: المراد وكم من أَهْلِ قرية.

وقالت فرقة: اللفظ يَتَضَمَّنُ هَلاَكَ القرية وأهلها، وهو أعظم العُقُوبَةِ، و«الفاء» في قوله سُبْحَانَهُ: ﴿فجاءها بَأْسُنَا﴾ لترتيب القَوْلِ فقط.

وقيل: المعنى أَهْلَكْنَاهَا بالخذلان، وعدم التوفيق، فجاءها بَأْسُنَا بعد ذَلِكَ و﴿بَيَاتاً﴾، نصب على المصدر في مَوْضِعِ الحال، و﴿قائلون﴾ من القائلة، وإنما خَصَّ وَقْتَيِ الدَّعَةِ(١) والسكون؛ لأن مجيء العَذَابِ فيهما أَفْظَعُ وأَهْوَلُ؛ لما فيه من البَغْتَةِ والفَجْأَةِ.

قال أبو(٢) حيان: أو للتفصيل، أي: جاء بعضهم بَأْسُنَا لَيْلاً، وبعضهم نَهَاراً(٣) انتهى.

وقوله عز وجل: ﴿فما كَانَ دَعْوَاهُمْ إذ جَاءَهُمْ بأْسُنَا إلا أن قَالُوا إنا كنا ظَالِمِينَ﴾ هذه الآية يَتَبَيَّنُ منها أن المرَادَ في الآية قبلها أهل القُرَى، والدعوى(٤) في كلام العَرَبِ تأتي لمعنين:

أحدهما: الدعاء، ومنه قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥].

والثاني: الادِّعاءُ، وهذه الآية تَحْتَمِلُ المعنيين، ثم استثنى سُبْحَانَهُ من غير الأول كأنه قال: لم يكن منهم دُعَاءٌ أو ادِّعَاءٌ إلاَّ الإقرار(٥)، والاعتراف، أي: هذا كان بَدَلَ الدعاء،

---

(١) الدَّعة: الخفض من العيش والراحة، والهاء عوض من الواو.
ينظر: «**لسان العرب**» (٤٧٩٥) (ودع).

(٢) ينظر «**البحر المحيط**» (٤/ ٢٦٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٤) بنحوه.

(٤) هي قول مقبول يقصد به الإنسان إيجاب حق له على غيره، سواء كان ذلك حال المنازعة أو لا، وتقول العرب: ادعى كذا ادعاءً: زعم أن له حقًا أو باطلاً، والاسم منه الدعوى، والجمع: دعاوى بالفتح، ودعاوٍ بالكسر، وهو الراجح عند سيبويه عند الإضافة إلى الضمير، وغلب الكسر في دعوى النسب، والفتح في المأدبة، واسم المدعي يتناول في العرف من لا حجة له، ولا يتناول من له حجة، ولذا يقال لمسيلمة الكذاب: مدعي النبوة، ولا يقال ذلك بالنسبة للنبي ﷺ؛ لأن نبوته ثبتت بالمعجزة، فالمطالب بحقه قبل قيام حجته يسمى مدعياً، وبعدها يسمى محقًا.
ينظر: «**الدعوى**» لشيخنا: عبد الحميد سليمان الدسوقي.

(٥) الإقرار لُغَةً: إفعال، من قرَّ-الشيءُ: إذا ثبت-يقر، من باب ضرب وعلم وثبت وسكن، وأقره في مكانه: أثبته=

والادعاء، واعترافهم.

وقولهم: ﴿إنا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هو في المُدَّةِ التي ما بين ظُهُورِ العَذَابِ إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مُهْلَةٌ بحسب نَوْعِ العذاب تَتَّسِعُ لهذه المَقَالَةِ، وغيرها.

وروى ابن مَسْعُودٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هَلَكَ قَوْمٌ حتى يعذروا من أنفسهم»[(١)].

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين...﴾ الآية وعيد مِنَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ لجميع العالم أخبر سبحانه أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم، ويسأل النَّبيين عما بَلَّغوا، وهذا هو سُؤَالُ التقرير، فإن اللّه سبحانه قد أَحَاطَ علماً بكل ذلك قبل السؤال، فأما الأَنْبِيَاءُ وَالمُؤمِنون، فيعقبهم جوابهم رَحْمَةً وكرامة،

= بعد أن كان مُزَلْزَلاً، وأقرّ له بحقه: أَذْعَنَ واعترف، إذاً فالإقرار إثبات لما كان متزلزلاً بين الإقرار والجحود.

ينظر: «**الصحاح**» (٢/ ٧٨٨)، «**لسان العرب**» (٥/ ٣٥٨٢)، «**أنيس الفقهاء**» ص: (٢٤٣).

واصطلاحاً:

عرفه الشافعية بأنه: إخبار بحقّ على المقر.

وعرفه المالكية بأنه: خبر يوجب حكم صدقه على قائله فقط بلفظه، أو لفظ نائبه.

وعرفه الحنفية بأنه: إِخْبَارٌ بحق لآخر، لا إثبات له عليه.

وعرفه الحنابلة بأنه: إظهار مكلّف مختار ما عليه بلفظ أو كتابة، أو إشارة أخرس، أو على موكله، أو موليه، أو مورثه بما يمكن صدقه.

ينظر: «**حاشية الباجوري**» (٢/ ٢)، «**الخرشي**» (٦/ ٨٦ ـ ٨٧)، «**الدرر**» (٢/ ٣٥٧)، «**منتهى الإرادات**» (٢/ ٦٨٤).

وَمَحاسِنُ الإقرار كثيرة منها ما يأتي:

(أ) إِسْقَاطُ واجب النَّاس عن ذِمَّتِهِ، وقطع ألسنتهم عن مَذَمَّتِهِ.

(ب) إيصال الحَقّ إلى صاحبه، وتبليغ المكسوب إلى كاسبه، فكان فيه إنفاع صاحب الحقّ، وإرضاء خالق الخَلْقِ.

(جـ) إحماد النَّاس المُقرّ بصدق القول، ووصفهم إِيَّاهُ بوفاء العَهْدِ، وإنالة النول.

(د) حُسْنُ المُعَامَلة بينه وبين غيره.

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٢٩) برقم: (١٤٣٢٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٤)، وابن كثير (٢/ ٢٠١) ط: «دار إحياء الكتب العربية»، والسيوطي (٢/ ١٢٦).

وأما الكفار، ومن نفذ عليه الوَعِيد من العُصَاةِ، فيعقبهم جوابهم عَذاباً وتوبيخاً.

* ت *: وروى أبو عمر بن عبد البر[١] في كتاب «فَضْلِ العلم» بِسَنَدِهِ عن مَالِك أنه قال: بلغني أن العلماء يُسْأَلُونَ يوم القيامة كما تُسْأَلُ الأنبياء يعني عن تَبْلِيغ العِلمِ/ انتهى.

وخرج أبو نُعَيْم الحافظ من حديث الأَعْمَشِ، عن النبي ﷺ: «ما من عَبْدٍ يخطو خطوةً إلا يُسْأَلُ عنها ما أَرَادَ بها»[٢].

وقد ذكرنا حَدِيثَ مسلم عن أبي برزة في غير هذا المَوْضِعِ. وخرج الطبراني بسنده عن ابن عُمَرَ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا كان يَوْمُ القِيَامَةِ دَعَا اللَّه بِعَبْدٍ من عِبَادِهِ، فيوقفه بين يَدَيْهِ، فيسأله عن جَاهِهِ، كما يسأله عن عَمَلِهِ»[٣]. انتهى.

وروى مالك عن يحيى بن سَعِيدٍ، قال: بلغني أن أَوَّلَ ما ينظر فيه من عَمَلِ الْمَرْءِ، الصلاة، فإن قُبِلَتْ منه نُظِرَ فيما بقي من عَمَلِهِ، وإن لم تُقْبَلْ منه لم يُنْظَرْ في شَيْءٍ من عمله.

وروى أبو داود، والترمذي، والنَّسائي، وابن ماجه معنى هذا الحديث مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أول ما يُحاسَبُ به النَّاسُ يوم القِيَامَةِ من أعمالهم الصَّلاَةُ» قال: يقول رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ للملائكة انْظُرُوا في صَلاَةِ عَبْدِي أتمَّهَا أم نَقَصَها، فإن كانت تَامَّةً كتبت تَامَّةً، وإن كان انْتَقِصَ منها شيءٌ، قال الله: انظروا هل لعبدي من تَطَوُّعٍ؟ فإن كان له تَطَوّع قال: أتموا لعبدي فَرِيضَتَهُ من تَطَوُّعِهِ، ثم تؤخذ الأعمال[٤] على ذلك. انتهىٰ.

واللفظ لأبي داود.

وقال النسائي: ثم سائر الأعمال تجري على ذلك انتهى من «التذكرة»[٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ﴾ أي: فَلنسْرِدَنَّ عليهم أعمالهم قِصَّةً قصة، ﴿بعلم﴾ أي: بحقيقة ويقين ﴿وما كُنَّا غائبين﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٩٣).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢١٢)، عن الأعمش مرسلاً.
(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٩)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، وفيه يوسف بن يونس أخو أبي مسلم الأفطس، وهو ضعيف جداً.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) ينظر: «التذكرة» (١/ ٣٧٩).

﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠﴾

وقوله عز وجل: ﴿والوَزْن يومئذٍ الحَقّ﴾ التقدير: والوزن الحق ثابت، أو ظاهر يومئذٍ، أي يوم القيامة.

قال جمهور الأُمَّةِ: إنَّ اللَّه عز وجل أراد أن يبين لعباده أن الحِسَابَ والنظر يوم القِيَامَةِ هو في غَايَةِ التحرير، ونهاية العَدْلِ بأَمْرٍ قد عرفوه في الدُّنْيَا، وعهدته أفهامهم، فميزان القِيَامَةِ له عمود وَكِفَّتَانِ على هيئة مَوَازِينِ الدنيا، جَمَع لفظ «المَوَازِين»؛ إذ في الميزان مَوْزُونَاتٌ كثيرة، فكأنه أراد التَّنْبِيه عليها.

قال الفخر[1]: والأظْهَرُ إثبات مَوَازِينَ في يوم القيامة لا ميزان واحد، لظواهر الآيات، وحمل الموازين على الموزنات، أو على الميزان الواحد يوجبان العُدُولَ عن ظَاهِرِ اللفظ، وذلك إنما يُصَارُ إليه عند تَعَذُّرِ حَمْلِ الكلام على ظَاهِرِهِ، ولا مانع هاهنا منه، فوجب إِجْرَاءُ اللفظ على حقيقته، فكما لم يمتنع إثبات مِيزانٍ له كِفَّتان، فكذلك لا يمتنع إِثْبَاتُ موازين بهذه الصِّفَةِ، وما الموجب لتَرْكِهِ، والمصير إلى التأويل. انتهىٰ. قال أبو حَيَّان[2]: موازينه جُمِعَ باعتبار المَوْزُونَاتِ[3]، وهذا على مذهب الجمهور؛ في أن الميزَانَ واحد.

وقال الحسن: لكل واحدٍ ميزَانٌ[4]، فالجمع إذن حَقِيقَةٌ انتهى.

والآيات هُنَا البَرَاهِينُ والأوامر والنواهي.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد مَكَّنَّاكم في الأرضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فيها مَعَايِشَ....﴾ الآية خطاب لجميع الناس، والمعايش: بكسر الياء دون هَمْزٍ جمع معيشة، وهي لفظة تعمُّ جَمِيعَ المأكول الذي يُعَاشُ به، والتحرف الذي يُؤَدِّي إليه، و﴿قليلاً﴾ نصب بـ ﴿تشكرون﴾ ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ مع الفعل بتأويل المَصْدَرُ، و﴿قليلاً﴾ نعت لِمَصْدَرٍ محذوف، تقديره: شكراً قليلاً شكركم، أو شكراً قليلاً تشكرون.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٢٣).
(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٢٧١).
(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٦) بنحوه.
(٤) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٦) بنحوه.

مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صَوَّرْنَاكُمْ...﴾ الآية: هذه الآية مَعْنَاهَا التَّنْبِيهُ على مواضع العِبْرَةِ، والتعجيب من غريب الصنعة، وإسداء النعمة.

١٨٥ أ واختلف العلماء في تَرْتِيبِ هذه الآية؛ لأن ظاهرها/ يَقْتَضِي أن الخَلْقَ والتصوير لبني آدم قَبْلَ القَوْلِ للملائكة أن يَسْجُدُوا، وقد صححت الشريعة أن الأَمْرَ لم يَكُنْ كذلك، فقالت فرقة: المُرَادُ بقوله سبحانه: ﴿ولقد خَلَقْنَاكُمْ ثُم صَوَّرْنَاكُمْ﴾ آدم، وإن كان الخِطَابُ لبنيه.

وقال مجاهد: المعنى: ولقد خَلَقْنَاكم، ثم صورناكم في صُلْبِ آدم، وفي وقت استخراج ذريّة آدم من ظَهْرِهِ أمثال الذّر في صورة البَشَرِ[1]، ويترتب في هَذَيْنِ القولين أن تكون «ثم» على بابها في الترتيب، والمُهْلَةِ.

وقال ابن عباس، والربيع بن أنس: أما «خلقناكم» فآدم، وأما «صورناكم» فذرّيته في بُطُونِ الأمهات[2].

وقال قتادة، وغيره: بل ذلك كله في بُطُونِ الأمهات من خَلْقٍ، وتصوير[3]، و﴿ثم﴾ لترتيب الأخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجُمَلِ في أنفسها.

وقوله سبحانه: ﴿فَسَجَدُوا إلا إبليس لم يَكُنْ من السَّاجدينَ * قال ما مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذ أمرتك قال أَنَا خَيْرٌ منه خَلَقْتَنِي من نَارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ * قال فَاهْبِطْ منها فما يَكُونُ لَكَ أن تَتَكَبَّر فيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ من الصَّاغِرِينَ * قال أنظرني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قال إِنَّكَ من المُنْظَرِينَ * قال فبما أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لهم صِرَاطَكَ المُسْتَقِيم﴾ تقدم الكلام على قَصَصِ الآية في «سورة البقرة».

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٣٧) برقم: (١٤٣٥٦) بلفظ: «في صلب آدم»، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٨)، وذكر نحوه البغوي (٢/ ١٥٠) بلا نسبة.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٣٦)، برقم: (١٤٤٣ - ١٤٤٤)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٨)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٠٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٨).

«وما» في قوله: ﴿ما منعك﴾ استفهام على جِهَةِ التوبيخ والتقريع، و«لا» في قوله: ﴿ألا تسجد﴾ قيل: هي زائدة، والمعنى: ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ، وكذلك قال أبو حَيَّان(١): إنها زائدة(٢)، كهي في قوله تعالى: ﴿لئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩].

قال: ويدلُّ على زيادتها سُقُوطها في قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] في «ص» انتهى. وجواب إبليس اللعين ليس بمُطابق لما سئل عنه، لكن [لما] جاء بِكَلاَم يتضمن الجَوَابَ والحجة، فكأنه قال: منعني فَضْلِي عليه، إذ أنا خير منه، وظن إبليس أنَّ النار أَفْضَلُ من الطين، وليس كذلك بل هما في دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ من حيث إنهما جَمَادٌ مخلوق، ولما ظن إبليس أن صُعُودَ النار، وَخِفَّتَهَا يقتضي فَضْلاً على سُكُونِ الطين وبلادته، قَاسَ أن ما خُلِقَ منها أَفْضَلُ مما خُلِقَ من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نُفِخَ في آدم ليس من الطِّين.

وقال الطبري(٣): ذهب عليه ما في النَّارِ من الطَّيْشِ، والخِفَّةِ، والاضطراب، وفي الطين من الوَقَارِ، والأَنَاةِ والحِلْم، والتثبت وروي عن الحسن، وابن سيرين أنهما قالا: أول مَنْ قَاسَ إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالقِيَاس(٤)، وهذا القَوْلُ منهما ليس هو بإنكار للقياس(٥). وإنما خُرِّجَ كلاهما نَهْياً عما كان في زمانهما من مَقَايِيسِ الخَوَارِجِ

---

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٢٧٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٨)، ولم يعزه لأحد.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٤٠).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٤٤١)، برقم: (١٤٣٦٠)، وبرقم: (١٤٣٦١)، بلفظ: «قاس إبليس، وهو أول من قاس»، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٩)، والبغوي (٢/ ١٥٠)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٠٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٤) عن الحسن نحوه.

(٥) ينظر: الكلام على القياس في:
«البرهان» لإمام الحرمين (٢/ ٧٤٣)، «البحر المحيط» للزركشي (٥/ ٥)، «الإحكام في أصول الأحكام للآمدي» (٣/ ١٦٧)، «سلاسل الذهب» للزركشي ص: (٣٦٤)، «التمهيد» للأسنوي ص: (٤٦٣)، «نهاية السول» له (٤/ ٢)، «زوائد الأصول» له ص: (٣٧٤)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣/ ٣)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري ص: (٢١١)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٢/ ١٥٥)، «المنخول» للغزالي ص: (٣٢٣)، «المستصفى» له (٢/ ٢٢٨)، «حاشية البناني» (٢/ ٢٠٢)، «الإبهاج» لابن السبكي (٣/ ٣)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٤/ ٢)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٢/ ٢٣٩)، «المعتمد» لأبي الحسين (٢/ ١٩٥)، «إحكام الفصول من أحكام الأصول» للباجي ص: (٥٢٨)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٧/ ٣٦٨)، (٨/ ٤٨٧)، «أعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ١٠١)، «التحرير» لابن الهمام ص: (٤١٥)، «تيسير التحرير» لأمير باد شاه (٣/ ٢٦٣) «التقرير والتحبير» لابن أمير الحاج (٣/ ١١٧).

وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجَادَّةِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَاهْبِطْ منها﴾ الآية: يظهر منه أنه أهبط أولاً، وأخرج من الجَنَّةِ، وصار في السماء؛ لأن الأخبار تَظَاهَرَتْ أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجَنَّة، ثم أُمِرَ آخراً بالهُبُوطِ من السماء مع آدم، وحواء، والحية. وقوله: ﴿إنك من الصَّاغِرِينَ﴾ حكم عليه بضدِّ معصيته التي عصى بها، وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل عليه، بخلاف شهوته، وأمله والصَّغَارُ: الذل قاله السدي.

١٨٥ ب ومعنى: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أخِّرْنِي[1] فَأَعْطَاهُ اللَّه النَّظِرَةَ إلى النفخة الأولى. قاله/ أكثر الناس[2] وهو الأصح والأشهر في الشَّرْع.

وقوله: ﴿فبما﴾ يريد به القَسَمَ، كقوله في الآية الأخرى: ﴿فبعزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] و﴿أغويتني﴾ قال الجمهور: معناه: أضللتني من الغيِّ، وعلى هذا المعنى قال محمد بن كَعْبٍ القرظي: قاتل اللَّه القدرية لَإِبْلِيسُ أعلم باللَّه منهم، يُرِيدُ في أنه علم أن اللَّه يَهْدِي وَيضل[3].

وقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لهم صِرَاطَكَ﴾ المعنى: لاعترضنَّ لهم في طَريق شرعك، وعبادتك، ومنهج النجاة، فَلأَصُدَّنهم عنه.

ومنه قوله عليه السلام: «إن الشيطان قَعَدَ لابن آدَمَ بأطرُقِهِ[4] نَهَاهُ عن الإِسْلاَمِ، وقال: تَتْرُكُ دِينَ آبائك، فَعَصَاهُ فأسلم، فنهاه عن الهِجْرَةِ فقال: تَدَعُ أَهْلَكَ وَبَلَدَك، فعصاه فهاجر، فنهاه عن الجِهَاد، فقال: تُقْتَلُ وتترك وَلَدَكَ، فَعَصَاهُ فجاهد فله الجَنَّة[5]...» الحديث.

وقوله سبحانه: ﴿ثم لآتينَّهُمْ من بين أيديهم وَمِنْ خلفهم وعن أَيْمَانِهِمْ وعن شَمَائلِهِمِ ولا

---

(١) وذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٩)، والبغوي (٢/ ١٥١).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٤٢)، برقم: (١٤٣٦٥) نحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٧٩)، والبغوي (٢/ ١٥١).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٤٤٤)، برقم: (١٤٣٦٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٠).

(٤) هي جمع طريق على التأنيث؛ لأن الطريق تذكر وتؤنث، فجمعه على التذكير: أَطْرِقة: كرغيف وأرغفة، وعلى التأنيث: أَطْرُق، كيمين وأيمن.
ينظر: «**النهاية**» (٣/ ١٣٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٣)، والنسائي (٦/ ٢١ ـ ٢٢)، كتاب «الجهاد»، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وابن حبان (١٦٠١ ـ موارد)، والطبراني في «**الكبير**» (٧/ ١٣٨)، من حديث سبرة بن أبي الفاكه.

تجِد أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قال اخْرُجْ منها مَذْءُوماً مَدْحُوراً لمن تبعك منهم لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ منكم أجميعن﴾ مقصد الآية أن إبليس أَخْبَرَ عن نفسه أنه يأتي إِضْلاَلَ بني آدم من كُلِّ جهة، فعبر عن ذلك بأَلْفَاظٍ تقتضي الإِحَاطَةَ بهم، وفي اللفظ تَجَوُّزٌ، وهذا قَوْلُ جَمَاعَةٍ من المفسرين.

قال الفخر[١]: وقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لهم صِرَاطَكَ المستقيم﴾ أي: على صِرَاطِكَ. أجمع النحاة على تقدير «على» في هذا الموضع. انتهى.

وقوله: ﴿ولا تجد أَكْثَرَهُمْ شاكرين﴾ أخبر اللعين أن سَعَايَتَهُ تفعل ذلك ظَنًّا منه، وتوسُّماً في خِلْقَةِ آدم حين رأى خِلْقَتَهُ من أشياء مختلفة، فعلم أنه سَتَكُونُ لهم شِيَمٌ تقتضي طَاعَتَهُ، كالغِلِّ، والحَسَدِ، والشهوات، ونحو ذلك.

قال ابن عباس، وقتادة: إلا أن إبليس لم يَقُلْ: إنه يأتي بني آدم من فَوْقِهِمْ، ولا جعل الله له سبيلاً إلى أن يَحُولَ بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومَنِّهِ، وما ظنه إبليس صدقه الله عز وجل[٢].

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إلاَّ فَرِيقاً من المؤمنين﴾ [سبأ: ٢٠] فجعل أكثر العَالَم كَفَرَةً، ويُبَيِّنُهُ قوله ﷺ في الصَّحيح: «يَقُولُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: يا آدَمُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فيقول: يا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ، فيقول: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعمَائَةً وتِسْعَةً وتَسْعِينَ إلى النَّارِ، وواحداً إلى الجَنَّةِ»[٣].

ونحوه مما يخصُّ أمة نبينا محمد ﷺ: «ما أنتم في الأمم إلا كالشَّعرة البَيْضَاءِ في الثور الأَسْوَدِ»[٤] و﴿شاكرين﴾ معناه: مُؤمنين؛ لأن ابن آدم لا يَشْكُرُ نعمة الله إلا بأن يُؤمن. قاله ابن عباس وغيره[٥].

وقوله سبحانه: ﴿اَخْرُجْ منها﴾ أي: من الجنة ﴿مَذْءُوماً﴾ أي مَعِيباً ﴿مَدْحُوراً﴾؛ أي: مقصيًّا مبعداً.

﴿لَمَنْ تبعك﴾ بفتح اللام هي لام قَسَم.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٢).
(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٢).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٨١).

وقال أبو حيان[١]: الظاهر أنها المُوَطِّئة لِلْقَسَم[٢]، و«من» شرطية في موضع رَفعٍ بالابتداء، وحذف جواب الشرط لدلالة جَوَابِ القَسَم عليه، ويجوز أن تكون لام ابتداء، و«من» موصولة في مَوْضَعِ رَفْعٍ بالابتداء، والقَسَمُ المحذوف، وجوابه، وهو «لأملأن» في موضع خبرها. انتهى.

وقال الفَخر[٣]: وقيل/: ﴿مَذْءوماً﴾، أي: محقوراً؛ فالمَذْؤُومُ المحتقر. قاله الليث. ١٨٦أ

وقال ابن الأنباري[٤]: المَذْؤُومُ المذموم.

وقال الفَرّاءُ: أَذْأَمْتُهُ إِذا عَيَّبْتُهُ. انتهى.

وباقي الآية بَيِّنٌ. اللهم إنا نَعُوذُ بك من جَهْدِ البَلاَءِ، وسوء القَضَاءِ، ودَرك الشَّقَاء، وشَمَاتَة الأعداء.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله جل وعلا: ﴿ويا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلاَ من حَيْثُ شئتما ولا تَقْرَبَا هذه الشَّجَرَة فَتَكُونَا من الظَّالمين﴾

إذا أُمِرَ الإنسان بِشَيْءٍ، وهو متلبس به، فإنما المقصد من ذلك أن يستمر على حاله، ويتمادى في هَيْئَتِهِ.

وقوله سبحانه لآدم: ﴿اسكن﴾ هو من هذا البَابِ، وقد تَقَدَّمَ الكلام في «سورة البقرة» على «الشَّجَرَةِ» وتعيينها، وقوله سبحانه: «هذه» قال (م): الأَصْلُ هَذِي، وَالهَاءُ بَدَلٌ من الياء، ولذلك كسرت الذال، إذ ليس في كلامهم هاء تأنيث قبلها كسرة انتهى.

---

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٢٧٨).
(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٢).
(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٧).
(٤) عبد الرحمٰن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، كمال الدين الأنباري، ولد في ٥١٣هـ، من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال، كان زاهداً عفيفاً، لا يقبل من أحد شيئاً، له مصنفات منها: «**نزهة الألباء في طبقات الأدباء**»، «**لمعة الأدلة**»، «**الميزان**»، توفي في ٥٧٧هـ.
ينظر: «**الفوات**» (١/ ٢٦٢)، «**بغية الوعاة**» (٣٠١)، «**الوفيات**» (١/ ٢٧٩)، «**أدب اللغة**» (٣/ ٤١)، «**الأعلام**» (٣/ ٣٢٧).

وقوله عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عنهما من سَوْآتهما﴾ الوَسْوَسَةُ الحديث في إخفاء همساً وإسْرَاراً من الصوت، والوسواس صَوْتُ الحُلِيِّ، فشبه الهمس به، وسمى إلْقَاء الشيطان في نَفْسِ ابن آدم وَسْوَسَةً، إذ هي أَبْلَغُ الإسرار وأخفاه. هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأما مع آدم، فممكن أن تكون وَسْوَسَة بمُحَاوَرَةٍ خفية، أو بإلقاء في نَفسٍ، واللام في «ليبدي» هي في قول الأكثرين لام الصَّيْرُورَةِ والعاقبة، ويمكن أن تكون لام «كي» على بابها[1].

وما ﴿وُورِي﴾ معناه ما ستر من قولك: وارى يُوَارِي إذا ستر، والسَّوْأَةُ الفَرْجُ والدُّبر، ويشبه أن يسمى بذلك؛ لأن منظره يسوء.

وقالت طائفة: إن هذه العِبَارَةَ إنما قصد بها أنها كُشِفَتْ لهما مَعَائِبهما، وما يسوءهما، ولم يقصد بها العورة، وهذا القَوْلُ محتمل، إلا أن ذِكْرَ خَصْفِ الوَرَقِ يَرُدُّهُ إلا أن يُقَدَّرَ الضمير في ﴿عليهما﴾ عائد على بدنيهما فيصحّ.

وقوله سبحانه: ﴿وقَالَ مَا نَهَاكُمَا. . .﴾ الآية، هذا القول المَحْكِيُّ عن إبليس يدخله من التأويل ما دَخَلَ الوَسْوَسَةَ، فممكن أن يقول هذا مخاطبةً وحِوَاراً، وممكن أن يقولها إلْقَاءَ في النفس، وَوَحْياً.

و﴿إلا أن﴾ تقديره عند سيبويه والبصريين: إلا كراهِيَة أن، وتقديره عند الكوفيين:[2] «إلا أن لا» على إضمار «لا»، ويرجح قَوْلُ البصريين أن إضمار الأسماء أَحْسَنُ من إِضْمَارِ الحروف.

وقرأ جمهور الناس «مَلَكَيْنِ» بفتح اللام.

وقرأ ابن عباس: «مَلِكَيْنِ[3]» بكسرها، ويؤيده قوله: ﴿ومُلْك لاَ يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

---

(١) في هذه اللام قولان:
أظهرهما أنها لام العلة على أصلها، لأن قصد الشيطان ذلك. وقال بعضهم: اللام للصيرورة والعاقبة، وذلك أن الشيطان لم يكن يعلم أنهما يعاقبان بهذه العقوبة الخاصة، فالمعنى: أن أمرهما آيل إلى ذلك. والجواب أنه يجوز أن يعلم ذلك بطريق من الطرق.
ينظر: «**الدر المصون**» (٣/ ٢٤٧).

(٢) وقول البصريين أولى: لأن إضمار الاسم أحسن من إضمار الحرف.

(٣) وقرأ بها يحيى بن أبي كثير، والضحاك، والحسن بن علي، والزهري، وابن حكيم.
ينظر: «**الشواذ**» ص: (٤٨) و«**البحر المحيط**» (٤/ ٢٨٠)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٢٤٨).

وقال بعض الناس: يؤخذ من هذه الألفاظ أن الملائكة أَفْضَلُ من البَشَرِ، وهي مسألة اختلف النَّاسُ فيها، وتمسَّكَ كل فريق بِظَوَاهِرَ من الشريعة، والفضل بِيَدِ اللَّه يؤتيه من يَشَاءُ.

و﴿قاسمهما﴾ أي: حلف لهما باللَّه، وهي مُفَاعلة، إذ قبول المحلوف له اليمين كالقسم.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ قال: * ع[١] *: يشبه عندي أن تكون هذه اسْتعَارَةً من الرَّجُلِ يدلي آخر من هُوَّةٍ بحبل قد أَرمَ أو سَبَبٍ ضعيف يغترُّ به، فإذا تَدَلَّى به، وتوركَ عليه، انقطع به، وهلك، فيشبه الذي يغرُّ بالكلام حتى يصدقه، فيقع في مصيبة بالذي يُدْلي من هوة بِسَبَبٍ ضعيف.

وقوله سبحانه: ﴿بَدَتْ﴾ قيل: تمزقت عنهما ثياب الجنة وملابسها، وَتَطَايَرَتْ تَبرِّياً منهما، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانها، والمخصف الإشفى[٢] وضم الورق بعضه إِلَى بَعْضٍ أشبه بالخَرَزِ منه بالخياطة.

قال البخاري: يَخْصِفَانِ يؤلفان الوَرَقَ بعضه إلى بعض/ انتهى. وهو معنى ما تقدم. ١٨٦ ب

وروى أبيٌّ عن النبي ﷺ أن آدم عليه السلام كان يَمْشي في الجنة كأنه النخلة السَّحُوقُ[٣] فلما أَكَلَ من الشجرة وَبَدَتْ له حاله فَرَّ على وَجْهِهِ، فأخذت شجرة بِشَعَرِ رَأْسِهِ، فقال لها: «أرسليني» فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه جَلَّ وَعَلاَ أَمِنِّي تفرُّ يا آدم؟ فقال: لا يَا رَبِّ، ولكن أَسْتَحْيِيكَ، فقال: أما كان لك فيما مَنَحْتُكَ من الجنة مندوحة عما حرمت عليك. قال: بلى يا رب، ولكن وَعِزَّتَكَ مَا ظَنَنْتُ أن أحداً يَحْلِفُ بك كَاذِباً، قال:

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٨٥).

(٢) الإشفَى: فِعْلَى، وهو أداة للإسكاف، والجمع: أَشَافِي.
ينظر: «لسان العرب» (٨٥) (أشف).

(٣) أي: الطويلة التي بَعُدَ ثمرها على المُجْتَني. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٧).

فبعزَّتي لأهبطنك إلى الأرْضِ، ثم لا تنال العَيْشَ إلا كدًّا[١].

وقوله: ﴿عن تلكما﴾ بِحَسَبِ اللفظ أنه إنما أشار إلى شَجَرَةٍ مخصوصة، ﴿وأقل لكما: إن الشيطان لَكُمَا عدو مُبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في «طه» في قوله: ﴿فلا يُخْرِجَنَّكُمَا من الجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧] وهذا هو العَهْد الذي نَسِيَهُ آدم على مَذْهَبِ من جعل النسيان على بابه، وقولهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ اعتراف من آدَمَ وحواء عليهما السلام وطَلَبٌ للتوبة، والستر، والتغمُّد بالرحمة، فطلب آدم هذا، فأجيب، وطلب إبليس النَّظِرَةَ، ولم يطلب التَّوْبَة، فوكل إلى سوء رأيه.

قال الضحاك وغيره: هذه الآية هي الكَلِمَاتُ التي تلقى آدم من رَبِّهِ، وقوله عز وجل: ﴿قال اهْبِطُوا بَعْضُكم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ المُخَاطَبَةُ بقوله: ﴿اهبطوا﴾.

قال: أبو صَالِحٍ، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدم، وحوّاء، وإبليس، والحية.

وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته، وإبليس وذريته.

قال * ع *[٢]: وهذا ضَعِيفٌ لعدمهم في ذلك الوَقْت.

* ت *: وما ضعفه رحمه الله صَحَّحَهُ في «سورة البقرة»، فتأمله هناك، وعداوة الحية معروفة.

روى قتادة عن النبي ﷺ: «ما سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ»[٣].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يا بَنِي آدَمَ قد أنزلنا عليكم لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ الآية خِطَابٌ لجميع الأمم وَقْتَ النبي ﷺ والسَّبَب والمراد: قريش، ومَنْ كان مِنَ العَرَبِ يتعرَّى في طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ.

---

(١) تقدم تخريجه في أوائل سورة البقرة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٨٧).

(٣) ورد هذا الحديث مسنداً من حديث أبي هريرة، وابن عباس.
حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨٥)، كتاب «الأدب»، باب: في قتل الحيات، حديث (٥٢٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٢، ٢٤٧، ٥٢٠)، وابن حبان (١٠٧٩ ـ موارد)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، والدارمي (٢/ ٨٨ ـ ٨٩)، والبيهقي (٩/ ٣١٧). أما حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨٥): كتاب «الأدب»، باب: في قتل الحيات، حديث (٥٢٥٠)، وعبد الرزاق (١٠/ ٤٣٤) برقم: (١٩٦١٧).

قال مجاهد: ففيهم نَزَلَتْ هذه الأربع آيات[(١)].

وقوله: ﴿أنزلنا﴾ يحتمل التَّدْرِيجَ أي: لما أنزل المَطَر، فكان عنه جميع ما يلبس، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أنزلنا﴾ خلقنا، كقوله: ﴿وأنزل لكم من الأَنْعَامِ ثمانية أزواج﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وأنزلنا الحديد﴾ [الحديد: ٢٥] و﴿لباساً﴾ عام في جميع ما يُلْبَسُ، و﴿يُوَارِي﴾: يستر.

وقرأ الجمهور: «وريشاً»، وقرأ عاصم، وأبو عمرو «ورياشاً» وهما عِبَارَتَانِ عن سَعَةِ الرزق، ورفاهة العَيْشِ، وَجَوْدَةِ الملبس والتمتع.

وقال البخاري: قال ابن عباس: وريشاً: المال انتهى[(٢)].

وقرأ نافع[(٣)]، وغيره: «ولباسَ» بالنصب.

وقرأ حمزة، وغيره بالرفع. وقوله: ﴿ذلك من آيات اللَّه﴾ إشارة إلى جَمِيعِ ما أنزل اللَّه من اللِّبَاسِ والرِّيشِ. وحكى النَّقَّاشُ: أن الإِشَارَةَ إِلى لِبَاسِ التَّقوى؛ أي: هو في العبد آية؛ أي: علامة وأمارة من اللَّه تعالى أنه قد رَضِيَ عنه، ورحمه.

وقال ابن عَبَّاسٍ: لباس التقوى هو السَّمْتُ الحَسَنُ[(٤)] في الوَجْهِ. وقاله عثمان بن عفان على المنبر.

وقال ابن عَبَّاسٍ أيضاً: هو العَمَلُ الصالحَ[(٥)].

وقال عُرْوَةُ بن الزبير: هو خَشْيَةُ اللَّه[(٦)] وقيل: هو لباس الصوف، وكل ما فيه تواضع لله عز وجل.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٥٥) برقم: (١٤٤٢٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٦/ ٤١٦): كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب: «خلق آدم وذريته»، وقال ابن حجر: «هو قول ابن عباس، ووصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه»، والطبري (٥/ ٤٥٧) برقم: (١٤٤٣٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٩)، والبغوي (٢/ ١٥٤)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ١٤١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٣) وقرأ بها ابن عامر والكسائي. عطفوا على الريش، والمعنى: وأنزلنا عليكم لباس التقوى.
ينظر: «**السبعة**» (٢٨٠)، و«**الحجة**» (٤/ ١٢)، و«**حجة القراءات**» (٢٨٠)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ١٧٨)، و«**العنوان**» (٩٥)، «**شرح الطيبة**» (٤/ ٢٩٣)، «**شرح شعلة**» (٣٨٧)، «**إتحاف**» (١/ ٤٦)، «**معاني القراءات**» (١/ ٤٠٣).

(٤) أخرجه الطبري (٥٠/ ٤٥٨) برقم: (١٤٤٤٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٩)، والسيوطي (٣/ ١٤٢).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٤٥٨) برقم: (١٤٤٤٩) وذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٩)، والبغوي (٢/ ١٥٥).

(٦) أخرجه الطبري (٥/ ٤٥٩) برقم: (١٤٤٥٢)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

وقال الحَسَنُ[١]: هو الوَرَعُ.

وقال معبد الجهني: هو[٢] الحَيَاءُ.

وقال ابن عَبَّاسٍ أيضاً: لِبَاسُ التقوى العفة[٣].

قال * ع *[٤] وهذه كلها مثل، وهي من لباس التقوى، و﴿لعلهم﴾ تَرَجٍّ بحسبهم، ومبلغهم من المعرفة.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم/ لا يفتننكم الشَّيْطَانُ كما أَخْرَجَ أبويكم من الجَنَّةِ﴾ ١٨٧أ
الآية: خطاب لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوَقْتِ مَنْ كان يطوف من العَرَبِ بالبيتِ عُرْيَاناً.

قيل: كانت العَرَبُ تَطُوفُ عُرَاةً إلا الحُمْس[٥]، وهم قريش، ومن وَالاَهَا، وهذا هو الصحيح، ثم نودي بـ «مكة» في سنة تسع: لا يحجّ بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يطوف بالبيت عريان[٦] والفتنة في هذه الآية الاسْتِهْوَاءُ، والغَلَبَةُ على النفس، وأضاف الإِخْرَاجَ في هذه الآية إلى إبليس تجوُّزاً لما كان هو السَّبَب في ذلك.

قال أبو حيان[٧]: ﴿كما أخرج﴾ «كما» في موضع نَصْبٍ، أي: فتنة مثل فتنة إِخْرَاجِ أبويكم انتهى.

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٩) وزاد فيه: «والسمت والحسن في الدنيا».
(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٥٨) برقم: (١٤٤٤٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٩)، والسيوطي (٣/ ١٤٢).
(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٨٩).
(٤) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٣٨٩).
(٥) الحُمْس: جمع الأحمس، وهم قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيسٍ، سُمُّوا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا. والحماسة: الشجاعة.
ينظر: «**النهاية**» (١/ ٤٤٠).
(٦) أخرجه البخاري (٣/ ٤٨٣): كتاب «الحج»، باب: لا يطوف بالبيت عريان، الحديث (١٦٢٢)، ومسلم (٢/ ٩٨٢): كتاب «الحج»، باب: لا يحج البيت مشرك، الحديث (١٣٤٧/٤٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحجّة التي أمّره عليها رسول الله ﷺ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».
(٧) ينظر: «**البحر المحيط**» (٤/ ٢٨٤).

وقوله سبحانه: ﴿إنه يَرَاكُمْ . . .﴾ الآية زيادة في التحذير، وإعلام بأن اللَّه عز وجل قد مَكَّنَ إبليس من بَني آدَمَ في هذا القدر، وبحسب ذلك يَجِبُ أن يكون التَّحَرُّزُ بِطَاعَةِ اللَّه عز وجل وقَبِيلُ الشيطانُ يُرِيدُ نوعه، وصنفه، وذريته، والشيطان مَوْجُودٌ، وهو جسم.

قال النووي[١]: وروينا في كتاب ابن السّني عن أَنَسٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ستر ما بين أَعْيُنِ الجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ المُسْلِمُ إِذَا أَراد أن يطرح ثِيَابَهُ: بسم اللَّه الذي لا إِله إِلاَّ هُوَ»[٢] انتهى.

وعن علي رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال: «ستر ما بين الجنّ وعَوْرَاتِ بني آدَمَ إذا دَخَلُوا الكُنُفَ أن يقولوا: بسم اللَّه».

رواه الترمذي، وقال: إسناده ليس بالقَوِيِّ[٣].

قال النووي: قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويُسْتَحَبُّ العَمَلُ في الفَضَائِلِ، والترغيب، والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً وأما الأحكام كالحَلاَلِ، والحرام، والبيع، والنكاح، والطلاق، وغير ذلك فلا يُعْمَلُ فيها إلا بالحديث الصحيح[٤]، أو الحسن[٥] إلا أن يكون في اخْتِيَاطٍ في شيء من ذلك، كما إذا ورد حديث

---

(١) ينظر: **«الأذكار»** ص: (٥١).

(٢) أخرجه ابن السني في **«عمل اليوم والليلة»** برقم: (٢٧٤) من حديث أنس مرفوعاً به.

(٣) أخرجه الترمذي (٢/٥٠٣ ـ ٥٠٤): كتاب «الصلاة»، باب: ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء، حديث (٦٠٦)، وابن ماجه (١/١٠٩): كتاب «الطهارة»، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، حديث (٢٩٧) من حديث علي، وقال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.

(٤) الصحيح: في اللغة فعيل بمعنى فاعل من الصحة، وهي ذهاب المرض والبراءة من كل عيب.
وفي اصطلاح المحدثين يختلف عند المتقدمين وعند المتأخرين.
أما عند المتقدمين فقال الخطابي: الصحيح: ما اتصل سنده وعدلت نقلته.
وأما الصحيح لذاته عند المتأخرين، فقال ابن الصلاح: هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً.
والصحيح لغيره: هو الحديث الذي لم يكن صحيحاً لذاته وارتقى إلى درجة الصحيح بجابر يجبر القصور فيه، وذلك هو الحديث الحسن لذاته إذا جبر بجابر بأن تقوى بمتابع أو شاهد مساوٍ أو راجح أو بأكثر من طريق إن كان أدنى. وعليه فنقول إنه:
هو ما اتصل سنده بنقل عدل قلّ ضبطه عن الدرجة العليا للضبط وتوبع بطريق آخر مساو أو راجح أو بأكثر من طريق إن كان أدنى وكان غير شاذ ولا معل.
ينظر: **«غيث المستغيث»** ص: (٣٢، ٣٣، ٣٥).

(٥) الحُسْن: في اللغة الجمال، والحَسَن الجميل. =

ضعيف بكَرَاهَةِ بعض البيوع، أو الأنكحة، فإن المستحبَّ أن يتنزَّه عنه، ولكن لا يَجِبُ انتهى.

ونحوه لأبي عمر بن عبد البر في كتاب «**فضل العلم**»: ثم أخبر عز وجل أنه صَيَّرَ الشياطين أولياء، أي: صحابة، ومتداخلين للكفرة الذين لا إيمان لهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله: وإذا فَعَلُوا وما بعده دَاخِلٌ في صفة الذين لا يؤمنون، والفاحشة في هذه الآية، وإن كان اللفظ عَامًّا هي كَشْفُ العَوْرَةِ عند الطَّوَافِ، فقد روي عن الزهري أنه قال: إن في ذلك نزلت هذه الآية. وقاله ابنَ عَبَّاسٍ ومجاهد[1].

وقوله عز وجل: ﴿قل أَمَرَ رَبِّي بالقِسْطِ﴾ تضمن معنى اقسطوا، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وأقيموا﴾ حملاً على المعنى، والقِسْطُ العَدْلُ واختلف في قوله سبحانه: ﴿وأقيموا وُجُوهَكُمْ عند كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فقال مجاهد، والسدي: أراد إلى الكعبة[2]، والمقصد على هذا

= وفي الاصطلاح: لهم فيه عبارات كثيرة؛ لعدم ضبط الأقدمين له حتى قال البلقيني: الحسن لما توسط بين الصحيح والضعيف عند الناظر كان شيئاً ينقدح في نفس الحافظ. وقد تقصر عبارته عنه كما قيل في الاستحسان، فلهذا صعب تعريفه لكن استقر الرأي أخيراً على أنه:
هو الحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط الذي قصر به حفظه وإتقانه عن درجة رجال الصحيح غير شاذ ولا معل.
والحسن لغيره: هو الحديث الذي يكون في أصله غير حسن، ثم يرتقي بالجابر حتى يكون في درجة الحسن، وذلك أن الحديث إذا فقد أحد الشروط الخمسة المعتبرة في الصحيح لذاته والحسن لذاته ينزل إلى درجة الضعيف، لكن الضعيف منه ما يقبل الجبر، ومنه ما لا يقبل الجبر بحال، فتوقفت معرفة الحسن لغيره على معرفة ما يقبل الجبر من الضعيف ـ ويسمى عندهم ما يعتبر به أي حديث يكتب للاعتبار به في المتابعات والشواهد ـ ومعرفة ما لا يقبل الجبر منه ـ ويسمى عندهم ما لا يعتبر به.
ينظر: «**الغيث المستغيث**» ص: (٣٤، ٣٥).

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٦٣) برقم: (١٤٤٦٧ ـ ١٤٤٦٨ ـ ١٤٤٦٩ ـ ١٤٤٧٣ ـ ١٤٤٧٤)، وابن عطية (٢/ ٣٩١)، والبغوي (٢/ ١٥٥)، وابن كثير (٢/ ٢٠٨)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٦٤) برقم: (١٤٤٧٨) وبرقم: (١٤٤٧٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٩١)، والبغوي (٢/ ١٥٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ١٤٣)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

شَرْعُ القبلة والتزامها.

وقيل: أراد الأمر بإحضار النية لله في كُلِّ صَلاَةٍ، والقصد نحوه، كما تقول: وَجَّهْتُ وَجْهِي لله قاله الربيع[(١)].

وقيل: المراد إبَاحَةُ الصلاة في كُلِّ موضع من الأرض، أي: حيث ما كنتم فهو مَسْجِدٌ لكم تلزمكم عند الصَّلاَةِ إقامة وجوهكم فيه لله عز وجل. وقوله سبحانه: ﴿كما بدأكم تَعُودُونَ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ، وقتادة، ومجاهد: المعنى: كما أوجدكم، واخترعكم، كذلك يعيدكم بعد الموتِ[(٢)] والوقف على هذا التأويل تعودون و«فريقاً» نصب بـ «هدى» والثاني منصوب بِفِعْلٍ تقديره: وعذب فريقاً.

١٨٧ ب وقال جابر بن عبد اللَّه/ وغيره: وروي معناه عن النبي ﷺ أن المُرَادَ الإعلام بأن مَنْ سَبَقَتْ له من اللَّه الحُسْنَى، وكتب سعيداً كان في الآخِرَةِ سَعِيداً، ومن كتب عليه أنه من أَهْلِ الشَّقَاءِ، كان في الآخرة شَقِيًّا، ولا يتبدَّل من الأمور التي أحكمها وَدَبَّرَهَا، وأنفذها شيء، فالوقف في هذا التأويل في قوله: ﴿تعودون﴾ غير حسن و﴿فريقاً﴾ على هذا التأويل نصب على الحال، والثاني عطف على الأول.

﴿ويحسبون أنهم مُهْتَدُونَ﴾ معناه: يظنُّونَ.

قال الطبري[(٣)]: وهذه الآية دَلِيلٌ على خَطَإِ من زَعَمَ أن اللَّه لا يعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها على عِلْمٍ منه بموضع الصواب.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يا بني آدم خُذُوا زينتكم عند كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية: هذا خطاب عَامٌّ لجميع العالم كما تقدم، وأمروا بهذه الأَشْيَاءِ بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مُشْرِكِي العَرَبِ فيها، والزينة الثياب الساترة. قاله مجاهد وغيره[(٤)]. و﴿عند كل مَسْجِدٍ﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٦٥) برقم: (١٤٤٨٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٩١)، وابن كثير (٢/ ٢٠٨) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٩٦٧) برقم: (١٤٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٩٢)، والبغوي (٢/ ١٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٦٩).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٤٧٠) برقم: (١٤٥٢٠ ـ ١٤٥٢١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٩٢)، والبغوي (٢/ ١٥٧)، وابن كثير (٢/ ٢١٠)، والسيوطي (٣/ ١٤٥) بنحوه.

أي: عند كل مَوْضِعِ سُجُودٍ، فهي إشارة إلى الصلوات، وستر العورة فيها.

* ت *: ومن المستحسن هنا ذكر شيء مما جاء في اللِّبَاسِ، فمن أحسن الأحاديث في ذلك، وأصحها ما رواه مالِكٌ في «**الموطأ**» عن أبي سَعيدٍ الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أُزْرَةَ المُؤمِنِ إلى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ لا جُنَاحَ عليه فيما بينه وبَيْنَ الكَعْبَيْنِ، ما أَسْفَلَ من ذَلِكَ ففي النَّارِ» قال ذلك ثلاث مرات: «لاَ يَنْظُرُ اللّه عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَنْ جَرَّ إزَارَهُ بَطَراً»(١).

وحدث أبو عمر في «**التمهيد**» بسنده عن ابن عُمَرَ قال: فيما قال رسول الله ﷺ في الإزَارِ فهو في القَمِيصِ يعني ما تَحتَ الكَعْبَيْنِ من القَمِيصِ في النار(٢)، كما قال في الإزارِ، وقد روى أبو خيثمة زهير بن مُعَاوِيَةَ(٣) قال: سمعت أبا إسْحَاقَ السبيعي يقول: أدركتهم وقمصهم إلى نِصْفِ الساق أو قريب من ذلك، وكُمُّ أحدهم لا يُجَاوِزُ يَدَهُ انتهىٰ. وروى أبو داود عن أسماء بنت يَزِيدَ قالت: كانت يَدُ كُمِّ قَمِيصِ رسول الله ﷺ إلى الرّسْغ(٤)، وأما أحبُّ اللِّبَاسِ فما رواه أبو داود عن أم سلمة؛ قالت: كان أحبّ الثياب إلى رَسُولِ

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩١٤ ـ ٩١٥): كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، حديث (١٢)، وأبو داود (٢/ ٤٥٧) كتاب «اللباس»، باب: في قدر موضع الإزار، حديث (٤٠٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١١٨٣): كتاب «اللباس»، باب: موضع الإزار أين هو؟، حديث (٣٥٧٣) من طريق العلاء بن عبد الرحمٰن، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) روي هذا المعنى أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أسفل الكعبين من الإزار فهو في النار». أخرجه البخاري (١٠/ ٢٦٨)، في كتاب «اللباس»، باب: «ما أسفل من الكعبين فهو في النار» (٥٧٨٧)، والنسائي في «**المجتبى**» (٨/ ٢٠٧)، في كتاب: «الزينة»، وابن ماجه (٣٥٧٣)، وأحمد في «**المسند**» (٢/ ٤٦١)، (٥/ ٩)، وابن أبي شيبة في «**المصنف**» (٨/ ٢٠٤).

(٣) زهير بن معاوية بن حُدَيْج بضم المهملة الأولى مصغراً، وآخره جيم ابن الرُّحَيْل بجيم مصغراً ابن زُهَيْر بن خَيْثَمَةَ الجُعْفِي أبو خَيْثمة الكُوفي أحد الحفاظ والأعلام. عن سِمَاك بن حَرْب والأَسْوَد بن قَيْس، وزياد بن عِلاَقَة، وأبي الزُّبَيْر، وخلق، وعنه القطَّان، وابن مَهْدِي، وأبو نُعَيْم، والأسود بن عامر، وعمر بن خالد، وخلق.
قال شعيب بن حرب: زهير أحفظ من عشرين مثل شعبة.
وقال أحمد: زهير ثبت سمع من أبي إسحاق بآخره.
قال الخطيب: حدث عنه ابن جريج، وعبد الغفار الحراني، وبين وفاتيهما بضع وستون سنة، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة، ومولده سنة مائة.
ينظر: «**الخلاصة**» (١/ ٣٤٠)، «**تهذيب الكمال**» (١/ ٤٣٦)، «**تهذيب التهذيب**» (٣/ ٣٥١)، «**الكاشف**» (١/ ٣٢٧)، «**الثقات**» (٦/ ٣٣٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٤١): كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (٤٠٢٧).

اللَّه ﷺ القميص[(١)]. انتهى.

وجاء في المُسْبِلِ وَعيدٌ شديد؛ وعنه ﷺ أنه قال لرجل أَسْبَلَ إزاره: «إن هذا كان يصلي وهو مُسْبِلٌ إِزَارَهُ وإن اللَّه لا يَقْبَلُ صَلاَةَ رَجُلٍ مسبل إزاره» رواه أبو داود[(٢)]. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ إباحة لما التزموه من تَحْرِيمِ اللحم، والودك[(٣)] في أيام المواسم. قاله ابن زَيْدٍ وغيره، ويدخل في ذلك[(٤)] البَحِيرَةُ والسائبة، ونحو ذلك نصّ على ذلك قَتَادَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تُسْرِفُوا﴾ معناه: لا تفرطوا. قال أهل التأويل: يريد تُسْرِفُوا بأن تحرموا ما لم يُحَرِّمِ اللَّه عز وجل واللفظة تَقْتَضِي النهي عن السَّرَفِ مُطْلَقاً، ومن تَلَبَّسَ بفعلٍ مباح، فإن مشى فيه على القَصْدِ، وأوسط الأمور، فحسن، وإن أَفْرَطَ جعل أيضاً من المسرفين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٤٠) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (٤٠٢٥، ٤٠٢٦)، والترمذي (٤/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (١٧٦٢)، وفي «**الشمائل**» رقم: (٥٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٨٣) كتاب «اللباس»، باب: لبس القميص، حديث (٣٥٧٥)، وأحمد (٦/ ٣١٧)، وعبد بن حميد في «**المنتخب من المسند**» برقم: (١٥٤٠)، وأبو يعلى (١٢/ ٤٤٥) رقم (٧٠١٤)، وأبو الشيخ في «**أخلاق النبي**» ص: (١٠٠)، والطبراني في «**الكبير**» (٢٣/ ٤٢١) برقم: (١٠١٨)، والحاكم (٤/ ١٩٢)، والبيهقي (٢/ ٢٣٩)، والبغوي في «**شرح السنة**» (٦/ ١٤٦ ـ بتحقيقنا). كلهم من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد اللَّه بن بريدة، عن أم سلمة به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث عبد المؤمن بن خالد، تفرد به وهو مروزي، وروى بعضهم هذا الحديث عن أبي تميلة عن عبد المؤمن بن خالد، عن عبد اللَّه بن بريدة، عن أمه، عن أم سلمة.

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٢٢٨) كتاب «الصلاة»، باب: الإسبال في الصلاة، حديث (٦٣٨)، وفي (٢/ ٤٥٥) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في إسبال الإزار، حديث (٤٠٨٦)، والبيهقي (٢/ ٢٤١) كتاب «الصلاة»، من حديث أبي هريرة، وهذا الحديث لم يخرجه سوى أبي داود من أصحاب الكتب الستة.

(٣) الوَدَك: دسم اللحم، ودهنه الذي يستخرج منه.
ينظر: «**النهاية**» (٥/ ١٦٩).

(٤) البحيرة: أنهم كانوا إذا ولدتْ إبلهم سَقْباً (يعني ولد الناقة) بحروا أذنه: أي شقوها، وقالوا: اللَّهم إن عاش ففتيّ وإن مات فذكي، فإذا مات أكلوه وسموه البحيرة، وقيل: البحيرة: هي بنت السائبة، كانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو ضيف، وتركوها مُسَيَّبَة لسبيلها وسموها السائبة، فما ولدت بعد ذلك من أنثى شقوا أذنها، وخلوا سبيلها، وحرم منها ما حرم من أمها، وسموها البحيرة.
ينظر: «**النهاية**» (١/ ١٠٠).

وقال ابن عَبَّاس في هذه الآية: أحلَّ اللَّه الأكل والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مخيلة[١].

قال ابن العربي[٢]: قوله تعالى: ﴿وكلوا وَٱشْرَبُوا وَلاَ تَسْرِفُوا﴾ الإِسْرَافُ تَعَدِّي الحد، فنهاهم سبحانه عن تعدي الحَلاَل إلى الحرام.

وقيل: لا يزيد على قَدْرِ الحاجة، وقد اختلف فيه على قولين؛ فقيل/ حرام. ١٨٨ أ

وقيل: مكروه، وهو الأصح.

فإن قدر الشبع يختلف باختلاف البُلْدَانِ، والأَزْمَانِ، والإِنسان، والطعمان. انتهى من «**أحكام القرآن**».

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه التي أَخْرَجَ لعباده﴾ أي: قل لهم على جِهَةِ التوبيخ. وَزِينَةُ اللَّه هي ما حَسَّنته الشَّرِيعَةُ، وقررته، وزِينَةُ الدنيا كل ما اقتضته الشَّهْوَةُ، وطلب العلو في الأرض كالمَالِ والبنين.

و﴿الطَّيباتُ﴾ قال الجمهور: يريد المُحَلّلات.

وقال الشافعي وغيره: هي المُسْتَلَذَّاتُ أي: من الحلال، وإنما قاد الشَّافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوَزَغِ[٣] ونحوهَا، فإنه يقول: هي من الخَبَائِث.

* ت *: وقال مكي: المعنى قل مَنْ حَرَّمَ زينة اللَّه، أي: اللِّبَاس الذي يزين الإنسان بأن يستر عَوْرَتهُ، ومن حرم الطيبات من الرزق المُبَاحَةِ.

وقيل عنى بذلك ما كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ تحرمه من السوائب والبَحَائِر. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قل هي لِلَّذِينَ آمنوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يوم القيامة﴾ قال ابن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٧٢) برقم: (١٤٥٣٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٩٣)، وابن كثير (٢/ ٢١٠)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ١٤٦).

(٢) ينظر: «**الأحكام**» (٢/ ٧٨١).

(٣) الوزغ: دويبة، وهي سوامُ أبْرَص.
ينظر: «**اللسان**» (٤٨٢٦).

جُبَيْرٍ: المعنى: قل هي للذين آمَنُوا في الحَيَاةِ الدنيا يَنْتَفِعُونَ بها في الدُّنْيَا، ولا يتبعهم إثمها يوم القِيَامَةِ[1].

وقال ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغيرهم: المعنى هو أن يخبر ﷺ أن هذه الطِّيبات المَوْجُودَاتِ هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا، وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي: لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة[2].

وقرأ نافع[3] وحده «خالصةٌ» بالرفع، والباقون بالنَّصب.

وقوله سبحانه: ﴿كذلك نُفَصِّل الآيات لقوم يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما فَصَّلنا هذه الأشياء المتقدمة الذِّكر ﴿نُفَصِّل الآيات﴾ أي: نبين الأمَارَاتِ، والعَلاَمَاتِ، والهِدَايَاتِ لقوم لهم علم ينتفعون به.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿قل إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها وَمَا بَطَنَ...﴾ الآية: لما تقدم إنكار ما حرمه الكُفَّار بآرائهم أتبعه بذِكْرِ ما حرم الله عز وجل.

والفَوَاحِشُ في اللغة ما فَحُشَ وشنع، وأصله من القُبْحِ في النظر، وهي هنا إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه، فكل ما حرمه الشَّرْعُ، فهو فاحش، والإثم لفظ عام في جَمِيعِ الأفعال والأقوال التي يَتَعَلَّقُ بمرتكبها إثم. هذا قول الجمهور.

وقال بعض الناس: هي الخَمْرُ وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مَكيّة، وإنما حرمت الخَمْرُ بـ «المدينة» بعد أُحد ﴿والبَغْي﴾ التعدي، وتجاوز الحد.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حرم البَحِيرَةَ والسائبة ونحوه.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٧٥) برقم: (١٤٥٥٦)، وابن عطية (٢/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ـ ٤٧٥) برقم: (١٤٥٤٦ ـ ١٤٥٥٥)، وذكر البغوي (٢/ ١٥٧) بنحوه، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ١٥٠).

(٣) والتقدير على قراءة الرفع أي: هي خالصة للذين آمنوا.
ينظر: **«السبعة»** (٢٨٠) و**«الحجة»** (٤/ ١٣)، و**«حجة القراءات»** (٢٨١)، و**«العنوان»** (٩٥) و**«إعراب القراءات»** (١/ ١٨٠)، و**«شرح الطيبة»** (٤/ ٢٩٤)، و**«شرح شعلة»** (٣٨٨)، و**«إتحاف فضلاء البشر»** (٢/ ٤٧) و**«معاني القراءات»** (١/ ٤٠٤).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولكل أمة أَجَلٌ فإذا جاء أجلهم لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ المعنى: ولكل أمة أجل مُؤَقَّت لمجيء العَذَابِ إذا كفروا، وخالفوا أَمْرَ ربهم، فأنتم أيتها الأمة كذلك. قاله الطبري(١) وغيره.

وقوله: ﴿ساعة﴾ لفظ عين به الجزء القليل من الزمان، والمراد جميع أجزائه، والمعنى: لا يستأخرون سَاعَة، ولا أقل منها، ولا أكثر.

وقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رُسُلٌ منكم يَقُصُّونَ عليك آيَاتِي فمن اتَّقَى وَأَصْلَحَ فلا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُونَ * والذين كذبوا بآياتنا واسْتَكْبَرُوا عنها أولئك / أَصْحَابُ النار هم فيها خَالِدُونَ﴾ الخِطَابُ في هذه الآية لجميع العالم، و«إن» هي ١٨٨ ب
الشرطية دخلت عليها «ما» مؤكدة، وكان هذا الخطاب لجميع الأُمم قَدِيمِها وحَدِيثِهَا هو متمكن لهم، ومتحصَّل منه لحاضري نبينا محمد ﷺ أن هذا حُكْمُ اللَّه في العالم منذ أنشأه، ﴿ويأتينكم﴾ مستقبل وُضِعَ موضع ماضٍ ليفهم أن الإتيان بَاقٍ وَقْتَ الخطاب، لِتَقْوَى الإشارة بصِحَّةِ النبوءة إلى نبينا محمد ﷺ وهذا على مُرَاعَاةِ وَقْتِ نزول الآية.

وأسند الطَّبَري إلى أبي سَيَّارٍ السُّلمي قال: «إن اللَّه سبحانه خَاطَبَ آدم وذُريته، فقال: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رُسُلٌ منكم...﴾ الآية: قال: ثم نَظَر سبحانه إلى الرُّسُل، فقال: ﴿يأيها الرسل كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ واعْملُوا صَالِحاً إني بما تَعْمَلُونَ عليم وإنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا رَبُّكُمْ فاتقون...﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]» الحديث(٢).

قال * ع *(٣): ولا مَحَالَةَ أن هذه المُخَاطَبَة في الأزل.

وقيل: المراد بالرسل نبينا محمد ﷺ ذَكَرَهُ النقاش ﴿ويقصون﴾ أي: يسردون، ويوردون، «والآيات» لَفظٌ جامع لآيات الكُتُب المنزلة، وللعلامات التي تقترن بالأنبياء، ونفي الخوف والحزن يعم جَمِيعَ أنواع مَكَارِهِ النَّفس وأَنْكَادِهَا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٧٦).
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٧٧) برقم: (١٤٥٦٠) من حديث أبي سيار السلمي، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٥٣) وعزاه لابن جرير.
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٩٦).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿فمن أظلم ممن افْتَرَىٰ على الله كَذِباً أو كَذَّبَ بآياته. . .﴾ الآية: هذه الآية وَعِيدٌ واستفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، والكتاب هو اللوح المَحْفُوظُ في قول الحَسَنِ وغيره.

وقيل: ما تكتبه الحَفَظَةُ، ونصيبهم من ذلك هو الكُفْرُ وَالمَعَاصي. قاله مجاهد، وغيره.

وقيل: هو القرآن، وحَظُّهم فيه سَوَادُ الوجوه يوم القيامة.

وقال الربيع بن أنس، وغيره: المعنى بالنصيب مَا سَبَقَ لهم في أُم الكتاب من رِزْق، وعمر، وخير، وشر في الدنيا، ورجحه[1] الطبري.

واحتج له بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿حَتَّى إِذَا جاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاء ذلك، فكان معنى الآية على هذا التأويل: أولئك يتمتعون، ويتصرَّفُونَ في الدنيا بِقَدْرِ ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رُسُلنا لموتهم؛ وهذا تأويل جَمَاعَةٍ، وعلى هذا يترتَّبُ ترجيحُ الطبري.

وقالت فرقة: ﴿رسلنا﴾ يريد بهم مَلاَئِكَةَ العَذَابِ يوم القيامة، ﴿ويتوفونهم﴾ معناه عندهم يستوفونهم عَدَداً في السوق إلى جهنم.

وقوله سبحانه حكايةً عن الرسل ﴿أَيْنَ مَا كُنتُم تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير، وتوبيخ، وتوقيف على خِزْيٍ، ﴿وتدْعون﴾ معناه: تعبدون، وتؤمِّلُون.

وقولهم: ﴿ضلُّوا عنا﴾ معناه: هلكوا، وتلفوا، وفقدوا.

ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كَافِرينَ﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٨١).

فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله سبحانه: ﴿قال ادْخُلُوا في أمم قد خَلَتْ من قبلكم من الجنِّ والإِنْس في النَّارِ﴾ هذه حكاية ما يَقُولُ اللّه سبحانه لهم يَوْمَ القيامة، بواسطة ملائكة العَذَابِ، نسأل اللّه العافية. وعبر عن يقول بـ «قال» لتحقُّق وقوع ذلك، وصدق القصة، وهذا كثير، و﴿خلت﴾ حكاية عن حَالِ الدنيا، أي: ادخلوا في النَّار في جملة الأمم السابقة لكم في الدنيا الكافرة.

* ت *: وكذا قدره[1] أبو حَيَّانَ في جملة «أمم»، قال: وقيل: «في» بمعنى «مع» أي: مع أمم، وتقدم له في «البقرة» أن «في» تجيء للمُصَاحَبَةِ، كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا في أمم قد خَلَتْ﴾ انتهى.

وقدم ذِكْرَ الجن؛ لأنهم أَعْرَقُ/ في الكفر، وإبليس أَصْلُ الضلال والإغواء، وهذه ١٨٩أ
الآية نص في أن كفرة الجنّ في النار، والذي يقتضيه النظر أن مُؤمنيهم في الجَنَّةِ؛ لأنهم عُقَلاءُ، مُكَلَّفُونَ، مبعوث إليهم، آمنوا وصدقوا، وقد بَوَّب البخاري رحمه اللّه باباً في ذِكْرِ الجن، وثوابهم، وعقابهم.

وذكر عبد الجليل: أن مؤمني الجن يكونون تُرَاباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثاً مجهولاً، وما أراه يصحُّ. واللّه أعلم. والإِخْوَةُ في هذه الآية إِخْوَةُ الملة.

قال * ص *: في «النار» متعلق بـ «خَلَتْ»، أو بمحذوف، وهو صفة لـ «أمم» أي: في أمم سابقة، في الزمان كائنة، من الجن والإنس كائنة في النار، ويحتمل أن يتعلق بـ «ادخلوا» على أن «في» الأولى بمعنى «مع»، والثانية للظرفية، وإذا اختلف مَدْلُول الحرفين، جاز تعلقهما بمحلٍّ واحد. انتهى.

﴿واداركوا﴾ معناه: تلاحقوا، أصله: تداركوا أدغم، فجلبت ألف الوَصْل.

وقال البخاري: ﴿ادَّارَكُوا﴾ اجتمعوا. انتهى. وقوله سبحانه: ﴿قالت أُخْرَاهُمْ لأُولاهم﴾ معناه: قالت الأمم الأخيرة التي وجدت ضلالات متقررة، وسنناً كاذبةً مستعملة للأولى التي شرعت ذلك، وافترت على اللّه، وسَلَكَتْ سبيل الضَّلال ابتداءً ﴿رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونا﴾، أي: طرقوا لنا طُرُقَ الضلال، ﴿قال لكل ضعف﴾ أي: عذاب مشدَّد على الأول والآخر ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أي المقادير، وصور التضعيف.

---

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٢٩٧).

قوله سبحانه: ﴿وقالت أولاهم لأُخْرَاهُمْ فما كَانَ لكم علينا من فَضْلٍ﴾ أي: قد اسْتَوَتْ حالنا وحالكم ﴿فذوقوا العَذَابَ﴾ باجْتِرَامِكُمْ، وهو من كلام الأمة المتقدمة للمتأخّرة.

وقيل: قوله: ﴿فذوقوا﴾ هو من كَلاَمِ اللّه عز وجل لجميعهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا وَاسْتَكْبَرُوا عنها لا تفتح لهم أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة﴾ الآية، هذه الآية عامة في جميع الكَفَرَةِ قديمهم وحديثهم.

قرأ نافع[١] وغيره: «تُفَتَّح» بتشديد التاء الثانية، **وقرأ** أبو عمرو: «تُفْتَح» بالتاء أيضاً وسكون الفاء، وتخفيف الثانية، وقرأ حمزة «يفتح» بالياء من أسفل، وتخفيف التاء، ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عَمَلٌ، ولا روح، ولا دعاء، فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين. قاله ابن عباس، وغيره.

ثم نفى سبحانه عنهم دُخُولَ الجنة، وعلق كونه بِكَوْنٍ محال، وهو أن يدخل الجمل في ثُقْبِ الإبرة حيث يدخل الخَيْطُ، والجمل كما عهد، والسَّمّ كما عهد، **وقرأ** جمهور[٢] المسلمين «الجمل» واحد الجمال، **وقرأ** ابن عباس وغيره[٣] «الجُمّل» بضم الجيم وتشديد الميم، وهو حَبْلُ السفينة[٤] والسَّمُّ: الثقب من الإبرة وغيرها، و﴿كذلك﴾ أي: وعلى هذه

---

(١) والتشديد أي: مرة بعد مرة. وحجة هؤلاء قوله تعالى: ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ [ص: ٥٠].
ينظر: «**السبعة**» (٢٨٠)، و«**الحجة**» (٤/ ١٨)، و«**حجة القراءات**» (٢٨٢)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ١٨٠)، و«**العنوان**» (٩٥)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٢٩٤)، و«**شرح شعلة**» (٣٨٨)، و«**إتحاف فضلاء البشر**» (٢/ ٤٨)، و«**معاني القراءات**» (١/ ٤٠٥).

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٠٠)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٣٠٠)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٢٦٩).

(٣) وقرأ بها سعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وأبي العلاء بن الشِّخير، ورويت عن أبي رجاء.
ينظر: «**الشواذ**» (٤٨)، و«**المحتسب**» (١/ ٢٤٩)، و«**الكشاف**» (٢/ ١٠٣)، و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٠٠)، وزاد نسبتها إلى عكرمة، وينظر: «**البحر المحيط**» (٤/ ٣٠٠)، وزاد في نسبتها إلى ابن يعمر، وأبي مجلز، وأبي رزين، وابن محيصن، وأبان عن عاصم، وينظر: «**الدر المصون**» (٣/ ٢٧٠).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٤٨٧)، وابن كثير (٢/ ٢١٤)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ١٥٧).

الصفة، وبمثل هذا الحتم، وغيره نجزي الكفرة وأهل الجَرَائِمِ على اللَّه.

﴿لهم من جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، ومسكن، ومضجع يتمهَّدُونه، وهي لهم غَوَاشٍ جمع غاشية، وهي ما يَغْشَى الإنسان أي: يغطيه، ويستره من جهة فَوْق.

وقوله سبحانه: ﴿لا نكلف نَفْساً إلا وُسْعَها أولئك أصحاب الجَنَّةِ هم فيها خَالِدُونَ﴾ هذه آية وعد مخبرةٌ أن جميع المؤمنين هم أَصْحَابُ الجنة، ولهم الخُلْدُ فيها، ثم اعترض فيها القَوْل بعقب الصِّفَةِ التي شرطها في المؤمنين باعتراض يُخَفِّفُ الشرط، ويرجي في رحمة اللَّه، ويعلم أن دينه يُسْر، وهذه الآية نصٌّ في أن الشريعة لا يَتَقَرَّرُ من تكاليفها شَيْءٌ لا يُطَاقُ، وقد / تقدم ذلك في «سورة البقرة». ١٨٩ ب

«والوُسْعُ» معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يَتَّسِعُ له البشر.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونزعنا ما في صُدُورِهِمْ من غِلٍّ﴾ هذا إخبار من اللَّه عز وجل أنه ينقي قُلُوبَ ساكني الجنة من الغِلِّ، والحِقْدِ، وذلك أن صاحب الغل مُعَذَّبٌ به، ولا عذاب في الجَنَّةِ.

وورد في الحديث: «الغلُّ على بَابِ الجنة كَمَبَارِكِ الإِبِلِ قد نَزَعَهُ اللَّه من قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ»[(١)].

والغل: الحِقْدُ والإِحنة الخَفِيَّةُ في النفس. ﴿وقالوا الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذا﴾ الإشارة بـ «هذا» يتجه أن تكون إلى الإيمان، والأعمال الصالحات المؤدية إلى الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نَفْسِهَا، أي: أرشدنا إلى طرقها.

وقرأ ابن عامر[(٢)] وَحْدَهُ: «ما كنا لنهتدي» بسقوط الواو، وكذلك هي في مَصَاحِف أهل «الشام»، ووجهها أن الكَلاَمَ مُتَّصِلٌ، مرتبط بما قبله.

ولما رأوا تصديق ما جاءت به الأنبياء عن اللَّه سبحانه، وَعَايَنُوا إنجاز المواعيد قالوا:

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٠٨).

(٢) ينظر: «شرح طيبة النشر» (٤/ ٢٩٥)، و«شرح شعلة» (٣٨٩)، و«العنوان» (٩٥)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٠٧)، و«إتحاف» (٢/ ٤٩).

﴿لقد جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالحَقِّ ونُودُوا﴾ أي: قيل لهم بِصِيَاحٍ، وهذا النداء من قِبَلِ اللّه، «وأن» مفسرة لمعنى النداء، بمعنى: أي.

وقوله: ﴿بما كنتم تعملون﴾ لا على طَرِيق وجوب ذلك على اللّه تعالى لكن بقرينة رحمته، وتغمده، والأعمال أمارة من اللّه سبحانه وطريق إلى قوة الرَّجَاء، ودخولُ الجَنَّة إنما هو بِمُجَرَّدِ رحمته، والقَسْمُ فيها على قدر الأعمال. «وأورثتم» مشيرة إلى الأَقْسَام.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونادى أصحاب الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أن قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنا حَقًّا...﴾ الآية.

هذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تَقْرِيعٌ، وتوبيخ، وزيادة في الكَرْبِ، وهو بأن يشرفوا عليهم، ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّن بينهم﴾ أي: أعلم معلم، والظالمون هنا هم الكافرون.

* ت *: حكي عن غير وَاحِدٍ أن طاوس دخل على هشام بن عبد الملِكِ[(١)] فقال له: اتّقِ الله، واحْذَرْ يوم الأذان، فقال: وما يوم الأذان؟ فقال قوله تعالى: ﴿فأذَّنَ مُؤَذِّن بينهم أَنْ لَعْنَةُ اللّه على الظَّالِمِينَ﴾ فصعق هشام، فقال طاوس: هذا ذُلُّ الوَصْفِ، فكيف ذل المُعَايَنَةِ انتهى.

﴿ويبغونها عِوَجاً﴾ أي: يطلبونها، أو يطلبون لها، والضمير في ﴿يبغونها﴾ عائد على السَّبيل.

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ، خرج عليه زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٠هـ بأربعة عشر ألفاً من أهل الكوفة، فوجه إليه من قتله وفَلَّ جمعه، نشبت في أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك في ما وراء النهر، كان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. ولد سنة ٧١هـ، وتوفي في سنة ١٢٥هـ.
انظر: «ابن الأثير» (٥/ ٩٦) «الطبري» (٨/ ٢٨٣)، «اليعقوبي» (٣/ ٥٧)، «ابن خلدون» (٣/ ٨٠)، «الأعلام» (٨/ ٨٦).

وقوله سبحانه: ﴿وبينهما حِجَابٌ وعلى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يعرفون كُلاً بِسِيمَاهُمْ﴾.

﴿وبينهما﴾: أي: بين الجنة والنار، ويحتمل بين الجَمْعَيْنِ، والحِجَابُ هو السور الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿فَضُرِبَ بينهم بِسُورٍ لهُ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣].

قال ابن عباس، وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار(١).

وقال ابن عباس أيضاً: هو تَلٌّ بين الجنة والنار(٢).

وذكر الزَّهْرَاوِيُّ حديثاً أن رَسُولَ اللَّه ﷺ قال: «إن أُحُداً جَبَلٌ يحبنا ونحبُّه، وإنَّه يَوْمَ القِيَامَةِ يمثلُ بينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَحْتَبِسُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ، يعرفون كُلاً بِسِيماهُمْ، هُمْ إِن شَاءَ اللَّه من أَهْلِ الجَنَّةِ»(٣).

والأعراف جمع عرف، وهو المرتفع من الأرض، ومنه عُرْفُ الفرس، وعرف الديك لعلوِّهمَا.

وقال بعض الناس: سُمِّيَ الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

قال * ع(٤) *: وهذه عُجْمَةٌ، وإنما المراد على أعراف ذلك الحِجَاب، أي أعاليه.

وقوله: ﴿رجال﴾ قال الجمهور: إنهم رِجَالٌ من البَشَرِ، ثم اختلفوا في تعيينهم، فقال شرحبيل بن سَعْدٍ: هم المستشهدون في سَبِيلِ اللَّه الذين خَرَجُوا عُصَاةً لآبائِهِم(٥).

١٩٠ أ وذكر الطَّبَرِيُّ في ذلك / حَدِيثاً عن النبي ﷺ وأنه تعادل عُقُوقُهم، واستشهادهم(٦).

وقال ابن عباس، وغيره: هم قوم اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وسيئاتهم(٧)، ووقع في «مسند

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٩٨) برقم: (١٤٦٨٧)، (١٤٦٨٨) وبرقم: (١٤٦٨٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٤)، وابن كثير (٢/ ٢١٦)، وذكره السيوطي (٣/ ١٦٠)، (٣/ ١٦١).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٩٨) برقم: (١٤٦٨٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٤)، وابن كثير (٢/ ٢١٦)، والسيوطي (٣/ ١٦١).

(٣) الحديث بهذا اللفظ لم أجده أما قوله ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه» فثابت من قول النبي ﷺ.

(٤) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٢/ ٤٠٤).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٥٠١) برقم: (١٤٧١١)، وابن عطية (٢/ ٤٠٤)، والبغوي (٢/ ١٦٢) بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري في **«تفسيره»** (٥/ ٥٠١) برقم: (١٤٧١٣) والحديث ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ١٦٣)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأحمد بن منيع، والحارث بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب **«الأضداد»**، والخرائطي في **«مساوىء الأخلاق»**، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في **«البعث»**.

(٧) أخرجه الطبري (٥/ ٥٠٠) برقم: (١٤٧٠٠ - ١٤٧٠٥ - ١٤٧٠٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٤)، والبغوي (٢/ ١٦٢)، وابن كثير (٢/ ٢١٦)، والسيوطي (٣/ ١٦٣).

خيثمة(١) **بن سليمان»** في آخر الجزء الخامس عشر عن جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّه؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ يوم القيامة، فتوزن الحَسَنَاتُ والسَّيِّئَاتُ، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ على سيئاته مِثْقَالَ صُؤَابَةٍ دخل الجَنَّةَ، ومن رَجَحَتْ سيئاته على حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ صُؤَابَةٍ دخل النار. قيل: يا رَسُولَ اللَّه؛ فمن استوت حَسَنَاتُهُ وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأَعْرَافِ لم يَدْخُلوها وهم يَطْمَعُون»(٢).

وقيل غير هذا من التَّأويلات.

قال ع(٣): واللازم من الآية أن على أعراف ذلك السُّور، أو على مواضع مرتفعة عن الفَرِيقَيْنِ حيث شاء اللَّه تعالى رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يتأخر دخولهم، ويقع لهم ما وصف من الاعتبار.

و﴿يعرفون كلاً بسِيمَاهُمْ﴾، أي: بِعَلاَمَاتِهِمْ من بياض الوجوه، وحُسْنِهَا في أهل الجنة، وسَوَادِهَا وقبحها في أهل النَّارِ إلى غير ذلك في حَيِّزِ هؤلاء، وحيز هؤلاء.

وقوله: ﴿لم يَدْخُلوهَا وهم يَطْمَعُونَ﴾ المراد به: أهل الأعراف فقط، وهو تأويل ابن مَسْعُودٍ، والسدي، وقتادة، والحسن(٤) وقال: واللَّه ما جعل اللَّه ذلك الطَّمَعَ في قلوبهم إلا لخير أَرَادَهُ بهم.

قال * ع(٥) *: وهذا هو الأظهر الأليق مما قيل في هذه الآية، ولا نَظَرَ لأَحَدٍ مع قول النبي ﷺ.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

---

(١) الإمام الثِّقة المُعَمَّر، محدِّث الشَّام، أبو الحسن، خَيْثَمَةَ بن سليمان بن حَيْدَرة بن سليمان، القُرَشي، الشَّامي، الأَطْرَابُلُسي، مصنِّف **«فضائل الصَّحابة»**.
كان رحَّالاً جَوَّالاً صاحب حديث. وثَّقه الخطيب، وقال: ثقة ثقة.
ينظر: **«سير أعلام النبلاء»** (١٥/ ٤١٢ ـ ٤١٣)، **«العبر»** (٢/ ٢٦٢)، **«النجوم الزاهرة»** (٣/ ٣١٢).

(٢) ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ١٦٢)، وعزاه إلى ابن عساكر، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٢/ ٤٠٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٥).

(٥) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٢/ ٤٠٥).

وقوله سبحانه: ﴿وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصار أصحاب الأعراف، فهم يسلمون على أصحاب الجنة، وإذا نظروا إلى النار، وأهلها، قالوا: ﴿ربنا لا تَجْعَلْنَا مع القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قاله ابن عباس[١]، وجماعة من العلماء.

وقوله سبحانه: ﴿ونادى أَصْحَابُ الأعراف رجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بسيماهم﴾ يريد من أهل النار.

﴿ما أغنى عنكم جَمْعُكُمْ﴾ «ما» استفهام بمعنى التَّقْرِيرِ، والتوبيخ، و«ما» الثانية مصدرية، و«جمعكم» لفظ يعم المال والأَجْنَادَ والخَوَلَ.

وقوله سبحانه: ﴿أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللّه بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ أهل الأعراف هم القائلون: «أهؤلاء» إشارة إلى أهل الجنة، والذين خوطبوا هم أهل النار، والمعنى: أهؤلاء الضُّعَفَاء في الدنيا الذين حَلَفْتُمْ أن اللّه لا يَعْبَؤ بهم، قيل لهم: ادخلوا الجنة.

وقال النقاش: أقسم أَهْلُ النَّارِ أن أصحابَ الأعراف داخلون النَّارَ[٢] معهم، فنادتهم المَلاَئِكَةُ: أهؤلاء، ثم نادت أصحاب الأَعْرَافِ: ادخلوا الجنة.

وقرأ عكرمة[٣]: «دخلوا الجَنَّة» على الإِخْبَارِ بفعل مَاضٍ.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أن أَفِيضُوا عَلَيْنَا من المَاء...﴾ الآية: لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وَقَعَ لهم علم بأن أهل الجَنَّة يسمعون نِدَاءَهُمْ،

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥٠٥) برقم: (١٤٧٤٣) بلفظ: «إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٥) بمثله، وابن كثير (٢/ ٢١٨) بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٦)، والبغوي (٢/ ١٦٣) بنحوه، والسيوطي (٣/ ١٦٦) بنحوه، وعزاه للربيع.

(٣) ينظر: «**الشواذ**» (٤٩)، و«**الكشاف**» (٢/ ١٠٧)، و«**المحتسب**» (١/ ٢٤٩)، و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٠٦)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٣٠٦)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٢٧٦).

وجائز أن يكون ذلك، وهم يرونهم بإدراك يجعله اللَّه لهم عَلَى بُعْدِ السُّفْلِ من العلو، وجائز أن يكون ذلك، وبينهم السُّورُ والحجاب المتقدم الذِّكْر.

وروي أن ذلك النداء هو عند اطِّلاَعِ أهل الجنة عليهم.

وقوله سبحانه: ﴿أو مما رَزَقَكم اللَّه﴾ إشارة إِلى الطعام. قاله السدي[١].

فيقول لهم أهل الجنة: إن اللَّه حَرَّمَ طعام الجَنَّةِ وشَرَابَهَا على الكافرين، وإجابة أهل الجنة بهذا الحُكْمِ هو عن أَمْرِ اللَّه تعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً﴾ أي بالإِعْرَاضِ والاستهزاء. بِمَنْ يدعوهم إلى الإسلام.

﴿وغرتهم الحَيَاةُ الدنيا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها، واعتقادهم أنها الغَايَةُ القصوى.

وقوله: ﴿فاليوم نَنسَاهُمْ﴾ هو من إخبار اللَّه عز وجل عما يَفْعَلُ بهم والنسيان هنا ١٩٠ب بمعنى التَّرْكِ، أي: نتركهم في العذاب، كما تركوا النَّظَر/ للقاء هذا اليوم. قاله ابن عباس[٢] وجماعة.

«وما كانوا» عطف على «ما» من قوله: «كما نسوا»، ويحتمل أن تقدر «ما» الثانية زائدة، ويكون قوله: و«كانوا» عَطْفاً على قوله: «نسوا».

وقوله سبحانه: ﴿ولقد جِئْنَاهُمْ بكتَابٍ﴾ الضمير في «جئناهم» لمن تَقَدَّم ذكره، و«الكتاب» اسم جنس، واللام في «لقد» لام قَسَم.

وقال يحيى بن سلام: بل الكلام تَمَّ في ﴿يجحدون﴾، وهذا الضمير لمكذبي نبينا مُحَمَّدٍ ﷺ[٣] وهو ابتداء كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن، و﴿على علم﴾ معناه: على بَصِيرَةٍ.

وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون﴾ أي ينتظرون ﴿إلا تأويله﴾، أي مآله وعاقبته يوم القيامة. قاله ابن عباس[٤] وغيره.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/٥٠٩) برقم: (١٤٧٥٧)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٦)، وابن كثير (٢/٢١٩)، والسيوطي (٣/١٦٦)، وعزاه للسدي.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٥١٠) برقم: (١٤٧٦٦ ـ ١٤٧٦٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٧)، وابن كثير (٢/٢١٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٤٠٧).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٥١٢) برقم: (١٤٧٧٥)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٨)، وابن كثير (٢/ ٢٢٠)، والسيوطي (٣/١٦٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال السدي: مآله في الدنيا وقعة بَدْرٍ وغيرها، ويوم القيامة[١] أيضاً، ثم أخبر تعالى أن مآل حال هذا الدين يوم يأتي يَقَعُ معه نَدَمُهُمْ، ويقولون تأسُّفاً على ما فاتهم من الإيمان: ﴿لقد جَاءَتْ رُسُلُ ربنا بالحَقِّ﴾، فالتأويل على هذا من آل يؤول، ﴿ونسوه﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الترك، وباقي الآية بَيِّنٌ.

* ت *: وهذا التقرير يُرَجِّحُ تأويل ابن سلام المتقدم.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السَّمَوَاتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أيام...﴾ الآية خطاب عام يقتضي التوحيد، والحجة عليه بدلائله، وجاء في التفسير والأحاديث أن اللّه سبحانه ابتدأ الخَلْقَ يوم الأحدِ، وكملت المَخْلُوقَاتُ يوم الجمعة، وهذا كله والساعة اليَسِيرَةُ في قُدْرَةِ اللّه سبحانه سواء.

قال * م *: ﴿في ستة أيام﴾ «ستة» أصلها سِدْسَة، فأبدلوا من السِّين تاء، ثم أدغموا الدال في التاء، وتصغيره سديس وسديسة. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ على العَرْشِ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حُذَّاق المتكلمين: الملك، والسلطان[٢]، وخصّ العرش بالذِّكْرِ تشريفاً له؛ إذ هو أَعْظَمُ المخلوقات.

وقوله سبحانه: ﴿ألا له الخَلْقُ والأَمْرُ﴾ «ألا»: استفتاح كلام. وأخذ المفسرون «الخَلْق» بمعنى المخلوقات، أي: هي كلها مِلْكُهُ، واختراعه، وأخذوا الأمر مَصْدَراً من أمر يأمر.

قال * ع[٣] *: ويحتمل أن تؤخذ لفظة «الخَلْقِ» على المصدر من: خلق يخلق خَلْقاً، أي: له هذه الصفة؛ إذ هو المُوجِدُ للأشياء بعد العَدَمِ، ويؤخذ الأمر على أنه واحد

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥١٢) برقم: (١٤٧٧٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٨)، والبغوي (٢/ ١٦٤) بلفظ: «عاقبته»، والسيوطي (٣/ ١٦٨)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٠٩).

الأمورِ، فيكون بمنزلة قوله: ﴿وإليه يرجع الأمر كُلّه﴾ [هود: ١٢٣] ﴿وإلى اللّه تُرْجَعُ الأمور﴾ [البقرة: ٢١٠].

وكيف ما تَأَوَّلْتِ الآية، فالجميع للّه سبحانه.

و﴿تبارك﴾ معناه: عظم، وتعالى، وكثرت بركاته، ولا يوصف بها إلا اللّه سبحانه.

و﴿تبارك﴾ لا يَتَصَرَّفُ في كلام العرب، فلا يقال منه: يتبارك، و﴿العالمين﴾ جمع عَالَم.

قوله عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إنه لا يُحِبُّ المُعْتَدِين﴾ هذا أمر بالدعاء، وتعبد به، ثم قرن سبحانه بالأَمْرِ به صفات تحسن معه. وقوله: ﴿تَضَرُّعاً﴾ معناه بخشوع، واستكانة، والتضرع لفظة تَقْتَضِي الجَهْرَ، لأن التضرع إنما يكون بإِشَارَاتِ جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب، و﴿خفية﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أثنى اللّه سبحانه على ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِذ نادى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾ [مريم: ٣]، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ»[1] والشريعة مقررة أن السر فيما لم يفرض من أعمال البر أعظم أَجْراً من الجَهْرِ.

* ت *: ونحو هذا لابن العربي لما تكلَّمَ على هذه الآية، قال: الأَصْلُ في الأعمال الفرضية الجَهْرُ، والأصل في الأعمال النَّفْلية السِّرُّ، وذلك لما يتطرق إلى النفل من الرِّيَاءِ، والتَّظَاهُر بذلك في الدنيا، والتفاخر على الأصحاب بالأعمال، وقلوب الخَلْقِ جُبِلَتْ بالمَيْلِ إلى أهل الطاعة. انتهى/ من «**الأحكام**». ١٩١أ

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المعتدين﴾ يريد في الدعاء، وإن كان اللفظ عامًّا، والاعتداء في الدعاء على وجوه منها: الجَهْرُ الكثير، والصياح، وفي «**الصحيح**» عنه ﷺ: «أيها النَّاسُ ارْبَعُوا على أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨٧)، وفي «**الزهد**» ص: (١٠)، وعبد بن حميد في «**المنتخب من المسند**» ص: (٧٦) برقم: (١٣٧)، وأبو يعلى (٢/ ٨١ ـ ٨٢) برقم: (٧٣١)، وابن حبان (٢٣٢٣ ـ موارد)، من طريق محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي لبيبة عن سعد بن أبي وقاص به.
وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (١٠/ ٨٤) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمد بن عبد الرحمٰن بن لبيبة، وقد وثقه ابن حبان، وقال: روى عن سعد بن أبي وقاص. قلت: وضعفه ابن معين، وبقية رجالهما رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٥٣٧) كتاب «المغازي»، باب: غزوة خيبر، حديث (٤٢٠٥)، وفي (١١/ ١٩١) كتاب «الدعوات»، باب: الدعاء إذا علا عقبه، حديث (٦٣٨٤)، وفي (١١/ ٢١٧) كتاب «الدعوات»، =

ومنها: أن يدعو في مُحَالٍ، ونحو هذا من التشطُّط؛ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ في الدُّعَاءِ، وحَسْبُ المرء أن يَقُولَ: اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا من قَوْلٍ، أو عَمَلٍ، وأَعُوذُ بك من النَّارِ، وما قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أو عَمَلٍ»[(١)].

وقال البخاري: ﴿إنه لا يحبُّ المعتدين﴾ أي: في الدعاء وغيره. انتهى.

* ت *: قال الخطابي: وليس معنى الاعْتِدَاءِ الإكثار، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدّعاءِ»[(٢)]، وقال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ، فإنما هُوَ يَسْأَلُ رَبَّهُ»[(٣)]. انتهى.

وروى أبو داود في «سُنَنِهِ» عن عبد اللَّه بن مُغَفَّلٍ، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «سَيَكُونُ في هَذِهِ الأُمَّةِ قوم يَعْتَدُونَ في الطُّهْرِ وَالدُّعَاءِ»[(٤)] انتهى.

= باب: قول لا حول ولا قوة إلاّ باللَّه، حديث (٦٤٠٩)، وفي (١٣/ ٣٨٤) كتاب «التوحيد»، باب: ﴿وكان اللَّه سميعاً بصيراً﴾، حديث (٧٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦) كتاب «الذكر والدعاء»، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث (٤٤ ـ ٤٥/ ٢٧٠٤)، وأبو داود (١/ ٤٧٨) كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، حديث (١٥٢٦)، و(١٥٢٧)، و(١٥٢٨)، والترمذي (٥/ ٤٥٧)، كتاب «الدعوات» باب: (٣)، حديث (٣٣٧٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٦) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في لا حول ولا قوة إلا باللَّه، حديث (٣٨٢٤)، وأحمد (٤/ ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩)، وأبو يعلى (١٣/ ٢٤١) برقم: (٧٢٥٢)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن السني في «**عمل اليوم والليلة**» برقم: (٥٢١) كلهم من طريق أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢، ١٨٢)، وأبو داود (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) كتاب «الصلاة» باب: الدعاء، حديث (١٤٨٠)، والطبراني في «**الدعاء**» (٥٥)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨)، وأبو يعلى (١٠/ ٧١) برقم: (٧١٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه العقيلي في «**الضعفاء**» (٤/ ٤٥٢) من طريق يوسف بن السفر عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً.

وأسند العقيلي عن البخاري قوله في يوسف بن السفر: منكر الحديث، والحديث موضوع؛ آفته يوسف هذا.

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ١٤٤) كتاب «الدعوات» باب: ليعزم المسألة فإنه لا مُكرهَ له، حديث (٦٣٣٨) ومسلم (٤/ ٢٠٦٣) كتاب «الذكر والدعاء» باب: العزم، حديث (٩/ ٢٦٧٩)، وأحمد (٢/ ٤٨٦) وأبو داود (١/ ٤٦٧) كتاب «الصلاة»، باب: الدعاء، حديث (١٤٨٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٧٢) كتاب «الطهارة» باب: الإسراف في الماء، حديث (٩٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧١) كتاب «الدعاء» باب: كراهية الاعتداء في الدعاء، حديث (٣٨٦٤)، وأحمد (٤/ ٨٧) (٥/ ٥٥)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨)، والحاكم (١/ ١٦٢)، وابن حبان (٦٧٦٤)، والطبراني في «**الدعاء**» (٥٩) =

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تُفسِدُوا في الأَرْضِ...﴾ الآية ألفاظها عامة تتضمن كل فَسَادٍ قَلّ أو كثر بعد صَلاَحٍ قل أو كثر، والقَصْدُ بالنهي هو [على] العموم، وتخصيص شيء دون شَيْءٍ، في هذا تحكمٌ إلا أن يُقَالَ على جهة المثال.

وقوله سبحانه: ﴿وادعوه خَوْفاً وطَمَعاً﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة تقرب، وتحرز، وتأميل للّه عز وجل حتى يَكُونَ الخَوْفُ والرجاء كالجَناحَيْنِ للطير يَحْمِلاَنِهِ في طريق استقامة، وإن انفرد أحدهما هَلَكَ الإنسان.

وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يَغْلِبَ الخَوْفُ الرَّجَاءَ طُولَ الحياة، فإذا جاء المَوْتُ غلب الرَّجَاءُ.

وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخَوْفُ أغلب على المَرْءِ بكثير، وهذا كله طَرِيقُ احتياط، ومنه تَمَنّى الحسن البصري أن يَكون الرَّجُلِ الذي هو آخِرُ مَنْ يدخل[١] الجَنَّةَ، وتمنى سَالِمٌ مولى أبي حذيفة أن يكون من أَصْحَابِ الأَعْرَافِ[٢].

ثم آنسَ سبحانه بقوله: ﴿إن رَحْمَتَ اللّه قَرِيبٌ من المُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً...﴾ الآية: هذه آية اعتبار، واستدلال. **وقرأ** عاصم[٣] «الرياح» بالجَمْعِ، «بُشْراً»

= كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن سعيد الجريري، عن أبي دغامة، عن عبد اللّه بن مغفل به.
وأخرجه أحمد (٤/٨٦) من طريق حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أبي دغامة، عن ابن المغفل به.

(١) ذكره ابن عطية (٢/٤١١).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٤١١).

(٣) ينظر: «**السبعة**» (٢٨٣)، و«**الحجة**» (٤/ ٣١، ٣٢)، و«**حجة القراءات**» (٢٨٥)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ١٨٦)، و«**شرح شعلة**» (٣٩١)، و«**شرح الطيبة**» (٤/٢٩٩)، و«**العنوان**» (٩٦)، و«**إتحاف**» (٢/ ٥٣)، و«**معاني القراءات**» (١/ ٤٠٨، ٤٠٩).

بالباء المضمومة والشين الساكنة، وروي عنه «بُشُراً» بضم الباء والشين، ومن جمع الريح في هذه الآية، فهو أسعد؛ وذلك أن الرِّيَاحَ حيث وَقَعَتْ في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاته أن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وأكثر ذِكْرِ الريح مفردة إنما هو بقرينة عَذَابٍ، كقوله سبحانه: ﴿وفي عَادٍ إذ أَرْسَلْنَا عليهم الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وقد تقدم إيضاح هذا في «سورة البقرة».

ومن قرأ في هذه الآية «الريح» بالإفراد، فإنما يريد به اسْمَ الجِنْسِ، وأيضاً فتقييدها بـ «بشراً» يزيل الاشتراك.

والإِرْسَالُ في الريح هو بمعنى الإجراءِ، والإطلاق، وبُشْراً، أي: تَبْشُرُ السحابَ، وأما «بُشُراً» بضم الباء والشين، فجمع بَشِير، كنذير ونُذُور، والرحمة في هذه الآية المَطَرُ، و﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾، أي: أمام رحمته وقدامها، و﴿أَقَلَّت﴾ معناه: رفعته من الأرض، واسْتَقَلَّتْ به، و﴿ثقالاً﴾ معناه من الماء، والعَرَبُ تَصِفُ السحاب بالثِّقَلِ، والرِّيحُ تَسُوقُ السحاب من ورائه فهو سوق حقيقة، والضمير في ﴿سُقْنَاهُ﴾ عائد على السحاب، ووصف البلد بالمَوْتِ استعارة بسبب شعثه وجدوبته.

والضمير في قوله ﴿فأنزلنا به﴾ يحتمل أن يَعُودَ على السحاب، أي منه، ويحتمل أن يعود على البلد، ويحتمل أن يعود على الريح.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخرِجُ المَوْتَىٰ﴾ يحتمل مقصدين:

١٩١ ب **أحدهما**: أن يراد كهذه/ القُدْرَةِ العظيمة هي القدرة على إِحْيَاءِ الموتى، وهذا مثال لها.

الثاني: أن يراد أن هكذا نَصْنَعُ بالأموات من نزول المَطَرِ عليهم، حتى يحيوا به، حَسَبَ ما وردت به الآثار، فيكون الكَلاَمُ خبراً لا مثالاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَالبَلَدُ الطيب يَخْرُجُ نباته...﴾ آية مُتَمِّمَةٌ للمعنى الأول في الآية قبلها، معرفة بِعَادَةِ اللّه سبحانه في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مِثَالاً لقلب المؤمن، وقلب الكافر، كما هو محكي عن ابن عَبَّاسٍ، ومجاهد، وقتادة، والسدي(١)، فذلك مترتب، لكن أَلْفَاظَ الآية لا تقتضي أن المَثَل قصد به ذلك، والطيب: هو الجَيِّدُ التُّرَابِ الكريمُ الأَرْضِ وخص بإذن ربه مَدْحاً وتشريفاً، وهذا كما تقول لمن تغضُّ منه: أنت

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥١٩) برقم: (١٤٧٩٤)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤١٤)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٢٢).

كما شَاءَ اللَّه، فهي عبارة تعطي مُبَالَغَةً في مَدْحٍ أو ذم. والخبيث هو السَّبَاخُ ونحوها من رَدِيء الأرض.

والنَّكدُ العَسِيرُ القليل. ﴿كذلك نُصَرِّفُ الآيات﴾ أي هكذا نبين الأمور، و﴿يشكرون﴾ معناه: يؤمنون ويثنون بآلآءِ اللَّه سبحانه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لقد أَرسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّه مَا لَكُمْ من إِلٰهٍ غَيْرُهُ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم * قَالَ المَلأُ من قَوْمِهِ إنا لَنَرَاكَ في ضَلاَلٍ مُبِينٍ * قال يَا قَوْمِ لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ ولكني رَسُولٌ من رَبِّ العَلَمِينَ * أبلغكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ من اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قال الطبري[(١)]: أقسم اللَّه تعالى أنه أرسل[(٢)] نوحاً، وكذا قال أبو حيان[(٣)]: «لقد» اللام جواب قسم محذوف. انتهى.

و«غَيْرُهُ» بالرفع بَدَلٌ من قوله: ﴿من إله﴾؛ لأنه في موضع رَفْع، ويجوز أن يكون نَعْتاً على الموضع؛ لأن التقدير؛ ما لكم إله غيره، والمَلأُ الجماعة من الأشراف.

قيل: إنهم مأخوذون من أنهم يملئون النَّفْسَ والعَيْنَ، ويحتمل من أنه إذا تمالؤوا على أمرٍ تم.

وقولهم: ﴿إنا لَنَرَاكَ﴾ يحتمل من رُؤْيَةِ البصر، ويحتمل من رؤية القَلْبِ، وهو أظهر.

و﴿في ضلال﴾ أي في تَلَفٍ وجهالة بما تسلك.

وقوله لهم جَوَابٌ عن هذا:

---

(١) ينظر: الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٢٠).
(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤١٤).
(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٣٢٣).

﴿ليس بي ضَلاَلَةٌ﴾ مبالغة في حُسْنِ الأدب، والإعراض عن الجَفَاءِ منهم، وتناول رفيق، وسعة صدر حَسْبَ ما تقتضيه خُلُقُ النبوة.

وقوله: ﴿ولكنّي رَسُولٌ﴾ تعرض لمن يريد النظر، والبَحْثَ، والتأمل في المعجزة.

وقوله عليه السلام: ﴿وأعلم مِنَ اللّهِ ما لاَ تَعْلَمُونَ﴾ لفظ مُضَمَّنُهُ الوَعِيد، لا سيما وهم لم يسمعوا قَطُّ بأمة عذبت.

وقوله: ﴿أوَ عجبتم أن جاءكم ذِكْرٌ من رَبِّكُمْ على رَجُلٍ منكم لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فأَنْجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ في الفُلْكِ وأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُوا بآياتنا إنهم كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾.

الاستفهام هنا على جِهَةِ التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿على رَجُلٍ منكم﴾ قيل: «على» بمعنى «مع».

وقيل: هو على حَذْفِ مضاف، تقديره: على لسان رجل، ويحتمل أن يكون معناه منزَّل على رَجُلٍ منكم؛ إذ كل ما يأتي من اللّه سبحانه فله حُكْمُ النزول، و﴿لعلكم﴾ تَرَجٍّ بحسب حال نوح ومعتقده.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ في الفُلْكِ...﴾ الآية.

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رَجُلاً.

وقيل: ثمانون رجلاً وثمانون امرأة وقيل: عشرة وقيل: ثمانية. قاله قتادة.

وقيل: سبعة. واللّه أعلم.

وفي كثير من كتب الحديث؛ التِّرْمِذِيّ وغيره أن جَمِيعَ الخَلْقِ الآن من ذُرِّيَّةِ نوح عليه السلام وقوله: ﴿عمين﴾ جمع عَمٍ، ويريد عَمِيَّ البَصَائر، وأتى في حديث الشفاعة وغيره أن نُوحاً أَوَّلُ الرسل[1].

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ

(١) تقدم تخريجه.

أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإلى عَاد أخاهم هُوداً قال يا قَوْم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ من إلٰهٍ غَيْرُهُ / أفلا تَتَّقُونَ * قال المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَوْمِهِ إنا لَنَرَاكَ في سَفَاهَةٍ وإنا لَنَظُنُّكَ من الكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ من رَبِّ العَالَمِينَ * أبلّغكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وأنا لكم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ عاد اسم الحَيِّ، وهم عَرَبٌ فيما يذكر، و«أخاهم» نصب بـ «أرسلنا» وهو معطوف على نوح، وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام. ١٩٢ أ

وقوله: ﴿أفلا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقوى، والإيمان.

وقوله: ﴿أو عجبتم أنْ جَاءكم ذِكْرٌ من رَبِّكُمْ على رَجُلٍ منكم لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إذ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ من بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً فاذكروا آلاَءَ اللَّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قالوا أَجِئْتَنَا لنعبد اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فأْتِنَا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ من الصَّادِقِينَ﴾.

قوله: ﴿وزادكم في الخَلْقِ﴾ أي في الخِلْقَةِ، والبَسْطَةُ الكمال في الطول والعَرْضِ.

وقيل: زادكم على أهل عصركم.

وقال الطبري: زادكم على قَوْمِ نوح. وقاله قتادة(١).

قال * ع(٢) *: واللفظ يقتضي أن الزيادة على جَمِيعِ العَالَمِ، وهو الذي يقتضيه ما يذكر عنهم.

وروي أن طُولَ الرجل منهم كان مائة ذِرَاعٍ، وطول أقصرهم سِتُّون ونحوها. والآلاء جمع «إِلًى» على مثل «معًى»، وهي النعمة والمنةَ.

قال الطبري: وعاد هؤلاء فيما حدث ابن إسْحاقَ من ولد عاد بن إرم بن عوض بن سَام بن نوح، وكانت مَسَاكنهم «الشّحر» من أرض «اليمن» وما وَالى «حَضْرَمَوْتَ» إلى «عمان»(٣).

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/٤١٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤١٨).

(٣) أخرجه الطبري (٥/٥٢٤) برقم: (١٤٨٠٩)، وذكره ابن عطية (٢/٤١٨).

قال السدي: وكانوا بالأَحْقَافِ، وهي الرمال، وكانت بلادهم أَخْصَبَ بلاد، فردها اللَّه صحارى[١].

وقال علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه: إن قبر هُودٍ عليه السلام هنالك في كَثِيبٍ أحمر تُخَالطه مدرة ذات أراكٍ وسِدْر، وكانوا قد فشوا في جميع الأَرْض، وملكوا كثيراً بِقُوَّتِهِمْ وعَدَدِهِمْ، وظَلَمُوا النَّاسَ وَكَانُوا ثَلاَثَةَ عَشَرَ قَبِيلَةً، وكانوا أَصْحَابَ أوثان، فبعث اللَّه إليهم هُوداً من أفضلهم وأوسطهم نَسَباً، فدعاهم إِلى تَوْحِيدِ اللَّه سبحانه وإِلى تَرْكِ[٢] الظُّلْمِ.

قال ابن إسحاق: ولم يأمرهم فيما يذكر بِغَيْرِ[٣] ذلك، فكذبوه وعتوا، واستمروا على ذلك إلى أن أراد اللَّه إنفاذ أمره أَمْسَكَ عنهم المَطَرَ ثلاث سنين، فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا دهمهم أمر، فزعوا إلى المسجد الحرام بـ «مكَّة» فدعوا اللَّه فيه تَعْظِيماً له مؤمنهم وكافرهم، وأهل «مكة» يومئذٍ العَمَالِيقُ، وسيدهم رجل يسمى معاوية بن بَكْرٍ، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وَفداً إلى «مكة» يَسْتَسْقُونَ اللَّه لهم، فبعثوا قيل بن عنز، ولقيم بن هزال، وعتيل بن ضد بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه، وجلهمة بن الخيبري في سَبْعِينَ رَجُلاً من قومهم، فلما قدموا «مكة» نَزَلُوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر «مكة» خارج الحَرَمِ، فأنزلهم، وأقاموا عنده شَهْراً يشربون الخَمْرَ، وتغنيهم الجَرَادَتَانِ قَيْنَتَا معاوية، ولما رأى معاوية إقامتهم، وقد بعثهم عَادٌ لِلْغَوْثِ أشفق على عَادٍ، وكان ابن أختهم أمه: كلهدة ابنة الخيبري أخت جلهمة، وقال: هَلَكَ أخوالي، وشق عليه أن يأمر أَضْيَافَهُ بالانصراف عنه، فشكا ذلك إلى قَيْنَتَيْهِ، فقالتا: اصنع شِعْراً نغني به، عسى أن نُنَبِّهَهُمْ، فقال: [الوافر]

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللَّهَ يُصْبِحُنَا غَمَامَا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَاداً ... قَدَ أمْسَوْا لاَ يَبِينُونَ الكَلاَمَا
مِنَ العَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الكَبِيرَ وَلاَ الغُلاَمَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمُ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ/ نِسَاؤُهُمْ عَيَامَى

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥٢٤) برقم: (١٤٨١٠)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤١٨)، والسيوطي (٣/ ١٧٨)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤١٨)، وابن كثير (٢/ ٢٢٤) بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٥٢٤) برقم: (١٤٨١٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤١٨)، والسيوطي (٣/ ١٧٨)، وعزاه لإسحاق بن بشر، وابن عساكر.

وَإِنَّ الوُحْشَ تَأْتِيهِمْ جِهَاراً ... وَلاَ تَخْشَى لِعَادِيٍّ سِهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمُ وَلَيْلَكُمُ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلاَ لُقُّوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلاَمَا(١)

فغنت به الجَرَادَتَانِ، فلما سمعه القَوْمُ قال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حَلَّ بهم، فادخلوا هذا الحَرَمَ، وادعوا لَعَلَّ اللّه يغيثهم فخرجوا لذلك، فقال لهم مرثد بن سعد: إنكم واللّه ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمنتم سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذٍ، فَخَالَفَهُ الوَفْدُ، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احْبِسَا عنا مرثداً، ولا يدخل معنا الحَرَمَ، فإنه قد اتبع هُوداً، ومَضَوْا إلى الحرم، فاستسقى قيل بن عنز، وقال: يا إلاهنا إن كان هود صادقاً، فاسقنا، فإنا قد هلكنا، فأنشأ اللّه تعالى سحائب ثَلاَثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى مُنَادٍ من السماء: يَا قَيْلُ اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شِئْتَ، فقال قيل: قد اخترت السَّوداء فإنها أكثرهن مَاءً، فنودي:

قَدِ اخْتَرْتَ رَمَاداً رَمْدَداً ... لاَ تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدَا
لاَ وَالِداً وَلاَ وَلَداً ... إِلاَّ جَعَلَتْهُمْ هَمَدَا

وساق اللّه السَّحَابَةَ السوداء التي اختارها قيل إلى عاد حتى خرجت عليهم من وَادٍ لهم يقال له: المُغِيثُ، فلما رأوها، قالوا هذا عَارِضٌ ممطرنا، حتى عرفت أنها ريح امرأة منهم يقال لها: مهدر، فصاحت وصعقت، فلما أفاقت قيل لها: ما رأيت؟ قالت: ريحاً فيها كَشُهبِ النار، أمامها رجال يَقُودُونَهَا، فسخرها اللّه عليهم سَبْعَ ليال، وثمانية أيام حُسُوماً، والحُسُوم: الدائمة، فلم تَدَعْ من عَادٍ أحداً إلا هلك، فاعتزل هود، ومن معه من المُؤْمنين في حَظِيرَةٍ ما يصيبه من رِيحٍ إلا ما يلتذ به.

قال * ع(٢) *: وهذا قصص وقع في «**تفسير الطبري**» مطولاً، وفيه اختلاف، فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز، وفي خبرهم: أن الريح كانت تَدْمَغُهُمْ بالحِجَارَةِ، وترفع الظَّعِينَةَ عليها المرأة حتى تلقيها في البحر.

وفي خبرهم: أن أقوياءهم كان أحدهم يسدّ بنفسه مَهَبَّ الريح حتى تَغْلبَهُ فتلقيه في البَحْرِ، فيقوم آخر مكانه حتى هَلَكَ الجَمِيعُ. وقال زيد بن أسلم: بلغني أن ضَبُعاً رَبَّتْ

---

(١) الأبيات في «**الكامل**» (١/ ٨٦)، و«**تاريخ الطبري**» (١/ ٢٢٠)، و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤١٨).
(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤١٩).

أولادها في حِجَاجِ عَيْنِ رَجُلٍ منهم. وفي خبرهم: أن اللّه سبحانه لما أهلكهم بَعَثَ طيراً، فنقلت جِيفَهُمْ حتى طرحتها في البَحْرِ، فذلك قوله سبحانه: ﴿فأصبحوا لا تُرَى إِلاَّ مَسَاكِنهم﴾ [الأحقاف: ٢٥] وفي بعض ما رُوِيَ من شأنهم أن الريح لم تُبْعَثْ قط إلا بِمِكْيَالٍ إلا يومئذٍ، فإنها عَتَتْ على الخَزَنَةِ، فغلبتهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿فأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وروي أن هوداً لما هلكت عاد نزل بمن آمَنَ معه إلى «مكة» فكانوا بها حتى مَاتُوا، فاللّه أعلم أي ذلك كَانَ.

وقولهم: ﴿أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّه وَحْدَهُ...﴾ الآية: ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم، ويفردون العبادة للّه مع إقرارهم بالإله الخَالِقِ المُبْدِعِ، وهذا هو الأظهر فيهم، وفي عباد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية اللّه تعالىٰ من الكَفَرَةِ إلا مَنْ أفرطت غباوته.

وقولهم: ﴿فأْتِنَا بما تَعِدُنا﴾: تَصْمِيمٌ على التكذيب، واستعجالٌ للعقوبة.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ من رَبِّكُمْ رِجْسٌ وغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي في أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أنتم وآباؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فانْتَظِرُوا إني مَعَكُمْ من المُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ الآية: أعلمهم بأن القَضَاءَ قد نَفذ، وحَلَّ عليهم الرجس، وهو السخط والعذاب.

١٩٣أ / وقوله: ﴿أتجادلونني في أَسْمَاءِ سميتموها﴾ أي: في مسمَّيات سميتموها آلهة، ﴿وقطعنا دابر﴾ اَستعارةٌ تُسْتَعْمَلُ فيمن يُسْتأصَل بالهلاك، والدابر: الذي يَدْبُرُ القوم، ويأتي خَلْفَهُمْ، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك، فلم يبق أحد.

وقوله: ﴿كَذَّبوا بآياتنا﴾ دالّ على المعجزة، وإن لم تتعين.

* ت *: ومن مُعْجِزَاتِهِ قوله: ﴿فَكِيدُوني جَمِيعاً ثم لا تُنْظِرون﴾ [هود: ٥٥] على ما سيأتي إن شاء الله في موضعه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ من رَبِّكُمْ هذه نَاقَةُ اللَّه لَكُمْ آية فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ اللَّهَ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَليم﴾ قرأ الجمهور: «وإلى ثَمودَ» بغير صَرْفٍ[1]؛ على إرادة القبيلة، وقرأ يحيى بن وثَّاب[2] والأعمشُ: «وإلى ثَمودٍ» بالصرف؛ على إرادة الحيِّ والقراءتان فصيحتان، مستعملتان، وقد قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]، و﴿أَخاهُمْ﴾ عطْفٌ على «نوح»، والمعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وهي أخوَّة نسب، وهم قومٌ عربٌ، فَهُودٌ وَصَالِحٌ عربيَّان، وكذلك إسماعيل وشُعَيْب؛ كذا قال الناس، وفي أمر إسماعيل نَظَرٌ.

* ت *: النظرُ الذي أشار إليه لا يخفىٰ عليك؛ وذلك أن إسماعيل والدهُ إبراهيم عليه السلام أَعْجميٌّ، وتعلَّم إسماعيل العربيةَ من العرب الَّذين نَزَلُوا عليه بمكَّة؛ حَسَب ما ذكره أهل السيرة فهذا وجْهُ النظر الذي أشار إليه، وفي نظره رحمه الله نَظَرٌ يمنعني مِنَ البَحْث معه ما أنا له قاصدٌ من الإيجاز والاختصار، دون البَسْط والانتشار، نَعَمْ خَرَّج أبو بكر الآجُرِّيُّ من حديث أَبي ذر رضي اللَّه عنه عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «وأَرْبَعَةٌ من العَرَبِ: هُودٌ، وَشُعَيْبٌ، وَصالحٌ وَنَبِيُّكَ، يَا أَبَا ذَرٍّ» انتهى، ولم يذكر إسماعيل، فهذا الحَديثُ قد يَعْضُدُ ما قاله * ع *: وصالحٌ عليه السلام هو صالحُ بْنُ عُبَيْدِ بن عَابِرِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ؛ كذا ذكر[3] مكِّيٌّ.

قال وهْبٌ[4]: بعثه اللَّه حين راهق الحُلُمَ، ولمَّا هلك قومُهُ، ٱرتحلَ بمَنْ معه إلى مكَّة، فأقاموا بها حتى ماتوا فقبُورُهُمْ بَيْنَ دار الندوة والحِجْر، أي: كما ارتحلَ هودٌ بمَنْ معه إلى مكَّة صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٢/ ١٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٠)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٣٠)، و«الدر المصون» (٣/ ٢٩٢).
(٢) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٠)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٣٠)، و«الدر المصون» (٣/ ٢٩٢)، و«التخريجات النحوية» (١٥٤).
(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٢١).
(٤) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٢١)، وابن كثير (٢/ ٢٣٠) بنحوه، والسيوطي (٣/ ١٨٥) بنحوه، وعزاه لوهب.

وقوله: ﴿قد جاءتكم بينة من ربِّكم﴾ أي: آيَةٌ أو حجة أو موعظة بيِّنة من ربكم، قال بعض الناس: إِن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نَفْسه.

وقال الجمهور: بل كانَتْ مقْتَرَحَةً، وهذا أليقُ بما ورد في الآثارِ من أمرهم، رُوِيَ أنَّ قومه طَلَبُوا منهُ آية تضْطَرُّهم إلى الإيمان، وقالوا: يا صالح، إن كنْتَ صادقاً، فٱدْعُ لنا ربَّك يُخْرِجْ لنا من هذه الهَضْبَةِ، وفي بعضِ الروايات مِنْ هذه الصَّخْرَةِ ـ لِصَخْرةٍ بالحِجْر ـ نَاقَةً عُشَراءَ، فَدَعَا اللَّهَ، فتمخَّضت تلك الهَضْبَةُ، وٱنشقَّتْ عن ناقةٍ عظيمة، وروي أنها كانَتْ حاملاً، فولدَتْ سَقَبَها المشهور.

ورُوِيَ أنه خرج معها فَصِيلُها من الصخْرة.

وقيل لها: ﴿نَاقَة اللَّه﴾؛ تشريفاً لها، وتخصيصاً، وهي إِضافةُ خَلْقٍ إلى خالقٍ، وجعل اللَّه لها شِرْباً يوماً، ولهم شِرْب يومٍ، وكانت آية في شُرْبها وحَلْبها.

قال المفسِّرون: كانت خلقاً عظيماً تأتي إلى الماء بين جبلين، فيزحمانها من العَظْم، وقاسَمَتْ ثمود في الماء يوماً بيوم، فكانت الناقةُ تَرِدُ يومها، فتستوفي ماءَ بئرهم شُرْباً، ويحلبونها ما شَاؤوا من لَبَنٍ، ثُم تَمْكُثُ يوماً، وترد بعد ذلك غِبًّا، فٱستمرَّ ذلك ما شاء اللَّه حتَّىٰ ملَّتها ثمود، وقالوا: مَا نَصْنَعُ باللَّبَنِ؛ الماءُ أَحبُّ إلينا منه، وكان سببُ المَلَلِ فيما روي: أنها كانَتْ تصيفُ في بطن الوادِي، وادي الحجر/ وَتَشْتُو في ظاهره، فكانت ١٩٣ ب
مواشيهم تفرُّ منها، فتمالؤوا علىٰ مَلَلِ الناقةِ، وَرُوِيَ أن صالحاً أوحى اللَّه إِلَيْهِ أَنَّ قومك سَيَعْقِرونَ الناقة، وينزلُ بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك، فقالوا: عِيَاذاً بِاللَّهِ أنْ نفعل ذلك، فقال: إِنْ لم تفعلوا أَنْتُمْ أَوْشَكَ أَنْ يولَدَ فيكم مَنْ يفعله، وقال لهم صفةَ عَاقِرِها: أَحْمرُ، أشْقَرُ، أَزْرَقُ، فَوُلِدَ قُدَارٌ على الصفة المذكورة، فكان الذي عَقَرها بالسيف، وقيل: بالسهم في ضَرْعها، وهَرَب فَصِيلها عند ذلك؛ حتَّى صَعِدَ على جبلٍ يقال له القَارة، فَرَغَا ثلاثاً، فقال: يا صَالحُ، هذا ميعادُ ثلاثةِ أيامٍ للعذابِ، وأمرهم قبل رُغَاءِ الفَصِيل أَنْ يطلبوه عَسَىٰ أنْ يصلوا إِلَيْهِ، فيندفع عنهم العذابُ به، فرامُوا الصعودَ إِلَيْهِ في الجبل فٱرْتفع الجبلُ في السماء؛ حتى ما تناله الطيرُ؛ وحينئذٍ رغا الفصيلُ، وروي أنَّ صالحاً عليه السلام قال لهم، حين رغا الفَصيلُ: سَتَصْفَرُّ وجوهُكم في اليوم الأولَ، وتحمرُّ في الثاني، وتسودُّ في الثالث، فلمَّا ظهرت العلامَاتُ التي قال لهم، أيْقَنُوا بالهلاك، وٱستَعدُّوا، ولَطَّخُوا أبدانهم بالمُرِّ، وحفروا القبورَ، وتحنَّطوا وتكفَّنوا في الأنطاع، فأَخذتْهم الصيحةُ، وخرج صالحٌ ومَنْ آمن معه؛ حتى نَزَلَ رَمْلَةَ فلسطينَ، وقد أكثر الناسُ في هذا القصص، وهذا القَدْر

كافٍ، وَمِنْ أراد ٱستيفاءَ هذا القصص، فليطالِعِ الطبريَّ[١].

قال * ع[٢] *: وبلادُ ثَمُود هِيَ بَيْنَ الشام والمدينة، وهي التي مَرَّ بها رسولُ اللّه ﷺ مع المسلمين في غَزْوَةِ تَبُوك[٣] فقال: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ ٱعْتَجر[٤] بِعمامَةٍ»، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ، حَتَّىٰ جَازَ الوَادِيَ ﷺ.

* ت *: ولفظُ البخاريِّ: ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ... الحديث[٥].

---

(١) ينظر: الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٣٠، ٥٣١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٢).

(٣) «غزوة تبوك»: في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة ـ لما رجع رسول اللّه ﷺ من حصار الطائف إلى المدينة بلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد حشدوا له جمعاً كثيراً يريدون غزوه في عقر داره، فأراد أن يلاقيهم على حدود بلادهم قبل أن يغشوه على غرة، فسار بجيشه حتى وصل تبوك، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته، فآثرت الانسحاب بجيشها، لتتحصن في داخل بلاد الشام، فرأى النبي ﷺ أن من الحكمة ألا يتبعهم داخل بلادهم، فلم يتبعهم. وهناك جاءه يوحنا بن رؤبة، فصالحه على الجزية كما صالحه أهل «جرباء» وأهل «أذرح» من بلاد الشام، وأرسل رسول اللّه ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب «دومة الجندل»، فأتى به خالد أسيراً بعد أن قتل أخاه، فحقن رسول اللّه ﷺ دمه، وصالحه على الجزية وأخلى سبيله. وأقام بضع عشرة ليلة لم يقدم عليه الروم ولا العرب المتنصرة فعاد إلى المدينة.
ولما بلغ ملك الروم ما فعله يوحنا أمر بقتله، وصلبه عند قريته. لم يكن من المعقول بعد ذلك أن يتهاون المسلمون فيما أصابهم من قتل رسولهم وأبطالهم ومُعَاهَدِهم الذي أمنوه على نفسه وماله بأخذ الجزية، وإعطاء العهد، كما أنه لم يكن معقولاً أن الروم بعد أن رأوا حضور المسلمين للقصاص يكفون عن مناجزتهم والإيقاع بهم أينما وجدوا لذلك سبيلاً.
لهذا عاد النبي ﷺ في آخر حياته إلى تجهيز جيش آخر تحت إمرة أسامة بن زيد، ولكن لم يكد يتم أمره حتى قبض الرسول صلوات اللّه عليه، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، وتولى أمر المسلمين بعده صاحبه أبو بكر، فارتأى رضي اللّه عنه أن الحزم في إنفاذ هذا الجيش حتى لا يطمع في الإسلام أعداؤه، ويتألب عليه خصومه، وتوالت بعد ذلك حروب الروم حتى فتح المسلمون بلادهم في عهد أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما بعد نضال عنيف، وحروب كثيرة.

(٤) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه، وَيَرُدَّ طرفها على وجهه، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٨٥).

(٥) أخرجه البخاري (٧/ ٧٣١) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤١٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦) كتاب «الزهد والرقائق» باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، حديث (٣٩/ ٢٩٨٠)، وأبو يعلى (٩/ ٤٢٥) رقم(٥٥٧٥) كلهم من طريق الزهري عن سالم، عن أبيه. وأخرجه البخاري (٧/ ٧٣١) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥) كتاب «الزهد والرقائق» باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، حديث (٣٨/ ٢٩٨٠)، =

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض...﴾ الآية: ﴿بَوَّأَكُمْ﴾: معناه مكَّنكم، وهي مستعملة في المكانِ وظروفِهِ، و«القُصُور»: جمع قَصْر، وهي الديارُ التي قصرت علىٰ بقاع من الأرض مخصوصةٍ؛ بخلاف بُيُوت العمود، وقُصِرَتْ على الناس قصراً تامًّا، و«النحتُ»: النَّجْرُ والقَشْر في الشيء الصُّلْب؛ كالحَجَر والعُودِ، ونَحْوه، وكانوا ينحتون الجبالَ لطولِ أعمارِهِمْ، وَ(تَعْثَوْا) معناه تُفْسِدُوا.

قال أبو حيان[1]: و﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ موكِّدة. انتهى.

و﴿الَّذين ٱستكبروا﴾ هم الاشرافُ والعظماء الكَفَرة، و«الَّذِينَ ٱسْتضعفوا»: هم العامة والأَغْفَالُ في الدنيا، وهم أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وقولهم: ﴿أتعلمون﴾: ٱستفهامٌ؛ علىٰ معنى ٱلاستهزاءِ وٱلاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصَّرامة في دين الله، فحملت الأنفةُ الأشرافَ عَلَى مناقَضةِ المؤمنين في مَقَالَتهم، وٱستمرُّوا على كُفْرِهم.

وقوله سبحانه: ﴿فعقروا الناقة﴾ يقتضي بتَشْريكهم أجميعن في الضمير أن عقر الناقة كان على تَمَالُؤ منهمْ واتفاقٍ، وكذلك رُوِيَ أَنَّ قُدَاراً لم يعقرها حتَّىٰ كان يستشيرُ، و﴿عَتَوْا﴾: معناه: خَشُنُوا وصَلُبُوا، ولم يذعنوا للأمر والشرعِ، وصمَّموا على تكذيبه، وٱستعجلوا النِّقْمة بقولهم: ﴿ٱئتنا بما تعدنا﴾، فحلَّ بهم العذابُ، و﴿الرجفةُ﴾: ما تؤثِّره الصيحةُ أو الطَّامَّة التي يُرْجَفُ بها الإنسانُ، وهو أن يتحرَّك ويضْطَرِب/، ويرتَعِدَ؛ ومنه:
١٩٤أ «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ» وروي أنَّ صيحة ثَمُود كان فيهَا مِنْ كلِّ صوتٍ مهولٍ، وكانت مُفْرطة شقَّتْ قلوبَهُمْ، فجثموا علىٰ صدورهم، والجاثم اللاَّطىء[2] بالأرض

وأحمد (٢/ ٩، ٥٨)، والحميدي (٢/ ٢٩٠) برقم: (٦٥٣) كلهم من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٣٣٢).

(٢) لطأتُ بالأرض ولَطِئتُ أي: لَزِقْتُ.
ينظر: «اللسان» (٤٠٣٨) (لطا).

على صَدْره، فـ﴿جاثمين﴾: معناه: باركين قَدْ صُعِقَ بهم، وهو تشبيه بجُثُوم الطير، وجُثُوم الرماد، وقال بعض المفسرين: معناه: حميماً محترقين؛ كالرماد الجاثم، وذهب صاحبُ هذا القول إلى أن الصيحة اقترَنَ بها صواعقُ مُحْرِقَةٌ، وروي أن الصيحةَ أصابَتْ كلَّ مَنْ كان منهم في شَرْق الأرض وغَرْبِهَا إلاَّ رَجُلاً كان في الحَرَم، فمنعه الحرمُ ثُمَّ هَلَكَ بَعْدَ خروجه من الحَرَم؛ ففي «مُصنَّف أبي داود»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: أَبُو رُغَالٍ[1]، وذكره الطبريُّ أيضاً عن النبيِّ ﷺ، وهذا الخبر يردُّ ما في السير من أَنَّ أبا رُغَالٍ هو دليلُ الفِيلِ، وقوله: ﴿فتولَّى عنهم﴾، أي: تولَّى عنهم وقت عَقْر الناقة، وذلك قبل نزول العذاب؛ وكذلك رُوِيَ أنه عليه السلام خَرَجَ مِنْ بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، ويحتمل أن يكون خطابُهُ لهم وهُمْ موتَىٰ؛ علىٰ جهة التفجُّع عليهم، وذكر حالهم أو غير ذلك؛ كما خاطب النبيُّ ﷺ أهْل قليب بَدْر. قال الطبريُّ؛ وقيل: إنه لم تَهْلِكْ أُمَّة، ونبيُّها[2] معها، ورُوِيَ أنه ارتحلَ بمَنْ معه حتَّى جاء مكَّة، فأقام بها حتى مات، ولفظ التولِّي يقتضي اليأس مِنْ خَيْرهم، واليقينَ في إهلاكهم، وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾: عبارةٌ عن تغليبهم الشهوات عَلَى الرأي السديد؛ إذ كلامُ الناصح صَعْبٌ مُضادٌّ لشهوة الذي يُنصحُ، ولذلك تقول العرب: أَمْرُ مُبْكِيَاتِكَ لاَ أَمْرُ مُضْحِكَاتِكَ.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانَتْ من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فَانْظُرْ كيف كان عاقبة المجرمين﴾.

لوطٌ عليه عليه السلام بعثه اللَّه سبحانه إلى أُمَّة تسَّمى «سَدُومَ» ورُوِيَ أنه ابنُ أَخِي

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٩٨) كتاب «الإمارة» باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال، حديث (٣٠٨٨)، والبيهقي (٤/ ١٥٦)، وفي «الدلائل» (٧/ ٢٩٧) من حديث عبد اللَّه بن عمرو.

(٢) ذكره الطبري (٥/ ٥٣٩)، وابن عطية (٢/ ٤٢٤)، وابن كثير (٢/ ٢٣٠)، والسيوطي بنحوه (٣/ ١٨٥).

إبراهيمَ عليه السلام ونَصْبُه: إما بـ «أرسلنا» المتقدِّم في الأنبياء، وإما بفعل محذوف، تقديره: وٱذكر لوطاً، و﴿الفاحشة﴾: إتيان الذكور في الأَدْبَارِ، ورُوِيَ أنه لم تكُنْ هذه المعصيةُ في أُمَّة قبلهم، وحُكْم هذه الفاحشة؛ عند مالك وغيره: الرجْمُ، أُحْصِنَ أم لم يُحْصن[(١)]، وحرَّقَ أبو بكر الصديقُ رضي اللّه عنه رجُلاً عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوط[(٢)]، وقرأ نافع وغيره: «أَئِنَّكُمْ»؛ على الخبر؛ كأنه فَسَّر الفاحشة، والإِسرافُ: الزيادةُ الفاسدةُ، ولم تكُنْ مراجعةُ قومه بٱحتجاجٍ منهم، ولا بمدافعة عقليَّة، وإنما كانَتْ بكُفْر وخِذْلان، و﴿يتطهَّرون﴾: معناه: يتنزَّهون عن حالنا وعادَتِنا.

قال قتادة: عَابُوهم بِغَيْرِ عَيْبٍ، وذمُّوهم بغير ذَمٍّ[(٣)] واستثنى اللّه سبحانه ٱمرأَةَ لوطٍ عليه السلام من الناجينَ، وأخبر أنها هَلَكَتْ، والغابِرُ: هو الباقي؛ هذا هو المشهور في اللغة، وقد يجيء الغَابِرُ بمعنى الماضِي، وكذلك حَكَى أهل اللغةُ «غَبَرَ» بمعنى بَقِيَ، وبمعنى «مضى»، وقوله: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً...﴾ الآية، أي: بحجارةٍ، ورُوِيَ أنَّ اللّه تعالى بعث جبريل، فٱقتلعها بجناحِهِ، وهي ستُّ مدن.

١٩٤ ب / وقيل خمسٌ، وقيل: أربع، فرفعها حتَّى سمع أَهْلُ السماء الدنيا صُرَاخَ الدِّيَكَة، وَنُبَاحَ الكِلاَبِ، ثم عكَسَها، وَرَدَّ أعلاها أَسْفَلَهَا، وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحِجَارَةُ مع هذا، فأهلكَتْ مَنْ كان منهم، مَنْ كان في سَفَر، أو خارجاً من البقع المرفوعةِ، وقالت امرأَةُ لوط، حين سَمِعَتِ الوَجْبَة: وَاقَوْمَاهُ، وٱلتفتَتْ، فأصابتها صخْرَةٌ فَقَتَلَتْهَا.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ

(١) حكم الإمام مالك في اللواطة بالرجم، وهو مذهب الشعبي، والزهري، ومالك، وأحمد، وإسحاق، والشافعي، في قول له، وذهب جمع أنه يحرق بالنار منهم: أبو بكر، وعبد اللّه بن الزبير، وهشام بن عبد اللّه.
وذهب سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والحسن والثوري، والأوزاعي، والإمام يحيى، والشافعي في قول له أنه كالزنا.
وذهب أبو حنيفة، والشافعي في قول له، والمرتضى، والمؤيد باللّه إلى أنه يعزر اللوطي فقط.
ولم يشترط ما اشترطه في الرجم في الزنا من الإحصان والإسلام والحرية، واختلفوا في الفاعل المكره، فقيل: يرجم على المشهور من أن الانتشار اختيار. وقيل: لا يرجم؛ لأن الإكراه شبهة تدرأ الحد، أما المفعول المكره فينبغي ألاَّ يرجم قولاً واحداً؛ إذا كان المرتكب لهذه الجريمة ممن لم يبلغوا الحلم، وقد كان مميزاً فعقابه التأديب بما يراه الإمام زاجراً.
(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٢٥).
(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٥٤١) برقم: (١٤٨٤٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٢٥)، وابن كثير (٢/ ٢٣٠)، والسيوطي (٣/ ١٨٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ
طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن
قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ
إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ
ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لَكُمْ من إلٰه غيره قد جاءتكم بيِّنة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تَبْخَسُوا النَّاس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها...﴾ الآية: قيل في ﴿مَدْين﴾ إنه اسم بلد وقُطْرٍ، وقيل: اسم قبيلةٍ، وقيل: هم مِنْ ولد مَدْيَنَ بْنِ إبراهيمَ الخليلِ، وهذا بعيدٌ، ورُوِيَ أَنَّ لوطاً هو جَدُّ شعيبٍ لأُمِّه.

وقال مكِّيّ: كان زوجَ بنْتِ لُوطٍ، و﴿أخاهم﴾: منصوبٌ بـ «أرسلنا» في أول القصص، و«البيِّنة»: إشارة إلى معجزته، ﴿ولا تَبْخَسُوا﴾ معناه ولا تظلموا؛ ومنه قولهم: تَحْسَبُهَا حَمْقَاءَ، وَهِيَ بَاخِسٌ، أي: ظالمة خادعة، وقال في «سورة هود»: البَخْس: النَّقْصَ.

* ت *: ويحتمل واللّه أعلم أَنَّ البَخْسَ هو ما اعتاده النَّاسُ من ذَمِّ السِّلَعِ؛ ليتوصَّلوا بذلك إِلَىٰ رُخصها، فتأمَّله، واللّه أعلم بما أراد سبحانه.

قال أبو حَيانَ: ولا تَبْخَسُوا: متعدٍّ إلى مفعولين، تقول: بَخَسْتُ زَيْداً حَقَّهُ، أي: نقصته إياه. انتهى.

و﴿أشياءَهُمْ﴾: يريد أمتعتهم وأموالهم، ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا﴾: لفظٌ عامٌّ في دقيق الفساد وجليله؛ وكذلك الإصلاح عامٌّ، ﴿ذلكم خير لكم﴾، أيْ: عند اللّه ﴿إن كنتمْ مؤمنين﴾،

أي: بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عَمَلٌ دون إيمانٍ، و﴿لا تقعدوا بكُلِّ صراطٍ...﴾ الآية: قال السديُّ: هذا نهيٌ عن العَشَّارين والمتغلِّبين ونحوه مِنْ أَخْذ أموال الناس بالباطِلِ(١)، و«الصِّرَاطُ»: الطريقُ، وذلك أنهم كانوا يكثرون من هذا؛ لأنه من قبيل بَخْسهم ونَقْصهم الكيلَ والوزنَ، وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه: هو نَهْيٌ عن السَّلْبِ وقطْع الطرقِ(٢)، وكان ذلك مِنْ فعلهم، وروي في ذلك حديثٌ عن النبيِّ ﷺ، وما تقدَّم من الآية يؤيِّد هذين القولَيْنِ، وقال ابنُ عَبَّاس وغيره: قوله: ﴿ولا تقعدوا﴾ نهيٌ لهم عمَّا كانوا يفعلونه مِنْ رَدِّ الناس عَنْ شُعَيْب(٣) وذلك أنهم كانوا يَقْعُدونَ على الطُّرُقات المفضية إِلَىٰ شُعَيْبٍ، فيتوعَّدون مَنْ أَراد المجيءَ إِلَيه، ويَصُدُّونه، وما بعد هذا مِنَ الألفاظ يشبه هذا مِنَ القول، والضميرُ في «به» يحتمل أَنْ يعود على ٱسْمِ اللّه، وأَنْ يعود على شُعَيْب في قول مَنْ رأى القعودَ على الطُّرُق للرَّدِّ عن شعيب، قال الداووديُّ: وعن مجاهد ﴿يبغونها عوجاً﴾: يلتمسون(٤) لها الزيْغَ. انتهى.

ثم عدَّد عليهم نِعَمَ اللّه تعالَىٰ، وأنه كَثَّرهم بعد قِلَّةِ عددٍ.

وقيل: أغناهم بعد فَقْرٍ، ثم حذرهم ومثَّل لهم بمن امتحن من الأمم، وقوله: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فٱصبروا...﴾ الآية: قوله: ﴿فاصبروا﴾ تهديدٌ للطائفة الكافرة، وقولهم: ﴿أو لتعودُنَّ في ملتنا﴾ معناه: أو لتَصِيرُنَّ، و«عَادَ» في كلام العرب على/ وجهين: ١٩٥ أ

أحدُهُمَا: عَادَ الشَّيْءُ إلى حالٍ قد كان فيها قبل ذلك، وهي عَلَىٰ هذا الوجه لا تتعدَّىٰ، فإن عُدِّيَتْ، فبحرف؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

أَلاَ لَيْتَ أَيَّامَ الشَّبَابِ جَدِيدُ ... وَعُمْراً تَوَلَّىٰ يا بُثَيْنُ يَعُودُ(٥)

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥٤٤) برقم: (١٤٨٦٠)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٢٦) بمثله، والبغوي (٢/ ١٨٠)، وابن كثير (٢/ ٢٣١)، والسيوطي (٣/ ١٩٠)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٥٤٤) برقم: (١٤٨٦١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٢٦).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٥٤٤) برقم: (١٤٨٥٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٢٧)، وابن كثير (٢/ ٢٣١) والسيوطي (٣/ ١٩٠)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٥٤٥) برقم: (١٤٨٦٢).

(٥) روي البيت هكذا:

أَلا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّفَاءِ جَدِيدُ ... وَعَهْداً تَوَلَّى يا بُثَيْنَ يَعودُ

وهو لجميل بثينة في «ديوانه» ص: (٦١)، و«الأغاني» (٢/ ٣٥٠)، و«[illegible] القالي» (١/ ٢٧٢، ٢/ =

ومنه قوله تعالى: ﴿ولَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والوجه الثاني: أنْ تكون بمعنى «صَارَ»، وعاملةً عملَهَا، ولا تتضمَّن أن الحال قد كانَتْ متقدِّمة؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

تِـلْـكَ الـمَـكَـارِمُ لاَ قَـعْـبَـانِ مِـنْ لَـبَـنٍ   شِـيـبـاً بِـمَـاءٍ فَـعَـادَا بَـعْـدُ أَبْـوَالا[1]

ومنه قول الآخر:

وَعَـادَ رَأْسِـي كَـالـثَّـغَـامَـةِ...[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيمِ﴾ [يٰس: ٣٩]، عَلى أن هذه محتملةٌ بقوله في الآية: ﴿أو لَتَعُودُنَّ﴾، وشعيبٌ عليه السلام لَمْ يَكُ قطُّ كافراً، فيقتضي أنها بمعنى «صار»، وأما في جهة المؤمنين به بَعْدَ كُفرهم، فيترتَّب المعنى الآخر، ويخُرُج عنه شعيبٌ، وقوله: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ توقيفٌ منه لهم علىٰ شِنْعَة المعصيةِ، وطَلَبٌ أن يقروا بألسنتهم بإكراهِ المُؤمنين على الإخراج ظُلْماً وغشماً.

قال * ص *: ﴿قد افترينا﴾: هو بمعنى المستقبل؛ لأنه سَدَّ مسد جواب الشرط، وهو: ﴿إنْ عُدْنا﴾ أو هو جوابه، على قول. انتهى.

وقوله: ﴿إلاَّ أن يشاء اللّه ربُّنا﴾ يحتملُ أن يريد إلاَّ أنْ يسبق علينا في ذلك مِنَ اللّه سابقُ سُوء، وينفذ منه قضاءٌ لا يُرَدُّ.

قال * ع[3] *: والمُؤمنون هم ٱلمَجوِّزون لذلك، وأما شُعَيْبٌ، فقد عصمته النبوَّة، وهذا أظهر ممَّا يحتملُ القول، ويحتمل أنْ يريد ٱستثناءَ ما يمكن أن يتعبَّد اللّهُ به المؤمنين ممَّا يفعله الكُفَّارُ مِنَ القربات.

= ٢٩٩)؛ و«الحماسة البصرية» (٢/ ١٠٥)؛ و«خزانة الأدب» (١٠/ ٤٥٠)؛ و«شرح عمدة الحافظ» ص: (٥٠٥)، و«مجالس ثعلب» ص: (٥٩٧، ٥٩٨).

(١) روي البيت هكذا:

هٰذي المفاخِرُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيبا بماءٍ فَعادا بَعْدُ أَبْوالا

هو لأبي الصلت الثقفي والد أميّة في «الشعر والشعراء» ص: (٤٦٩)، و«العقد الفريد» (٢/ ٢٣)؛ ولأميّة بن أبي الصلت في «ديوانه» ص: (٥٢)، وللنابغة الجعدي في «ديوانه» ص: (١١٢)، وللثقفي في «شرح المفصّل» (٨/ ١٠٤).

(٢) وهو من شواهد «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٩). ويروى في «اللسان»: [ثغم] برواية: وصار رأس الشيخ كثغامة وعليه يكون من بحر الرجز، وفي «القاموس»: والرأس صار كالثغامة بياضاً.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٨).

وقيل: إنَّ هذا ٱلاستثناء إنما هو تَسَنُّنٌ وَتَأَدُّبٌ، وقوله: ﴿وسع ربنا كلَّ شيء علماً﴾: معناه: وَسِعَ عِلْمُ رَبنا كلَّ شيء؛ كما تقول: تَصَبَّبَ زَيْدٌ عَرَقاً أَيْ: تصبَّب عَرَقُ زيدٍ، وَوَسِعَ بمعنى «أحاط»، وقوله: ﴿افتح﴾ معناه: ٱحْكُمْ، وقوله: ﴿على اللَّه توكَّلنا﴾: ٱستسلامٌ للَّه سبحانه، وتمسُّكٌ بلطفه؛ وذلك يؤيِّد التأويل الأول في قوله: ﴿إلاَّ أن يشاء اللَّه ربُّنا﴾. وقوله سبحانه: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن ٱتبعتم شعيباً...﴾ الآية: أي: قال الملأُ لتباعهم ومُقَلِّديهم، و﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلةُ الشديدةُ التي يَنَالُ الإنسانَ معها ٱهتزازٌ وٱرتعادٌ وٱضطرابٌ، فيحتملُ أنَّ فرقةً من قومِ شُعَيْب هلكَتْ بالرجفة، وفرقةً بالظُّلَّة، ويحتمل أن الظُّلَّة والرَّجْفَة كانتا في حِينٍ واحدٍ.

* ت *: والرجفةُ هي الصَّيْحة يَرْجُفُ بسببها الفؤاد؛ وكذلك هو مصرَّح بها في قصَّة قوم شُعَيْب في قوله سبحانه: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة...﴾ الآية [هود: ٩٤]، وقوله سبحانه: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ الضمير في قوله «فيها» عائدٌ على دارِهِمْ، وَيَغْنَوا: معناه: يقيمونَ بنَعْمَة وخَفْضِ عيش، وهذا اللفظ فيه قوَّةُ الإخبار عن هلاكهم، ونزولِ النقمةِ بهم، والتنبيه عَلَى العبرة وٱلاتِّعاظ بهم، ونحوُ هذا قولُ الشاعر: [الطويل]

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ[١]

قال * ع *[٢]: فَغَنِيتُ في المكان، إنما يقالُ في الإقامة التي هي مقترنةٌ بتنعُّم وعيشٍ مرضيٍّ، وقوله: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربِّي ونصحت لكم﴾: كلامٌ يقتضي حزناً وإشفاقاً؛ لَمَّا رأىٰ هلاكَ قومه، إذْ كان أمله فيهم غَيْرَ ذلك، ولمَّا وجد في نفسه ذلك،

---

(١) وهو لعمرو بن الحارث بن مُضاض أو للحارث الجرهمي في «لسان العرب» (١٣/١٠٩) (جحن)؛ وبلا نسبة في «شرح قطر الندى» ص: (١٥٩).
واستشهد بقوله: «كأن لم يكن» حيث خفَّف «كأن» فحذف اسمها، وأتى بخبرها جملة فعليَّة. وذكر ياقوت في «معجم البلدان» (٢/ ٢٦٠) (الحجون)، ونسبه إلى مضّاض بن عمرو الجرهمي يتشوّق مكة لما أَجْلَتهُم عنها خزاعة:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أَنيس، ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى! نحن كنا أهلها، فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثرُ
فأخرجَنا منها المليك بقدرة، ... كذلك، يا للناس، تجري المقادرُ
فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة، ... كذلك عضّتنا السنون الغوابر
وبدّلنا كعب بها دار غربة، ... بها الذئب يعوي والعدوُّ المكاشر
فَسَحّتْ دموع العين تجري لبلدة، ... بها حرَمٌ أمن وفيها المشاعر

ينظر: «المعجم» (١/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٣٠).

طَلَب أنْ يثير في نفسه سَبَبَ التسلّي عنهم، فجعل يعدِّد معاصيهم وإِعراضهم، ثم قال لنفسه لمَّا نظر وفكَّر: ﴿فكيف آسَىٰ على قوم كافرين﴾، ونحو هذا قوله ﷺ لأَهْل قليب بَدْرٍ، وأسىٰ معناه: أحزن.

١٩٥ ب / قال مَكِّيٌّ: وسار شعيبٌ بمن معه حتَّى سكن مَكَّة إِلَى أنْ ماتوا بها(١).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيٍّ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضَّراء لعلهم يضَّرَّعون﴾ أخبر سبحانه أنَّه ما بعث نبيًا في قرية، وهي المدينةُ إِلاَّ أخذ أهلها المكذِّبين له ﴿بالبأساء﴾ وهي المصائبُ في المال، وعوارضُ الزَّمَن ﴿والضَّراءِ﴾ وهي المصائبُ في البدن؛ كالأمراض ونحوها، ﴿لعلَّهم يضَّرَّعون﴾ أي: ينقادون إلى الإِيمان، وهكذا قولهم: الحُمَّى أَضْرَعَتْنِي لَكَ، ﴿ثم بدَّلنا مكان السيئة﴾، وهي البأساءُ والضرَّاءُ ﴿الحسنة﴾، وهي السرَّاء والنِّعمة ﴿حتىٰ عَفَوا﴾: معناه: حتىٰ كَثُرُوا، يقال: عَفَا النباتُ والرِّيشُ؛ إذا كَثُر نباتُهُ؛ ومنه قوله ﷺ: «أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللُّحَىٰ»(٢) ولما بدَّل الله حالهم بالخَيْر؛ لُطْفاً بهم فَنَمَوا، رأوا أن إِصابة الضَّرَّاء والسَّرَّاء إنما هي بالاتِّفاق، وليستْ بقَصْد؛ كما يخبر به النبيُّ، واعتقدوا أنَّ ما أصابهم مِنْ ذلك إِنما هو كالاتفاق الذي كان لآبائهم، فجعلوه

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٣١).

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٤٧) كتاب «الشعر» باب: السنة في الشعر، حديث (١)، والبخاري (١٠/ ٣٥١) كتاب «اللباس» باب إعفاء اللحى، حديث (٥٨٩٣)، ومسلم (١/ ٢٢٢) كتاب «الطهارة» باب: خصال الفطرة، حديث (٥٢، ٥٣/ ٢٥٩)، وأبو داود (٢/ ٤٨٣) كتاب «الترجل»، باب: في أخذ الشارب، حديث (٤١٩٨)، والترمذي (٥/ ٩٥) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في إعفاء اللحية، حديث (٢٧٦٣، ٢٧٦٤)، والنسائي (١/ ١٦) كتاب «الطهارة» باب: إحفاء الشارب وإعفاء اللحى، حديث (١٥)، وفي (٨/ ١٨١ ـ ١٨٢) كتاب «الزينة» باب: إحفاء الشوارب وإعفاء اللحية، حديث (٥٢٢٦)، وأبو عوانة (١/ ١٨٩)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٧٦)، وابن المنذر في **«الأوسط»** (١/ ٣٣٩)، والطحاوي في **«شرح معاني الآثار»** (٤/ ٢٣٠)، والبيهقي (١/ ١٥١) كتاب «الطهارة» وفي «الآداب» برقم: (٨٣٠)، والخطيب في **«تاريخ بغداد»** (٦/ ٢٤٧)، وفي **«الجامع لأخلاق الراوي»** (١/ ٣٧٥) برقم: (٨٦٣)، والبغوي في **«شرح السنة»** (٦/ ٢١٩ بتحقيقنا) من طرق عن نافع، عن ابن عمر به.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

مثالاً، أي: قد أصاب هذا آباءنا، فلا ينبغي لنا أنْ نُنكره، ثم أخبر سبحانه؛ أنه أخذ هذه الطوائفَ الَّتي هذا معتَقَدُها، وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً وأَخْذَةَ أَسَفٍ، وبَطْشاً؛ للشقاء السابق لهم في قديم علمه سبحانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض﴾، أي: مِنْ بركاتِ المطرِ والنباتِ، وتسخير الرياح والشمْسِ والقمر في مصالح العبادِ؛ وهذا بحَسَب ما يدركُه نَظَر البشر، ولله سبحانه خُدَّامٌ غير ذلك لا يُحْصَىٰ عددهم، وما في عِلْم الله أكثرُ.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمون...﴾ الآية تتضمَّن وعيداً للكافرين المعاصرين لنبيِّنا محمد ﷺ، لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية، قال: وهل يأمَنُ هؤلاء أنْ ينزلَ بهم مثلُ ما نَزَلَ بأولئك، وهذا ٱستفهامٌ علىٰ جهة التوقيف، والبأسُ: العذابُ، و﴿مكر الله﴾ هي إضافة مخلوقٍ إلى خالقٍ، والمراد فِعْلٌ يعاقب به مَكَرة الكَفَرةِ، والعربُ تسمِّي العقوبةَ باسْمِ الذنْب.

وقوله سبحانه: ﴿أو لم يهد للَّذين يرثون الأرض من بعد أهلها...﴾ الآية: هذه أَلِفُ تقريرٍ دَخَلَتْ على واو العطف، و«يَهْدي»: معناه: يبيِّن، فيحتملُ أنْ يكون المبيِّن الله سبحانه، ويحتملُ أنْ يكون المبيِّن قولَهُ: ﴿أنْ لو نشاء﴾، أي عِلْمُهُمْ بذلك، وقال ابنُ عباس، ومجاهد، وابن زيد: يهْدِي: معناه: يتبيَّن، وهذه أيضاً آيةُ وعيد، أي: أَلَمْ يظهر لوارثي الأرض بَعْد أولئك الذين تقدَّم ذكرهم، وما حَلَّ بهم ـ أنا نَقْدِرُ لو شئنا أصبناهم بذنوبهم؛ كما فعلنا بمن تقدَّم، وفي العبارة وعْظٌ بحالِ مَنْ سلف من المُهْلَكِين.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿تلك القُرَىٰ نقصُّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا من قبل كذلك يطبع اللَّه على قلوب الكافرين﴾ «تلك» ابتداءٌ، و«القُرَىٰ» قال قوم: هو نعتٌ، والخبر «نَقُصُّ»، وعندي: أن «أهل القرى» هِي خَبَر الابتداءِ، وفي ذلك معنى التعظيم لها، ولِمُهْلِكِها؛ وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ الكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وكما قالَ عليه السلام: «أُولَئِكَ الملأ» وكقول ابن أبي الصلت: [البسيط]

تِـلْـكَ الـمَـكَـارِمُ. . . . .(١)

وهذا كثير.

ثم ابتدأ سبحانهُ الخبر عن جميعهم بقوله: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا من قبل﴾، هذا الكلامُ يحتملُ وجوهاً من التأويل:

١٩٦ أ **أحدها**:/ أنْ يريد أنَّ الرسول جاء لكلِّ فريقٍ منهم، فكذَّبوه لأول أمره، ثم ٱستبانَتْ حجته، وظَهَرتِ الآياتُ الدالَّة علىٰ صدقه، مع استمرار دعوته. . فلَجُوا هم في كفرهم، ولم يؤمنوا بما سَبَقَ به تكذيبُهم.

والثاني: من الوجوه: أنْ يريد: فما كان آخرهم في الزّمنِ لِيُؤْمِنَ بما كَذَّب به أوّلهم في الزمَنِ، بل مَشَىٰ بعضهم على سَنَن بعضٍ في الكُفرِ؛ أشار إلى هذا التأويلِ النَّقَّاش(٢).

والثالث: أنَّ هؤلاء لَوْ رُدُّوا من الآخرة إلى الدنيا، لم يكُنْ منهم إيمانٌ؛ قاله مجاهد(٣)، وقرنه بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والرابع: أنه يحتمل: فما كانوا ليُؤمنوا بما سَبَق في عِلم اللَّه سبحانه؛ أنهم مُكَذِّبون به؛ وذكَرَ هذا التأويلَ المفسِّرون.

---

(١) تقدم قريباً.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٣٧)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٥٩) و«الدر المصون» (٣/ ٣١٧).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٣) برقم: (١٤٩١٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٤)، والبغوي (٢/ ١٨٤)، وابن كثير (٢/ ٢٣٥)، والسيوطي (٣/ ١٩٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد...﴾ الآية: أخبر سبحانه أنه لم يجدْ لأكثرهم ثبوتاً على العَهْد الذي أخذه سبحانه علىٰ ذريّة آدم وقْتَ اْستخراجهم من ظهره؛ قاله أبو العالية[1] عن أبيِّ بنْ كَعْب، ويحتمل أن يكون المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزامَ عَهْدٍ، وقبولَ وصاةٍ ممَّا جاءتهم به الرسُلُ عن اللَّه، ولا شَكَروا نعم اللَّه عزَّ وجلَّ.

قال * ص *: ﴿لأكثرهم﴾: يحتمل أن يعود علىٰ «النَّاس» أو على ﴿أهل القُرَى﴾ أو «الأُمم الماضية». انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسَىٰ بآياتنا إلى فرعون وَمَلَئِهِ فظلموا بها...﴾ الآيات؛ في هذه الآية: عامٌّ في التسْع وغيرِهَا، والضميرُ في «مِنْ بعدهم» عائدٌ على الأنبياءِ المتقدِّم ذكْرُهم، وعلى أممِهِمْ.

وقوله سبحانه: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾: فيه وعيدٌ، وتحذيرٌ للكَفَرة المعاصرين لنبيِّنا محمد ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿وقال موسىٰ يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على اللّه إلا الحقَّ﴾، قرأ نافعٌ[2] وحده: «عَلَيَّ» بإضافة «عَلَىٰ» إليه، وقرأ الباقون: «عَلَىٰ» بسكون الياء.

قال الفارسيُّ: معنى هذه القراءة أنَّ «عَلَى» وضعتْ موضع الباء؛ كأنه قال: حقيقٌ بأن لا أقولَ على اللَّه إلاَّ الحَقَّ، وقال قوم: «حقيقٌ» صفةٌ لـ«رَسُولٌ»، تم عندها الكلامُ، و«عليَّ»: خبرٌ مقدَّمٌ و«أَلاَّ أقول»: ابتداءٌ، وإعراب «أَنْ»، على قراءة مَنْ سكَّن الياء خفْضٌ، وعلىٰ قراءة من فتحها مشدَّدَةً: رَفْعٌ، وفي قراءة عبد اللَّه: «حَقيقٌ أَنْ لا أَقُول»، وهذه المخاطَبَةُ ـ إذا تأمَّلْتَ ـ غايةٌ في التلطُّف، ونهايةٌ في القول الليِّن الذي أُمِرَ به عليه السلام، وقوله: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ «البينة»؛ هنا إشارةٌ إلى جميع آياته، وهي على المُعْجزة منها أدلُّ، وهذا من موسى عليه السلام عَرْضُ نبوَّته، ومنْ فرعون استدعاءُ خَرْق العادة الدالِّ على الصدْقِ، وظاهرُ هذه الآية وغيرها أنَّ موسى عليه السلام لم تَنْبَنِ شريعته إلا علىٰ بني إسرائيل فقطْ، ولَمْ يَدْعُ فرعونَ وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكره: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٤) برقم: (١٤٩١٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٤)، وابن كثير (٢/ ٢٣٥)، والسيوطي (٣/ ١٩٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، ولابن جرير.

(٢) ينظر: «الحجة» (٤/ ٥٦)، و«السبعة» (٢٨٧)، و«حجة القراءات» (٢٨٩) و«إعراب القراءات» (١/ ١٩٦)، و«العنوان» (٩٦)، و«شرح شعلة» (٣٩٣)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٠٣)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ٥٥)، و«معاني القراءات» (١/ ٤١٤).

يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبينٌ﴾، روي أن موسى قَلِقَ به، وبمجاورته فرعون، فقال لأعوانِهِ: خذوه، فألقى موسَى العصا، فصارَتْ ثعباناً، وهمَّت بفرعون، فَهَرَبَ منها.

وقَالَ السّديُّ: إنه أَحَدَث، وقال: يا موسَىٰ كُفَّهُ عني[1]، فَكفَّه، وقال نحوه سعيدُ بنُ[2] جبير، ويقال: إن الثعبان وضع أسفلَ لَحْيَيْهِ في الأرض وأعلاهما في أعلى
١٩٦ ب شرفات القصر. والثعبان: الحَيَّة الذَّكَر/ وهو أهولُ وأجرأُ؛ قاله الضحاك[3]، وقال قتادة: صارَتْ حَيَّةً أشْعَرَ ذَكَراً[4]، وقال ابن عباس: غرزَتْ ذَنَبها في الأرض، ورفَعَتْ صدْرَها إلى فرعون، وقوله: ﴿مبين﴾ معناه: لا تَخْييلَ فيه، بل هو بَيِّن؛ أنه ثعبانٌ حقيقة، ﴿ونَزَعَ يده﴾: معناه: مِنْ جيبه، أو من كُمِّه؛ حسب الخلافِ في ذلك.

وقوله: ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾، قال مجاهد: كاللبن أو أشَدَّ بياضاً[5]، وروي أنها كانت تظهر منيرةً شفَّافةً كالشَّمْس تأْتَلِقُ، وكان موسى عليه السلام آدَمَ أَحْمَرَ إلى السوادِ، ثم كان يَرُدُّ يده، فترجع إلى لون بَدَنِهِ.

قال * ع[6] *: فهاتان الآيتان عرضهما عليه السلام للمعارَضَة، ودعا إلى اللّه بهما، وخَرَق العادة بهما.

* ت *: وظاهر الآية كما قال، وليس في الآية ما يَدُلُّ على أنه أراد بإلقاء العصا الانتصار والتخويفَ؛ كما يعطيه ما تقدَّم ذِكْرُهُ من القصص.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٦) برقم: (١٤٩١٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٦)، والبغوي (٢/ ١٨٥)، وابن كثير (٢/ ٢٣٦)، والسيوطي (٣/ ١٩٧)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٦) برقم: (١٤٩٢١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٦).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٦) برقم: (١٤٩٢٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٦)، وابن كثير (٢/ ٢٣٦).
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ١٥) برقم: (١٤٩١٧) بلفظ: «تحولت حية عظيمة»، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٦)، والسيوطي (٣/ ١٩٧) نحوه، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٥) أخرجه الطبري (٦/ ١٧) برقم: (١٤٩٢٨) بلفظ: «نزع يده من جيبه بيضاء من غير برص»، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٦)، وابن كثير (٢/ ٢٣٦) بنحوه.
(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٣٦).

ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾ لا محالةَ أنهم خافوا أَمْرَ موسَىٰ، وجالَتْ ظنونهم كُلَّ مجالٍ، وقوله: ﴿فماذا تأمرون﴾ الظاهرُ أنه من كلام المَلإ بعضِهِمْ لبعض، وقيل: إنه من كلام فرعونَ لهم، وَرَوَى كَرْدم عَنْ نافعٍ: ﴿تَأْمُرُونِ﴾[1] بكسر النون وكذلك في «الشعراء» [الشعراء: ٣٥].

و«ما»: استفهامٌ، و«ذَا»: بمعنى الَّذي، فهما ابتداءٌ وخبرٌ، وفي «تأمرون»: ضميرٌ عائدٌ على الذي، تقديرُهُ: تَأْمُرونَ به، ويجوز أنْ تجعل «مَاذَا» بمنزلةِ اسم واحدٍ في موضع نصب بـ «تأمرون» ولا يضمر فيه؛ على هذا، وقوله: ﴿قالوا أرجِهْ وأَخاهُ وأرسلْ في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أشار المَلأُ على فرعونَ بأن يؤخِّر موسَىٰ وهارون، وَيَدَعَ النظر في أمرهما، وَيَجْمَعَ السحرةَ، وحكَى النَّقَّاش؛ أنه لم يكن يجالسُ فرعونَ وَلَدُ غِيَّةٍ، وإنما كانوا أشرافاً؛ ولذلك أشاروا بالإرجاء، ولم يشيروا بالقَتْل، وقالوا: إنْ قتلته، دخلَتْ على الناسِ شُبْهَةٌ، ولكنِ اَغلبْهُ بِٱلحُجَّة[2].

وقوله سبحانه: ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إنْ كنَّا نَحْنُ الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾: «الأجر» هنا: الأجْرَةُ.

واختلف الناسُ في عدد السَّحَرة على أقوالٍ كثيرةٍ ليس لها سَنَدٌ يوقَفُ عنده[3]، والحاصلُ من ذلك أنهم جَمْعٌ عظيمٌ، وقوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلمَّا ألقوا سحروا أعين الناس﴾، وخيَّر السحرةُ موسَىٰ في أن يتقدَّم في الإلقاء أو يتأخَّر، وهذا فعْلُ المُدِلِّ الواثقِ بِنَفْسِهِ، والظاهرُ أنَّ التقدُّم في التخْييلاتِ وَالمَخَارِيقِ أنْجَحُ؛ لأنَّ بديهتها تمضِي بالنفُوس، فليظهر اللّه أمر نبوَّة موسَى، قَوَّىٰ نفسه ويقينه، وَوَثِقَ بالحَقِّ، فأعطاهم التقدُّم، فَنَشطُوا وَسُرُّوا حتَّى أظهر اللّه الحَق،

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٧).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٨).

(٣) انظر كيف كان المؤلف عليه رحمة اللّه يتحرى الدقة في النقل واهتمامه بالسند انطلاقاً منه بأن السند من الدين!!.

وأَبطَلَ سعيهم، وقوله سبحانه: ﴿سحروا أعين الناس﴾: نصٌ في أن لهم فِعْلاً ما زائداً على ما يُحْدِثُونه من التزويق، ﴿واسترهبوهم﴾ بمعنى: أرهبوهم، أي: فزَّعوهم، ووصف اللَّه سبحانه سِحْرَهُمْ بـ «العَظِيم»، ومعنى ذلك مِنْ كثرته، ورُوِي أنهم جَلَبُوا ثَلاثَمائَةٍ وَسِتِّينَ بعيراً موقُورَةً بالْحِبَالِ، والعِصِيِّ، فلما أَلْقَوْهَا، تحرَّكت، ومَلأَت الوادِيَ، يركَبُ بعضُها بعضاً فاستهْوَلَ النَّاس ذلك، واستَرْهَبَهم، قال الزَّجَّاج: قيل: إنهم جعلوا فيهم الزِّئْبَق، فكانَتْ لا تستقرُّ(١).

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾: وروي أن موسى عليه السلام لَمَّا كان يَوْمُ الجمع، خَرَجَ متَّكِئاً عَلىٰ عصاه، ويُدُه في يَدِ
١٩٧ أ أخيه، وقد صُفَّ له السحرةُ في عَدَدٍ عظيم/ ، حَسْبما ذُكِر، فلما أَلْقَوْا واسترهَبُوا، أَوحَى اللَّه إِليه؛ أَنْ أَلْقِ، فَأَلْقَىٰ عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، فعَظُم حتَّى كان كالجَبَل.

وروي أن السحرة، لَمَّا أَلْقَوْا، وألقَىٰ موسَى، جعلوا يَرْقَوْنَ، وجَعَلَتْ حبالُهم تَعْظُمْ وجعلَتْ عصا موسَىٰ تَعْظُمُ حتى سدَّت الأُفُقَ، وابتلعتِ الكُلَّ، ورُوِي أن الثعبانَ استوفَىٰ تلك الحِبَالَ والعِصِيَّ أَكْلاً، وأعدَمها اللَّه عزَّ وجلَّ، ومَدَّ موسىٰ يده إلى فمه، فعاد عصا كما كان، فعلم السَّحَرَةُ حينئذٍ أَنَّ ذلك ليس من عند البَشَر، فَخَرُّوا سُجَّداً مؤمنين باللَّه ورسولِهِ، و﴿تَلْقَفُ﴾ معناه: تبتلع وتَزْدَرِد، وقرأ ابن جبير(٢): «تَلْقَمُ» بالميم.

وقوله سبحانه: ﴿فوقع الحق...﴾ الآية: أي: نَزَلَ ووُجِد، وقال أبو حيان(٣): فوقع، أي: فظهر، و«الحَقُّ»: يريدُ به سطوعَ البرهانِ، وظهورَ الإعجاز، ﴿وما كانوا يعملون﴾ لفظٌ يعمُّ سحْرَ السحرة، وسعْيَ فرعونَ، وشيعتِهِ، والضميرُ في قوله: «فغلبوا»: عائدٌ على جميعهم أيضاً، وفي قوله: ﴿وانقلبوا صاغرين﴾، إِنْ قَدَّرْنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة، فهم في الضمير، وإن قدَّرناه بعد إيمانهم، فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صَغَارٌ؛ لأنهم آمنوا واستشهدوا رَضِيَ اللَّه عنهم.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٣٩).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٣٩)، وقال أبو عُبيد: ويقال: لقف ولقم ولهم بمعنى واحد.
(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٣٦٤).

فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * ربِّ موسىٰ وهارون * قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾، لما رأى السحرةُ مِنْ عظيم القُدْرة ماتيقَّنوا به نبوَّة موسَىٰ، آمنوا بقلوبهم، وٱنْضَافَ إِلى ذلك ٱلاستهوالُ وٱلاستعظامُ والفَزَعُ مِنْ قدرة اللّٰه عزَّ وجَلَّ، فخرُّوا للّٰه سبحانه مُتَطَارِحِينَ قائلين بألسِنَتِهِمْ: ﴿آمنا بربِّ العالمينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وهَارُون﴾.

قال * ع[1] *: وهارونُ أخو موسَىٰ أَسَنُّ منه بثلاثِ سِنِينَ، وقولُ فرعون: ﴿آمنتم به قبل أن آذن لَكُمْ﴾: دليلٌ على وَهَنِهِ، وضَعْف أمره؛ لأنه إنما جعل ذَنْبَهُمْ عَدَمَ إِذنه، والضميرُ في «به» يحتمل أن يعود على ٱسْمِ اللّٰه سبحانه، ويحتملُ أنْ يعود على موسَىٰ عليه السلام، وعنَّفهم فرعونُ على الإيمان قبلَ إِذْنِهِ، ثم ألزمهم أنَّ هذا كان عن اتفاق منهم، وروي في ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، أن موسَىٰ ٱجْتَمَعَ مع رَئِيس السَّحَرة، واسْمُهُ شَمْعُونُ، فقال له موسَىٰ: أَرَأَيْتَ إِنْ غَلَبْتُكُمْ؛ أتؤمِنُونَ بي، فقالَ: نَعَمْ، فَعَلِمَ بذلك فرعونُ؛ فلهذا قال: إن هذا لمكْرٌ مكَرْتُمُوه في المدينة، ثم توعَّدهم[2].

وقوله سبحانه: ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلاَّ أن آمنا بآيات ربِّنا لما جاءتنا.﴾ الآية: هذا استسلامٌ مِنْ مؤمني السَّحرة، واتكالٌ على اللّٰه سبحانه، وثقةٌ بما عنده، وقرأ الجمهور[3]: «تنقِمُ» ـ بكسر القاف ـ، ومعناه: وما تَعُدّ علينا ذنباً تؤاخذُنا به إلاَّ أنْ آمنا، قال ابنُ عبَّاس وغيره فيهم: أَصْبَحُوا سَحَرَةً، وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ[4]، قال ابن عباس: لما آمنت السحرةُ ٱتَّبَعَ موسَىٰ سِتُّمِائَةِ أَلْفٍ من بني إسرائيل[5]، وقولُ ملإٍ فرعونَ: ﴿أتَذَرُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٢٤) برقم: (١٤٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٠)، وابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤١)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٢٥) برقم: (١٤٩٦٥)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤١)، والبغوي (٢/ ١٩٠).

موسَىٰ وقومه. . .﴾ الآية: مقالةٌ تتضمَّن إغراء فرعون وتحريضَهُ، وقولُهم: ﴿ويذرك وآلهتك﴾، رُوِيَ أن فرعون كان في زمنه للناس آلهةٌ مِنْ بقرٍ، وأصنام، وغير ذلك، وكان فرعونُ قَدْ شَرَع ذلك، وَجَعل نَفْسَه الإِلٰه الأعلَى فقوله على هذا ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إنما يريدُ: بالنِّسْبة إلى تلك المعبودات.

١٩٧ ب وقيل: إن فرعون كان يعبد حَجَراً يعلِّقه في صَدْره. كأنه/ ياقوتَةٌ أو نحوها، وعن الحسنِ نحوه، وقوله: ﴿سنقتل أبناءهم﴾، المعنى: سنستمرُّ عَلى ما كنا عليه مِنْ تعذيبهم، وقوله: ﴿وإنا فوقهم﴾»، يريد: في المنزلة، والتمكُّن من الدنيا، و﴿قاهرون﴾: يقتضي تحقيرَ أمرهم، أي: هم أقلُّ من أن يُهتمَّ بهم. قلت: وهذا من عَدُوِّ الله تجلُّدٌ، وإلاَّ فقد قال فيما أخبر الله سبحانه به عنه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥، ٥٦].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قال موسَىٰ لقومه استعينوا باللّه واْصبروا. . .﴾ الآية: لما قال فرعونُ ﴿سنقتل أبناءهم﴾، وتوعدهم، قال موسَىٰ لبني إسرائيل، يثبتهم، ويعدهم عن اللّه تعالىٰ: ﴿استعينوا باللّه﴾، والأرض هنا: أرضُ الدنيا، وهو الأظهرُ.

وقيل: المراد هنا أرضُ الجَنَّة، وأما في الثانية، فأرض الدنيا لا غير، والصَّبْرُ في هذه الآية: يعمُّ الانتظارَ الذي هو عبادةٌ، والصَّبْرَ في المناجزاتِ، والبأْسَ، وقولهم: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾، يعنون به الذَّبْحَ الذي كان في المُدَّة التي كانَ فِرْعَون يتخوَّف فيها أنْ يولَدَ المولودُ الذي يُخَرِّبُ ملكه، ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾، يعنون به وعيدَ فِرْعَونَ، وسائِرَ ما كان خلالَ تلك المدَّة، من الإخافة لهم.

وقال ابنُ عباس[١] والسدِّيُّ[٢]: إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالَة، حين اتَّبعَهُمْ

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٩) برقم: (١٤٩٨٤)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٢).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٢٩) برقم: (١٤٩٨٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٢).

فرعون، واضْطَرَّهم إلى البحر.

قال * ع[١] *: وبالجملة فهو كلامٌ يجري مع المعهودِ مِنْ بني إسرائيل؛ مِن أضطرابهم علىٰ أنبيائهم، وقلَّةِ يقينهم، وٱستعطافُ موسَىٰ لهم بقوله: ﴿عسَىٰ ربكم أن يهلك عدوكم﴾، ووعده لهم بالاستخلاف في الأرض، يدُلُّ على أنه يستدعي نفوساً نافرةً؛ ويقوِّي هذا الظنَّ في جهة بني إسرائيل سلوكُهم هذا السبيلَ في غَيْر مَا قصَّةٍ، وقوله: ﴿فينظُرَ كَيْفَ تعملون﴾ تنبيهٌ وحضٌّ على الاستقامة، ولقد ٱسْتُخْلِفُوا في مِصْرَ في زمن دَاوُدَ وسليمانَ، وقد فتحوا بَيْتَ المَقْدِسِ مع يُوشَعَ.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد أخذنا آل فرعونَ بالسنين﴾، أي: بالجُدُوب والقُحُوطِ، وهذه سِيرَةُ اللَّه في الأمم، وقوله: ﴿ونَقْصٍ من الثمرات﴾، أي: حتى رُوِيَ أن النخلة مِنْ نخلهم لا تَحْملُ إلا ثمرةً واحدةً، وقال نحوه رجاءُ بْنُ حَيْوَة[٢] وفعل اللَّه تعالىٰ بهم هذا؛ لينيبوا ويَزْدَجِرُوا عَمَّا هم عليه من الكُفْرِ؛ إذ أحوالُ الشدَّة ترقُّ معها القلوبُ، وترغبُ فيما عند اللَّه سبحانه.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسَىٰ ومن معه...﴾ الآية: كان القَصْدُ في إصابتهم بِالقَحْط والنقْصِ في الثمراتِ أن ينيبوا ويرجعوا، فإذا هم قد ضَلُّوا، وجعلوها تشاؤماً بموسَىٰ، فكانوا إذَا ٱتَّفَقَ لهم ٱتفاقٌ حسنٌ في غَلاَّت ونحوها، قالوا: هذه لنا، وبسببنا، وإذا نالهم ضُرٌّ، قالوا: هذا بسبب موسَىٰ وشُؤْمِهِ؛ قاله مجاهد[٣] وغيره، وقرأ الجمهور[٤] «يَطَّيَّرُوا» - بالياء وشدِّ الطاء والياءِ الأخيرة -، وقرأ طلحةُ بنُ مُصَرِّفٍ[٥] وغيره: «تَطِيرُوا» - بالتاء وتخفيف الطاء -، وقرأ[٦] مجاهدٌ: ««تَشَاءَمُوا بمُوسَىٰ» - بالتاء من فوق - وبلفظ الشؤم.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٢٩ - ٣٠) برقم: (١٤٩٨٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٣)، وابن كثير (٢/ ٢٣٩)، والسيوطي (٣/ ٢٠٢)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٠) برقم: (١٤٩٩٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٣)، والسيوطي (٣/ ٢٠٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٣)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٧٠)، و«الدر المصون» (٣/ ٣٢٧).

(٥) وهي قراءة عيسى بن عمر.
ينظر: «الشواذ» (٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٣)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٧٠)، و«الدر المصون» (٣/ ٣٢٧).

(٦) قال أبو حيان: فينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لا على أنه قرآن؛ لمخالفته سواد المصحف.
ينظر «البحر المحيط» (٤/ ٣٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٣).

وقوله سبحانه: ﴿ألا إنما طائِرُهُمْ عند اللَّهَ﴾ معناه: حظُّهم ونصيبهم؛ قاله ابن عباس[١]، وهو مأخوذ من زَجْر الطَّيْرِ فسُمِّيَ ما عند اللَّه من القدر للإنسان طائراً؛ لما كان الإنسان يعتقدُ أنَّ كل ما يصيبه إنما هو بحَسَب ما يراه في الطَّائِرِ، فهي لفظةٌ مستعارةٌ،
١٩٨أ ومهما أصلها عندَ الخليل؛ مَامَا/ ، فأبدلت الألف الأولى هاء، وقال سيبوَيْهِ: هي «مَهْ مَا»؛ خُلِطَتَا، وهي حَرْفٌ واحدٌ لمعنًى واحدٍ.

وقال غيره: معناها: «مَهْ»، أي: كُفَّ، و«ما»: جزاءٌ، ذكره الزَّجَّاجُ، وهذه الآيةُ تتضمَّن طغيانهم، وعتوهم، وقَطْعَهم على أنفسهم بالكُفر البَحْتِ.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان...﴾ الآية: الطُّوفانُ: مصدَر مِنْ قولكَ: طَافَ يَطُوفُ، فهو عامٌ في كلِّ شيءٍ يطُوفُ إلاَّ أن ٱستعمال العَرَب له كثيرٌ في الماءِ والمَطر الشديد، قال ابن عبَّاس وغيره: الطُّوفَان في هذه الآية: هو المطر الشديدُ، أصابهم وتوالَىٰ عليهم حتَّى هدَّم بيوتَهُمْ وضيَّق عليهم[٢]، وقيل: طَمَّ فَيْضُ النِّيلِ عليهم، ورُوِي في كيفيَّته قصصٌ كثيرةٌ، وقالتْ عائشة رضي اللَّه عنها، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الطُّوفان المراد في هذه الآية هو المَوْتُ»[٣].

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣١) برقم: (١٤٩٩٥) بلفظ: «مصائبهم عند اللَّه»، برقم: (١٤٩٩٦) بلفظ: «الأمر من قبل اللَّه»، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٣)، والبغوي (٢/ ١٩٠) بنحوه، وابن كثير (٢/ ٢٣٩) بلفظ: «أي من قبل اللَّه»، والسيوطي (٣/ ٢٠٢)، وعزاه لابن جرير، عن ابن عباس بلفظ: «مصائبهم»، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٣١) برقم: (١٤٩٩٨)، (٦/ ٣٦) برقم: (١٥٠٢٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٤)، وابن كثير (٢/ ٢٤٠) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٢٠٣) بسندين، الأول: لأبي الشيخ، والثاني: لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٢) برقم: (١٥٠٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٠٣)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

قُلْتُ: ولو صحَّ هذا النقلُ، لم يبق مُجْمَلاً وروي أن اللَّه عز وجل لما والَىٰ عليهم المطر، غَرِقَتْ أرضهم، وامتنعوا من الزراعة قالوا: يا موسىٰ ٱدع لنا ربك في كَشْف هذا الغَرَقِ، ونحن نؤمنُ، فدعا، فكَشَفَه اللَّه عنهم، فأنبتتِ الأرضُ إنباتاً حسناً، فنكَثُوا، وقالوا: ما نودُّ أنَّا لم نُمْطَرْ، وما هذا إلا إحسانٌ مِنَ اللَّه إلينا، فبعث اللَّه علَيْهم حينئذٍ الجَرَادَ، فأكل جميعَ ما أنبتَتِ الأرض، فروىٰ ابنُ وَهْبٍ، عن مالكٍ؛ أنه أكل حتى أبوابَهم، وأكل الحديدَ والمساميرَ، وضيَّق عليهم غايةَ التضْييق، وترك اللَّهُ مِنْ نباتهم ما يَقُومُ به الرَّمق[(١)]، فقالوا لموسى: ادع لنا ربَّك في كشف الجراد، ونحن نؤمن، فدعا اللَّه فكَشَفه[(٢)]، ورجعوا إلى كفرهم، فبعث اللَّه عليه القُمَّل، وهي الدُّبَّىٰ صغارُ الجَرَادِ، الذي يثب ولا يطير؛ قاله ابن عباس[(٣)] وغيره، وقرأ الحسن: «القَمْل»[(٤)] ـ بفتح القاف، وسكون الميم ـ فهي على هذا القَمْلُ المعروفُ، وروي أن موسى مشَىٰ بعصاه إلى كثيب أَهِيلٍ[(٥)]، فضربَهُ، فٱنتشر كُلُّه قُمَّلاً في مِصْر، ثم إنهم قالوا: ادع في كَشْفِ هذا، فدعا فرَجَعُوا إلىٰ طُغْيَانهم، وكُفرهم، فبعَثَ اللَّه عَلَيْهم الضَّفَادِع، فكانَتْ تدخلُ في فُرُشِهِمْ، وبَيْن ثيابهم، وإذا هَمَّ الرجُلُ أن يتكلَّم، وَثَبَ ضفْدَعٌ في فَمِهِ.

قال ابن جُبَيْر: كان الرجُلُ يجلسُ إلى ذقنه في الضفادع[(٦)].

وقال ابنُ عبَّاس: لما أُرسِلَتِ الضفادِعُ عليهم، وكانَتْ بَرِّيَّةً، سمعتْ وأطاعت، فَجعلتْ تقذفُ أنفسها في القُدُور، وهي تغلي، فأثابها اللَّه بحُسْن طاعتها بَرْدَ[(٧)] الماء، فقالوا: يا موسَىٰ، ٱدع في كَشْف هذا فدعا، فكشفَ، فرجَعُوا إلى كُفرهم، فبعث اللَّه عليهم الدَّم، فرجع ماؤهم الذي يستقونه، ويَحْصُلُ عندهم دماً، فرويَ أنه كان يَسْتَقِي

---

(١) الرَّمَقُ: بقية الحياة. وفي «الصحاح»: بقية الروح. وقيل: هو آخر النَّفس.
ينظر: «لسان العرب» (١٧٣٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٤).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٧) برقم: (١٥٠٣٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٤)، والبغوي (٢/ ١٩٢) بلفظ: «القمل: السوس الذي يخرج من الحنطة»، والسيوطي (٣/ ٢٠٦) بلفظ: «القمل: الدبا».

(٤) ينظر: «الشواذ» (٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٧)، و«الكشاف» (٢/ ١٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٤)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٧٣)، و«الدر المصون» (٣/ ٣٣٠).

(٥) أي: مُنْهَالٌ لا يَثْبُت.
ينظر: «لسان العرب» (٤٧٣٩).

(٦) أخرجه الطبري (٦/ ٣٤ ـ ٣٥) برقم: (١٥٠٢٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٤).

(٧) أخرجه الطبري (٦/ ٣٧) برقم: (١٥٠٣١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٤)، والبغوي (٢/ ١٩٢)، والسيوطي(٣/ ٢٠٦)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

القِبْطِيُّ والإسرائيليُّ بإناء واحدٍ، فإذا خرج الماء، كان الذي يلي القِبْطِيِّ دماً، والذي يلي الإسرائيليَّ ماءً إلى نحو هذا، وشبهه، من العذاب بالدَّمِ المنقلبِ عن الماء، هذا قول جماعة من المتأوِّلين.

وقال زيدُ بن أسْلَمَ: إنما سلط عليهم الرُّعَاف[1]، فهذا معنى قوله: ﴿والدم﴾، وقوله: ﴿آيات مفصَّلات﴾ التفصيل: أصله في الأجرام: إزالة ٱلاتصالِ، فهو تفريقُ شيئَيْن، فإذا استعمل في المعاني، فيراد به أنه فُرِقَ بينها، وأُزِيلَ ٱشتباكها وإشكالها، فيجيء من ذلك بيانها.

وقالتْ فرقةٌ: ﴿مُفَصَّلاتٌ﴾ يراد بها: مفرَّقات في الزمَن.

قال الفخر: قال المفسِّرون: كان العذابُ يَبْقَىٰ عليهم من السَّبْت إلى السَّبْت، وبَيْنَ العذابِ والعذابِ شَهْرٌ، وهذا معنَىٰ قوله: ﴿آياتٍ مفصَّلات﴾، على هذا التأويل، أي: فصلَ بين بعضها وبَعْضٍ بزمانٍ تمتحنُ فيه أحوالهم، ويُنْظَرُ؛ أيقبلون الحُجَّة والدليلَ، أم يستمرُّون على الخلاف والتقليد. انتهى.

١٩٨ ب وقوله عز وجل: ﴿ولما وقع عليهم الرجْز قالوا يا موسى ادع لنا ربك/ بما عهد عندك...﴾ الآية: «الرّجز»: العذابُ، والظاهر من الآية أنَّ المراد بالرجْزِ هنا العذابُ المتقدِّم الذكْر من الطُّوفان والجراد وغيره.

وقال قوم: [إن] الرجْزَ هنا طاعونٌ أنزله اللَّه بهم، واللَّه أعلم، وهذا يحتاجُ إِلَىٰ سندٍ، وقولهم: ﴿بما عهد عندك﴾ لفظ يعمُّ جميع الوسائل بَيْنَ اللَّه وبَيْنَ موسَىٰ من طاعةٍ من موسَىٰ ونعمةٍ من اللَّه تبارك وتعالَىٰ، ويحتمل أنْ يكون ذلك منهم علىٰ جهَةِ القَسَم عَلَىٰ موسَى، وقولُهم: ﴿لئن كشفت﴾ أي: بدعائك، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾ قسمٌ وجوابُه، وهذا عهدٌ من فرعونَ وَمَلَئِهِ، وروي أنه لما انكشف العذابُ، قال فرعون لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيْثُ شِئْتَ، فخالفه بعْضُ مَلَئِهِ، فرجع ونكث، و«إذا» هنا للمفاجأة، والأَجَلُ: يراد به غايةُ كُلِّ واحد منهم بما يخصُّه من الهلاكِ والموتِ؛ كما تقول: أخَّرْتُ كذا إلى وقْتٍ، وأنْتَ لا تريد وقْتاً بعينه، فاللفظ متضمِّن توعُّداً مَّا، ﴿وكَانُوا عنها غافلين﴾ أي: غافلين عما تضمَّنته الآيات من النجاة والهدىٰ.

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٤)، وابن كثير (٢/ ٢٤٢)، والسيوطي (٣/ ٢٠٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارقَ الأرض ومغاربها...﴾ الآية: ﴿الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ كنايةٌ عن بني إسرائيل، و﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾. قال الحسنُ وغيره: هي الشامُ[1]. وقالتْ فرقة: يريد الأرضَ كلَّها؛ وهذا يتَّجه إمَّا على المَجازِ؛ لأنه ملَّكهم بلاداً كثيرة، وإما على الحقيقة في أنَّه ملك ذرِّيَّتهم، وهمْ سليمانُ بنُ دَاوُد، ويترجَّح التأويل الأَول بوَصْف الأرض بأنها التي بَارَكَ فيها سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿وتمت كلمتُ ربك الحسنى﴾، أي: ما سبق لهم في علمه وكلامِهِ في الأزلِ من النَّجاة من عدوِّهم، والظهور عليه؛ قاله مجاهد[2]، و﴿يَعْرِشُون﴾ قال ابن عباس[3] ومجاهد[4]: معناه: يبنون.

قال * ع[5] *: رأيتُ للحسنِ البصريِّ رحمه اللَّه؛ أنَّه احتجَّ بقوله سبحانه: ﴿وتمت كلمتُ ربك...﴾ إلى آخر الآية؛ على أنه ينبغي ألاَّ يخرج عن ملوك السُّوء، وإنما ينبغي أنْ يُصْبَر عليهم؛ فإن اللَّه سبحانه[6] يدمِّرهم، ورأيْتُ لغيره؛ أنه إذا قابل الناسُ البلاَءَ بمثله، وَكَلَهُمُ اللَّهُ إلَيْه، وإذا قابلوه بالصبر، وانتظارِ الفَرَجِ، أتى اللَّه بالفَرَج، ورُوِي هذا أيضاً عن الحسن[7].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٣ ـ ٤٤) برقم: (١٥٠٥٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٦)، وابن كثير (٢/ ٢٤٢)، والسيوطي (٣/ ٢٠٨)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن عساكر.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٤) برقم: (١٥٠٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٦)، وابن كثير (٢/ ٢٤٢)، والسيوطي (٣/ ٢١٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٤٥) برقم: (١٥٠٦٠)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٧)، وابن كثير (٢/ ٢٤٢)، والسيوطي (٣/ ٢١٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٤٥) برقم: (١٥٠٦١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٧)، والبغوي (٢/ ١٩٤)، وابن كثير (٢/ ٢٤٢)، والسيوطي (٣/ ٢١٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٢/ ٤٤٧).

(٦) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٧)، والسيوطي (٣/ ٢١٢)، وعزاه لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٧) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٧).

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: أي: بَحْرَ القُلْزُم، ﴿فأتوا على قوم﴾، قيل: هم الكَنْعَانِيُّونَ.

وقيل: هم مِنْ لَخْم وجُذام، والقَوْمُ في كلام العرب: هم الرجَالُ خاصَّة ﴿يَعْكُفونَ﴾، العُكُوفُ: الملازمة ﴿على أصنام لهم﴾، قيل كانت بقراً.

وقال ابن جُرَيْج: كانت تماثيلَ بقرٍ من حجارةٍ وعيدانٍ ونحوها، وذلك كان أوَّل فتنةِ العِجْل، وقولُهم: ﴿اْجعلْ لنا إِلٰهاً كما لهم آلهة﴾، يظهر منه استحسانهم لِمَا رَأَوْه من تلك الآلهة؛ بجهلهم؛ فأرادوا أنْ يكون ذلك في شَرْع موسَىٰ، وفي جملة ما يُتقرَّبُ به إِلى اللّه، وإِلاَّ فبعيدٌ أن يقولوا لموسَى: اجعل لنا صنماً نُفْرِدُهُ بالعبادة، ونَكْفُر بربِّك؛ وعَلىٰ هذا الذي قُلْتُ يقعُ التشابهُ الذي نصَّه النبيُّ ﷺ في قَوْلِ أَبي واقِدٍ اللَّيْثِي اْجعَلْ لَنَا، يَا رَسُولَ اللّه، ذَاتَ أَنْوَاطٍ؛ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ[1]، فأنكره النبيُّ ﷺ وَقَالَ: «اللّهُ أَكْبَرُ! قُلْتُمْ واللّهَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ ﴿اْجعَلْ لَنا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلهَةٌ: لَتَّتبعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ...﴾» الحديث[2]، ولم يقصد أبو واقدٍ بمقالته فساداً، وقال بعضُ الناسَ؛ كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظة «الإِلٰه» تقتضي ذلك، وهذا محتملٌ، وما ذكرتُهُ أولاً أصحُّ، واللّه أعلم.

قلتُ: وقولهم: ﴿هذا إِلٰهكم وإِلٰه موسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، وجواب موسَىٰ هنا يقوِّي الاحتمال الثاني، نعم: الَّذي يجب أن يعتقد أنَّ مِثْلَ هذه المقالاتِ إنما صَدَرَتْ مِنْ

---

(١) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك. وأنواط: جمع نَوْط، وهو مصدر سمي به المنوط. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٧٥) كتاب «الفتن» باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، والنسائي في التفسير (١/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وأبو يعلى (٣/ ٣٠) برقم: (١٤٤١)، وابن حبان (١٨٣٥ ـ موارد)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٦)، والطبراني (٣٢٩٠، ٣٢٩٤) كلهم من طريق سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

أشرارهم وقريبي العَهْد بالكُفر، قال الشيخُ الحافظُ أبو القاسِم عَبْدُ الرحمٰن بْنُ عبْدِ اللّهِ / الخَثْعَمِيُّ ثم السُّهَيْليُّ ذكر النَّقَّاش في قوله تعالى: ﴿فأتوا علَىٰ قوم يعكفون على أصنام لهم﴾؛ أنهم كانوا مِنْ لَخْم، وكانو يعبُدُون أصناماً عَلىٰ صور البقر، وأنَّ السامِريَّ كان أصله منهم، ولذلك نزع إلَى عبادة العجْلِ. انتهى، واللّه أعلم، وهذا هو معنىٰ ما تقدَّم من كلام * ع *[1]، وقوله: ﴿إن هؤلاء مُتبّر ما هم فيه﴾، أي: مُهْلَكٌ، مُدَمَّر، رديءُ العاقبة، والتَّبار: الهلاكُ، وإنَاءٌ مُتبَّرٌ، أي: مكسورٌ، وكسارته تِبْرٌ؛ ومنه: تِبْرُ الذَّهَبِ؛ لأنه كسارة، وقوله: ﴿ما هم فيه﴾ يعمُّ جميع أحوالهم و﴿باطل﴾: معناه: فاسدٌ ذاهبٌ مضمحلٌّ، و﴿أبغيكم﴾ معناه: أطلبُ. ١٩٩ أ

ثم عدَّد عليهم سبحانه في هذه الآية النِّعَمَ التي يجبُ من أجلها ألاَّ يكفروا به، ولا يَرْغَبُوا في عبادة غيره، فقال: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون...﴾ الآية، و﴿يسومونكم﴾ معنا: يحمِّلُونكم، ويكلِّفونكم، ومساوَمَةُ البيع تنظر إلى هذا؛ فإنْ كلَّ واحد من المتساوِمَيْن يكلِّف صاحبه إرادَتَه، ثم فسَّرَ سوء العذاب بقوله: ﴿يقتّلون أبناءكم...﴾ الآية.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: الثلاثون ليلةً هي شَهْرُ ذي القَعْدَة، وأن العَشْرَ هي عَشْرُ ذي[2] الحِجَّة، وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومَهَا، وأنَّ مدة المناجاة هِيَ العَشر، وحيث ورد أنَّ المواعدة أربعُونَ ليلةً، فذلك إخبار بجملة الأمْر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله، والمعنَىٰ في قوله: ﴿وكلّمه رَبُّهُ﴾: أنه خلق لَهُ إدراكاً سَمِعَ به الكلام القائِمَ بالذاتِ القديمِ

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٨).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٨) برقم: (١٥٠٧٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٩)، وابن كثير (٢/ ٢٤٣)، والسيوطي (٣/ ٢١٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

الذي هو صفةُ ذاتٍ، وكلامُ اللَّه سبحانه لا يشبه كلامَ المخلوقين(١)، وليسَ في جهة مِنَ الجهاتِ، وكما هو موجودٌ لا كالموجودات، ومعلومٌ لا كالمعلومات؛ كذلك كلامه لا يُشْبِهُ الكلامَ الذي فيه علاماتُ الحدوثِ، وجَوابُ «لَمَّا» في قوله: ﴿قال﴾، والمعنى أنَّه لمَّا كلَّمه اللَّه عزَّ وجلَّ، وخصَّه بهذه المرتبة، طَمَحَتْ همته إِلى رُتْبة الرؤية، وتشوَّق إِلى ذلك، فسأل ربَّه الرؤية، ورؤيةُ اللَّه عز وجلَّ عند أهل السنة جائزةٌ عقلاً؛ لأنه من حيثُ هو موجودٌ تصحُ رؤيته؛ قالوا: لأن الرؤية للشَّيْءِ لا تتعلَّق بصفةٍ مِنْ صفاته أَكْثَرَ من الوُجُود، فموسى عليه السلام لم يسأَلْ ربَّه محالاً، وإِنما سأله جائزاً، وقوله سبحانه: ﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل...﴾ الآية: ليس بجواب مَنْ سأل محَالاً، و«لَنْ» تنفي الفِعْلَ المستقبَلَ، ولو بقينا مع هذا النفْي بمجرَّده، لقضينا أنه لا يَرَاهُ موسَىٰ أبداً، ولا في الآخرةِ، لكنْ ورد من جهة أخرَىٰ بالحديثِ المتواتر؛ أنَّ أهل الإِيمانَ يَرَوْنَ اللَّه يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحرَى برؤيته، قُلْتُ: وأيضاً قال تعالى: ﴿وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهو نصٌّ في الرؤية بيِّنه ﷺ؛ ففي «الترمذي» عن ابن عمر، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ جِنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَىٰ اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلى وَجْهِهِ غُدْوَةً وعَشِيَّةً»، ثم

---

(١) لا خلاف لأرباب الملل جميعاً في كون الباري تعالى متكلماً، وإنما الخلاف في معنى كلامه، وهل هو قديم أو حادث، وقد قام الدليل السمعي على إثبات الكلام لله تعالى، وهو ما نقل تواتراً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أنه تعالى أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأخبر بكذا. وكل هذا من أقسام الكلام، وليس في إثبات الكلام للواجب تعالى بما نقل تواتراً عن الأنبياء دور؛ لأن ظهور المعجزة كافٍ في الدلالة على صدقهم في دعواهم النبوّة، وليس تصديقه تعالى لهم كلاماً حتى يجيء الدور، بل تصديقه لهم بإظهار المعجزة على صدق دعواهم، سواء كانت المعجزة من جنس الكلام من حيث كونه معجزاً، كالقرآن أو كانت شيئاً آخر.

والأشاعرة يقولون: كلام الواجب وصف له، ووصف القديم قديم. ويريدون من «الكلام» المعنى النفسي.

فكلامه تعالى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت والآفة كما في الخرس والطفولية، ليست من جنس الأصوات والحروف، هو بها أمرٌ ناهٍ. وتلك الصفة واحدة في ذاتها وإن اختلفت العبارات الدالة عليها كما إذا ذكر الله تعالى بألسنة مختلفة.

وخالفت الفرق جميعها الأشاعرة فيما ذكر، فقد اتفقوا على نفي كونه صفة نفسية. حيث قالوا: هو اللفظ المنتظم من الحروف المسموعة الدالة على المعاني المقصودة. وافترقت هذه الطوائف إلى ثلاثة فرق، وزعموا أنه لا معنى للكلام إلا المنتظم من الحروف المسموعة الدالة على المعاني المقصودة، وأن الكلام النفسي غير معقول.

ينظر: «تحقيق صفة الكلام» لشيخنا حافظ محمد مهدي.

قرأ رسُول اللَّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣][(١)]، قال أبو عيسىٰ: وقد روي هذا الحديثُ مِنْ غير وجه مرفوعاً، وموقوفاً. انتهى.

قال مجاهد وغيره: إن اللَّه عز وجل قال له: يا موسَىٰ، لن تراني، ولكنّ سأتجلَّى للجَبَل، وهو أقوَىٰ منك، وأشَدُّ؛ فإن ٱستقرَّ وأطاقَ الصبْرَ لهيبتي، فسَتُمْكِنُكَ أَنْتَ رؤيتي[(٢)].

قال * ع[(٣)] *: فعلى هذا إنما جعل اللَّه الجَبَل مثالاً، قلتُ: وقول * ع[(٤)] *: ولو بَقِينَا مَعَ هذا النفْي بمجرَّده، لَقَضَيْنَا أنَّه لا يراه موسَى أبداً ولا في الآخرة، قولٌ مرجوحٌ لم يتفطَّن له رحمه اللَّه، والحقُّ الذي لا شَكَّ فيه أَنَّ «لن» لا تقتضي النفْيَ المؤبَّد[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٣١) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة القيامة»، حديث (٣٣٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٤) برقم: (٣٥٦٦٦) كلاهما من طريق إسرائيل عن ثوير عن عبد اللَّه بن عمر به.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد رواه غير واحد عن إسرائيل مثل هذا مرفوعاً، ورواه عبد الملك بن أبجر، عن ثوير، عن ابن عمر من قوله، ولم يرفعه. ا هـ.
قلت: بل رواه عبد الملك بن أبجر، عن ثوير، عن ابن عمر مرفوعاً.
أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٩) من طريق عبد الملك به وقال: تابعه إسرائيل بن يونس، عن ثوير، عن ابن عمر.
وقال أيضاً: وثوير بن أبي فاختة، وإن لم يخرجاه، فلم ينقم عليه غير التشيع.
وتعقبه الذهبي فقال: بل هو واهي الحديث. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٠)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والآجري في «الشريعة»، والدارقطني في «الرؤية»، وابن مردويه، واللالكائي في «السنة».

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٥٤) برقم: (١٥١٠٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٠)، والسيوطي (٣/ ٢٢١)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٠).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٠).

(٥) لَنْ: لا يلزم من نفيها التأبيد، وإن كان بعضهم فَهِمَ ذلك، حَتَّى إن ابن عطية قال: فلو بقينا على هذا النفي بمجرده لتضمن أن موسى لا يراه أبداً، ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى الحديث المتواتر أن أهل الجنة يرونه، قلت: وعلى تقدير أَنَّ «لَنْ» ليست مقتضية للتأبيد، فكلام ابن عطية وغيره ممن يقول: إنّ نفي المستقبل بعدها يَعُمُّ جميع الأزمنة المستقبلة صحيح، لكن لمدرك آخر، وهو أن الفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تَعُمُّ، وللبحث فيه مجال. والاستدراك في قوله: «ولكِنِ انْظُر» واضح.
وقال الزمخشري: فإنْ قلتَ: كيف اتصل الاستدراك في قوله: «ولكِنِ انْظُر»؟ قلتُ: اتصل به على معنى أن النظر إليّ محال فلا تطلبه، ولكن اطلب نظراً آخر، وهو أن تنظر إلى الجبل. وهذا على رأيه من أن الرؤية محال مطلقاً في الدنيا والآخرة.
ينظر: «الدر المصون» (٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).

١٩٩ ب قال بدْرُ الدين أبو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مالِكٍ/ في شرح التَّسْهِيلِ: «وَلَنْ» كغيرها من حروفِ النفي في جواز كون اسْتقبال المنفيِّ بها منقَطعاً عنْدَ حَدٍّ وغَيْرَ منقطع، وذكر الزمخشريُّ في «أُنْمُوذَجِهِ»؛ أَنَّ «لَنْ» لتأبيدِ النفْي، وحاملُهُ علىٰ ذلك اعتقادُهُ أَنَّ اللَّه تعالى لا يُرَى، وهو اعتقادٌ باطلٌ؛ لصحَّةَ ثبوتِ الرؤية عن رَسُولِ اللَّه ﷺ؛ واستدلَّ عَلىٰ عدم اختصاصها بالتأبيد بمجيء اسْتقبالِ المنْفِيِّ بها مُغَيًّا إلى غايةٍ ينتهي بانْتهائها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، وهو واضح. انتهى، ونحوه لابْنِ هشام، ولفظه: ولا تفيدُ «لَنْ» توكيدَ المنفيِّ؛ خلافاً للزمخشريِّ في «كشافه»، ولا تأبِيدَهُ، خلافاً له في «أنموذجه»، وكلاهما دَعْوَىٰ بلا دليلٍ؛ قيل: ولو كانَتْ للتأبيدِ، لم يقيد منفيُّها بـ «اليوْم» في ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] ولكان ذكْرُهُ «الأَبَدَ» في ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] تَكْراراً، والأصل عدمه. انتهى من «المغني».

وقوله سبحانه: ﴿فلما تجلَّىٰ ربه للجبل﴾: التجلِّي: هو الظهورُ منْ غير تشبيهٍ ولا تكييفٍ، وقوله: ﴿جعله دكًّا﴾، المعنى: جعله أرضاً دكًّا، يقال: ناقةٌ دَكَّاء، أَيْ: لا سنامَ لها، ﴿وَخرَّ موسَىٰ صعقاً﴾، أي: مغشيًّا عليه، قاله جماعة من المفسِّرين.

قال * ص *: ﴿وَخرَّ﴾ معناه سقَطَ، وقوله: ﴿سبحانك﴾، أي: تنزيهاً لك؛ كذا فسَّره النبيُّ ﷺ، وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، معناه: منْ أن أسألك الرُّؤْية في الدنيا، وأنْتَ لا تبيحها فيها.

قال * ع[1] *: ويحتمل عنْدي أنه لفظ قاله عليه السلام؛ لشدَّة هَوْل المَطْلَعِ، ولم يعن التَّوْبَة مِنْ شيء معيَّن، ولكنَّه لفظٌ لائقٌ بذلك المقام، والذي يتحرَّز منه أَهْلُ السنة أنْ تكون تَوْبَةً من سؤال المُحَال؛ كما زعَمَتِ المعتزلةُ، وقوله: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾، أي: مِنْ قومه؛ قاله ابن عباس[2] وغيره، أَو مِنْ أَهْلِ زمانه؛ إِنْ كان الكُفْر قد طَبَّق الأرض، أو أولُ المؤمنين بأنك لا تُرَىٰ في الدنيا؛ قاله أبو العالية[3].

وقوله سبحانه: ﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ فيه تأديبٌ، وتقنيعٌ، وحملٌ على جادَّة السلامة، ومثالٌ لكلِّ أحدٍ في حاله، فإِن جميع النِّعم من عند اللَّه سبحانه بمقْدَارٍ،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٢).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٥٦) برقم: (١٥١١٠)، وبرقم: (١٥١١١) وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٢)، وابن كثير (٢/ ٢٤٥)، والسيوطي (٣/ ٢٢٢)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه.
(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٢)، وابن كثير (٢/ ٢٤٥)، والسيوطي (٣/ ٢٢٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي الشيخ.

وكُلُّ الأمور بِمَرْأى منه ومَسْمَع، ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾، أي: مِنْ كل شيءٍ يَنفَعُ في معنى الشرع، وقوله: ﴿وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ﴾ مثْلُه، وقوله: ﴿بقوة﴾، أي: بجدٍّ وصبرٍ عليها؛ قاله ابن عباس[١]، وقوله: ﴿بأحسنها﴾ يحتملُ معنيين.

أحدهما: التفضيلُ؛ كما إِذا عرض مثلاً مباحانِ؛ كالعفو والقِصَاصِ، فيأخذون بالأحْسنِ منهما.

والمعنى الثاني: يأخذون بَحسن وَصْفِ الشريعة بجملتها؛ كما تقول: اللَّه أَكْبَرُ، دون مقايسة.

وقوله سبحانه: ﴿سَأُورِيكُمْ دار الفاسقين﴾، الرؤية هنا: رؤيةُ عَيْنٍ؛ هذا هو الأظهر إلا أن المعنَىٰ يتضمَّن الوعد للمؤمنين، والوعِيدَ للفاسقين، ودارُ الفاسقين: قيل: هي مِصْرُ، والمراد آل فرعون، وقيل: الشام، والمراد العَمَالِقَةُ وقيل: جَهَنَّم، والمرادُ الكَفَرَةُ بموسى، وقيل غير هذا ممَّا يفتقرُ إلى صحة إِسناد.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذي يتكبَّرونَ في الأرض...﴾ الآية: المعنىٰ: سأَمْنَعُ وأَصُدُّ، قال سفيان بن عُيَيْنَة: الآياتُ هنا كلُّ كتابٍ منزَّلٍ[٢].

قال * ع[٣] *: والمعنَىٰ عن فَهْمِها وتصدِيقها، وقال ابن جُرَيْج: الآياتُ: العلامات المنصوبة الدالَّة على الوحدانية، والمعنى: عن النظر فيها، والتفكُّر والاستدلال بها، واللفظُ يعمُّ الوجْهَيْن[٤]/، والمتكبِّرون في الأرض بغير الحَقِّ: هم الكُفَّار، قُلْتُ: ويدخل في هذا ٢٠٠أ

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٨) برقم: (١٥١٢٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٢)، والسيوطي (٣/ ٢٣٣)، وعزاه لابن جرير.
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٦٠) برقم: (١٥١٣٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٤)، والبغوي (٢/ ٢٠٠) بنحوه، وابن كثير (٢/ ٢٤٧)، والسيوطي (٣/ ٢٣٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٣) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٥٤).
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٦١) برقم: (١٥١٣٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٤)، والبغوي (٢/ ٢٠٠)، والسيوطي (٣/ ٢٣٤)، وعزاه لابن المنذر، وأبي الشيخ.

المعنىٰ مَنْ تشبَّهَ بهم من عُصاة المؤمنين، والمعنَىٰ في هذه الآية: سأجْعَلُ الصَّرْف عن الآيات؛ عقوبةً للمتكبِّرين على تكبُّرهم، وقوله: ﴿وإن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها﴾ حَتْمٌ من اللّه على الطائفةِ التي قَدَّر عليهم ألاَّ يؤمنوا، وقوله: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى الصَّرْف المتقدِّم.

وقوله سبحانه: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة...﴾ الآية: هذه الآية مؤكِّدة للتي قبلها، وفيها تهديدٌ.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واتخذ قوم موسَىٰ من بعدِهِ من حُليِّهم عِجْلاً جسداً له خُوَار﴾: الخُوَارُ: صَوْتُ البقر، وقرأَتْ فرقة: «لَهُ جُؤَارٌ» ـ بالجيم ـ، أيْ: صِيَاحٌ، ثم بيَّن سبحانه سُوءَ فِطَرِهم، وقرَّر فساد ٱعتقادِهِمْ بقوله: ﴿ألم يروا أنَّه لا يكلِّمهم...﴾ الآية: وقوله: ﴿وكانوا ظالمين﴾: إخبارٌ عن جميع أحوالهم؛ ماضياً، وحالاً، ومستقبلاً، وقد مَرَّ في «البقرة» قصَّة العِجْلِ؛ فأغنَىٰ عن إعادته.

قال أبو عُبَيْدة: يقال لمن نَدِمَ على أمْرٍ، وعَجَز عنه: سُقِطَ في يَدِهِ، وقولُ بني إسرائيل: ﴿لئن لم يرحمنا ربُّنا﴾، إنما كان بَعْدَ رجوعِ موسَىٰ، وتَغَيُّرِهِ عليهم، ورؤيتِهِمْ أنهم قد خَرَجُوا من الدِّين، ووقعوا في الكُفْر.

وقوله سبحانه: ﴿ولما رجع موسَىٰ إلى قومه غضبان أسفاً﴾، يريد: رَجَعَ من المُنَاجَاة، والأَسَفُ: قد يكون بمعنى الغَضَبِ الشديدِ، وأكثرُ ما يكونُ بمعنى الحُزْن، والمعنيانِ مترتبان هنا.

وعبارةُ * ص *: ﴿غضْبَان﴾: صفةُ مبالغةٍ، والغَضَبُ غَلَيَانُ القَلْب؛ بسبب ما يؤلم و﴿أَسِفاً﴾: مِنْ أَسِفَ، فهو أَسِفٌ، كَفَرِقَ فهو فَرِقٌ، يدل على ثبوت الوصف، ولو ذُهِبَ به مَذْهَبُ الزمان، لقيل: آسِف؛ على وزن فَاعِل، والأَسَفُ: الحزنُ. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أعجلتم﴾، معناه: أسابقتم قضاء رَبِّكُم، وٱستعجلتم إِتْيَانِي قبل الوقت الذي قدر به، قال سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: كان سببُ إلقائه الأَلْوَاحَ ـ غَضَبُهُ عَلَىٰ

قومه في عبادتهم العِجْل، وَغَضَبَهُ عَلىٰ أخيه في إِهمال أَمرهم[١].

قال ابن عباس: لمَّا ألقاها، تكسَّرت، فَرُفِعَ أكثَرُها الذي فيه تفصيلُ كلِّ شيء، وبقي الذي في نُسْخَتِهِ الهُدَىٰ والرحمة، وهو الذي أخذ[٢] بعد ذلك، قال ابن عبَّاس: كانت الألواح مِنْ زُمُرُّدٍ، وقيل: من ياقوتٍ، وقيل: من زَبَرْجَدٍ، وقيل: من خشبٍ، والله أعلم[٣].

وقوله: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ استعطافٌ برحم الأمِّ؛ إذ هو أَلْصَقُ القراباتِ، وقوله: ﴿كادوا﴾، معناه: قاربوا، ولم يَفْعَلُوا، وقوله: ﴿ولا تجعلْني مع القوم الظالمين﴾، يريد: عَبَدَةَ العجْلِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾، وقد وقع ذلك النَّيْلُ بهم في عَهْدِ موسَىٰ عليه السلام، فالغضبُ والذِّلَّة هو أمرهم بقَتْل أنفسهم، وقال بعض المفسِّرين: الذِّلَّة: الجِزْيَة، ووَجْه هذا القول أن الغضب والذِّلَّة بقيتْ في عَقِبِ هؤلاء، وقال ابن جُرَيْج: الإِشارةُ إِلَىٰ من مات من عَبَدة العجْل قبل التوبة بقَتْل الأنْفُس، وإِلى مَنْ فَرَّ، فلم يكُنْ حاضراً وقت القَتْلِ[٤]، والغَضَبُ من اللَّه عزَّ وجلَّ، إن أخذ بمعنى الإِرادة، فهو صفةُ ذات، وإِن أُخِذ بمعنى العقوبةِ وإِحلالِ النِّقْمة، فهو صفةُ فِعْلٍ، وقوله: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾، المرادُ أولاً أولئك الَّذين افتَرْوا عَلَى اللَّه سبحانَهُ

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٦٥) برقم: (١٥١٣٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٧).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٦٧) برقم: (١٥١٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٧)، والسيوطي (٣/ ٢٣٥)، وعزاه لأبي الشيخ.
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٦٧) برقم: (١٥١٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٢)، والبغوي (٢/ ١٩٩)، والسيوطي (٣/ ٢٢٥)، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٧٠ ـ ٧١) برقم: (١٥١٥٧)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٨).

في عبَادة العِجْل، وتكونُ قوّة اللفظ تَعُمُّ كُلَّ مفترٍ إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان[١] بن عُيَيْنَة وأبو قِلاَبَة[٢] وغيرهما/ : كلُّ صاحب بدعة أو فِرْيَة، ذليلٌ؛ وأستدلوا بالآية. ٢٠٠ب

وقوله سبحانه: ﴿والذين عملوا السيئات. . .﴾ الآية تضمَّنت وعداً بأن اللّه سبحانه يغفرُ للتائبين؛ وقرأ معاوية بنُ قُرَّة[٣] «وَلَمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ».

قال أبو حَيَّان[٤]: واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ مُقَوِّية لوصولِ الفعْلِ، وهو ﴿يَرْهَبُونَ﴾ إلى مفعوله المتقدِّم.

وقال الكوفيُّون: زائدةٌ[٥].

وقال الأخفشُ: لام المفعول له، أي: لأجلِ ربِّهم. انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٧٢) برقم: (١٥١٦١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٨)، والبغوي (٢/ ٢٠٢)، وابن كثير (٢/ ٢٤٨)، والسيوطي (٣/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٧١) برقم: (١٥١٥٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٥٨)، والبغوي (٢/ ٢٠٢)، وابن كثير (٢/ ٢٤٨) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٢٣٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) معاوية بن قُرَّة بن إِيَاس المُزَنِي أبو إِياس البَصْرِي. عن علي مرسلاً، وابن عباس، وابن عمر. وعنه قتادة وشعبة وأبو عَوَانة وخلق، وثقه ابن معين وأبو حاتم.
قال خليفة: مات سنة ثلاثة عشرة ومائة، ومولده يوم الجمل. ينظر: «**الخلاصة**» (٣/ ٤١ ـ ٤٢)، «**التقريب**»: (٢/ ٢٦١)، «**الثقات**» (٥/ ٤١٢).

(٤) ينظر: «**البحر المحيط**» (٤/ ٣٩٦).

(٥) وفي اللام أقوال:
أحدها أن اللام مقوية للفعل، لأنه لما تقدم معموله ضَعُفَ فقوي باللام، كقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام تكون مقوية حيث كان العامل مؤخراً، أو فرعاً، نحو: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، ولا تزاد في غير هذين إلا ضرورة عند بعضهم، كقوله:

فَلَمَّا أَنْ تَوَافَقْنَا قَلِيلاً أَنَخْنَا لِلْكَلاكِلِ فَارْتَمَيْنَا

أو في قليل من الكلام عند آخرين، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾.
والثاني: أن اللام لام العلة، وعلى هذا فمفعول «يَرْهَبُونَ» محذوف، تقديره: يَرْهَبُونَ عقابَه لأجله، وهذا مذهب الأخفش.
الثالث: أنها متعلقة بمصدر محذوف، تقديره: الذين هم رهبتهم لربهم، وهو قول المبرد، وهذا غير جارٍ على قواعد البصريين، لأنه يلزم منه حذف المصدر، وإبقاء معموله، وهو ممتنع إلا في شعر. وأيضاً فهو تقديره مُخرج للكلام عن وجه فصاحته.
الرابع: أنها متعلقة بفعل مقدر أيضاً، تقديره: يخشعون لربهم، ذكره أبو البقاء، وهو أولى مما قبله. ينظر: «**الدر المصون**» (٣/ ٣٥٠).

قلْتُ: قال ابنُ هِشَام في «المُغْني» ولام التقْويَةِ هي المَزِيدَةُ لتقويةِ عاملٍ ضَعُفَ؛ إما لتأخيرٍ؛ نحو: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، و﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أو لكَوْنِهِ فرعاً في العمل؛ نحو: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقد اجتمع التأخيرُ والفرعيةُ في: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. انتهى.

وقوله: ﴿واختارَ موسَىٰ قومه...﴾ الآية: قال الفَخْرُ(١): قال جماعة النحوِّيين: معناه: واختارَ موسَىٰ مِنْ قومه، فحذف «مِنْ»، يقال: اخترْتُ مِنَ الرجالِ زيْداً، واخترْتُ الرجالَ زَيْداً. انتهى.

قال * ع(٢) *: معنى هذه الآية أن موسىٰ عليه السلام اختار مِنْ قومه هذه العِدَّة؛ لِيَذْهَبَ بهم إلى مَوْضِعِ عبادةٍ وابتهالٍ ودعاءٍ، فيكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى اللّه سبحانه مِنْ خطإِ بني إسرائيل في عبادةِ العِجْلِ، وقد تقدَّم في «سورة البقرة» [البقرة: ٥١] قصصهم، قالتْ فرقة من العلماء: إنَّ موسَىٰ عليه السلام لمَّا أعلمه اللّه سبحانه بعبادة بني إسرائيل العِجْلَ، وبصفته، قالَ موسَىٰ: أي ربِّ، ومَنْ اختاره؟ قَالَ: أنا، قال موسَىٰ: فأنْتَ، يا ربِّ، أضْلَلْتهُمْ، ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: إنَّ الأمور بيدك تفعلُ ما تريدُ.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة...﴾ الآية: ﴿اكْتُبْ﴾: معناه: أثْبِتْ وَاقْضِ، والكَتْب: مستعملٌ في كلِّ ما يخلَّد، و﴿حسنة﴾: لفظ عامٌ في كل ما يحسن في الدنيا من عاقبة وطاعة للّه سبحانه، وغيْرِ ذلك، وحَسَنَةُ الآخرةِ: الجَنَّة، لا حَسَنَة دونها، ولا مَرْمَىٰ وراءها، و﴿هُدْنَا﴾ ـ بضم الهاء ـ: معناه: تُبْنَا.

وقوله سبحانه: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾، يحتمل أن يريد بـ «العذاب»

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ١٥).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٩).

الرجفةَ التي نزلَتْ بالقوم، ثم أخبر سبحانه عن رحمته، ويحتملُ؛ وهو الأظهر: أن الكلام قصد به الخَبَرُ عن عذابه، وعن رحمته، وتصريف ذلك في خليقته؛ كما يشاء سبحانه، ويندرجُ في عمومِ العذابِ أصحابُ الرجفة، وقرأ الحسنُ بنُ أبي الحسن، وطَاوُسٌ، وعَمْرُو[١] بن فائدٍ: «مَنْ أَسَاءَ»[٢] من الإساءة، ولا تعلُّق فيه للمعتزلة، وأطنب القُرَّاء في التحفُّظ من هذه القراءة، وَحَمَلَهُمْ على ذلك شُحُّهم[٣] على الدِّين.

وقوله سبحانه: ﴿ورحمتي وسعتْ كُلَّ شيءٍ﴾، قال بعض العلماء: هو عمومٌ في الرحمة، وخصوصٌ في قوله: ﴿كل شيْءٍ﴾، والمراد: مَنْ قد سبق في عِلْم اللَّه أن يرحمهم، وقوله سبحانه: ﴿فسأكتبها﴾، أي: أقدِّرها وأقضيها.

وقال نَوْفٌ البِكَالِيُّ[٤]: إن موسَىٰ عليه السلام قال: يا رَبِّ، جعلْت وِفَادَتِي لأمَّة محمَّد عليه السلام، وقوله: ﴿ويؤتون الزكاة﴾: الظاهر: أنها الزكاةُ المختصَّة بالمالِ، وروي عن ابن عباس؛ أن المعنى: يؤتون الأعمالَ التي يزكُّون بها أنفسهم[٥].

وقوله سبحانه: ﴿الذي يتَّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ. . .﴾ الآية: هذه ألفاظٌ أخرجَت

---

(١) عمرو بن فائد، أبو علي الأسواري التميمي: معتزلي قدري، من القراء القُصاص، من أهل البصرة، كان منقطعاً إلى أميرها محمد بن سليمان، أخذ عن عمرو بن عبيد، وله معه مناظرات، وكان متروك الحديث، ليس بثقة، ولا يكتب حديثه، وقيل: له «تفسير» كبير.
قال ابن حجر: مات بعد المائتين بيسير.
ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٥/ ٨٣) (٥٤٠).

(٢) وقد حسنها أبو الفتح على مذهبه من الاعتزال.
ينظر: «المحتسب» (١/ ٢٦١)، و«الشواذ» (٥١)، و«الكشاف» (٢/ ١٦٥) و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦١)، و«البحر المحيط» (٤/ ٤٠٠)، وزاد أبو حيان نسبتها إلى زيد بن علي، ثم قال: وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس، وعمرو بن فائد رجل سوء، وقرأ بها سفيان بن عيينة مرة واستحسنها، فقام إليه عبد الرحمٰن المقرىء وصاح به، وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر، ولم أفطن لما يقول أهل البدع.
ينظر: «الدر المصون» (٣/ ٣٥٣).

(٣) الشُّحُ في الأصل هو: البخل، وتشاحوا في الأمر وعليه: شح بعضهم على بعض، وتبادروا إليه حذر فوته، وكان المعنى هنا مأخوذ من الحرص على المحافظة على أساس الدين.
ينظر: «لسان العرب» (٢٢٠٥).

(٤) نوف بن فضالة الحميري البكالي: إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحيحين» وكان راوياً للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، ذكره البخاري في فصل: من مات ما بين التسعين إلى المئة.
ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٨/ ٥٤) (٥١١).

(٥) أخرجه الطبري (٦/ ٨٢) برقم: (١٥٢٢٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٦١).

اليهودَ والنصَارَىٰ مِنَ ٱلاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فسأكتبها للذين يتَّقون﴾، وخلُصَتْ هذه العِدَةُ لأمة محمَّد/ ﷺ، قاله ابن عباس[١] وغيره. قلْتُ: وهذه الآيَةُ الكريمة مُعْلِمَةٌ [٢٠١]
بشَرَف هذه الأمَّة على العُمُوم في كلِّ مَنْ آمَنَ باللّه تعالى، وأقرَّ برسَالة النبيِّ ﷺ ثم هم يتفاوتون بعدُ في الشرف؛ بحَسَب تفاوتهم في حقيقة ٱلاتباعية للنبيِّ ﷺ، قال الغَزَّالِيُّ رحمه اللّه في «الإحياء»: وإنما أُمَّتُه ﷺ مَنِ ٱتبعه، وما ٱتبعه إلاَّ مَنْ أعرض عن الدنيا، وأَقْبَلَ على الآخرةِ، فإنه عليه السلام ما دَعَا إلاَّ إلى اللّهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وما صَرَفَ إلاَّ عن الدنيا والحظوظِ العاجلةِ، فبقَدْرِ ما تُعْرِضُ عن الدنيا، وتُقْبِلُ على الآخرة، تَسْلُكُ سبيله الذي سَلَكَهُ ﷺ، وبقَدْرِ ما سَلَكْتَ سبيله، فقد اتبعته، وبقَدْر ما اتبعتَهُ، صِرْتَ من أمته، وبقَدْرِ ما أَقبلْتَ على الدنيا، عَدَلْتَ عن سبيله، ورغبْتَ عَنْ متابعته، وٱلتحقْتَ بالذين قال اللّه تعالَىٰ فيهم: ﴿فأما مَنْ طَغَىٰ * وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ المَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨، ٣٩]. انتهى، فإن أردتَّ ٱتباعَ النبيِّ ﷺ على الحقيقة، وٱقتفاءَ أثره، فٱبْحَثْ عن سيرته وخُلُقه في كتب الحديث والتفسير.

قال ابنُ القَطَّان في تصنيفه الذي صنَّفه في «الآيات والمعجزات»: والقول الوجيز في زُهْدِهِ وعبادتِهِ وتَوَاضُعِهِ وسائرِ حُلاَه وَمعَاليه ﷺ: أنه مَلَكَ مِنْ أقصَى اليمن إلَىٰ صحراء عمان إلى أَقْصَىٰ الحجاز، ثم تُوُفِّيَ عليه السلام، وعليه دَيْنٌ، ودِرْعُهِ مَرْهونةٌ في طَعَام لأهله، ولم يتركْ ديناراً ولا درهماً، ولا شَيَّد قَصْراً، ولا غَرَس نَخْلاً، ولا شَقَّق نَهْراً، وكان يأكل على الأرضِ ويجلسُ على الأرض، ويَلْبَسُ العَبَاءة، ويجالسُ المَساكين، ويَمْشِي في الأسواق، ويتوسَّد يَدَه، ويلعقُ أصابعه، ويُرقِّع ثوبه، ويَخْصِفُ نَعْلَه، ويُصْلِح خُصَّه، ويمهنُ لأهله، ولا يأكل متكِئاً، ويقول: «أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْد»، ويقتصُّ من نفسه، ولا يُرَىٰ ضاحكاً مِلْءَ فِيهِ ولو دُعِيَ إلى ذراعٍ، لأجاب، ولو أُهْدِيَ إليه كُرَاعٌ لَقبل، لا يأكلُ وحده، ولا يَضْرِبُ عبده، ولا يمنعُ رفده ولا ضَرَبَ قطُّ بيدِهِ إلاَّ في سَبِيل اللّه، وقام للّه حتَّى تَوَرَّمَتْ قدماه، فقيل له: أتَفعَلُ هذا وقد غفَرَ اللّه لك مَا تَقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ؟ فقال: «أفلاَ أكُونُ عَبْداً شَكُوراً»، وكان يُسْمَعُ لِجَوْفه أزِيزٌ؛ كأزيز المِرْجَلِ[٢] من البكاءِ؛ إذا قام بالليل ﷺ وعلى آله وأتباعه صلاةً دائمةً إلَىٰ يوم القيامة. انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٨٣) برقم: (١٥٢٢٥)، وبرقم: (١٥٢٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٢)، والسيوطي (٣/ ٢٤١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) المِرْجَلُ: القِدْر من الحجارة والنّحاس. مذكر.
ينظر: «لسان العرب» (١٦٠١).

وقال(١) الفَخْر: قوله تعالىٰ: ﴿الذين يتبعون الرسُولَ...﴾ الآية: قال بعضهم: الإشارة بذلك إلى مَنْ تقدَّم ذكْرُه من بني إسرائيل، والمعنَىٰ: يتبعونه بٱعتقادِ نبوَّته؛ من حيث وَجَدُوا صفتَهُ في التوراة، وسيجدونه مكتوباً في الإنجيل.

وقال بعضهم: بل المرادُ مَنْ لحق مِنْ بني إسرائيل أيام النبيِّ ﷺ، فبيَّن تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا تكتب لهم رحمةُ الآخرة إلاّ إذا اتبعوا النبيَّ الأُميَّ.

قال الفخر(٢): وهذا القول أقربُ. انتهى. وقوله: ﴿يجدونه﴾، أي: يجدون صفة نبيِّنا محمد ﷺ ونعته؛ ففي «البخاريِّ» وغيره، عن عبد الله بن عمرو؛ أنَّ في التوراة مِنْ
٢٠١ ب صفة النبيِّ ﷺ «يَأيُّهَا النَّبِيُّ إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً/ وَنَذِيراً وَحِرْزاً لِلأُمِيِّيِّن، أنْتَ عَبْدِي وَرَسُولي، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّاب(٣) في الأَسْوَاق، وَلاَ يَجْزي بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّىٰ أُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاء؛ بأنْ يَقُولُوا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، فَنُقِيمُ بِهِ قُلُوباً غُلْفاً، وأَذَاناً صُمّاً، وَأَعْيُناً عُمْياً»، وفي «البخاريِّ»: «فَيَفْتَحُ بِهِ عُيُوناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلْفاً(٤)»، ونصَّ كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلاَّ أنه قال: «قُلُوباً غُلُوفاً، وآذناً صُمُوماً».

وقوله سبحانه: ﴿يأمرهم بالمعروف...﴾ الآية: يحتملُ أن يكون ٱبتداءَ كلام وُصِفَ به النبيُّ ﷺ، ويحتملُ أن يكون متعلِّقاً بـ «يجدونه» في موضع الحال على تجوُّزٍ، أي: يجدونه في التوراةِ آمراً؛ بشرط وجوده، والمعروف: ما عُرِفَ بالشرع، وكلُّ معروف من جهة المروءة، فهو معروفٌ بالشرع، فقد قال ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَحَاسِنَ الأَخْلاَقِ»(٥) و﴿المُنْكَرُ﴾: مقابله، وَ﴿الطيِّبات﴾؛ عند مالك: هي المحلَّلات، و﴿الخبائثُ﴾ هي المحرَّمات، وكذلك قال ابن عباس، والإِصْرُ الثِّقْل(٦)، وبه فَسَّرَ هنا قتادةُ(٧) وغيره،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٢٠).
(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٢٠).
(٣) السَّخَب والصَّخَب: الصياح.
ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٩).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه الطبري (٦/ ٨٥ ـ ٨٦) برقم: (١٥٢٤١) بلفظ: «عهدهم»، وبرقم: (١٥٢٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٣)، والبغوي (٢/ ٢٠٦)، والسيوطي (٣/ ٢٤٨).
(٧) أخرجه الطبري (٦/ ٨٦) برقم: (١٥٢٤٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٣٠)، والبغوي (٢/ ٢٠٦)، والسيوطي بنحوه (٣/ ٢٤٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

والإِصْر أيضاً: العَهْد، وبه فسر ابنُ عباس وغيره[١]، وقد جَمَعَتْ هذه الآيةُ المعنيين؛ فإِن بني إِسرائيل قد كان أخذ عليهم العَهْدُ بأن يقوموا بأعمال ثقال، فَوَضَعَ عنهم نبيُّنا محمَّد ﷺ، وقال ابن جُبَيْر: الإِصْر: شِدَّة العبادة[٢]، وقرأ ابن عامر[٣]: «آصارَهُمْ» بالجمع فَمَنْ وحَّد «الإِصر»؛ فإِنما هو اسمُ جنْس عِنده، يراد به الجمعُ، ﴿والأغلالُ التي كانَتْ عليهم﴾ عبارةٌ مستعارَةٌ أيضاً لتلك الأثقال، كَقَطْعِ الجِلْدِ من أثر البَوْلِ، وأن لا ديةَ، ولا بدَّ من قَتْل القاتل، إلى غير ذلك، هذا قول جمهور المفسِّرين، وقالَ ابن زَيْدٍ: إنما المراد هنا بـ ﴿الأغلالَ﴾ قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ في اليهود: ﴿غُلَّتْ أيديهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فمنْ آمن بنبينا محمَّد ﷺ، زالَتْ عنه الدعوةُ، وتغليلها[٤]، ومعنى ﴿عَزَّرُوُه﴾: أي: وقَّروه، فالتعْزيرُ والنصْرُ: مشاهدةٌ خاصَّة للصحابة، واتِّبَاعُ النور: يشترك فيه معهم المؤمنون إِلَىٰ يوم القيامة، والنُّورُ: كنايةٌ عن جُمْلة الشرع، وشَبَّه الشرعَ والهُدَىٰ بالنور، إِذ القلوبُ تستضيء به؛ كما يستضيء البَصَرُ بالنُّور.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأيها الناس إني رسول اللَّه إليكم جميعاً﴾ هذا أمر من اللَّه

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٨٥) برقم: (١٥٢٤١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٣)، والسيوطي (٣/ ٢٤٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٣)، والسيوطي (٣/ ٢٤٨)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) وحجته أنه لم يختلف في جمع «الأغلال»، وهي نَسَقٌ على الإصر، وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ [آل عمران: ٨١].
ينظر: «**السبعة**» (٢٩٥)، و«**الحجة**» (٤/ ٩٣)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٢١٠)، و«**حجة القراءات**» (٢٩٨)، و«**إتحاف**» (٢/ ٦٥)، و«**معاني القراءات**» (١/ ٤٢٥)، و«**شرح شعلة**» (٣٩٧ - ٣٩٨)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٣١) و«**العنوان**» (٩٨).

(٤) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٤).

سبحانه لنبيِّه بإشهار الدعوة العامَّة، وهذه من خصائصه ﷺ مِنْ بين سائر الرسُلِ؛ فإنه ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافَّة، وإلى الجنِّ، وكلُّ نبيٍّ إنما بعث إلى فرقة دون العُمُوم.

وقوله سبحانه: ﴿فآمِنُوا بالله ورسوله...﴾ الآية: حَضٌّ على اتباع نبينا محمَّد ﷺ، وقوله: ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾، أيْ: يصدق بالله وكلماته، والكلماتُ هنا: الآياتُ المنزلة مِنْ عند الله؛ كالتوراة والإنجيل، وقوله: ﴿واتبعوه﴾ لفظ عامٌّ يدخل تحته جميعُ إلزامات الشريعة، جعلنا الله مِنْ متَّبعيه على ما يلزم بمنِّه ورحمته.

قُلْتُ: فإن أردتَّ الفوزَ أيُّها الأَخُ، فعَلَيْكَ بأتباع النبيِّ ﷺ وتعظيمِ شريعته، وتعظيم جَمِيعِ أسبابه.

قال عِيَاضٌ: وَمِنْ إعظامه ﷺ وإكبارهِ إعظام جميع أَسبابه وإِكْرَامُ مشاهده وأَمْكِنَتِهِ، ومعاهِدِهِ، وما لَمَسَهُ عليه السلام أَوْ عُرِفَ به، حُدِّثْتُ أن أبا الفَضْل الجوهري، لمَّا وَرَدَ المدينةَ زائراً، وقَرُبَ من بيوتها، ترجَّل، ومشَىٰ باكياً منشداً: [الطويل]

١٢٠٢ وَلَـمَّـا رَأَيْـنَـا رَسْـمَ مَـنْ لَـمْ يَـدَعْ لَـنَـا ... فُـؤَاداً لِـعِـرْفَـانِ/ الـرُّسُـومَ[1] وَلاَ لُـبَّـا[2]

نَـزَلْـنَـا عَـنِ الأَكْـوَارِ[3] نَـمْـشِـي كَـرَامَـةً ... لِـمَـنْ بَـانَ عَـنْـهُ أَنْ نَـلُـمَّ بِـهِ رَكْـبَـا

وحُكِيَ عن بعض المريدين؛ أنه لما أشْرَفَ عَلَىٰ مدينة الرسول عليه السلام، أنشأ يقُولُ: [الكامل]

رُفِـعَ الـحِـجَـابُ[4] لَـنَـا فَـلاَحَ لِـنَـاظِـرِي ... قَـمَـرٌ تُـقَـطَّـعُ دُونَـهُ الأَوْهَـامُ[5]

وَإِذَا الـمَـطِـيُّ[6] بِـنَـا بَـلَـغْـنَ مُـحَـمَّـداً ... فَـظُـهُـورُهُـنَّ[7] عَـلَـىٰ الـرِّجَـالِ حَـرَامُ

---

(١) الرسم: آثار الديار الدارسة، والمراد آثاره ﷺ في معاهده ومساكنه، والفؤاد: القلب، والعِرفان: المعرفة، واللُّب: العقل.

(٢) الأبيات للمتنبي (١/٥٦)، ينظر: الأبيات في «الشفا» ص: (٦٢١).

(٣) الأكوار: جمع كور، وهو للإبل بمنزلة السرج للفرس، بان: بعد، نَلُمّ: نأتيه لزيارته، والإلمام: الإتيان قليلاً.

(٤) المراد برفع الحجاب في الشعر: رفع ستائر أبواب الملوك والعظام، وهو هنا، بمعنى انقضاء المسافة، والقرب من المدينة، والقمر: الممدوح، وتقطع: تضمحل.

(٥) الأبيات لأبي نواس في مدح محمد الأمين. ينظر: «ديوانه» ص: (٤٠٨)، وتنظر الأبيات في: «الشفا» (٦٢٢).

(٦) المطيّ: جمع مطية: ناقة تمتطى وتركب، ولاح: بدا وظهر، دونه: قريباً منه.

(٧) فظهورهن على الرجال حرام، أي: إذا أوصلتهم لمقاصدهم، كانت لها حرمة تقتضي رعايتها وراحتها، =

فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ ... قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِىءَ الحَصَى[١]

وحُكِيَ عن بعض المشايخ؛ أنه حجَّ ماشياً، فقيل له في ذلك، فقال: العَبْدُ الآبِقُ يأتي إلى بيت مولاه راكباً؟ لو قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ عَلَىٰ رأسِي، ما مَشَيْتُ على قدَمي.

قال عياض: وجديرٌ لمواطنَ عُمِرَتْ بالوحْيِ، والتنزيل؛ وتردَّد فيها جبريلُ وميكائيل، وعَرَجَتْ منها الملائكةُ والرُّوح؛ وضجَّتْ عرصاتها[٢] بالتقديس والتسبيح، واشتملَتْ تربتها عَلَىٰ جَسَد سَيِّد البَشَر؛ وٱنْتَشَرَ عنْهَا مِنْ دِينِ اللَّه وسنة رسُوله ما ٱنْتَشَرَ، مدارسُ وآيات؛ ومَسَاجِدُ وصَلَوَات؛ ومَشَاهِدُ الفَضَائِلِ والخَيْرَات؛ ومعاهدُ البراهين والمُعْجِزَات ـ أنْ تعظَّم عَرَصَاتها؛ وتُتَنَسَّمَ نفحاتها؛ وتُقَبَّلَ ربُوعُها وجدراتُها: [الكامل]

يَا دَارَ خَيْرِ المُرْسَلِينَ ومَنْ بِهِ ... هُدِيَ الأَنَامُ[٣] وَخُصَّ بِالآيَاتِ[٤]

عِنْدِي لأَجْلِكَ لَوْعَةٌ[٥] وَصَبَابَةٌ ... وَتَشَوُّقٌ مُتَوَقِّدُ الجَمَرَاتِ

الأبيات. انتهى من «**الشفا**».

وقوله سبحانه: ﴿ومِنْ قوم موسَىٰ أمة يهدون﴾، أي: يرشدُونَ أنفسهم، وهذا الكلامُ يحتملُ أنْ يريد به وصْفَ المؤمنين منهم، علَىٰ عهد مُوسَىٰ، وما والاَهُ مِنَ الزمَنِ، فأخبر سبحانه، أنه كان في بني إسرائيل علَىٰ عتوِّهم وخلافِهِمْ مِنَ ٱهتدَىٰ واتقَىٰ وعَدَلَ، ويحتمل أنْ يريد الجماعةَ التي آمَنَتْ بنبيِّنا محمد ﷺ من بني إسرائيل، علَىٰ جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾: بَدلٌ من ﴿ٱثْنَتَيْ﴾، والتمييزُ الذي بَيْنَ العَدَدَ محذوفٌ تقديره: ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ فرقةً أو قِطْعَةً أسباطاً.

وقوله سبحانه: ﴿وأوحينا إِلَىٰ موسَى إذ ٱستسقاه قومه أن ٱضرب بعصاك الحجر

= فلا يركبها بعد ذلك رجل، ولا يوضع على ظهرها شيء، بل تترك سارحة منعمة في مرعاها.

(١) روي البيت في «**الشفا**» «. . . . من وطىء الثرى». وخير من وطىء الثرى: النبي، فهو خير الناس، والحرمة: الحق الذي يلزم احترامه، والذمام: ما يلزم احترامه، أو جمع ذمة، وهي العهد، وما يجب الوفاء به.

(٢) العَرْصَةُ: كل بقعة بين الدور واسعةٍ ليس فيها بناء.
ينظر: «**لسان العرب**» (٢٨٨٣).

(٣) الأنام: الخلق، خصّ بالآيات: القرآن، أو جميع المعجزات.

(٤) الشعر للقاضي عياض، ينظر الأبيات في: «**الشفا**» (٦٢٣)، و«**نسيم الرياض**» (٣/ ٤٨٨)، وقال القاري: (٢/ ١٠٢): قال الحلبي: الذي يظهر أن هنا الشعر من قول عياض رحمه الله.

(٥) اللوعة: شدة الحب وحرقته، والصبابة: رقة الشوق.

فَٱنۢبَجَسَتْ منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظلّلنا عليهم الغمام. . .﴾ الآية: ﴿ٱنۢبَجَسَتْ﴾: بمعنى ٱنفَجَرَتْ، وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المعاني في «البقرة».

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ قيل لهم أسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وأدخلوا الباب سجَّداً نَغْفِرْ لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذي ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾: القَرْيَةُ هي بيْتُ المَقْدِسِ.

وقيل: أَرِيحَاء، و«بَدَّلَ»: معناه غَيَّرَ اللَّفْظَ.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر. . .﴾ الآية: قال بعضُ المتأوِّلين: إن اليهودَ المعاصرينَ للنبيِّ ﷺ قالُوا: إنَّ بني إسرائيل لم يَكُنْ فيهم عصْيانٌ، ولا معاندةٌ لمَا أُمرُوا به، فنزلَتْ هذه الآيةُ موبِّخة لهم، فسؤالهم إِنَّما هو علىٰ جهة التوبيخِ، والقريةُ هنا: أَيْلَةُ، قاله[1] ابن عباس وغيره، وقيل: مَدْين، و«حاضِرة البَحْر»، أي: البحر فيها حاضرٌ، ويحتملُ أنْ يريد معنى «الحاضرة»؛ على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرةُ في مُدُن البَحْر، و﴿يَعْدُونَ﴾: معناه: يخالفون الشرْعَ؛ مِنْ عَدَا يَعْدُو، و﴿شُرَّعاً﴾، أي: مقبلة إِليهم مُصْطَفَّة، كما تقولُ: شُرِعَتِ الرماحُ إِذا مُدَّتْ مصطَفَّة، وعبارةُ البخاري/ ﴿شُرَّعَاً﴾ أي: شوارِعَ انتهى. ٢٠٢ب

والعامل في قوله: ﴿ويوم لا يسبتون﴾ قولُهُ: ﴿لا تأتيهم﴾، وهو ظرفٌ مقدَّم،

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٩١) برقم: (١٥٢٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٦٧)، والبغوي (٢/ ٢٠٨)، وابن كثير (٢/ ٢٥٧)، والسيوطي (٣/ ٢٥١)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

ومعنى قوله ﴿كذلك﴾ الإشارةُ إلى أمر الحُوت، وفِتنَتِهِمْ به، هذا عَلَىٰ من وَقَفَ على ﴿تأتيهم﴾، ومن وقف على ﴿كذلك﴾، فالإشارة إلى كثرة الحيتانِ شُرَّعاً، أي: فما أتى منها يَوْمَ لا يسبتُونَ، فهو قليلٌ، و﴿نبلوهم﴾، أي: نمتحنهم بِفِسْقهم وعِصْيانهم، وقد تقدَّم في «البقرة» قصصهم.

وقوله سبحانه: ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً اللّه مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾.

قال جمهور المفسِّرين: إن بني إسرائيل ٱفترقَتْ ثلاثَ فرقٍ: فرقةٌ عصَتْ، وفرقةٌ نهَتْ، وجاهَرَتْ وتكلَّمَت وٱعْتَزَلَتْ، وفرقةٌ ٱعتزلَتْ، ولم تَعْصِ ولم تَنْه، وأن هذه الفرقة لما رأتْ مجاهرة الناهية، وطُغيانَ العاصيةِ وعَتُوَّهَا، قالَتْ للناهية: ﴿لَمْ تَعِظُونَ قَوْماً﴾، يريدونَ: العاصيةَ ﴿اللّه مهلكهم أو معذبهم﴾، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى اللّه، أي: إقامة عُذْر، ومعنَىٰ ﴿مهلكهم﴾، أي: في الدنيا، ﴿أو معذبهم﴾، [أي]: في الآخرةِ، والضمير في قوله: ﴿نسوا﴾ للمَنْهِيين، وهو تَرْكُ سُمِّيَ نِسياناً مبالغةً، و«ما» في قوله: ﴿ما ذكروا به﴾ بمعنى الَّذي، و﴿السوء﴾: لفظ عامٌّ في جميع المعاصي إلاَّ أنَّ الذي يختصُّ هنا بحَسَب قصص الآيةِ هو صَيْدُ الحوتِ، و﴿الذين ظلموا﴾: هم العاصُونَ، وقوله: ﴿بعذاب بَئِيس﴾ معناه: مؤلمٌ موجعٌ شديدٌ، واختلف في الفرقة التي لم تَعْصِ ولم تَنْهَ، فقيل: نَجَتْ مع الناجين، وقيل: هلَكَتْ مع العاصين.

وقوله: ﴿بما كانوا يفسقون﴾، أي: لأجل ذلك، وعقوبةً عليه، والعُتُوُّ ٱلاستعصاء وقلَّة الطواعية.

وقوله سبحانه: ﴿قلنا لهم كونوا﴾، يحتمل أن يكون قولاً بلفظ مِنْ مَلَك أَسْمَعَهم؛ فكَانَ أذْهَبَ في الإعراب والهَوْلِ والإصغارِ، ويحتمل أن يكون عبَارةً عن القُدْرة المكوِّنة لهم قردةً، و﴿خاسئين﴾: معناه مبعَدِين فـ«خاسئين» خبر بعد خبرٍ، فهذا ٱختيار أبي الفَتْح، وضعَّف الصفَة، فرُوِيَ أنَّ الشباب منهم مُسِخُوا قردةً، والرجالَ الكبارَ مُسِخَوا خنازير.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ معنى هذه الآية: وإذْ علم اللّه لَيَبْعَثَنَّ، وتقتضي قوَّة الكلام؛ أنَّ ذلك العلْمَ منه

سبحانه مقترنٌ بإنفاذٍ وإمضاء؛ كما تقول في أمر عَزَمْتَ عليه: عَلِمَ اللَّهُ لأَفْعَلَنَّ.

وقال الطبريُّ[١] وغيره: ﴿تأذَّنَ﴾ معناهُ: أعْلَمَ، وقال مجاهد: ﴿تأذَّنَ﴾ معناه: أَمَرَ[٢] وقالت فرقة: معنى ﴿تأذَّنَ﴾: تَأَلَّى، والضمير في ﴿عليهم﴾، لبني إسرائيل، وقوله: ﴿من يسومهم﴾ قال ابن عباس: هي إشارةٌ إلى محمَّد ﷺ وأُمَّتِهِ، يسومُونَ اليهودَ سُوءَ العذاب[٣].

قال * ع[٤] *: والصحيح أنَّ هذا حالهم في كل قُطْر، ومَعَ كُلِّ مِلَّة، و﴿يسومهم﴾: معناه: يكلِّفهم ويحمِّلهم، و﴿سُوءَ العذاب﴾: الظاهر منه: أنه الجِزْيَةُ، والإذلالُ، وقد حتم اللَّه علَيْهم هذا، وحَطَّ مُلْكَهم، فليس في الأرض رايةٌ ليهوديٍّ، ثم حَسَّنَ في آخر الآية التنبيهُ علىٰ سرعة العِقَاب، والتخويفُ لجميعِ الناسِ، ثم رَجَّىٰ سبحانه بقوله: ﴿وإنه لغفور رحيم﴾؛ لطفاً منه بعباده جلَّ وعَلا، ﴿وقطعناهم في الأرض﴾، معناه: فرَّقناهم في الأرض.

قال الطبريُّ[٥] عن جماعة من المفسِّرين: ليس في الأرض بقعةٌ إلاَّ وفيها مَعْشَرٌ من اليهودِ، والظاهر في المُشَارَ إليهم بهذه الآية؛ أنهم الذين بعد سُلَيْمَانَ وَقْتَ زوالِ مُلْكهم،
٢٠٣أ والظاهر أنهم قبل مُدَّة عيسَىٰ عليه السلام؛ لأنهم لم يكُنْ فيهم صالحٌ/ بعد كُفْرهم بعيسَى ﷺ و﴿بَلَوْناهم﴾، معناه: امتحنَّاهم ﴿بالحسنات﴾، أي: بالصِّحَّة والرخاءِ، ونحو هذا ممَّا هو بَحَسَب رأي ابن آدم ونَظَرِه، و﴿السيئاتِ﴾: مقابلات هذه، ﴿لَعَلهم يَرْجِعُونَ﴾ إلى الطاعة.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ١٠٢).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٠٢) برقم: (١٥٣٠٨ ـ ١٥٣٠٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧١)، والبغوي (٢/ ٢٠٩)، وابن كثير (٢/ ٢٥٩)، والسيوطي (٣/ ٢٥٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٠٢) برقم: (١٥٣١٠)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧١)، وابن كثير (٢/ ٢٥٩).

(٤) ينظر: «تفسير المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ١٠٤).

وقوله سبحانه: ﴿فخلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب. . .﴾ الآية: خَلَفَ معناه: حَدَثَ خَلْفَهم وبعدهم، و﴿خَلْف﴾ ـ بإسكان اللام ـ يستعمل في الأشهر: في الذَّمِّ.

وقوله سبحانه: ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ إشارةٌ إلى الرُّشَاوالمكاسب الخبيثة، والعَرَضُ: ما يَعْرِضُ وَيعنُّ، ولا يثبُتُ، والأَدنَى: إشارةٌ إلَى عيشِ الدنيا، وقولهم: ﴿سيغفر لنا﴾ ذمٌّ لهم بٱغترارهم، وقولِهِمْ ﴿سيغفر لنا﴾، مع علمهم بما في كتاب اللَّهِ، مِنَ الوعيد على المعاصي، وإصرارِهِم، وأنَّهم بحالٍ إذا أمكنَتْهم ثانيةً ٱرتكبوها، فهؤلاء عَجَزَةٌ؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلَى اللَّهِ»[١]، فهؤلاءِ قطعوا بالمغفرة وهم مُصِرُّون، وإنما يقول: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مَنْ أقلع ونَدِمَ.

وقوله سبحانه: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب. . .﴾ الآية: تشديدٌ في لزوم قول الحقِّ على اللَّه في الشَّرْع والأحكام، وقوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿ألم يُؤخَذْ﴾؛ لأنه بمعنى المُضِيِّ، والتقديرُ: أَلَيْسَ قد أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتابِ، ودَرَسُوا ما فيه، وبهذَيْنِ الفعْلَيْنِ تقومُ الحجَّة عليهم في قولهم الباطَل، وقرأ أبو عبد[٢] الرحمٰن السُّلَمِيُّ: «وَٱدَّارَسُوا مَا فِيه».

ثم وعظ وذكَّر تبارَكَ وتعالىٰ بقوله: ﴿والدارُ الآخرة خير للذينَ يتقون أفلا تعقلون﴾، وقرأأبو عمرو: «أَفَلاَ يَعْقِلُونَ» ـ بالياء[٣] من أسْفَلُ ـ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٨) كتاب «صفة القيامة» باب: (٢٥)، حديث (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣) كتاب «الزهد» باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٧١٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٥٧)، وابن المبارك في **«الزهد»** ص: (٥٦) برقم: (١٧١)، والبيهقي (٣/ ٣٦٩) كتاب «الجنائز» باب: ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر الأمل، وفي **«شعب الإيمان»** (٧/ ٣٥٠) برقم: (١٠٥٤٦)، والطبراني في **«الكبير»** (٧/ ٣٤١) برقم: (٧١٤٣)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (١/ ٢٦٧)، والخطيب في **«تاريخ بغداد»** (١٢/ ٥٠)، والقضاعي في **«مسند الشهاب»** برقم: (١٨٥)، كلهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: لا والله، أبو بكر واهٍ.

(٢) وهي قراءة علي بن أبي طالب كما في **«الشواذ»** ص: (٥٢).
وينظر: **«المحتسب»** (١/ ٢٦٧)، و**«المحرر الوجيز»** (٢/ ٤٧٣)، و**«البحر المحيط»** (٤/ ٤١٥)، و**«الدر المصون»** (٣/ ٣٦٧).

(٣) وقرأ بها حمزة والكسائي، وابن كثير.
ينظر: **«حجة القراءات»** (٣٠١)، و**«المحرر الوجيز»** (٢/ ٤٧٣)، و**«البحر المحيط»** (٤/ ٤١٥)، و**«الدر المصون»** (٣/ ٣٦٧).

وقوله سبحانه: ﴿والَّذِين يُمَسِّكون بالكتاب﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿للذين يتقون﴾، وقرأ عاصمٌ وحْده؛ في رواية أبي بَكْرٍ «يُمْسِكُونَ»[(١)] - بسكون الميم، وتخفيف السين -، وقرأ الأعمش[(٢)]: «والَّذِينَ اسْتَمْسَكُوا».

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وإذْ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾، ﴿نَتَقْنَا﴾: معناه: اقتلَعْنَا ورفَعْنا، وقد تقدَّم قصص الآية في «البقرة»، وقوله سبحانه: ﴿واذكروا ما فيه﴾، أي: تدبَّروه واحْفَظُوا أوامره ونواهيه، فما وَفَّوْا.

وقوله سبحانه: ﴿وإذ أَخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بَلَى شهدنا...﴾ الآية، قوله: ﴿مِنْ ظهورهم﴾ قال النُّحاة: هو بدلُ اشتمالٍ من قوله: ﴿مِنْ بَنِي آدم﴾، وتواترتِ الأحاديثُ في تفسير هذه الآية عن النبيِّ ﷺ مِنْ طُرُقٍ: «أن اللَّه عزَّ وجلَّ اسْتَخْرجَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عليه السلام نَسَمَ بنيه، ففي بعض الروايات كالذَّرِّ، وفي بعضها: كالخَرْدَلِ».

وقال محمد بن كَعْب: إنها الأرواحُ[(٣)] جُعلَتْ لها مِثالاتٌ، وروي عن عبد اللَّه بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «أُخِذُوا مِنْ ظَهْرِ آدَمَ؛ كَمَا يُؤْخَذُ بالمُشْطِ مِنَ الرَّأس»[(٤)]،

---

(١) وقراءة أبي بكر من الإمساك، أي: يأخذون بما فيه من حلال وحرام. وحجته قوله تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولم يقل: مسِّك. ينظر: «السبعة» (٢٩٧)، و«الحجة» (٤/ ١٠٢ ـ ١٠٣)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢١٤)، و«حجة القراءات» (٣٠١)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣١٤)، و«العنوان» (٩٨)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٢٨)، و«شرح شعلة» (٣٩٨).

(٢) وقرأ بها عبد اللَّه، كما في «الكشاف» (٢/ ١٧٥)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٣)، و«البحر المحيط» (٤/ ٤١٦)، و«الدر المصون» (٣/ ٣٦٨).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١١٦) برقم: (١٥٣٨٧)، والسيوطي (٣/ ٢٥٩).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٥٩)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، واللالكائي في «السنة».

وَجعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَقُولاً كَنَمْلَةِ سُلَيْمَانَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْ لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَٱلْتَزَمُوهُ؛ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ مُذَكِّرَةً وداعيةً، فشهد بعضُهم علىٰ بعض، وشهد اللَّه عليهم وملائكته»[1] قال الضحَّاك بنُ مُزَاحِمٍ: من مات صَغيراً، فهو على العَهْدِ الأول، ومَنْ بَلَغَ، فقد أخذه العهدُ الثَّاني، يعني الذِي في هذه الحياة المعقولة الآنَ.

٢٠٣ ب وقوله/ ﴿شَهِدْنَا﴾ يحتملُ أن يكون مِنْ قَوْل بَعْضِ النَّسم لبعضٍ، فلا يَحْسُنُ الوقْفُ على قوله: ﴿بَلَى﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة، فيحسن الوقفُ عَلَىٰ قوله: ﴿بَلَىٰ﴾.

قال السديُّ: المعنى: قال اللَّه وملائكته[2]: شَهِدْنَا ورواه عبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، عن النبيِّ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين...﴾ الآية: المعنَىٰ: لِئَلاَّ تقولُوا، أَوْ مخافَةَ أَنْ تقولوا، والمعنَىٰ في هذه الآية: أنَّ الكَفَرَة لو لم يؤخذ عليهم عَهْدٌ، ولا جاءَهُمْ رسولٌ مذكِّر بما تضمَّنه العَهْد من توحيد اللَّه وعبادته، لكانَتْ لهم حُجَّتَان:

إحداهما: أنْ يقُولُوا كُنَّا عن هذا غافلين.

والأخرىٰ: كنا تباعاً لأسلافنا، فكَيْفَ نَهْلِكُ، والذنْبُ إنماهو لِمَنْ طَرَّق لنا وأضلَّنا، فوقَعَ شهادَةُ بعضهم على بعضٍ، وشهادةُ الملائكة عَلَيْهِم، لتنقطع لهم هذة الحجةُ.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وٱتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١١١ ـ ١١٢) برقم: (١٥٣٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٥)، وابن كثير (٢/ ٢٦٢)، والسيوطي (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١١٦) برقم: (١٥٣٨٤)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٦)، والبغوي (٢/ ٢١٢).

قال ابن عباس: هو رجُلٌ من الكَنْعَانِيِّينَ الجَبَّارِين، ٱسْمُهُ بَلْعَمُ بْنُ باعُوراء[١]، وقيل: بَلْعَامُ بْنُ باعِر.

وقيل: غير هذا، وكان في جملة الجَبَّارِين الذي غَزَاهُمْ مُوسَىٰ عليه السلام، فَلَما قَرُبَ منهم موسَىٰ، لجؤوا إِلى بَلْعَام، وكانَ صالِحاً مستجابَ الدَّعْوة، وقيل: كان عِنْدَهُ عِلْم مِنْ صُحُف إِبراهيم ونحوها.

وقيل: كان يعلم ٱسْمَ اللّه الأَعظَمَ، قاله ابنُ عبَّاس[٢] أيضاً، وهذا الخلافُ هو في المراد بقوله: ﴿آتيناه آياتنا﴾، فقال له قومُه: ٱدْعُ اللّه علَىٰ موسَىٰ وعَسْكَره، فقالَ لَهُمْ: وَكَيْفَ أدعو عَلَى نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فما زالوا به حتى فَتَنُوهُ، فخَرَجَ حتىٰ أَشْرَفَ عَلَى جَبَلٍ يَرَىٰ منه عَسْكَرَ موسَىٰ، وكان قد قال لِقَوْمِهِ: لا أفعَلُ حتى أستأْمِرَ رَبِّي، فَفَعَلَ، فنُهِيَ عن ذلك، فقال لهم: قد نُهِيتُ، فما زالوا به حتَّى قال: سأَسْتَأْمِرُ ثانيةً، ففعل، فسكَتَ عنه، فأخبرهم، فقالوا له: إِن اللّه لَمْ يَدَعْ نَهْيَكَ إِلا وقَدْ أَراد ذلك، فخَرَجَ، فلما أَشْرَفَ على العَسْكَر، جَعَلَ يدْعُو علَىٰ موسَى، فتحوَّل لسانُهُ بالدعاءِ لموسَىٰ، والدعاءِ علَىٰ قومه، فقالوا له: ما تقولُ؟ فقال: إِني لا أَمْلِكُ هذا، وعَلِمَ أنه قد أخطأ، فَرُوِيَ أنه قد خرج لِسَانُه عَلَىٰ صدره، فقال لقومه: إِني قَدْ هَلَكْتُ، ولكِنْ لَمْ يَبْقَ لكم إِلا الحِيلَة، فأخرجوا النِّسَاء إِلى عَسْكَرِ مُوسَىٰ عَلَى جهة التَّجْرِ وغيره، ومُرُوهُنَّ أَلا تَمْتَنِع ٱمرأة مِنْ رجل، فإِنهم إِذا زَنَوْا هلَكُوا، ففعلُوا، فخرج النِّسَاء، فَزَنَىٰ بهِنَّ رجالٌ [مَنْ] بني إِسرائيل، وجاء فِنْحَاصُ بْنُ العِيزَارِ بْنِ هَارُونَ، فٱنْتَظَمَ بُرمْحه ٱمرأةً ورجُلاً من بني إِسرائيل، ورفعهما عَلَىٰ الرَمْحِ، فوقع في بني إِسرائيل الطاعونُ، فمات منهم في ساعةٍ [واحدةٍ] سبْعُونَ أَلْفاً، ثم ذَكَرَ المعتمِرُ عن أبيه: أنَّ موسَىٰ عليه السلام قَتَلَ بعد ذلك الرَّجُلَ المُنْسَلِخَ مِنْ آيات اللّه.

قال المَهْدَوِيُّ: رُوِيَ أنه دعا عَلَىٰ مُوسَى أَلاَّ يَدْخُلَ مدينةَ الجَبَّارين؛ فأجيب، ودعا عليه موسَىٰ أَنْ يَنْسَىٰ ٱسْمَ اللّهِ الأَعْظَمَ؛ فأجيبَ، وفي هذه القصَّة رواياتٌ كثيرةٌ تحتاجُ إِلى صحَّة إِسناد، و﴿ٱنسلخ﴾: عبارةٌ عن البراءةِ منها، والاِنْفِصال والبُعْدِ، كالمُنْسَلِخ من الثياب والجِلْد، و«أَتْبَعَهُ الشيطانُ»، أيْ: صيَّره تابِعاً؛ كذا قال الطبريُّ: إِما لضلالةٍ رَسَمَها له، وإِما لنفسه، و﴿مِنَ الغَاوِين﴾، أي: ﴿من الضالِّين﴾، ﴿ولو شِئْنَا لرفعناه بها﴾، قال ابن

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١١٩) برقم: (١٥٣٩٨، ١٥٤٠١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٦)، والبغوي (٢/ ٢١٣) بنحوه، وابن كثير (٢/ ٢٦٤)، والسيوطي (٣/ ٢٦٦)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٢١) برقم: (١٥٤٢٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٧)، والبغوي (٢/ ٢١٥).

عباس وجماعة: معنَىٰ «لرفعناه» لشرَّفنا/ ذكْرَه، ورفَعْنَا منزلته لدينا؛ بهذه الآيات[١] الَّتي ٢٠٤أ
آتيناه، ولكنه أخلد إِلى الأرْضِ، أي: تقاعَسَ إلى الحضيض الأسفَلِ الأخسِّ من شهوات الدنيا ولذَّاتها؛ وذلك أنَّ الأرض وما ٱرتَكَنَ فيها: هي الدنيا وكلُّ ما عليها فانٍ، ومَنْ أخلد إِلى الفاني، فقد حرم حظَّ الآخرة الباقية.

* ت *: قال الهَرَوِيُّ: قوله: ﴿أخلد إِلَى الأَرْضِ﴾: معناه: سكَنَ إِلى لَذَّاتها، واَتَّبَعَ هواه، يقال: أخلد إِلى كَذَا، أي: رَكَنَ إِليه واطمأَنَّ به. انتهى.

قال عَبْدُ الحَقِّ الإِشْبِيليُّ رحمه اللَّه في «**العاقبة**»: واعلم رحمك اللَّه؛ أَنَّ لسوء الخاتمة أعاذنا اللَّه منها أسباباً، ولها طرقٌ وأبوابٌ، أعظمها: الإِكبابُ على الدنيا، والإِعراضُ عن الآخرة، وقد سَمِعْتَ بقصَّة بَلْعَام بْنِ بَاعُورَاءَ، وما كان آتاه اللَّه تعالىٰ من آياته؛ وأطلعه عليه من بيِّناته؛ وما أراه من عجائب مَلَكُوته، أَخْلَدَ إِلى الأرض، واَتَّبَعَ هواه؛ فسَلَبَه اللَّه سبحانه جَمِيعَ ما كان أَعطاه؛ وتَرَكَه مع مَنِ ٱستماله وأغواه. انتهى.

وقوله: ﴿فمثله كمثل الكَلْبِ﴾، شُبِّه به في أنه كان ضالاًّ قبل أن يُؤتى الآياتِ، ثم أُوتِيَها، فكان أيضاً ضالاًّ لَم تنفَعْه، فهو كالكَلْب في أنَّه لا يفارِقُ اللَّهَثَ في كلِّ حال؛ هذا قول الجمهور.

وقال السدِّيُّ وغيره: إِنَّ هذا الرجل عُوقِبَ في الدنيا، فإِنه كان يَلْهَثُ كما يَلْهَثُ الكَلْبُ، فشُبِّه به صورةً[٢] وهيئةً، وذكر الطبريُّ، عن ابن عباس؛ أَنَّ معنى: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عليه﴾: إِنْ تَطْرُدْه[٣].

وقوله: ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾، أي: هذا المَثَلُ، يا محمد، مَثَلُ هؤلاء الذين كانوا ضالِّين قَبْلَ أن تأتيهم بالهدَىٰ والرِّسالة، ثم جئتهم بها، فَبَقُوا على ضلالتهم، ولم ينتفِعُوا بذلك، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الكَلْبِ.

وقوله: ﴿فاَقْصُصِ القَصَصَ﴾، أي: ٱسْرد عليهم ما يعلمون أنَّه من الغيوب الَّتي لا يعلمها إِلا أهْل الكتب الماضية ولَسْتَ منهم؛ ﴿لعلَّهم يتفكرون﴾ في ذلك؛ فيؤمنوا.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٢٥) برقم: (١٥٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٨)، والبغوي (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٢٦٧) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٢٨) برقم: (١٥٤٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٨).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٢٧) برقم: (١٥٤٤٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٧٨).

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿من يهد اللّه فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾، القول فيه: أن ذلك كلّه من عند اللّه: الهدايةُ منه وبخَلْقه وٱختراعِهِ؛ وكذلك الإِضلال، وفي الآيةِ تعجيبٌ مِنْ حال المذكُورين.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾، هذا خبرٌ من اللّه تعالى أنه خَلَق لسُكْنَىٰ جهنم وٱلاحتراقِ فيها كثيراً، وفي ضِمْنه وعيدٌ للكفَّار، «وذرأ»: معناه: خَلَق وأوْجَدَ، مع بَثٍّ ونَشْرٍ.

وقوله سبحانه: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ...﴾ الآيةَ: لما كانَتْ هذه الطائفةُ الكافرةُ المُعْرِضَةُ عن النَّظَر في آيات اللّه، لم ينفعْهم النظرُ بالقَلْب، ولا بالعَيْن، ولا ما سَمِعُوه من الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصْفَ بأنهم لا يفقهون، ولا يُبْصرون، ولا يَسْمعون، والفِقْه: الفَهْم، ﴿أُولئك كالأنعام﴾ في أنَّ الأنعام لا تَفْقَهُ الأشياء، ولا تعقلُ المقاييسِ، ثم حَكَم سبحانه عَلَيْهم بأنهم أضَلُّ؛ لأن الأنعام تلك هِيَ بِنْيَتُها وخِلْقَتُها، وهؤلاءِ مُعَدُّونَ للفَهْم والنظر، ثم بَيَّنَ سبحانه بقوله: ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الطريق الذي به صاروا أضَلَّ من الأنعام، وهو الغَفْلة والتقصير.

قال الفَخْر(١): أمَّا قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ﴾، فتقريره: أن الإِنسان وسائر الحيوانات مُتشَاركةٌ في قُوَى الطَّبيعة؛ الغَاذِيَةِ، والنامية، والمُوَلِّدةِ، ومتشاركَةٌ أيضاً في منافع الحواسِّ الخَمْسِ؛ الباطنةِ والظاهرةِ، وفي أحوالِ التخيُّل، والتفكُّر، والتذكُّر، وإنما حَصَل ٱلامتياز بيْنَ الإِنسان، وسائِرِ الحيواناتِ؛ في القوَّة العقليَّة والفكْريَّة التي تهديه إلى معرفة الحقِّ، فلما أعرضَ الكُفَّار عن أحْوالِ العَقْلِ والفكْرِ، ومعرفةِ الحقِّ، كانوا كالأنعام، بل هم أضلُّ؛ لأن الحيواناتِ لا قدرةَ لها على تحصيلِ هذهِ الفضائل، وقد قال حَكِيمُ الشُّعَراء: [البسيط]

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/٥٣).

الـرُّوحُ مِـنْ عِـنْـدَ رَبِّ الـعَـرْشِ مَـبْـدَؤُهُ وَتُـرْبَـةُ الأَرْضِ أَصْـلُ الـجِـسْـمِ والـبَـدَنِ
قَـدْ أَلَّـفَ الـمَـلِـكُ الـجَـبَّـارُ بَـيْـنَـهُـمَـا لِـيَـصْـلُـحَـا لِـقَـبُـولِ الأَمْـرِ والْـمِـحَـنِ
فَـالـرُّوحُ فِـي غُـرْبَـةٍ وَالـجِـسْـمُ فـي وَطَـنٍ فَـلْـتَـعْـرِفَـنَّ ذِمَـامَ الـنَّـازِحِ الـوَطَـنِ

انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...﴾ الآية: السببُ في هذه الآية عَلَىٰ ما روي، أن أبَا جهلٍ سمع بعْضَ أصحاب النبيِّ ﷺ يقرأ، فيذكُر اللَّه تعالَى في قراءته، وَمرَّةً يَذْكُر الرحْمٰن، ونَحْوَ ذلك، فقال: محمَّدٌ يَزعم أنَّ الإلٰه واحِدٌ، وهو إنما يعبدُ آلهةً كثيرةً، فنزلَتْ هذه الآية، ومِنْ أسماء اللَّه تعالَىٰ ما ورد في القُرآن، ومنها ما ورد في الحديث وتواتَرَ، وهذا هو الذي ينبغي أَنْ يُعْتَمدَ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾، قال ابن زيد: معناه: ٱتركُوهم[١]، فالآية علَىٰ هذا منسوخةٌ، وقيل: معناه: الوعيدُ؛ كقوله سبحانه: ﴿ذرني ومَنْ خلقت وحيداً﴾ [المدثر: ١١] و﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣] يقال: أَلْحَد وَلَحَدَ بمعنى جَارَ، ومَالَ، وٱنْحَرَفَ، و«أَلْحَدَ»: أشهرُ؛ ومنه لَحْدُ القَبْرِ، ومعنى الإلحاد في أسماء اللَّه عزَّ وجلَّ: أنْ يسمُّوا اللاَّتَ نظيرَ ٱسْمِ اللَّه تعالَىٰ؛ قاله ابن عباس[٢]، والعُزَّى نظير العزيزِ؛ قاله مجاهد[٣]، ويسمُّون اللَّه أباً، ويسمُّون أوثانهم أرْباباً.

وقوله سبحانه: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾: وعيدٌ محضٌ.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وممن خلقنا أمة يهدُونَ بالحق وبه يعدلون * والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، الآية تتضمَّن الإخبار عن قَوْم أهْلِ إيمانٍ واستقامةٍ وهدايةٍ، وظاهُرها، يقتضي كُلَّ مُؤمنٍ كان مِنْ لَدُنْ آدم عليه السلام إلَى قيام الساعة، ورُوِيَ عن كثيرٍ من المفسِّرين: أنها في أُمَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ، ورُوِيَ في ذلك حديثٌ أنَّ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٣) برقم: (١٥٤٦٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨١).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٢) برقم: (١٥٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨١)، والبغوي (٢/ ٢١٨)، وابن كثير (٢/ ٢٦٩) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٢٧١)، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٢) برقم: (١٥٤٦٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨١)، والبغوي (٢/ ٢١٨)، وابن كثير (٢/ ٢٦٩).

قَالَ: «هَذِهِ الآيَةُ لَكُمْ».

وقوله سبحانه: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ الآية وعيد، والإشارة إلى الكُفَّار، و﴿سنستدرجهم﴾ معناه: سنُسوقهم شيئاً بعد شَيْءٍ ودرجةً بعد درجةٍ؛ بالنِّعم عليهم والإمهال لهم؛ حتى يغترُّوا ويظنُّوا أنهم لا ينالُهم عقابٌ، وقوله: ﴿مِنْ حيث لا يعلمون﴾، أي: من حيث لا يَعْلَمُون أنه ٱستدراجٌ لهم، وهذه عقوبةٌ لهم مِنَ اللَّه سبحانه عَلَى التَّكْذِيبِ لِمَا حَتَمَ عليهم بالعذاب، أملَى لهم ليزدادوا إثماً.

وقوله: ﴿وَأُمْلِي﴾: معناه: أُؤَخِّرُ ملاَوَةً من الدهر، أي: مُدَّةً و﴿مَتِين﴾: معناه: قويٌّ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

٢٠٤ب وقوله سبحانه: ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة/ . . .﴾ الآية: تقريرٌ يقارنه توبيخٌ للكُفَّار، والوَقْف على قوله: ﴿أو لم يتفكَّروا﴾، ثم ابتدأ القولَ بنَفْيِ ما ذكروه، فقال: ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ أي: بمحمَّد ﷺ، ويحتملُ أنْ يكون المعنَىٰ: أو لم يتفكَّروا أنه ما بصاحبهم مِنْ جِنَّةٍ، ويظهر مِنْ رصف الآية أنها باعثةٌ لهم على الفِكْرة في أَمره ﷺ وأنه ليس به جِنَّةٌ كما أحالهم بعد هذه الآية على النَّظَرْ.

وقال الفَخْر[1]: قوله تعالَى: ﴿أو لم يتفكروا﴾ أمر بالفِكْرِ والتأمُّل والتدُّبر، وفي اللفظ محذوفٌ، والتقدير: أو لم يتفكروا فيعلَمُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ منْ جِنَّة، والجِنَّة: حالَةٌ مِنَ الجُنُون، كَالجِلْسَةِ، ودخولُ «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ جنَّة﴾ ينفي أنواع الجنون. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السمٰوات والأرض. . .﴾ الآية: النَّظَرُ هنا بالقَلْب عِبْرَة وفكراً، و﴿مكلوت﴾: بناءُ عظمةٍ ومبالغةٍ.

وقوله: ﴿وما خلق اللَّه من شيء﴾: لفظٌ يعمُّ جميع ما ينظر فيه، ويستدلُّ به من الصنعة الدالَّة على الصانع، ومِنْ نَفْس الإنسان وحواسِّه ومواضِع رزْقه، والشَّيْءُ: واقعٌ على الموجودات، ﴿وأنْ عَسَى﴾: عطفٌ على قوله: ﴿في ملكوت﴾، والمعنى: توقيفُهُمْ علَى أنْ لم يَقَعْ لهم نَظَرٌ في شيء من هذا، ولا في أنهم قَرُبَتْ آجالُهُمْ، فماتُوا فَفَاتَ أوانُ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٦٢).

التدَارُكِ، ووجَبَ عليهم المحذورُ، ثم وقفهم «بأيّ حديثٍ» أو أمْرٍ يقعُ إيمانُهم وتَصْدِيقُهم؛ إذا لم يقع بأمْرٍ فيه نجاتُهم، ودخولُهم الجَنَّةَ؛ ونحو هذا المعنى قولُ الشاعر: [الطويل]

.... وَعَـنْ أَيِّ نَـفْـسٍ دُونَ نَـفْـسِـي أُقَـاتِـلُ[1]

والضمير في ﴿بعده﴾ يراد به القُرْآن.

وقيل: المراد به النبيُّ ﷺ وقصَّتُهُ وأمْرُهُ أجْمَعَ، وقيل: هو عائد على الأجَلِ، أي: بعد الأجل، إذ لا عَمَلَ بعد الموت.

وقوله سبحانه: ﴿من يضلل اللّه فلا هادي له. . .﴾ الآية: هذا شرطٌ وجوابٌ، مضمَّنه اليأسُ منهم، والمَقْتُ لهم؛ لأن المراد أنَّ هذا قد نزل بهم، والطغيان: الإفراطُ في الشيء، وكأنه مستعملٌ في غير الصَّلاح، والعَمَهُ: الحَيْرَةُ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

وقوله سبحانك: ﴿يسألونك عن الساعة﴾، قال قتادة: السائِلُونَ: هم قريش[2].

وقال ابن عباس: هم أحبار اليهود[3].

* ت *: وفي «السِّيرَة» لابنِ هشامٍ: أن السائلين من أحبار اليهود: حَمَلُ بْنُ أبي قُشَيْرٍ، وَسَمَوْءَلُ بْنُ زَيْدٍ. انتهى.

والساعة: القيامة مُوِّتَ كُلّ من كان حَيًّا حينئذٍ، وبُعِثَ الجميع، و﴿أيَّان﴾: معناه مَتَى، وهي مبنيَّةٌ على الفتحِ، قال الشاعر: [الرجز]

---

(١) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٣).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٦) برقم: (١٥٤٧٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٤)، والبغوي (٢/ ٢١٩) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٢٧٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٦) برقم: (١٥٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٤)، والسيوطي (٣/ ٢٧٤)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وأبي الشيخ.

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا أَمَا تَرَىٰ لِفِعْلِهَا أَبَانَا[1]

و﴿مَرْسَاهَا﴾ معناه: مُثْبَتُها ومُنْتَهاها؛ مأخوذٌ من: أرسَىٰ يُرْسِي، فـ «مُرْسَاهَا»: رَفْعٌ بالابتداء، والخبرُ «أَيَّانَ»، وعبارة البخاريِّ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: مَتَى خروجُها. انتهى، و﴿يُجَلِّيها﴾: معناه يُظْهرها.

وقوله سبحانه: ﴿ثَقُلَتْ في السمٰوات والأرض﴾، قيل: معناه: ثَقُلَ أنْ تُعْلَم ويُوقَفَ
١٢٠٥ عَلى حقيقةِ وَقْتها، وقال الحسنُ بن أبي الحَسَن: معناه: ثَقُلَتْ هيئتها والفزعُ عَلَى/ أَهْل السمٰوات[2] والأرض، ﴿لا تأتيكم إلا بغتةً﴾، أي: فجأةً.

وقوله سبحانه: ﴿يسئلونك كأنك حفيٌّ عنها﴾، قالَ ابن عبَّاس وغيره: المعنى يسألونك كأنكَ حَفِيٌّ، أي: مُتَحَفٌ ومُهْتَبِلٌ[3] بهم، وهذا ينحُو إلى ما قالَتْ قريشٌ: يا محمَّدُ، إنا قرابَتُكَ، فأخبرْنا بوَقْت السَّاعة.

وقال ابن زَيْد وغيره: معناه: كأنك حفيٌّ في المسألة عَنْها، والاشتغالِ بها، حتى حصَّلت علمها[4].

وقرأ ابن عبَّاس[5] فيما ذكر أبو حاتم: «كأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا».

وقوله سبحانه: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال الطَّبريُّ: معناه: لا يعلمُونَ أَنَّ هذا الأَمْرَ لا يعلمه إِلا اللَّهُ، بل يظنُّ أكثرهم أنه ممَّا يعلمه البَشَرُ.

وقوله سبحانه: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضَرًّا إِلا ما شاء اللَّه. . .﴾ الآية: هذا أمر بأنْ يبالِغَ في الاستسلام، ويتجَّردَ من المشاركةِ في قُدْرة اللَّه، وغَيْبِه، وأَنْ يصفَ نفسه لهؤلاءِ السائلين؛ بأنه لا يملكُ من منافع نفسه ومضارِّها إِلا مَا سَنَّى اللَّه وشاءَ ويَسَّر، وهذا

---

(١) البيت في «**تهذيب الأزهري**» (١٥/ ٦٥٣) [أي]، و«**الدر المصون**» (٣/ ٣٧٩).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٧ ـ ١٣٨) برقم: (١٥٤٨٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٤)، والبغوي (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٣٩) برقم: (١٥٤٩١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٤)، وابن كثير (٢/ ٢٧١)، والسيوطي (٣/ ٢٧٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ١٤٠) برقم: (١٥٥٠٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٤)، وابن كثير (٢/ ٢٧١).
(٥) وقرأ بها ابن مسعود كما في «**الشواذ**» ص: (٥٣).
وينظر: «**المحتسب**» (١/ ٢٦٩)، و«**الكشاف**» (٢/ ١٨٥) و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٤٣٣)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٣٨١).

الاستثناءُ منقطعٌ، وأخبر أنه لو كان يَعْلَمُ الغَيْبَ، لعمل بحَسَب ما يأتي، واَستعدَّ لكلِّ شيءٍ اَستعدادَ مَنْ يعلم قَدْرَ ما يَسْتَعِدُّ له، وهذا لفظٌ عامٌّ في كل شيء.

وقوله: ﴿وما مسني السوء﴾ يحتمل وجْهين، وبكليهما قيل.

أحدهما: أن «ما» معطوفةٌ على قوله: ﴿لاستكثرتُ﴾ أي: ولَمَا مسني السوءُ.

والثاني: أن يكون الكلامُ مقطوعاً تَمَّ في قوله: ﴿لاستكثرتُ من الخير﴾ وابتدأ يخبرُ بنَفْي السوءِ عنه، وهو الجُنُون الذي رَمَوْهُ به.

قال مؤرِّجٌ السَّدُوسيُّ[1]: ﴿السُّوء﴾ الجنون؛ بلغة هُذَيْلٍ.

* ت *: وأما على التأويل الأول، فلا يريد بـ «السوء» الجنونَ، ويترجَّح الثاني بنحو قوله سبحانه: ﴿ما بصاحبكم من جنَّة إن هو إلا نذير لكم...﴾ [سبأ: ٤٦] الآية، و﴿لقوم يؤمنون﴾: يحتملُ معنيين:

أحدهما: أنْ يريد: لقومٍ يُطْلَبُ منهم الإِيمانُ، وهؤلاء الناسُ أجمع.

والثاني: أن يخبر أنه نذير، ويتمُّ الكلام، ثم يبتدىء يخبر أنه بشيرٌ للمؤمنين به، ففي هذا وعْدٌ لمن حصل إيمانه.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

وقوله: جلَّت عظمته: ﴿وهو الذي خلقكم من نفس واحدة...﴾ الآية.

قال جمهورُ المفسِّرين: المراد بالنَّفْسِ الواحدة: آدم عليه السلام، وبقوله: ﴿وجعل منها زوجها﴾ حَوَّاء، وقولُه: ﴿منها﴾ هو ما تقدَّمَ ذكره مِنْ أنَّ آدمَ نام، فاَسْتُخْرِجَتْ قُصْرَىٰ أضلاعِهِ، وخُلِقَتْ منها حَوَّاءُ.

---

(١) مؤرج بن عمرو بن الحارث، من بني سدوس بن شيبان، أبو فيد: عالم بالعربية والأنساب، من أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، من أهل «البصرة». كان له اتصال بالمأمون العباسي، ورحل معه إلى خراسان، فسكن مدة، بـ «مرو»، وانتقل إلى «نيسابور». من كتبه **«جماهير القبائل»** و**«حذف من نسب قريش»**، و**«غريب القرآن»** وكتاب **«الأمثال»** و**«المعاني»** وله شعر جيد.
ينظر: ترجمته في **«الأعلام»** (٣١٨/٧) (٢٥٦٩).

وقوله: ﴿ليسكن إليها﴾، أي: ليأنسَ، ويطمئنَّ، وكان هذا كلُّه في الجنة.

ثم ابتدأ بحالةٍ أخرَى، وهي في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: ﴿فَلَمَّا تغشَّاهَا﴾، أي: غَشِيَها، وهي كناية عن الجِمَاع، والحَمْلُ الخفيف: هو المنيُّ الذي تحمله المرأة في رَحِمِهَا.

وقوله: ﴿فمرت به﴾ أي: ٱستمرَّت به، وقرأ ابنُ عبَّاس: «فٱسْتَمَرَّتْ بِهِ»، وقرأ ابن[1] مسعود: «فَٱسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهَا» وقرأ عبد اللّه بن عمرو بن[2] العاص: «فَمَارَتْ بِهِ»، أي جاءَتْ به، وذَهَبَتْ، وتصرَّفَت؛ كما تقولُ: مَارَتِ الرِّيحُ مَوْراً، و﴿أَثْقَلَتْ﴾: دخلَتْ في الثِّقل، كما تقول: أَصْبَحَ وأَمْسَى، والضمير في قوله ﴿دَعَوَا﴾، على هذا التأويل: عائدٌ
٢٠٥ب على آدم وحوَّاء، وروي في قصص ذلك/؛ أن الشيطانَ أشار عَلَى حواء، أن تُسَمِّيَ هذا المولودَ «عَبْدَ الحَارث»، وهو اسْمُ إبليسَ، وقال لها: إن لم تفعلي قَتَلْتُهُ، فزعموا أنهما أطاعاه؛ حِرْصاً علَى حياة المولود، فهذا هو الشِّركُ الذي جَعَلاَ لِلَّهِ، في التسمية فَقَطْ.

وقال الطبريُّ والسديُّ[3] في قوله: ﴿فتعالىٰ اللّه عما يشركونَ﴾ كلامٌ منفصلٌ من خَبَرِ آدم وحَوَّاء، يراد به مشركُو العرب[4].

* ت *: وينزه آدم وحواء عن طاعتهما لإبليس، ولم أَقِفْ بَعْدُ عَلَىٰ صحَّة ما رُوِيَ في هذه القِصَصِ، ولو صَحَّ، لوجب تأويله، نَعَمْ؛ روى الترمذيُّ عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ[5]، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ، طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وكانَ لا يَعيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ لَهَا: سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَعَاشَ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٨٦)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٤٣٧).

(٢) قال أبو الفتح: والمعنى واحد.
ينظر: «**المحتسب**» (١/ ٢٧٠)، و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٨٦)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٤٣٧)، وزاد نسبتها إلى الجحدري، وينظر: «**الدر المصون**» (٣/ ٣٨٢). وقد نسبها ابن خالويه في «**مختصره**» ص: (٥٣) إلى ابن أبي عمار.

(٣) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ١٤٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ١٤٨) برقم: (١٥٥٤٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٧)، والسيوطي (٣/ ٢٧٩)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٥) هو: سمرة بن جندب بن هلال بن حَريج بن مرة بن حرب بن عمرو بن جابر أبو سليمان الفزاري، سكن «البصرة»، قدمت به أمه المدينة بعد موت أبيه، فتزوجها رجل من الأنصار اسمه: مري بن سنان بن ثعلبة، وكان في حجره إلى أن صار غلاماً، وكان رسول اللّه ﷺ يعرض غلمان الأنصار كل سنة، فمرّ به غلام فأجازه في البعث، وعرض عليه سمرة بعده فرده، فقال سمرة: لقد أجزت هذا ورددتني، ولو صارعته لصرعته قال: فدونكه فصارعه، فصرعه سمرة، فأجازه من البعث. قيل: أجازه يوم أحد، واللّه أعلم. . . =

وَحْيِ الشَّيْطَان، وأَمْرِهِ، قال الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ[١] غريبٌ، انفرد به عُمَرُ بنُ إبراهيم[٢]، عن قَتَادَةَ، وعمرُ شَيْخٌ بصريٌّ. انتهى.

وهذا الحديثُ ليس فيه أنهما أطاعاه، وعَلَىٰ كلِّ حالٍ: الواجبُ التوقُّفُ، والتنزيهُ لِمَنْ ٱجتباه اللَّه، وحُسْنُ التأويل ما أمكن، وقد قال ابنُ العربيِّ في توهينِ هذا القَوْل وتزييفِهِ: وهذا القولُ ونحوه مذكُورٌ في ضعيف الحديثِ في الترمذيِّ وغيره، وفي الإِسرائيليات التي لَيْسَ لها ثباتٌ، ولا يعوَّل عليها مَنْ له قَلْبٌ، فإنَّ آدم وحواء ـ وإن كانا غرَّهما باللَّهِ الغَرُورُ ـ فلا يُلْدَغُ المؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ مرَّتين، وما كانا بعْدَ ذلك لِيَقْبَلاَ له نُصْحاً، ولا يسمعا له قَوْلاً، والقولُ الأشبه بالحَقِّ: أن المراد بهذا جنْسُ الآدميين. انتهى من «**الأحكام**».

قال[٣] ❊ ع ❊: وقوله ﴿صَالِحاً﴾: قال الحَسَن: معناه: غُلاَماً[٤]، وقال ابن عباس؛ وهو الأظهر: بَشَراً سَوِيّاً[٥] سليماً.

وقال قومٌ: إنما الغَرَضُ من هذه الآية تعديدُ النعمة في الأزواج، وفي تسهيل النَّسْل والولادةِ، ثم ذكر سُوءَ فعْلِ المشركينَ المُوجبِ للعقابِ، فقال مخاطباً لجميع الناس: ﴿هو الذي خلقكم مِنْ نفس واحدةٍ وجعل منها زوجَها﴾ يريد: آدم وحواء، أي: وٱستمرَّتْ

= توفي قيل: سنة ٥٨هـ، وقيل: ٥٩ هـ بـ«البصرة».
ينظر ترجمته في: «**أسد الغابة**» (٢/ ٤٥٤)، «**الإصابة**» (٣/ ١٣٠)، «**الثقات**» (٣/ ١٧٤)، «**الاستيعاب**» (٢/ ٦٥٣)، «**الإكمال**» (٢/ ٦٧)، «**الأعلام**» (٣/ ١٣٩)، «**العبر**» (١/ ٦٥)، «**الكاشف**» (١/ ٤٠٣)، «**بقي بن مخلد**» (٣٥)، «**الرياض المستطابة**» (١٠٧)، «**التاريخ الكبير**» (٤/ ١٧٦)، «**تجريد أسماء الصحابة**» (١/ ٢٣٩)، «**التاريخ الصغير**» (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧)، «**الوافي بالوفيات**» (١٥/ ٦١١)، «**تاريخ جرجان**» (٢٣٩)، «**التحفة اللطيفة**» (١٩٣)، «**الطبقات الكبرى**» (٩/ ٨٩)، «**سير أعلام النبلاء**» (٣/ ١٨٣).

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة الأعراف»، حديث (٣٠٧٧)، من طريق عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلاَّ من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه؛ عمر بن إبراهيم شيخ بصري.

(٢) عمر بن إبراهيم العبدي أبو حفص البصري، صاحب الهَرَوِي بفتح الهاء. عن قتادة، وعنه ابنه الخليل وعبَّاد بن العَوَّام، وثقه ابن معين في رواية الدارمي، وقال ابن عدي: حديثه عن قتادة مضطرب.
ينظر ترجمته في: «**الخلاصة**» (٢/ ٢٦٥) (٥١٢٢).

(٣) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٨٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ١٤٣) برقم: (١٥٥١٧)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٦)، وابن كثير (٢/ ٢٧٤)، والسيوطي (٣/ ٢٧٨)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٨٦)، وابن كثير (٢/ ٢٧٤).

حالُكم واحداً واحداً كذلك، فهذه نعمةٌ يختصُّ كلٌّ واحد بجزء منها، ثم جاء قوله: ﴿فلمَّا تغشَّاها. . .﴾ إلى آخر الآية، وصفاً لحالِ الناس واحداً واحداً، أي: هكذا يفعلون، فإذا آتاهم اللَّه ولداً صالحاً سليماً كما أرادوه، صرفوه عن الفِطْرة إلى الشرك، فهذا فِعْلُ المشركين.

قال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه» وهذا القول هو الأشبه بالحقِّ وأقربُ للصدق، وهو ظاهر الآية، وعمومها الذي يشملُ جميعَ متناولاتها، ويسلم فيها الأنبياءُ عن النَّقصِ الذي لا يليقُ بجهَّال البَشَرُ، فكيف بسادَاتِهِمْ، وأنبيائهم؟! انتهى، وهو كلامٌ حسنٌ؛ وباللَّه التوفيق.

وقرأ نافعٌ[١]، وعاصم؛ في رواية أبي بَكْر: «شركاً» ـ بكسر الشين، وسكون الراء ـ؛ على المصدر، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائيُّ، وحفصٌ عن عاصم: «شُرَكَاء» على الجمع، وهي بينة؛ على هذا التأويل الأخير، وقلقةٌ على قول من قال: إن الآية الأولى في آدم وحواء، وفي مُصْحَف أَبيِّ بن[٢] كَعْب: «فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً أَشْرَكَا فِيهِ».

وقوله: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً. . .﴾ الآية: ذهب بعضُ من قال بالقول الأول إلى أنَّ هذه الآية في آدم وحواء على ما تقدَّم، وفيه قَلَقٌ وتعسُّفٌ من التأويل/ في المعنَىٰ ١٢٠٦أ
وإنما تنسق هذه الآياتُ، ويَرُوقُ نَظْمها، ويتناصَرُ معناها على التأويل الأخير، فإنهم قالوا: إن الآية في مُشْركي الكُفَّار الذي يُشْركُون الأصنام في العبادة، وإياها يراد في قوله: ﴿ما لا يخلُقُ﴾، وعبَّر عن الأصنام بـ ﴿هُمْ﴾؛ كأنها تَعْقِلُ على اعتقاد الكُفَّار فيها؛ وبحسب أسمائها، و﴿يُخْلَقُونَ﴾: معناه: يُنْحَتُونَ ويُصْنَعُونَ، يعني: الأصنام، ويحتملُ أن يكونَ المعنَىٰ، وهؤلاء المشركُونَ يُخْلَقُونَ؛ أي: فكان حقُّهم أن يعبدوا خالِقَهُمْ، لا مَنْ لا يخلق شيئاً، وقرأ أبو عبد الرحمٰن: «عَمَّا تُشْرِكُونَ»[٣] بالتاء مِنْ فوقُ «أَتُشْرِكُونَ».

وقوله سبحانه: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾، من قال: إن الآياتِ في آدم عليه السلام، قال: هذه مخاطبة مستأنفة

---

(١) ينظر: «السبعة» (٢٩٩)، و«الحجة» (٤/ ١١١)، و«إعراب القراءات» (٢/ ٢١٦)، و«حجّة القراءات» (٣٠٤)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ٧١)، و«العنوان» (٩٨) و«شرح الطيبة» (٤/ ٣١٨)، و«شرح شعلة» (٤٠)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٣١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٧)، و«البحر المحيط» (٤/ ٤٣٨).

(٣) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٨)، و«البحر المحيط» (٤/ ٤٣٨)، و«الدر المصون» (٣/ ٣٨٣).

للنبيِّ ﷺ، وأمته في أمْرِ الكُفَّار المعاصرين للنبي ﷺ ومَنْ قال بالقولِ الآخر، قال: إن هذه مخاطبةٌ للمؤمنين والكُفَّار؛ على قراءة مَنْ قرأ: «أَيُشرِكُونَ» ـ بالياء من تحت ـ، وللكفَّار فقطْ على قراءة مَنْ قرأ بالتاء من فوق على جهة التوقيفِ، أيْ: هذا حالُ الأصنام معكم؛ إنْ دعوتموهم، لم يجيبُوكُمْ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين تدعون من دون اللَّه عبادٌ أمثالكم فٱدعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين...﴾ الآية مخاطبةٌ للكفَّار في تحقير شأن أصنامهم، وقوله: ﴿فٱدعوهم﴾ أي: فٱختبروا، فإن لم يستجيبوا، فهم كما وصفنا.

وقوله سبحانه: ﴿ألهم أرجلٌ يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها...﴾ الآية. الغرض من هذه الآية ﴿ألهم﴾ حواس الحَيِّ وأوصافه، فإذا قالوا: «لا»، حكموا بأنها جماداتٌ من غير شكٍّ، لا خَيْرَ عندها.

قال الزَّهراوِيُّ: المعنى: أنتم أفضلُ منهم بهذه الجوارح النافعة؛ فكيف تعبدونهم،، ثُمَّ أمر سبحانه نبيَّه عليه السلام أنْ يعجزهم بقوله: ﴿قل ٱدعوا شركاءكم﴾، أي: ٱستَنْجِدُوهم وٱستَنْفِرُوهم إلى إضْرَارِي وكَيْدي، ولا تؤخِّروني، المَعْنَى: فإن كانوا آلهةً، فسيظهر فعلكم، وَلَمَّا أحالهم على ٱلاستنجادِ بآلهتهم في ضَرَره، وأراهم أنَّ اللَّه سبحانه هو القَادِرُ عَلَى كُلِّ شيء لاَ تلك، عقَّب ذلك بالإستناد إلى اللَّه سبحانه، والتوكُّلِ عليه، والإعلام بأنه وليُّه وناصره، فقال: ﴿إن وليي اللَّه الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾.

وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾؛ إنما تكرَّر القولُ في هذا، وترَدَّدت الآياتُ فيه؛ لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكِّناً من نفوس العرب في ذلك الزَّمانِ، ومستولياً علَى عقولها، فأوعب القولَ في ذلك؛ لُطْفاً منه سبحانه بهم.

وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدَى لا يسمعوا...﴾ الآية: قالت فرقةٌ: هذا خطابٌ

للنبيِّ ﷺ، وأمته في أمر الكُفَّار، والهاءُ والميمُ في قوله: «تدعوهم» للكفَّار، ووصفهم بأنهم لا يَسْمَعُونَ، ولا يبصرون؛ إِذ لم يتحصَّل لهم عن النَّظَر والاستماع فائدةٌ؛ قاله مجاهدٌ[1] والسدِّي[2]:

وقال الطبريُّ[3]: المرادُ بالضمير المذكور: الأصنامُ، ووصْفُهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة؛ ولِمَا فيها من تخييلِ النَّظَر؛ كما تقول: دَارُ فُلاَنٍ تَنْظُر إِلى دار فلان.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف...﴾ الآية: وصيَّةٌ من اللَّه سبحانه لنبيِّه عليه السلام تعمُّ جميع أمته، وأَخْذٌ بجميع/ مكَارِمِ الأخلاقِ. ٢٠٦ب

قال الجمهور: معنى: ﴿خُذِ العَفْو﴾ ٱقْبَلْ من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عَفْواً، دون تكلُّف، فالعَفْوُ هنا: الفَضْل والصفو، قال مكِّيٌّ؛ قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف...﴾ الآية.

قال بعض أهل المعاني، في هذه الآية بيانُ قولِ النبيِّ ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِم»[4]؛ فهذه الآية قد جَمَعَتْ مَعَانيَ كثيرةً، وفوائدَ عظيمةً، وجمعتْ كلَّ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ لأَنَّ في أخذ العَفْوِ صلَةَ القاطعينِ، والصفْحَ عن الظالِمينَ، وإِعطاءَ المانعين، وفي الأمر بالمعروف تَقْوَى اللَّه وطاعته، وصِلة الرحِم، وصَوْن الجوارحِ عن المحرَّمات، وسمَّى هذا ونحوه عُرْفاً؛ لأن كلَّ نَفْس تعرفه، وتركَنُ إِليه، وفي الإِعراض عن الجاهلين: الصبرُ، والحِلْم، وتنزيهُ النفْس عن مخاطبةِ السفيه، ومنازعةِ اللَّجوج، وغيرُ ذلك من الأفعال المرضية. انتهى من «**الهداية**».

وقوله: ﴿وأمر بالعرْفِ﴾: معناه: بكلِّ ما عرفَتْه النفوسُ ممَّا لا تردُّه الشريعة؛ ومِنْ ذلك: «أَنْ تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ...» الحديث[5]،

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٥١) برقم: (١٥٥٤٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٩٠)، وابن كثير (٢/ ٢٧٧) طرفاً منه، والسيوطي (٣/ ٢٨٠)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٥١) برقم: (١٥٥٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٩٠)، وابن كثير (٢/ ٢٧٧) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٢٨٠)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ١٥١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

فالعُرْفُ بمعنى المعروف.

وقوله عز وجل: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فٱستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، هذه الآية وصِيَّة من الله سبحانه لنبيِّه ﷺ تعمُّ أمته رجُلاً رجلاً، والنَّزْغ: حركةٌ فيها فسادٌ قلَّما تستعملُ إلا في فعْلِ الشيطان؛ لأن حركته مسرِعَةٌ مفسدة؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «لاَ يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ؛ لاَ يَنْزَغِ الشَّيْطَانُ في يَدِهِ»، فالمعنى في هذه الآية: فإمَّا تَلُمَّنَّ بك لَمَّةٌ من الشيطان، فٱستعذ بالله، وعبارة البخاريِّ: يَنْزَغَنَّكَ: يستَخِفَنَّكَ. انتهى.

وَنَزْغُ الشيطان عامٌّ في الغَضَبِ، وتحسينِ المعاصِي، واكتساب الغوائل، وغير ذلك وفي «جامع الترمذيِّ» عن النبي ﷺ قالَ: «إِن لِلْمَلَكِ لَمَّةً، ولِلشَّيْطَانِ لَمَّةً...»[1] الحديث.

قال * ع[2] *: عن هاتين اللَّمَّتَيْنِ: هي الخواطِرُ من الخير والشر، فالآخِذُ بالواجبِ يلقى لَمَّةَ المَلَك بٱلامتثالِ وٱلاستدامةِ، وَلَمَّةَ الشيطانِ بالرفْضِ وٱلاستعاذةِ، وٱستعاذ: معناه: طَلَب أَنْ يُعَاذَ، وعَاذَ: معناه: لاذ، وٱنضَوَى، وٱسْتَجَارَ.

قال الفَخْر[3]: قال ابنُ زيد: لما نَزَل قوله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ قال النبيُّ ﷺ: «كَيْفَ يَا رَبِّ، والغَضَبُ؟ فَنَزَل قولُه: ﴿وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ﴾»[4]، وقوله: ﴿إنه سميع عليمٌ﴾ يدلُّ على أن ٱلاستعاذَة لا تفيدُ إلاَّ إذا حضر في القَلْبِ العِلْمُ بمعنى ٱلاستعاذة، فكأنه تعالَى قال: ٱذكُرْ لَفظَ ٱلاستعاذةِ بلسانك؛ فإن سميعٌ، وٱسْتَحْضِرْ معاني ٱلاستعاذة بِعَقْلِكَ وقَلْبِك؛ فإني عَليمٌ بما في ضَمِيرِكَ، وفي الحقيقة: القَوْلُ اللسانيُّ دون المعارفِ العقليَّة، عديمُ الفائدة والأثر. انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكَّروا...﴾ الآية خرَجَتْ مَخْرَجَ المَدْحِ للمتقين، والتقوَىٰ ههنا عامَّة في اتقاء/ الشِّرْك والمعاصِي، وقرأ ابن ٢٠٧أ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٩١).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٧٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٥٥) برقم: (١٥٥٦٤).

كثير[١] وغيره: «طَيْفٌ».

قال أبو عليٍّ الطائفُ كالخَاطِرِ، والطَّيْف كالخَطْرة، وقوله: ﴿تَذَكَّروا﴾: إشارة إلى ٱلاستعاذة المأمور بها، وإلى ما للَّه عزَّ وجلَّ من الأوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرُّض الشيطانِ فيها، وقرأ ابنُ الزُّبَيْر[٢]: «مِنَ الشَّيْطَانِ تَأَمَّلُوا فإِذَا هُمْ»، وفي مُصْحَفِ[٣] أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ «إِذَا طَافَ مِنَ الشَّيْطَانِ طَائِفٌ تَأَمَّلُوا»، وقوله: ﴿مُبْصِرُونَ﴾: من البصيرة، أي: فإذا هم قد تبيَّنوا الحقَّ، ومالوا إليه، والضميرُ في ﴿إِخوانهم﴾، عائدٌ على الشياطين، وفي ﴿يمدونهم﴾ عائدٌ على الكُفَّار، وهم المرادُ بـ «الإِخوان»، هذا قول الجمهور.

قال * ع[٤] *: وقرأ جميعُ السبعة[٥] غير نافع: «يَمُدُّونَهُمْ»؛ من مَدَدتُ، وقرأ نافعٌ: «يُمِدُّونَهُمْ»، من أَمْدَدت.

قال الجمهور: هما بمعنًى واحدٍ، إلا أن المستعمَلَ في المحبوب «أَمَدَّ»، والمستعملَ في المكروه «مَدَّ»، فقراءة الجماعةِ جارِيَةٌ على المنهَاج المستعمل، وقراءةُ نافع هي مقيَّدة بقوله: ﴿في الغيِّ﴾؛ كما يجوز أَنْ تقيِّد البِشَارَةَ، فتقول: بَشَّرْتُهُ بشرٍّ وَمَدُّ الشياطينِ للكَفَرَةَ، أي: ومَنْ نَحا نحوهم: هو بالتزيين لهم، والإِغواءِ المتتابِع، وقوله: ﴿ثم لا يُقْصِرُونَ﴾؛ من أَقْصَرَ، والضميرُ عائدٌ على الجميع، أي: هؤلاء لا يقصرون عن الإغواء، وهؤلاء لا يُقْصِرُونَ في الطاعة للشياطين.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا ٱجتبيتها﴾، سببها فيما رُوِيَ أن الوَحْيَ

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠١)، و«الحجة» (٤/ ١٢٠)، و«حجة القراءات» (٣٠٥)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢١٧)، و«إتحاف» (٢/ ٧٣)، و«العنوان» (٩٩)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٣٣)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٢١)، و«شرح شعلة» (٤٠٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٩٢)، و«البحر المحيط» (٤/ ٤٤٦).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٩٣).

(٥) ينظر: «السبعة» (٣٠١)، و«الحجة» (٤/ ١٢٢)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢١٩)، و«حجة القراءات» (٣٠٦)، و«إتحاف» (٢/ ٧٣)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٣٤)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٢١)، و«شرح شعلة» (٤٠٣)، و«العنوان» (٩٩).

كان يتأخَّر أحياناً، فكان الكُفَّار يقولون: هَلاَّ ٱجتبيْتَهَا، أي: ٱخترتها، فأمره اللَّه عزَّ وجلَّ؛ أنْ يجيب بالتسْلِيم للَّه، وأنَّ الأمر في الوحْي إلَيه ينزِّله متى شاء، ثم أشار بقوله: ﴿هذا بصائر﴾ إلى القرآنَ، أي: علاماتُ هُدًى، وأنوارٌ تستضيءُ القلوبُ به.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا قُرِئَ القرآن فٱستمعوا له وأنصتوا لعلَّكم ترحمون﴾، ذكر الطبريُّ وغيره؛ أَن أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا بمكَّةَ يتكلَّمون في المكتوبةِ بحوائجهم، فنزلتِ الآية أمْراً لهم بالاستماع وٱلإنصاتِ في الصَّلاة، وأما قولُ من قال: إنها في الخُطْبة، فضعيفٌ، لأن الآية مكِّيَّة، والخُطْبَة لم تكنْ إلا بعد الهِجْرة، وألفاظ الآية على الجملة تتضمَّن تعظيم القُرْآن وتوقيرَهُ، وذلك واجبٌ في كل حالة، والإنصاتُ: السكوتُ.

قال الزجَّاج: ويجوز أن يكون: ﴿فٱستمعوا لَهُ وأنصِتُوا﴾، أي: ٱعملوا بما فيه، ولا تجاوزوه.

قال ابنُ العربيِّ في «**أحكامه**»: روى الترمذيُّ، وأبو داود، عن عُبَادَة بْنِ الصَّامِتِ، قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ القِرَاءَةُ، فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ، قَالَ: «إِنِّي لأَرَاكُمْ تَقْرَؤُونَ وَرَاءَ إمامكم، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِيْ وَاللَّهِ، فَقَالَ: لاَ تَفْعَلُوا إِلاَّ بِأُمِّ القُرْآنِ؛ فإنَّه لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا»[١] وقد رَوَى الناسُ في قراءة المأمومين خَلْفَ الإمام بفاتحةِ الكِتَاب أحاديثَ كثيرةً، وأعظمهم في ذلك ٱحتبالاً الدارقطنيُّ، وقد جمع البخاريُّ في ذلك جزءاً[٢]، وكان رَأيُهُ قراءةَ الفَاتحَةِ خلْفَ الإمامِ في الصلاة الجهريَّة، وهي إحدى روايات مالكٍ، وهو اختيارُ الشافعيِّ. انتهى، وقد تقدَّم أول الكتابِ ما اختاره ابنُ العَرَبِيّ.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

٢٠٧ ب وقوله سبحانه: ﴿واذكر ربَّك في نفسك...﴾ الآية: مخاطَبةٌ للنبيِّ ﷺ/، وتعمُّ جميعَ أمته، وهو أمر من اللَّه تعالَى بذكْره وتسبيحِهِ وتقديسِهِ، والثناءِ عليه بمحامدِهِ، والجمهورُ علىٰ أن الذِّكْر لا يكون في النفْسِ، ولا يراعَى إلا بحركة اللسَانِ، ويُدلُّ على ذلك من هذه الآية قوله: ﴿ودون الجهر من القول﴾، وهذه مرتبةُ السرِّ، والمخافتة.

وقال الفَخْر[٣]: المراد بقوله تعالى: ﴿وٱذكر ربك في نفسك﴾، كونُه عارفاً بمعاني

---

(١) تقدم.
(٢) أسماه القراءة خلف الإمام.
(٣) ينظر: «**تفسير الرازي**» (١٥/٨٦).

الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضراً لصفاتِ الجلالِ والعظمة، وذلك أن الذكْرَ باللِّسَان، إذَا كان عارياً عن الذكْر بالقلْب، كان عدِيمَ الفائدة، ألاَ تَرَى أن الفقهاء أجمَعُوا على أنَّ الرجُلَ، إذا قال: بِعْتُ وٱشْتَرَيْتُ مع أنَّه لاَ يَعْرِفُ معانِي هذه الألفاظ، ولا يفهم منها شيئاً، فإنه لا ينعقد البَيْعُ والشراءُ، فكذلك هنا، قال المتكلِّمون: وهذه الآية تدُلُّ على إثبات كلامِ النفْس.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾، يدُلُّ على أن الذكْرَ القلبيَّ يجبُ أن يكون دائماً، وألاَّ يغفُلَ الإنسان لحظةً عن ٱستحضارِ جلالِ اللَّهِ وكبريائِهِ بقَدْر الطاقةِ البشريَّة، وتحقيقُ القول في هذا أنَّ بَيْنَ الرُّوحِ والبدنِ عَلاَقَةً عجيبةً؛ لأن كلَّ أثر يحصُلُ في البدَن يصْعَدُ منه نتائجُ إلى الرّوحِ؛ ألاَ تَرَى أنَّ الإنسان إذا تخيَّل الشيء الحامِضَ، ضَرِسَ منه، وإذا تخيل حالَةً مكروهةً، أو غَضِبَ، سَخِنَ بدنه. انتهى. و﴿تضرُّعاً﴾: معناه: تذُلُّلاً وخُضُوعاً، البخاريُّ: ﴿وخيفةً﴾، أي: خوفاً انتهى.

وقوله: ﴿بالغدو والآصال﴾: معناه: دَأباً، وفي كلِّ يوم، وفي أطرافِ النهارِ، ﴿ولا تَكُنْ من الغافلين﴾ تنبيهٌ منه عزَّ وجلَّ، ولما قال سبحانه: ﴿ولا تَكُنْ من الغافلين﴾: جَعَل بعد ذلك مثالاً من ٱجتهاد الملائِكَةِ؛ لِيَبْعَثَ على الجِدِّ في طاعة اللَّهِ سبحانه.

* ت *: قال صاحبُ «**الكلم الفارقية**»: غفلةُ ساعةٍ عَنْ ربِّك مَكْدَرَة لمرآةِ قَلْبِكَ؛ فكَيْفَ بِغَفْلَة جميعِ عُمْرك. انتهى.

قال ابن عطاء اللَّهِ رحمه اللَّه: لا تترك الذِّكْر، لِعَدَمِ حُضُورك مع اللَّه فيه؛ لأن غفلتك عن وُجودِ ذكْرِهِ أشدُّ مِنْ غفلتك في وجودِ ذكْرِهِ فعسَىٰ أن يرفعك مِنْ ذكْرٍ مع وجود غفلة، إلى ذكْرٍ مع وجودِ يَقْظَةٍ، ومن ذِكْرٍ مع وجود يقظةٍ إلى ذكْرٍ مع وجودِ حُضُورٍ، ومِنْ ذكْرٍ مع وجود حضور، إلى ذكْرٍ مع وجود غيبة عمَّا سوى المذْكُور، وما ذلك على اللَّه بعزيز. انتهى، قال ابن العَرَبِيِّ في «**أحكامه**»: قوله تعالى: ﴿ولا تكنْ من الغافلين﴾: أي: فيما أُمِرْتَ به، وكُلِّفْتَه، وهذا خطابٌ له عليه السلام، والمراد به جميعُ أمته. انتهى.

وقوله: ﴿الذين﴾، يريد به الملائكةَ.

وقوله: ﴿عند﴾، إنما يريد به المنزلةَ، والتشريف، والقُرْبَ في المكانة، لا في المكان، فَهُمْ بذلك عنده، ثم وصف سبحانه حَالَهُمْ؛ مِنْ تواضعهم، وإدمانهم العبادة، والتَسبيحَ والسُّجودَ»، وفي الحديث: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ

إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ»[1] وهذا موضع سجدة.

/ قال عَبْدُ الرحمٰن بْنُ محمَّدٍ عفا اللَّه عنه: كَمُلَ ما ٱنتخبناه في تفسير السورة، ٢٠٨أ
والحمد اللَّه على ما به أنعم، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تَسْليماً كثيراً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٥٦) كتاب «الزهد» باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، حديث (٢٣١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٢) كتاب «الزهد» باب: الحسن والبكاء، حديث (٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠) من طريق مجاهد، عن مورق العجلي عن ابن ذر به.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

سورة الأنفالِ

مَدَنِيَّةٌ كُلُّهَا

قال مجاهدٌ: إلاَّ آيةً واحدةً، وهي قوله: ﴿وإذْ يمكر بك الذين كفروا...﴾ الآية: ولا خلافَ أن هذه السورة نَزَلَتْ في شأن بذْرٍ، وأَمْرِ غنائمه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

قوله عز وجل: ﴿يسئلونك عن الأنفال...﴾ الآية، النَّفَلُ والنَّافلة، في كلام العرب: الزِّيَادَةُ على الواجب، والأكثرُ في هذه الآيةِ أنَّ السؤال إنما هو عَنْ حُكْمِ الأنفال، وقالَتْ فرقةٌ: إنما سألوه الأنْفَالَ نفْسَها؛ محتجِّين بقراءة سعد بن أبي وقَّاص وغيره: «يَسْئَلُونَكَ الأَنْفَالَ»[1] وعن أبي أمامة الباهليِّ، قال: سَأَلْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنِ الأَنْفَال، فَقَالَ: فِينَا - أَهْلَ بَدْر - نَزَلَتْ، حِينَ ٱخْتَلَفْنَا، وَسَاءَتْ أَخْلاَقُنَا[2]، فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا، وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُوله ﷺ وقَسَمَهُ عليه السلام - بَيْنَ المُسْلِمينَ عَلَى بَوَاءٍ - يريد: على سَوَاءٍ - فكان في ذَلِكَ تَقْوَى اللَّه وطَاعَةُ رسوله، وصلاحُ ذات البين.

قال * ع[3] *: ويجيء مِنْ مجموع الآثار المذكورة هنا؛ أن نفوسَ أهْل بدر تنافَرَتْ، ووقع فيها ما يَقَعُ في نفوس البَشَر؛ مِنْ إرادة الأثرة، لا سيَّما مَنْ أَبْلَى، فأنزل اللَّه عزَّ وجَلَّ الآيَةَ، فَرضِيَ المسلمون، وسَلَّموا، فأَصْلَح ذاتَ بينهم، ورَدَّ عليهم غنائمهم.

---

(١) وقرأ بها ابن مسعود، وعلي بن الحسين، وأبو جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وطلحة بن مصرف.
ينظر: «**الشواذ**» ص: (٥٤)، و«**المحتسب**» (١/ ٢٧٢)، و«**الكشاف**» (٢/ ١٩٥) و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٩٦)، وزاد نسبتها إلى عكرمة، والضحاك، وعطاء. وينظر: «**البحر المحيط**» (٤/٤٥٣)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٣٩٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٩٧).

(٣) ينظر «**المحرر الوجيز**» (٢/ ٤٩٧).

قال بعضُ أهل التأويل؛ عكرمة، ومجاهد: كان هذا الحُكْمُ من الله سبحانه لِرَفْعِ الشَّغْبِ ثم نُسِخَ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ...﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. وهذا أولَى الأقوال وأصحُّها.

وقوله سبحانه: ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾: تصريحٌ بأنه شَجَرَ بينهم اخْتِلاَفٌ، ومالت النفوس إلى التَّشَاحِّ، و﴿ذات﴾ في هذا المَوْضِعِ يُرَادُ بها نَفْسُ الشيء وحقيقته، والذي يُفْهَمُ ﴿من بينكم﴾ هو معنى يعم جَمِيعَ الوُصَلِ، والالْتِحَامَات، والمَوَدَّات، وذات ذلك هو المَأْمُور بإصلاحها، أي: نفسه وعينه، وباقي الآية بَيِّنٌ.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنما المؤمنون الذي إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبهم...﴾ الآية، ﴿إنما﴾ لفظ لا تُفَارِقُهُ المُبَالَغَةُ والتأكيد؛ حيث وقع، ويصلح مع ذلك لِلْحَصْرِ، بحسب القرينة، فقوله هنا: ﴿إنما المؤمنون﴾ ظاهرها أنَّها للمبالغة والتأكيد فقط، أي الكاملون.

قال الشَّيْخُ أبو عَبْدُ الله محمد بن محمد بن أحمد الأنْصَارِيّ الساحلي المالقي في كتابه الذي أَلَّفَهُ في «السلوك»: واعلم أن الإنْسَانَ مطلوب بطَهَارَة نفسه، وتزكيتها، وطُرُقُ التزكية وإن كَثُرَتْ، فطريق الذِّكْرِ أسرع نفعاً، وأقرب مَرَاماً، وعليه دَرَجَ أكثر مشائخ التربية، ثم قال: والذِّكْرُ ضد النسيان، والمطلوب منه عِمَارَةُ الباطن باللَّهِ تعالى في كل زمان، ومع كل حال؛ لأن الذِّكْرَ يَدُلُّ على المذكور لا محالة، فذكره ديدناً يوجب المَحَبَّةَ له، والمعرفة به، والذكر وإن اختلف ألفاظه ومعانيه، فلكل معنًى [من] معانيه اختصاص بنوع من التَّحْلِيَةِ والتخلية، والتزكية، ثم قال: والذِّكْرُ على/ قسمين: ذكر العامة، وذِكْرُ الخاصَّة. أما ذِكْرُ ٢٠٨ ب
العامة، وهو ذِكْرُ الأجور، فهو أن يذكر العَبْدُ مَوْلاَهُ بما شاء من ذِكْرِهِ لا يقصد غير الأجور والثواب، وأما ذكر الخَاصَّة، فهو ذِكْرُ الحضور، وهو أن يذكر العَبْدُ مَوْلاَهُ بأذكار مَعْلُومَةٍ، على صفة مَخْصُوصَةٍ؛ لِينال بذلك المَعْرِفَةَ باللَّهِ سبحانه بطهارة نَفْسِهِ من كل خُلُقٍ ذَمِيمٍ، وتحليتها بكل خُلُق كريم. انتهى.

و﴿وجلت﴾: معناه: فَزِعَتْ، وَرَقَّتْ، وخافت، وبهذه المعاني فسرتها العُلَمَاءُ.

و﴿تليت﴾ معناه: سُرِدَتْ، وقرئت، والآيات هنا: القرآن المَتْلُوُّ.

ومن كلام صاحب «**الكلم الفارقية**»: إن تَيَقَّظْتَ يقظة قلبية، وانْتَبَهْتَ انْتباهةً حقيقية لم تر في وَقْتِكَ سَعَةً لغير ذِكْرِ ربك، واستشعار عظمته، ومهابته، والإقبال على طاعته، ما في

وَقْتِ العاقل فَضْلَةً في غير ما خُلِقَ له من عبادة خالقه، والاهتمام بمَصَالِحِ آخرته، والاستعداد لمَعَادِهِ، أعرف العبيد بجلالِ مَوْلاَهُ أَخْلاَهُمْ عما سواه، وأكثرهم لَهَجاً بذكره، وتعظيماً لأمره، وأحسنهم تَأَمُّلاً لآثار صنعته، وبدائع حِكْمته، وأشدهم شَوْقاً إلى لقائه، ومشاهدته انتهى.

وزيادة الإيمان على وجوه كلها خَارِجٌ، عن نَفْسِ التصديق: منها أن المؤمن إذا كان لم يسمع حُكْماً من أحكام الله عز وجل في القرآن، فنزل على النبي ﷺ فسمعه، فآمن به، زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به؛ إذ لكل حُكْم تَصْدِيقٌ خاص، وهذا يَتَرتَّبُ فيمن بَلَغَهُ ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القِيَامَةِ، وترتب زيادة الإيمان بزيادة الدَّلاَئِلِ، ولهذا قال مالك: الإِيمان يَزِيدُ ولا ينقص، ويترتب بِزِيَادَةِ الأعمال البَرَّةِ على قول من يَرَى أنَّ لَفْظَةَ الإيمان واقعة على التَّصْدِيقِ والطاعات، وهؤلاء يقولون: يزيد وينقص.

وقوله سبحانه: ﴿وعلى ربهم يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارة جامعة لِمَصَالِحِ الدنيا والآخرة إذا اعتبرت، وعمل بحسبها في أن يَمْتَثِلَ الإنسان ما أمر به، ويبلغ في ذلك أَقْصَى جهده دون عجز، وينتظر بعد ما وعد به من نَصْرٍ، أو رزق، أو غيره، وهذه أَوْصَافٌ جَمِيلَةٌ وَصَفَ الله بها فُضَلاَءَ المؤمنين، فجعلها غاية للأُمَّةِ يَسْتَبِقُ إليها الأَفَاضِلُ، ثم أَتْبَعَ ذلك وَعْدَهُمْ وَوَسْمَهُمْ بإقامة الصلاة، ومَدَحَهُمْ بها حَضًّا على ذلك.

وقوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. قال جَمَاعَةٌ من المفسرين: هي الزَّكَاةُ وإنما حملهم على ذلك اقْتِرَانُ الكلام بإِقَامَةِ الصَّلاَةِ، وإلا فهو لفظ عام في الزكاة، ونوافل الخَيْرِ، وَصِلاَتِ المستحقين، ولفظ ابنَ عَبَّاسٍ في هذا المعنى محتمل.

وقوله سبحانه: ﴿لهم درجات﴾ ظَاهِرُهُ، وهو قَوْلُ الجمهور أن المراد مَرَاتِبُ الجنة، ومنازلها، ودرجاتها على قَدْرِ أعمالهم، ﴿ورزق كريم﴾ يريد مَآكِلَ الجنة، ومَشَارِبَهَا، و﴿كريم﴾ صفة تقتضي رَفْعَ المَذَامِّ، كقوله: ثوب كريم.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿كما أخرجك رَبُّكَ من بيتك بالحق...﴾ الآية: اختلف في معنى
١٢٠٩ هذه الآية، فقال الفَرَّاء: التقدير امْضِ لأمرك/ في الغَنَائِمِ، وإن كرهوا كما أخرجك رَبُّكَ.

قال * ع[1] *: وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال: هذه الكاف شَبَّهَتْ هذه القِصَّة

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٠٢).

التي هي إِخْرَاجُهُ من بيته بالقِصَّةِ المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأَنْفَال، كأنهم سألوا عن النَّفَلِ، وتشاجروا، فأخرج اللَّه ذلك عنهم، فكانت فيه الخِيَرَةُ، كما كَرِهُوا في هذه القصة انْبِعَاثَ النبي ﷺ فأخرجه اللَّه من بَيْتِهِ، فكانت في ذلك الخِيَرَةُ، وعلى هذا التأويل يُمْكِنُ أن يكون قوله: ﴿يجادلونك﴾ كلاماً مُسْتَأْنَفاً يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بَعْد ما تَبَيَّنَ الحَقُّ فيها، كأنما يساقون إلى المَوْتِ في الدُّعَاءِ إلى الإيمان، وهذا الذي ذكرت من أن ﴿يجادلونك﴾ في الكُفَّار منصوص.

وقال مجاهد وغيره: المعنى في الآية: كما أخرجك ربك من بَيْتِكَ على كَرَاهِيَةٍ من فريق منهم، كذلك يُجَادِلُونَكَ في قتال كفار «مكة»، ويوَدُّونَ غير ذَاتِ الشَّوْكَة من بعد ما تَبَيَّنَ لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يُرِيدُونَ[١] هم، وقائل هذه المَقَالَةِ يقول: إن المجادلين هم المؤمنون، وقائل المقالة الأولى يقول: إن المُجَادِلِينَ هم المشركون، وهذان القولان يتم بهما المَعْنَى، ويحسن رَصْفُ اللفظ.

وقيل غير هذا.

وقوله: ﴿من بيتك﴾ يريد من «المدينة» «يثرب» قاله الجُمْهُور.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ يعدكم اللَّه إحدى الطائفتين أنها لكم...﴾ الآية: في هذه الآية قَصَصٌ حَسَنٌ، محل استيعابه **«كتاب سيرة رسول اللَّه ﷺ»** لابن هِشَام، واختصاره: أن رسول اللَّه ﷺ لما بلغه، وقيل: أوحي إليه أن أبا سُفْيَانَ بن حَرْبٍ، قدْ أَقبل من «الشام» بالعِيرِ التي فيها تجارة قُرَيْشٍ وأموالها قال لأصحابه: إن عِيرَ قريش قد عَنَتْ لكم، فاخرجوا إليها، لعل اللَّه أن يَنْفُلَكُمُوها. قال: فانبعث معه من خَفَّ، وثَقُلَ قوم، وكرهوا الخروج، وأسرع رسول اللَّه ﷺ لا يَلْوِي على من تَعَذَّرَ، ولا ينظر من غاب ظهره، فسار في ثلاث

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٨٠ ـ ١٨١) برقم: (١٥٧١٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٠٢)، وابن كثير (٢/ ٢٨٧) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٣٠٠)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

مائة وثلاثة عشر، أو نحو ذلك من أصحابه بين مُهَاجِرِيٍّ وأَنْصَارِيٍّ، وقد ظَنَّ الناس بأجمعهم أن رسول اللّه ﷺ لا يلقى حَرْباً، فلم يكثر اسْتِعْدَادُهُمْ، وكان أبو سُفْيَانَ في خلال ذلك يَسْتَقْصِي، ويحذر، فلما بلغه خُرُوجُ رسول اللّه ﷺ بعث ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الغفاري إلى «مكة» يَسْتَنْفِرُ أهلها، ففعل ضمضم، فخرج أهل «مكة» في ألف رَجُل، أو نحو ذلك، فلما بلغ رَسُولَ اللّهِ ﷺ خروجهم أَوْحَىٰ اللّه إليه وَحْياً غير مَتْلُو يَعِدُهُ إِحدى الطَّائِفَتَيْنِ، فَعَرَّفَ رسول اللّه ﷺ أصحابه بذلك، فَسرُّوا، وَوَدُّوا أن تكون لهم العِيرُ التي لا قِتَالَ معها، فلما علم أبو سفيان بِقُرْبِ رسول اللّه ﷺ منه أخذ طَرِيقَ الساحل، وأبعد وفات، ولم يبق إلا لقاء أهل «مكة»، وأشار بعض الكُفَّارِ على بَعْضٍ بالانصراف، وقالوا:
٢٠٩ب هذه عِيرُنَا قد نَجَتْ، فلننصرف/ فحرش[1] أبو جهل وَلَجَّ، حتى كانَ أَمْرُ الواقعة. وقال بعضِ المؤمنين: نحن لم نخرج لِقِتَالٍ، ولم نَسْتَعِدَّ له، فجمع رسول اللّه ﷺ أَصْحَابَهُ، وهو بِوَادٍ يسمى «ذَقران» وقال: أشيروا علي أيها النَّاسُ، فقام أبو بَكْرٍ، فتكلم، وأحسن، وحَرَّضَ الناس على لقاء العدو، فأعاد رَسُولُ اللّهِ ﷺ الاسْتِشَارَةَ، فَقَامَ عمر بِمِثْلِ ذلك، فأعاد رسول اللّه ﷺ الاسْتِشَارَةَ، فتكلم المِقْدَادُ بْنُ الأسود الكندي[2]، فقال: لا نقول لك يَا رَسُولَ اللّه كما قالت بَنُو إِسرائيل: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، ولكن نَقُولُ: إِنا معكما مقاتلون، واللّه لو أردت بنا برك الغماد يعني مدينة «الحبشة» لَقَاتَلْنَا معك من دُونِهَا، فسر رسول اللّه ﷺ بكلامه، ودعا له بخير، ثم قال: أشيروا علي أيها النَّاسُ، فكلمه سعد بنُ مُعَاذٍ، وقيل: سعد بن عبادة، ويحتمل هما معاً؛ فقال: يا رسول اللّه، كأنك إيانا تُرِيدُ مَعْشَرَ الأنصار، فقال النبي ﷺ: أجل، فقال: إنا قد آمَنَّا بك، واتبعناك،

---

(١) التحريش: الإغراء بين القوم.
ينظر: **«لسان العرب»** (٨٣٤).

(٢) هو: المقداد بن عمرو (الأسود الكندي) بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود بن عمرو بن سعد. . . أبو الأسود البهراوي.
الشهرة: المقداد بن الأسود الكندي، قال ابن حجر: أسلم قديماً وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر حتى أنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره، وروى المقداد عن النبي أحاديث كثيرة، توفي سنة ٣٣ في خلافة عثمان وله ٧٠ سنة.
ينظر: **«الثقات»** (٣/ ٣٧١)، **«أسد الغابة»** (٥/ ٢٥١)، **«التاريخ الصغير»** (١/ ٨٣)، **«معجم الثقات»** (١٢٣)، **«الاستبصار»** (١٤٥، ٢٠٨)، **«تقريب التهذيب»** (٢/ ٢٧٢)، **«المنمق»** (٤٥٣، ٥١٣، ٥١٤)، **«تراجم الأحبار»** (٣/ ٣٥١، ٣٧٠)، **«الإصابة»** (٦/ ١٣٣)، **«الأعلام»** (٧/ ٢٨٢)، **«أصحاب بدر»** (٨٥)، **«تجريد أسماء الصحابة»** (٢/ ٩٢)، **«الجرح والتعديل»** (٨/ ٤٢٦)، **«الطبقات»** (١٦/ ١٢٠).

وبَايَعْنَاكَ، فامضِ لأَمْرِ اللَّه، فواللَّه لو خُضْتَ بنا هذا البَحْرَ لَخُضْنَاهُ معك، فقال النبي ﷺ: «امضوا على بَرَكَةِ اللَّه، فكأني أنظر إلى مَصَارِعِ القوم» فالتقوا وكانت وقعة بدر.

* ت *: وفي «**صحيح البخاري**» من حَدِيثِ عائشة، في خروج أبي بكر من «مكة» فلقيه ابن الدّغنة عند برك الغمَادِ[١] الحديث، وليست بمدينة «الحبشة» من غير شَكٍّ. فاللَّه أعلم، ولعلهما مَوْضِعَان. انتهى.

و﴿الشَّوْكَةُ﴾ عبارة عن السِّلاَحِ والحِدَّةِ.

وقوله سبحانه: ﴿ويريد اللَّه أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ المعنى: ويريد اللَّه أن يُظْهِرَ الإِسلام، ويعلي دعوة الشَّرْعِ بكلماته التي سَبَقَتْ في الأَزَلِ، والدابر الذي يدبر القَوْمَ، أي يأتي آخرهم، وإذا قطع فقد أتى على آخرهم بشَرْطِ أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهَلاَكُ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿ليحق الحق﴾ أي: ليظهر الحق الذي هو دِينُ الإسلام، و﴿يبطل الباطل﴾، أي: الكفر، و﴿تستغيثون﴾ معناه: تَطْلُبُونَ الغَوْثَ، و﴿ممدكم﴾ أي: مكثركم، ومقويكم من: أَمْدَدْتُ، و﴿مردفين﴾ معناه: متبعين.

وقرأ سائر السبعة[٢] غير نافع: «مردفين» ـ بكسر الدال ـ، ونافع بفتحها، وروي عن ابن عَبَّاسٍ: خَلْفَ كل مَلَكٍ مَلَكٌ[٣]، وهذا معنى التتابع، يقال: رَدِفَ وأَرْدَفَ؛ إذا اتبع، وجاء بعد الشَّيْءِ، ويحتمل أن يُرَادُ مُرْدِفِينَ للمؤمنين، ويحتمل أن يُرَادَ مردفين بعضهم بَعْضاً، وأنشد الطبري[٤] شَاهِداً على أن أَرْدَفَ بمعنى جاء تَابِعاً قَوْلَ الشاعر: [الوافر]

إِذَا الجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا[٥]

والثرَيَّا تطلع قبل الجَوْزَاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦) كتاب «الكفالة» باب: جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، حديث (٢٢٩٧).

(٢) ورويت عن أبي عمرو كما في «**الكشاف**» (٢/ ١ ـ ٢)، و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٥٠٤)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٤٦٠)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٣٩٨).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ١٨٩) برقم: (١٥٧٥٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٠٤)، وابن كثير (٢/ ٢٩٠)، والسيوطي (٣/ ٣١٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ١٩٠).

(٥) البيت لخزيمة بن مالك. ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ١٩٠)، وينظر: «**اللسان**» (ردف)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٤٠٠)

ورُوِيَ في «الصحيح»: الأشهر أن المَلائِكَةَ قاتلت يَوْمَ بَدْرٍ.

واختلف في غيره؛ قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللّه بن أبي بكر؛ أنه حُدِّثَ عن ابن عباس، أنه قال: حدثني رَجُلٌ من بني غِفَارٍ، قال: أقبلت أنا وابن عَمٍّ لي حتى صَعَدْنَا في جَبَلٍ يُشْرِفُ بنا على بَدْرٍ، ونحن مشركان ننتظر الوَقْعَةَ على من تكون، فَنَنْتَهِبُ مع من يَنْتَهِبُ. قال: فبينما نحن في الجَبَلِ، إذ دنت منا سَحَابَةٌ، فسمعنا فيها حَمْحَمَةَ الخَيْلِ،
/ فسمعت قائلاً يقول: أقدمَ حَيْزُوم، فأما ابن عمي، فانكشف قِنَاعُ قَلْبِهِ، فمات مكانه، ٢١٠أ
وأما أنا فَكِدْتُ أَهْلَكُ، ثم تَمَاسَكْتُ(١).

قال ابن إسحاق: وحدثني عَبْدُ اللّه بن أبي بَكْرٍ عن بعض بني سَاعِدَةَ عن أبي سعيد مالك بن رَبِيعَةَ، وكان شهد بَدْراً، قال بعد أن ذهب بَصَرُهُ: لو كنت اليوم ببدر، ومعي بَصَرِي لأريتكم الشِّعْبَ الذي خَرَجَتْ منه المَلائِكَةُ لا أَشُكُّ ولا أَتَمَارَى. انْتَهى من «سيرة ابن هِشَامٍ».

وقوله سبحانه: ﴿وما جعله اللّه إلا بُشْرَى ولتطمئن به قلوبكم﴾ الضمير في «جعله» عائد على الوَعْدِ، وهذا عندي أَمْكَنُ الأقوال من جهة المَعْنَى.

وقيل: عائد على المَدَدِ، والإِمداد.

وقيل: عائد على الإرداف.

وقيل: عائد على الأَلف، وقوله: ﴿وما النصر إلا من عند اللّه إن اللّه عزيز حكيم﴾ توقيف على أن الأَمْرَ كُلَّهُ للّه وأن تَكَسُّبَ المَرْءِ لا يغني، إذا لم يساعده القَدَرُ، وإن كان مَطْلُوباً بالجِدِّ، كما ظاهر رسول اللّه ﷺ بين درعين.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنةً منه﴾. القَصْدُ تعديد نِعَمِهِ سبحانه على

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٢/ ٢٩٦) ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٤٥٣)، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

المؤمنين في يوم بَدْرٍ، والتقدير: اذكروا إذ فعلنا بكم كذا، وإذ فعلنا كذا، والعامل في «إذ» «اذكروا» وقرأ نافع: «يُغْشِيكُم» ـ بضم[1] الياء، وسكون الغين ـ وقرأ حمزة وغيره: ﴿يُغَشِّيكم﴾ ـ بفتح الغين وَشَدِّ الشين المكسورة، وقرأ بن كثير وغيره: «يَغْشَاكم» ـ بفتح الياء وألف بعد الشين ـ «النُّعَاسُ» بالرفع، ومعنى ﴿يغشيكم﴾: يغطيكم، والنُّعَاسُ أَخَفُّ النوم، وهو الذي يصيب الإِنْسَانَ، وهو واقف أو مَاشٍ، وينص على ذلك قَصَصُ هذه الآية؛ أنهم إنما كان بهم خَفْقٌ بالرُّؤوس، وقوله: ﴿أمنة﴾ مصدر من أَمِنَ يَأْمَنُ أَمْناً وأَمَنَةً وأَمَاناً، والهاء فيه لتأنيث المصدر، كما هي في المَسَاءَةِ والحَمَاقَةِ والمَشَقَّةِ.

وروي عن ابن مَسْعُودٍ أنه قال: النُّعَاسُ عند حضور القِتَالِ عَلاَمَةُ أمن، وهو من اللّه، وهو في الصَّلاَةِ من الشيطان[2].

قال * ع[3] *: وهذا إنما طريقه الوَحْيُ، فهو لا مَحَالَةَ يسنده وقوله سبحانه: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾. وذلك أن قَوْماً من المؤمنين لحقتهم جَنَابَاتٌ في سفرهم، وعدموا المَاءَ قَرِيبَ بَدْرٍ، فصلوا كذلك، فَوَسْوَسَ الشيطان في نفوس بعضهم مع تخويفه لهم من كثرة العَدُوِّ وقلتهم، وأيضاً فكانت بينهم وبين مَاءِ بَدْرٍ مَسَافَةٌ، من رمل دَهْسٍ[4] تَسُوخُ[5] فيها الأَرْجُلُ، فكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكُفَّارُ إلى ماء بدر، فأنزل اللّه تلك المَطَرَةَ فَسَالَتِ الأودية، فاغتسلوا، وطهرهم اللّه تعالى فذهب رِجْزُ الشيطان، وَتَدَمَّثَ[6] الطريق، وتَلَبَّدَتْ[7] تلك الرِّمَالُ، فسهل اللّه عليهم السير، وأمكنهم الإسراع

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠٤)، «الحجة» (٤/ ١٢٥)، «إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ٧٧)، «حجة القراءات» (٣٠٨)، «إعراب القراءات» (١/ ٢٢٢)، «النشر» (٢/ ٢٧٦) و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٢٤)، و«شرح شعلة» (٤٠٥)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٩٢) برقم: (١٥٧٧١ ـ ١٥٧٧٢ ـ ١٥٧٧٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٠٦)، والبغوي (٢/ ٢٣٤)، وابن كثير (٢/ ٢٩١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٦).

(٤) رمل أدهس بَيِّنُ الدَّهَسِ، والدَّهاس من الرمل: ما كان كذلك، لا ينبت شجراً، وتغيب فيه القوائم... وقيل: ما سهل ولان من الأرض، ولم يبلغ أن يكون رملاً.
ينظر: «لسان العرب» (١٤٤١)، و«النهاية» (٢/ ١٤٥).

(٥) أي: غاصت في الأرض. ينظر: «اللسان» (٢١٤١).

(٦) الدَّمْثُ: السهول من الأرض، الواحدة دَمِثَةٌ، وهو أيضاً المكان اللين ذو رمل، ودَمَّث الشيء: إذا مَرَسَه حتى يلين.
ينظر: «لسان العرب» (١٤١٨ ـ ١٤١٩).

(٧) أي: صارت قوية لا تسوخ فيها الأرجل.
ينظر: «لسان العرب» (٣٩٨٤).

حتى سبقوا إلى ماءِ بَدْرٍ، وأصاب المشركين من ذلك المَطَرَ ما صَعَّبَ عليهم طريقهم، فسر المؤمنون، وتبينوا من فِعْلِ اللَّه بهم ذلك قَصْدَ المعونة لهم، فطابت نفوسهم، واجتمعت، وتَشَجَّعَتْ، فذلك الرَّبْطُ على قلوبهم، وتثبيت أقدامهم على الرملة اللَّيِّنَةِ.

والضمير في «به» على هذا الاحتمال عَائِدٌ على الماء، ويحتمل عَوْدُهُ على رَبْطِ القلوب، ويكون تثبيت/ الأقدام عِبَارَةً عن النصر والمعونة في مَوْطِنِ الحَرْبِ، ونزول الماء ٢١٠ ب
كان في الزمن قبل تَغْشِيَةِ النعاس، ولم يترتب كذلك في الآية، إذ القَصْدُ فيها تَعْدِيدُ النعم فقط.

وقوله سبحانه: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ وتثبيتهم يكون بقتالهم، وبحضورهم، وبأقوالهم المُؤْنِسَةِ، ويحتمل أن يكون التَّثْبِيتُ بما يلقيه المَلَكُ في القلب بِلَمَّتِهِ من تَوَهُّمِ الظَّفَرِ، واحتقار الكفار، وبخواطر تشجعه.

قال * ع[(١)] *: ويقوي هذا التأويل مطابقة قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وعلى هذا التأويل يجيء قوله: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ مخاطبة للملائكة، ويحتمل أن يكون مخاطبة للمؤمنين. وقوله سبحانه: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ قال عكرمة: هي على بابها، وأراد الرؤوس[(٢)]، وهذا أنبل الأقوال.

قال * ع[(٣)] *: ويحتمل عندي أن يريد وَصْفَ أَبْلَغِ ضربات العنق وأحكمها، وهي الضربة التي تكون فَوْقَ عَظْمِ العنق دون عَظْمِ الرأس في المفصل، كما وصف دريد بن الصِّمَّة[(٤)]، فيجيء على هذا فوق الأَعْنَاقِ متمكناً.

والبَنَان: قالت فرقة: هي المَفَاصِلُ؛ حيث كانت من الأعضاء.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٠٨).

(٢) أخرجه الطبري (٦/١٩٧) برقم: (١٥٨٠٠) نحوه، وذكره ابن عطية (٢/٥٠٨)، والبغوي (٢/٢٣٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣١٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٠٨).

(٤) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها، وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية «يوم حنين»، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمناً به، وهو أعمى، فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلميّ فقتله، له أخبار كثيرة، والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث.
ينظر ترجمته في: «الأعلام» (٢/٣٣٩) (٤١٦٤).

وقال فرقة: البنان الأصابع، وهذا هو الصحيح؛ لأنه إذا قطع البنان لم ينتفع صَاحِبُهُ بشيء من أعضائه واستأسر.

و﴿شاقوا﴾: معناه خالفوا ونَابَذُوا، وقطعوا، وهو مأخوذ من الشَّقِّ، وهو القَطْعُ والفَصْلُ بين شيئين، وعبر المفسرون عن قوله: ﴿شاقوا﴾ أي: صاروا في شق غير شقه.

قال * ع[1] *: وهذا وإن كان معناه صَحِيحاً، فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذَكَرْنَاهُ، وقوله: ﴿فإن اللّه شديد العقاب﴾ جَوَابٌ للشرط، تضمن وَعِيداً وَتَهْدِيداً.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم فذوقوه﴾ المُخَاطَبَةُ للكفار، أي ذلكم الضَّرْبُ والقَتْلُ، وما أوقع اللّه بهم يوم بَدْرٍ، فكأنه قال: الأمر ذلكم فذوقوه، وكذا قرره سيبويه.

وقال بعضهم: يحتمل أن يكون «ذلكم» في موضع نَصْبٍ، كقوله: زيداً فاضربه، وقوله سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كَفَرُوا زَحْفاً...﴾ الآية: ﴿زحفاً﴾ يراد به متقابلي الصفوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأصل الزحف الاندفاع على الأَلْيَةِ، ثم سمي كل مَاشٍ إلى آخر في الحرب رُوَيْداً زاحفاً، إذ في مشيته من التَّمَاهُلِ والتَّبَاطُؤِ ما في مشي الزاحف، وفي هذا المعنى شواهد من كلام العرب، ونهى اللّه سبحانه في هذه الآية عن تَوَلِّي الأَدْبَارِ، وهذا مقيد بالشَّرِيطَةَ المنصوصة في مثلي المؤمنين، والفرار هنالك كَبِيرَةٌ موبقة بظاهر القرآن، والحديث، وإجماع الأكثر من الأمة.

وقوله: ﴿ومن يولهم يومئذٍ دبره...﴾ الآية. قال جمهور الأمة: الإشارة بـ﴿يومئذٍ﴾ إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله: ﴿إذا لقيتم﴾ وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة، بشرط الضعف الذي بَيَّنَهُ اللّه سبحانه.

٢١١أ * ت *: قال ابن رشد: وهذا ما لم يبلغ عَدَدُ/ المسلمين اثني عشر أَلْفاً، فإن بلغ حرم الفِرَارُ، وإن زاد المشركون على الضعف للحديث «لن تغلب اثنا عشر ألفاً من قِلَّةٍ»، فإن أكثر أهل العِلْمِ خَصَّصُوا بهذا الحديث عُمُومَ الآية.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٠٩).

وعن مالك مثله. انتهى.

وفهم * ع[(١)] *: الحديث على التَّعَجُّبِ، ذكره عند قوله: ﴿ويوم حنين﴾ [التوبة: ٢٥]، وما قاله ابنُ رشْدٍ هو الصواب. واللّه أعلم.

و﴿متحرفاً لقتال﴾ يراد به الذي يَرَى: أن فعله ذلك أنْكَى للعدو، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿متحيزاً﴾، وأما الاسْتِثْنَاءُ، فهو من المولين الذين تضمنهم «من».

والفِئَةُ هنا الجَمَاعَةُ الحاضرة لِلْحَرْبِ، هذا قول الجمهور.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلم تقتلوهم ولكن اللّه قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى﴾ هذه الألفاظ تَرِدُ على من يزعم أن أَفْعَالَ العباد خَلْقٌ لهم، ومذهب أهل السنة أنها خلق للرب سبحانه كَسْبٌ للعبد؛ روي أن النبي ﷺ أخذ يومئذٍ ثلاث قَبَضَاتٍ من حَصًى وتُرَابٍ، فرمى بها في وجوه القوم، فانهزموا عند آخر رمْيَةٍ، ويروى أنه قال يوم بدر: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»[(٢)] وهذه الفعلة أيضاً كانت يوم «حُنَيْن» بلا خلاف.

و﴿ليبلي المؤمنين﴾ أي: ليصيبهم ببلاء حَسَنٍ، وظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة، والظفر، والعزة.

﴿إن اللّه سميع﴾ لاستغاثتكم، ﴿عليم﴾ بوجوه الحكمة في جميع أفعاله لا إلٰه إلا هو.

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما تقدم من قَتْلِ اللّه لهم، ورميه إياهم، وموضع ﴿ذلكم﴾ من الإعراب رفع.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٣، ٣٦٨)، والحاكم (٣/ ١٥٧)، وابن حبان(٦٥٠٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٤٠) من طريق ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وصححه الحاكم وابن حبان. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٨)، وقال: رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما: رجال الصحيح.

قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم، و﴿موهن﴾ معناه مضعف مبطل.

وقوله سبحانه: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءَكُم الفَتْحُ...﴾ الآية: قال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة لكفار «مكة»؛ روي أن قريشاً لما عَزَمُوا على الخروج إلى حِمَايَةِ العِيرِ، تعلقوا بأستار الكعبة، واستفتحوا، وروي أن أبا جَهْلٍ قال صبيحة يوم بدر: اللهم انْصُرْ أَحَبَّ الفئتين إليك، وأظهر خَيْرَ الدِّينَيْنِ عندك، اللهم أَقْطَعُنَا للرحم فَأَحْنِهِ الغَدَاةَ، ونحو هذا فقال الله لهم: إن تطلبوا الفَتْحَ فقد جاءكم، أي: كما ترونه عليكم لاَ لَكُمْ، وفي هذا توبيخ لهم، وإن تنتهوا عن كفركم وغيكم فهو خَيْرٌ لكم، وإن تعودوا للاستفتاح نَعُدْ بمثل وَقْعَةِ بدر، وباقي الآية بَيِّنٌ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله...﴾ الآية: قيل: إنها نزلت بسبب اختلافهم في النَّفَل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج النبي ﷺ، و﴿تولوا﴾ أصله: تتولوا.

وقوله: ﴿أنتم تسمعون﴾ يريد دُعَاءه لكم بالقرآن والمواعظ.

وقوله: ﴿كالذين قالوا﴾ يريد الكفار؛ إما من قريش لقولهم: ﴿سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال: ٣١]، وإما الكفار على الإطلاق.

وقوله سبحانه: ﴿إن شر الدواب عند الله الصّم البكم﴾ مَقْصِدُ الآية بيان أن هذه / الصنيفة العاتية من الكُفَّارِ هي شَرُّ النَّاسِ عند الله سبحانه وأنها في أَخَسِّ المَنَازِلِ لديه، ٢١١ ب وعبر بالدواب ليتأكد ذمهم، وقوله: ﴿الصم البكم﴾ عبارة عما في قلوبهم، وعدم انشراح صدورهم، وإدراك عقولهم.

وقوله: ﴿ولو علم الله فيهم خَيْراً لأسمعهم﴾ أي سماع هدى، وتَفَهُّم، ﴿ولو أسمعهم﴾ أي: ولو فهمهم ﴿لتولوا﴾ بحكم القضاء السابق فيهم، ولأعرضوا عما تبين لهم من الهُدَى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٢٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول...﴾ الآية: ﴿استجيبوا﴾ بمعنى: أجيبوا وقوله: ﴿لما يحييكم﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى للطاعة[١]، وما يتضمنه القرآن، وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من مَوْتِ الكفر والجهل، والطَّاعَةُ تؤدي إلى الحَيَاةِ الدائمة في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿واعلموا أن اللَّه يَحُولُ بين المرء وقلبه﴾ يحتمل وجوهاً:

منها: أنه لما أمرهم سبحانه بالاستجابة في الطاعة، حضَّهم على المبادرة والاستعجال، وأعلمهم أنَّه يحولُ بين المرء وقَلْبه بالموت والقَبْض، أي: فبادروا الطاعات، ويلتئم مع هذا التأويلِ قوله: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾، أي: فبادروا الطاعات، وتزوَّدوها ليوم الحَشْر.

ومنها: أن يقصد إعلامهم أن قُدْرة اللَّه وعلْمه وإحاطته حائلةٌ بين المرء وقلبه، فكان هذا المعنَى يحضُّ على المراقبة والخَوْفِ للَّه المُطلع على الضمائر؛ حُكِيَ هذا التأويلُ عن قتادة[٢] ويحتملُ أن يريد تخويفهم؛ إنْ لم يمتثلوا الطَّاعات، ويستجيبوا للَّه وللرَّسول؛ أَنْ يَحُلَّ بهم ما حل بالكفَّار الذين أرادهم بقوله: ﴿ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لأن خَتْمَهُ عليهم بأنهم لو سَمِعُوا لم ينتفعوا يقتضِي أنه كان قد حال بينهم وبَيْنَ قلوبهم.

ومنها: أنْ يكون المعنَى ترجيةً لهم بأنَّ اللَّه يبدِّل الخوف الذي في قلوبهم مِنْ كثرة العَدُوِّ، فيجعله جراءةً وقوةً، وبضدِّ ذلك للكفَّار، أي: فإن اللَّه تعالَى هو مقلِّب القلوب؛ كما كان قسم النبيِّ ﷺ، وقيل غير هذا.

قال مكِّيٌّ، وقال الطبريُّ[٣]: هذا خبر من اللَّه عز وجلَّ؛ أنه أَمْلَكُ بقلوبِ العباد منهم لها، وأنه يحولُ بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يُدْرِكَ الإنسان شيئاً من إيمان ولا كُفْر، ولا يعي شيئاً، ولا يفهم شيئاً إلا بإذنه ومشيئته سبحانه، وقد كان النبيُّ ﷺ كثيراً ما يقول في

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٥١٤).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٢١٥) برقم: (١٥٩١٦) بنحوه.
(٣) ينظر: «الطبري» (٦/ ٢١٥).

دعائه: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[١] انتهى من «**الهداية**».

وروى مالكُ بن أنس والنسائي، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا أُبَيَّ بْن كَعْب وهو في الصَّلاَة، فَلَمْ يُجِبْهُ، وأَسْرَعَ في بَقِيَّةِ صَلاَتِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ جَاءَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأَيُّها الَّذين آمنوا آستجيبوا للَّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ قال أُبَيٌّ: لاَ جَرَمَ، يا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ تَدْعُونِي أَبَدَاً إِلاَّ أَجَبْتُكَ...»[٢] الحديث بطوله، واختلاف ألفاظه، وفي «**البخاريِّ ومسلم**»؛ أن ذلك /وقع مع أبي سَعِيدِ بن المُعَلَّىٰ[٣]، وروي أنه وقع نحوه ٢١٢أ
مع حُذَيْفَة بن اليَمَانِ[٤] في غزوة الخَنْدَق.

وقوله: عزَّ وجلَّ: ﴿واتقوا فتنةً لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّةً﴾ في الآية تأويلاتٌ، أسبقها إلى النفسِ، أن اللَّه سبحانه حذَّر جميع المؤمنين من فتنة إِن أصابَتْ لم تخصَّ الظلمة فقطْ، بل تصيبُ الكُلَّ من ظالم وبريءٍ، وهذا تأويلُ الزُّبَيْر بن العَوَّام، والحسنِ البَصْرِيِّ[٥]، وكذلك تأويل ابن عباس؛ فإنه قال: أمر اللَّه المؤمنين في هذه الآية ألاَّ يقروا المُنْكَرَ بين أظهرهم، فيعمَّهم العذاب[٦] و﴿خاصَّة﴾: نعت لمصدرٍ محذوف، تقديره إِصابةً خاصةً، فهي نصب على الحال، وقرأ علي[٧] بن أبي طالب رضي اللَّه عنه وغيره: «لَتُصِيبَنَّ» ـ باللام ـ على جواب قسم، والمعنَى على هذا: وعيدٌ للظلمة فقط.

وقوله سبحانه: ﴿وآذكروا إِذ أنتم قليل...﴾ الآية: هذه الآية تتضمَّن تعديد نِعَم اللَّه على المؤمنين، و«إذ»: ظرفٌ لمعمول، «وآذكروا»: تقديره: وآذكروا حالَكُم الكائنةَ، أو

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه في سورة «الفاتحة».
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه في سورة «الفاتحة».
(٥) أخرجه الطبري (٦/ ٢١٦ ـ ٢١٧) برقم: (١٥٩١٧) وبرقم: (١٥٩١٨ ـ ١٥٩١٩ ـ ١٥٩٢٠)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥١٥)، وذكر نحوه البغوي (٢/ ٢٤١)، وابن كثير (٢/ ٢٩٩) بنحوه أيضاً، والسيوطي (٣/ ٣٢١).
(٦) أخرجه الطبري (٦/ ٢١٧) برقم: (١٥٩٢٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥١٥)، والبغوي (٢/ ٢٤١)، وابن كثير (٢/ ٢٩٩)، والسيوطي (٣/ ٣٢٢).
(٧) وقرأ بها ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو العالية، وأبو جعفر محمد بن علي، والربيع بن أنس، وابن جمَّار.
ينظر: «**الشواذ**» ص: (٥٤)، و«**المحتسب**» (١/ ٢٧٧)، و«**الكشاف**» (٢/ ٢١٢) و«**المحرر الوجيز**» (٢/ ٥١٦)، و«**البحر المحيط**» (٤/ ٤٧٨)، و«**الدر المصون**» (٣/ ٤١٢).

الثابتَةَ إِذْ أنتم قليل، ولا يجوزُ أنْ تكون «إذْ» ظرفاً للذِّكْر.

وإِنما يعمل الذِّكْرُ في «إذْ» لو قدَّرناها مفعولة، واختلف في الحال المشار إِليها بهذه الآية.

فقَالَتْ فرقَةٌ؛ وهي الأكثر: هي حالُ المؤمنين بمكَّة في وقْتِ بداءةِ الإِسلام، والنَّاس الذين يُخَافُ تخطُّفُهم كُفَّار مكَّة، والمأوَى: المدينةُ، والتأييدُ بالنَّصر: وَقْعَةُ بَدْرٍ وما ٱنجرَّ معها في وقتها، والطيبات: الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به، وقالتْ فرقة: الحال المشارُ إِليها هي حالهم في غزوة بَدْرٍ، والناس الذين يُخَافُ تخطُّفهم، على هذا: عسكر مكَّة وسائر القبائل المجاورة، فإِن النبيَّ ﷺ كان يتخوَّف من بعضهم، والمأوى على هذا، والتأييد بالنصر: هو الإِمداد بالملائكةِ والتغليبُ على العدو، والطَّيِّبَات: الغنيمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تخونوا اللَّه والرسول﴾ هذا خطابٌ لجميع المؤمنين إِلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخياناتِ كلِّها قليلَهَا وكثيرَهَا، والخيانةُ: التنقُّص للشيءِ بٱختفاءٍ، وهي مستعْمَلَةٌ في أنْ يفعل الإِنسان خلاف ما يَنْبَغِي مِنْ حفظ أمْرٍ مَّا، مالاً كان أو سرًّا أو غير ذلك، والخيانة للَّه عَزَّ وجل: هي في تنقُّص أوامره في سِرٍّ.

وقوله: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾.

قال الطبريُّ[1]: يحتمل أن يكون داخلاً في النهْيِ؛ كأنه قال: لا تخونوا اللَّه والرسولَ، ولا تخونوا أماناتِكُمْ، ويحتمل أن يكون المعنَى: لا تخونوا اللَّه والرسول؛ فذلك خيانةٌ لأماناتكم.

وقوله: ﴿فتنةٌ﴾، يريد: محنةً وٱختباراً وٱمتحاناً؛ ليرى كَيْفَ العملُ في جميع ذلك.

وقوله: ﴿وأن اللَّه عنده أجر عظيم﴾، يريد: فوز الآخرة، فلا تَدَعُوا حظَّكم منه؛ للحيطة على أموالكم وأبنائكم؛ فإِن المذخور للآخرة أعظمُ أجراً.

قوله سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا إِن تتقوا اللَّه...﴾ الآية: وعْدٌ للمؤمنين بشرط

(١) ينظر: «الطبري» (٦/ ٢٢١).

التقوىٰ والطاعةِ للّه سبحانَهُ، و﴿يَجْعل لكُمْ فرقاناً﴾: معناه: فرْقاً بين حقِّكم، وباطل مَنْ ينازعكم؛ بالنصْر والتأييد، وعبَّر قتادة، وبعضُ المفسِّرين عن «الفُرْقَان» ههنا بالنجاةِ[١]، وقال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ: معناه: مَخْرَجاً[٢]، ونحو هذا مما يعمه ما ذكَرْناه، وقد يوجَدُ للعرب ٱستعمالُ «الفرقان»، كما ذكر المفسِّرون؛ وعلى ذلك شواهد؛ منها قول الشاعر: [الطويل]

وَكَيْفَ أُرَجِّي الخُلْدَ والمَوْتُ طَالِبِي وَمَالِيَ مِنْ كَأْسِ المَنِيَّةِ فُرْقَانُ[٣]

* ت *: قال ابن رُشْد: وأَحْسَنُ ما قيلَ في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ لكم فرقاناً﴾؛ أي: فَصْلاً بين الحق والباطل؛ حتى يعرفوا ذلك بقلوبهم، ويهتدوا إِليه. انتهى من «**البيان**».

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإِذ يمكر/ بك الذين كفروا...﴾ الآية: تذكيرٌ بحال مكَّة وضيقها مع الكفرة، وجميل صُنْع اللّه تعالى في جميع ذلك، والمَكْرُ: المخاتلة والتداهي؛ تقول: فلانٌ يَمْكُرُ بفلان؛ إذا كان يستدرجه، وهذا المكر الذي ذكر اللّه تعالى في هذه الآية هو بإجماع من المفسِّرين: إشارةٌ إلى ٱجتماع قُرَيْش في «دار النَّدْوَةِ» بمحْضَر إبْليسَ في صورة شيخٍ نَجْدِيٍّ على ما نصَّ ابن إسحاق في «سِيَرِهِ» الحديثَ بطوله، وهو الذي كان خُرُوجُ رسولِ اللّهِ ﷺ بسببه، ولا خلاف أن ذلك كان بَعْدَ مَوْت أبي طالب، ففي القصَّة: أن أبا جهْلٍ قال: الرأيُ أنْ نأخذ من كل بطنٍ في قريشٍ فَتًى قويًا جَلْدياً، فيجتمعون ثم يأخذ كُلُّ واحد منهم سيفاً، ويأتون محمداً في مَضْجَعه، فيضربونه ضَرْبَةَ رجُلٍ واحدٍ، فلا تَقْدِرُ بَنُو هاشِم على قِتالِ قُرَيْشَ بأسرها، فيأخذون العَقْلَ، ونستريحُ منه، فقال النَّجْدِيُّ: صدق الفَتَىٰ؛ هذا الرأيُ: لاَ رَأْيَ غيره، فٱفترقوا عَلَى ذلك، فأخبر اللّه تعالى بذلك نبيَّه ﷺ، وأذن له في الخُرُوجِ إلى المدينة، فخرج رسُولُ اللّهِ ﷺ من ليلته، وقال لعليِّ بنْ أبي

٢١٢ ب

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٢٤) برقم: (١٥٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥١٨)، والبغوي عن عكرمة (٢/ ٢٤٣)، وابن كثير (٢/ ٣٠١)، والسيوطي. (٣/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٣) برقم: (١٥٩٠، ١٥٩٥٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥١٨).

(٣) ينظر البيت في: «**البحر المحيط**» (٤/ ٤٨١)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٤١٤)، و«**القرطبي**» (٧/ ٣٩٦).

طالب: «الْتَفَّ فِي بُرْدِيَ الحَضْرَمِيِّ، واَضْطَجِعْ فِي مَضْجَعِي؛ فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّكَ شَيْء، فَفَعَل»، فجاءَ فتْيَانُ قُرَيْشٍ، فجعلوا يرصُدُون الشخْصَ، وينتظرون قيامه، فيثورون به، فلما قام رَأَوْا عَلِيًّا، فقالوا له: أيْنَ صَاحِبُكَ؟ فقال: لا أدْرِي، وفي «السِّيَر»؛ أن رسُول اللَّه ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِم، وهُمْ في طريقه، فطَمَسَ اللَّه أعينهم عَنْه، وجعل عَلَى رأس كلِّ واحد منهم تراباً، ومضَى لوجهه، فجاءهم رجُلٌ، فقال: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ قَالُوا: محمَّداً، قال: إنِّي رأيْتُهُ الآن جائياً من ناحيتكم، وهو لا مَحالَة، وضَعَ الترابَ علَى رؤوسكم، فَمَدّ كلُّ واحدٍ يده إلى رَأسِهِ، فإذا عليه الترابُ، وجاؤوا إلَىٰ مضجعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجدوا عَلِيًّا، فركبوا وراءه حينئذٍ كُلَّ صَعْبٍ وذَلُولٍ، وهو بالغارِ، ومعنى: ﴿ليثبتُوكَ﴾: لِيَسْجُنُوكَ؛ قاله عطاء وغيره[(١)] وقال ابنُ عَبَّاس وغيره: لِيُوثِقُوكَ[(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿وإذا تتلَى عليهم آياتنا﴾، يعني: القرآن، ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقُلْنَا مثْلَ هذا﴾، وقولهم: ﴿إنْ هذا إلا أساطير الأولين﴾، أي: قَصَصُهُمُ المَكْتُوبَةُ المسْطُورة، وأساطيرُ: جمع «أُسْطُورَةٍ»، ويحتملُ جمع: «أَسْطَار»، وتواترتِ الرواياتُ عن ابنِ جُرَيْج وغيره: أن قائل هذه المقالة هو النَّضْرُ بنُ الحارثِ؛ وذلك أنه كان كَثِيرَ السَّفَرِ إلى فَارسَ والحِيرَة، فكان قد سَمِعَ من قصص الرهبان وأخبار رُسْتُم وإسْفِنْدِيَار، فلما[(٣)] سمع القرآن، ورأى فيه أخبار الأنبياء والأمم، قال: لو شئت لقلْتُ مثْلَ هذا، وكان النضْرُ من مَرَدةِ قريشٍ النائلين من النبيِّ ﷺ، ونزلَتْ فيه آيات كثيرة من كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ، وأمْكَنَ اللَّه منْهُ يَوْمَ بدر، وقتله رسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبْراً بالصَّفْرَاء مُنْصَرَفَهُ من بَدْرٍ في موضعٍ يقال له «الأثيل»، وكان أَسَرَهُ المِقْدادُ، فلما أمر رسُولُ اللَّهِ ﷺ بضرب عُنقِهِ، قال المقداد:
٢١٣أ أَسِيرِي، يا رَسُولَ اللَّهِ! فقال/ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ»، ثُمَّ أَعَادَ الأَمْرَ بِقَتْلِهِ، فَأَعَادَ المِقْدادُ مَقَالَتَهَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ، أَغْنِ المِقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ»، فَقَالَ المِقْدَادُ: هَذَا الَّذِي أَرَدتُّ، فَضُرِبَتْ عُنُقُ النَّضْر[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٢٥) برقم: (١٥٩٧٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥١٩)، والبغوي (٢/ ٢٤٤)، وابن كثير (٢/ ٣٠٢) نحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٢٢٥) برقم: (١٥٩٧١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥١٩)، والبغوي (٢/ ٢٤٤)، وابن كثير (٢/ ٣٠٣)، والسيوطي (٣/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٢٢٩) برقم: (١٥٩٩١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٠)، والبغوي (٢/ ٢٤٥)، وابن كثير (٢/ ٣٠٤)، والسيوطي (٣/ ٣٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩) برقم: (٣٣٧) عن سعيد بن جبير مرسلاً.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك...﴾ الآية: رُوِيَ عن مجاهدٍ وغيره: أن قائل هذه المقالة هو النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ المذكورُ، وفيه نزلَتْ هذه الآية[1].

قال ❊ ع[2] ❊: وترتَّب أن يقول النَّضْرُ مقالَةً، وينسبها القُرآن إلى جميعهم؛ لأن النضر كان فيهم موسُوماً بالنُّبْل والفَهْم، مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولاً قاله منهم كثيرٌ، واتَّبَعُوهُ عليه؛ حَسَب ما يفعله الناسُ أبداً بعلمائهم وفقهائهم.

❊ ت ❊: وخرَّج البخاريُّ بسنده، عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قَالَ أبو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إن كان هذا هُوَ الحَقَّ من عندكَ، فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلَتْ: ﴿وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم﴾، إلى: ﴿عنِ المسجدِ الحرام﴾[3] ا هـ، والمشار إليه بـ ﴿هذا﴾ هو القرآن وشَرْعُ محمَّد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحَسَدُ، فعَمِيَتْ بصائرهم عن الهدَى، وصَمَّموا على أنَّ هذا ليس بحقٍّ، نعوذ باللَّه من جَهْدِ البلاءِ، وسُوء القضاء، وحكى ابن فُورَكَ: أن هذه المقالة خرجَتْ منهم مَخْرَجَ العنادِ، وهذا بعيدٌ في التأويل، ولا يقولُ هذا على جهة العناد عاقلٌ، وقراءةُ الناسِ إنما هي بنَصْب[4] «الحق»؛ على أنه خَبَر «كان»، ويكون «هو» فَصلاً، فهو حينئذٍ اسْمٌ، و«أمْطِرْ» إنما تستَعْملُ غالباً في المكروه، و«مَطَرَ» في الرحمة؛ قاله أبو عُبَيْدة[5].

وقوله سبحانه: ﴿وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم...﴾ الآية: قالَتْ فرقة: نزلَتْ هذه الآية كلُّها بمكَّة، وقالت فرقة: نزلَتْ كلُّها بعد وقعة بَدْرٍ؛ حكاية عما مضَى.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٣٠ - ٢٣١) برقم: (١٥٩٩٥، ١٥٩٩٩)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٠).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٦٠) كتاب «التفسير» باب: ﴿وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون﴾ برقم: (٤٦٤٩).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢١)، و«البحر المحيط» (٤/ ٤٨٢)، و«الدر المصون» (٣/ ٤١٤).
(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٢١).

وقال ابنُ أَبْزَى[1]: نَزَلَ قوله: ﴿وَمَا كان اللَّه ليعذِّبهم، وأنت فيهم﴾ بمكَّة إِثر قولهم: ﴿أو ٱئتنا بعذابٍ أليم﴾، ونزل قوله: ﴿وما كان اللَّه معذبَهُمْ وهم يستغفرون﴾، عند خروج النبيِّ ﷺ من مكَّة في طريقه إلى المدينة، وقد بقي بمكَّة مؤمنون يستغفرون، ونَزَلَ قوله: ﴿وما لهم ألاَّ يعذِّبهم اللَّه. . .﴾ إلى آخر الآية، بعد بَدْر عند ظهور العَذَاب عليهم.

* ت *: وهذا التأويل بَيِّن، وعليه اعتمد عِيَاضٌ في «الشِّفَا» قال: وفي الآية تأويلٌ آخر، ثم ذكَرَ حديث التِّرمِذيِّ، عن أبي موسَى الأشعريِّ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لأُمَّتي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَإِذَا مَضَيْتُ، تَرَكْتُ فِيهِمْ ٱلاسْتِغْفَار». انتهى.

قال * ع[2] *: وأجمعَ المتأوِّلون عَلى أن معنى قوله: ﴿وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم﴾ أن اللَّه عزَّ وجلَّ لم يعذِّب قطُّ أُمةً ونبيُّها بَيْنَ أظهرها، أي: فما كان اللَّه ليعذِّب هذه الأمة، وأنْتَ فيهم، بل كرامَتُكَ لديه أعظَمُ.

وقوله عز وجل: ﴿وما لهم ألاَّ يعذِّبهم اللَّه﴾ تُوعُّد بعذاب الدنيا، والضميرُ في قوله: ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾: عائدٌ على اللَّه سبحانه، أو على المسجدِ الحرامِ، كلُّ ذلك جيِّد، ورُوِيَ الأخير عن الحسن[3].

وقال الطبريُّ[4]: عن الحسنِ بْنِ أَبي الحسنِ أن قوله سبحانه: ﴿وما لهم ألاَّ يعذبهم اللَّه﴾ ناسخ لقوله: ﴿وما كان اللَّه معذِّبهم وهم يستغفرون﴾.

قال * ع[5] *: وفيه نظر؛ لأنه خبر لا يدخلُهُ نَسْخٌ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

---

(١) عبد الرحمٰن بن أبزى الخزاعي مولى نافع بن عبد الحارث، روى اثني عشر حديثاً، وعن أبي بكر، وأبي، وعن عمار.
قال البخاري: له صحبة، وقال ابن أبي داود: تابعي.
ينظر: «تهذيب الكمال» (٢/ ٧٧٢)، «تهذيب التهذيب» (٦/ ١٣٢)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٢/ ١٢٣)، «الكاشف» (٢/ ١٥٤)، «الجرح والتعديل» (٥/ ٢٠٠٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢١).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٢).

(٤) ينظر: «الطبري» (٦/ ٢٣٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢٣).

عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان صلاتهم عند/ البيت إلاَّ مَكَاءً وتَصْدِيَةً﴾ المُكَاء: الصَّفير؛ ٢١٣ ب
قاله ابن عباس[١] والجمهورُ، والتصدية: عبَّر عنها أَكْثَرُ النَّاس؛ بأنها التصفيقُ، وذهب أكثر المفسِّرين إلى أن المُكَاء والتَّصْدية إنَّما أحدثهما الكُفَّار عند مبعث النبيِّ ﷺ؛ لِتَقْطَعَ عليه وعلى المؤمنين قراءَتَهم وصلاتَهم، وتخلطَ عليهم، فلما نفى اللَّه تعالى وِلاَيتهم للبَيْت، أَمْكَنَ أن يعترض منهم معترضٌ بأنْ يقول: وكيف لا نَكُونُ أولياءه، ونحن نَسْكُنُهُ، ونصلِّي عنده؛ فقطع سبحانه هذا ٱلاعتراضَ بأنْ قال: وما كان صلاتهم عند البيت إلا المكاء والتَّصْدية.

قال * ع[٢] *: والذي مَرَّ بي من أمر العرب في غير ما دِيوَان؛ أنَّ المكاء والتصدية كانا مِنْ فعل العرب قديماً قبل الإسلام علَى جهة التقرُّب به والتشرُّع؛ وعلَى هذا يستقيم تغييرُهُم وتنقُّصهم بأَن شرعهم وصلاتهم لم تَكُنْ رهبةً ولا رغبةً، وإنما كانَتْ مكاءً وتصديةً من نوع اللعب، ولكنَّهم كانوا يتزيَّدون فيهما وقْتَ النبيِّ ﷺ ليشغلوه هو وأمته عن القراءة والصَّلاة.

وقوله سبحانه: ﴿فذوقوا العذاب...﴾ الآية: إشارةٌ إلى عذابهم ببَدْرٍ بالسيف؛ قاله الحسن وغيره[٣]؛ فيلزم أن هذه الآيَة الآخِرَةَ نزلَتْ بعد بَدْرٍ، ولا بدَّ.

قال * ع[٤] *: والأشبه أنَّ الكلَّ نزل بعد بَدْرٍ؛ حكايةً عما مضَى.

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل اللَّه...﴾ الآية: لما قُتِلَ من قُتِلَ ببدر، ٱجتمع أبناؤهم وقراباتهم، فقالوا لِمَنْ خَلُصَ ماله في العِيرِ: إن محمَّداً قد نال منَّا ما تَرَوْنَ، ولكنْ أعينونا بهذا المال الذي كان سَبَبَ الوَقعَةِ، فلعلَّنا أنْ ننال منه ثأراً، يريدون نفقته في غَزْوَةَ أُحُدٍ.

وقوله سبحانه: ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يغلبون﴾، الحَسْرة: التلهُّف

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٣٨) برقم: (١٦٠٣٧ - ١٦٠٣٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٣)، والبغوي (٢/ ٢٤٧)، وابن كثير (٢/ ٣٠٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٣٢)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه والضياء.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢٥).

على فائتٍ، وهذا من أخبار القرآن بالغيوب قبل أن تكون، فكان كما أخبر، ثم أخبر سبحانه عن الكافرين، وأنهم يُجْمَعُونَ إلى جهنَّم، والحَشْر: الجمع.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ليميز اللَّه الخبيثَ من الطَّيِّب﴾، وقرأ حمزة والكسائيُّ[1]: «لِيُمَيِّزَ اللَّهُ» ـ بضم الياءِ، وفتحِ الميم، وشدِّ الياء ـ، قال ابن عباس وغيره: المعنيُّ بـ ﴿الخَبِيث﴾: الكفَّارُ، وبـ ﴿الطَّيِّب﴾ المؤمنون[2]، وقال ابنُ سَلاَّم والزَّجَّاج: ﴿الخبيثُ﴾: ما أنفقه المشركون في الصَّدِّ عن سبيل اللَّه، و﴿الطَّيِّب﴾: هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل اللَّهِ[3].

قال * ع[4] *: رُوِيَ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ اللَّه سبحانه يُخْرِجُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَالِ مَا كَانَ صَدَقَةً أَوْ قُرْبَةً، ثُمَّ يأْمُرُ بِسَائِرِ ذَلِكَ، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ: وعلى التأويلين: فقوله سبحانه: ﴿ويجعل الخبيثَ بعضَهُ علَى بعض فيركمه جميعاً﴾ إنما هي عبارةٌ عن جَمْع ذلك، وضمه، وتأليف أشتاته، وتكاثُفِه بالاجتماع، ويَرْكُمُهُ؛ في كلام العرب: يُكَثِّفه؛ ومنه ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] وعبارة البخاريِّ: فيركمه: فَيَجْمَعه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إن ينتهوا﴾، يعني: عن الكفر، ﴿يُغْفَرْ لهم ما قد سلف﴾؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، و﴿إِنْ يعودوا﴾، يريدُ بِهِ: إلى القِتَالِ، ولا يصحُّ أن يُتَأَوَّل: وإن يعودوا إلى الكُفْرِ؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه.

٢١٤ أ وقوله: ﴿فقد مضت سنة/ الأولين﴾: عبارةٌ تجمَعُ الوعيدَ والتهديدَ والتمثيلَ بمَنْ هَلَكَ من الأمم في سالف الدَّهْرِ بعذاب اللَّه؛ حين صدَّ في وَجْهِ نبيِّه بمَنْ هلك في يَوْمِ بَدْرٍ بسيف الإسلام.

وقوله سبحانه: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ﴾ قال ابنُ عباس، وابن عمر،

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠٦)، و«الحجة» (٤/ ١٥٢)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٢٩)، و«إتحاف» (٢/ ٧٩).
(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٦).
(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٦).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢٦).

وغيرهما: الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ[١].

قال * ع[٢] *: وهذا هو الظاهر، ويفسِّر هذه الآيَةَ قولُه ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه...»[٣] الحديث.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٤٥) برقم: (١٦٠٩٠)، وبرقم: (١٦٠٩٢) عن قتادة، وبرقم: (١٦٠٩٣) عن السدي، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٢٧) عن ابن عباس وغيره، وابن كثير (٢/ ٣٠٩).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢٨).

(٣) هذا الحديث متواتر، رواه جماعة من أصحاب النبي ﷺ وهم: أبو هريرة وابن عمر، وجابر، وأنس بن مالك، وأبو بكر، وعمر، وجرير، وسهل بن سعد، وأبو بكرة، وأبو مالك الأشجعي، وعياض الأنصاري، والنعمان بن بشير، وسمرة بن جندب، ومعاذ، وأوس بن أوس، ورجل من بلقين، وابن عباس. حديث أبي هريرة:
أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٢) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩)، ومسلم (١/ ٥٢) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ اللَّه، وأبو داود (٣/ ١٠١)، كتاب «الزكاة» باب: على ما يقاتل المشركون، حديث (٢٦٤٠)، والترمذي (٤/ ١١٧)، كتاب «الإيمان» باب: ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، حديث (٢٧٣٣)، والنسائي (٥/ ١٤)، كتاب «الزكاة» باب: مانع الزكاة، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥) كتاب «الفتن» باب: الكف عمن قال: لا إله إلا اللَّه، حديث (٣٩٢٧)، والشافعي (١/ ١٣) باب: الإيمان والإسلام، وعبد الرزاق (٦/ ٦٧) كتاب «أهل الكتاب» باب: أقاتلهم حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، حديث (١٠٠٢٢)، وأحمد (٢/ ٣٤٥)، وابن الجارود ص: (٣٤٣) باب: في ما أمر رسول اللَّه ﷺ بالدعاء إلى توحيد اللَّه عز وجل والقتال عليها، حديث (١٠٣٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢١٣) كتاب «السير» باب: ما يكون الرجل به مسلماً، وابن سعد في «الطبقات»، والدارقطني (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢)، كتاب «الصلاة» باب: تحريم دمائهم وأموالهم إذا شهدوا بالشهادتين، حديث (٢)، والحاكم (١/ ٣٨٧) كتاب «الزكاة»، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠٦)، وابن حبان (١٧٤) من طرق عن أبي هريرة.
أما حديث ابن عمر:
أخرجه البخاري (١/ ٢٢) كتاب «الإيمان» باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، حديث (٢٥). ومسلم (١/ ٥٣) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه... (٣٦/ ٢٢)، والدارقطني (١/ ٢٣٢)، والبيهقي (٣/ ٩٢).
حديث جابر:
أخرجه مسلم (١/ ٥٣) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه... (٣٥/ ٢٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥) كتاب «الفتن» باب: الكف عن من قال: لا إله إلا اللَّه (٣٩٢٨)، والترمذي (٥/ ٤٠٩) كتاب «التفسير» باب: تفسير سورة الغاشية (٣٣٣٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٥)، وأبو حنيفة في «مسنده» (٦)، وأبو يعلى (٤/ ١٩٠) برقم: (٢٢٨٢) من طرق عنه.
وقال الترمذي: حسن صحيح.
ـ حديث أنس:
أخرجه البخاري (١/ ٥٩٤) كتاب «الصلاة» باب: فضل استقبال القبلة، حديث (٣٩٢)، وأحمد (٣/ ١٩٩، ٢٢٤)، وأبو داود (٢/ ٥٠ ـ ٥١) كتاب «الجهاد» باب: على ما يقاتل المشركون، حديث =

وقال ابن إِسحاق: معناها: حتَّى لا يفتن أحَدٌ عن دينهِ؛ كما كانت قريشٌ تَفْعَلُ بمكَّة بمن أَسْلَمَ.

(٢٦٤١) والترمذي (٥/ ٤) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: أمرت بقتالهم... (٢٦٠٨)، والدارقطني (١/ ٢٣٢) كتاب «الصلاة» باب: تحريم دمائهم وأموالهم إذا تشهدوا بالشهادتين (٢)، وأحمد (٣/ ١٩٩)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (٨/ ١٧٣)، والطحاوي في **«شرح معاني الآثار»** (٣/ ٢١٥)، والبيهقي (٣/ ٩٢)، والخطيب (١٠/ ٤٦٤)، والبغوي في **«شرح السنة»** (١/ ٩٦ - بتحقيقنا)، من طريق حميد الطويل، عن أنس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

حديث أبي بكر وعمر:

ويرويه عنهما أنس بن مالك قال: قال عمر لأبي بكر في الردة: ألم يقل رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.

قال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة...

أخرجه النسائي (٧/ ٧٦ - ٧٧)، وأبو يعلى (١/ ٦٩) رقم: (٦٨)، وابن خزيمة (٤/ ٧) رقم: (٢٤٤٧)، والحاكم (١/ ٣٦٨) من طريق عمران القطان، عن معمر، عن الزهري، عن أنس به.

وذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (١/ ٣٠)، وقال: رواه البزار وقال: لا أعلمه يروي عن أنس، عن أبي بكر إلا من هذا الوجه وأحسب أن عمران أخطأ في إسناده.

وقال الترمذي بعد الحديث (٢٦١٠): وقد روى عمران القطان هذا الحديث عن معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن أبي بكر وهو حديث خطأ.

وقد حكم عليه بالخطأ أيضاً الإمام أبو زرعة الرازي فقال ابن أبي حاتم في **«العلل»** (٢/ ١٥٩) رقم: (١٩٧٠): سئل أبو زرعة عن حديث رواه عمرو بن عاصم، عن عمران القطان، عن معمر، عن الزهري، عن أنس... فذكر الحديث.

قال أبو زرعة: هذا وهم إنما هو الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي هريرة.

أما الحاكم فله مع هذا الحديث شأن آخر فقال بعد إخراجه: صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يخرجا عمران القطان وليس لهما حجة في تركه فإنه مستقيم الحديث، ووافقه الذهبي.

وعمران روى له البخاري تعليقاً والأربعة، وقال الحافظ في **«التقريب»** (٢/ ٨٣): صدوق يهم.

حديث جرير: أخرجه الطبراني في **«المعجم الكبير»** (٢/ ٣٤٧) رقم: (٢٢٧٦)، وذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (١/ ٢٩)، وقال: رواه الطبراني في **«الكبير»** وفي إسناده إبراهيم بن عيينة وقد ضعفه الأكثرون، قال ابن معين: كان مسلماً صدوقاً. ا هـ.

وقال النسائي: ليس بالقوي.

وقال أبو حاتم: أتى بمناكير.

ينظر **«المغني»** (١/ ٢١).

حديث سهل بن سعد: أخرجه الطبراني في **«الكبير»** (٦/ ١٣٢) رقم: (٥٧٤٦)، وذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (١/ ٣٠) وقال: رواه الطبراني وفي إسناده مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان والأكثر على تضعيفه ا هـ. ضعفه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وقال الحافظ: لين الحديث.

وقوله: ﴿ويكون الدين كلُّه للَّه﴾، أيْ: لا يُشْرَكَ معه صَنَمٌ، ولا وَثَنٌ، ولا يُعْبَدَ غيرُهُ

= ينظر «**المغني**» (٢/ ٦٦٠)، و«**التقريب**» (٢/ ٢٥١).
حديث أبي بكرة: ذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١/ ٣٠) وقال: رواه الطبراني في «**الكبير والأوسط**» وفيه عبد اللّه بن عيسى الخزاز وهو ضعيف لا يحتج به ا هـ، وذكره الذهبي في «**المغني**» (١/ ٣٥٠) وقال: عبد اللّه بن عيسى أبو خلف الخزاز، عن يونس بن عبيد ضعفوه.
حديث أبي مالك الأشجعي: أخرجه الطبراني في «**الكبير**» (٨/ ٣٨٢) رقم: (٨١٩١)، وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (١/ ٣٠) وقال: رواه الطبراني في «**الكبير**» ورجاله موثقون.
حديث عياض الأنصاري: أخرجه البزار (١/ ١٠ ـ كشف) رقم: (٤) من طريق عبد الرحمٰن القرشي عن عياض مرفوعاً: بلفظ: إن لا إلٰه إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقاً أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذباً حقنت دمه وأحرزت ماله ولقي الله غداً فحاسبه.
قال البزار: ولا نعلم أسند عياض إلا هذا.
وذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١/ ٣١) وقال: رواه البزار، ورجاله موثقون إن كان تابعه عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود.
حديث النعمان بن بشير: أخرجه البزار (١/ ١٥ ـ كشف) رقم: (١٥) من طريق أسود بن عامر، ثنا إسرائيل، عن سماك، عن النعمان بن بشير به.
وقال البزار: وهذا أخطأ فيه أسود. وقال الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١/ ٣١): رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح.
حديث سمرة بن جندب: ذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١/ ٣٠) وقال: رواه الطبراني في «**الأوسط**»، وفيه مبارك بن فضالة واختلف في الاحتجاج به.
حديث معاذ بن جبل: أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٨): المقدمة: باب في الإيمان، حديث (٧٢)، والدارقطني (١/ ٢٣٣) كتاب «الصلاة»: باب تحريم دمائهم وأموالهم. . . . من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمٰن بن غنم عن معاذ به.
قال الحافظ البوصيري في «**الزوائد**» (١/ ٥٦) هذا إسناد حسن. ا هـ.
وفيه شهر بن حوشب وقد اختلف في الاحتجاج به.
حديث أوس بن أوس: أخرجه الدارمي (٢/ ٢١٨) كتاب «السير» باب: في القتال على قول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا اللّه، وابن ماجه (٣٩٢٩)، وأحمد (٤/ ٨)، وعزاه السيوطي في «**الأزهار المتناثرة**» ص: (٢٠) رقم: (٤) إلى ابن أبي شيبة.
حديث الرجل من بلقين: أخرجه أبو يعلى (١٣/ ١٣١ ـ ١٣٢)، والبيهقي (٦/ ٣٣٦)، وذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١/ ٥٣ ـ ٥٤)، وقال: رواه أبو يعلى وإسناده صحيح.
وذكره الحافظ ابن حجر في «**المطالب العالية**» (٢/ ١٨٥) رقم: (٢٠١٠)، وعزاه إلى أحمد بن منيع، وذكره برقم: (٢٠١١)، وعزاه إلى أبي يعلى.
حديث ابن عباس: ذكره الهيثمي في «**المجمع**» (١/ ٣٠)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله موثقون إلا أن فيه إسحاق بن يزيد الخطابي، ولم أعرفه. وهذا الحديث قد صرح الحافظ السيوطي بتواتره فأورده في «**الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة**» ص: (١٩ ـ ٢٠) رقم: (٤) وعزاه إلى الشيخين عن ابن عمر وأبي هريرة ومسلم عن جابر وابن أبي شيبة في «**المصنف**» عن أبي بكر الصديق، وعمر وأوس وجرير =

سبحانه، ثم قال تعالَى: ﴿فإِن ٱنتَهوا﴾، عن الكفر، ﴿فإِن اللَّه بصيرٌ﴾ بِعَمَلِهم، مُجَازٍ عليه، عنده ثوابه، وجميلُ المقارضة عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وإِن تولوا فٱعلموا أن اللَّه مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾: معادلٌ لقوله: ﴿فإِن ٱنتهوا﴾، المعنى: وإِن تولَّوا، ولم ينتهوا، فٱعلموا أن اللَّه تعالَى ينصُرُكُمْ عليهم، وهذا وعدٌ مَحْضٌ بالنصرِ والظَّفرِ، و﴿المَوْلَى﴾؛ ههنا ٱلمُوالي والمُعِينُ، والمَوْلَى في اللغة على معانٍ، هذا هو الذي يليقُ بهذا الموضعِ منها، والمَوْلَى: الذي هو السيِّد المقترنُ بالعَبْدِ يعمُّ المؤمنين والمشركين.

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله عزّ وجل: ﴿وٱعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فأن للَّه خُمُسَهُ...﴾ الآية: الغنيمةُ؛ في اللغة: ما يناله الرجلُ بسَعْيٍ؛ ومنه قوله ﷺ: «الصِّيَامُ في الشِّتَاءِ هِيَ الغَنِيمَةُ البَارِدَةُ»[1]،

= البجلي، والطبراني، عن أنس وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وابن عباس، وأبي بكرة، وأبي مالك الأشجعي، والبزار عن عياض الأنصاري والنعمان بن بشير.

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ١٥٣) كتاب «الصوم»، باب: ما جاء في الصوم في الشتاء، حديث (٧٩٧)، وأحمد (٤/ ٣٣٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٠)، وأبو الشيخ في **«الأمثال»** (٢٢٣)، والبيهقي (٤/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧) كتاب «الصيام»، باب ما ورد في صوم الشتاء، والقضاعي في **«مسند الشهاب»** (٢٣١) كلهم من طريق نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود مرفوعاً.
وقال الترمذي: هذا حديث مرسل، عامر بن مسعود لم يدرك النبي ﷺ.
وقال البيهقي: هذا مرسل.
قال ابن أبي حاتم في **«المراسيل»** ص: (١٦٠): قال أبو زرعة: عامر بن مسعود من التابعين.
وقال الترمذي في **«العلل الكبير»** ص (١٢٧) رقم: (٢١٨): سألت محمداً عن حديث أبي إسحاق، عن نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الغنيمة الباردة الصوم في الشتاء».
فقال: هو حديث مرسل، وعامر بن مسعود لا صحبة له، ولا سماع من النبي ﷺ اهـ.
=

وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: ظاهره العمومُ، ومعناه الخصوصُ، فأَمَّا النَّاضُ[١] والمتاعُ والأطفال والنساء وما لا يؤكل [لحمه] من الحيوان ويَصِحُّ تملُّكه، فالإمام يأخذ خُمُسَهُ، ويَقْسِمُ الباقي في الجيش، وأما الأرضُ، فقال فيها مالكٌ: يقسمها الإمام؛ إن رأَىٰ ذلك صواباً؛ كما فعل النبيُّ ﷺ بِخَيْبَرَ، أَوْ لاَ يَقْسِمُها، بل يتركها لنوائب المسلمينَ؛ إن أداه ٱجتهادُهُ إلى ذلك؛ كما فعل عُمَرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه بأَرْضِ مِصْرِ وبسَوَادِ الكوفة، وأَمَّا الرجالُ، ومَنْ شارف البُلُوغ من الصِّبْيان، فالإمام؛ عند مالك وجمهور العلماء، مُخَيَّرٌ فيهم علَى خمسة أوجه[٢]:

= وقال يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ١٢٧): ليس لعامر صحبة.
وقد جزم بعدم صحبته أيضاً أبو داود، وابن حبان، والبغوي، وابن السكن. ينظر: «الإصابة» (٣/ ٤٨٩) بتحقيقنا ا هـ.
لكن لهذا الحديث شاهد من حديث أنس: أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٢٥٤)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤١٦) رقم: (٣٩٤٣) من طريق الوليد بن مسلم، ثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً.
وقال الطبراني: لم يروه عن قتادة إلاّ سعيد، تفرد به الوليد. وقال ابن عدي: لا يرويه عن قتادة غير سعيد، وعن سعيد غير الوليد. والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٠٣) وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، وفيه سعيد بن بشير، وهو ثقة لكنه اختلط ا هـ.
وللحديث شاهد آخر من حديث جابر: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤١٦) رقم: (٣٩٤٢) من طريق عبد الوهاب بن الضحاك: نا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن ابن المنكدر، عن جابر مرفوعاً.
وعبد الوهاب بن الضحاك: قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٥٢٨): متروك؛ كذبه أبو حاتم.

(١) النَّاضّ: أَهْلُ الحِجَازِ يُسَمُّونَ الدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ: النَّاضّ وَالنَّض. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: إِنَّمَا يُسَمُّونَهَا نَاضاً: إِذَا تَحَوَّلَ عَيْناً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَتَاعاً؛ لأَنَّهُ يُقَالُ: مَا نَضَّ بِيَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، وَخُذْ مَا نَضَّ لَكَ مِنْ دَيْنٍ، أَيْ: تَيَسَّرَ وَهُوَ يَسْتَنِضُّ حَقَّهُ مِنْ فُلاَنٍ، أَيْ: يَسْتَنْجِزُهُ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ. مَأْخُوذٌ مِنْ نُضَاضَةِ الْمَاءِ وَهِيَ: بَقِيَّتُهُ، وَكَذَلِكَ النَّضِيضَةُ، وَجَمْعُهَا: نَضَائِضُ. ذَكَرَهُ الأَزْهَرِي.
ينظر: «النظم» (١/ ١٥٤).

(٢) الأسرى: إما أن يكونوا من الرجال العقلاء البالغين، أو يكونوا من النساء، والصبيان، ومن في حكمهم، فإذا كانوا من هؤلاء فالمشهور عند عامة الفقهاء أنهم يصيرون أرقاء بنفس الأسر، ولا يجوز قتلهم اتفاقاً، لأن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان في حديث متفق عليه. أما إذا كانوا من الرجال البالغين العقلاء، فالإمام مخير فيهم بين خصال بعضها متفق عليه، وبعضها مختلف فيه، وهي كما يأتي:
«القَتْلُ»: ثبت عند فقهاء الأمصار أنه يجوز للإمام قتل المحارب الكافر بعد أَسْره، والاستيلاء عليه، وحكي عن الحسن البصري وعطاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن عمر كراهته.
«المَنّ»: ويكون بتخلية سبيل الأسرى من غير عوض، وقال به الشافعية والمالكية في المشهور عنهم والحنابلة، وذهب الحنفية إلى عدم جوازه. =

منها: القتل، وهو مستَحْسَنٌ في أهْل الشجاعة والنِّكَاية.

ومنها: الفداءُ، وهو مستحسنٌ في ذي المَنْصب الذي ليس بشُجَاع ولا يُخَاف منه رأي ومَكِيدَة؛ لانتفاع المسلمين بالمَال الذي يؤخَذُ منه.

ومنها: المَنُّ، وهو مستَحْسَنٌ فيمن يرجَىٰ أنْ يحنو على أَسْرَى المسلمين، ونحو ذلك من القرائن.

ومنها: ٱلاسترقاقُ.

ومنها: ضَرْبُ الجزية، والتَّرْكُ في الذِّمَّة.

وأما الطعام، والغَنَمُ، ونَحْوها ممَّا يؤكل، فهو مباحٌ في بلد العدو أكله، وما فَضَل منه كانَ في المَغْنَم.

ومحلُّ ٱستيعاب فُرُوعِ هذا الفَصْل كُتُب الفقه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾، أي: من النصر والظهور الذي أنزله اللّه

= «الْفِدَاءُ»: ذهب جمهور الفقهاء ومعهم أبو يوسف، ومحمد من علماء الحنفية إلى جواز الفداء بالأسرى، وجاء ذلك رواية عن أبي حنيفة، وجاءت عنه رواية أخرى بمنعه.
وأمّا الفداء بالمال فالجمهور على جوازه، والمشهور من مذهب الحنفية عدم الجواز، وقد جاء في «السير الكبير» أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة إليه.
«الاسْتِرْقَاقُ»: اتفق الفقهاء على أن الأسير إذا كان مرتداً لا يجوز ضرب الرق عليه، فلا بد أن يسلم أو يقتل؛ لأنه كفر بربه بعد ما هدي إلى الإسلام.
واختلفوا في غيره من الأسرى، فذهب المالكية، والشافعية والحنابلة إلى جواز استرقاقهم لا فرق بين عربي منهم أو عجمي، وذهب الحنفية إلى عدم جواز استرقاق المشركين من العرب. وإذا قلنا: إن الإمام مخير في الأسرى، فليس معناه أن يجعل التصرف فيهم تبعاً لعاطفته وميل هواه، وإنما معناه أن يتحرى فيهم ما تقتضيه مصلحة المسلمين ثم ينفذها، فإذا كان الأسير شديد الدهاء، كثير التأليب على المسلمين والكيد لهم، ولا يؤمن مكره، أو تكرر نقضه لعهدهم قتله الإمام كفاية لشره وقطعاً لدابره.
ويظهر ذلك للإمام من اطِّلاع على أحواله أو علمه بأخباره، وإذا ظهر له أن الأسير مأمون الجانب، ويتألف بإطلاقه طائفة عظيمة على الإسلام، أو يتوسم أن تطلق عشيرته ما عندها من أسرى الحرب منّ عليه، وكذلك إذا كان الأسير من ذوي العلل والعاهات، أو الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى منهم منفعة للمسلمين، أو كان للأسير قيمة، وترجح عند الإمام الحاجة إلى المال لمصالح المسلمين جعل نظير كل رقبة يطلقها مقداراً من المال يختلف بحسب مكانة الأسير في قومه، وإن رأى أن في استرقاقه عزة ومهابة للمسلمين اختار من بينهم من يضرب الرق عليه، وهكذا.

سبحانه يَوْمَ بَدْر، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن/ نزَلَ يوْمَ بدر، أو في قصَّة يوم بَدْر، ٢١٤ب
ويوم الفُرْقَان: معناه: يَوْمُ الفَرْقِ بين الحقِّ والباطل؛ بإعزاز الإسلام وإذلالِ الشرك، والجَمْعَانِ: يريد: جَمْعَ المسلمين وَجَمْعَ الكُفَّار، وهو يوم بَدْر، ولا خلاف في ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿والله على كل شيء قدير﴾، يَعْضُدُ أَنَّ قوله: ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾، يراد به النصْرُ والظَّفر، أي: الآيات والعظائم مِنْ غلبة القليلِ للكثيرِ، وذلك بقدرة الله عَزَّ وجَلَّ الذي هو عَلَى كلِّ شيء قدير.

وقوله سبحانه: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم﴾، العُدْوَة: شفيرُ الوادِي، وحَرْفُهُ الذي يتعذَّرُ المَشْيُ فيه بمنزلة رَجَا البئْر؛ لأنها عَدَتْ ما في الوادِي من ماء ونحوه؛ أن يتجاوز الوادِيَ، أي: منعته؛ ومنه قول الشاعر: [الوافر]

عَـدَتْـنِـي عَـنْ زِيَـارَتِـكِ الـعَـوَادِي ... وَحَـالَـتْ دُونَـهَـا حَـرْبٌ زَبُـونُ[1]

وقرأ ابنُ كَثِير[2]، وأبو عمرو: ﴿بالعِدْوَة﴾ - بِكَسْرِ العين -، وقوله: ﴿الدُّنيا﴾، و﴿القُصْوَى﴾، إنَّما هو بالإضافة إلى المدينة، وبين المدينة ووادِي بَدْر موضعُ الوقعة مَرْحَلتان، والدُّنْيَا: من الدُّنُوِّ، والقُصْوَىٰ: مِنَ القُصُوِّ، وهو البُعْد، ﴿والرَّكْبُ﴾، بإجماع من المفسِّرين: عِيرُ أبي سفيان، وقوله: ﴿أَسْفَلَ﴾، في موضع خَفْض، تقديره: في مكانَ أَسْفَلَ كَذَا.

قال سِيبَوَيْهِ: وكان الرَّكْبُ، ومُدَبِّر أمره أبو سفيانَ بْنُ حَرْب، قد نَكَبَ عن بَدْر حين نذرَ بالنبيِّ ﷺ، وأخَذَ سِيفَ البَحْرِ، فهو أَسْفَلُ؛ بالإضافة إلى أعلى الوَادِي.

وقوله سبحانه: ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾، المَقْصدُ من الآية: تَبْيينُ نعمة الله سُبْحانه في شأنِ قِصَّة بَدْر، وتيسيره سُبْحانه ما يَسَّر من ذلك، والمَعْنَى: لو تواعدتم، لاختلفتم في الميعادِ بَسَببِ العوارِضِ التي تَعْرِضُ للناس، إلاَّ مع تيسير الله الذي تَمَّم ذلك، وهذا كما تقولُ لصاحبك في أمْر سَنَاهُ الله تعالى دونَ تَعَبٍ كثير: لَوْ بَنَيْنَا عَلَى هَذَا، وسَعَيْنَا فِيهِ، لَمْ يَتِمَّ هَكَذَا، ﴿ولكنْ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾، أي: لينفُذَ ويُظْهِر أمراً قد قدَّره في الأزل مفعولاً لكم؛ بشرط وجودكم في وَقْتِ وجودِكُم، وهذا كلُّه معلومٌ عنده عزَّ وجلَّ

---

(١) ينظر «الدر المنثور» (٣/ ٤٢١).

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٠٦)، و«الحجة» (٤/ ١٢٨)، و«حجة القراءات» ص: (٣١٠ - ٣١١)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٢٤)، و«إتحاف» (٢/ ٧٩)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٤٠)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٢٧)، و«شرح شعلة» (٤٠٦).

لم يتجدَّد له به علمٌ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَهْلِكَ من هلك عن بينة وَيَحْيى من حَيَّ عن بينة﴾، قال الطبريُّ[1]: المَعنى: ليُقْتَلَ من قُتِلَ من كفَّار قريش وغيرهم؛ ببيانٍ مِنَ اللَّه وإِعذارٍ بالرسالة، ويَحْيَا أيضاً ويعيشَ مَنْ عاش؛ عن بيانٍ منه أيضاً وإِعذار؛ لا حجة لأحد عليه سبحانه.

* ت *: قال أبو عمر بنُ عَبْدِ البَرِّ في كتاب «فضل العلم» في قوله عز وجلَّ: ﴿ليهلك من هلك عن بينة...﴾ الآية: البيِّنة: ما بان به الحقُّ. انتهى.

وقال ابنُ إِسْحَاق وغيره: معنى «لِيَهْلِكَ»، أيْ: لِيَكْفُرَ، و«يَحْيَا» أي: ليؤمنَ؛ فالحياةُ والهلاكُ على هذا التأويل: مستعارتان.

١٢١٥ وقوله سبحانه: ﴿إذ يريكهم اللَّه في منامك/ قليلاً...﴾ الآية: وتظاهرتِ الرواياتُ؛ أن هذه الآية نزلَتْ في رُؤيَا رآها رسُولُ اللَّهِ ﷺ رأَىٰ فيها عَدَدَ الكُفَّار قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فقَوِيَتْ نفوسُهم، وحَرِصُوا على اللقاء؛ قاله مجاهد وغيره، والظاهر أنه رآهم ﷺ في نومه قليلاً قَدْرُهُم وبأسُهم، ويحتمل أنه رآهم قليلاً عددُهم، فكان تأويلُ رؤياه ٱنهِزَامَهُمْ، والفَشَلُ: الخَوَرُ عن الأمر، و﴿لتنازعتم﴾، أي: لتخالَفْتم في الأمر، يريد: في اللقاءِ والحَرْبِ. و﴿سَلَّم﴾: لفظ يعمُّ كلَّ متخوِّف.

وقوله سبحانه: ﴿وإِذ يريكموهم إِذ التقيتم...﴾ الآية، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤية التي كانَتْ حين ٱلْتَقَوْا، ووقعتِ العَيْنُ على العين، والمعنَى: أن اللَّه تعالَى؛ لِمَا أراده من إِنفاذ قضاءه في نُصْرة الإِسلام وإِظهار دِينِهِ، قَلَّلَ كُلَّ طائفةٍ في عُيُونِ الأخرَى، فوقع الخَلَلُ في التخمينِ والحَزْرِ الذي يستعمله الناسُ في هذا؛ لتَجْسُرَ كلُّ طائفة على الأخرَى، وتتسبَّب أسباب الحَرْب، والأمر المفعولُ المذكورُ في الآيتين هو القصَّة بأجمعها.

وقوله: ﴿وإِلى اللَّه ترجع الأمور﴾: تنبيهٌ على أن الحَوْلَ بأجمعه للَّه، وأنَّ كلَّ أمْرٍ، فَلَهُ وإِليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/٢٥٨).

وقوله سبحانه: ﴿يأَيُّهَا الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاْثبتوا واذكروا اللَّه كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا اللَّه ورسوله ولا تنازعوا. . .﴾ الآية: هذا أَمْرٌ من اللَّه سبحانه بما فيه داعيةُ النَّصر، وسبَبُ العزِّ، وهي وصيَّة منه سبحانه بِحَسَبِ التقْييد الذي في آية الضَّعْفِ، والفِئَةُ الجماعة، أصلها: «فِئَوَة»، وهي مِنْ: «فأَوْتُ»، أي: جمعتُ، ثم أمر سبحانه بإِكثار ذكْره هناك؛ إِذ هو عصمةُ المستنجد، وَوَزَرُ المستعين.

قال قتادة: افترض اللَّه ذِكْرَهُ عند أَشْغَلِ ما يكونُ؛ عنْدَ الضرّاب والسُّيوف.

قال * ع[١] *: وهذا ذِكْرٌ خفيٌّ؛ لأن رَفْعَ الصَّوْت في موطن القتَال رديءٌ مكروهٌ؛ إذا كان ألغاطاً، فأما إن كان من الجميع عند الحَمْلة، فَحَسَنٌ فَاتٌّ في عَضُد العَدُوِّ؛ قال قيسُ بْنُ عُبَادٍ[٢]: كان أصحاب النبيِّ ﷺ يكرهُونَ الصَّوْت عند ثلاثٍ؛ عند قراءة القُرآن، وعند الجنازة، وعنْدَ القتال[٣]، وقال النبيُّ ﷺ: «اُطْلُبُوا إِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ القِتَالِ، وإِقَامَةِ الصَّلاَةِ، ونُزُولِ الغَيْثِ»[٤] وكان ابن عباس يكْرَه التلثُّم عنْدَ القتالِ[٥].

قال النَّوويُّ: وسُئِلَ الشيخُ أبو عَمْرِو بْنُ الصَّلاَحِ[٦]، عن القَدْرِ الذي يصيرُ به المرء

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٣٦).

(٢) قيس بن عُبَاد، القَيْسِي الضُّبَعي أبو عبد اللَّه البصري مخضرم، عن عمر وعلي وعمَّار، وعنه ابنه عبد اللَّه والحسن البصري، وابن سيرين مات بعد الثمانين.
ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٢/ ٣٥٧) (٥٨٨٦).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٣٦).

(٤) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٢/ ١٠٢) رقم: (٣٣٣٩)، وعزاه للشافعي، والبيهقي في «المعرفة» عن مكحول مرسلاً.

(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٣٥).

(٦) عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام العلامة مفتي الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو بن الإمام البارع صلاح الدين أبي القاسم، النصري ـ بالنون والصاد المهملة، نسبة إلى جده أبي نصر ـ الكردي، الشهرزوري الأصل، الموصلي المربا، الدمشقي الدار والوفاة، ولد سنة سبع وسبعين ـ بتقديم السين فيهما ـ وخمسمائة بشهرزور، وتفقه على والده، ثم نقله إلى الموصل فاشتغل بها مدة وبرع في المذهب.
ينظر ترجمته في «الأعلام» (٤/ ٣٦٩) و«طبقات الشافعية» للسبكي (٥/ ١٣٧) و«وفيات الأعيان» (٢/ ٤٠٨) و«البداية والنهاية» (١٣/ ١٦٨) و«طبقات الشافعية» لابن هداية ص: (٨٤) و«النجوم الزاهرة» (٦/ ٣٥٤) و«شذرات الذهب» (٥/ ٢٢١) و«مفتاح السعادة» (١/ ٣٩٧)، (٢/ ٢١٤) و«مرآة الزمان» (٨/ ٥٠٢) و«مرآة الجنان» (٤/ ١٠٨).

من الذَّاكرين اللَّهَ كثيراً، فقال: إذا واظب على الأَذْكَارِ المأثورة المُثْبَتَةِ؛ صباحاً ومساءً، وفي الأوقاتِ والأحوال المختلفة؛ ليلاً ونهاراً ـ وهي مبيَّنةٌ في كتب «**عمل اليوم والليلة**» ـ كان من الذاكرين اللّه كثيراً؛ واللّه سبحانه أعلم. انتهى من «**الحلية**».

* ت *: وأَحْسَنُ من هذا جوابُهُ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ! قَالُوا: «وَمَا

٢١٥ ب المُفَرِّدُونَ، يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتُ»، رواه مسلمٌ/، والترمذيُّ، وعنده: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَا المُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: المُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ؛ يَضَعُ عَنْهُمُ الذِّكْرُ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافاً»[1]، قال صاحب «**سلاح المؤمن**»: المستَهْتِرُونَ في ذِكْرِ اللَّهِ، ـ هو بفتح التاءَيْنِ المُثَنَّاتَيْنِ ـ يعني: الذين أُولِعُوا به؛ يقال: ٱسْتُهْتِرَ فُلانٌ بكذا، أي: أُولِعَ به، واللّه أعلم. انتهى.

فقَد بيَّن ﷺ هنا صفةَ الذاكرين اللّه كثيراً، وقد نقلنا في غير هذا المَحَلِّ بيانَ صفةَ الذاكرين اللّه كثيراً، بنحو هذا مِنْ طريق ابن المبارك، وإذا كان العبد مُسْتَهْتَراً بِذِكْرِ مولاه، أَنِسَ به، وأَحبَّه، وأحبَّ لقاءه؛ فلم يبال بلقاءِ العَدُوِّ، وإِن هي إلا إِحدى ٱلْحُسْنَيَيْنِ: إما النصرُ؛ وهو الأغلب لمن هذه صفته، أو الشهادةُ؛ وذلك مناه، ومطلبه. انتهى.

و﴿تفلحون﴾: تنالون بغيتكم، وتنالون آمالكم، والجمهور علَى أنَّ الرِّيحَ هنا مستعارةٌ.

قال مجاهد: الرِّيح: النصرُ والقوةُ، وذَهَب رِيحُ أصحاب محمَّد ﷺ حينَ نازعُوه يَوْمَ أحد[2]، وقوله سبحانه: ﴿واصبروا...﴾ إلى آخر الآية: تتميمٌ في الوصية وعِدَةٌ مُؤْنِسَة، وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم...﴾ الآية: الإشارة إلى كفار قريش، والبَطَر: الأَشَر وغَمْطُ النِّعْمة، ورُوِيَ أن أبا سفيان، لمَّا أحرز عِيَره، بعث إلى قريش، وقال: إن اللّه قد سَلَّم عِيركُمْ، فٱرجعوا، فأَتَى رأي الجماعةِ علَى ذلك، وخالَفَ أبو جَهْل، وقال: واللَّهِ، لاَ نَفْعَلُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْراً ـ وكانَتْ بَدْرٌ سُوقاً من أسواقِ العَرَبِ لها يومُ موسم ـ فننحَرُ عليها الإِبلَ، ونَشْرَب الخمر، وتَعْزِفُ علينا القِيَانُ، وتسمع بنا العربُ، ويَهابُنا النَّاسُ، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ورئاء الناس﴾.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٦١) برقم: (١٦١٧٨ ـ ١٦١٧٩) بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٥٣٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٣)، وعزاه إلى الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾، الضمير في ﴿لهم﴾ عائدٌ على الكفَّار، و﴿الشَّيْطانُ﴾: إبليس نفسُه، والذي عليه الجمهورُ، وتظاهرَتْ به الرواياتُ أن إبْلِيسَ جاء كُفَّار قريشٍ، ففي «السِّيَر» لابن هشام: أنه جاءهم بمكَّة، وفي غيرها: أنَّه جاءهم، وهُمْ في طريقهم إلى بَدْرٍ، وقد لحقهم خَوْفٌ من بني بَكْر وكِنَانَةَ؛ لحروبٍ كانَتْ بينهم، فجاءهم إبليس في صورة سُرَاقَةَ بْنِ مالِكِ بْنِ جُعْشُم، وهو سيِّد مِنْ ساداتهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جارٌ لكُمْ﴾، ولن تخافوا من قومي، وهم لكُمْ أعوانٌ على مَقْصِدِكم، ولَنْ يغلبكم أحدٌ، فروي أنه لما ٱلْتَقَى الجمعانِ، كانَتْ يده في يدِ الحَارِثِ بن هشام، فلما رأى الملائكةَ، نَكَصَ، فقال له الحارثُ: أتَفِرُّ يا سُرَاقَةُ؟! فلم يَلْوِ عَلَيه، وَيُرْوَىٰ أنه قال له ما تضمَّنته الآيةُ، وروي أن عُمَيْرَ بْنَ وهبٍ، أو الحارثِ بْنَ هشام قال له: أَيْنَ يا سُرَاقُ؟ فلم يَلْوِ مِثْلَ عَدُوِّ اللّه، فذهبَ، ووقعتِ/ الهزيمة، فتحدَّثوا ٢١٦أ أنَّ سُرَاقَةَ فَرَّ بالنَّاسِ، فبلغ ذلك سُرَاقَةَ بْنَ مالك، فأتى مكَّة، فقال لهم: واللّه، ما عَلِمْتُ بشيء منْ أمركم حتى بَلَغَتْني هزيمَتُكُم، ولا رأَيْتُكم، ولا كُنْتُ معكم.

* ت *: قال ابنُ إسحاق: ذكر لي أنهم كانوا يرونه في كلِّ مَنْزِلٍ في صُورَة سُرَاقَة لا يُنْكِرُونه حتَّى إذا كان يَوْمُ بَدْر، وٱلْتَقَىٰ الجمعان، نكَصَ عدوُّ اللّه على عَقِبَيْه، فأوردهم ثُمَّ أسلمهم. انتهى من «السيرة» لابن هشام.

وقوله: ﴿إني جار لكم﴾ أي: أنتم في ذمَّتي وحِمَائي، و«تراءت»: تفاعلَتْ من الرؤية، أي: رأى هؤلاءِ هؤلاءِ.

قوله: ﴿نكَصَ على عقبيه﴾، أي: رَجَعَ من حيث جاء، وأصْل النُّكُوص؛ في اللغة: الرجوعُ القَهْقَرَى.

وقوله: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾، يريد: الملائكةَ، وهو الخبيثُ، إنما شرط أنْ لاَ غَالِبَ لهم من الناس، فلما رأَى الملائكة، وخَرْقَ العادةِ، خَافَ وَفَرَّ.

وقوله: ﴿إني أخاف اللّه﴾، قال الزَّجَّاج وغيره: خافَ ممَّا رأَى مِنَ الأمر، وهَوْلِهِ؛ أنَّه يومُهُ الذي أُنْظِرَ إليه؛ ويقوِّي هذا أنه رأَى خَرْقَ العادةِ، ونزولَ الملائكةِ للحَرْب.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ

فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض...﴾ الآية: قال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنِّفاق، إنما هُمْ من أهْل عَسْكر الكُفَّار ممَّن كان الإسلام دَاخِلَ قلوبهم، خَرَجُوا مع المُشركين إلَى بَدْرٍ، منهم مكرَهٌ وغيرُ مُكْرَهٍ، فلما أشرفوا على المسلمينَ، ورأَوْا قلَّتهم، ٱرتَابُوا، وقالُوا مشيرين إلى المسلمين: غَرَّ هؤلاءِ دِينُهُمْ.

قال * ع[1] *: ولم يُذْكَرْ أحدٌ ممَّن شهد بدراً بنفاقٍ إلا ما ظَهَرَ بعْدَ ذلك من مُعَتِّب ابن قُشَيْرٍ؛ فإنه القائل يَوْمَ أُحدٍ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقد يحتمل أنْ يكون منافقو المدينة، لما وَصَلَهم خروجُ قريشٍ في قوَّة عظيمةٍ، قالوا هذه المقالةَ، ثم أخبر اللَّه سبحانه بأنَّ مَنْ توكَّل عليه، وفوَّض أمره إليه، فإن عزَّته سبحانه وحِكْمته كفيلةٌ بنَصْره، وقوله سبحانه: ﴿ولو تَرَى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدْبَارهم...﴾ الآية: هذه الآيةُ تتضمَّن التعجيبَ ممَّا حلَّ بالكُفَّار يوم بَدْر؛ قاله مجاهدٌ وغيره، وفي ذلك وعيدٌ لمن بَقِيَ منهم، وقوله: و﴿أدبارهم﴾، قال جُلُّ المفسِّرين: يريد أَسْتَاهَهُم، ولكنَّ اللَّه كريمٌ كَنَّى[2]، وقال ابن عبَّاس، والحسن: أراد ظهورَهُمْ وما أَدْبَرَ منهم[3] وباقي الآية بيِّن.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات اللَّه فأخذهم اللَّه بذنوبهم...﴾ الآية: الدَّأْبُ: العادةُ في كلام العربِ، وهو مأخوذٌ من دَأَبَ عَلَى العمل، إذا لازمه.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٣٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٦٧) برقم: (١٦٢١٥ ـ ١٦٢١٦ ـ ١٦٢١٧) برقم: (١٦٢١٨) عن سعيد بن جبير، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٤٠)، وعزاه إلى جمهور المفسرين، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٦) عن سعيد بن جبير ومجاهد برقم: (٥٠)، وابن كثير (٢/ ٣١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٦)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وأبي الشيخ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٤٠).

وقوله سبحانه: ﴿ذلك بأن اللّه لم يكُ مغيِّراً نعمة أنعمها على قومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم...﴾ الآية: معنى هذه الآية إخبارٌ من اللّه سبحانه، إذا أنعم علىٰ قومٍ نعمةً، فإنه بلُطْفه ورحمته لا يبدأُ بتغييرها وتنكِيدها، حتى يجيءَ ذلك منهم؛ بأنْ يغيِّروا حالهم الَّتي تُرَادُ، أو تَحْسُنُ منهم، فإذا فعلوا ذلك، غيَّر اللّه نعمته عندَهم بنِقْمته منهم، ومثالُ هذه نِعْمَةُ اللّه عَلَى قُرَيْشٍ بنبيِّنا محمَّد ﷺ، فكَفَروا به، فغيَّر اللّه تلك النعمة، بأنْ نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأَحَلَّ بهم عقوبَتَهُ.

٢١٦ ب وقوله تعالى: ﴿كدأْب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات/ ربهم فأهلكناهم بذنوبهم﴾، هذا التكريرُ هو لمعنًى ليس للأول؛ إذ الأول دَأْبٌ في أنْ هَلَكُوا؛ لما كَفَرُوا، وهذا الثَّاني دأْبٌ في أَنَّهُ لم يغيِّرْ نعمتهم؛ حتَّى غيروا ما بأَنْفُسِهِم، والإِشارة بقوله: ﴿والذين مِنْ قبلهم﴾، إلى قومِ شعيبٍ وصالحٍ وهودٍ ونوحٍ وغيرِهِم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن شر الدوابِّ عند اللّه الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كلِّ مرة وهم لا يتقون﴾، أجمع المتأوِّلون؛ أن الآية نزلَتْ في بني قُرَيْظَةَ، وهي بَعْدُ تَعُمُّ كلَّ مَنِ اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿في كل مرة﴾: يقتضي أن الغَدْرَ قد تكرَّر منهم.

وحديثُ قُرَيْظَةَ هو أنهم عاهَدُوا النبيَّ ﷺ؛ على ألاَّ يحاربوه، ولا يعينوا عَلَيْه عدوًّا من غيرهم، فلمَّا ٱجتمعتِ الأحزاب على النبيِّ ﷺ بالمدينةِ، غَلَبَ على ظنِّ بني قريظة؛ أَنَّ النبيَّ ﷺ مغلوبٌ ومستأصَلٌ، وخَدَعَ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ القُرَظِيَّ صاحبَ عَقْد بني قريظة، وعهْدِهِم، فغدروا ووالَوْا قريشاً، وأمدُّوهم بالسِّلاح والأَدْرَاعِ، فلما ٱنجلَتْ تلك الحالُ عن النبي ﷺ، أمره اللّه تعالَى بالخروج إليهم وحَرْبِهم، فٱستُنْزِلُوا، وضُرِبَتْ أعناقهم بحُكْمِ سَعْدٍ، وٱستيعابُ قصَّتهم في «السِّير» وإنما ٱقتضبْتُ منها ما يخُصُّ تفسير الآية.

وقوله سبحانه: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب...﴾ الآية: معنى ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تأسرهم، وتحصِّلهم في ثِقَافِكَ، أو تَلْقَاهم بحالٍ تقدرُ عليهم فيها، وتغلبهم، ومعنى: ﴿فَشَرِّدْ﴾ أي:

طَرِّدْ، وأبعِدْ، وخَوِّف. والشريدُ: ٱلْمبْعَدُ عن وطَنٍ ونحوه، ومعنى الآية: فإن أَسَرْتَ هؤلاءِ الناقضين في حربك لهم، فٱفْعَلْ بهم من النقمة ما يكُونُ تشريداً لمن يأتي خلْفَهم في مثْلِ طريقتهم، وعبارةُ البخاريِّ: «فَشَرِّدْ» فَرِّق. انتهى.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائدٌ على الفرقة المشرَّدة، وقال ابن عباس: المعنى: نكِّل بهم مَنْ خلفهم[1].

وقالَتْ فرقة: معناه: سَمِّعْ بهم، والمعنَى متقاربٌ، ومعنى: ﴿خَلْفَهُمْ﴾ أي: بعدهم، و﴿يذَّكَّرون﴾، أيْ: يتعظون.

وقوله سبحانه: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة...﴾ الآية: قال أكثر المفسِّرين: إن الآية في بني قُرَيْظة، والذي يظهر من ألفاظ الآية أنَّ أَمْرَ بني قريظة قد ٱنقضَى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بهم مَنْ خلفهم﴾، ثم ابتدأ تبارَكَ وتعالَى في هذه الآية بما يَصْنَعُهُ في المستقبل، مع مَنْ يخافُ منه خيانةً إلى آخر الدهر، وبَنُو قريظة لم يَكُونوا في حَدِّ مَنْ تُخَافُ خيانته، وقوله: ﴿فٱنبذ إليهم﴾، أي: أَلْقِ إليهم عَهْدهم، وقوله: ﴿على سواءٍ﴾، قيل: معناه: حتى يكونَ الأمْرُ في بيانِهِ والْعِلْمِ به، عَلَىٰ سواءٍ منك ومنهم؛ فتكُونُونَ في ٱستشعار الحَرْب سواءً، وذَكَرَ الفَرَّاء؛ أن المعنَى: فٱنْبذْ إليهم على ٱعتدالٍ وسواءٍ من الأمر، أي: بَيِّنْ لهم على قَدْرِ ما ظهر منهم، لا تُفَرِّطْ، ولا تَفْجَأْ بحربٍ، بل ٱفعلْ بهم مِثْلَ ما فعلوا بك، يعني: موازنةً ومقايسةً، وقرأ نافع وغيره: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ» ـ بالتاء ـ مخاطبةً للنبيِّ ﷺ، و﴿سَبَقُوا﴾: معناه: فَاتُوا بأنفسهم وأنْجَوْهَا، ﴿إنَّهم لا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لا يُفْلِتُونَ، ولا يُعْجِزُونَ طالبهم، ورُوِيَ أن الآية نزلَتْ فيمن أَفْلَتَ من الكفَّار في بَدْرٍ وغيره فالمعنى: لا تظنَّهم نَاجِينَ، بل هم مُدْرَكُون، وقرأ حمزة وغيره: «ولا يَحْسَبَنَّ» ـ بالياء مِنْ تَحْتُ، وبفتح السين[2].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٧١) برقم: (١٦٢٢٧ ـ ١٦٢٢٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٤٢)، والبغوي (٢/ ٢٥٧) بنحوه، وابن كثير (٢/ ٣٢٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٧).

(٢) وقرأ بها ابن عامر وحفص عن عاصم.

ينظر: «السبعة» ص: (٣٠٧)، «الحجة» (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، «حجة القراءات» (٣١٢)، «إعراب القراءات» (١/ ٢٣٠)، و«إتحاف» (٢/ ٨١ ـ ٨٢)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٤١)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٢٩)، و«العنوان» (١٠١).

٢١٧أ وقوله سبحانه: ﴿وأعدُّوا لهم ما/ اْستطعتم من قوة. . .﴾ الآية: المخاطبةُ في هذه الآية لجميع المؤمنين، وفي «**صحيح مُسْلِمٍ**»: «أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيِ»(١) ولما كانت الخيلُ هي أَصْل الحرب، وأَوزَارَهَا، والتي عُقِدَ الخيرُ في نواصيها(٢)، خَصَّها اللّه تعالى بالذكْرِ، تشريفاً لها، ولما كانت السهامُ من أنجع ما يُتعاطَى

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٢) كتاب «الإمارة»، باب: فضل الرمي والحث عليه، حديث (١٦٧/ ١٩١٧)، وأبو داود (٢/ ١٧) كتاب «الجهاد» باب: في الرمي، حديث (٢٥١٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠)، كتاب «الجهاد»، باب: الرمي في سبيل اللّه، حديث (٢٨١٣)، وأحمد (٤/ ١٥٧)، وأبو يعلى (٣/ ٢٨٣) رقم: (١٧٤٣)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**» (٤/ ٤٤) رقم: (٤٢٩٩)، كلهم من طريق عبد اللّه بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفي، عن عقبة بن عامر به.

وأخرجه الدارمي (٢/ ٢٠٤)، كتاب «الجهاد»، باب: في فضل الرمي والأمر به، والبيهقي في «**شعب الإيمان**» (٤/ ٤٤) رقم: (٤٢٩٨)، كلاهما من طريق سعيد بن أبي أيوب: ثنا يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله، عن عقبة به.

وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة الأنفال»، حديث (٣٠٨٣) من طريق صالح بن كيسان، عن رجل لم يسمه، عن عقبة بن عامر.

والحديث ذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٣٤٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم القراب في كتاب «**فضل الرمي**».

(٢) ورد عن جماعة من الصحابة: منهم: عروة البارقي، وعبد اللّه بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجرير بن عبد اللّه، وأبو كبشة، وابن مسعود، وجابر:

أما حديث عروة البارقي، فأخرجه البخاري (٦/ ٦٤) في «الجهاد والسير»؛ باب الخير معقود في نواصيها الخيل (٢٨٥٠)، و (٦/ ٦٦)؛ باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢) و (٦/ ٢٥٣) في فرض الخمس (٣١١٩)، (٦/ ٧٣١) في المناقب (٣٦٤٣)، ومسلم (٣/ ١٤٩٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٨، ٩٩، ٨٧٣)، والنسائي (٦/ ٢٢٢) في «الجهاد» باب: فتل ناصية الفرس، وابن ماجه (٢/ ٩٢٣) في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل اللّه (٢٧٨٦)، وأحمد (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)، وأبو يعلى (٦٨٢٨)، والحميدي في «**مسنده**» (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) برقم: (٨٤١ ـ ٨٤٢)، والدارمي (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢) في «الجهاد» باب: فضل الخيل في سبيل اللّه، وسعيد بن منصور في «**سننه**» (٢/ ١٩٨) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٦)، والطيالسي في «الجهاد» (١/ ٢٤١) برقم: (١١٨٤ ـ ١١٨٥) والطبراني (١٧/ ١٥٥) برقم (٣٩٦ ـ ٤٠٠)، والبيهقي (٦/ ١١٢) في «القراض»: باب المضارب يخالف بما فيه زيادة لصاحبه، و (٦/ ٣٢٩) في قسم «الفيء» باب: الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، و (٩/ ٥٢) في «السير» باب: تفضيل الخيل و (١٠/ ١٥) في كتاب «السبق والرمي» باب: ارتباط الخيل عدة في سبيل اللّه عز وجل، والطحاوي في «**شرح معاني الآثار**» (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، وأبو نعيم في «**الحلية**» (٨/ ١٢٧)، والبغوي في «**شرح السنة**» بتحقيقنا (٥/ ٥٣٠) في «السير والجهاد» باب: اتخاذ الخيل للجهاد (٢٦٣٩) من طرق عنه به.

وأما حديث ابن عمر، فأخرجه البخاري (٦/ ٦٤) في «الجهاد والسير» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٤٩)، و (٦/ ٧٣١) في «المناقب» (٣٦٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٩٢ ـ ١٤٩٣) في =

في الحرب وأَنْكَاه في العدو وأَقْربه تناولاً للأرواح، خَصَّها ﷺ بالذكْرِ والتنبيهِ عليها.

= «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٦/ ١٨٧١)، والنسائي (٦/ ٢٢١ - ٢٢٢) في الخيل: باب فتل ناصية الفرس، وابن ماجه (٢/ ٩٢٣)، في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٧)، ومالك (٢/ ٤٦٧) في «الجهاد» باب: ما جاء في الخيل والمسابقة (٤٤)، وأحمد (١/ ١٠١) و (٢/ ٤٩، ٥٧)، والطيالسي في «الجهاد» (١/ ٢٤٢) برقم: (١١٨٦)، والطحاوي (٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤)، وأبو يعلى (٢٦٤٢)، والبيهقي (٦/ ٣٢٩) في «الفيء» باب: الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، والخطيب في **«التاريخ»** (١٢/ ٣٩٤)، والبغوي في **«شرح السنة»** بتحقيقنا (٥/ ٥٣٠) برقم: (٢٦٣٨) من طريق نافع عن ابن عمر رفعه بنحوه.

وأما حديث أنس، فأخرجه البخاري (٦/ ٦٤) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥١)، (٦/ ٧٣١) في «المناقب» (٣٦٤٥)، ومسلم (٣/ ١٤٩٤) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٠٠/ ١٨٧٤)، والنسائي (٦/ ٢٢١) في «الخيل» باب: بركة الخيل، وأحمد (٣/ ١٢٧، ٧٧١)، وسعيد بن منصور (٢/ ١٩٩) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٧)، وأبو يعلى في **«مسنده»** (٤١٧٣، ٤١٧٧)، والبغوي في **«شرح السنة»** (٥/ ٥٢٩) برقم: (٢٦٣٧) بتحقيقنا من طريق شعبة عن أبي التياح قال: سمعت أنس بن مالك يحدث عن النبي ﷺ قال: «البركة في نواصي الخيل».

وأما حديث أبي هريرة، فأخرجه مسلم (٢/ ٦٨٢) في «الزكاة»، باب: إثم مانع الزكاة (٢٤ - ٩٨٧)، والترمذي في «الجهاد» باب: ماء جاء في فضل من ارتبط فرساً في سبيل الله (١٦٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٣) في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٨)، وأحمد (٢/ ١٠١، ٢٦٢، ٣٨٣)، وابن خزيمة (٤/ ١٠، ٣١) (٢٢٥٢، ٢٢٥٣، ٢٢٩١)، وأبو يعلى (٢٦٤٠ - ٢٦٤١)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (٨/ ٢٦١)، والخطيب في **«التاريخ»** (٥/ ١٩٦)، والبيهقي (٤/ ٨١) في الزكاة، باب ما ورد في الوعيد فيمن كنز مال زكاة ولم يؤد زكاته، من طرق عن أبي هريرة.

وأما حديث جرير، فأخرجه مسلم (٣/ ١٤٩٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٧/ ١٩٧٢)، والنسائي (٦/ ٢٢١) في الخيل، باب: فتل ناصية الفرس، وأحمد (٤/ ٣٦١)، والطحاوي (٣/ ٢٧٤)، والبغوي في **«شرح السنة»** بتحقيقنا (٥/ ٥٣٠) برقم: (٢٦٤٠) من طريق يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي زرعة، عن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه وهو يقول: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة».

وأما حديث أبي كبشة، فأخرجه الطبراني (٢٢/ ٣٣٩) برقم: (٨٤٩)، وابن حبان (١٦٣٥) - موارد، والطحاوي (٢/ ٢٧٤)، والحاكم (٢/ ٩١) من طريق ابن وهب: حدثني معاوية بن صالح، حدثني نعيم بن زيادة، أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ: يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير، وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه الزيادة، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في **«المجمع»** (٥/ ٢٦٢) رجاله ثقات.

وأما حديث ابن مسعود فهو عند أبي يعلى (٥٣٩٦)، قال: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن علي بن علي حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود قال: جاءه =

* ت *: وفي «**صحيح مسلم**»، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ، وَتَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَو قَدْ عَصَى»[(١)]، وفي «**سنن أبي داودَ، والترمذيِّ، والنسائيِّ**»، عن عُقْبة بن عامر، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الوَاحِدِ ثَلاَثَةَ أَنْفُسٍ الجَنَّةَ؛ صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُنْبِلَهُ، فَٱرْمُوا وَٱرْكَبُوا، وأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَن تَرْكَبُوا، كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ، بَاطِلٌ إِلاَّ رَمْيَهُ بِقَوسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلاَعَبَتَهُ ٱمْرَأَتَهُ»[(٢)]. انتهى.

ورباطُ الخيل: مصدَرٌ مِنْ رَبَط، ولا يكثُرُ رَبْطُها إِلاَّ وهيَ كثيرةٌ، ويجوز أنْ يكون

= رجل فقال: أسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود...» فذكره مطولاً.

وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (٥/ ٢٨٠) وقال: رواه أبو يعلى. وفيه بقية بن الوليد، وهو مدلس. وبقية رجاله ثقات.

وأما حديث جابر، فأخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢) من طريق إبراهيم بن إسحاق، وعلي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن عتبة بن أبي حكيم، حدثني حصين بن حرملة، عن أبي مصبح، عن جابر به.

وأخرجه أبو يعلى في «**معجم شيوخه**» (١٩٥) من طريق يحيى بن سعيد الأموي، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر، عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وأخرجه ابن عدي في «**الكامل**» (٧/ ٢٥٥٧) من طريق الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا علي بن ثابت عن الوازع، عن أبي سلمة، عن جابر.

وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (٥/ ٢٦١) وقال: رواه أحمد، والطبراني في «**الأوسط**» باختصار، ورجال أحمد ثقات.

وقال الحافظ في «**الفتح**» (٦/ ٦٧): روى حديث «الخيل معقود في نواصيها الخير» جمع من الصحابة غير من تقدم ذكره، وهم: ابن عمر، وعروة، وأنس، وجرير، وممن لم يتقدم سلمة بن نفيل (٦/ ٢١٤)، وأبو هريرة عند النسائي، وعتبة بن عبد عند أبي داود (٢٥٤٢)، وجابر، وأسماء بنت يزيد (٦/ ٤٥٥)، وأبو ذر (٥/ ١٨١) عند أحمد، وابن مسعود عند أبي يعلى، وأبو كبشة عند أبي عوانة، وابن حبان في «**صحيحيهما**»، وحذيفة عند البزار، وأبو أمامة، وعريب: ـ (وهو بفتح المهملة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة) ـ المليكي، والنعمان بين بشير وسهل بن الحنظلية عند الطبراني. وعن علي، عند ابن أبي عاصم في «**الجهاد**»...

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٢ ـ ١٥٢٣) كتاب «الإمارة» باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث (١٦٩/ ١٩١٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠ ـ ٩٤١) كتاب «الجهاد» باب: الرمي في سبيل اللَّه، حديث (٢٨١٤) من حديث عقبة بن عامر.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٦ ـ ١٧) كتاب «الجهاد» باب: في الرمي، حديث (٢٥١٣)، والترمذي (٤/ ١٧٤) كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء في فضل الرمي في سبيل اللَّه، حديث (١٦٣٧)، والنسائي (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) كتاب «الخيل» باب: تأديب الرجل فرسه، حديث (٣٥٧)، والحاكم (٢/ ٩٥)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**» (٤/ ٤٤ ـ ٤٥) رقم: (٤٣٠١) من حديث عقبة بن عا

مصدراً من رَابَطَ، وإذا رَبَطَ كلُّ واحد من المؤمنين فرساً لأجل صاحبه، فقد حَصَلَ بينهم رباطٌ، وذلك الذي حضَّ عليه في الآية، وقد قال عليه السلام: «مَنْ أرْتَبَطَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ كَالبَاسِطِ يَدَهُ بِالصَّدَقَةِ لاَ يَقْبِضُهَا»[١]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرةٌ.

* ت *: وقد ذكرنا بعْضَ ما وردَ في فَضْلِ الرباط في آخر «آل عمران»؛ قال صاحبُ «التذكرة»[٢]: وعن عثمانَ بْنِ عَفَّانَ، قالَ: سمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ؛ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»[٣]، وعن أبي بن كعب، قال: قَالَ النبيُّ ﷺ: «لَرِبَاطُ يَوْم في سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَة المُسْلِمِينَ مُحْتَسِباً مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَان ـ أَعْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ؛ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا، وَرِبَاطُ يَوْم فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ المُسْلِمِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَان ـ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وأَعْظَمُ أَجْراً ـ أَرَاهُ قَالَ: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِيْ سَنَةٍ؛ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا ـ فَإِنْ رَدَّهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِهِ سالِماً، لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ أَلْفَ سَنَةٍ، ويُكْتَبُ لَهُ مِنَ الحَسَنَاتِ، وَيَجْرِي لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[٤]، قال القرطبيُّ[٥] في «تذكرته»: فدلَّ هذا الحديثُ على أن رباط يوم في رمضانَ يحصِّل له هذا الثوابَ الدائم، وإنْ لم يَمُتْ مرابطاً. خرَّج هذا الحديث، والذي قبله ابنُ مَاجَه. انتهى من «التذكرة».

و﴿تُرْهِبُونَ﴾: معناه: تخوِّفون وتفزِّعون، والرهبة: الخَوْف: وقوله: ﴿وآخرين من

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٩٦) وعزاه لابن سعد.

(٢) ينظر: «التذكرة» (١/٢٠٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/٩٢٤) كتاب «الجهاد» باب: فضل الرباط في سبيل الله، حديث (٢٧٦٦) من طريق عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن مصعب بن ثابت، عن عبد الله بن الزبير، عن عثمان بن عفان به.
وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/٣٩٠): هذا إسناد ضعيف؛ عبد الرحمٰن بن زيد ضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي.
وقال الحاكم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. وقال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه.
قال المنذري في «الترغيب» (٢/٢٠٣): وآثار الوضع ظاهرة عليه ا هـ.
وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/٣٩٢ ـ ٣٩٣): هذا إسناد ضعيف، لضعف محمد بن يعلى وشيخه عمر بن صبيح، ومكحول لم يدرك أُبي بن كعب، ومع ذلك فهو مدلس.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢/٩٢٤ ـ ٩٢٥) كتاب «الجهاد» باب: فضل الرباط في سبيل الله، حديث (٢٧٦٨) من طريق محمد بن يعلى السلمي، ثنا عمر بن صبيح، عن عبد الرحمٰن بن عمرو، عن مكحول، عن أبي بن كعب مرفوعاً.

(٥) ينظر: «التذكرة» (١/٢٠٩).

دونهم﴾، فيه أقوال: قيل: هم المنافِقُونَ، وقيل: فَارس، وقيل: غير هذا.

قال * ع[١] *: ويحسُنُ أن يقدِّر قوله: ﴿لا تعلمونهم﴾، بمعنى: لا تَعْلَمُونهم فَازِعِينَ رَاهِبِينَ.

وقال * ص *: لا تعلمُونَهُمْ بمعنى: لا تَعْرِفُونهم، فيتعدَّى لواحِدٍ، ومَنْ عدَّاه إلى آثْنَيْن، قدَّره: محاربين، واستُبْعِدَ؛ لعدم تقدُّم ذكره، فهو ممنوعٌ عند بعضهم، وعزيزٌ جدًّا عند بعضهم انتهى.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فأجنح لها﴾ جَنَحَ الرَّجُلُ إلى الأمرِ؛ إذا مال إليه، وعاد الضميرُ في «لها» مؤنَّثاً؛ إذ «السَّلْم» بمعنى المسَالَمَة والهُدْنَة، وذهب جماعةٌ من المفسِّرين إلى أن هذه الآية منسوخةٌ، والضمير في «جَنَحُوا» هو للذين نُبِذَ إليهم على سواءٍ.

٢١٧ ب وقوله سبحانه: ﴿وإن يريدوا/ أنْ يخدعوك فإن حسبك اللَّهُ...﴾ الآية: الضمير في قوله: «وإن يريدوا» عائدٌ على الكفَّار الذين قال فيهم: ﴿وإنْ جنحوا﴾، أي: ﴿وإنْ يريدوا أن يخدعوك﴾، بأنْ يُظْهِروا السَّلْم، ويُبْطِنُوا الغَدْر والخيانة، ﴿فإن حَسْبَك اللَّه﴾، أي: كافيك ومعطيك نَصْرَه، و﴿أيدك﴾: معناه: قوَّاك ﴿وبالمؤمنين﴾، يريد الأنصارَ، بذلك تظاهَرَتْ أقوالُ المفسرين.

وقوله: ﴿وألف بين قلوبهم...﴾ الآية: إشارةٌ إلى العدواة التي كانَتْ بين الأَوْسِ والخَزْرَجِ.

قال * ع[٢] *: ولو ذَهَبَ ذاهبٌ إلى عمومِ المؤمنين في المهاجرين والأنصارِ، وجعل التأليف ما كَانَ بيْنَ جميعهم من التحابِّ، لسَاغ ذلك، وقال ابنُ مَسْعُود: نزلَتْ هذه الآية في المتحابِّين في اللَّه[٣].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٨).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٨١) برقم: (١٦٢٧٥)، وابن كثير (٢/ ٣٢٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦١)، وزاد نسبته إلى ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان»، والنسائي، والبزار، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم، وصححه.

وقال مجاهد: إِذا تَرَاءَى المتحابَّانِ في اللَّه، وتصَافَحَا، تَحاتَّتْ خطاياهما، فقال له عَبْدَةُ بنُ أبي لُبَابَةَ[١]: إِن هذا لَيَسِيرٌ، فقال له: لا تَقُلْ ذلك، فإِن اللَّه تعالَى يَقُولُ: ﴿لَوْ أَنفقْتَ ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾، قال عَبْدَةُ: فعرفْتُ أنه أَفْقَهُ مني[٢].

قال * ع[٣] *: وهذا كلُّه تمثيلٌ حَسَنٌ بالآية، لا أنَّ الآية نزلَتْ في ذلك، وقد رَوَى سهْلُ بن سعد، عن النبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «المؤمن مَأْلَفَةٌ لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ»[٤].

قال * ع[٥] *: والتشابه سَبَبُ الأُلْفَة، فمَنْ كان من أَهْلِ الخَيْر، أَلِفَ أشباهَهُ وأَلِفُوهُ.

* ت *: وفي «صحيح البخاريِّ»: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ مِنْهَا ٱئْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا ٱخْتَلَفَ»[٦]. انتهى، وروى مالكٌ في «الموطإ»، عن أبي هريرة قال: قَالَ

---

(١) عبدة بن أبي لُبابة الأسَدِي الغاضِري بمعجمتين مولاهم أبو القاسم البَزّاز الكوفي الفقيه نزيل دمشق. عن عمر في مسلم مرسلاً وابن عمر وعبد اللَّه بن عمرو وجماعة، وعنه حبيب بن أبي ثابت والأعمش وابن جُريج والسفيانان، وثقه أبو حاتم.
قال الأوزاعي: لم يقدم علينا أفضل منه.
قال ابن عُيينة: جالسته سنة ثلاث وعشرين ومائة.
ينظر: «الخلاصة» (٢/ ١٨٩)، «طبقات خليفة» (١٦٠)، «التاريخ الكبير» (٦/ ١١٤)، و«تهذيب التهذيب» (٦/ ٤٦١).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٢٨٠) برقم: (١٦٢٧٤)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٤٨)، وابن كثير (٢/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٣١) رقم: (٥٧٤٤)، والخطيب (١١/ ٣٧٦) من طريق مصعب بن ثابت، عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي به.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٠) وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات ا هـ.
وذكره أيضاً في (١٠/ ٢٧٦) وقال: وإسناده جيد.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٩).

(٦) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٣١) في البر والصلة، باب: الأرواح جنود مجنّدة، (١٥٩/ ٢٦٣٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٥، ٥٢٧)، والخطيب في «التاريخ» (٣/ ٣٢٩) (٤/ ٣٥٢) من طريق سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. وكذا أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٨).
وأخرجه أبو داود (٢/ ٦٧٥) في «الأدب» باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٥٣٩) من طريق جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة به.
وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٦/ ٤٦٠) برقم: (٣٣٦٥) بتحقيقنا من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.
ويشهد له حديث عائشة، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٦ ـ ٩٠٧)، وأبو يعلى (٤٣٨١)، =

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّه تَبارَكَ وتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ المُتَحَابُونَ لَجَلاَلي؟ اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»[١].

قال أبو عمر بن عبد البرِّ في «التمهيد»: ورُوينا عن ابنِ مسعود، عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، أَتَدْرِي، أَيُّ عُرَى الإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: الوِلاَيَةُ في اللَّهِ: الحُبُّ والبُغْضُ فِيهِ»[٢]، ورواه البراءُ بنُ عَازِبٍ، عن النبيِّ ﷺ أيضاً[٣]، وعن عبد اللَّهِ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكنِ اللَّه ألف بينهم﴾، قال: نزلَتْ في المتحابِّين في اللَّه[٤] قال أبو عمر: وأما قوله: اليَومَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، فإنه أراد ـ واللَّه أعلم ـ في ظلِّ عرشه، وقد يكونُ الظِّلُّ كنايةً عن الرحْمةِ؛ كما قال: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ في ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، يعني: بذلك مَا هُمْ فيه مِنَ الرحمة والنعيم. انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى

والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٧٤) عن يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبد الرحمٰن، عن عائشة مرفوعاً به.

وعلقه البخاري (٦/ ٤٢٦) في أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجنّدة (٣٣٣٦). بهذا الإسناد،

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٩١): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

ويشهد له حديث علي رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١١٠ ـ ١١١) عن الأعمش، عن أبي وائل عنه وقال: غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا بهذا الإسناد.

وأخرجه العقيلي (١/ ١٣٥) من طريق سالم بن عبد اللَّه بن عمر، عن أبيه عنه به.

وقال العقيلي: هذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي موقوف، كما يشهد له حديث سلمان. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩٨)، وينظر: «مجمع الزوائد» (٨/ ٩١) وحديث ابن عباس رواه السهمي في «تاريخ جرجان» ص: (٢٤٤)، وحديث ابن مسعود رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٨٣) برقم: (١٠٥٥٧) وفيه عن عبد اللَّه بن مسعود أو غيره.

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٥٢) كتاب «الشعر» باب: ما جاء في المتحابين في اللَّه، حديث (١٣)، ومسلم (٤/ ١٩٨٨) كتاب «البر والصلة» باب: فضل الحب في اللَّه، حديث (٣٧/ ٢٥٦٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٥٣٥)، والطيالسي (٢٣٣٥)، والدارمي (٢/ ٣١٢)، وابن حبان (٢/ ٣٣٤) رقم: (٥٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٧٨)، والحاكم (٢/ ٤٨٠) من طريق الصعق بن حزن، عن عقيل الجعد، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: ليس بصحيح، فإن الصعق وإن كان موثقاً فإن شيخه منكر الحديث. قاله البخاري.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦) من حديث البراء بن عازب.

(٤) تقدم.

ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيُّها النبيُّ حسبك اللَّه ومن اتبعك من المؤمنين﴾، قال النَّقَّاش: نزلَتْ هذه الآية بالبَيْداء[1] في غزوة بَدْر، وحُكِيَ عن ابنِ عبَّاس: أنها نزلَتْ في الأوس والخزرج.

وقيل: إنها نزلَتْ حين أسلم عمر وكَمَلَ المسلمون أربَعِينَ. قاله ابن عمر، وأنس؛ فهي على هذا مكِّيَّة: و«حَسبك»؛ في كلام العرب، وشَرْعُكَ: بمعنى كافِيكَ ويَكْفِيك، والمحسب: الكافي، قالت فرقة: معنى الآية: يَكْفِيكَ اللَّهِ، ويكفيكَ مَنِ اتبعكَ، فـ «مَنْ» في موضع رفع.

وقال الشَّعْبِيُّ وابن زَيْد: معنى الآية: حَسْبُكَ اللَّهُ وحَسْبُ مَنِ اتبعك من المؤمنين، فـ«مَنْ» في موضع نَصْب عطفاً على موضع الكاف؛ لأن موضعها نَصْبٌ على المعنى بـ «يكفيك» التي سدَّتْ «حَسْبُكَ» مسدَّها.

قال * ص *: ورد بأنَّ الكاف لَيْسَ موضعها نصب لأن إضافة حسب إليها إضافة صحيحة انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿يأيُّها النبيُّ حَرِّض المؤمنين على القتال...﴾ الآية: ﴿حَرِّض المُؤْمِنِينَ﴾، أي: حُثَّهم وحُضَّهم، وقوله سبحانه: ﴿إن يكن منكم...﴾ إلى آخر الآية،
٢١٨أ لفظُ خبرٍ، مضمَّنه وعدٌ بشرط؛ لأن قوله: ﴿إن يكن/ منكم عشرون صابرون﴾، بمنزلة أنْ يقال: إنْ يَصْبِرْ منكم عشرون يغلبوا، وفي ضمنه الأمر بالصَّبر، قال الفخر: وحَسُنَ هذا التكليفُ لما كان مسبوقاً بقوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتبعكَ من المؤمنين﴾، فلمَّا وعد اللَّه المؤمنين بالكِفَايَة والنصرِ، كان هذا التكليفُ سَهْلاً؛ لأن مَنْ تكلَّف اللَّه بنصره، فإن أَهْلَ العَالَم لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى إِذَاءَتِهِ انتهى، وتظاهرت الرواياتُ عن ابن عبَّاس وغيره من الصحابة؛ بأنَّ ثَبوت الواحدِ للعَشَرةِ، كان فرضاً على المؤمنين، ثم لمَّا شَقَّ ذلك عليهم، حطَّ اللَّه

(١) البيداء: اسم الأرض بين مكة، والمدينة، وهي إلى مكة أقرب، تُعَدُّ من الشرف أمام ذي الحُلَيْفَة. ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/ ٢٣٩).

الفَرْضَ إلى ثبوتِ الواحِدِ للاثنَيْنِ، وهذا هو نَسْخُ الأثْقَلِ بالأخَفِّ[1]، وقوله: ﴿لا يفقهون﴾: معناه: لا يفهمون مراشِدَهم، ولا مَقْصِدَ قتالهم، لا يريدون به إلا الغلبةَ الدنيويَّة، فهم يخافُونَ المَوْت؛ إذا صُبَر لهم، ومَنْ يقاتلْ؛ ليَغْلِبَ، أو يُسْتشهد، فيصير إلى الجنة، أثبَتُ قدماً لا محالة.

وقوله: ﴿والله مع الصابرين﴾: لفظُ خبرٍ في ضمنه وعْدٌ وحضٌّ على الصبر، ويُلْحَظُ منه وعيدٌ لمن لم يَصْبِرْ؛ بأنه يُغْلَبُ.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى...﴾ الآية: قال * ع[2] *: هذه آية تتضمَّن عندي معاتَبةً مِنَ الله عزَّ وجلَّ لأصحاب نبيِّه عليه السلام والمعنى: ما كان ينبغي لكُمْ أَنْ تفعلوا هذا الفعْلَ الذي أوْجَبَ أن يكون للنبيِّ أَسْرَى قبل الإثخان؛ ولذلك استمرَّ الخطابُ لهم بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾ والنبيُّ ﷺ لم يأمر بٱستبقاءِ الرِّجالِ وقْتَ الحَرْبِ، ولا أراد ﷺ قَطُّ عَرَضَ الدنيا، وإنما فعله جمهورُ مُبَاشِرِي الحَرْبِ، وجاء ذكْرُ النبيِّ ﷺ في الآية؛ مشيراً إلى دخوله عليه السلام في العَتْبِ؛ حين لم يَنْهَ عن ذلك حين رآه من العَرِيشِ، وأنْكَره سعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، ولكنَّه ﷺ شَغَلَهُ بَغْتُ الأمر، وظهورُ النصر؛ عن النهْي ومَرَّ كثيرٌ من المفسِّرين؛ على أنَّ هذا التوبيخَ إنما كان بسبب إشارة مَنْ أشار على النبيِّ ﷺ؛ بأخذ الفدْيَةِ، حين ٱستشارهم في شأن الأَسْرَى، والتأويل الأول أَحْسَنُ، والإثخانُ: هو المبالغةُ في القَتْل والجراحةِ، ثم أمر مخاطبة أصحاب النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عرض الدنيا﴾، أي: مالها الذي يعز وَيَعْرِضُ، والمراد: ما أُخِذَ من الأَسْرَىٰ من الأموال، ﴿والله يريدُ الآخرة﴾، أيْ: عملَ الآخرة، وذكَر الطبريُّ وغيره؛ أن رسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاس: «إنْ

---

(١) اتفق الأصوليون على جواز نسخ الحكم بأخف أو مساو. واختلفوا في جوازه بأثقل. فالجمهور ذهب إلى جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً ومنع ذلك طائفة منهم الإمام الشافعي رضي الله عنه مفترقين إلى فرقتين. فرقة منعت جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً، وفرقة منعت وقوعه شرعاً فقط.
ينظر: «المعتمد» (١/ ٤١٦) «المحصول» (٧٦٦) (١/ ٣/ ٤٨٠) «المستصفى» (١/ ١٢٠) «التبصرة» (٢٥٨)، «شرح الكوكب» (٣/ ٥٥٠) «العدة» (٣/ ٧٨٥) «الإحكام للآمدي» (٣/ ١٢٦) «ميزان الأصول» (٢/ ١٠٠٠) «كشف الأسرار» (٣/ ١٨٧) «التلويح» (٢/ ٣٦) «فتح الغفار» (٢/ ١٣٤) «إرشاد الفحول» (١٨٨) «الإبهاج» (٢/ ٢٣٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٥١).

شِئْتُمْ، أَخَذْتُمْ فِدَاءَ الأسرى، وَيُقْتَلُ مِنْكُمْ في الحَرْبِ سَبْعُونَ عَلَىٰ عَدَدِهِمْ، وإِنْ شِئْتُمْ، قُتِلُوا وَسَلِمْتُمْ، فَقَالُوا: نَأْخُذُ المَالَ، وَيُسْتَشْهَدُ مِنَّا»[١]، وذكر عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ[٢] بسنده؛ أَنَّ جبريلَ نَزَلَ عَلَى النبيِّ ﷺ بتخييرِ النَّاسِ هكذا؛ وعَلَى هذا، فالأمر في هذا التخيير مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فإنه إعلامٌ بغيب، وإذا خُيِّروا رضي اللَّه عنهم، فكيف يقع التوبيخُ بعدُ بقوله تعالى: ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾؛ فهذا يدُلُّك على صحَّة ما قدَّمناه، أنَّ العتب لهم إنما هو على استبقاءِ الرجالِ وقتَ الهزيمةِ؛ رغبةً في أَخْذ المال، وهو الذي أقولُ به، وذكر ٢١٨ب المفسِّرون أيضاً في هذه الآيات تحليلَ/ المَغَانِم، ولا أَقولُ ذلك؛ لأن تحليل المغانم قد تقدَّم قبْل بَدْرٍ في السَّرِيَّة التي قُتِلَ فيها ابْنُ الحَضْرَمِيِّ، وإنما المُبْتَدَعُ في بَدْرٍ ٱستبقاءُ الرِّجَالِ؛ لأجل المال، والذي مَنَّ اللَّه به فيها: إلحاق فدية الكافر بالمغانمِ التي تقدَّم تحليلها، وقوله سبحانه: ﴿لولا كتابٌ من اللَّه سبق...﴾ الآية: قال ابن عبَّاس، وأبو هريرة، والحَسَن، وغيرهم: الكِتَابُ: هو ما كان اللَّه قَضَاهُ في الأَزَلِ مِنْ إحلالِ الغنائم والفداءِ لهذه الأمة، وقال مجاهد وغيره: الكتابُ السابق: مغفرةُ اللَّهِ لأَهْلِ بدر، وقيل: الكتاب السابقُ: هو ألاَّ يعذب اللَّه أحداً بذَنْبٍ إلا بعد النَّهْي عنه، حكاه[٣] الطبريُّ.

قال ابنُ العربيِّ في «**أحكام القرآن**»: وهذه الأقوالُ كلُّها صحيحةٌ ممكنَةٌ، لكن أقواها ما سبق مِنْ إحلال الغنيمة، وقد كانوا غَنِمُوا أَوَّلَ غنيمةٍ في الإسلام حينَ أرسلَ النبيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّه بْنَ جَحْش[٤]. انتهى، ورُوِيَ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ نَزَلَ في هَذَا الأَمْرِ عَذَابٌ، لَنَجَا مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ»[٥]، وفي حديث آخر: «وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ»؛ وذلك أن رأيهما كان

---

(١) ذكره الطبري في «**تفسيره**» (٦/ ٢٩٢).

(٢) عَبْدُ بن حُمَيد بن نصر الكَشِّي أبو محمد الحافظ مؤلف «**المسند والتفسير**» عن علي بن عاصم، ومحمد بن بِشْر العبدي، وعبد الرزاق، والنضر بن شُمَيْل، وخلائق، وعنه مسلم، والترمذي وخلق.
قال البخاري وقال عبد الحميد: أنبأنا عثمان بن عمر فذكر حديثاً، قيل: عبد الحميد هو عبد بن حميد، قلت: روى الحديث مسلم، عن عبد بن حميد.
قال ابن حبان: مات سنة تسع وأربعين ومائتين. قاله في «**الخلاصة**» (٢/ ١٨٨).

(٣) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٤) عبد اللَّه بن جحش الأسدي بن رياب ـ براء تحتانية وآخره موحدة ـ ابن يعمر الأسدي: حليف بني عبد شمس، أحد السابقين.
قال ابن حبان: له صحبة، وقال ابن إسحاق: هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً، ودفن هو وحمزة في قبر واحد، وكان له يوم قتل نيف وأربعون سنة. ينظر: «**الإصابة**» (٤/ ٣١، ٣٣)، «**أسد الغابة**» (٢٨٥٨) بتحقيقنا، «**الثقات**» (٣/ ٢٣٧)، «**صفوة الصفوة**» (١/ ٣٨٥)، «**حلية الأولياء**» (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٥) ذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٢٠٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

أنْ تُقتَلَ الأَسْرَى، وقوله سبحانه: ﴿فكلوا ممَّا غنمتم...﴾ الآية: نصٌّ عَلَى إباحة المال الذي أُخِذَ من الأَسْرَى، وإلحاقٌ له بالغنيمة التي كان تقدَّم تحليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيُّها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللَّه في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم﴾، روي أنَّ الأسرى بِبَدْرٍ أعلموا رسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ أنَّ لهم مَيْلاً إلى الإسلام، وأنهم إنْ رجعوا إلى قومهم، سَعَوْا في جلبهم إلى الإسلام، قال ٱبنُ عبَّاس: الأَسْرَى في هذه الآية: عَبَّاسٌ وأصحابه[١]، قالوا للنبيِّ ﷺ: آمنا بما جئْتَ به، ونشهد إنك لَرَسُولُ اللَّه، ولَنَنْصَحَنَّ لك علَى قومنا، فنزلَتْ هذه الآيةُ، ومعنى الكلام: إن كان هذا عَنْ جِدٍّ منكم، وَعَلِمَ اللَّهُ مِنْ أنفسكم الخَيْرَ والإسلام، فإنه سيجبر عليكم أَفْضَلَ مما أعطيتم فديةً، ويغفرْ لكم جميعَ ما ٱجترمتموه، وروي أنَّ العبَّاس بن عبد المطَّلب رضي اللَّه عنه قال: فيَّ وفي أصْحَابِي نَزَلَتْ هذه الآيةُ، وقال حِينَ أعطاه رسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مالِ البَحْرَيْنِ ما قُدِّرَ أنْ يقول: هذا خَيْرٌ ممَّا أُخِذَ مِنِّي، وأنا بَعْدُ أرجُو أنْ يَغْفِرَ اللَّهِ[٢] لِي، وروي عنه؛ أنه قال: ما أَوَدُّ أَنَّ هذه الآية لَمْ تَنزِلْ[٣]، ولي الدنيا بأجمعها؛ وذلك أن اللَّه تعالى قد أتاني خَيْراً مما أُخِذَ مني، وأنا أرجو أَنْ يَغْفِرَ لي، وقوله: ﴿فَقَد خَانُوا اللَّه من قبلُ﴾ أي: بالكُفر، ﴿فأمكن منهم﴾ أي: بأن جعلهم أَسْرَى، ﴿واللَّه عليم﴾ فيما يبطنونه، ﴿حكيم﴾ فيما يجازيهم به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللَّه

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٩٢) برقم: (١٦٣٤٠)، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٥٤)، والبغوي (٢/ ٢٦٣) ولم يعزه لأحد، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٣٦٩)، وزاد نسبته لأبي نعيم في **«الدلائل»**.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٢) برقم: (١٦٣٣٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٥٥)، والبغوي (٢/ ٢٦٣) نحوه، والسيوطي (٣/ ٣٧٠) بنحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في **«الدلائل»**، وابن عساكر.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/ ٥٥٥).

والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾، مَقْصِدُ هذه الآية وما بعدها: تبيينُ منازل المهاجرين والأنصار، والمؤمنين الذين لم يُهَاجِرُوا، وذكر المهاجرين بَعْد الحديبية، فقدَّم أوَّلاً ذِكْرَ المهاجرين، وهُمْ أصل الإسلام، وتأمَّل تقديمَ عُمَرَ لهم في الاستشارةِ، وَهَاجَرَ:
١٢١٩ معناه/ : هَجَرَ أهله وقرابته، وهَجَرُوهُ، ﴿والذين آوَوْا ونصروا﴾: هم الأنصارُ، فحكَمَ سبحانه على هاتَيْنِ الطائفتين؛ بأن بَعْضَهُم أولياءُ بَعْضٍ، فقال كثيرٌ من المفسِّرين: هذه الموالاةُ: هي المؤازرة، والمعاونة، واتِّصالُ الأيدي، وعليه فَسَّر الطبريُّ الآية، وهذا الذي قالوه لازم من دلالة لفظ الآية، وقال ابن عبَّاسٍ وغيره: هذه الموالاةُ هي في المواريث[1]؛ وذلك أن النبيَّ ﷺ آخَى بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجريُّ إذا ماتَ، ولم يكُنْ له بالمدينةِ وليٌّ مهاجريٌّ، ورثه أخوه الأنْصَارِيُّ، وكان المسلم الذي لم يُهَاجِرْ لا ولايَةَ بينه، وبَيْنَ قريبه المهاجريِّ، ولا يرثه، ثم نُسِخَ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وأولوا الأرحام...﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]؛ وعلى التأويلين، ففي الآية حضٌّ على الهجرة، قال أبو عُبَيْدَة: الوِلاَيَةُ - بالكسر - من وَلِيتُ الأَمْرَ إليه، فهي في السلطان، وبالفَتْحِ هي من المَوْلَى؛ يقال: مَوْلَى بَيِّنَ الوَلاَيَةِ - بفتح الواو -.

وقوله سبحانه: ﴿وإن ٱستنصروكم﴾، يعني: إن ٱستدعَى هؤلاء - المؤمنون الذين لم يُهَاجِروا نَصْرَكُمْ - ﴿فعليكم النصر إلا عَلَى قوم بَيْنَكم وبينهم ميثاق﴾؛ فلا تنصروهم عليهم؛ لأَنَّ ذلك غَدْرٌ ونقْضٌ للميثاق.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعْض﴾؛ وذلك يجمع الموارثَةَ والمعاوَنَةَ والنُّصْرة، وهذه العبارةُ تحريضٌ وإقامةٌ لنفوس المؤمنين؛ كما تقولُ لمن تريدُ تحريضَهُ: عَدُوُّكَ مُجْتَهِدٌ أي: فٱجتهدْ أَنْتَ، وحكى الطبريُّ في تفسير هذه الآية[2]، عن

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٩٤) برقم: (١٦٣٤٥)، وابن عطية (٢/ ٥٥٥)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٤٦٤)، وابن كثير (٢/ ٣٢٨) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧١) نحوه، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٢٩٧).

قتادة؛ أنه قال: أَبَى اللَّهُ أَن يقبل إِيمانَ مَنْ آمن ولم يُهَاجِرْ، وذلك في صَدْرِ الإسلام، وفيهم قال النبيُّ ﷺ «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ مُسْلِمٍ أَقَامَ بَيْنَ المُشْرِكِينَ لاَ تَتَرَاءَى نَارُهُمَا»[١] الحديث على اختلاف ألفاظه، وقول قتادة، إنما هو فيمن كان يُقيمُ متربِّصاً يقول: مَنْ غَلَبَ، كُنْتُ معه؛ وكذلِكَ ذُكِرَ في كتاب[٢] «الطَّبريِّ»، وغيره، والضميرُ في قوله: ﴿إِلا تَفْعَلُوهُ﴾، قيل: هو عائدٌ على المُؤازرة والمعاونة، ويحتملُ على الميثاق المذكور، ويحتملُ على النَّصْر للمسلمين المستَنْصِرِينَ، ويحتمل على الموارثَة والتزامها، ويجوز أن يعود مجملاً على جميعِ ما ذُكِرَ، والفِتْنَةُ: المِحْنَة بالحَرْب وما أنْجَرَّ معها؛ من الغارَاتِ، والجلاءِ، والأسر، والفسادُ الكَبيرُ: ظُهُورُ الشِّرْك.

وقوله سبحانه: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل اللَّه والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًّا﴾، تضمَّنت الآيةُ تخصيصَ المهاجرين والأنصار، وتشريفَهم بهذا الوَصْف العظيمِ.

* ت *: وهي مع ذلك عند التأمُّل يلوح منها تأويل قتادَةَ المتقدِّم، فتأمَّله، والرزقُ الكريمُ: هو طعام الجنَّة؛ كذا ذكر الطبريُّ وغيره[٣].

قال ابنُ العربيِّ في «أحكامه»[٤]: وإذا كان الإيمان في القَلْب حقًّا، ظهر ذلك في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٢) كتاب «الجهاد» باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، حديث (٢٦٤٥)، والترمذي (٤/ ١٣٢ - ١٣٣) كتاب «السير» باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث (١٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٠٣) رقم: (٢٢٦٤)، والبيهقي (٨/ ١٣١) كتاب «القسامة» باب: ما جاء في وجوب الكفارة في أنواع قتل الخطأ، من طريق أبي معاوية، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير به. وقد أعله أبو داود بالإرسال فقال: رواه هشيم ومعمر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريراً.
وقد أخرجه مرسلاً الترمذي (٤/ ١٣٣) كتاب «السير» باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث (١٦٠٥)، والنسائي (٨/ ٣٦) كتاب «القسامة» باب: القود بغير حديدة، والبيهقي (٨/ ١٣٠) كتاب «القسامة»، كلهم من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم مرسلاً.
وقال الترمذي: وهذا أصح وأكثر أصحاب إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم أن رسول اللَّه ﷺ بعث سرية ولم يذكروا فيه عن جرير، ورواه حماد بن سلمة، عن الحجاج بن أرطاة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس عن جرير مثل حديث أبي معاوية. قال: وسمعت محمداً يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ ا هـ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٢٩٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٢٩٩).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٨٩).

ٱستقامة الأعمال؛ بٱمتثال الأمر وٱجتنابِ المَنهِيِّ عنه، وإذا كان مجازاً، قَصَّرت الجوارحُ في الأعمال؛ إذ لم تبلغ قوَّتُهُ إليها. انتهى.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾: قوله: «من بعد»، يريدُ به مِنْ بَعْدِ الحُدَيْبِيَةِ؛ وذلك أن الهجرة مِنْ بعدِ ذلك كانَتْ أقلَّ رتبةً من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال
٢١٩ب لها الهِجْرَةُ الثانية، ﴿وجاهدوا معكم﴾: لفظٌ يقتضي/ أنهم تَبَعٌ لا صَدْرٌ.

وقوله سبحانه: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه﴾، قالَ مَنْ تقدَّم ذكره: هذه في المواريثِ، وهي ناسخةٌ للحُكْم المتقدِّم ذِكْرُهُ.

وقالَتْ فرقة، منها مالك: إن الآية لَيْسَتْ في المواريث، وهذا فَرارٌ من توريثِ الخَالِ والعَمَّة ونحو ذلك.

وقالَتْ فرقة: هي في المواريث، إلا أنها نُسِخَتْ بآية المواريث المبيَّنة، وقوله: ﴿في كتاب اللّه﴾: معناه: القرآن، أي: ذلك مُثْبَتٌ في كتاب اللّه.

وقيل: في اللَّوْحِ المحفوظِ.

كَملَ تفسيرُ السُّورة، والحَمْدُ للّهِ، وصلَّى اللّه علَى سيِّدنا محمَّد وآله وَصَحْبِهِ وسَلَّم تسليماً.

تفسير سورة التوبة

وهي مدنية إلا آيتين

قوله سبحانه: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم...﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها؛ وتسمَّى «سورة التَّوبةِ»؛ قاله حُذَيْفَة وغيره، وتسمَّى «الفَاضِحَة»؛ قاله ابن عباس، وقال: ما زال ينزلُ: وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ حَتَّى ظُنَّ أنه لا يَبْقَى أحَدٌ، وهي من آخر ما أُنْزِلَ على النبي ﷺ. قال عليٌّ رضي اللَّه عنه لابن عبَّاس: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أمانٌ وبِشَارَةٌ، وبَرَاءَةُ نَزَلَتْ بِالسَّيْفِ ونَبْذِ العُهُودِ؛ فلذلكَ لَمْ تُبْدَأْ بالأَمَانِ[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

قوله عز وجل: ﴿براءة من اللَّه ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، التقدير: هذه الآيات براءةٌ، ويصحُّ أن يرتفع «براءةٌ»؛ بالابتداء، والخَبَرُ في قوله: ﴿إلى الذين﴾. و﴿براءة﴾ معناه: تَخَلُّصٌ وتَبَرٍّ من العهود التي بَيْنَكم، وبَيْنَ الكفَّار البادئين بالنَّقْض.

قال ابن العَرَبِّي في «أحكامه»[2]: تقول: بَرَأْتُ مِنَ الشَّيْءِ أَبْرَأُ بَرَاءَةً، فأنا مِنْه بَرِيءٌ؛ إذا أنزلْتَهُ عن نَفْسِكَ، وقطَعْتَ سبَبَ ما بينك وبَيْنه. انتهى.

ومعنى السياحة في الأرض: الذَّهاب فيها مسرحين آمنين؛ كالسَّيْح من الماء، وهو الجاري المنبسطُ؛ قال الضَّحَّاك، وغيره من العلماء: كان من العرب مَنْ لا عَهْدَ بينه وبَيْن النبيِّ ﷺ جملةً، وكان منهم مَنْ بينه وبينهم عهدٌ، وتحسسَ منهم نَقْضٌ، وكان منهم مَنْ بينه وبينهم عهدٌ ولم ينقضوا، فقوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعةَ أشهر﴾ هو أَجَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهِ

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٧٧)، وزاد نسبته إلى أبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨٩٣).

لِمَنْ كان بينه وبينهم عهد، وتحسَّس منهم نقْضَهُ، وأول هذا الأجَلِ يومُ الأذان، وآخره ٱنقضاءُ العَشْر الأوَّل مِنْ رَبيعِ الآخِرِ، وقوله سبحانه: ﴿فإذا انسلخ الأشهرُ الحُرُمُ فٱقتلوا المشركين﴾ [التوبة: ٥] حُكْمٌ مباينٌ للأوَّل، حَكَمَ به في المشركين الذي لا عَهْدَ لهم ألبتة، فجاء أَجَلُ تأمينهم خمسين يوماً، أوَّلها يومُ الأذانِ، وآخرها ٱنقضاء المُحَرَّم.

وقوله: ﴿إلى الذين عاهدتم﴾، يريد به الذين لَهُمْ عهدٌ، ولم ينقضوا، ولا تُحُسِّسَ منهم نَقْضٌ، وهم فيما روي بَنُو ضَمْرَةَ من كِنَانَة، كان بَقِيَ مِنْ عهدهم يومَ الأذان تِسْعَةُ أشهرٍ.

وقوله عز وجل: ﴿وٱعلموا أنكم غير معجزي اللَّه﴾، أي: لا تفلتون اللَّه، ولا تعجزونه هَرَباً.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

وقوله: ﴿وأذان من اللَّه ورسوله...﴾ الآية: أي: إعلامٌ، و﴿يوم الحجِّ الأكْبر﴾ قال عمر وغيره: هو يَوْمُ عَرَفَة[1]، وقال أبو هريرة وجماعة: هو يوم النَّحر[2]، وتظاهرتِ
١٢٢٠أ الروايات/؛ أن عليًا أَذَّنَ بهذه الآياتِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِثْرَ خُطْبة أبي بَكْر، ثم رأى أنه لم يعمَّ الناس بٱلاستماع، فتتبَّعهم بالأذانِ بها يوم النَّحر[3]، وفي ذلك اليَوْمِ بَعثَ أبو بَكْرٍ مَنْ يعينه في الأذانِ بها؛ كَأَبِي هُرَيْرَة[4] وغيره، وتتَّبعوا بها أيضاً أسْوَاقَ العَرَب، كَذِي المَجَازِ وغيره؛ وهذا هو سبب الخلاف، فقالتْ طائفةٌ: يَوْمُ الحَجِّ الأكْبَر: عرفَةُ؛ حيث وقع أَوَّلُ الأذان.

وقالتْ أُخرَى: هو يومُ النَّحرِ؛ حيث وقع إكمال الأذان.

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: المراد باليَوْمِ أيامُ الحجِّ كلُّها؛ كما تقول: يَوْمُ صفِّينَ، وَيَوْمُ

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣١٠) رقم: (١٦٤٠٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥)، والبغوي (٢/ ٢٨٦) رقم: (٣).
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٥).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٠٤) رقم: (١٦٣٧٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥).
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) برقم: (١٦٣٨٣ ـ ١٦٣٨٤) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥).

الجَمَلِ؛ ويتجه أن يوصَفُ بـ «الأكبر»؛ علَى جهة المدحِ، لا بالإِضافة إِلَى أصْغرَ معيَّنٍ، بل يكون المعنى: الأكبر مِنْ سائر الأيام، فتأمَّله.

واختصار ما تحتاجُ إِلَيْهِ هذه الآيةُ؛ على ما ذكَرَ مجاهد وغيره مِنْ صورة تلك الحال: أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ ٱفتتَحَ مكَّة سنةَ ثمانٍ، فٱستعْمَلَ عليها عَتَّابَ بْنَ أَسِيدٍ، وقضَىٰ أَمْرَ حُنَيْنٍ والطائِفِ، وٱنصرف إِلى المدينة، فأقام بها حتَّى خرج إِلى تَبُوكَ، ثم انصرفَ مِنْ تَبُوكَ في رَمَضَانَ سَنَةَ تسْعٍ، فأَراد الحَجَّ، ثم نظر في أَنَّ المشركِينِ يَحُجُّون في تلْكَ السَّنَة، ويَطُوفون عُرَاةً، فقال: لاَ أُريدُ أنْ أَرَى ذلك، فأمر أبا بَكْرٍ على الحَجِّ بالناس، وأنفَذَهُ، ثم أَتْبَعَهُ عليَّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه علَى ناقتِهِ العَضْبَاءِ، وأمره أنْ يؤذِّن في النَّاس بأربعين آيةً: صَدْر سورةِ «بَرَاءَة»، وقيل: ثَلاثِينَ، وقيل: عشرين، وفي بعض الروايات: عَشْر آيات، وفي بعضها: تسع آيات، وأمره أن يُؤذنَ الناسَ بأربعةِ أشياء، وهي: أَلاَّ يحجَّ بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يدخُلَ الجَنَّة إِلا نَفْسٌ مؤمنةٌ، وفي بعض الروايات: ولا يَدْخُلَ الجَنَّةَ كَافِرٌ، ولا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ، ومَنْ كان له عنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عهْدٌ، فهو إِلى مدَّته، وفي بعض الروايات: ومَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّه عَهْدٌ، فأجله أربعةُ أَشهُرٍ يسيحُ فيها، فإِذا ٱنْقَضَتْ، فإِن اللَّه بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ.

قال * ع[١] *: وأقول: إِنهم كانوا ينادُونَ بهذا كلِّه، فأربعةُ أشهر؛ للذين لهم عَهْدٌ وتُحُسِّسَ منهم نقضُهُ، والإِبقاء إِلى المدَّة لمن لم يخبر منه نقضٌ، وذكر الطبريُّ أن العرب قالت يومئذٍ: نَحْنُ نَبرأُ مِنْ عهدك، ثم لام بعضُهُمْ بعضاً، وقالوا: ما تَصْنَعُونَ، وقد أسلَمَتْ قريشٌ؟ فأسلموا كلُّهم، ولم يَسِحْ أحد.

قال * ع[٢] *: وحينئذٍ دخل الناس في دين اللَّه أفواجاً.

وقوله سبحانه: ﴿أن اللَّه بريء من المشركين ورسولُهُ﴾ أي: ورسولُهُ بريءٌ منهم.

وقوله: ﴿فإِن تبتم﴾، أي: عن الكُفر.

وقوله سبحانه: ﴿إِلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتمُّوا إِليهم عهدهم إِلى مدتهم﴾، هذا هو الاستثناءُ الذي تقدَّم ذكره، وقرأ عكرمة وغيره: «ينقُضُوكُمْ»[٣] ـ بالضاد المعجمة ـ، و﴿يظاهروا﴾: معناه: يعاونوا،

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٦).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٦).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٧).

والظَّهيرُ: المُعِينُ.

وقوله: ﴿إن اللَّه يحب المتقين﴾: تنبيهٌ على أنَّ الوفاء بالعَهْد من التقوَى.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فإذا ٱنسلخ الأشهر الحرم﴾: ٱلانسِلاخ: خروجُ الشيء عن الشيء المتلبِّس به؛ كٱنسلاخ الشاة عن الجِلْدِ، فشبه ٱنصرَامَ الأشهر بذلك.

وقوله سبحانه: ﴿فٱقتلوا المشركين حيث وجدتموهم...﴾ الآية: قال ابن زَيْد: هذه الآية، وقوله سبحانه: ﴿فإمَّا منًّا بعدُ وإما فداء﴾ [محمد: ٤]: هما مُحْكَمَتان؛ أي: ليست إِحداهما بناسخةٍ للأخرى.

قال * ع[١] *: هذا هو الصواب.

وقوله: ﴿وخذوهم﴾ معناه: الأسْر.

وقوله: ﴿كلّ مَرْصَدٍ﴾: معناه: مواضع الغرَّة؛ حيث يرصدون ونصب «كُلَّ» على الظرف أو بإسقاط الخافِضِ، التقدير: في كُلِّ مَرْصَد.

وقوله: ﴿فإِن تابوا﴾، أي: عن الكُفْر.

وقوله سبحانه: ﴿وإِن أحد من المشركين ٱستجارك﴾، أي: جَلَبَ منك عهداً
٢٢٠ب وجواراً/ يأمن به، ﴿حتَّى يسمع كلام اللَّه﴾، يعني القُرْآن، والمعنى: يفهم أحكامه، قال الحسن: وهذه آية محكمة؛ وذلك سُنَّة إِلى يوم القيامة[٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام...﴾ الآية: قال ابنُ إسحاق: هي قبائلُ بني بَكْر؛ كانوا دخلوا وقْتَ الحديبية في العهد، فأُمِرَ المسلمون بإِتمام العَهْدِ لمن لم يكُنْ نَقَضَ منهم.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٨).
(٢) ذكره ابن عطية (٣/٥).

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم...﴾ الآية: في الكلام حذفٌ، تقديره: كيف يكون لهم عهد ونحوه، وفي «كيف» هنا تأكيدٌ لِلاستبعادِ الذي في الأُولَى، و﴿لا يرقبوا﴾ معناه: لا يُراعُوا، ولا يَحْفَظُوا، وقرأ الجمهور[١]: «إِلاًّ»، وهو اللَّه عزَّ وجلَّ؛ قاله مجاهد، وأبو مِجْلِز، وهو ٱسمه بالسُّرْيانية[٢]، وعُرِّب، ويجوز أن يراد به العَهْدُ، والعَرَبُ تقول للعهد والحِلْف والجِوَارِ ونحوِ هذه المعاني: «إِلاًّ»، والذِّمةُ أيضاً: بمعنى الحِلْفِ والجوارِ ونحوه.

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإن نكثوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بعد عهدهم وطعنوا في دينكم...﴾ الآيَة، ويليق هنا ذكْرُ شيء مِنْ حُكْم طعن الذميِّ في الدِّين، والمشهورُ من مذْهَب مالِكٍ: أنه إِذا فعل شيئاً من ذلك؛ مِثْل تكذيبِ الشريعة، وسبِّ النبيِّ ﷺ قُتِلَ.

وقوله سبحانه: ﴿فقاتلوا أئمَّة الكُفر﴾، أي: رؤوسهم وأعيانهم الذين يقودُونَ الناس إِليه، وأصوبُ ما يقال في هذه الآية: أنه لا يُعْنَى بها معيَّنٌ وإِنما وَقَعَ الأمر بقتال أئمة الناكثين للعهود من الكفَرةِ إِلى يوم القيامة، وٱقتضَتْ حالُ كفَّار العرب ومحارِبي النبيِّ ﷺ؛ أَن تكون الإِشارة إِليهم أولاً، ثم كُلُّ مَنْ دَفَعَ في صدر الشريعة إِلى يوم القيامة فهو بمنزلتهم.

وقرأ الجمهور[٣]: «لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ» (جَمْع يمين)، أي: لا أيمان لهم يُوفَى بها وتُبَرُّ، وهذا المعنَى يشبه الآيَةَ، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: «لا إِيمَانَ لَهُمْ»، وهذا يحتملُ وجهين:

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠).
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ١٠).
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ١٧).

أحدهما: لا تصديقَ لهم، قال أبو عَليّ: وهذا غَيْرُ قويٍّ؛ لأنه تكريرٌ، وذلك أنه وَصَفَ أَئمَّة الكُفرِ بأنهم لا إِيمان لهم، والوجْه في كَسْر الألفِ أَنَّه مصْدَرٌ من آمَنْتُهُ إِيماناً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] فالمعنى: أنهم لاَ يُؤَمِّنُونَ كما يُؤَمِّنُ أَهْلُ الذمَّة الكتابيُّون؛ إِذ المشركون ليس لهم إِلا الإِسلام أو السَّيْف، قال أبو حاتم: فَسَّر الحَسَنُ قراءته: لا إِسلام لهم.

قال * ع[1] *: والتكريرُ الذي فَرَّ أبو عَلِيٍّ منه متَّجِهٌ، لأنه بيانُ المهمّ الذي يوجبُ قَتْلهم.

وقوله عز وجل: ﴿أَلا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول. . .﴾ الآية «ألا»: عَرْضٌ وتحضيضٌ، قال الحسن: والمراد بـ ﴿إِخْراج الرسول﴾: إخراجُه من المدينة، وهذا مستقيمٌ؛ كغزوة أُحُدٍ والأحزاب[2].

وقال السديُّ: المرادُ مِنْ مَكَّة[3].

وقوله سبحانه: ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾، قيل: يراد أفعالهم بمكَّة بالنبيِّ ﷺ، وبالمؤمنين.

وقال مجاهدٌ: يراد به ما بَدَأَتْ به قريشٌ مِنْ معونة بني بَكْر حلفائِهِمْ، على خُزَاعَة حلفاءِ النبيِّ ﷺ، فكان هذا بَدْءَ النقْض[4].

وقال الطبريُّ[5]: يعني فعْلَهم يَوْمَ بدر.

قال الفَخْر[6]: قال ابن إِسحاق والسُّدِّيُّ والكَلْبِيُّ: نزلَتْ هذه الآية في كفَّار مَكَّة؛ نكثوا أيمانهم بعد عَهْدِ الحديبية، وأعانوا بني بَكْر عَلَى خُزَاعة[7]. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أتخشونهم﴾: آستفهامٌ على معنى التقرير والتوبيخ، ﴿فاللَّه أحقُّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾، أي: كَامِلِي الإِيمان.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢).
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ١٣).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ١٣).
(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ١٣).
(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٣٣١).
(٦) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ١٨٧).
(٧) أخرجه الطبري (٦/ ٣٣١) برقم: (١٦٥٥٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣) بنحوه.

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم﴾، قرّرت الآياتُ قبلها أفعالَ الكَفَرة، ثم حضَّ على القتال مقترناً بذنوبهم؛ لتنبعث الحميَّة مع ذلك، ثم جزم الأَمْرَ بقتالِهِمْ في هذه الآيَةَ مقترناً بوَعْدٍ وكِيدٍ يتضمَّن النصْرَ عَلَيْهِم، والظَّفَرَ بهم.

وقوله سبحانه: ﴿يعذبهم اللّه بأيديكم﴾، معناه: بالقتل والأسر، و﴿ويخزهم﴾، معناه: يذلهم علَى ذنوبهم، يقال: خَزِيَ الرجُلُ يَخْزَى خزياً، إذا ذَلَّ من حيثُ وَقَعَ في عَارٍ، وأَخْزَاهُ غيره، وخزي يخزى خزاية/ إذا ٱسْتَحَى، وأما قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صدور قوم ١٢٢١ مؤمنين﴾، فيحتمل أنْ يريد جماعةَ المؤمنين، لأن كلَّ ما يهدُّ من الكُفْرِ هو شفاءٌ مِنْ هَمِّ صدور المؤمنين، ويحتمل أنْ يريد تخصيصَ قوم من المؤمنين، وروي أنهم خُزَاعَةُ؛ قاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ[1]، ووجه تخصيصهم أنهم الذين نُقِضَ فيهم العهدُ، ونالتهم الحربُ، وكان يومئذٍ في خُزَاعَةَ مؤمنون كثير؛ ويقتضي ذلك قولُ الخزاعيِّ المستَنْصِرِ بالنبيِّ ﷺ: [الرجز]

ثُـمَّـتَ أَسْـلَـمْـنَـا فَـلَـمْ نَـنْـزِعْ يَـدَا

وفي آخر الرجز:

وَقَـتَّـلُـونَـا رُكَّـعـاً وَسُـجَّـدَا[2]

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣٣٢) برقم: (١٦٥٥٤ ـ ١٦٥٥٧ ـ ١٦٥٥٨ ـ ١٦٥٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣)، والبغوي (٢/ ٢٧٣) رقم: (١٤)، وابن كثير (٢/ ٣٣٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) والأبيات:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا
كُنْتَ لَنَا أَباً وَكُنَّا وَلَدا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللَّهُ نَصْراً عَبَدا ... وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا ... أَبْيَضَ مِثْلَ الشَّمْسِ يَنْمُو صَعَدَا
إِنْ سِيمَ خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا ... فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا
إِن قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدا ... وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا ... وَقَتَّلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدَا

ذكر السيوطي في هذه الأبيات (٣/ ٢١٥) نقلاً عن ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل»، وانظر القرطبي (٨/ ٤٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٧)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٨١ - ٤٨٢)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٦١)، وعزاه لأبي يعلى، وينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٣/ ١١٧٥).

وقرأ جمهور الناس: و«يَتُوبُ»(١) ـ بالرفع ـ، على القطع مما قبله، والمعنَى أن الآية ٱستأنفت الخبر بأنه قد يَتُوبُ على بعض هؤلاء الكَفَرة الذين أَمَرَ بقتالهم.

وعبارةُ * ص *: و«يَتُوب»، الجمهورُ بالرّفعِ على ٱلاستئناف، وليس بداخلٍ في جوابِ الأمر؛ لأن توبته سبحانه على مَنْ يشاء لَيْسَتْ جزاءً على قتال الكُفَّار. انتهى.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تُتْرَكُوا ولما يعلم اللَّه الذين جاهدوا منكم...﴾ الآية: خطابٌ للمؤمنين؛ كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٢] ومعنى الآية: أظننتم أن تتركوا دون اختبار وامتحانٍ، والمراد بقوله: ﴿ولما يعلم اللَّه﴾، أي: لم يعلم اللَّه ذلك مَوْجُوداً؛ كما عَلِمَهُ أَزلاً بشرط الوجود، وليس يَحْدُثُ له علْم تبارك وتعالى عن ذلك، و﴿وليجة﴾: معناه: بِطَانَة ودَخِيلة، وهو مأخوذ من الوُلُوج، فالمعنى: أَمراً باطناً مما يُنْكَر، وفي الآيةِ طَعْنٌ على المنافقين الذين ٱتخذوا الوَلاَئِجَ، قال الفَخْر(٢): قال أبو عُبَيْدَة: كلّ شيءٍ أدخلْتَه في شيءٍ ليس منه، فهو وَلِيجةٌ، وأصله من الوُلُوج، قال الواحديُّ يقال: هو وَلِيجَةٌ، للواحدِ والجمع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد اللَّه﴾، إلى قوله: ﴿إنما يعمر مساجد اللَّه من آمن باللَّه...﴾ الآية، لفظ هذه الآية الخَبَرُ، وفي ضمنها أمر المُؤمنين بِعَمارة المساجد، وروى أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ؛ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسَاجِدَ، فَٱشْهَدُوا لَهُ بالإِيمان»(٣).

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ١٩)، و«الدر المصون» (٣/ ٤٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ١٢) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٧)، وفي (٥/ ٢٧٧) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة التوبة»، حديث (٣٠٩٣)، وابن ماجه (١/ ٢٦٣) كتاب «المساجد» باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة، حديث: (٨٠٢)، وأحمد (٣/ ٦٨)، والدارمي (١/ ٢٧٨) كتاب «الصلاة» باب: المحافظة على الصلوات، وابن خزيمة (٢/ ٣٧٩) رقم: (١٥٠٢)، وابن حبان (١٧٢١)، والحاكم (٢/ ٣٣٢)، والبيهقي (٣/ ٦٦) كتاب «الصلاة» باب: فضل المساجد، =

* ت *: زاد ابن الخَطِيبِ في روايته: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. انتهى من ترجمة محمَّد بنِ عبدِ اللَّهِ، وفي الحديثِ عَنه ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ضَمِنَ لِمَنْ كَانَتِ المَسَاجِدُ بَيْتَهُ الأَمْنَ، والأَمَانَ، وَالجَوَازَ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ القِيَامَةِ» خَرَّجه عليُّ بن عبد العزيز البَغَوِيُّ في «المُسْنَد المُنْتَخَب» له، وروى البغويُّ أيضاً في هذا «المسند»، عن النبيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَوْطَنَ الرَّجُلُ المَسَاجِدَ بِالصَّلاَةِ، وَالذِّكْرِ، تَبَشْبَش اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الغَائِبِ لِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ». انتهى من «الكَوْكَب الدُّرِّيِّ»، قيل: ومعنى «يَتَبَشْبَشُ»: أي يفرح به.

وقوله سبحانه: ﴿ولم يخش إلا اللَّه﴾، يريد: خشيةَ التعظيمِ والعبادةِ، وهذه مرتبةُ العَدْلِ من الناس، ولا محالة أَنَّ الإِنسان يخشَى غيره، ويخشَى المحاذيرَ الدنيويَّة، وينبغي أن يخشَى في ذلك كلِّه قضاءَ اللَّهِ وتصريفَهُ.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أجعلتم سقاية الحاجِّ...﴾ الآية: ﴿سِقَايَةَ الحَاجِّ﴾: كانَتْ في بني هَاشِمٍ، وكان العبَّاس يتولاَّها، قال الحسن: ولما نزلَتْ هذه الآيةُ، قال العبَّاس: ما أراني إلاَّ أَتْرُكُ السقايةَ، فقال النبيُّ ﷺ: «أَقِيمُوا عَلَيْهَا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ»(١) ﴿وعمارةُ المسجد الحرام﴾: قيلَ: هي حِفْظه ممَّن يظلم فيه، أو يقول هُجْراً، وكان ذلك إلى العبَّاس، وقيل: هي السِّدَانَة(٢) وَخِدْمَةِ البَيْت خَاصَّة، وكان ذلك في بني عَبْد الدَّار، وكان يتولاَّها عثمانُ بنُ طَلْحَة، وابنُ عمه شَيْبَةُ، وأقرَّها النبيُّ ﷺ لهما ثَانِيَ يَوْمِ الفتحِ، وقال: «خُذَاهَا خَالِدَةً تَالِدَةً

وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٧) كلهم من طريق عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري به.

وقال الترمذي: حديث غريب حسن. وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي. وأخرجه أحمد (٣/ ٧٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» ص: (٢٨٩) رقم: (٩٢٣)، عن الحسن بن موسى، ثنا ابن لهيعة عن دراج به.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩١)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٦)، وعزاه لأبي الشيخ عن الحسن.

(٢) سِدَانَةُ الكعبة: خدمتها، وتولي أمرها، وفتح بابها وإغلاقه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٥٥).

لاَ يُنَازِعُكُمُوهَا إِلاَّ ظَالِمٌ».

واختلف الناس في سبب نزولِ هذه الآية، فقال مجاهدٌ: أُمِرُوا بالهجرة، فقال العبَّاس: أنا أسقي الحاجَّ، وقال عثمانُ بن طلحة: أنا حاجبُ الكَعْبَة، وقال محمدُ بنُ كَعْب: إِن العبَّاس وعليًّا وعثمان بن طلحة تَفَاخَرُوا فنزلَتِ الآية، وقيل غير هذا.

٢٢١ ب / وقوله سبحانه: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله...﴾ الآية: لما حكم سبحانه في الآية المتقدِّمة بأن الصِّنفين لا يستوون، بيَّن ذلك في هذه الآية الأخيرة، وأوضحه، فعدَّد الإِيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، وحَكَم عَلَى أنَّ أهل هذه الخصالِ أعظمُ درجةً عند الله مِنْ جميع الخَلْقِ، ثم حَكَمَ لهم بالفَوْزِ بِرَحْمَتِهِ ورضْوانه، والفَوْزُ: بلوغُ البُغْيَةْ، إِمَّا في نيل رَغِيبَة، أو نجاةٍ من هَلَكَة، ويَنْظُرُ إِلى معنَى هذه الآية الحديثُ: «دَعُوا لي أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نِصِيفَهُ»(١)؛ ولأن أصحاب هذه الخِصَال علَى سيوفهم انْبَنَى الإِسلام، وتمهَّد الشرْعُ.

وقوله سبحانه: ﴿يبشرهم ربُّهم برحمة منه ورضوان﴾، هذا وعْدٌ كريمٌ مِنْ ربٍّ رحيم، وفي الحديث الصحيح: «إِذَا ٱسْتَقَرَ أَهْلُ الجَنَّةَ في الجَنَّة، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لاَ نَرْضَى، يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي سَأُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ! رِضْوَانِي أَرْضَى عَلَيْكُمْ؛ فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَداً...»(٢) الحديث.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ

---

(١) ورد ذلك من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس بن مالك:
فأمّا حديث أبي سعيد، فرواه البخاري (٢٥١٧) في «فضائل الصحابة» باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، ومسلم (٤/ ١٩٦٧) في «فضائل الصحابة» باب: تحريم سب الصحابة (٢٢٢/ ٢٥٤١)، وأبو داود (٢/ ٦٢٦) في «السنة» باب: في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٨)، والترمذي (٥/ ٦٥٣) في المناقب (٣٨٦١)، وأحمد (٣/ ١١، ٥٤، ٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩) (٩٩٠ ـ ٩٩١)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٩) والخطيب في «التاريخ» (٧/ ١٤٤) عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وأما حديث أبي هريرة، فرواه مسلم (٢٢١ ـ ٢٥٤٠)، وابن ماجه (١/ ٥٧) في «المقدمة» باب: فضل أهل بدر (١٦١) عن الأعمش، عن أبي صالح عنه مرفوعاً به.
وأما حديث أنس فرواه أحمد (٣/ ٢٦٦).

(٢) تقدم تخريجه.

وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾، ظاهر هذه المخاطبة: أنها لجميع المؤمنين كافَّة، وهي باقيةُ الحُكْمِ إلى يوم القيامة، ورِوتْ فرقة أنها نزلَتْ في الحَضِّ على الهجرة، ورفضِ بلادِ الكُفْر.

وقوله سبحانه: ﴿قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم...﴾ الآية: هذه الآيةُ تقوِّي مذهب مَنْ رأى أن هذه الآية والَّتي قبلها إنما مقصودُهُما الحَضُّ على الهجْرة، وفي ضمْن قوله: ﴿فتربصوا﴾: وعيدٌ بيِّن.

وقوله: ﴿بأمْرِهِ﴾، قال الحَسَنُ: الإشارة إلى عذابٍ أو عقوبةٍ من الله تعالى[(١)].

وقال مجاهدٌ: الإشارة إلى فتح مكَّة[(٢)]، وذكر الأَبناء في هذه الآية دون التي قَبْلَها، لما جلبتْ ذِكرهم المَحَبَّة، والأبناء: صَدْرٌ في المحبة وليسوا كذلك، في أن تتبع آراؤهم؛ كما في الآية المتقدمة، واقترفتموها: معناه: اكتسبتموها، ومساكِنُ: جَمْعُ مَسْكَنٍ ـ بفتح الكاف: ، مَفْعَلٌ من السُّكْنَى، وما كان من هذا معتلَّ الفاءِ، فإنما يأتي على مَفْعِلٍ (بكسر العين)؛ كموعِدٍ ومَوْطِنٍ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾، هذه مخاطبةٌ لجميع المؤمنين يعدِّد الله تعالى نِعَمَهُ عليهم، والمواطِنُ المُشَارُ إلَيْها بَدْرٌ والخَنْدَق والنَّضير وقُرَيْظة وخَيْبَر وغيرها، وحُنَيْنٌ وادٍ بين مكَّة والطائِف.

وقوله: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾، رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ قَالَ حِينَ رَأَى جملته اثْنَيْ عَشَرَ

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٨).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٣٣٩) برقم: (١٦٥٨٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٨)، والبغوي (٢/ ٢٧٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٠٣)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

أَلفاً: «لَن تُغلَبَ اليَوْمَ مِن قِلَّةٍ»[(١)]، وروي أَنَّ رجلاً من أصحابه قالها فأراد الله تعالَىٰ إظهار العجز؛ فظهر حين فَرَّ الناسُ.

* ت *: ٱلعجبُ جائزٌ في حقِّ غير النبيِّ ﷺ، وهو معصومٌ منه ﷺ، والصوابُ في فَهمِ الحديث، أنه خَرَجَ مَخرَجَ الإخبار، لا علَىٰ وجه العُجْب؛ وعلى هذا فَهِمَه ابنُ رُشْدٍ وغيره، وأنه إذا بلغ عَدَدُ المسلمين اثني عشر ألفاً حُرِمَ الفِرَارُ، وإن زاد عددُ المُشْرِكين على الضِّعْفِ؛ وعليه عَوَّلَ في الفتوىٰ، وقوله تعالى: ﴿وضاقَتْ عليكم الأرض بما رَحُبَتْ﴾، معناه: بِرُحْبِها؛ كأنه قال: عَلَى ما هي عليه في نَفْسها رَحْبةً واسعةً، لِشدَّة الحال وَصُعوبتها؛ فـ «مَا»: مصدرية.

وقوله سبحانه: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾، أي: فراراً عن النبيِّ ﷺ وٱختصارُ هذه القصَّة: أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فتحَ مكَّة، وكان في عَشَرة آلاف منْ أصحابه، وٱنضافَ إليهم ألفانِ من الطُّلَقَاءِ، فصار في ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلفاً، سمع بذلك كفَّار العرب، فشَقَّ عليهم، فجمعتْ له هوازنُ
٢٢٢أ وألفافها، وعليهم مَالِكُ بن عوفٍ النصريُّ، وثقيفٌ، وعليهم عبْد يَالِيلَ بْنُ عَمْرٍو/ وٱنضافَ إليهم أَخلاطٌ مِنَ الناس حتى كانوا ثلاثينَ أَلفاً، فخرج إليهم رسول اللَّه ﷺ حين ٱجتمعوا بحُنَيْنٍ، فلما تصافَّ الناسُ، حمل المشركون من مَحَانِي الوادِي، وٱنهزم المُسْلِمون، قال قتادة: وكان يقال: إن الطلقاء مِنْ أَهْل مكَّةَ فرُّوا، وقصدوا إِلقَاءَ الهَزيمة في المُسْلمين[(٢)]، وكان رَسُول اللَّهِ ﷺ عَلَى بغلته البَيْضَاء قد اكْتَنَفَهُ العَبَّاس عمُّه، وابنُ عَمِّه أبو سفيانَ بْنُ الحارثِ بنِ عبد المُطَّلِبِ، وبَيْنَ يدَيْهِ أَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ، وثَمَّ قتل رحمه اللَّه والنبيُّ ﷺ يقولُ:

أَنَــا الــنَّــبِــيُّ لاَ كَــذِبْ ... أَنَــا ٱبْــنُ عَــبْــدِ الــمُــطَّــلِــبْ

فلما رأى نبيُّ اللَّه ﷺ شدَّةَ الحالِ، نَزَلَ عن بَغْلَتِهِ إلى الأرض؛ قاله البَرَاءُ بنُ عازب[(٣)]، واستنصر اللَّه عَزَّ وجلَّ، فأَخَذَ قبضةً مِنْ ترابٍ وحصًى، فرمَى بها في وُجُوه الكُفَّار، وقال: «شَاهَت الوُجُوه»، ونادَى رسُولُ اللَّهِ ﷺ بالأنصارِ، وأَمَرَ العبَّاسَ أَنْ ينادِيَ: «أَيْنَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ؟ أَيْنَ أَصْحَابُ سُورَةِ البَقَرةِ؟» فَرَجَعَ النَّاسُ عَنَقاً واحداً للحَرْبِ، وتصافحوا بالسُّيوفِ والطَّعْنِ والضرب، وهناك قال عليه السلام: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ»[(٤)]

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٠٤)، وعزاه للبيهقي في «دلائل النبوة».
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٣٤٠) برقم: (١٦٥٨٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ١٩).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٤٣) برقم: (١٦٥٩٥) وذكره ابن عطية (٣/ ١٩).
(٤) تقدم في: سورة الأنفال.

وهزم اللَّهُ المشركين، وأعْلَى كلمةَ الإسلام إلى يَوْمِ الدينِ، قال يَعْلَى بن عطاءٍ: فحدَّثني أبناءُ المنهزمين عَنْ آبائهم، قالوا: لم يَبْقَ منَّا أَحَدٌ إلاَّ دخَلَ عينيه مِنْ ذلك التُّرَابِ واستيعابُ هذه القصة في كتب «السِّيَر».

و﴿مُدْبِرِينَ﴾: نصب على الحال المؤكِّدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ [البقرة: ٩١]، والمؤكِّدة هي التي يدلُّ ما قبلها عليها كدلالة التولِّي على الإدبار.

وقوله سبحانه: ﴿ثم أنزل اللَّه سكينته...﴾ الآية: السكينةُ: النَّصر الذي سَكَنَتْ إليه ومعه النفُوسُ، والجنودُ: الملائكةُ، والرُّعْبُ؛ قال أبو حاجز يزيدُ بنُ عامرٍ: كان في أجوافنا مثلُ ضَرْبَةِ الحَجَرِ في الطَّسْتِ من الرُّعْبِ، ﴿وعَذَّب الذين كفروا﴾، أي: بالقتل والأسْرِ، وروَى أبو داود، عن سهل بن الحَنْظَلِيَّة[1] أنهم سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فأَطْنَبُوا السَّيْرَ حَتَّى كَانَ عشِيَّةً، فَحَضَرَت الصَّلاَةُ مع رَسُول اللَّه ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حتى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِم بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ، وشِيَاهِهِمْ، اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «تِلْكَ غَنِيمَةُ المُسْلِمِينَ غَداً، إنْ شَاءَ اللَّهُ...» الحديثَ. انتهى[2]، فكانوا كذلك غنيمةً بحَمْد اللَّه، كما أخبر ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) هو: سهل بن الربيع بن عمرو بن عدي بن زيد، الأوسي، الأنصاري.
قال ابن الأثير في «الأسد»: كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان فاضلاً معتزلاً عن الناس، كثير الصلاة والذكر، كان لا يزال يصلي مَهما هو في المسجد، فإذا انصرف لا يزال ذاكراً، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه أبو كبشة.
ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢/ ٤٦٩)، «الإصابة» (٣/ ١٣٨)، «الثقات» (٣/ ١٧٠)، «نقعة الصديان» (١٩٢)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٢٤٣)، «الاستيعاب» (٢/ ٦٦٢)، «بقي بن مخلد» (٣٩١)، «تقريب التهذيب» (١/ ٣٣٦)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٥١)، «تهذيب الكمال» (١/ ٥٥٤)، «الجرح والتعديل» (٤/ت ٨٤١)، «التاريخ الكبير»، (٤/ ٩٨)، «الطبقات الكبرى» (٨/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢ ـ ١٣) كتاب «الجهاد» باب: في فضل الحرس في سبيل الله عز وجل، حديث (٢٥٠١)، والحاكم (٢/ ٨٣ ـ ٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ٩٦)، رقم: (٥٦١٩) من حديث سهل بن الحنظلية.

وقوله عز وجل: ﴿يأيُّها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾، قال ابن عباس وغيره: معنى الشِّرْكَ هو الذي نَجَّسهم؛ كنجاسة الخَمْر[1]، ونصَّ اللَّه سبحانه في هذه الآية على المُشْرِكِينَ، وعلى المَسْجِد الحرام، فقاسَ مالكٌ رحمه اللَّه وغيره جَميعَ الكُفَّار من أهْلِ الكتاب وغيرهم؛ على المشركين، وقَاسَ سائرَ المساجِدِ على المَسْجِدِ الحرام، وَمَنَعَ مِنْ دخولِ الجميعِ في جميعِ المساجِدِ، وقوَّةُ قوله سبحانه: ﴿فلا يقربوا﴾ يقتضي أمْرَ المسلمين بمَنْعهم.

وقوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾، يريد: بعد عامِ تِسْعٍ من الهجرة، وهو عَامُ حَجِّ أبو بَكْرٍ بالنَّاس.

وقوله سبحانه: ﴿وإن خفتم عيلة﴾، أي: فقراً، ﴿فسوف يغنيكم اللَّه من فضله﴾، وكان المسلمون، لَمَّا مُنِعَ المشركون من المَوْسِمِ، وهم كانوا يجلبون الأطعمةَ والتجاراتِ، قَذَفَ الشيطان في نفوسهم الخَوْفَ من الفَقْر، وقالوا: مِنْ أيْنَ نعيش؟ فوعَدَهم اللَّه سبحانه بأنْ يغنيهم مِنْ فَضْله، فكان الأمر كما وعد اللَّه سبحانه، فأسلَمَتِ العربُ، فتمادَى حجُّهم وتَجْرُهم، وأغنى اللَّه من فضله بالجهادِ والظهورِ على الأُمَمِ.

٢٢٢ب وقوله سبحانه: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون باللَّه ولا باليوم الآخر/ . . .﴾ الآية: هذه الآيةُ تضمَّنت قتالَ أهْل الكتاب، قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخَذَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ في غَزْو الرُّوم، ومشَى نحو تَبُوكَ، ونفَى سبحانه عن أهل الكتاب الإِيمان باللَّه واليوم الآخر؛ حيث تركوا شَرْعَ الإِسلام؛ وأيضاً فكانَتِ اعتقاداتهم غيْرَ مستقيمةٍ، لأنهم تشعَّبوا، وقالوا عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، واللَّهُ ثالِثُ ثلاثةٍ، وغَيْرَ ذلك؛ ولهم أيضاً في البعث آراءٌ فاسدةٌ؛ كشراءِ منازِلِ الجنَّة من الرُّهْبَانِ؛ إلى غير ذلك من الهَذَيان، ﴿ولا يدينون دين الحق﴾، أي: لا يطيعون، ولا يمتثلون؛ ومنه قولُ عائشة: «مَا عَقَلْتُ أَبَوَيَّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ»، والدِّينُ هنا: الشريعةُ، قال ابن القاسِمِ وأشْهَبُ وسَحْنُون: وتؤخذ الجزيةُ مِنْ مجوس العربِ والأمم كلِّها، وأما عَبَدة الأوثان والنِّيران وغيرِ ذلك، فجمهور العلماء على قبولِ الجزيةِ منهم، وهو قولُ مالكٍ في «**المدونة**».

وقال الشافعيُّ وأبو ثور: لا تؤخذ الجزيةُ إلا مِنَ اليهودِ والنصارَى والمجوسِ فقطْ، وأما قَدْرها في مذْهَب مالك وغيره، فأربعةُ دنَانِير عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ، وأربعون دِرْهماً عَلَى أَهْل الفضَّة، وهذا في العنْوة، وأما الصُّلْح، فهو ما صالحوا عَلَيْه، قليلٌ أو كثيرٌ.

وقوله: ﴿عَنْ يدٍ﴾ يحتمل وجوهاً:

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣٤٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٢٠).

منها: أَنْ يريد عن قُوَّة منكم عليهم، وقَهْرٍ، واليدُ في كلام العرب: القُوَّة.

ومنها: أَنْ يريد سَوْقَ الذِّميِّ لها بِيَدِهِ، لا أَنْ يبعثها معَ رَسُولٍ؛ ليكون في ذلك إِذلالٌ لهم.

ومنها: أَنْ يريد نَقْدَهَا ناجزاً، تقول: بِعْتُهُ يَداً بِيَدٍ، أي: لا يؤخِّروا بها.

ومنها: أَنْ يريد عن ٱستسلامٍ، يقال: أَلْقَى فلانٌ بيده، إِذَا عَجَز واستسلم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن اللّه﴾: الذي كثر في كُتُب أهل العلم؛ أنَّ فرقةً من اليهود قالَتْ هذه المقالة وروي أنه قالها نَفَرٌ يسير منهم فِنخاص وغيره، قال النَّقَّاش: ولم يبق الآن يهودي يقولها، بل انقرضوا.

قال * ع[١] *: فإِذا قالها ولو واحدٌ من رُؤسَائهم، توجَّهت شنعة المقالة علَى جماعتهم، وحكَى الطبريُّ وغيره؛ أن بني إِسرائيل أصابتهم فتن وجلاء، وقيل: مَرَض، وأذهب اللّه عنهم التَّوْراة في ذلك، ونَسُوها، وكان علماؤهم قد دَفَنُوها أول ما أحسُّوا بذلك البلاء، فلما طالَتْ المدة، فُقِدَت التوراة جملةً، فحفَّظها اللّهُ عُزَيْراً؛ كرامةً منه له، فقال لبني إِسرائيل: إِن اللّهَ قد حفَّظني التوراةَ، فجعلوا يَدْرُسُونها من عنْده، ثم إِن التوراة المدْفُونَة وجِدَتْ، فإِذا هي مساويةٌ لما كان عَزَيْرٌ يدرِّس، فضَلُّوا عند ذلك، وقالوا: إِن هذا لم يتهيَّأْ لعُزَيْرٍ إِلاَ وهو ابن اللّه، نعوذُ باللّه من الضَّلال.

وقوله: ﴿بأفواهم﴾، أي: بمجرَّد الدعوَى من غير حُجَّة ولا برهان، و﴿يضاهُئون﴾، قراءةُ الجماعة[٢]، ومعناه: يحاكُون ويماثلون، والإِشارة بقوله: ﴿الذين كفروا من قبل﴾:

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣).

(٢) وقرأ عاصم وحده من «السبعة» «يضاهئون»، وكذلك طلحة بن مصرف. وهي من «ضاهأ» بمعنى «ضاهى»، وهي لغة ثقيف. ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (١٠٢)، و«الحجة» (٤/ ١٨٦)، و«السبعة» (٣١٤)، و«معاني القراءات» (١/ ٤٥١).

إِما لمشركي العرب؛ إِذ قالوا: الملائكة بناتُ اللَّهِ؛ قاله الضَّحَّاك، وإِما لأمم سالفةٍ قبلها، وإِما للصَّدْر الأول من كَفَرة اليهودِ والنَّصَارَى، ويكون ﴿يضاهئون﴾ لمعاصرِي النبيِّ ﷺ، وإِن كان الضمير في ﴿يضاهئون﴾ للنصارَى فقطْ، كانت الإِشارة بـ ﴿الذين كفروا من قبل﴾ إلى اليهود؛ وعلى هذا فسَّر الطبريُّ، وحكاه غيره عن قتادة[١].

وقوله: ﴿قاتلهم اللَّه﴾: دعاءٌ عليهم عامٌّ لأنواع الشَّر، وعن ابن عباس؛ أن المعنَى: لعنهم اللَّه[٢]. قال الداووديُّ: وعن ابن عباس قاتلهم اللَّه: لعنهم اللَّه، وكلُّ شيء في القُرآن: قَتل، فهو لَعْن. انتهى. و﴿أَنَّى يؤفكون﴾، أي: يُصْرَفُون عن الخَيْر.

وقوله سبحانه: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم...﴾ الآية: هذه الآية يفسِّرها ما حكاه الطَّبريُّ[٣]؛ أن عدي بن حاتم قال: «جِئْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، وفي عُنُقي صَلِيبُ ذَهَب،
٢٢٣أ فَقَالَ: يَا عَدِيُّ/ اطْرَحْ هَذَا الصَّلِيبَ مِنْ عُنُقِكَ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وكَيْفَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْهُمْ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ تَسْتَحِلُّونَ مَا أَحَلُّوا وَتُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمُوا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَذَلِكَ[٤]».

ومعنى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له، و﴿نور اللَّه﴾؛ في هذه الآية: هُدَاه الصادرُ عن القرآن والشَّرْع.

وقوله: ﴿بأفواههم﴾؛ عبارةٌ عن قلَّةِ حيلتهم وضَعْفها.

وقوله: ﴿بالهدى﴾: يعم القرآن وجميعَ الشَّرْع.

وقوله: ﴿ليظهره على الدين كلِّه﴾، وقد فعل ذلك سبحانه، فالضمير في ﴿ليظهره﴾: عائدٌ على الدِّين، وقيل: على الرسول، وهذا وإِنْ كان صحيحاً، فالتأويل الأول أَبْرَعُ منه، وأَلْيَقُ بنظامِ الآية.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣٥٢) برقم: (١٦٦٣٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٥)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٣٥٣) برقم: (١٦٦٤٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٥)، وابن كثير (٢/ ٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٥)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٣٥٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٨) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة التوبة»، حديث (٣٠٩٥) من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم به.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يأيُّها الذين آمنوا إِن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾، المراد بهذه الآية: بيانُ نقائصِ المذكورين، ونَهْيُ المؤمنين عن تلك النقائصِ مترتِّب ضِمْنَ ذلك، واللام في ﴿ليأكلون﴾: لامُ التوكيدِ، وصورةُ هذا الأكْلِ هي بأنهم يأخذونَ من أموال أتباعهم ضرائِبَ وفُرُوضاً بٱسم الكنائسِ والبِيَعِ وغَيْرِ ذلك ممَّا يوهمونهم أنَّ النفقة فيه مِنَ الشَّرْعِ والتقرُّب إِلى اللَّهَ، وهم خِلاَلَ ذلك يحتجنون تلك الأموالَ، كالذي ذكره سلمان في كتاب «السير»، عن الراهِبِ الذي ٱسْتَخْرَجَ كَنْزَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿ويصدون عن سبيل اللَّه﴾، أي: عن شريعة الإِسلام والإِيمان بنبيِّنا محمَّد ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿والذين﴾ ابتداءٌ، وخبره ﴿فَبَشِّرهم﴾ والذي يظهر من ألفاظ الآية: أنه لما ذَكَر نَقْصَ الأحبار والرهبانِ الآكلين للمَالِ بالباطل، ذَكَرَ بعد ذلك بقَوْلٍ عامٍّ نَقْصَ الكانزين المانعين حقَّ المال، وقرأ طلحةُ بْنُ مُصَرِّف: «الَّذِينَ يَكْنِزُونَ»[1] بغير واو، ؛ وعلى هذه القراءة يجري قولُ معاوِيَةَ: أنَّ الآية في أهْل الكتَاب، وخالفه أبو ذَرٍّ، فقال: بل هِيَ فينا.

و﴿يَكْنِزُونَ﴾: معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية، وليس مِنْ شرط الكَنْز: الدفْنُ، والتوعُّد في الكنز، إِنما وقع عَلَى منع الحقوق منه، وعلى هذا كثيرٌ من العلماء، وقال عليٌّ رضي اللَّه عنه: أربعةُ آلاف دِرْهَمٍ فما دُونَهَا نفقةٌ، وما زاد علَيْهَا فهو كَنْز، وإِن أَدَّيْتَ زَكَاتَهُ.

وقال أبو ذَرٍّ وجماعةٌ معه: ما فَضَلَ مِنْ مالِ الرَّجُل على حاجةِ نَفْسِه، فهو كَنْز، وهذان القولان يقتضيان أنَّ الذمَّ في حبس المال، لا في منع زكاته فقطْ.

* ت *: وحدَّث أبو بَكْرِ بْنُ الخَطِيبِ بسنده، عن عليِّ بن أبي طالب، وابنِ عُمَرَ، عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ لِلفُقَرَاءِ في أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ قَدْرَ مَا يَسَعُهُمْ، فَإِنْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٧)، و«البحر المحيط» (٥/٣٨)، و«الدر المصون» (٣/٤٦٠).

مَنَعُوهُمْ حَتَّى يَجُوعُوا وَيَعْرَوْا وَيَجْهَدُوا، حَاسَبَهُمُ اللَّهُ حِسَاباً شَدِيداً، وعَذَّبَهُمْ عَذَاباً نُكْراً» انتهى[١].

وقوله سبحانه: ﴿فتكوى بها جباههم...﴾ الآية: قال ابنُ مَسْعود: واللَّه، لاَ يَمَسُّ دينارٌ ديناراً، بل يُمَدُّ الجلدُ حتى يكوَى بكلِّ دينار، وبكلِّ درهم[٢] قال الفخر[٣]: قال أبو بكر الوَرَّاقُ: وخُصَّتْ هذه المواضعُ بالذكر؛ لأن صاحِبَ المال، إِذا رأى الفقيرَ، قَبَضَ جبينه، وإِذا جلَس إِلى جَنْبه، تباعد عَنْه، وولاَّه ظَهْره. انتهى.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِن عدَّة الشهور عند اللَّه اثنا عشر شهراً في كتاب اللَّه﴾، هذه الآيةُ والتي بعدها تتضمَّن ما كانت العربُ عليه في جاهليَّتها من تحريم شُهُورِ الحلِّ، وتحليلِ شهورِ الحُرْمَةَ، وإِذا نصَّ ما كانت العرب تفعله، تبيَّن معنى الآيات، فالذي تظاهَرَتْ به الرواياتُ، ويتخلَّص من مجموع ما ذَكَره النَّاسُ: أن العرب كانَتْ لا عَيْشَ لأكْثَرها إِلا من الغارات وإِعمالِ سِلاَحِها، فكانوا إِذا توالَتْ عليهم حُرْمَةُ الأشهر الحُرُم، صَعُبَ عليهم، وأَمْلقوا[٤]/ وكان بنو فُقَيْم من كِنانة أهْلَ دينٍ في العرب، وتَمَسُّكٍ بشرعِ إِبراهيمَ عليه السلام، فٱنتدب منهم القلمس، وهو حُذَيْفَةُ بْنُ عَبْدِ فُقَيْم، فنَسِيَ الشهورَ للعربِ، ثم خَلَفَهُ عَلَى ذلك بنوه، وذكر الطبريُّ وغيره؛ أن الأمر كان في عدوانٍ قبل بني مالكِ بن كنانةَ، وكانتْ صورة فعلهم: أن العرب كانَتْ إِذا فرغَتْ من حَجِّها، جاء إِليه مَنْ شاء منهم مجتمعين، فقالوا: أَنْسَانَا شَهْراً، أيْ: أخِّرْ عنا حرمةَ المُحَرَّم، فٱجعلها في صَفَرٍ، فيحلُّ لهم المُحَرَّمَ، فيغيرون فيه، ثم يلتزمُونَ حُرْمَةَ صَفَرٍ؛ ليوافقوا عدَّة الأشهرِ الحُرُم الأربعة قال مجاهد: ويسمُّون ذلك الصَّفَرَ المُحرَّم، ثم يسمعون ربيعاً الأوَّل صفراً وربيعاً الآخِرَ ربيعاً الأوَّل، وهكذا في سائِرِ الشهورِ، وتجيء السنةُ مِنْ ثلاثةَ عَشَرَ شهراً أولها: المحرَّم ٢٢٣ب

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٥/ ٣٠٨) عن علي وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٥٨٢٣) وقال: وفيه محمد بن سعيد البورقي، كذاب يضع.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٣٦٣، ٣٦٤) برقم: (١٦٦٩٧ ـ ١٦٦٩٨) نحوه، وابن عطية (٣/ ٢٩)، والبغوي (٢/ ٢٨٩) نحوه، وابن كثير (٢/ ٣٥٢) نحوه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٣٩).

(٤) يعني: افتقروا، وضربهم الإملاق، وهو الافتقار. ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٤٢٦).

المُحَلَّل، ثم المحرَّم الذي هو في الحقيقة صَفَرٌ[١]، وفي هذا قال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إن عدة الشهور عند اللَّه اثنا عشر شهراً﴾، أيْ: ليستْ ثلاثةَ عَشَرَ، ثم كانَتْ حِجَّةُ أبي بَكْرٍ في ذي القَعْدة حقيقةً، وهم يسمُّونه ذَا الحِجَّة، ثم حَجَّ رسُولُ اللَّهِ ﷺ سَنَةَ عَشْرٍ في ذي الحِجَّة حقيقةً، فذلك قوله عليه السلام: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ ٱسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ؛ السَّنَةُ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ذُو القَعْدَةِ، وذُو الحِجَّة، والمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَان»[٢].

وقوله في ﴿كتاب اللَّه﴾، أيْ: فيما كتبه، وأثبته في اللَّوْحِ المحفوظ، أو غيرِهِ، فهي صفةُ فِعْلٍ مثل خَلْقِهِ وَرِزْقِهِ، وليستْ بمعنى قضاءه وتقديره؛ لأن تلكَ هي قَبْلَ خلْق السموات والأرض.

وقوله سبحانه: ﴿منها أربعة حُرُمٌ﴾: نصٌّ على تفضيلِ هذه الأربعة وتشريفها، قال قتادة: «اصطفى اللَّه مِنَ الملائكةِ والبَشَرِ رُسُلاً، ومِنَ الشهور المُحَرَّمَ ورمَضَانَ، ومِنَ البُقَعِ المساجِدِ، ومِنَ الأيام الجمعةَ، ومِنَ الليالِي ليلةَ القَدْرِ، ومِنَ الكلام ذِكْرُهُ، فينبغي أَنْ يعظَّم ما عَظَّمُ اللَّه»[٣].

وقوله سبحانه: ﴿ذلك الدين القيم﴾، قالتْ فرقة: معناه: الحسابُ المُسْتَقيم، وقال ابن عباس، فيما حكى المَهْدَوِيُّ: معناه: القضاءُ المستقيم.

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٣٨) في بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٧)، و (٧/ ٧١١) في «المغازي» باب: حجة الوداع (٤٤٠٦)، و (٨/ ١٧٥) في «التفسير» باب: ﴿إن عدة الشهور عند اللَّه اثنا عشر شهراً﴾ (٤٦٦٢)، و (١٠/ ١٠) في الأضاحي باب: من قال: الأضحى يوم النحر (٥٥٥٠)، و (١٣/ ٤٣٣) في التوحيد، باب: قول اللَّه تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، (٧٤٤٧)، ومسلم (٣/ ١٣٠٥)، في القسامة باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٢٩/ ١٦٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٩٩) في: المناسك، باب: الأشهر الحرم (١٩٤٨)، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن ابن أبي بكرة به.

وأخرجه أبو داود برقم: (١٩٤٧)، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي بكرة به، بدون ذكر ابن أبي بكرة، وقال أبو داود: وسماه ابن عون فقال: عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة، عن أبي بكرة في هذا الحديث.

ويشهد له حديث أبي هريرة عند البزار (١١٤٢) ـ «كشف الأستار»، عن شعث بن سوّار، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٧١) فيه أشعث بن سوار، وهو ضعيف، وقد وثق.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٣١).

قال * ع[١] *: والأصوب عندي أنْ يكون ﴿الدِّين﴾ ههنا عَلَى أشهر وجوهه، أي: ذلك الشَّرْعُ والطَّاعة.

وقوله: ﴿فلا تظلموا فيهن﴾، أي: في ٱلاثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً، أي: لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في الزمان كلِّه، وقال قتادة: المرادُ الأربعةُ الأشْهُرِ، وخُصِّصتْ تشريفاً لها.

قال سعيدُ بن المسيِّب: كان النبيُّ ﷺ يحرِّم القتَالَ في الأشْهُرِ الحُرُم؛ بما أنزل اللَّه في ذلك؛ حتَّى نزلَتْ «براءة».

وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين﴾، معناه: فيهنَّ فأحْرَى في غيرهن، وقوله: ﴿كَافَّة﴾، معناه: جميعاً.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنما النسيءُ﴾، يعني: فِعْلُ العرب في تأخيرهم الحُرْمَةَ، ﴿زيادةٌ في الكُفر﴾، أي: جارٍ مع كفرهم باللَّهِ، وخلافِهِمْ للحقِّ، فالكفر متكثِّر بهذا الفِعْلِ الذي هو باطلٌ في نفسهِ؛ وممَّا وُجِدَ في أشعارهم قَوْلُ جِذْلِ الطَّعَانِ: [الوافر]

وَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمِي ... كِرَامُ النَّاسِ إِنَّ لَهُمْ كِرَامَا
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا[٢]

وقوله سبحانه: ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾، معناه: عاماً من الأعوام، وليس يريد أنَّ تلك كانَتْ مداولةً.

وقوله سبحانه: ﴿ليواطئوا عدَّة ما حَرَّم اللَّه﴾، معناه: ليوافقُوا، والمواطَأَةُ: الموافَقَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم ٱنفروا في سبيل اللَّه ٱثَّاقلتم

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١).
(٢) الشعر لعمير بن قيس، ينظر: «أمالي القالي» (١/ ٤)، «التهذيب»، و«اللسان» (نسا)، و«الدر المصون» (٣/ ٤٦٣).

إلى الأرض﴾، هذه الآيةُ بلا خلافٍ أنها نزلَتْ عتاباً على تخلُّف من تخلَّف عن النبيِّ ﷺ
في غزوة تَبُوكَ، وكانَتْ سنةَ تسْعٍ من الهجرةِ بعد/ الفَتْح بعام، غزا فيها الرُّوم في عِشْرينَ ١٢٢٤أ
ألفاً بين راكبٍ وراجلٍ، والنَّفر: هو التنقُّل بسرعة من مكانٍ إلى مكانٍ، وقوله: «أثاقلتم»
أصله تَثَاقَلْتُمْ، وكذلك قرأ الأعمش[1] وهو نحو قوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف:
١٧٦] وقوله: ﴿أرضيتم﴾ تقريرٌ، والمعنى: أرضيتمْ نَزْرَ الدنيا، عَلى خطيرِ الآخرةِ، وحَظِّها
الأَسْعَد.

قَالَ ابنُ هِشام فـ «مِن» من قوله: ﴿مِنَ الآخِرَة﴾ للبدل. انتهى. ثم أخبر سبحانه، أنَّ الدنيا بالإِضافة إلى الآخرة قليلٌ نَزْرٌ، فتعطي قُوةُ الكلام التعجُّبَ مِنْ ضلالِ مَنْ يرضَى النزرَ الفانِيَ بَدَل الكثير الباقي.

* ت *: وفي «صحيح مُسْلم» و«الترمذيّ»، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «مَا الدُّنْيَا في الآخرة إلاَّ مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا تَرْجِعُ». قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. انتهى[2].

وقوله سبحانه: ﴿إلاَّ تنفروا يعذبكم﴾: شرطٌ وجوابٌ، ولفظُ «العذاب» عامٌّ يدخل تحته أنواعُ عذابِ الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾: تَوعُّدٌ بأن يبدل لرسوله عليه السلام قوماً لا يقعدون عند ٱستنفارِهِ إيَّاهم، والضميرُ في قوله: ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ عائدٌ على اللّه عز وجل، ويحتملُ أنْ يعود على النبيِّ ﷺ هو ألْيَقُ.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

(١) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٧)، و«الكشاف» (٢/ ٢٧١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤) و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣)، و«الدر المصون» (٣/ ٤٦٤)، و«التخريجات النحوية» (٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣) كتاب «الجنة» باب: فناء الدنيا، حديث (٥٥/ ٢٨٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٦) كتاب «الزهد» باب: هوان الدنيا، حديث (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦) كتاب «الزهد» باب: مثل الدنيا، حديث (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨، ٢٣٠)، وابن حبان (٤٣٣٠)، و الحاكم (٤/ ٣١٩) من طريق قيس بن أبي حازم، عن المستورد بن شداد به.

وقوله سبحانه: ﴿إلا تنصروه فقد نصره اللّه﴾ هذا أيضاً شرطٌ وجوابٌ، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نَصْره، فاللّه متكفِّل به؛ إذ قد نصره في موضع القلّة والانفراد وكثرةِ العدو، ولَنْ يترك نَصْرَهُ الآن.

وقوله: ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾، أسند الإخراج إليهم؛ تذنيباً لهم، ولما كان مَقْصِدُ أبي سفيان بن الحارثِ الفَخْرَ في قوله: من طردت كل مطرد، لم يقرّه النبيُّ ﷺ عَلَى ما عُلِمَ في كتب «السِّيرَة»، والإشارةُ إلى خروجِ النبيِّ ﷺ مِنْ مكَّة إلى المدينة، وفي صحبته أبو بَكْر، واْختصارُ القصَّة أنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ كان ينتظر إذْنَ اللّه سبحانه في الهِجْرة من مكَّة، وكان أبو بَكْر حينَ تَرَكَ ذمَّة ابنِ الدَّغِنَّةِ قد أراد الخروجَ، فقال له النبيُّ ﷺ: «اْصْبِرْ، لَعَلَّ اللّهَ أَنْ يُسَهِّلَ الصُّحْبَةَ» فَلَمَّا أَذِنَ اللّه لنبيِّه في الخروج، تجهَّز مِنْ دار أبي بَكْر، وخَرَجَا، فبقيا في الغار الذي في جَبَلِ ثَوْرٍ في غَرْبِيِّ مَكَّة ثلاثَ ليالٍ، وخرج المشركُونَ في إِثْرِهِمْ؛ حتى اْنتَهوْا إلى الغار، فَطَمَسَ اللّهُ عَلَيْهِم الأَثَرَ، وقال أبو بَكْرٍ للنبيِّ ﷺ: لَوْ نَظَر أَحَدُهُمْ إلى قدمه، لرآنا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِاْثْنَيْنِ اللّهُ ثَالِثُهُمَا»[1] هكذا في الحديث الصحيحِ، ويروَى أن العنكبوتَ نَسَجَتْ على باب الغار.

ويُرْوَى أن الحمامة عشَّشَتْ عند باب الغارِ، وكان يروحُ عليهما باللَّبَنِ عامرُ بْنُ فُهَيْرَةَ[2].

وقوله: ﴿ثاني اثنينِ﴾، معناه: أحد اثنين، وقوله: ﴿إن اللّه معنا﴾، يريد: بالنصر والنجاة واللُّطف.

وقوله سبحانه: ﴿وكلمة اللّه هي العليا﴾، قيل: يريد: لا إله إلا اللّه، وقيل: الشرْعَ بأسره.

---

(١) تقدم تخريجه في: سورة آل عمران.

(٢) عامر بن فُهَيرة التيميّ، مولى أبي بكر الصّديق، أحد السابقين، وكان ممن يعذّب في اللّه.
له ذكر في «الصّحيح»، حديثه في الهجرة عن عائشة قالت: خرج معهم عامر بن فُهيرة، وعنها: لما قدمنا المدينة اشتكى أصحابُ النبيّ ﷺ، منهم: أبو بكر، وبلال، وعامر بن فهيرة. . . الحديث.
وفيه: وكان عامر بن فُهيرة إذا أصابته الحمى يقول: [الرجز]

إِنِّي وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ اْمرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ كَالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ

وقال اْبنُ إِسْحَاقَ في «المغازي» عن عائشة: كان عامر بن فُهيرة مُوَلَّداً من الأزد، وكان للطفيل بن عبد اللّه بن سَخْبَرة، فاشتراه أبو بكر منه فأعتقه، وكان حسنَ الإسلام.
ينظر ترجمته في: «الإصابة» (٣/ ٤٨٢)، (٤٤٣٣).

وقوله سبحانه: ﴿انفروا خفافاً وثقالا﴾ معنى الخِفَّة والثِّقَلِ ههنا: مستعار لمن يمكنه السفَرُ بسهولة، ومن يمكنه بصُعُوبة، وأما من لا يمكنه، كالعُمْيِ ونحوهم، فخارجٌ عن هذا.

وقال أبو طلحة[١]: ما سمع اللَّه عذر أحد، وخرج إِلى الشامِ، فجاهد حتَّى ماتَ.

وقال أبو أيُّوب: ما أَجدني أبداً إِلا خفيفاً أو ثقيلا[٢].

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم خير لكم إِنْ كنتم تعلمون﴾: تنبيهٌ وهزٌّ للنفوس.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾، هذه الآية في المنافقين المتخلِّفين في غزوة تَبُوكَ، وكَشْفِ ضمائرهم، وأما الآيات التي قبلها،/ فعامَّة ٢٢٤ب
فيهم وفي غيرهم، والمعنى: لو كان هذا الغزو لِعَرَضٍ، أي: لمال وغنيمةٍ تنالُ قريباً؛ بسَفرٍ قاصدٍ يسيرٍ، لبادروا لا لوجه اللَّه، ﴿ولكنْ بَعُدَتْ عليهم الشقة﴾ وهي المسافةُ الطويلة.

وقوله: ﴿وسيحلفون باللَّه﴾، يريد: المنافقينَ، وهذا إِخبار بغَيْب.

وقوله عز وجل: ﴿عفا اللَّه عنك لم أذنْتَ لهم﴾، هذه الآيةُ هي في صِنفِ مُبَالِغٍ في النفاق، ٱستأذنوا دون ٱعتذارٍ، منهم: الجَدُّ بْنُ قَيْسٍ وَرِفَاعَةُ بْنُ التأبوت وَمنِ اتبعهم؛ قال مجاهدٌ: وذلك أَنَّ بعضهم قال: نَسْتأْذنه، فإِن أَذِنَ في القعودِ قعدنا[٣]، وَإِلاَّ قعدنا، وقَدَّم له العَفْوَ قبل العتاب: إِكراماً له ﷺ، وقالت فرقة: بل قوله سبحانه ﴿عَفا اللَّه عَنْكَ﴾: ٱستفتاحُ كلام كما تقولُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، وأَعَزَّكَ اللَّهُ، ولم يكنْ منه عليه السلام ذَنْبٌ يعفى عنه؛ لأن صورة ٱلاستنفار وقبُول الأَعْذَار مصروفةٌ إِلى ٱجتهاده.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣٧٦) برقم: (١٦٧٥١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧).
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٧).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٨١) برقم: (١٦٧٧٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٤١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾، يريد: في ٱستئذانك، وأنك لو لم تأذن لهم، خرجوا معك.

وقوله: ﴿وتعلم الكاذبين﴾، أي: بمخالفتكَ، لَوْ لم تأذن؛ لأنهم عَزَمُوا على العِصْيَان، أذنتَ لهم أو لم تأذن، وقال الطبريُّ: معناه: حتى تعلم الصَّادقين؛ في أنَّ لهم عُذراً، والكاذبين، في أن لا عُذرَ لهم، والأول أصْوبُ، واللّه أعلم، وأمّا قوله سبحانه: في سورة النور: ﴿فإذا ٱستأذنوك لِبَعْضِ شأنهم...﴾ [النور: ٦٢] الآية، ففي غزوة الخندقِ نزلَتْ: ﴿وٱرتابت قلوبهم﴾، أيْ: شكَّت و﴿يتردَّدون﴾، أي: يتحيَّرون؛ إذ كانوا تخطر لهم صِحَّة أمر النبيِّ ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيحِ أحياناً، فهم مذبذبُونَ.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أرادوا الخروجَ لأعدوا له عدةً﴾، أيْ: لو أرادوا الخروجَ بنيَّاتهم، لنظروا في ذلك وٱستعدُّوا له.

وقوله: ﴿ولكنْ كَرِه اللّه ٱنبعاثهم فثبَّطهم﴾.

* ص *: و﴿لكن﴾: أصلها أَن تقع بَيْنَ نقيضَين أو ضِدَّيْنِ، أَوْ خلافَيْن، على خلاف فيه. انتهى. و﴿ٱنبعاثهم﴾: نفوذَهُمْ لِهَذِهِ الغزوة، والتثبيطُ: التَّكْسِيلُ وكَسْر ٱلعَزمِ.

وقوله سبحانه: ﴿وقيل ٱقعدوا﴾، يحتمل أنْ يكون حكايةً عن اللّه، أي: قال اللّه في سابق قضائِهِ: ٱقْعُدُوا مع القاعدين، ويحتملُ أنْ يكون حكايةً عنهم، أي: كانَتْ هَذِهِ مقالَةَ بَعْضِهِمْ لبعضٍ، ويحتملُ أنْ يكون عبارةً عن إِذْنِ النبيِّ ﷺ لهم في القعود، أيْ: لما كره اللّه خروجهم، يَسَّر أنْ قلْتَ لهم: ٱقعدوا مع القاعدين، والقعودُ؛ هنا: عبارةٌ عن التخلُّفِ، وكراهيةُ اللّهِ ٱنبعاثَهُمْ: رِفْقٌ بالمؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿لو خرجوا فيكُمْ ما زادُوكم إلاّ خبالاً﴾ الخبالُ: الفسادُ في الأشياء المؤتَلِفة؛ كالمَوَدَّات، وبَعْضِ الأجرامِ، ﴿ولاَ اوْضَعُوا﴾ معناه: لأسرعوا السَّيْر،

و﴿خِلالَكُمْ﴾ معناه: فيما بينكم.

قال * ص *: ﴿خلالَكم﴾ جمع خَلَلٍ، وهو الفُرْجَة بين الشيئين، وانْتَصَبَ على الظَّرف بـ ﴿لاَ اوْضَعُوا﴾، و﴿يبغونكم﴾: حالٌ، أي: باغين. انتهى. والإِيضاع: سُرْعَةُ السير، ووقَعْتُ ﴿لاَ اوْضَعُوا﴾ بألف بَعْدَ «لا» في المصحف، وكذلك وقعتْ في قوله: ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يبغونكم الفِتْنَةَ﴾، أي: يطلبون لكم الفتْنَة، ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾، قال مجاهد وغيره: معناه: جواسيسُ يسمعون الأخبار، ويَنْقُلُونها إِليهم[1]، وقال الجمهور: معناه: وفيكم مُطِيعُونَ سامعون لهم.

وقوله سبحانه: ﴿لقد ٱبتغوا الفتنة من قبل﴾، في هذه الآية تحقيرٌ لشأنهم، ومعنَى قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: ما كان من حالهم في أُحُدٍ وغيرها، ومعنى قوله: ﴿وقلَّبوا لك الأمور﴾: دبَّروها ظهراً لبطْنٍ، وسعوا بكُلِّ حيلةٍ ﴿ومنهم مَنْ يقول ٱئذنْ لي ولا تفتنِّي﴾، نزلَتْ في الجَدِّ بْنِ قَيْسٍ، وأسند الطبريُّ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ/ قالَ: «ٱغْزُوا تَبُوكَ، تَغْنَمُوا ٢٢٥أ
بَنَاتِ الأَصْفَرِ» فقال الجَدُّ: ٱئْذَنْ لَنَا وَلاَ تَفْتِنَّا[2] بالنِّسَاءِ، وقال ابن عبَّاس: إِن الجَدَّ قال: ولكنِّي أُعِينُكَ بِمَالِي[3].

وقوله سبحانه: ﴿أَلا في الفتنة سقطوا﴾، أي: في الذي أظْهَرُوا الفِرَارَ منه.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِن تصبك حسنة...﴾ الآية: الحسنَةُ هنا بحسب الغَزْوَة: هي الغنيمةُ والظفرُ، والمصيبةُ: الهزيمة والخيبةُ، واللفظ عامٌّ بعد ذلك في كلِّ محبوب ومكروه، ومعنى قوله: ﴿قد أَخذنا أمرنا مِنْ قبل﴾، أَيْ: قد أخذنا بالحَزْمِ في تخلُّفنا

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣٨٤) برقم: (١٦٧٩٢ - ١٦٧٩٣) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤١)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٢٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٣)، وزاد نسبته إلى ابن أبي المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم في «المعرفة».

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٢).

وَنَظَرْنَا لأنفسنا، ثم أمر تعالَى نبيَّه، فقال: قل لهم يا محمَّد: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، وهو إِما ظفراً وسروراً عاجلاً، وإما أن نستشهد فَنَدْخُلَ الجنة، وباقي الآية بيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿قل هَلْ تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾، أي: قل للمنافقين، و﴿الْحُسْنَيَيْنِ﴾: الظَّفَرُ، والشَّهادة.

وقوله: ﴿أو بأيدينا﴾، يريد: القَتْلَ.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرْهاً﴾ الآية: سَبَبُها أَنَّ الجَدَّ بْنَ قَيْسٍ حين قال: ائْذَنْ لي ولا تفتنِّي، قال: إِني أعينك بمالي[1]، فنزلَتْ هذه الآية فيه، وهي عامَّة بعده.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاَّ أنهم كَفَرُوا بالله وبرسولِهِ﴾. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ ثَوابَ الكَافِرِ عَلَى أَفْعَالِهِ البَرَّةِ هُوَ فِي الطُّعْمَةِ يَطْعَمُهَا»[2] وَنَحْوَ ذلك، وهذا مَقْنَعٌ لا يحتاج معه إلى نَظَرٍ، وأما أَنْ ينتفع بها في الآخرة فلا، و﴿كُسَالَى﴾: جمع كَسْلاَنَ.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا...﴾ الآية: حقَّر في الآية شأْنَ المنافقين، وعلَّل إِعطاء الله لهم الأَمْوَالَ والأولاد؛ بإرادته تعذيبهم بها في الحياةِ الدنيا، وفي الآخرة.

قال ابنُ زَيْد وغيره: تعذيبُهم بها في الدُّنْيَا هو بمصائبها ورزايَاهَا، هِيَ لهم عذابٌ؛ إذ لا يُؤْجَرُونَ عليها، ومِنْ ذلك قَهْرُ الشَّرعِ لهم على أداء الزكاةِ والحقوقِ والواجبات.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم.

قال الفَخْرُ[١]: أمَّا كون كثرة الأموال والأولادِ سَبَباً للعذاب في الدنيَا، فحاصَلٌ من وجوه: مِنْهَا: أن كلَّما كان حُبُّ الإنسان للشيء أَشَدَّ وأقوَى، كان حزنُهُ وتألُّم قلبِهِ علَى فراقه أعظَمَ وأصعَبَ، ثم عند الموتِ يَعْظُمُ حزنه، وتشتدُّ حسرته، لمفارقته المحبوبَ، فالمشغوفُ بحبِّ المال والولدِ لا يزالُ في تَعَبٍ، فيحتاج في ٱكتسابِ الأموالِ وتحصيلها إلى تعبٍ شديدٍ ومشقَّة عظيمةٍ، ثم عند حصولِهَا يحتاجُ إلى متاعِبَ أشدَّ وأصعَبَ في حفظها وصونِها؛ لأن حفظ المَالِ بَعْد حصوله أصْعَبُ من ٱكتسابه، ثم إنه لا ينتفع، إلاَّ بالقليلِ مِنْ تلك الأموال، فالتعبُ كثيرٌ، والنفعُ قليلٌ، ثم قالَ: وٱعلم أنَّ الدنْيَا حلوةٌ خَضِرةٌ، والحواسُّ الخمسُ مائلةٌ إليها، فإذا كَثُرت وتوالَتْ ٱستغرقَتْ فيها، وٱنصرَفَ الإنسان بكلِّيته إليها، فيصير ذلك سبباً لحرمانه من ذكرِ اللَّهِ، ثم إنه يحْصُلُ في قلبه نَوْعُ قسوةٍ وقوةٍ وقهرٍ، وكلَّما كان المال والجاهُ أكثر، كَانَتْ تلك القسوةُ أقوَى، وإلى ذلك الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] فظهر أن كثرة الأموال والأولاد سَبَبٌ قويٌّ في زوال حُبِّ اللَّه تعالى وحبِّ الآخرة مِنَ القَلْبِ، وفي حصول الدنْيَا وشهواتِهَا في القَلْبِ، وعنْدَ الموت: كأنَّ الإنسان ينتقلُ من ٱلبسْتان إلى السِّجْن، ومِنْ مجالسة الأقرباءِ والأحبَّة إِلَى موضعِ الغُرْبَة والكُرْبَة، فيعظُمُ تألمُه، ويقوَى حزنه، ثم عند الحَشْر: حَلاَلُهَا حسابٌ، وحرامُها عِقَابٌ، فثبت أن كثرة الأمْوَالِ والأولادِ سَبَبٌ لحصولِ العَذَاب في الدُّنْيا والآخرة. انتهى.

ثم أخبر سبحانه؛ أنهم ليسوا مِنَ المؤمنين، / وإنما هم يَفزَعُونَ مِنهم، والفَرَقُ: الخوف. ٢٢٥ ب

وقوله سبحانه: ﴿لو يجدون ملجأ﴾: الملجأ مِنْ لَجَأَ يَلْجَأُ، إذا أَوَى وَٱعْتَصَمَ، وقرأ الجمهور: «أَوْ مَغَارَاتٍ» - بفتح الميم[٢] -، وهي الغيران في أعراض الجبالِ، ﴿أو مُدَّخَلاً﴾، معناه: السَّرَبُ والنَّفَقُ في الأرض، وهو تفسير ابن عبَّاس[٣] في هذه الألفاظ، وقرأ جمهور الناس: «يَجْمَحُونَ»: ومعناه يُسْرِعُون.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٧٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٦)، و«الدر المصون» (٣/ ٤٧٤).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٩٢) برقم: (١٦٨٢٣ ـ ١٦٨٢٤)، وابن عطية(٣/ ٤٦)، وذكره ابن كثير (٢/ ٣٦٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

قال الفَخْر[(١)]: قوله: ﴿وهم يجمحون﴾ أي: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شَيْء، ومِنْ هذا يقال: جَمَحَ الفَرَسُ، وفَرَسٌ جَمُوحٌ، وهو الذي إذا حَمَلَ، لم يردَّه اللجَامُ، انتهى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿ومنهم من يلمزك ...﴾ الآية: أَيْ: ومن المنافقين مَنْ يلمزك، أيْ: يعيبُكَ ويأخذ منك في الغَيْبة؛ ومنه قولُ الشاعر: [البسيط]

إِذَا لَقِيتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً وَإِنْ أَغِيبُ فَأَنْتَ الهَامِزُ اللُّمَزَهْ[(٢)]

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وقوله سبحانه: ﴿ولو أنَّهم رضُوا ما آتاهم اللَّه ورسوله ...﴾ الآية: المعنى: لو أن هؤلاء المنافقين رَضُوا قِسْمَةَ اللَّهِ الرزْقَ لهم، وما أعطاهم على يدِ رَسُولِهِ، وأقرُّوا بالرغْبَةِ إلى اللَّهِ، لكان خَيْراً لهم، وحُذِفَ الجوابُ، لدلالة ظاهر الكَلاَمِ عليه، وذلك مِنْ فصيحَ الكلامِ وإيجازه.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنما الصدقات للفقراء ...﴾ الآية: ﴿إنما﴾ في هذه الآيةِ حاصرةٌ تقتضي وقوفَ الصَدقاتِ على الثمانيةِ الأصناف، وإنما أُخْتُلِفَ في صُورَةِ القِسْمَةِ، ومَذْهَب مالكٍ وغيره؛ أَنَّ ذَلِكَ عَلى قَدْرِ ٱلاجتهاد، وبحسب الحاجة، وأما الفقيرُ والمِسْكين، فقال ابن عبَّاس والحسن ومجاهدٌ والزُّهريُّ وابن زَيْد وغيرهم: المَسَاكِينُ: الذين يَسْعَوْنَ وَيَسْأَلُونَ، والفقراء: الذين يتصَاوَنُون[(٣)]، وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في هذا، وتحريره أن الفقيرَ هو الذي لا مَالَ له إلا أنه لم يذلَّ نفسه، ولا يذلُّ وجهه؛ وذلك إما لتعفُّفٍ مُفْرِطٍ،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٧٧).

(٢) البيت لزياد الأعجمي، ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٩٥)، «البحر المحيط» (٨/ ٥٠٩)، و«القرطبي» (٢٠/ ١٢٤)، و«الدر المصون» (٦/ ٥٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٣٩٥) برقم: (١٦٨٣٤ ـ ١٦٨٣٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٨)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٠٢)، والسيوطي (٣/ ٤٤٩)، عن ابن عباس نحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر والنحاس (٣/ ٤٥٠) عن الزهري بنحوه، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة.

وإما لِبُلغَةٍ تكون له، كالحَلْوبة وما أشبهها، والمسكينُ هو الذي يقترن بفقره تذلُّل وخضوعٌ وسؤالٌ، فهذه هي المَسْكَنَة؛ ويقوِّي هذا أن اللَّه سبحانه قد وَصَف بني إسرائيل بالمَسْكَنة، وقَرَنها بالذِّلَّة مع غناهم، وإذا تأمَّلت ما قلناه، بَانَ أنهما صِنْفان موجُودَان في المسلمين.

* ت *: وقد أكْثر الناس في الفَرْق بين الفَقِير والمِسْكِين، وأوْلَى ما يعوَّل عليه ما ثَبَتَ في ذلك عن النبيِّ ﷺ، وقد رَوَى مالكٌ، عن أبي الزِّنَادِ[1] عن الأعرج[2] عن أبي هريرة؛ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، إنَّمَا المِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ»[3]، انتهى. وأوَّل أبو عمر في «التمهيد» هذا الحديثَ، فقال: كأنه أراد ـ واللَّه أعلم ـ ليس المسكينُ على تمامِ المَسْكَنة، وعلى الحقيقة، إلا الذي لا يَسْأَلُ النَّاس. انتهى.

---

(١) عبد اللَّه بن ذَكْوَان الأُموي، مولاهم، أبو الزِّنَاد المدني، يكنى: أبا عبد الرحمٰن، كان أحد الأئمة، عن أنس، وابن عُمَر، وعُمَر بن أبي سلمة مرسلاً. قال البخاري: أصح الأسانيد أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة. قال الواقدي: مات فجأة سنة ثلاثين ومائة. قال الحافظ شمس الدين الذهبي: ولي بعض أمور بني أمية فتُكلم فيه لأجل ذلك، وهو ثقة حجة لا يعلق به جرح.
ينظر: «**الخلاصة**» (٢/ ٥٣)، «**تهذيب الكمال**» (٢/ ٦٧٩)، «**تهذيب التهذيب**» (٥/ ٢٠٣) و«**تقريب التهذيب**» (١/ ٤١٣)، «**الكاشف**» (٢/ ٨٤)، «**الثقات**» (٧/ ٦).

(٢) عبد الرحمٰن بن هُرْمُز الهاشمي، مولاهم، أبو داود المدني الأعرج، القارىء عن أبي هريرة، ومعاوية، وأبي سعيد، وعنه الزهري، وأبو الزُّبَيْر، وأبو الزِّنَاد، وخلق، وثقه جماعة.
قال أبو عُبَيْد: توفي سنة سبع عشرة ومائة بالإسكندرية. ينظر ترجمته في: «**الخلاصة**» (٢/ ٥٣ ـ ٥٤) (٣٤٨٠).

(٣) ورد ذلك من حديث أبي هريرة، وابن مسعود: فأما حديث أبي هريرة، فأخرجه البخاري (٣/ ٣٩٨) في «الزكاة» باب: قول اللَّه تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ (١٤٧٦، ١٤٧٩)، و (٨/ ٥٠) في «التفسير»؛ باب: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم (٢/ ٧١٩ ـ ٧٢٠) في «الزكاة»، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له، فيتصدق عليه (١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣٩)، وأبو داود (١/ ٥١٣) في «الزكاة» باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣١ ـ ١٦٣٢)، والنسائي (٥/ ٨٦) في «الزكاة» باب: تفسير المسكين، ومالك (٩٢٣١٢) في صفة النبي ﷺ باب: ما جاء في المساكين (٧)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٣١٦، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٥٧، ٤٦٩)، والدارمي (١/ ٣٧٩) في «الزكاة»، باب: المسكين الذي يتصدق عليه، وأبو يعلى (٦٣٣٧)، والحميدي (١٠٥٩)، والبيهقي (٧/ ١١) من طرق عنه.
وأما حديث ابن مسعود، فأخرجه أحمد (١/ ٣٨٤، ٤٤٦)، وأبو نعيم في «**الحلية**» (٧/ ١٠٨)، وأبو يعلى (٥١١٨) عن إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود مرفوعاً به.
قال الهيثمي (٣/ ٩٥): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

وأَمَّا العاملون: فهم جُبَاتها يستنيبهم الإِمامُ في السعْي على الناس، وجَمْعِ صَدَقَاتهم، قال الجُمْهور: لَهُمْ قَدْر تعبهم ومؤنتهم، وأما ﴿المؤلَّفة قلوبُهم﴾، فكانوا مُسْلِمين وكافرين مستَتِرينَ مُظْهرين للإِسلام؛ حتى وثَّقه ٱلاستئلافُ في أكثرهم، وٱستئلافهم إنما كان لِتُجْلَبَ إلى الإِسلام مَنْفَعة، أو تُدْفَعَ عنه مَضَرَّة، والصحيحُ بَقَاءُ حكمهم؛ إن ٱحتيجَ إليهم، وأما ﴿الرقاب﴾، فمذْهَبُ مالك وغيره هو ٱبتداءُ عِتْقِ مؤمِنٍ، وأما الغَارِمُ: فهو الرجُلُ يرْكَبه دَيْن في غير مَعْصِيَة ولا سَفَه، كذا قال العلماء، وأما ﴿في سبيلِ اللَّهِ﴾، فهو الغازِي، وإن كانَ مَلِيًّا ببَلَده، وأمَّا ﴿ابْنُ السَّبِيل﴾، فهو المسافِرُ، وإن كان غنيًّا ببلده، وسمي المُسَافِر ابْنَ السبيلِ لملازمته السبيلِ.

٢٢٦أ ومَنِ ٱدَّعَى الفقْر صُدِّق إلاَّ لريبة؛ فيكلَّف حينئذٍ / البيِّنة، وأمَّا إن ٱدعَى أنه غارمٌ أو ٱبْنُ السبيل أو غازٍ، ونحو ذلك مما لا يُعْلَم إلا منه، فلا يعطَى إلا ببينة، وأهلُ بلد الصَّدقة أَحقُّ بها إلا أن تَفْضُل فضلةٌ، فتنقل إلى غيرهم.

قال ابنُ حَبِيب: وينبغي للإمام أن يأمر السُّعَاة بتَفْرِيقها في المواضِعِ التي جُبِيَتْ فيها، ولا يحمل منها شيْءٌ إلى الإِمام، وفي الحديثِ: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»(١).

وقوله سبحانه: ﴿فريضةً من اللَّه﴾: أي: موجبةً محدودةً.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٦١) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٥)، ومسلم (١/ ٥٠) كتاب «الإيمان» باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (٢٩/ ١٩)، وأبو داود (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣) كتاب «الزكاة» باب: في زكاة السائمة، حديث (١٥٨٤)، والترمذي (٢/ ٦٩) كتاب «الزكاة» باب: ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة، حديث (٦٢١)، والنسائي (٢/ ٥) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، وابن ماجه (١/ ٥٦٨)، كتاب «الزكاة» باب: فرض الزكاة، حديث (١٨٧٣)، وأحمد (١/ ٢٣٣)، من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وقول سبحانه: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبيَّ ويقولون هو أذن قُلْ أذن خَيْرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾: أي: ومن المنافقين، و﴿يؤذون﴾: لفظٌ يعمُّ أنواع إِذَاءتهم له ﷺ، وخص بعد ذلك مِنْ قولهم: ﴿هو أذن﴾، وروي أن قائل هذه المقالة نَبْتَلُ بْنُ الحارثِ، وكان من مَرَدَةِ المنافقين، وفيه قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الحَارِثِ»(١)، وكان ثائر الرأس، منتفشَ الشَّعْر، أحمر العينَيْن، أسْفَع الخدَّيْن، مشوَّهاً.

قال الحسن البصريُّ ومجاهد: قولهم: ﴿هو أذن﴾: أي: يسمع معاذيرنا ويقبلها(٢)، أي: فنحن لا نُبَالِي من الوقوع فيه، وهذا تنقُّص بقلَّة الحزم، وقال ابن عبَّاس وغيره: إِنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: أي: يسمع كلَّ ما ينقَلُ إِليهِ عنا، ويصغي إِليه(٣) ويقبله، فهذا تَشَكٍّ منه عليه السلام، ومعنى ﴿أُذُن﴾: سماع، وهذا من باب تسمية الشيْء بالشيء، إِذا كان منهُ بسبب؛ كما يقال للرؤية: عيْن؛ وكما يقال للمسنَّة من الإِبل التي قد بَزَلَ نابها: نَاب.

وقيل: معنى الكلام: ذو أُذُنٍ، أَي: ذو سماع، وقيل: إِنه مشتقٌّ من قولهم: أَذِنَ إِلَى شَيْءٍ؛ إِذا ٱسْتَمَعَ؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

وقرأ نافع: «أذن» - بسكون الذال فيهما -، وقرأ الباقون(٤) بضمِّها فيهما، وكلُّهم قرأ بالإِضافة إِلى «خير» إِلا ما رُوِيَ عن عاصمٍ، وقرأ الحسن(٥) وغيره: «قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ» - بتنوين

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/١١٦) بسنده عن ابن إسحاق، فذكره بلاغاً. وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٣/٢٥٣)، عن ابن عباس موصولاً.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/٤٠٦) برقم: (١٦٩١٧ - ١٦٩١٨ - ١٦٩١٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/٥٢)، وابن كثير (٢/٣٦٦) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٤٥٤)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة.

(٣) أخرجه الطبري (٦/٤٠٥ - ٤٠٦) برقم: (١٦٩١٦)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢)، وابن كثير (٢/٣٦٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٤٥٤)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) وكأن نافعاً استثقل ثلاث ضمات فسكَّن.
ينظر: «السبعة» (٣١٥)، «الحجة للقراء السبعة» (٤/١٩٨، ٢٠٣)، «حجة القراءات» ص: (٣١٩)، «إعراب القراءات» (١/٢٥٠)، «إتحاف» (٢/٩٤)، و«العنوان» (١٠٢)، و«شرح شعلة» (٤١٢).

(٥) وقرأ بها عاصم في رواية الأعشى عن أبي بكر عنه. والمعنى حينئذٍ: «قل يا محمد فمن يستمع منكم ويكون قريباً منكم قابلاً للعذر خير لكم». =

«أُذن»، ورفع «خير» ـ، وهذا جار على تأويله المتقدِّم، والمعنى: من يقبل معاذيركم خيرٌ لكم، ورُوِيَتْ هذه القراءة عن عاصم، ومعنى «أذن خيرٍ» على الإضافة: أي سَمَاعُ خيرٍ وحقٍّ، و﴿يؤمن بالله﴾: معناه: يصدِّق بالله، ﴿ويُؤمن للمؤمنين﴾: قيل: معناه: ويصدِّق المؤمنين، واللام زائدة، وقيل: يقال: آمَنْتُ لك، بمعنى: صدَّقتك؛ ومنه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: ١٧].

قال * ع[1] *: وعندي أن هذه التي معها اللامُ في ضِمْنها بَاءٌ، فالمعنَى: ويصدِّق للمؤمنين بما يخبرونه به، وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ بِمَا نَقُوله.

* ت *: ولما كانَتْ أخبار المنافقين تصلُ إلى النبيِّ ﷺ تارةً بإخبار الله له، وتارةً بإخبار المؤمنين، وهم عدولٌ، ناسب اتِّصَالُ قوله سبحانه: ﴿يؤمِنُ باللهِ ويؤمِنُ للمؤمنين﴾؛ بما قبله، ويكون التصديقُ هنا خاصًّا بهذه القضيَّة، وإن كان ظاهر اللفظِ عامًّا؛ إذ من المعلوم أنه ﷺ لم يَزَلْ مصدِّقاً بالله، وقرأ جميع السبعة إلاَّ حمزة و«رَحْمَةٌ» ـ بالرفع ـ؛ عطفاً على «أُذُن»، وقرأ حمزة وحده: و«رَحْمَةٍ» ـ بالخفض ـ؛ عطفاً على «خَيْرٍ»، وخصَّص الرحمة للذين آمنوا؛ إذ هم الذين فازوا ونَجَوا بالرسول عليه السلام، ﴿يحلفون بالله لكم﴾: يعني: المنافقين.

وقوله: ﴿والله ورسوله أحقُّ أَن يُرْضُوه﴾: التقدير عند سيبَوَيْهِ: والله أحقُّ أن يرضوه، ورسوله أحَقُّ أن يرضُوه، فحذف الخَبَر من الجملة الأولَى، لدلالة الثانية عليه.

وقيل: الضمير في «يرضوه» عائدٌ على المذكور؛ كما قال رُؤْبَةُ: [الرجز]

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ[2]

أي: كَأَنَّ المذكور.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ

= ينظر: مصادر القراءة السابقة، و«معاني القراءات» (١/ ٤٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٦٤)، وزاد نسبتها إلى مجاهد، وزيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (٣/ ٤٧٧).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣).

(٢) ينظر: «ديوانه» ص: (١٠٤)؛ و«أساس البلاغة» ص: (٥٠٩) (ولع)؛ و«الأشباه والنظائر» (٥/ ٦٣)، و«تخليص الشواهد» ص: (٥٣)؛ و«خزانة الأدب» (١/ ٨٨)، و«شرح شواهد المغني» (٢/ ٧٦٤)، و«لسان العرب» (٨/ ٤١١) (ولع)، (١٠/ ٢٩) (بهق)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٤)، و«مغني اللبيب» (٢/ ٦٧٨) وبلا نسبة في «شرح شواهد المغني» (٢/ ٩٥٥).

ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادِدِ اللَّه ورسوله ...﴾ الآية: ﴿يُحَادِدِ﴾: معناه: يخالفُ ويشاقُّ.

وقوله سبحانه: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾: ﴿يحذر﴾: خبرٌ عن حال قلوبهم.

وقال الزَّجَّاج[1] وغيره: «يحذر»: الأمْرُ، وإن كان لفظه لفْظَ الخبر؛ كأنه قال: «لِيَحْذَرْ».

وقوله سبحانه: ﴿قل ٱستهزءوا﴾: لفظه لفظُ الأمر، /ومعناه التهديدُ، ثم أخبر ٢٢٦ ب
سبحانه؛ أنَّه مخرجٌ لهم ما يحذَرُونه إلى حِينِ الوجودُ، وقد فعل ذلك تَبَارَكَ وتعالى في «سورة بَرَاءَةَ»، فهي تُسمَّى «الفَاضِحَةَ»؛ لأنها فَضَحَتِ المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ...﴾ الآية: نَزَلَتْ على ما ذكر جماعةٌ من المفسِّرين في وديعةَ بْنِ ثابِتٍ؛ وذلك أنه مع قَوْمٍ من المنافقين كانوا يَسِيرُونَ في غزوة تَبُوكَ، فقال بعضهم: هذا يريدُ أن يَفْتَحَ قُصُور الشام، ويأخذ حصون بني الأصْفَرِ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! فوقفهم رسُولُ اللَّه ﷺ على ذلك، وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نَخُوضُ وَنَلْعب، وذكر الطبريُّ[2] عن عبد اللَّه بن عمر؛ أنه قَالَ: رَأَيْتُ قائل هذه المقالة «وديعةَ» متعلِّقاً بحقب نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يماشيها، والحجارةُ تَنْكُبُه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، والنبيُّ ﷺ يقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، ثم حكم سبحانه عَلَيْهم بالكُفْر، فقال لهم: ﴿لاَ تَعْتَذروا قد كفرتم﴾[3] الآية.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٢/ ٤٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٤٠٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٠٩) برقم: (١٦٩٢٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٥٥)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وقوله سبحانه: ﴿إن نَعْفُ عن طائفة منكم﴾، يريد؛ فيما ذكره المفسِّرون، رجلاً واحداً، قيل: اسمه مَخْشِيُّ بْنُ حِمْيَر، قاله ابنُ إسحاق، وذكر جميعهم أنَّه ٱستشهد باليَمَامَةِ، وقد كان تَابَ، وتسمَّى عبد الرحمٰن، فدعا اللَّه أنْ يَسْتَشْهِدَ، ويُجْهَلَ أمره، فكان كذلك، ولم يوجَدْ جَسَده، وكان مَخْشِيٌّ مع المنافقين الذين قالوا: إنما كنا نخوضُ ونَلْعَبُ، فقيل: كان منافقاً، ثم تاب توبةً صحيحةً، وقيل: كان مسلماً مُخْلِصاً إلا أنه سمع المنافقينَ، فَضَحِكَ لهم، ولم يُنْكِرْ عليهم، فعفا اللَّه عنه في كلا الوجْهَيْن، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الَّذين قالوا ما تقدَّم.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾: يريد: في الحُكْم والمَنْزلة في الكُفر، ولمَّا تقدَّم قبلُ: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] حَسُن هذه الإخبار، و﴿يقبضون أيديهم﴾: أي: عن الصدقة، وفعْلِ الخير، ﴿نسوا اللَّه﴾: أَيْ: تركوه؛ حِينَ تَركُوا اتِّبَاعَ نَبيِّه وشرْعِهِ، ﴿فنسيهم﴾: أي: فتركَهم حين لم يَهْدِهِمْ، والكُفَّار؛ في الآية: المُعْلِنُونَ، وقوله: ﴿هي حسبهم﴾: أي: كافيتهم.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كالذين مِنْ قبلكم﴾: أي: أنتم، أيها المنافقُونَ، كالذين مِنْ قبلكم كانوا أشدَّ منكم قوةً، فَعَصَوْا؛ فأهلكوا؛ فأنتم أولَى بالإهلاك لمعصيتكم وضَعْفِكم، والخَلاَقُ: الحَظُّ من القَدْرِ والدينِ وجميع حال المَرْءِ، فخلاقُ المَرْء: الشيء الذي هُوَ به خليقٌ، والمعنى: عَجَّلوا حظَّهم في دنياهم، وتركُوا الآخِرَة، فاتبعتموه أنتُمْ، ﴿أولئك

حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾: المعنى: وأنتم أيضاً كذلك، ويحتمل أنْ يريد بـ ﴿أولئك﴾: المنافقين.

وقوله سبحانه: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . . .﴾ الآية: المعنى ألم يأتِ هؤلاءِ المنافقين خَبَرُ الأمم السالفة التي عَصَتِ اللَّه؛ بتكْذيب رسله، فأهلكها، و﴿قوم إبراهيم﴾: نُمْرُود وأصحابه وأَتْبَاعَ دَوْلَته، ﴿وأصحابُ مَدْيَنَ﴾ قومُ شُعَيْب، ﴿والمُؤْتفكاتُ﴾: أهلُ القرى الأربعةِ أو السَّبْعة التي بعث إليهم لوطٌ عليه السلام، ومعنى ﴿المؤتفكات﴾: المنصرفَاتُ والمنقَلِبَاتُ أُفِكَتْ فَأْتَفَكَتْ لأنها جعل عاليها سافلها، ولفظ البخاريِّ: ﴿المؤتفكات﴾: ائتفكت: أنقلَبَتْ بهم الأرضُ. انتهى.

والضمير في ﴿أتتهم رسلُهم﴾: عائدٌ على هذه الأمم المذكورة، ثم عقَّب سبحانه بذكْر المؤمنين، وما مَنَّ به علَيهِمْ مِنْ حُسْن الأعمال؛ ترغيباً وتنشيطاً؛ لمبادرة ما به أَمَرَ؛ لطفاً منه بعباده سبحانه، لا ربَّ غيْرُهُ، ولا خَيْر إلا خيره.

وقوله سبحانه: ﴿ويقيمون الصَّلاة﴾: قال ابن عباس: هي الصلوات الخمس[١].

قال * ع[٢] *: وبحسب هذا تكون الزَّكَاةُ هي المفروضةُ، والمَدْحُ عندي بالنوافل أبلغُ؛ إذ من يقيم النوافِلَ أحْرَى بإقامة / الفَرْض، والسين في قوله: ﴿سيرحمهم﴾: مُدْخِلَةٌ ٢٢٧أ
في الوَعْدِ مُهْلَةً؛ لتكون النفوسُ تنعم برجائه سبحانه، وفَضْلُه سبحانه زعيمٌ بالإنجاز، وذكَر الطبريُّ[٣] في قوله تعالى: ﴿ومساكنَ طَيِّبَةً﴾، عن الحسن أنَّه سأل عنها عِمْرَانَ بنَ حُصَيْن وأبا هريرة، فقالا: على الخَبِيرِ سَقَطْتَ! سَأَلْنَا عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «قَصْرٌ فِي الجَنَّةِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ، فِيهِ سَبْعُونَ داراً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء، في كُلِّ دارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زُمُرُّدةٍ خَضْرَاءَ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيراً»[٤] ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ، ويقرب منها، فاْختصرتها طَلَبَ الإيجاز.

* ت *: وتمام الحديث من «**الإحياءِ**»، وكتاب الآجُرِّيِّ المعروف بـ «**كتاب النصيحة**»، عن الحسنَ عن عمرانَ بن حُصَيْن وأبي هريرة، قالا: «على كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشاً مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، وفِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدة،

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤١٥) برقم: (١٩٦٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٨).
(٢) ينظر «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٥٨).
(٣) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ٤١٦).
(٤) ذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٤٦١)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى المُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ مِنَ القُوَّةِ مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ»[١]، وأما قوله سبحانه: ﴿ورضوَانٌ من اللَّه أَكْبَرُ﴾، ففي الحديث الصحيح؛ أَنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يَقُولُ لِعِبَادِهِ إِذَا ٱسْتَقَرُّوا فِي الجَنَّةِ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟! فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لاَ نَرْضَى، يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي سَأُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، رِضْوَانِي، أَرْضَى عَنْكُمْ؛ فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبدا . . .»[٢] الحديث، وقوله: ﴿أَكْبَر﴾: يريد: أَكْبَرُ من جميعِ ما تقدَّم، ومعنى الآيةِ والحديث مُتَّفِقٌ، وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إِلى قلوبهم برضْوَانِ اللَّهِ مِن اللَّذَّة والسُّرور ما هو أَلَذُّ عندهم وأقرُّ لأَعينهم من كل شيء أصابُوه من لَذَّة الجَنَّة، قال الإِمام[٣] الفَخْر: وإِنما كان الرضوان أَكْبَرَ؛ لأَنه عند العارفين نَعِيمٌ رُوحَانِيٌّ، وهو أشرفُ من النعيم الجِسْمَانيِّ. انتهى. ٱنْظُرْهُ في أوائل «آل عمران».

قال * ع[٤] *: ويظهر أن يكون قوله تعالى: ﴿ورضوانٌ من اللَّه أكبر﴾ إشارةً إِلى منازل المقرَّبين الشاربين مِنْ تسنيم، والذين يُرَوْنَ كما يُرَى النَّجْمُ الغَابِرُ في الأُفُق، وجميعُ من في الجنة رَاضٍ، والمنازل مختلفةٌ، وفضْلُ اللَّه مُتَّسِع، و﴿الفوزُ﴾: النجاةُ والخَلاَصُ، ومن أُدْخِلَ الجنة فقد فاز، والمقرَّبونَ هم في الفوز العظيم، والعبارةُ عندي بـ «سرور وكمالٍ» أجوَدُ من العبارة عنها بـ «لذة»، واللَّذَّة أيضاً مستعملة في هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيها النبيُّ جاهد الكفار﴾: أي: بالسيف و﴿المنافقين﴾، أي: باللسان والتعنيفِ وٱلاكْفِهْرَارِ في الوجْه، وبإقامة الحدود عليهم.

قال الحَسَن: وأكثر ما كَانَتِ الحدودُ يومئذٍ تصيبُ المنافقين، ومذْهَبُ الطبريِّ؛ أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ كان يعرفهم ويسترهم، وأما قوله: ﴿واغلظ عليهم﴾، فلفظةٌ عامَّة في الأفعال والأقوال، ومعنى الغِلَظِ: خَشَنُ الجانب، فهو ضدُّ قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/١٠٦).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٥٩).

لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا . . .﴾ الآية، نزلَتْ في الجُلاَسِ بْنِ سُوَيْدٍ، وقوله: لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُ محمَّد حقًّا، لَنَحْنُ شر مِنَ الحُمُر، فسمعها منه رَبِيبُهُ أو رَجُلٌ آخر، فأخبر النبيَّ ﷺ، فجاء الجُلاسُ، فَحَلَفَ بِاللَّه؛ مَا قالَ هذه الكلمة، فنزلَتِ الآية، فكلمة الكُفْر: هي مقالته هذه؛ لأن مضمنها قَوِيٌّ في التكذيب، قال مجاهد: وقوله: ﴿وهموا بما لم ينالُوا﴾: يعني: أنَّ الجُلاَس قد كان هَمَّ بقَتْل صاحبه الذي أخبر النبيَّ ﷺ، وقال قتادة: نزلَتْ في عبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبيِّ ٱبْنِ سَلُولَ، وقوله في غزوة المُرَيْسِيع: مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُهُمْ إلاَّ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، و﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فبلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فوقفه، فَحَلفَ أنَّه لم يقُلْ ذلك، فنزلَتِ الآية مكذِّبة له.

* ت *: وزاد ابن العربيِّ في «**أحكامه**»[1] قولاً ثالثاً؛ أنَّ الآية نزلَتْ في جماعة المنافقين؛ قاله الحسن، وهو الصحيحُ؛ /لعموم القول ووجود المعنَى فيه، وفيهم، انتهى. ٢٢٧ ب

وحدَّث أبو بَكْرِ بْنُ الخَطِيبِ بسنده، قال: سُئِلَ سفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عن الهَمّ: أيؤاخَذُ به صاحِبُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إذَا كَانَ عَزْماً؛ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قوله تعالى: ﴿وهموا بما لم ينالوا . . .﴾ الآية، إلى قوله: ﴿فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم﴾، فجعل عليهم فيه التَّوْبَةِ، قال سفيانُ: الهَمُّ يسوِّد القلْبَ انتهى.

قال * ع[2] *: وعلى تأويل قتادة، فالإشارة بـ ﴿كلمة الكفر﴾ إلى تمثيل ابنِ أُبيٍّ «سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ»[3].

قال قتادة: والإشارة بـ ﴿هَمُّوا﴾ إلى قوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلى المَدِينةِ﴾[4] [المنافقون: ٨].

وقال الحَسَنُ: هُمَّ المنافِقُونَ من إظهار الشرك ومكابرة النبيِّ ﷺ بما لم ينالوا[5]، وقال تعالَى: ﴿بَعْدَ إِسْلاَمِهِم﴾، ولم يقل: «بعد إيمانهم»؛ لأن ذلك لم يتجاوزْ ألسنتهم.

وقوله سبحانه: ﴿وما نقموا إلا أنْ أغناهم اللَّه . . .﴾ الآية: كأَنَّ الكلامَ، وما نقموا إِلا ما حقُّه أنْ يُشكَرَ، وذُكِرَ رسولُ اللَّه في إِغنائهم منْ حَيْثُ كَثُرَتْ أموالهم من الغنائِمِ،

---

(١) ينظر: «**الأحكام**» (٢/ ٩٧٩).

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٦٠).

(٣) (٤) أخرجه الطبري (٦/ ٤٢٢) برقم؛ (١٦٩٨٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٦٠)، وابن كثير (٢/ ٣٧١).

(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٦٠).

ورسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبَبٌ في ذلك، وعلى هذا الحَدِّ قال عليه السلام للأنصارِ في غَزْوَةِ حُنَيْنٍ: «كُنْتُمْ عَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ»، قال العراقيُّ: ﴿نقموا﴾: أي: أَنْكَرُوا.

وقال * ص *: ﴿إلا أَنْ أغناهم اللَّه﴾: إِنْ وصلَتَها: مفعولُ ﴿نَقَمُوا﴾: أي: ما كرهوا إلا إِغْناء اللَّه إياهم، وقيل: هو مفعولٌ من أجله، والمفعولُ به محذوفٌ، أي: ما كرهوا الإِيمانَ إِلاَّ للإِغناء. انتهى.

ثم فتح لهم سبحانَهُ بابَ التَّوْبةِ؛ رفقاً بهم ولطفاً، فروي أن الجُلاَسَ تَابَ من النفاقِ، وقال: إن اللَّه قَدْ تَرَكَ لي بَابَ التَّوْبَة، فَاْعتَرَفَ وأَخْلَصَ، وحَسُنت توبته(١).

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومنهم مَنْ عاهد اللَّه لئِنْ آتانا مِنْ فضله لنصَّدَّقنَّ . . .﴾ الآية: هذه الآية نزلَتْ في ثَعْلَبَةَ بْنِ حاطب الأنصاريِّ(٢)، قال الحسن: وفي مُعَتِّبِ بن قُشَيرٍ معه،

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٢٤) برقم: (١٦٩٩٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٦١)، والبغوي (٢/ ٣١١).
(٢) جاءت في «الإصابة» ترجمة ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب الأنصاري بعد ترجمة ثعلبة بن حاطب بن عمرو وقال في ثعلبة بن حاطب أو ابن حاطب الأنصاري: ذكره ٱبْنُ إِسْحَاقَ فيمن بنى مسجد الضرار، وروى البَاوَرْدي وابن السكن وابن شاهين وغيرهم في ترجمة الذي قبله من طريق مُعان بن رفاعة، عن عليّ بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ـ أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال: يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يرزقني مالاً، فقال النبيّ ﷺ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خير مِنْ كَثِيرٍ لاَ تطِيقُهُ . .». فذكر الحديث بطوله في دعاء النبي ﷺ له وكثرة ماله ومنعه الصدَقة ونزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ أَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ . . .﴾.
وفيه أن النبي ﷺ مات ولم يقبض منه الصدقة، ولا أبو بكر، ولا عمر، وأنه مات في خلافة عثمان.
قال ابن حجر: وفي كون صاحب هذه القصة ـ إن صحّ الخبر ولا أظنه يصحّ ـ وهو البَدْري المذكور قبله ـ نَظَر، وقد تأكدت المغايَرَةُ بينهما، يقول ابن الكلبي: إن البَدْريّ استُشهد بأُحد، ويقويّ ذلك أيضاً أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عبَّاس في الآية المذكورة. قال: وذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال: ﴿لَئِنْ أَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٥] الآية فذكر القصّة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبدريّ اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب؛ وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْراً وَالحُدَيْبِيَةَ».
وحكى عن ربّه أنه قال لأهل بدر: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فمن يكون بهذه المثابة كيف يُعْقبه اللَّه نفاقاً في قلبه، وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه غيره، واللَّه أعلم.

وٱختصارُ ما ذكره الطبريُّ(١) وغيره مِنْ أمره: أنه جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ٱدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مَالاً، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ ذَا مَالٍ، لَقَضَيْتُ حُقُوقَهُ، وَفَعَلْتُ فِيهِ الخَيْرَ، فَرَادَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ» فَعَاوَدَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَوْ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَيِّرَ الجِبَالَ مَعِي ذَهَباً، لَسَارَتْ» فَأَعَادَ عَلَيْهِ حَتَّى دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فٱتَّخَذَ غَنَماً، فَنَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ؛ حتى ضاقَتْ به المدينةُ، فتنحَّى عنها، وكَثُرت غنمه، حتَّى كان لا يُصَلِّي إلا الجُمُعَةَ، ثم كَثُرَتْ حتى تَنَحَّى بعيداً، فترك الصَّلاَةَ، وَنَجَمَ نِفَاقه، وَنَزَلَ خلال ذلك فَرْضُ الزكاةِ، فبعَثَ النبيُّ ﷺ مُصَدِّقِينَ بكتابه في أخْذ زكاة الغَنَم، فلما بلغوا ثَعْلَبَةَ، وقرأَ الكِتَابَ، قالَ: هَذِهِ أُخْتُ الجِزْيَةِ، ثم قال لهم: دَعُونِي حَتى أَرَى رَأْيِي، فلما أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وأَخْبَرُوه، قال: «وَيْح ثَعْلَبَة» ثَلاَثاً، ونزلَتْ الآية فيه، فحضر القصَّةَ قريبٌ لثعلبة، فخرج إليه، فقال: أَدْرِكْ أمرك، فقد نَزَلَ فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول اللَّه ﷺ، فَرَغِبَ أَنْ يؤدِّي زكاتَهُ، فأعرض عنه رسُولُ اللَّه ﷺ، وقال: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَلاَّ آخُذَ زَكَاتَكَ»، فبقي كذلك حَتَّى تُوُفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثم وَرَدَ ثَعلبةُ على أبي بَكْر، ثم على عمر، ثم على عثمان، يرغَبُ إلى كلِّ واحد منهم أنْ يأخذ منه الزكاةَ، فكلُّهم رَدَّ ذلك وأباه؛ ٱقتداءً بالنبيِّ ﷺ، فبقي ثعلبةُ كذلك حتى هَلَكَ في مدَّة عثمان(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فأعقبهم﴾: نصٌّ في العقوبة على الذَّنْب بما هو أشدُّ منه.

وقوله: ﴿إِلى يومِ يَلْقَوْنَهُ﴾: يقتضي موافاتَهُمْ على النِّفَاق، قال ابنُ العربيِّ: في ضمير

= ينظر في: «أسد الغابة» (٥/ ٤٨)، «الإصابة» (٦/ ٣٣)، «تهذيب مستمر الأوهام» (ب ١٤٤)، «الاستيعاب» (٣/ ١٣٥٨)، «الجرح والتعديل» (٨/ ٢١٥)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/ ٦٨)، «الطبقات الكبرى» (٥/ ٥٣٠)، (٦/ ٢٩)، «الأنساب» (٣/ ١٠٨).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦) رقم (١٧٠٠٢) والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥١٣) بتحقيقنا، وفي «أسباب النزول» ص: (١٩١ ـ ١٩٢) من طريق معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمٰن، عن أبي أمامة الباهلي به.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٤)، وعزاه للطبراني. وقال: وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٣٥) سنده ضعيف، والحديث ضعفه الحافظ في «تخريج الكشاف» (٧٧) وقال: إسناده ضعيف جداً.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٦٧)، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في «الأمثال»، والطبراني وابن منده والباوردي وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر.

﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ قولان:

١٢٢٨أ **أحدهما**: أنه عائدٌ على اللَّه / تعالى.

والثاني: أنه عائدٌ على النفاقِ مجازاً؛ على تقدير الجَزَاءِ؛ كأنه قال: فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إِلى يَوْمِ يلقون جَزَاءَهُ. انتهى من «**الأحكام**».

و﴿يلمزون﴾: معناه: ينالون بألسنتهم، وأكثر الروايات في سَبَبِ نُزُولِ الآية أَنَّ عبد الرحمٰن بْن عَوْفٍ تصدَّق بأربعة آلاف، وأمْسَكَ مثلها.

وقيل: هو عمر بنُ الخطَّاب تصدَّق بِنِصْفِ مالِهِ، وقيل: عاصمُ بْنُ عَدِيٍّ[1] تصدَّق بمائَةِ وَسْقٍ[2]، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياء، فنزلَتِ الآية في هذا كلِّه، وأما المتصدِّق بقليل، فهو أبو عقيل تصدَّق بصاعٍ من تمرٍ، فقال بعضهم: إن اللَّه غنيٌّ عن صاعِ أبي عقيل، وخرَّجه البخاريُّ[3]، وقيل: إِن الذي لُمِزَ في القليلِ هو أبو خَيْثَمَةَ؛ قاله كعب بن مالك[4].

﴿فيسخرون منهم﴾: معناه: يستهزئون ويستخفُّونْ وروى مسلمٌ عن جَرِيرِ بنِ

---

(١) هو: عاصم بن عدي بن الجد بن العجلان بن حارثة بن ضبيعة بن حرام بن جعل بن عمرو بن ودم بن ذبيان، أبو عبد اللَّه، قال ابن الأثير:
شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، وقيل: لم يشهد بدراً بنفسه لأن رسول اللَّه ﷺ رده من الروحاء واستخلفه على العالية من المدينة، قاله محمد بن إسحاق وابن شهاب وضرب له رسول اللَّه ﷺ بسهمه وأجره. توفي سنة ٤٥ وله ١١٥ سنة.
ينظر ترجمته في: «**أسد الغابة**» (٣/ ١١٤)، «**الإصابة**» (٤/ ٥)، «**الثقات**» (٣/ ٢٨٦)، «**تجريد أسماء الصحابة**» (١/ ٢٨٢)، «**الاستيعاب**» (٢/ ٧٨١)، «**الاستبصار**» (٢٩٨)، «**بقي بن مخلد**» (٢٥٦)، «**الجرح والتعديل**» (٦/ ٣٤٥)، «**أصحاب بدر**» (١٥٨)، «**تهذيب التهذيب**» (٥/ ٤٩)، «**تهذيب الكمال**» (٢/ ٦٣٦)، «**الأعلام**» (٣/ ٢٤٨)، «**التحفة اللطيفة**» (٢/ ٢٧٠)، «**شذرات الذهب**» (١/ ٥٤).

(٢) الوَسْقُ: ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطْلاً عند أهل الحجاز، وأربعمائة وثلاثون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمد.
ينظر: «**لسان العرب**» (٤٨٣٦).

(٣) ورد هذا في حديث أخرجه البخاري (٨/ ١٨١) كتاب «التفسير» باب: «الذين يلمزون المطوعين في الصدقات» برقم: (٤٦٦٨ ـ ٤٦٦٩) عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه، وعن ابن عباس أخرجه الطبري (٦/ ٤٣٠) برقم: (١٧٠١٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٦٣)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٣٧٥)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٤٧٠)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٦/ ٤٣٢) برقم: (١٧٠٣١)، وذكره ابن عطية في «**تفسيره**» (٣/ ٦٣)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٤٧٠).

عبد اللَّهِ، قال: كُنتُ عند رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ متقلِّدي السُّيُوف، عَامَّتِهِم مِن مُضَرَ، بلِ كلُّهم مِنْ مُضَرَ، فتمعَّر وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِمَا رَأَى بهم مِن الفَاقَةِ، فدخل ثُمَّ خرج، فأمر بلالاً، فأَذَّن وأَقَام، فصلَّى ثم خَطَبَ، فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . .﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] والآية التي في سورة الحشر: ﴿وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ؛ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّه، مِنْ صَاعِ تَمْرِه؛ حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تتابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كُومَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ؛ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[١]. انتهى.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾: المعنى: أَنَّ اللَّه خَيَّر نبيَّه في هذا، فكأنه قال له: إن شئْتَ فَاستغفر لهم، وإِن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه أنَّه لا يغفِرُ لهم، وإِن أستغفَرَ سبعين مرَّةً، وهذا هو الصحيحُ في تأويل الآية، لقول النبيِّ ﷺ لعمر: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ خَيَّرَنِي فَٱخْتَرْتُ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنِّي إِذَا زِدتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُمْ لَزِدْتُ . . .»[٢] الحديث، وظاهرُ لفظِ الحديثِ رفضُ إِلزام دليل الخطَاب، وظاهرُ صلاته ﷺ عَلَى ٱبْنِ أُبَيٍّ أَنَّ كُفْره لم يكنْ يقيناً عنده، ومحالٌ أَنْ يُصلِّيَ على كافرٍ، ولكنه راعى ظواهره من الإِقرار

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥) كتاب «الزكاة» باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، حديث (٦٩/ ١٠١٧)، والنسائي (٥/ ٧٥) كتاب «الزكاة» باب: التحريض على الصدقة، حديث (٢٥٥٤) من حديث جرير.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٣٥) برقم: (١٧٠٤٥) عن ابن عباس.
وأخرجه عن مجاهد أيضاً (٦/ ٤٣٤) برقم: (١٧٠٤٠، ١٧٠٤٣) بنحو حديث ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٢) وعزاه إلى ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر.

ووَكَلَ سريرته إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، وعلَى هذا كان سَتْرُ المنافقين، وإذا ترتَّب كما قلنا التخييرُ في هذه الآيةِ، صَحَّ أَنَّ ذلك التخييرَ هو الَّذي نُسِخَ بقوله تعالى في «سورة المنافقين: [٦]»: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

* ت *: والظاهر أن الآيتين بمعنًى، فلا نَسْخ، فتأمَّله، ولولا الإِطالة لأَوْضَحْت ذلك.

قال * ع[1] *: وأما تمثيله بالسبعين دُونَ غيرها من الأعدادِ، فلأَنه عددٌ كثيراً مَّا يجيءُ غايةً ومقنعاً في الكَثْرة.

وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ٱمتناع الغُفْرَانِ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَرِحَ المخلَّفون بمقعدهم خلافَ رسول اللَّه . . .﴾ الآية: هذه آية تتضمَّن وصف حالِهِمْ، على جهة التوبيخ، وفي ضمنها وعيدٌ، وقوله: ﴿المخلَّفون﴾: لفظٌ
٢٢٨ب يقتضي تحقيرَهُم، وأنهم الذين أبعدهم اللَّه مِنْ رضاه / و«مقْعَد»: بمعنى القُعُود، و«خِلاَف»: معناه: «بَعْدَ»؛ ومنه قولُ الشاعر: [الطويل]

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلاَفَ الَّذِي مَضَى   تَأَهَّبْ لأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

يريد: بعد الذي مَضَى.

وقال الطبريُّ[2]: هو مصدرُ: خَالَفَ يُخَالِفُ، وقولهم: ﴿لا تنفروا في الحر﴾: كان هذا القول منهم؛ لأن غزوة تبوك كَانَتْ في شدَّة الحَرِّ وطِيب الثمار.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾؛ إشارة إلى مدة العُمر في الدنيا.

وقوله: ﴿وليبكوا كثيراً﴾؛ إشارةٌ إلى تأبيدِ الخلودِ في النَّارِ، فجاء بلَفْظ الأمر، ومعناه الخبر عن حالهم، وتقديرُ الكلام: لِيَبْكُوا كثيراً؛ إذ هم معذَّبون، جزاءً بما كانوا يكسبون،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٦٤).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٤٣٥).

وخرَّج ابن ماجه بسنده، عن يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ[١]، عن أنس، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُرْسَلُ البُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى تَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ»[٢]، وخرَّجه ابن المبارك أيضاً عن أنس، قال: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يأيُّها النَّاسُ، ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ تَسِيلُ دُمُوعُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ، كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعَ، فَتَسِيلُ الدِّمَاءُ، فَتُقَرِّحُ العُيُونَ، فَلَوْ أَنَّ سُفُناً أُجْرِيَتْ فِيهَا، لَجَرَتْ»[٣]، انتهى من «**التذكرة**».

وقوله سبحانه: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ...﴾ الآية: يشبه أنْ تكون هذه الطائفةُ قد حُتِمَ عليها بالموافاة على النفاق، وعُيِّنُوا للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾: نصٌّ في موافاتهم على ذلك؛ وممَّا يؤيِّد هذا ما روي أنَّ النبي ﷺ عَيَّنهم لحذيفةَ بْنِ اليمانِ، وكان الصحابة إذا رأَوْا حذَيفةَ تأخَّر عن الصَّلاة على جنازة، تأخَّرُوا هم عنها، وروِي عَنْ حذيفة؛ أنه قَالَ يَوْماً: بَقِيَ من المنافقين كَذَا وَكَذَا[٤].

وقوله: ﴿أَوَّل﴾ هو بالإِضافة إلى وَقْت الاستئذان، و«الخالفون»: جَمْعُ مَنْ تخلَّف من نساءٍ، وصبيان، وأهل عذر، وتظاهرت الرواياتُ أنه ﷺ صلَّى على عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُول، وأَنَّ قوله: ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم﴾ نزلَتْ بعد ذلك، وقد خرَّج ذلك البخاريُّ من رواية عمر بن الخطَّاب. انتهى[٥].

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ

---

(١) يزيد بن أَبان الرَّقَّاشي أبو عَمْرو البصري الزاهد، عن أبيه، وأنس، وعنه الأعمش، وأبو الزِّناد من أقرانه، تكلم فيه شعبة.
وقال الفَلاَّس: ليس بالقوي، وضعفه ابن معين وله أخبار في المواعظ والخوف والبكاء. ينظر ترجمته في «**الخلاصة**» (٣/ ١٦٦) (٨٠٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٦) كتاب «الزهد» باب: صفة النار، حديث (٤٣٢٤).
وقال البوصيري في «**الزوائد**» (٣/ ٣٢٣) هذا إسناد فيه يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٧/ ١٦٢) برقم: (٤١٣٤) من طريق يزيد عن أنس به.
وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (١٠/ ٣٩٤) وقال: روى ابن ماجه بعضه، رواه أبو يعلى، وأضعف من فيه يزيد الرقاشي وقد وثق على ضعفه.

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٦٦).

(٥) تقدم تخريجه.

ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾: تقدم تفسير مثل هذه الآية، والطَّوْلُ في هذه الآية المالُ؛ قاله ابن عباس وغيره[1]، والإشارة بهذه الآيةِ إلى الجَدِّ بْنِ قَيْسٍ ونظرائِهِ، و«القاعدون»: الزَّمْنَى وأَهْلُ العُذْر في الجُمْلَة، و﴿الخوالف﴾: النساءُ جَمْعُ خالِفَةٍ؛ هذا قول جمهور المفسِّرين.

وقال أبو جعفر النَّحَّاس: يقال للرجُلِ الذي لا خَيْرَ فيه: خَالِفَةٌ، فهذا جمعه بحَسَبِ اللفظ، والمراد أخسَّةُ الناسِ وأخلافهم؛ ونحوه عن النَّضرِ بْنِ شُمَيْلٍ، وقالت فرقة: الخوالفُ: جمعُ خَالِفٍ؛ كفَارِسٍ وَفَوَارِس.

﴿وطُبِع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾: أي: لا يفهمون، و﴿الخيراتُ﴾: جمع خَيْرَة، وهو المستحْسَنُ من كلِّ شيء.

وقوله سبحانه: ﴿أعد اللَّه لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾: ﴿أعدَّ﴾: معناه يَسَّر وَهَيَّأ، وباقي الآية بيِّن.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاء المعذِّرون من الأعراب...﴾ الآية: قال ابن عبَّاس وغيره: هؤلاء كانوا مؤمنين، وكانَتْ أَعذارُهُم صادقة[2]، وأصل اللفظة: «المُعْتَذِرُونَ»، فقلبت التاءُ ذالاً وأدغمتْ، وقال قتادة، وفرقةٌ معه: بل الذين جاؤوا كفرة[3]، وقولُهُمْ وعُذْرهم كَذِبٌ.

قال * ص *: والمعنى: تكلَّفوا العُذْر، ولا عذر لهم، و﴿كَذَبُوا اللَّه ورسولَه﴾،

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٤١) برقم: (١٧٠٧٦)، (١٧٠٧٧) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٦٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٦٩)، والبغوي (٢/ ٣١٨)، وابن كثير (٢/ ٣٨١) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٧)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٤٤) برقم: (١٧٠٨٩ ـ ١٧٠٩٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٠)، وابن كثير (٢/ ٣٨١) نحوه.

أي: في إيمانهم. انتهى.

٢٢٩أ وقوله: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم ...﴾ الآية / قوله: ﴿منهم﴾ يؤيِّد أن المعذِّرين كانوا مؤمنين، فتأمَّله، قال ابنُ إسحاق: المعذِّرون: نَفَرٌ من بني غِفَارٍ؛ وهذا يقتضي أنهم مؤمنون.

وقوله جلَّت عظمته: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ...﴾ الآية: يقولُ: ليس على أهل الأعذار مِنْ ضَعْف بدنٍ أو مرضٍ أو عدمِ نفقةٍ إثْمٌ؛ والحَرَجُ: الإِثم.

وقوله: ﴿إذا نصحوا﴾: يريد: بنيَّاتهم وأقوالهم سرًّا وجهراً، ﴿ما على المحسنين مِنْ سبيل﴾: أي: من لائمةٍ تناطُ بِهِمْ، ثم أكَّد الرجاءَ بقوله سبحانه: ﴿واللَّهُ غفور رحيم﴾، وقرأ ابنُ عبَّاس[1]: «وَاللَّهُ لأَهْلِ الإِسَاءَة غَفُورٌ رَحِيم»، وهذا على جهة التفسيرِ أشبهُ منه على جهةِ التلاوةِ؛ لخلافه المُصْحَفَ، واختلف في مَنْ المرادُ بقوله: ﴿الذين لا يجدُونَ ما ينفقون﴾: فقالتْ فرقة: نَزلَتْ في بَنِي مُقَرِّنٍ: ستَّة إِخوة، وليس في الصحابة ستَّة إخوة غيرهم، وقيل: كانوا سبعةً.

وقيل: نزلَتْ في عائِذِ بْنِ عمرو المُزَنيِّ؛ قاله قتادة[2]، وقيل: في عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَعْقِلٍ المزَنِي[3]. قاله ابن عباس[4].

وقوله عَزَّ وجلَّ: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ هذه الآيةُ نزلَتْ في البَكَّائين، واختلف في تعيينهم، فقيل: في أبي موسَى الأشعريِّ وَرَهْطِهِ، وقيل: في بني مُقَرِّنٍ؛ وعلى هذا جمهور المفسِّرين، وقيل: نزلَتْ في سبعة نَفَرٍ من بطونٍ شتَّى، فهم

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٧٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥) برقم: (١٧٠٩٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) عبد الله بن معقل بن مقرن، أبو الوليد المزني، قال ابن حجر في «الإصابة»:
ذكره ابن فتحون في «ذيل الاستيعاب» ولم يذكر مستنداً لذكره في الصحابة، وقد قال ابن قتيبة: ليست له صحبة ولا إدراك، وذكره في التابعين ابن سعد، والعجلي، والبخاري، وابن حبان وغيرهم، وله رواية عند أبي داود في «المراسيل»، وقال بعده: ابن معقل لم يدرك النبي ﷺ.
قال العجلي: تابعي ثقة من خيار التابعين. توفي سنة ٨٨ تقريباً.
ينظر ترجمته في «الإصابة» (٥/ ١٤٤)، «الثقات» (٥/ ٣٥)، «بقي بن مخلد» (٦٤٤)، «الجرح والتعديل» (٥/ ١٦٩)، «تقريب التهذيب» (١/ ٤٥٣)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٤٤٥) برقم: (١٧٠٩٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٠).

البَكَّاؤون، وقال مجاهد: البَكَّاؤون هم بنو مُقَرِّن من مُزَيْنة[١]، ومعنى قوله: ﴿لتحملهم﴾: أي: عَلَى ظَهر يُرْكَبُ، ويُحْمَل عليه الأثاثُ.

* ت *: وقصة أبي موسَى الأشعريِّ ورَهْطِهِ مذكورةٌ في الصَّحيح، قال ابنُ العربيِّ في «**أحكامه**»[٢]: القول بأن الآية نزلَتْ في أبي موسَى وأصحابه هو الصحيحُ، انتهى.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ...﴾ الآية: هذه الآيةُ نزلَتْ في المنافقين المتقدِّم ذكرُهُمْ: عبدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، والجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، ومُعَتِّبٌ، وغيرهم.

وقوله: ﴿إذا رجعتم﴾: يريد: مِنْ غزوةَ تَبُوكَ، ومعنى: ﴿لن نؤمن لكُمْ﴾: لن نصدِّقكم، والإشارة بقوله: ﴿قد نبأنا اللَّه من أخباركم﴾ إلى قوله: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلا أوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، ونحوه من الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿وسيرى اللَّه عملكم﴾: توعُّد، والمعنى: فيقع الجزاءُ عليه، قال الأستاذ أبو بَكْرٍ الطُّرْطُوشِيُّ: أَعْمَلْ للدنيا بقَدْر مُقَامِكَ فيها، وأَعْمَلْ للآخرة بقَدْر بقائك فيها، وأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّه تعالى بقَدْرِ قُرْبه منكَ، وأَطِعْهُ بقَدْر حَاجَتِكَ إِليه، وخَفْهُ بقَدْر قُدْرته عليك، وأَعْصِهِ بِقَدْر صَبْرِكَ على النَّار. انتهى من «**سراج الملوك**».

وقوله: ﴿ثم تردُّون﴾: يريد البَعْثَ من القبور.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿سيحلفون باللَّه لكم إذا أنقلبتم إليهم ...﴾ الآية: قيل: إن هذه

(١) أخرجه الطبري (٦/٤٤٦) برقم: (١٧٠٩٥، ١٧٠٩٨)، وذكره ابن عطية (٣/٧١)، وابن كثير (٢/٣٨١).

(٢) ينظر: «**الأحكام**» (٢/٩٩٣).

الآية من أول ما نَزَلَ في شأن المنافقين في غزوة تَبُوكَ.

وقوله: ﴿إنهم رجس﴾: أي: نَتَنٌ وقَذَر، وناهِيكَ بهذا الوَصْف مَحَطَّةً دنيوية، ثم عطف بمَحَطَّةِ الآخِرَةِ، فقال: ﴿ومأواهم جهنَّم﴾، أي: مسكنهم.

وقوله: ﴿فإن ترضوا ...﴾ إلى آخر الآية: شَرْطٌ يتضمَّن النهْيَ عن الرضا عنهم، وحُكْم هذه الآية يستمرُّ في كل مغموص عليه ببدْعَةٍ ونحوها.

وقوله سبحانه: ﴿الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً﴾: هذه الآيةُ نزلَتْ في منافقين كانوا في البوادِي، ولا محالة أنَّ خوفهم هناك كان أقلَّ من خوف منافِقِي المدينة، فألسنتهم لذلك مُطْلَقَةٌ، ونفاقهم أنْجَمُ، و﴿أجدَرُ﴾: معناه أحْرَى.

وقال * ص *: معناه / أحقُّ، والحُدُودُ هنا: السُّنَن والأحْكَام. ٢٢٩ ب

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن الأعراب من يَتَّخِذُ ما ينفق مغرماً ...﴾ الآية نصٌّ في المنافقين منهم، و«الدوائر»: المصائبُ، ويحتمل أن تشتقَّ من دَوَرَانِ الزمانِ، والمعنَى: ينتظر بكم ما تأتي به الأيام، وتدُورُ به، ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عليهم دائرةُ السَّوْءِ﴾، وكلُّ ما كان بلفظ دعاء من جهة اللَّه عزَّ وجلَّ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيْء؛ لأن اللَّه لا يَدْعُو على مخلوقاته، وهي في قبضته؛ ومن هذا ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فهي كلُّها أحكام تامَّة تضمَّنها خبره تعالى.

* ت *: وهذه قاعدةٌ جيِّدة، وما وقع له رحمه اللَّه مما ظاهره مخالفٌ لهذه القاعدة، وجب تأويله بما ذَكَرَه هنا، وقد وقَع له ذلك بعد هذا في قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، قال: يحتملُ أنْ يكون دعاءً عليهم، ويحتملُ أنْ يكون خبراً، أي: ٱستوجبوا ذلك، وقد أوضَحَ ذلك عند قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]، فٱنْظُرْه هناك.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن الأعراب من يؤمن باللَّه﴾ قال قتادة: هذه ثنية اللَّه تعالى من

الأعراب، وروي أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في بني مُقَرِّن؛ وقاله مجاهد[١] ﴿ويتخذ﴾؛ في الآيتين بمعنًى: يَجْعَلُهُ قَصْدَهُ، والمعنى: ينوي بنفقته ما ذَكَره الله عنهم، و﴿صَلَوات الرسول﴾: دعاؤه، ففي دعائه خَيْرُ الدنيا والآخرة، والضَّمير في قوله: ﴿إنها﴾: يحتملُ عودَهُ على النفَقَةِ، ويحتمل عوده على الصَّلوات، وباقي الآية بَيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ...﴾ الآية: قال أبو موسى الأشعريُّ وغيره: السابقون الأولون مَنْ صلى القبلتين[٢]، وقال عطاء: هم مَنْ شهد بدراً[٣]. ١٢٣٠أ

وقال الشَّعْبيُّ: من أدرك بَيْعَة الرِّضْوان[٤]، ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾: يريد: سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظِ: التابِعُونَ وسائرُ الأمة، لكن بشريطة الإِحسان، وقرأ عمر بن الخطَّاب وجماعة: و«الأنْصَارُ»[٥] - بالرفع -؛ عطفاً على «والسابقون»، وقرأ ابن كثير: «مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، وقرأ الباقون[٦]: «تَحْتَها»، بإسقاط «مِنْ».

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق﴾: الإِشارة بـ «مَنْ حولكم» إلى جُهَيْنة، ومُزَيْنة، وأَسْلَم، وغِفَار، وعُصَيَّة، ولِحيان، وغيرهم مِنَ القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر اللّه سبحانه عن منافقيهم، وتقدير الآية: ومن أهْل المدينة قومٌ أو منافقُون، هذا أحسنُ ما حُمِلَ اللفظ، ﴿ومردوا﴾: قال أبو عُبَيْدة معناه:

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٥٤) برقم: (١٧١٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٥)، والبغوي (٢/ ٣٢١) برقم: (١٠٠)، وذكره ابن كثير (٢/ ٣٨٣)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٤٨٣) وزاد نسبته إلى أبي الشيخ، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في **«المعرفة»**.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٥)، والبغوي (٢/ ٣٢١) برقم: (١٠٠).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٤٥٣) برقم: (١٧١١٦، ١٧١١٨، ١٧١٢٠، ١٧١٢١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٥)، والبغوي (٢/ ٣٢١) برقم: (١٠٠)، وابن كثير (٢/ ٣٨٣)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٤٨٤)، وزاد نسبته الى ابن أبي شيبة وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي الشيخ.

(٥) وقرأ بها الحسن وقتادة، وسلام بن سليمان الطويل، وسعيد بن أسعد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي.
ينظر: **«الشواذ»** (٥٩)، و**«المحتسب»** (١/ ٣٠٠)، و**«الكشاف»** (٢/ ٣٠٤)، و**«المحرر الوجيز»** (٣/ ٧٥)، و**«البحر المحيط»** (٥/ ٩٦)، و**«الدر المصون»** (٣/ ٤٩٧).

(٦) وهي كذلك في مصاحف أهل مكة خاصة.
ينظر: **«معاني القراءات»** (١/ ٤٦٣)، و**«حجة القراءات»** (٣٢٢)، و**«العنوان»** (١٠٣)، و**«شرح الطيبة»** (٤/ ٣٤٠)، و**«شرح شعلة»** (٤١٤)، و**«إتحاف»** (٢/ ٩٧).

مَرَنُوا عَلَيْه، ولَجُّوا فيه[١]، وقيل غير هذا ممَّا هو قريبٌ منه.

وقال ابن زَيْد: قاموا عليه، لَمْ يَتُوبوا؛ كما تاب الآخَرُون، والظاهر مِنَ اللفظة أنَّ التمرُّد في الشيء أو المُرُود عليه إنما هو اللَّجَاج وٱلاشتهارُ به، والعتوُّ على الزاجر، ورُكُوبُ الرأسِ في ذلك، وهو مستعملٌ في الشر لا في الخَيْر؛ ومنه: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ، وقال ابن العربيِّ في «أحكامه»[٢]: ﴿مَرَدُوا على النِّفَاقِ﴾: أي: ٱستمروا عليه، وتحقَّقوا به. انتهى، ذكَره بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً﴾ [التوبة: ١٠٧].

ثم نفى عزَّ وجلَّ عِلْمَ نبيِّه لهم على التعْيين.

وقوله سبحانه: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذابٍ عظيم﴾: لفظ الآية يقتضي ثَلاَثَ مواطِنَ مِنَ العَذَابِ، ولا خلافَ بين المتأوِّلين أن العذابَ العَظيم الذي يُرَدُّون إليه هو عذابُ الآخرةِ، وأكثرُ النَّاس أن العذاب المتوسِّط / هو عذاب[٣] القبْر، واختُلِفَ في عذاب المَرَّة الأولَى: فقال ابنُ عبَّاس: عذابهم بإقامة حدود الشَّرْع عليهم، مع كراهيتهم فيه[٤]. ٢٣٠ ب

وقال إسحاق: عذابُهم: هو هَمُّهم بظهورِ الإِسْلاَمِ، وَعُلُوِّ كَلِمَتِهِ[٥]. وقال ابْنُ عباسٍ أيضاً ـ وهو الأشهر عنه ـ: عذابُهم هو فَضِيحَتُهُمْ وَوَصْمُهُمْ بالنِّفَاقِ[٦]. وقيل غيرُ هَذَا.

وقَوْلُهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وآخرون ٱعترفوا بذنوبهم﴾ الآية. قال ابْنُ عَبَّاسٍ، وأبو عُثْمَانَ: هَذِهِ الآيَةُ في

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٥).
(٢) ينظر: «الأحكام» (٢/ ١٠١٢).
(٣) استدل على عذاب القبر من القرآن بقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ عطف عذاب يوم القيامة على عرض النار صباحاً ومساء، فَعُلِمَ أنه غيره، وما هو إلا عذاب القبر، لأن الآية وردت في حق الموتى، والأحاديث الصحيحة الدالة على عذاب القبر أكثر من أن تحصى بحيث تواتر القدر المشترك بينها في إثباته.
ينظر: «نشر الطوالع» (٣٧١).
(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٦).
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٥٨) برقم: (١٧١٥٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٦).
(٦) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٦).

الأَعْرَابِ، وهي عامَّة في الأمة إلى يَوْمِ القِيَامَةِ[١]. قال أبو عثمان: ما في القرآن آيةٌ أرجَىٰ عندي لهذه الأمة منها[٢]. وقال مجاهد: بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ في أبي لُبَابَةَ الأنصاريِّ خاصَّةً في شأنه مع بني قُرَيْظَةَ لَمَّا أَشَارَ لَهُمْ إلى حَلْقِهِ، ثُمَّ نَدِمَ وَرَبَطَ نفسه في ساريَةٍ من سَوَارِي المَسْجِدِ[٣]، وقالتْ فرقة عظيمةٌ: بل نزلَتْ هذه الآيةُ في شَأن المخلَّفين عن غزوة تَبُوك.

* ت *: وخَرَّجَ «البخاريُّ» بسنده عن سَمُرة بن جنْدُبْ قالَ: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، فَٱبْتَعَثَانِي فَٱنْتَهَيْنَا إِلَىٰ مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ ولَبِنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ. وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالاَ لَهُمْ: ٱذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُم رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا في أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالاَ لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالاَ: أَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ». انتهى[٤].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة ....﴾ الآية: رُوي أن الجماعة التائبة لَمَّا تِيبَ عليهَا، قالوا: يا رسُولَ اللَّه؛ إنَّا نُريدُ أن نتصدَّق بأموالنا زيادةً في تَوْبَتِنا، فقال لهم ﷺ: «إِنِّي لاَ أَعْرِضُ لأَمْوَالِكُمْ إِلاَّ بِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ»[٥]، فتَرَكَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هذه الآية، فَهُمُ المرادُ بها، فَرُوِيَ أنه ﷺ أخذ ثلث أموالِهِمْ، مراعاةً لقوله تعالى: ﴿مِنْ أموالهم﴾،

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٦٢) برقم: (١٧١٦٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٦٢) برقم: (١٧١٦٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٧).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٤٦١) برقم: (١٧١٥٦، ١٧١٥٧، ١٧١٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٧)، وابن كثير (٢/ ٣٨٥)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٤٨٨)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١٩٢) كتاب «التفسير» باب: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾، حديث (٤٦٧٤)، ومسلم (٤/ ١٧٨١) كتاب «الرؤيا» باب: رؤيا النبي ﷺ، حديث (٢٣/ ٢٢٧٥)، والترمذي (٤/ ٥٤٣) كتاب «الرؤيا» باب: ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو، حديث (٢٢٩٤)، وأحمد (٥/ ٨، ٩، ١٤)، وابن حبان (٢/ ٤٢٧، ٤٣١) برقم: (٦٥٥)، والطبراني في **«الكبير»** (٦٩٨٦، ٦٩٨٧، ٦٩٨٨، ٦٩٨٩)، والبيهقي (٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، والبغوي في **«شرح السنة»** (٤/ ٢٣٧ بتحقيقنا) كلهم من طريق أبي رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) ينظر: حديث توبة كعب بن مالك، وأصحابه، وقد تقدم تخريجه.

فهذا هو الذي تظاهَرَتْ به أقوال المتأوِّلين، وقالتْ جماعة من الفقهاء: المرادُ بهذِهِ الآية الزكَاةُ المفروضَةُ، وقوله تعالى: ﴿تطهِّرهم وتزكِّيهم بها﴾: أحسن ما يحتمل أنْ تكون هذه الأفعالُ مسندة إلى ضمير النبيِّ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وصَلِّ عليهم﴾: معناه: ٱدْعُ لهم، فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، فهي عبارةٌ عن صلاح المعتَقَد، والضميرُ في قولِهِ: ﴿ألم يعلموا﴾ قال ابنُ زَيْدٍ: يُرادُ به الذين لم يتوبوا من المتخلِّفين(١)، ويحتملُ أنْ يُرَادِ به الذين تابوا، وقوله: ﴿ويأخذ الصدقات﴾ قال الزَّجَّاج(٢): معناه: ويقبل الصدقات(٣)، وقد جاءَتْ أحاديثُ صحاحٌ في معنى الآية؛ منها حديثُ أبي هريرة: «إِنَّ الصَّدَقَةَ قَدْ تَكُونُ قَدْرَ اللُّقْمَةِ يَأْخُذُهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»(٤)، ونحو هذا من الأحاديث التي هي عبارةٌ عن القبول والتحفِّي بصدقة العبد.

وقوله: ﴿عن عباده﴾: هي بمعنى «مِنْ».

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه الطبري (٦/٤٦٦) برقم: (١٧١٧٧)، وذكره ابن عطية (٣/٧٩).
(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/٤٦٧).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/٧٩).
(٤) أخرجه البخاري (٣/٣٢٦) كتاب «الزكاة» باب: الصدقة من كسب طيب، حديث (١٤١٠)، ومسلم (٢/٧٠٢) كتاب «الزكاة» باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (٦٣، ١٠١٤/٦٤)، والترمذي (٣/٤٠ ـ ٤١) كتاب «الزكاة» باب: ماء جاء في فضل الصدقة، حديث (٦٦١ ـ ٦٦٢)، والنسائي (٥/٥٧) كتاب «الزكاة» باب: الصدقة من غلول، وابن ماجه (١/٥٩٠) كتاب «الزكاة» باب: فضل الصدقة، حديث (١٨٤٢)، وأحمد (٢/٣٣١، ٣٨٢، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١)، والدارمي (١/٣٩٥) كتاب «الزكاة» باب: فضل الصدقة، وابن خزيمة (٤/٩٣) برقم: (٢٤٢٦)، وابن حبان (٣٣١٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وللحديث شاهد من حديث عائشة.
أخرجه أحمد (٦/٢٥١)، وابن حبان (٨١٩ ـ «موارد»)، والبزار (١/٤٤١ ـ «كشف»)، حديث (٩٣١).
والهيثمي في «المجمع» (٣/١١٥) وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات.

شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللَّه عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة . . .﴾ الآية: هذه الآية صيغتُها صيغةُ أمْرٍ مضمَّنها الوعيدُ.

وقال الطبري[1]: المراد بها الذين اعتذروا من المتخلِّفين وتابوا.

قال * ع[2] *: والظاهر أن المراد بها الذين اعتَذَروا، ولم يتوبوا وهم المتوعَّدون، وهم الذين في ضمير ﴿ألم يعلموا﴾، ومعنى: ﴿فسيرى اللَّه عَمَلَكم﴾، أي: موجوداً معرَّضاً للجزاء عليه بخَيْرٍ أو بِشَرٍّ.

وقال ابنُ العرَبِيِّ[3] في «أحكامه»: قوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللَّه عملكم ورسوله﴾ هذه الآية نزلَتْ بعد ذكر المؤمنين، ومعناها: الأمر، أي: اعملوا بما يُرْضِي اللَّه سبحانه، وأمَّا الآية المتقدِّمة، وهي قوله تعالى: ﴿قد نبأنا اللَّه من أخباركم وسَيَرى اللَّه عملكم ورسوله﴾ [التوبة: ٩٤]؛ فإنها نزلت بعد ذكْر المنافقين، ومعناها: التهديد؛ وذلك
١٢٣١أ لأن / النفاق موضِعُ ترهيبٍ، والإيمانُ موضعُ ترغيبٍ، فقوبل أَهْلُ كلِّ محلٍّ من الخطاب بما يليقُ بهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر اللَّه﴾: عَطْفٌ على قوله أولاً: ﴿وآخرون اعترفوا﴾: ومعنى الإرجاء: التأخير، والمراد بهذه الآية فيما قال ابنُ عباس وجماعةٌ: الثلاثةُ الذين خُلِّفوا، وهم كَعْبُ بْنُ مالكٍ، وصاحباه؛[4] على ما سيأتي إن شاء اللَّه، وقيل: إنما نَزلَتْ في غيرهم من المنافقين الذين كانوا مُعَرَّضين للتوبة مع بنائهم مَسْجِدَ الضِّرارِ، وعَلَى هذا: يكون ﴿الذين اتخذوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلاً من ﴿آخرون﴾، أو خبر مبتدأ، تقديره: هم الذين، وقرأ عاصم[5] وعوامُّ القُرَّاء، والنَّاسُ في كل قُطْرٍ إلاَّ بـ «المدينة»:

---

(١) ينظر: «الطبري» (٦/ ٤٦٧).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٨٠).
(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ٩٩٦).
(٤) سيأتي إن شاء اللَّه تعالى.
(٥) وكذلك هي في مصاحف أهل الشام.
ينظر: «معاني القراءات» (١/ ٤٦٤)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٥٦)، و«العنوان» (١٠٣)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٤١)، و«شرح شعلة» (٤١٥)، و«إتحاف» (٢/ ٩٨).

﴿والذين اتخذوا﴾، وقرأ أهلُ المدينة، نافع وغيرُهُ الَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ـ بإسقاط الواو ـ؛ على أنه مبتدأ، والخبر: ﴿لا يزالُ بُنْيَانُهم﴾ وأما الجماعة المرادة بـ ﴿الذين اتخذوا مسجداً﴾، فهم منافقو بني غَنْم بن عَوْف، وبني سَالم بنِ عَوْف، وأسند الطبريُّ[1]، عن ٱبنِ إسحاق، عن الزُّهْرِيِّ وغيره، أنه قال: أَقْبَلَ النبيُّ ﷺ من غزوة تَبُوك، حتى نَزَلَ بذي أَوَانَ ـ بلدٌ بينه وبين المدينةِ ساعةٌ من نهار ـ وكان أصحابُ مسجدِ الضِّرَار، قد أَتَوهُ ﷺ وهو يتجهَّز إلى تبوكٍ، فقالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إنا قد بَنَيْنَا مَسجِداً؛ لِذِي العِلَّة والحاجة واللَّيْلَة المَطِيرة، وإنا نُحِبُّ أن تأتينا فتصلِّي لنا فيه، فقال: «إِنِّي عَلَىٰ جَنَاحِ سَفَرٍ، وَحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ، فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ»، فَلَمَّا قَفَلَ، وَنَزَلَ بِذِي أَوَان، نَزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ في شَأْنِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُنِ وَمَعْنَ بْنَ عَدِيٍّ، أو أخاهُ عاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، فَقَالَ: «ٱنْطَلِقَا إِلَى هَذَا المَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَٱهْدِمَاهُ، وَحَرِّقَاهُ» فَٱنْطَلَقَا مُسْرِعَيْنِ فَفَعَلاَ وَحَرَّقَاهُ[2]، وذكَرَ النَّقَّاشُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث لِهَدْمِهِ وتحريقه عَمَّار بن ياسر وَوَحْشِيًّا مَوْلَى المُطْعم بن عَدِيٍّ، وكان بَانُوهُ ٱثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، منهم ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، ومُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ، ونَبْتَلُ بْنُ الحَارِثِ وغيرهم، وروي أنه لما بنى ﷺ مَسْجداً في بني عمرو بن عوف وقْتَ الهِجْرَة، وهو مَسْجِدُ «قُبَاءٍ» وتشرَّفَ القومُ بذلك، حَسَدَهم حينئذٍ رجالٌ من بني عَمِّهم من بني غَنْم بْنِ عَوْفٍ، وبني سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وكان فيهم نفاقٌ، وكان موضعُ مَسْجِدِ «قُبَاءٍ» مربطاً لحمارِ ٱمرأةٍ من الأنصار، ٱسْمُها: لَيَّةُ، فكان المنافقُونَ يقولُونَ: واللَّه لا نَصْبِرُ على الصَّلاة في مَرْبَطِ حمارِ لَيَّةَ، ونحو هذا من الأقوال، وكان أبو عامرٍ المعروفُ بِالرَّاهِبِ منهم، وهو أبو حنظلة غسيلِ الملائكةِ، وكان سيِّداً من نظراء عبدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ٱبْنِ سَلُولَ، فلما جاء اللَّهُ بالإسلام، نافق، ولم يَزَلْ مجاهراً بذلك، فسمَّاه رسولُ اللَّه ﷺ الفَاسِق، ثم خرج في جماعة من المنافقينَ، فَحَزَّبَ على النبيِّ ﷺ الأحزاب، فلما ردَّهم اللَّه بغَيْظهم، أقام أبو عامر بـ «مكة» مظهراً لعداوته، فلما فتح اللَّه «مكة»، هَرَبَ إلى «الطائف»، فلما أسلم أَهْلُ الطائف، خرج هارباً إلى الشام، يريد قَيْصَرَ مستنصراً به عَلى رسُولِ اللَّه ﷺ، وكتب إلى المنافقين من قومه أَن ٱبْنُوا مسجداً، مقاومةً لمسجد «قُبَاء»، وتحقيراً له، فإني سآتي بِجَيْشٍ من الروم، أُخْرِجُ به محمَّداً، وأصحابه من «المدينة»، فَبَنَوهُ وقالوا: سيأتي أبو عامرٍ ويصلي فيه، فذلك قوله: ﴿وإرصاداً لمن حارب اللَّه ورسوله﴾ يعني: أبا عامر، وَقَوْلَهُمْ: سيأتي أبو عامر، وقوله: ﴿ضراراً﴾ أي: داعيةً للتضارُرِ من / جماعتين. ٢٣١ ب

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٦٩) برقم: (١٧٢٠٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨١).
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠) برقم: (١٧٢٠٠) من طر[illegible] إسحاق به.

وقوله: ﴿تفريقاً بين المؤمنين﴾: يريدُ: تفريقاً بين الجماعة التي كانَتْ تصلِّي في مسجد «قباء»، فإن مَنْ جاور مَسْجدهم كانوا يَصْرِفُونه إليه، وذلك داعيةٌ إلى صرفه عن الإيمان، وقيل: أراد بقوله: ﴿بين المؤمنين﴾ جماعةَ مسجدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وروي: أنَّ مسجد الضِّرار، لَمَّا هدم وأُحرِق، اتُّخِذَ مزبَلَةً تُرْمَىٰ فيه الأقذار والقِمَامَات، وروي: أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ: ﴿لا تَقُمْ فيه أبداً﴾ كَانَ لا يمرُّ بالطريق التي هو فيها.

وقوله: ﴿لمسجد﴾: قيل: إن اللام لام قسم، وقيل: هي لام ابتداء، كما تقول: لَزَيدٌ أَحْسَنُ النَّاسِ فِعْلاً وهي مقتضية تأكيداً، وذهب ابن عباس وفرقةٌ من الصحابة والتَّابعين إلى أنَّ المراد بـ «مسجد أسس على التقوى»: مسجد «قباء»[1] وروي عن ابن عمر وأبي سعيد وزَيْد بنِ ثابت؛ أنه مسجدُ النبيِّ ﷺ[2] ويليق القولُ الأول بالقصَّة إلاَّ أن القولَ الثانيَ مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ ولا نَظَرَ مع الحديثِ، قال ابنُ العَرَبي[3] في «أحكامه»: وقد رَوَى ابْنُ وهْبٍ وأشهبُ، عن مالكٍ؛ أن المراد بـ «مسجد أُسس على التقوَىٰ»: مسجدُ النبيِّ ﷺ حيث قال اللَّه تباركَ وتعالَى: ﴿وتركوك قائماً﴾ [الجمعة: ١١] وكذلك روى عنه ابن القاسم، وقد روى الترمذيُّ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: تَمَارَىٰ رَجُلاَن في المَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْم، فَقَالَ رَجُلٌ: هُوَ مَسْجِدُ «قُبَاء»، وَقَالَ الآخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا». قَالَ أبو عيسَىٰ: هذا حديثٌ صحيحٌ، وخرَّجه مسلم[4] انتهى.

ومعنى: ﴿أن تقوم فيه﴾: أي: بصلاتك وعبادتك.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٧٤) برقم: (١٧٢٢٦ ـ ١٧٢٢٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٢).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٧٣) برقم: (١٧٢١٦ ـ ١٧٢١٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٢)، والبغوي: (٢/ ٣٢٧).

(٣) ينظر: **«أحكام القرآن»** (٢/ ١٠١٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥) كتاب «الحج» باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، حديث (٥١٤/ ١٣٩٨)، والترمذي (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في المسجد الذي أسس على التقوى، حديث (٣٢٣)، وفي (٥/ ٢٨٠) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٩)، وأحمد (٣/ ٨، ٢٣، ٢٤، ٩١)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وأبو يعلى (٢/ ٢٧٢ ـ ٣٧٣) برقم: (٩٨٥)، وابن حبان (١٦٠٦)، والحاكم (٢/ ٣٣٤)، والبيهقي في **«دلائل النبوة»** (٢/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥) من طرق عن أبي سعيد الخدري به.
وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»**(٣/ ٢٧٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وقوله: ﴿فيه رجالٌ يحبُّون أن يتطهروا﴾ ٱخْتُلِفَ في الضمير أيضاً، هل يعودُ على مسجدِ النبيِّ ﷺ أو على مسجد «قُبَاء»؟ روي أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّه أَثْنَى عَلَيْكُمْ بالطُّهُورِ، فَمَاذَا تَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا رَأَيْنَا جِيرَانَنَا مِنَ اليَهُودِ يَتَطَهَّرُونَ بِالمَاءِ يُرِيدُونَ ٱلاسْتِنْجَاءَ، فَفَعَلْنَا نَحْنُ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ، لَمْ نَدَعْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلاَ تَدَعُوهُ إِذَنْ»[١].

والبنيانُ الذي أُسِّس على شفا جُرُفٍ: هو مسجدُ الضِّرار؛ بإجماع، و«الشَّفَا»: الحاشية والشَّفير، و﴿هار﴾: معناه مُتهدِّمٌ بالٍ، وهو من: هَارَ يَهُورُ؛[٢] البخاريُّ: هَارَ هَائِرٌ تَهَوَّرَتِ البِئْرُ، إذا تهدَّمت وٱنْهَارَتْ مثله. انتهى.

وتأسيسُ البناء علَى تقوَىٰ؛ إنما هو بحُسْن النية فيه وقَصْدِ وجه اللَّه تعالى، وإظهارِ شرعه؛ كما صنع في مَسْجِدِ النبيِّ ﷺ، وفي مسجدِ «قُبَاء»، والتأسيسُ على شفا جُرُفٍ هَارٍ إنما هو بفسَاد النيَّة وقصدِ الرياءِ، والتفريقِ بَيْنَ المؤمنين، فهذه تشبيهاتٌ صحيحةٌ بارعةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿فانهار به في نار جهنم﴾: الظاهر منه أَنَّه خارجٌ مَخْرَجَ المَثَلِ، وقيل: بل ذلك حقيقة، وأن ذلك المَسْجِدَ بعينه ٱنهار في نَارِ جَهَنَّم؛ قاله قتادةُ وٱبْنُ جُرَيْج[٣]، وروي عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ وغيره؛ أنه قال: رَأَيْتُ الدُّخَانَ يَخْرُجُ منه علَى عهد رسولُ اللَّه ﷺ[٤]، وروي في بَعْضِ الكُتُبِ؛ أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ رَآهُ حين ٱنْهَارَ بَلَغَ الأَرض السابعة، فَفَزِعَ لذلك ﷺ، وروي أنهم لم يُصلُّوا فيه أَكْثَرَ من ثلاثةِ / أيام، وهذا كلُّه بإسناد لَيِّنٍ، واللَّه أعلم، وأسند الطبريُّ عن خلفِ بْنِ ياسِين، أنه قَالَ: رَأَيْتُ مسْجِدَ المنافقينَ الذي ذَكَرَه اللَّه في القرآن، فَرَأَيْتُ فيه مكاناً يخرجُ منه الدُّخَان[٥] وذلك في زَمَنِ أبي جَعْفَرٍ المنصورِ، وروي شبيه بهذا أو نحوه عَن ٱبْنَ جُرَيْج[٦]: أسنده الطبري. ٢٣٢ أ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨/ ١٦٤) كتاب «التفسير» باب: سورة التوبة.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٧٩) برقم: (١٧٢٦٠ ـ ١٧٢٦١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٥)، والبغوي (٣/ ٣٢٨)، وابن كثير (٢/ ٣٩١)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٩٩)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس بنحوه.
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٤٧٩) برقم: (١٧٢٦٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٥)، والبغوي (٢/ ٣٢٨)، وابن كثير (٢/ ٣٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٩٩)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه.
(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٨٦).
(٦) أخرجه الطبري (٦/ ٤٧٩) برقم: (١٧٢٦١).

قال ابن العربيِّ في «أحكامه»[(١)] وفي قوله تعالَى: ﴿فَٱنْهَار به في نار جهنَّم﴾، مع قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] إِشَارَةٌ إِلَى أن النار تَحْتُ؛ كما أن الجَنَّةَ فَوْقُ. انتهى.

والرِّيبة: الشَّكُّ، وقد يُسَمَّىٰ ريبةً فسادُ المعتقدِ، ومعنى الرِّيبةِ، في هذه الآية: أمرٌ يعمُّ الغيظَ والحَنَقَ، ويعمُّ ٱعتقادَ صَوَابِ فعْلهم ونحو هذا ممَّا يُؤدِّي كلُّه إِلى ٱلارتياب في الإِسلام، فمقصدُ الكلام: لا يَزَالُ هذا البنيانُ الذي هُدِّم لهم، يُبْقِي في قلوبهم حَزَازَةً وأَثَرَ سُوءٍ، وبالشكِّ فسَّر ابن عباس الريبةَ هنا[(٢)].

وبالجملة إِن الريبة هنا تعمُّ معانيَ كثيرةً يأخذ كلُّ منافق منها بحَسَب قَدْره من النِّفاق.

وقوله: «إلا أَنْ تُقطَّع قلوبهم» ـ بضم التاء ـ يعني: بالموت، قاله ابن عباس وغيره[(٣)] وفي مُصْحَف[(٤)] أُبيٍّ: «حَتَّى المَمَاتِ»، وفيه: «حَتَّى تُقَطَّع».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

وقوله عزَّ وجلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ ٱشتَرَى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .﴾ الآية: هذه الآيةُ نزلَتْ في البَيْعة الثالثة، وهي بيعةُ العَقَبة الكُبْرَى، وهي التي أَنافَ فيها رجالُ الأنصار على السبعين؛ وذلك أنهم اجتمعوا مع النبيِّ ﷺ عند العقبة، فقالوا: ٱشْتَرِطْ لك، وَلِرَبِّكَ، والمتكلِّمُ بذلك عبدُ اللَّه بْنُ رَوَاحَة[(٥)] فاشترط نبيُّ اللَّه

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/١٠١٨).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٨٠) برقم: (١٧٢٦٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٦)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٠)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٤٨٠) برقم: (١٧٢٦٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٦)، وابن كثير (٢/ ٣٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٠)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٨٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ١٠٥).

(٥) هو: عبد اللَّه بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس الأكبر بن مالك الأغر.. أبو محمد الأنصاري، الخزرجي.
كان ممن شهد العقبة، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج، وشهد بدراً، وأحداً، والخندق، =

حمايته ممَّا يحمُونَ منه أنفسهم، وَٱشترط لربِّهِ ٱلتزامَ الشريعةِ، وقِتَالَ الأَحمَرِ والأَسْوَدِ في الدَّفع عن الحَوْزَة، فقالوا: مَا لَنَا عَلَى ذَلِكَ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ فَقَالَ: الجَنَّةُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، رَبِحَ البَيْعُ، لاَ نَقِيلُ وَلاَ نُقَالُ، وفي بعض الرواياتِ: «وَلاَ نَسْتَقِيلُ» فنزلَتِ الآية في ذلك.

وهكذا نقله ابن العربيّ في «أحكامه»[١]، عن عبد اللَّه بن رَوَاحَة، ثم ذكر من طريق الشعبيِّ، عن أبي أمامة أَسْعَد بْنِ زُرَارَةَ نحو كلام ابنِ رَوَاحَةَ.

قال ابن العربيّ[٢]: وهذا وإن كان سنده مقطوعاً، فإن معناه ثابتٌ مِنْ طرق. انتهى.

ثم الآية بَعْدَ ذلك عامَّة في كلِّ من جَاهَدَ في سبيلِ اللَّهِ مِنْ أمة نبيِّنا محمد ﷺ إلى يوم القيامة، قال بعضُ العلماء: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إلا وللَّه في عُنُقِهِ هذه البَيْعَةُ، وَفَىٰ بِهَا أو لم يَفِ، وفي الحديث: «إِنَّ فَوْقَ كُلِّ بِرٍّ بِرًّا حَتَّى يَبْذُلَ العَبْدُ دَمَهُ، فَإِذَا فَعَلَ، فَلاَ بِرَّ فَوْقَ ذَلِكَ». وأسند الطبريُّ عن كثير من أَهْلِ العِلْمِ؛ أنهم قالوا: ثَامَنَ اللَّه تَعَالَى في هذه الآية عِبَادَهُ، فَأَغْلَى لهم؛ وقاله ابن عباس وغيره[٣]، وهذا تأويلُ الجمهور.

وقال ابن عُيَيْنَة: معنى الآية: ٱشْتَرَى منهم أنفسهم ألاَّ يُعْمِلُوهَا إلا في طاعته، وأموالَهُمْ أَلاَّ يُنْفِقُوها إلاَّ في سبيله، فالآية علَى هذا: أعمُّ من القَتْلِ في سبيل اللَّه.

وقوله: ﴿يقاتلون في سبيل اللَّه﴾ على تأويل ابنِ عُيَيْنَة: مقطوعٌ، ومستأنفٌ، وأما على تأويل الجمهور مِنْ أَنَّ الشراء والبَيْع إنما هو مع المجاهدين، فهو في موضع الحال.

وقوله سبحانه: ﴿وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن﴾: قال المفسِّرون: ٢٣٢ ب
يظهر من قوله: ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أن كلَّ أُمَّة أُمِرَتْ بالجهاد، ووُعِدَتْ عليه.

قال * ع[٤] *: ويحتملُ أَنَّ ميعاد أُمَّة نبينا محمد ﷺ، تقدَّم ذكره في هذهِ الكُتُب، واللَّه أعلم.

= والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ إلا الفتح وما بعده، فإنه كان قد قتل قبله، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة.
ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/ ٢٣٤)، «الإصابة» (٤/ ٦٦)، «الثقات» (٣/ ٢٢١)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٣١٠)، «الاستبصار» (٥٣، ٥٦)، «الاستيعاب» (٣/ ٢٩٨)، «بقي بن مخلد» (٨٨٥)، «تقريب التهذيب» (١/ ٤١٥)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ٢١٢)، «تهذيب الكمال» (٢/ ٦٨١).

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ١٠١٨).
(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ١٠١٩).
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٤٨٢) برقم: (١٧٢٨١) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٧).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٨٧).

قال * ص *: وقوله: ﴿فٱستبشروا﴾: ليس للطلب، بل بمعنى: أَبْشِرُوا؛ كَٱسْتَوْقَدَ، قال أبو عُمَرَ بْنُ عبد البرِّ في كتابه المسمَّى بـ «**بهجة المَجَالِسِ**»: ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَاباً، فَهُوَ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَاباً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[1]. وعن ابن عباس مثله. انتهى. وباقي الآية بيِّن.

قال الفَخْر: وٱعْلَمْ أَنَّ هذه الآية مشتملةٌ على أنواع من التأكيدات:

فأولها: قوله سبحانه: ﴿إِن اللَّه ٱشْتَرَى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾، فكون المشتَرِي هو اللَّه المقدَّس عن الكَذِبِ والحِيلَة مِنْ أَدَلِّ الدلائل على تأكيد هذا العَهْد.

والثاني: أنه عبر عن إِيصال هذا الثواب بالبَيْعِ والشراءِ، وذلك حَقٌّ مُؤَكَد.

وثالثها: قوله: ﴿وَعْداً﴾، ووعد اللَّه حقٌّ.

ورابعها: قوله: ﴿عليه﴾، وكلمةُ «عَلىٰ» للوجوب.

وخامسها: قوله: ﴿حقًّا﴾، وهو تأكيد للتحقيق.

وسادسها: قوله: ﴿في التوراة والإِنجيل والقرآن﴾، وذلك يجري مَجْرَى إِشهاد جميع الكُتُبِ الإِلهية، وجمِيعِ الأنبياء والمُرْسلين عَلى هذه المبايعة.

وسابعها: قوله: ﴿ومن أوفَى بعهده من اللَّه﴾، وهو غايةُ التأكيد.

وثامنها: قوله: ﴿فٱستبشروا بِبَيْعِكم الذي بَايَعْتُمْ به﴾، وهو أيضاً مبالغةٌ في التأكيد.

وتاسعها: قوله: ﴿وذلك هو الفَوْزُ﴾.

وعاشرها: قوله: ﴿العظيم﴾.

فثبت ٱشتمالُ هذه الآية على هذه الوجوهِ العَشَرةِ في التأكيدِ والتقريرِ والتحقيق. انتهى.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿التائبون العابدون﴾، إلى قوله: ﴿وبشِّرِ المؤمنين﴾، هذه الأوصافُ هي مِنْ صفات المؤمنين الذين ذكر اللَّه أنَّه ٱشْتَرَى منهم أَنْفُسَهُمْ وأموالهم، ومعنى الآية، على ما تقتضيه أقوالُ العلماء والشَّرْعُ: أنها أوصافُ الكَمَلَةِ من المؤمنين، ذكرها سبحانه، لِيَسْتَبِقَ إِليها أَهْلُ التوحيد؛ حتى يكُونوا في أَعْلَى رتبةٍ، والآية الأولى مستقلَّة

(١) تقدم تخريجه من حديث عبادة بن الصامت.

بنفسها، يقع تَحْتَ تلك المبايعة كلُّ موحِّد قاتَلَ في سبيل اللَّهِ، لتكونَ كلمة اللَّه هي العليا، وإِنْ لم يتَّصفْ بهذه الصفات التي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها، وقالَتْ فرقةٌ: بل هذه الصفاتُ جاءت علَى جهة الشَّرْط، والآيتان مرتبطتان، فلا يَدْخُلُ في المبايعة إِلا المؤمِنُون الذين هُمْ عَلى هذه الأوصاف، وهذا تحريجٌ وتضييقٌ، والأول أصوبُ، واللَّه أعلم.

والشهادة ماحيةٌ لكلِّ ذنب إلا لمظالِمِ العِبَادِ، وقد روي أن اللَّه عزَّ وجلَّ يحمل على الشَّهِيدِ مَظَالِمَ العبادِ، ويجازِيهِمْ عنه، خَتَمَ اَللَّهُ لَنَا بالحسنَى.

و﴿السَّائحون﴾: معناه: الصائمون، وروي عن عائشة، أنها قالَتْ: سِيَاحَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ الصِّيَام[1]؛ أسنده الطبريُّ[2]، وروي أنه من كلامِ النبيِّ ﷺ[3].

قَالَ الفَخْر: ولما كان أصل السياحة اَلاستمرارَ على الذَّهاب في الأرض، سُمِّي الصائم سائحاً؛ لاستمراره على فِعْل الطاعة وترك المَنْهِيِّ عنه مِنَ المفطِّرات.

قال الفَخْر[4]: عندي فيه وجْهٌ آخر، وهو أن الإِنسان إذا اَمتنع مِنَ الأَكل والشُّرب والوِقاع، وسَدَّ عَلَى نفسه بَابَ الشهواتِ، اَنفتحتْ له أبوابُ الحكمة وتجَلَّتْ له أنوار عالَم الجَلالِ؛ ولذلك قال ﷺ: «مَنْ أَخْلَصَ للَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ[5] فَيَصير من السائحين في عالَمِ جلالِ اللَّه المنتقلينِ مِنْ مقامٍ إلى مقام، ومن

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٨٦) برقم: (١٧٣٢٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٨٤) برقم: (١٧٣٠٠ - ١٧٣٠١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٨٤) برقم: (١٧٣٠٠) عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ فقال: هم الصائمون. وأخرجه برقم: (١٧٣٠١) عن أبي هارون قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: السائحون هم: الصائمون.

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٦/ ١٦١).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من طريق محمد بن إسماعيل، ثنا أبو خالد يزيد الواسطي أنبأنا الحجاج عن مكحول عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً.
وقال أبو نعيم: كذا رواه يزيد الواسطي متصلاً، ورواه أبو معاوية عن الحجاج فأرسله.
ومن طريق أبي نعيم أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤).
وقال: هذا حديث لا يصحّ عن رسول اللَّه ﷺ ففيه يزيد الواسطي وهو يزيد بن عبد الرحمٰن.
قال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، خالف الثقات في الروايات لا يجوز الاحتجاج به، وحجاج مجروح، ومحمد بن إسماعيل مجهول، ولا يصحّ لقاء مكحول لأبي أيوب، وقد ذكر محمد بن سعد أن العلماء قدحوا في رواية مكحول وقالوا: هو ضعيف في الحديث ا هـ.
والحديث قد روي عن مكحول مرسلاً كما أشار إلى ذلك الحافظ أبو نعيم.

درجةٍ إلى درجةٍ». انتهى.

قال ※ ع[١] ※: وقال بعضُ النَّاس، وهو في كتاب النَّقَّاش: ﴿السَّائِحُونَ﴾: هم الجائلون بأفكارهم في قُدْرة اللَّه ومَلَكُوته وهذا قولٌ حَسَن، وهو من أفضل العباداتِ، و﴿الراكعون الساجدون﴾: هم المصلُّون الصَّلوات؛ كذا قال أهل العلم، ولكن لا يختلف في أنَّ من يكثر النَّوافلَ هو أَدْخَلُ في ٱلاسم، وأَعْرَقُ في ٱلاتصاف.

١٢٣٣ وقوله: ﴿والحافظون لحدود اللَّه﴾ لفظٌ عامٌّ تحته / ٱلتزامُ الشريعة.

※ ت ※: قال البخاريُّ: قال ابن عباس: الحدود: الطاعة[٢].

قال ابن العربيُّ[٣] في «أحكامه»، وقوله: ﴿والحافظون لحدود اللَّه﴾ خَاتمةُ البيان، وعمومُ ٱلاشتمال لكلِّ أمْر ونهيٍ. انتهى.

= والمرسل أخرجه هنَّاد بن السري في «الزهد» برقم: (٦٧٨)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من طريق الحجاج عن مكحول مرسلاً.
وسنده ضعيف لضعف الحجاج مع إرساله. وللحديث شواهد من حديث أبي موسى وابن عباس.
حديث أبي موسى: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٤٥)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤) من طريق عبد الملك بن مهران الرفاعي، حدثنا معن بن عبد الرحمٰن، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها للَّه أخرج اللَّه على لسانه ينابيع الحكمة من قلبه». وقال ابن عدي: هو منكر، وعبد الملك مجهول وأقره ابن الجوزي في «الموضوعات».
حديث ابن عباس: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥) من طريق سوار بن مصعب، عن ثابت، عن مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «من أخلص للَّه تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه».
وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصحّ عن رسول اللَّه ﷺ، قال أحمد ويحيى والنسائي: سوار بن مصعب متروك الحديث، وقال يحيى: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وقال أيضاً: وقد عمل جماعة من المتصوفة، والمتزهدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهذي ويتخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن فللَّهِ دَرُّ العلم ا هـ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٥) كتاب «الجهاد والسِّير» باب: فضل الجهاد والسِّير عن ابن عباس موقوفاً. وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٦): وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه، قلت: وعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس، وفي ذلك رد على من يجزم أن تعليقات البخاري المجزومة كلها صحيحة.
(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ١٠٢٠).

وقوله سبحانه: ﴿وبشر المؤمنين﴾: قِيل: هو لفظ عامٌّ، أُمِرَ ﷺ أَنْ يبشِّر أمته جميعاً بالخير من اللَّه، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصَّة لمن لم يَغْزُ، أي: لما تقدَّم في الآية وعْدُ المجاهدين وفَضْلُهم، أمر ﷺ، أنْ يبشِّر سائر المؤمنين ممَّن لم يَغْزُ بأنَّ الإيمان مُخلِّص من النَّار، والحمد للَّه رب العالمين.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ...﴾ الآية: جمهورُ المفسِّرين أنَّ هذه الآية نزلَتْ في شَأْن أبي طالب، وذلك أن رسُول اللَّه ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ حين ٱحْتُضِرَ، فَوَعَظَهُ، وقَالَ: «أَيْ عَمِّ؛ قُلْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، وَكَانَ بالحَضْرة أبو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّه بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالا لَهُ: يَا أَبَا طَالِبٍ؛ أَترغَبُ عن مِلَّة عَبْدِ المطَّلِبِ؟ فَقَالَ أبو طَالِبٍ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ، لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ يُعَيَّرَ بِهَا وَلَدِي مِنْ بَعْدِي، لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، ثُمَّ قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ إذ لم يسمع منه ﷺ ما قال العبَّاس، فنزلَتْ ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ، لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَكَانَ يستغفر له حَتَّى نَزَلَتْ هذه الآية[1]، فترك نبيُّ اللَّه ٱلاستغفارَ لأَبي طالب، وروي أنَّ المؤمنين لما رأَوْا نبيَّ اللَّه يستغفرُ لأبي طالب، جعلوا يَسْتَغْفِرُونَ لموتاهم، فلذلك دَخَلُوا في النَّهْيِ، والآية على هذا ناسخةٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٣) كتاب «الجنائز» باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلاّ اللَّه، حديث (١٣٦٠)، وفي (٧/ ٢٣٢) كتاب «مناقب الأنصار» باب: قصة أبي طالب، حديث (٣٨٨٤)، وفي (٨/ ١٩٢) كتاب «التفسير» باب: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، حديث (٤٦٧٥) وفي (٨/ ٣٦٥) كتاب «التفسير» باب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللَّه يهدي من يشاء﴾، حديث (٤٧٧٢) وفي (١١/ ٥٧٥) كتاب «الأيمان والنذور»، حديث (٦٦٨١)، ومسلم(١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) ـ شرح النووي، كتاب «الإيمان» باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، حديث (٣٩/ ٢٤)، والنسائي (٤/ ٩٠ ـ ٩١) كتاب «الجنائز» باب: النهي عن الاستغفار للمشركين، حديث (٢٠٣٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٣)، والطبري (٦/ ٤٨٨) رقم: (١٧٣٣٩)، والبيهقي في **«دلائل النبوة»** (٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبيه به، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٠٥) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وابن مردويه.

لفعله ﷺ؛ إذ أفعاله في حُكْم الشرعِ المستقِرّ، وقال ابن عبّاس وقتادة[١] وغيرهما: إنما نزلَتِ الآية بسببِ جماعةٍ من المؤمنين قالوا: نَسْتَغْفِرُ لموتانا؛ كما ٱسْتَغْفَرَ إبراهيمُ عليه السلام، فنزلَتِ الآية في ذلك، وقوله سبحانه: ﴿وما كان ٱستغفار إبراهيم لأبيه ...﴾ الآية: المعنى: لا حجّة أيُّها المؤمنون في ٱستغفار إبراهيم عليه السلام، فإن ذلك لم يكُنْ إلا عن موعدةٍ، وٱختلف في ذلك، فقيلَ: عن مَوْعِدَةٍ من إبراهيم، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وقيل: عن موعِدَةٍ من أبيه له في أَنَّهُ سيؤمن، فَقَوِيَ طمعه، فحمله ذلك على ٱلاستغفار له؛ حتى نُهِيَ عنه، ومَوْعِدَة مِنَ الوَعْدِ، وأما تبيُّنه أنه عَدُوٌّ للّه، قيل: ذلك بموت آزر على الكُفْر، وقيل: ذلك بأنه نُهِيَ عنه، وهو حيٌّ، وقوله سبحانه: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ ثَنَاءٌ مِنَ اللّه تعالَى على إبراهيم، و«الأَوَّاهُ» معناهُ الخَائِفُ الذي يُكْثِرُ التَّأَوُّهَ مِنْ خَوفِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، والتَّأَوُّهُ: التوجُّع الذي يَكْثُرُ حَتَّى ينطق الإنسان معه بـ «أَوَّهْ»؛ ومن هذا المعنى قولُ المُثَقِّب العَبْدِي: [الوافر]

إِذَا مَـا قُـمْـتُ أَرْحَـلُـهَـا بِـلَـيْـلِ   تَـأَوَّهُ أَهَّـةَ الـرَّجُـلِ الـحَـزِيـنِ[٢]

ويروى: آهَة.

وروي أن إبراهيم عليه السلام كان يُسْمَعُ وَجِيبُ قَلْبِهِ[٣] من الخشية، كما تُسْمَعُ أَجنحة النُّسُور، وللمفسِّرين في «الأَوَّاه» عباراتٌ كلُّها ترجعُ إلى ما ذكرتُه.

* ت *: روى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبدُ الحميدِ بْنُ بَهْرَام، قال: حدَّثنا شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ شَدَّاد، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا الأَوَّاهُ؟ قَالَ: «الأَوَّاهُ الخَاشِعُ الدَّعَّاءُ المُتَضَرِّعُ؛ قَالَ اللّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ إِبراهيم لأواه حليم﴾»[٤] انتهى.

و﴿حليمٌ﴾ مَعناه: صابرٌ، محتملٌ، عظيمُ العَقْل، والحِلْمُ: العقل. وقوله سبحانَهُ: ﴿وما كان اللّه ليُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم ...﴾ الآية: معناه التأنيسُ للمؤمنين، وقيل: إن

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٦)، وعزاه أيضاً لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٩١).
(٣) وجب القلب يَجبُ: وَجْباً ووجيباً وَوُجُوباً، ووجباناً: خفق واضطرب.
ينظر: «لسان العرب» (٤٧٦٧).
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٩٨) برقم: (١٧٤٣١) من حديث عبد اللّه بن شداد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

بعضهم خَافَ عَلَى نَفْسِه مِنَ ٱلاستغفار للمشركين، فنزلت الآيةُ مُؤنسة، أيْ: ما كان اللَّه بَعْدَ / أَنْ هدَى إِلى الإِسْلاَم، وأنقذ مِنَ النار لِيُحْبِطَ ذلك، ويضلَّ أهله؛ لمواقعتهم ذَنْباً لم ٢٣٣ ب
يتقدَّم من اللَّه عنه نَهْيٌ، فأما إِذا بيَّن لهم ما يتَّقون من الأمورِ، ويتجنَّبون من الأشياء، فحينئذٍ مَنْ واقع شيئاً من ذلك بعد النَّهْي، ٱستوجَبَ العقوبة، وباقي الآية بَيِّنٌ.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد تاب اللَّه على النبيِّ والمهاجرين والأنصار . . .﴾ الآية: التوبةُ مِنَ اللَّه تعالَى هو رُجُوعه بعبده مِنْ حالة إِلى أَرفَعَ منها، فقد تكونُ في الأكثَرِ رُجُوعاً من حالة طاعةٍ إِلى أَكْمَلَ منها، وهذه توبته سبحانه في هذه الآيةِ عَلَى نبيِّه عليه السلام، وأما توبته على المهاجرين والأنصار، فمعرَّضةٌ لأنْ تكونَ مِنْ تقصير إلى طاعة وجِدٍّ في الغزو ونُصْرَةِ الدِّين، وأما توبته على الفريق الذي كاد يزيغ، فَرُجُوعٌ من حالة محطوطةٍ إلى حال غفران ورضاً؛ وقال الشيخ أبو الحَسَن الشَّاذِلِيُّ رحمه اللَّه: في هذه الآية ذَكَر اللَّه سبحانه تَوْبَةَ مَنْ لَمْ يُذْنِبْ لَئِلاَ يستوحِشَ مَنْ أذنب؛ لأنه ذكر النبيَّ ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾، فذكر مَنْ لم يُذْنِبْ لِيُؤْنِسَ من قد أذنب، انتهى من «**لطائف المِنَن**».

و﴿ساعة العسرة﴾ يريد: وقت العسرة، والعُسْرة الشِّدَّةُ، وضيقُ الحَالِ، والعُدْمُ، وهذا هو جيشُ العُسْرة الذي قال فيه ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، فَلَهُ الجنة»[1]، فجهزه عثمانُ بْنُ عفَّان رضي اللَّه عنه بألْفِ جَمَلٍ، وألْف دينارٍ، وجاء أيضاً رجلٌ من الأنصار بِسَبْعِمَائَةِ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، وهذه غزوةُ تبوكَ.

* ت *: وعن ٱبْنِ عَبَّاس؛ أنَّه قيل لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّاب: حدِّثنا عن شأنِ سَاعَةِ العُسْرَة، فقال عمر: خَرَجْنا إلى تبوكَ في قَيْظٍ شديدٍ، فنزلْنا منزلاً أصابنا فيه عَطَشٌ، حتى ظَنَنَّا أَنَّ رقابنا سَتَنْقَطِعُ حتى إِنَّ الرجُلَ لَيَنْحَرُ بعيره، فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ[2] فيشربه، ثم يَجْعَلُ ما بقي

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٤٧٧) كتاب «الوصايا» باب: إذا وقف أرضاً أو بئراً، حديث (٢٧٧٨) عن عثمان بن عفان به، وأخرجه معلقاً (٧/ ٦٥) كتاب «فضائل الصحابة» باب: مناقب عثمان بن عفان.

(٢) الفَرْثُ: السِّرْجينُ ما دام في الكَرِش.
ينظر: «**لسان العرب**» ص: (٣٣٦٩).

عَلَى كَبِدِهِ، فقال أبو بكر: يا رَسُولَ اللّٰهِ؛ إِنَّ اللّٰه قد عَوَّدَكَ في الدعاءِ خيراً، فَٱدْعُ اللّٰهَ، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ ذلكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فلم يَرْجِعْهما حتَّى مالَتِ السماء، فَأَظَلَّتْ، ثم سَكَبَتْ فملؤوا ما معهم، ثم ذهبْنا ننظر، فلم نجدْها جاوَزَتِ العَسْكَر، رواه الحاكم في «**مستدركه على الصحيحين**»، وقال: صحيحٌ على شرط الشَّيْخَيْن، يعني: مسلماً والبخاريَّ[1] انتهى في «**السلاح**»، ووصَل النبيُّ ﷺ في غزوة تَبُوكَ إلى أوائلِ بلد العَدُوِّ فصالحه أَهْلُ أذرح وأَيْلَةَ وغيرهما على الجِزْية ونحوها، وَٱنْصَرَفَ، والزيغ المذْكُور هو ما هَمَّت به طائفةٌ من ٱلانصراف؛ لِمَا لَقُوا من المشقَّة والعُسْرة. قاله الحسن[2].

وقيل: زيغها إِنما كان بظُنُونٍ لها ساءَتْ في معنى عزم النبيِّ ﷺ على تلك الغزوة، لما رأته من شدَّة الحال وقوَّة العدوِّ والمقصود، ثم أخبر عزَّ وجلَّ؛ أنه تاب أيضاً على هذا الفريقِ، وراجَعَ به، وآنس بإعلامه للأمَّة بأنه رؤوفٌ رحيمٌ، والثلاثة الذين خُلِّفوا هم كعْبُ بن مالِكٍ وهلال بن أمية الوَاقفيُّ ومُرَارَةُ بنُ الرَّبيع العامريُّ، وقد خرَّج حديثهم بكماله البخاريُّ ومسلم[3]، وهو في السِّير؛ فلذلك اختصرنا سَوْقَهُ، وهم الذين تقدَّم فيهم: ﴿وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر اللّٰه﴾ [التوبة: ١٠٦]، ومعنى ﴿خُلِّفوا﴾ أُخِّروا، وتُرِكَ النظرُ في أمرهم، قال كَعْب: وليس بتخلُّفنا عَنِ الغَزْوِ، وهو بَيِّنٌ من لفظ الآية.

وقوله: ﴿وظنوا أن لا ملجأ من اللّٰه إِلا إِليه﴾، ﴿ظنوا﴾؛ هنا بمعنى: أيقنوا، قال

---

(١) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٦/ ٥٠٢) برقم: (١٧٤٤٣) والبزار (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ـ كشف)، والحاكم (١/ ١٥٩)، وابن حبان (١٣٨٣)، والبيهقي في «**دلائل النبوة**» (٥/ ٢٣١) من حديث عمر بن الخطاب، وقال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد عن عمر بهذا اللفظ. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان. والحديث ذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (٦/ ١٩٨) وقال: رواه البزار والطبراني في «**الأوسط**» ورجال البزار ثقات.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٧١٧، ٧١٩) كتاب «المغازي» باب: حديث كعب بن مالك، حديث (٤٤١٨)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠، ٢١٢٨) كتاب «التوبة» باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث (٥٣/ ٢٧٦٩)، والترمذي (٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣١٠٢)، وابن حبان (٣٣٧٠) والبيهقي في «**دلائل النبوة**» (٥/ ٢٧٣، ٢٧٩) من طريق الزهري عن عبد الرحمٰن بن عبد اللّٰه بن كعب بن مالك، عن عبد اللّٰه بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك به مطولاً.

وقد أخرج جزءاً من هذا الحديث البخاري برقم: (٢٧٥٧، ٢٩٤٧، ٢٩٤٨، ٢٩٤٩، ٢٩٥٠، ٣٠٨٨، ٣٥٥٦، ٣٨٨٩، ٣٩٥١، ٤٦٧٣، ٤٦٧٦، ٤٦٧٧، ٤٦٧٨، ٦٢٥٥، ٦٦٩٠، ٧٢٢٥)، وأيضاً أبو داود (٣٣٢٠)، والنسائي (٢/ ٥٣ ـ ٥٤)، وابن ماجه (١٣٩٣)، وأحمد (٦/ ٣٩٠)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٣٩) كلهم من طريق الزهري بهذا الإسناد مختصراً.

الشيخُ ابْنُ أبي جَمْرة رحمه اللَّه: قال بعضُ أهْل التوفيق: إذا نزلَتْ بي نازلةٌ مَا مِنْ أي نوع
كانَتْ، فَأُلْهِمْتُ فيها اللَّجَأ، فلا أبالي بها،/ واللَّجَأ على وجوه؛ منها: الاشتغال بالذِّكْرِ ١٢٣٤أ
والتعبُّدِ وتفريض الأمر له عزَّ وجلَّ، لقوله تعالى على لسان نبيه: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ
مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائلين»[1]، ومنها: الصَّدَقة، ومنها: الدعاء، فكيفَ
بالمَجْمُوع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ لما كان هذا القولُ في تعديد النعم، بدأ في ترتيبه بالجهَة الَّتي هي عَنِ اللَّه عز وجلَّ؛ ليكون ذلك مِنْها على تلقِّي النعمة مِنْ عنده لا رَبَّ غيره، ولو كان هذا القولُ في تعديد ذَنْب، لكان الابتداء بالجهة التي هِيَ على المُذْنِب، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ليكون ذلك أشدَّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا مِنْ فصاحة القُرآن وبديعِ نظمِهِ ومُعْجِزِ اتِّساقه.

وبيانُ هذه الآيةِ ومواقع ألفاظها إنما يَكْمُلُ مع مطالعة حديثِ الثلاثة الذين خُلِّفوا في الكُتُب المذكورة، فانظره، وإنما عَظُم ذنبهم، وٱستَحَقُّوا عليه ذلك، لأن الشرع يطلبهم مِنَ الجِدِّ فيه بحَسَب منازلهم منه، وتقدُّمهم فيه؛ إذ هم أُسْوة وحُجَّة للمنافقين، والطاعنين، إذ كان كعْبٌ من أهْل العقبة، وصاحباه من أهْل بدر، وفي هذا ما يقتضي أَنَّ الرجُلَ العَالِمَ والمُقْتَدَى به أَقلُّ عذراً في السقوطِ مِنْ سواه، وكَتَب الأوزاعيُّ رحمه اللَّه إلى أبي جَعْفَرٍ المنصورِ في آخر رسالةٍ: وٱعلَمْ أنَّ قرابتك مِنْ رسُولِ اللَّه ﷺ لَنْ تَزِيدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْكَ إلاَّ عِظَماً، ولا طاعَتَهُ إلا وجُوباً، ولا النَّاسَ فيما خَالَفَ ذلك مِنْكَ إلاَّ إنكاراً، والسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه وكونوا مع الصادقين﴾ هذا الأمر بالكَوْن مع الصَّادقين حَسَنٌ بعد قصَّة الثلاثة حين نَفَعَهم الصِّدْق، وذَهَبَ بهم عَنْ منازل المنافقين،

---

(١) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

وكان ابنُ مسعودٍ يتأوَّل الآية في صِدْق الحديث[١]، وإليه نحا كَعْبُ بنُ مالك.

وقوله سبحانه: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله . . .﴾ الآية؛ هذه الآية معاتبةٌ للمؤمنين من أهل يَثْرِبَ وقبائل العرب المُجَاورة لها، على التخلُّف عن النبيِّ ﷺ في غزوةٍ، وقُوَّةُ الكلام تعطي الأمر بِصُحْبَتِهِ أَيْنَ ما توجَّه غازياً وبَذْلِ النفوس دونه، و«المخْمَصَة» مَفْعَلَةٌ من خُمُوص البَطْنِ، وهو ضُمُوره واستعير ذلك لحالة الجُوع، إذ الخُمُوص ملازمٌ له، ومن ذلك قولُ الأَعْشَى: [الطويل]

تَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلاَءً بُطُونُكُمْ ... وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى[٢] يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٣]

وقوله: ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾: لفظٌ عامٌّ لقليلِ ما يصنعه المؤمنون بالكَفَرةِ ـ من أخذ مالٍ، أو إيراد هوانٍ ـ وكثيره و﴿نيلاً﴾: مصدر نَالَ يَنَالُ؛ وفي الحديث: «مَا ٱزْدَادَ قومٌ مِنْ أَهْلِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بُعْداً إلاَّ ٱزْدَادُوا مِنَ اللَّهِ قُرْباً».

* ت *: وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي مالكٍ الأشعريِّ، قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ فَصَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَاتَ، أَوْ قُتِلَ، فَهُوَ شَهِيدٌ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، وإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ»، انتهى[٤].

قال ابنُ العربي[٥] في «أحكامه»: قَوْلُه عزَّ وجلَّ: ﴿ولا يقطعون وادياً إلاَّ كُتِبَ لهم﴾: يعني إلاَّ كُتِبَ لهم ثوابُهُ، وكذلك قال في المجاهد: «إِنَّ أَرْوَاثَ دَوَابِّهِ وأَبْوَالَهَا حَسَنَاتٌ له» وَكَذَلِكَ أعطَى سبحانه لأَهْل العُذْر من الأجر ما أعطَى للقويِّ العاملِ بفضله،

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٠٩ ـ ٥١٠) برقم: (١٧٤٧٠ ـ ١٧٤٧١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٩٥)، والبغوي (٢/ ٣٣٧) نحوه، وابن كثير (٢/ ٣٩٩) نحوه.

(٢) جمع غَرْثَى وَغَرْثانة، والغَرَثُ: أيسر الجوع.
ينظر: «لسان العرب» (٣٢٣١).

(٣) البيت للأعشى ينظر: «ديوانه» (١٤٩)، «الدر المصون» (٢/ ٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢) كتاب «الجهاد» باب: فيمن مات غازياً، حديث (٢٤٩٩)، والحاكم (٢/ ٧٨)، والبيهقي (٩/ ١٦٦) كتاب «السير» باب: فضل من مات في سبيل الله، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٣٢٠) رقم: (٣٤١٨) كلهم من طريق ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن عبد الرحمٰن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: ابن ثوبان: لم يحتج به مسلم وليس بذاك، وعبد الرحمٰن بن غنم لم يدركه مكحول فيما أظن.

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ١٠٢٩).

ففي الصحيح، بأن النبيَّ ﷺ قال في هذه الغزوة بعينها: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ قَوْماً مَا سَلَكْتُمْ وَادِياً وَلاَ قَطَعْتُمْ شِعْباً إلاَّ وَهُمْ مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ العُذْرُ»[١] انتهى.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافَّة ...﴾ الآية: قالتْ فرقة: إن المؤمنين الذين / كانوا بالبادية سكَّاناً ومبعوثين لتعليم الشَّرْع، لما سمعوا قولَ اللَّه عَزَّ ٢٣٤ ب
وجلَّ: ﴿ما كانَ لأهْلِ المدينةِ ومَنْ حولهم من الأعراب ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، أهمَّهم ذلك، فنفروا إلى النبيِّ ﷺ؛ خشية أنْ يكونُوا عُصَاةً في التخلُّف عن الغَزْوِ، فنزلَتْ هذه الآية في نَفْرِهِمْ ذلك.

وقالتْ فرقة: سَبَبُ هذه الآية أن المنافقين، لما نزلَتِ الآيات في المتخلِّفين، قالوا: هَلَكَ أَهْلُ البوادِي، فنزلَتْ هذه الآية مقيمةً لعُذْرِ أهل البوادي.

قال * ع[٢] *: فيجيء قوله: ﴿ما كان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حولهم من الأعراب﴾: عمومٌ في اللفظ، والمراد به في المَعنَى الجمهورُ والأكْثَرُ، وتجيءُ هذه الآية مبيِّنة لذلك.

وقالتْ فرقةٌ: هذه الآية ناسِخَةٌ لكُلِّ ما ورد من إلزام الكافَّة النَّفير والقِتَال، وقال ابنُ عبَّاس ما معناه: أَنَّ هذه الآية مختصَّة بالبعوثِ والسَّرايا[٣] والآية المتقدِّمة ثابتةُ الحُكْم مع خروجِ رسُولِ اللَّه ﷺ في الغَزْو، وقَالَتْ فرقةٌ: يشبه أنْ يكون التفقُّه في الغَزْو وفي

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٨) كتاب «الإمارة» باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر، حديث (١٥٩/ ١٩١١)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٣) كتاب «الجهاد»، باب: من حبسه العذر عن الجهاد حديث (٢٧٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٠٠) وأبو يعلى (٤/ ١٩٣) رقم (٢٢٩١) كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر مرفوعاً.
وله شاهد من حديث أنس بن مالك. أخرجه البخاري (٧/ ٧٣٢) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤٢٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٨) كتاب «الإمارة» باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض، حديث (٥٩/ ١٩١١)، وأحمد (٣/ ١٠٣)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٣)، كتاب «الجهاد»، باب: من حبسه العذر عن الجهاد حديث (٢٧٦٤)، وأبو يعلى (٦/ ٤٥٠ ـ ٤٥١) رقم: (٣٨٣٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٥٢٤ ـ بتحقيقنا).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٩٦).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٥١٤) برقم: (١٧٤٨٥) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٩٦ ـ ٩٧)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٣٩) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٢١) نحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «المدخل».

السرايا، لِمَا يَرَوْنَ من نُصْرَةِ اللَّه لدينِهِ، وإظهارِهِ العَدَد القليلَ من المؤمنين على الكثير من الكافرين، وعِلْمِهم بذلك صحَّة دِينِ الإِسلام ومكانَتِهِ.

* ع[1] *: والجمهور على أن التفقُّه إنما هو بمشاهدة رسُولِ اللَّه ﷺ وصُحْبَته، وقيل غير هذا.

* ت * وَصحَّ عنه ﷺ، أنه قَالَ: «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا ٱسْتَنفِرْتُمْ فانفرُوا»[2]، وقد ٱسْتَنْفَرَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ الناس في غزوة تَبُوكَ، وأعلن بها حَسَبَ

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٩٧).

(٢) ورد ذلك من حديث ابن عباس، وعائشة، ومجاشع بن مسعود، وصفوان بن أمية، ويعلى بن أمية التيمي، وقول ابن عمر، وقول عمر، وحديث أبي سعيد الخدري.
فأما حديث ابن عباس: فأخرجه البخاري (٦/ ٤٥) في «الجهاد» باب: وجوب النفير (٢٨٢٥)، (٦/ ٢١٩) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤٨٧) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد، والخير، وبيان معنى: لا هجرة بعد الفتح (٨٥/ ١٣٥٣)، وأبو داود (٢/ ٦) في «الجهاد» باب: في الهجرة، هل انقطعت؟ (٢٤٨٠)، والنسائي (٧/ ١٤٦) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، والترمذي (١٥٩٠)، وأحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٤)، وعبد الرزاق(٥/ ٣٠٩) برقم: (٩٧١٣)، والدارمي (٢/ ٢٣٩) في «السير» باب: لا هجرة بعد الفتح، وابن حبان (٧/ ٤٨٤٥)، والطبراني في «**الكبير**» (١١/ ٣٠ ـ ٣١) برقم: (١٠٩٤٤)، وابن الجارود في «**المنتقى**» (١٠٣٠)، والبيهقي (٥/ ١٩٥)، (٩/ ١٦)، وفي «**دلائل النبوة**» (٥/ ١٠٨)، والبغوي في «**شرح السنة**» بتحقيقنا (٤/ ١٧٩) برقم: (١٩٩٦)، و (٥/ ٥٢٠) برقم: (٢٦٣٠) من طريق منصور، عن مجاهد، عن طاووس، عن ابن عباس مرفوعاً به.
وتابعه إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، أخرجه الطبراني (١١/ ١٨) برقم: (١٠٨٩٨).
وأخرجه الطبراني (١٠/ ٤١٣) برقم: (١٠٨٤٤) عن شيبان، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عباس.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وأما حديث عائشة: فأخرجه البخاري (٦/ ٢٢٠) في «الجهاد» باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٨٠)، (٧/ ٢٦٧) في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٠)، وفي (٧/ ٦٢٠) في «المغازي» باب: (٥٣) برقم: (٤٣١٢)، ومسلم (٣/ ١٤٨٨) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد، والخير. . . (٨٦ ـ ١٨٦٤)، وأبو يعلى (٤٩٥٢)، واللفظ لمسلم، ولأبي يعلى من طريق عطاء، عن عائشة قالت: سئل رسول اللّه ﷺ عن الهجرة؟ فقال: «لا هجرة بعد الفتح. . . .» الحديث، وفي لفظ البخاري عن عطاء قال: زرت عائشة مع عبيد بن عمير فسألتها عن الهجرة؟ فقالت: «لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى اللّه وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر اللّه الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية». وهكذا أخرجه البيهقي (٩/ ١٧).
وأما حديث مجاشع بن مسعود فأخرجه البخاري (٦/ ١٣٧) في «الجهاد» باب: البيعة في الحرب ألا =

ما هو مصرَّح به في حديث كَعْب بن مالِكٍ في «**الصِّحَاح**»، فكان العَتَبُ متوجِّهاً على مَنْ

= يفروا. . (٢٩٦٢، ٢٩٦٣)، و (٦/ ٢١٩) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٨ ـ ٣٠٧٩)، و (٧/ ٦١٩) في «المغازي» باب: (٥٣) (٤٣٠٥ ـ ٤٣٠٨)، ومسلم (٣/ ١٤٨٧) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد والخير، (٨٣ ـ ٨٤/ ١٨٦٣)، وأحمد (٣/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩)، و (٥/ ٧١)، والحاكم (٣/ ٣١٦)، والطحاوي في «**مشكل الآثار**» (٣/ ٢٥٢)، والبيهقي (٩/ ١٦)، وفي «**الدلائل**» (٥/ ١٠٩) من طريق أبي عثمان النهدي: حدثني مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقلت: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد»، فلقيت معبداً بعد ـ وكان أكبرهما ـ فسألته، فقال: صدق مجاشع. .

وأما حديث صفوان بن أمية: فأخرجه النسائي (٧/ ١٤٥) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٣/ ٤٠١) عن وهيب بن خالد، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن صفوان بن أمية قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يقولون إن الجنة لا يدخلها إلا مهاجر، قال: «لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، فإذا استنفرتم فانفروا».

وأخرجه أحمد (٣/ ٤٠١)، (٦/ ٤٦٥) عن الزهري، عن صفوان بن عبد الله بن صفوان، عن أبيه أن صفوان بن أمية بن خلف قيل له: هلك من لم يهاجر، قال: فقلت: لا أصل إلى أهلي حتى آتي رسول الله ﷺ، فركبت راحلتي، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله زعموا أنه هلك من لم يهاجر، قال: «كلا أبا وهب، فارجع إلى أباطح مكة».

وأما حديث يعلى بن أمية: فأخرجه النسائي (٧/ ١٤١) في «البيعة» باب: البيعة على الجهاد، (٧/ ١٤٥) في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤)، والطبراني في «**الكبير**» (٢٢/ ٢٥٧) رقم: (٦٦٤ ـ ٦٦٥)، والبيهقي (٩/ ١٦) من طريق ابن شهاب، عن عمرو بن عبد الرحمٰن بن أمية أن أباه أخبره أن يعلى قال: جئت إلى رسول الله ﷺ بأبي يوم الفتح، فقلت: يا رسول الله: بايع أبي على الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «أبايعه على الجهاد، وقد انقطعت الهجرة».

وأما حديث أبي سعيد الخدري: فأخرجه أحمد (٣/ ٢٢) (٥/ ١٨٧)، والطيالسي (٦٠١، ٩٦٧، ٢٢٠٥)، والبيهقي في «**دلائل النبوة**» (٥/ ١٠٩) عن أبي البختري الطائي، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس. . .﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز»، وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»، فحدثت به مروان بن الحكم وكان على المدينة، فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت، وهما قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه من عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك، قالا: صدق.

أما قول ابن عمر: فأخرجه البخاري (٧/ ٢٦٧) في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٨٩٩)، و (٧/ ٦٢٠) في «المغازي» باب: (٥٣)، و (٤٣٠٩، ٤٣١١) من طريق عطاء، عن ابن عمر كان يقول: لا هجرة بعد الفتح.

وفي لفظ آخر: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: إني أريد أن أهاجر إلى الشام، قال: لا هجرة، ولكن جهاد، فانطلق فاعرض نفسك، فإن وجدت شيئاً وإلا رجعت.

وأما قول عمر: فأخرجه النسائي (٧/ ١٤٦) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأبو يعلى =

تأخَّر عنه بعد العِلْم، فيظهر واللَّه أعلم، أنَّ الآية الأولَى باقٍ حكمها؛ كما قال ابن عباس، وتكون الثانية ليستْ في معنى الغَزْو، بل في شأن التفقُّه في الدِّين على الإِطلاق[1] وهذا هو الذي يُفْهَمُ من استدلالهم بالآية علَى فَضْلِ العلْم، وقد قالت فرقة: إن هذه الآية لَيْسَتْ في معنى الغَزْو، وإِنما سببها قبائلُ مِنَ العرب أصابتهم مجاعةٌ، فنفزوا إلى المدينة لِمَعْنَى المعاشِ، فكادوا يُفْسِدونها، وكان أكثرهم غَيْرَ صحيحِ الإيمانِ، وإِنما أَضْرَعَه الجُوع، فنزلَتِ الآية في ذلك، والإِنذارُ في الآية عامٌّ للكفر والمعاصي، والحذرِ منها أيضاً؛ كذلك قال ابن المبارك في «رقائقه» أخبرنا موسَى بْنُ عُبَيْدَة، عن محمد بن كَعْب القُرَظِيِّ، قال: إذا أراد اللَّه تبارك وتعالَى بِعَبْدٍ خيراً، جعل فيه ثلاثَ خصالٍ: فقْهاً في الدِّينِ، وزَهَادةً في الدنيا، وبَصَّرَهُ بعيوبه[2]. انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلُونكم من الكفَّار﴾ قيل: إنَّ هذه الآية نزَلَتْ قبل الأمر بقتال الكُفَّار كافَّة، فهي من التدريجِ الذي كان في أوَّل الإِسلام.

قال * ع[3] *: وهذا ضعيفٌ فإن هذه السورة من آخر ما نَزَلَ.

وقالتْ فرقة: معنى الآية أنَّ اللَّه تبارك وتعالى أمر فيها المؤمنين أنْ يقاتل كُلُّ فريقٍ منهم الجنْسَ الذي يليه من الكَفَرة.

وقوله سبحانه: ﴿ولْيَجِدُوا فيكُمْ غلظةً﴾: أي: خشونةً وبأساً، ثم وعَدَ سبحانه في آخر الآية وحَضَّ على التقوَى التي هي مِلاَكُ الدِّينِ والدنيا، وبها يُلْقَى العَدُوُّ، وقد قال

في «مسنده» (١٨٦)، عن شعبة، عن يحيى بن هانىء، عن نعيم بن دجاجة قال: سمعت عمر يقول: لا هجرة بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ.

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥١٤) برقم: (١٧٤٨٨)، وابن كثير (٢/ ٤٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٥٢٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٩٥ ـ ٩٦) رقم: (٢٨٢) ومن طريقه أبي نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢١٣).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣/ ٩٧).

بعضُ الصحابة: إِنما تُقَاتِلُونَ النَّاس بأعمالكم، وَوَعَد سبحانه أنه مع المتَّقِينَ، وَمَنْ كان اللّه مَعهُ، فَلَنْ يُغْلَبَ.

وقوله تعالى: ﴿وإِذَا مَا أُنزلَتْ سورة فمنهم من يقول أيكم زادَتْهُ هذه إيماناً . . .﴾ الآية: هذه الآية نزلَتْ في شأن المنافقين، وقولهم: ﴿أيكم زادته هذه إيماناً﴾ يحتمل أنْ يكون لمنافقينَ مِثْلِهِمْ، أو لقوم من قراباتهم؛ علَى جهة ٱلاستخفَافِ والتحقير لشأن السُّورة، ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الردَّ عليهم بقوله: ﴿فأما/ الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ وذلك أنه إذا نزلَتْ ١٢٣٥أ
سورةٌ، حَدَثَ للمؤمنين بها تصديقٌ خاصٌ، لم يكنْ قبلُ، فتصديقهم بما تضمَّنته السورةُ مِنْ أخبار وأمرٍ ونَهْيٍ أمرٌ زائد على الذي كان عِنْدهم قبلُ، وهذا وجْهٌ من زيادة الإِيمان.

ووجه آخر؛ أنَّ السورة ربَّما تضمَّنت دليلاً أو تنبيهاً على دليل، فيكون المؤمن قد عَرَفَ اللّه بعدَّة أدلَّة، فإِذا نزلت السورةُ، زادَتْ في أدلَّته، وَوَجْهٌ آخر مِن وجوه الزيادة أنَّ الإِنسان ربَّما عرضه شكٌ يسيرٌ، أو لاحَتْ له شبهة مشغِّبة، فإِذا نزلَتِ السورة، ارتَفَعَتْ تلك الشبهة، وقَوِيَ إِيمانه وٱرتقى ٱعتقاده عن معارَضَة الشبهاتِ، و﴿الذين في قلوبهم مرض﴾: هم المنافقون، و«الرجْسُ»؛ في اللغة: يجيء بمعنى القَذَرِ، ويجيء بمعنى العذاب، وحالُ هؤلاء المنافقين هي قَذَرٌ، وهي عذابٌ عاجلٌ، كفيلٌ بآجِلٍ، وإِذا تَجدَّد كفْرُهم بسورةٍ، فقد زاد كُفرهم، فذلك زيادةُ رجْسٍ إِلى رِجْسهم.

وقوله سبحانه: ﴿أولا يرون﴾ يعني: المنافقين، وقرأ حَمزة: «أَوَلاَ تَرَوْنَ» ـ بالتاء من فوق ـ؛ على معنى: أولا تَرَوْنَ أيُها المؤمنون؛ ﴿أنهم يُفْتَنُونَ﴾، أي: يُخْتَبرُونَ، وقرأ مجاهدٌ: «مَرْضَةً أَوْ مَرْضَتَيْنِ»، والذي يظهر مما قبل الآية، ومما بعدها أَنَّ الفتنة وٱلاختبار إِنما هي بكَشْفِ اللّه أسرارهم وإِفشائه عقائدهم؛ إِذ يعلمون أنَّ ذلك مِنْ عند اللّه، وبهذا تقومُ الحُجَّة عليهم، وأما ٱلاختبار بالمَرَضِ فهو في المؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا ما أنزلَتْ سورة نظر بعضهم﴾: المعنى: وإِذا ما أنزلَتْ سورةٌ فيها فضيحةُ أسرار المنافقين، ﴿نظر بعضُهم إِلى بعضٍ هل يراكم من أحد﴾: أي: هلْ معكم مَنْ يَنْقُلُ عَنكم، هَلْ يراكم من أحدٍ حين تدبِّرون أموركم، ﴿ثم ٱنصرفوا﴾ عَنْ طريق ٱلاهتداء؛ وذلك أنهم وقْتَ كشْف أسرارهم والإِعلام بمغيِّبات أمورهم، يقع لهم لا مَحالة تَعَجُّب وتوقُّف ونَظَر، فلو أريد بهم خَيْرٌ، لكان ذلك الوَقْتُ مَظنَّةَ ٱلاهتداءِ، وقد تقدَّم بيانُ قوله: ﴿صرف اللّه قلوبهم﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم ...﴾ الآية مخاطبةٌ للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديدِ النعمة عَلَيْهِمْ؛ إِذْ جاءَهم بلسانِهِمْ، وبما يفهمونه مِنَ الأَغراض والفصاحةِ، وشُرِّفوا به غَابِرَ الدهْرِ.

وقوله: ﴿من أنفسكم﴾: يقتضي مدْحاً لنسبه ﷺ، وأنه من صميم العَرَبِ، وشَرَفِها، وقرأ عبد اللّه بن قُسَيْطٍ المَكِّيُّ: «مِنْ أَنفَسِكُمْ» ـ بفتح الفاء ـ؛ من النَّفَاسة، ورويت عن النبيِّ ﷺ، وقوله: ﴿ما عنتم﴾: معناه عَنَتُكُمْ؛ فـ «ما» مصدريةٌ، والعَنَت: المشقَّة، وهي هنا لفظةٌ عامَّة، أي: عزيز عليه مَا شَقَّ عليكم: مِنْ قتلٍ وإِسارٍ وٱمتحانٍ؛ بحسب الحَقِّ وٱعتقادكم أيضاً معه، ﴿حريصٌ عليكُم﴾ أي: علَى إِيمانكم وهداكم.

وقوله: ﴿بالمؤمنين رءوف﴾ أي: مبالغٌ في الشفقة عليهم، قال أبو عُبَيْدة: الرَّأْفَة أرقُّ الرحمة.

ثم خاطَبَ سبحانه نبيَّه بقوله: ﴿فَإِنْ تَولَّوا﴾، أي: أعرضوا، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللّه لا إِلٰه إِلا هو عليه توكَّلت وهو رب العرشِ العظيم﴾: هذه الآية من آخر مَا نَزَلَ، وصلى اللّه علَى سَيِّدنا ومولانا محمَّد وعلَى آله وصَحْبه وسَلَّم تسليماً كثيراً، ولا حول ولا قوة إلاَّ باللّه العلي العظيم.

تفسير سورة يونس

/ بعضُها نزلَ بمكة، وبعضُها بالمدينة ٢٣٥ ب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿الٓر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ المراد بـ ﴿الكتاب﴾: القرآن، و﴿الحكيم﴾: بمعنى مُحْكَم، ويمكن أنْ يكون: «حكيم» بمعنى ذِي حِكْمة، فهو على النَّسب.

وقوله عز وجل: ﴿أكان للنَّاس عجباً . . .﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: سبب هذه الآية ٱستبعادُ قُرَيْش أَنْ يبعث اللَّه بشراً رسولاً[١]، والقَدَمُ هنا مَا قُدِّم، وٱختُلف في المراد بها هٰهنا، فقال ابنُ عبَّاس ومجاهد والضحاك وغيرهم: هي الأعمال الصَّالحات من العبادات[٢]. وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: هي شَفَاعة محمَّد ﷺ[٣]، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: هي السعادةُ السَّابقة لهم في اللَّوْح المحفوظ[٤]، وهذا أليق الأَقْوَالِ

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٧) برقم: (١٧٥٤٢) وبرقم: (١٧٥٤٣) عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٠٦) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٥)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨) برقم: (١٧٥٤٤، ١٧٥٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣)، والبغوي (٢/ ٣٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٠٦) كلهم بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٨) برقم: (١٧٥٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٠٦) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٦)، وزاد نسبته إلى أبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٨) برقم: (١٧٥٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٠٦) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٥)، وزاد نسبته إل ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

بالآية؛ ومن هذه اللفظة قَوْلُ حَسَّان رضي اللَّه عنه[١]: [الطويل]

لَنَا القَدَمُ العُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفَنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ[٢]

ومن هذه اللفظة قوله ﷺ: «حَتَّى يَضَعَ الجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ»[٣] أيْ ما قَدَّمَ لها، هذا على أن الجبَّار ٱسْمُ اللَّه تعالى، و«الصِّدْق» هنا بمعنى الصَّلاح، وقال البخاريُّ: قال زَيْدُ بن أسْلَمَ: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ مُحَمَّد ﷺ[٤]. انتهى.

وقولهم: ﴿إن هذا لساحر مبين﴾: إنما هو بسبب أنَّه فَرَّق بذلك كلمتهم، وحَالَ بين القريب وقريبه؛ فأشبه ذلك ما يفعله السَّاحر في ظَنِّهم القاصِرِ؛ فَسَمَّوْه ساحراً.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن ربكم اللَّه الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام . . .﴾ الآية: هذا ٱبتداءُ دعاءٍ إِلَى عبادة اللَّه عزَّ وجلَّ وتوحيدِهِ، وذَكَرَ بعضُ الناس أَنَّ الحكمة في خَلْقِ اللَّه تعالَى هذه الأشياءَ في مُدَّة محدودةٍ ممتدَّة، وفي القُدْرة أنْ يقول لها: كُنْ؛ فَتَكُون، إنما هي لِيُعَلِّمَ عباده التُّؤَدة والتماهُلَ في الأمور، قال * ع[٥] *: وهذا مما لا يُوصَلُ إِلى تعليله، وعلى هذا هي الأجنةُ في البُطُون، وخَلْقُ الثمار، وغير ذلك، واللَّه عزَّ وجلَّ قد جَعَلَ لكلِّ شيء قَدْراً، وهو أعلم بوجْهِ الحِكْمَةِ في ذلك.

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣).

(٢) البيت في «ديوانه» (٢٤١)، والطبري (١٣/ ٢٠٩)، و«البحر» (٥/ ١٢٤)، و«الدر المصون» (٣/ ٣٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٠) كتاب «التفسير» باب: وتقول: ﴿هل من مزيد﴾، حديث (٤٨٤٨)، ومسلم (٤/ ٢١٨٧) كتاب «الجنة» باب: النار يدخلها الجبارون، حديث (٣٧/ ٢٨٤٨)، والترمذي(٥/ ٣٩٠) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة قَ، حديث (٣٢٧٢)، وأحمد (٣/ ١٣٤، ١٤١، ٢٣٤)، وأبو يعلى (٥/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩)، رقم: (٣١٤٠)، وابن حبان (٢٦٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: (٣٤٩) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١٩٦) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس»، وذكر معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق ابن عيينة، عنه بهذا الحديث. كما قال ابن حجر، والطبري (٦/ ٥٢٩) برقم: (١٧٥٥٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٤).

وقوله سبحانه: ﴿يدبِّر الأمر﴾ يصحُّ أن يريد بالأمر ٱسْمَ الجنْس من الأمور، ويصحُّ أن يريد الأمر الذي هو مصْدَر أَمر يأْمُرُ، وتدبيره لا إله إلا هو إِنما هو الإِنفاذ؛ لأنه قد أحاط بكلِّ شيء عِلْماً، قال مجاهدٌ: ﴿يُدَبِّر الأمر﴾: معناه: يَقْضيه وحْده[1].

وقوله سبحانه: ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾؛ ردٌّ على العرب في ٱعتقادها؛ أن الأصنام تشفع لها عند اللَّه.

﴿ذلكم اللَّه﴾ أي: الذي هذه صفاتُهُ فٱعبدوه، ثم قَرَّرهم على هذه الآيات والعبر، فقال: ﴿أفلا تَذَكَّرون﴾.

وقوله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً . . .﴾ الآية إنباءٌ بالبعث.

وقوله: ﴿يبدأ الخَلْقَ﴾ يريد: النشأة الأولى، والإِعادةُ: هي البَعْثُ من القبور.

﴿ليجزي﴾: هي لام كَيْ، والمعنى: أنَّ الإِعادة إِنما هي ليقع الجزاءُ على الأعمال.

وقوله: ﴿بالقسط﴾: أي: بالعدل.

وقوله: ﴿الذين كفروا﴾: ٱبتداء، والحَمِيمُ الحارُّ المسخَّن، وحميمُ النار فيما ذُكِرَ عن النبيِّ ﷺ: «إِذَا أَدْنَاهُ الكَافِرُ مِنْ فِيهِ، تَسَاقَطَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ»[2] وهو كما وصفه سبحانه: ﴿يَشْوِي الوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٣٠) برقم: (١٧٥٥٩، ١٧٥٦٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٧٠٦) كتاب «صفة جهنم» باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار، حديث (٢٥٨٤)، وفي (٥/ ٤٢٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة سأل سائل، حديث (٣٣٢٢)، وأحمد (٣/ ٧٠ ـ ٧١)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٠) رقم: (١٣٧٥)، والحاكم (٤/ ٦٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقوله سبحانه: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً . . .﴾ الآية: هذا
استمرارٌ على وَصْف/ آياته سبحانه، والتنبيه على صنعته الدَّالة علَى وحدانيته، وعظيم ١٣٦ أ
قُدْرته.

وقوله: ﴿قدَّره منازل﴾: يحتمل أنْ يعود الضمير على «القمر» وحده؛ لأنه المراعَى في معرفة عَدَدِ السِّنينَ والحِسَابِ عند العرب، ويحتمل أنْ يريدَ الشَّمْسَ والقَمَرَ معاً، لكنه اجتزأ بذكْر أَحدهما؛ كما قال: ﴿واللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقوله: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أيْ: رفقاً بكم، ورَفعاً للالتباس في معايشِكُم وغير ذلك مما يُضْطَرُّ فيه إلى معرفة التواريخ.

وقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾: إنما خصهم، لأن نَفْعَ هذا فيهم ظَهَرَ.

وقوله سبحانه: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق اللَّه في السمٰوات والأرض . . .﴾ الآية: آية اعتبارٍ وتنبيهٍ، والآياتُ: العلامات، وخصَّص القوم المتَّقين؛ تشريفاً لهم؛ إذ الاعتبارُ فيهم يقع، ونسبتهم إلَى هذه الأشياء المَنْظُور فيها أَفْضَلُ مِنْ نسبة مَنْ لم يَهْتَدِ ولا اتَّقى.

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين لا يَرْجُونَ لقاءَنا . . .﴾ الآيَةَ: قال أبو عُبَيْدة[1] وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾، في هذه الآية: بمعنى يخافُون[2]؛ واحتجُّوا ببَيْتِ أَبي ذُؤَيْبٍ: [الطويل]

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[3]

وقال ابن سِيدَه والفرّاء: لفظة الرَّجاءِ، إذا جاءَتْ منفيَّةً، فإنها تكونُ بمعنى الخَوْفِ، فعَلَى هذا التأويل معنى الآية: إنَّ الذين لا يخافون لقاءنا، وقال بعض أهل العلم: الرجاءُ، في هذه الآية: على بابه؛ وذلك أن الكافر المكذِّب بالبعث لا يُحْسِنُ ظَنًّا بأنه يَلْقَى اللَّه، ولا له في الآخرة أَمَلٌ؛ إذ لو كان له فيها أَمَلٌ؛ لقارنه لا محالة خَوْفٌ، وهذه الحالُ من الخَوْفِ المقارِنِ هي القائِدَةُ إلى النجاة.

قال * ع[4] *: والذي أقُولُ به: إنَّ الرجاء في كلِّ موضع هو علَى بابه، وأنَّ بيت

---

(١) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٧٥).
(٢) ذكره ابن عطية ٣/ ١٠٦).
(٣) البيت لأبي ذؤيب كما ذكر المصنف، ينظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٤٣)، «الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«الدر المصون» (١/ ٥٣٤) و«جمهرة الشعراء» (٩).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٧).

الهُذَلِيّ معناه: لَمْ يَرْجُ فقد لَسْعِهَا، قال ابن زَيْد: هذه الآية في الكُفَّار[١].

وقوله سبحانه: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾: يريد: كَانَتْ مُنتَهى غرضهم، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: إذا شِئْتَ رأيت هذا الموصُوفَ صاحِبَ دنيا، لها يغضبُ، ولها يرضَى، ولها يفرح، ولها يهتَمُّ ويحزن، فكأنَّ قتادةَ صَوَّرها في العصاةِ[٢]، ولا يترتب ذلك إلا مع تأوُّل الرَّجَاءِ على بابه؛ لأن المؤمِنَ العاصِيَ مستَوْحِشٌ من آخرته، فأما على التأويلِ الأول، فمن لا يخافُ اللَّه، فهو كَافِرٌ.

وقوله: ﴿واطمأنوا بها﴾: تكميلٌ في معنى القناعةِ بها، والرفْضِ لغيرها.

وقوله: ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾: يحتمل أنْ يكون ٱبتداءَ إشارةٍ إلى فرقةٍ أُخرَى، ثم عقَّب سبحانه بذكْر الفرقة الناجيَةِ، فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم . . .﴾ الآية، الهدايةُ في هذه الآية تحتملُ وجْهين:

أحدهما: أن يريد أنَّه يديمهم ويثبِّتهم.

الثَّاني: أنْ يريد أنه يرشدُهم إلى طريق الجِنانِ في الآخرة.

وقوله: ﴿بإيمانهم﴾ يحتملُ أَنْ يريد: بسبب إيمانهم، ويحتمل أن يكونَ الإيمانُ هو نَفس الهُدَى، أي، يهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم. قال مجاهد: يكون لهم إيمانُهم نوراً يمشُونَ به، ويتركَّب هذا التأويل، على ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: «أَنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ، إذَا قَامَ مِنْ قَبْرِهِ لِلْحَشْرِ تَمَثَّلَ لَهُ رَجُلٌ جَمِيلُ الوَجْهِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُودُهُ إِلَى الجَنَّةِ، وبعَكْسِ هذا في الكَافِرِ، ونحو هذا مما أسنده الطبري[٣] وغيره.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿دعواهم﴾: أي: دعاؤهم فيها و﴿سبحانك اللّهم﴾: تَقْدِيسٌ وتسبيحٌ وتنزيهٌ لجلاله سبحانه عن كلِّ ما لا يليق به، وقال علي بن أبي طالب في ذلك: هي كلماتٌ رَضِيَهَا اللّه تعالى لنفسه[٤]، وقال طلحة بن عبيد اللّه/ : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّه؛ مَا ٢٣٦ ب

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٠٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٧)، وزاد نسبته إلى أبي الشيخ.
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ١٠٧).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٥٣٦) برقم: (١٧٥٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٧).

مَعْنَى سُبْحَانَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: مَعْنَاهَا: «تَنْزِيهاً للَّهِ مِنَ السُّوءِ»، وَحُكِيَ عن بعض المفسِّرين أنهم رَوَوْا أَنَّ هذه الكلمةَ إِنَّما يقولها المؤمنُ عِنْدَ ما يشتهي الطَّعَام، فإنه إذا رأى طائِراً أو غير ذلك، قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، فنزلتْ تلك الإِرادة بَيْنَ يديه فَوْقَ ما ٱشْتَهَى. رواه ابنُ جُرَيْج وسفيانُ بن عُيَيْنة، وعبارة الداووديِّ عن ابنِ جُرَيْج: «دَعْواهُمْ فيها»: قال: إِذا مَرَّ بهم الطائرُ يَشْتَهُونه، كان دعواهم به ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، فيأكلون منه ما يَشْتَهُونَ، ثم يطيرُ، وإِذا جاءتهم الملائكةُ بما يَشْتَهُونَ، سَلَّمُوا عَلَيْهم، فذلك قولُهُ: ﴿وتحيَّتهم فيها سلامٌ﴾، وإِذا أكلوا حاجتهم، قالوا: ﴿الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالمين﴾، فذلك قوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد للَّه ربِّ العالمين﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وتحيَّتهم فيها سلامٌ﴾: يريدُ تسليمَ بعضهم على بعض، والتحيَّة: مأخوذة مِنْ تَمَنِّي الحياةِ للإِنسان والدُّعاءِ بها، يقالُ: حَيَّاهُ ويُحيِّيه؛ ومنه قَوْلُ زُهَيْرِ بن جنَابٍ: [الكامل]

مِــنْ كُــلِّ مَــا نَــالَ الــفَــتَــى   قَــدْ نِــلْــتُــهُ إِلاَّ الــتَّــحِــيَّــهْ[1]

يريد: دعاء الناس للمُلُوكِ بالحياةِ، وقال بعضُ العلماء: ﴿وتحيَّتهم﴾ يريد: تسليم اللَّه تعالَى عليهم، والسَّلام: مأخوذٌ من السَّلامة، ﴿وآخر دعواهم﴾: أي: خاتمةُ دعائِهِم وكلامِهِمْ في كلِّ موطِنٍ حَمْدُ اللَّه وشُكْرُهُ، عَلَى ما أسبغ عليهم من نعمه، وقال ابن العربيِّ في «أحكامه»[2]. في تفسير هذه الآية قولان:

الأول: أَنَّ المَلَكَ يأتيهم بما يشتهون، فيقول: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، أي: سَلِمْتُم، فَيَرُدُّون عليه، فإِذا أكلوا، قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

الثاني: أَنَّ معنى «تحيَّتهم»: أي: تحيَّة بعضهم بعضاً، فقد ثبت في الخبر: «أن اللَّه تعالى خلق آدَمَ، ثم قَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلى أُولَئِكَ النَّفر مِنَ المَلاَئِكَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ، وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[3]، وبَيَّنَ في القرآن هٰهنا أنها تحيتهم في الجنَّة،

---

(١) البيت لزهير بن جناب في «إصلاح المنطق» ص: (٣١٦)، و«الأغاني» (١٨/ ٣٠٧)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٣٨٦)، و«لسان العرب» (١١/ ٤٦) (بجل)، (١٤/ ٢١٦) (حيا)، و«المؤتلف والمختلف» ص: (١٣٠)، وبلا نسبة في «خزانة الأدب» (٥/ ٢٩٩)، و«شرح التصريح» (١/ ٣٢٦)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي: ص (١٠٠)، و«لسان العرب» (١٤/ ٢١٧) (حيا).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٥٠).

(٣) تقدم تخريجه.

فهي تحيَّة موضوعةٌ من أول الخلقة إلى غير نهاية، وقد رَوَى ابنُ القاسِمُ، عن مالكٍ في قوله تعالى: ﴿وتحيَّتهم فيها سلام﴾ أي: هذا السَّلام الذي بين أظهركم، وهذا أظهر الأقوال، واللَّه أعلم. انتهى.

وقرأ الجمهور[١]: «أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ»، وهي عند سِيْبَوَيْهِ[٢] «أن» المخفَّفَةُ من الثقيلة؛ قال أبو الفتح: فهي بمنزلة قول الأعْشَى: [البسيط]:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ[٣]

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو يعجِّل اللَّه للناس الشرَّ ٱستعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ...﴾ الآيَة: هذه الآيَةُ نزلَت، في دعاء الرَّجُل على نَفْسه أو ولده، أو ماله، فأخبر سبحانه أنَّه لو فعل مع النَّاس في إجابته إلى المَكْروه مثْلَ ما يريدُ فعله معهم في إجابته إلى الخَيْر، لأهلكهم، وحُذِفَ بعد ذلك جملة يتضمَّنها الظاهرُ، تقديرها: فلا يفعلْ ذلك، ولكنْ يَذَرُ ﴿الذين لا يَرْجُونَ لقاءنا ...﴾ الآية، وقيل: إن هذه الآية نزلَتْ في قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقيل: نَزَلَتْ في قولهم: ﴿أَئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [هود: ٣٢]، وما جرى مجراه، والعَمَهُ: الخبط في ضلال.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ...﴾ الآية: هذه الآية أيضاً

---

(١) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ١٠٨)، و**«البحر المحيط»** (٥/ ١٣٢).

(٢) ينظر: **«الكتاب»** (١/ ٤٨٠).

(٣) ينظر: **«ديوانه»** ص: (١٠٩)، و**«الأزهية»** ص: (٦٤)، و**«الإنصاف»** ص: (١٩٩)، و**«تلخيص الشواهد»** ص: (٣٨٢)، و**«خزانة الأدب»** (٥/ ٤٢٦)، (٨/ ٣٩٠)، (١٠/ ٣٩٣)، (١١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤)، و**«الدرر»** (٢/ ١٩٤)، و**«شرح أبيات سيبويه»** (٢/ ٧٦)، و**«الكتاب»** (٢/ ١٣٧)، (٣/ ٧٤، ١٦٤، ٤٥٤)، و**«المحتسب»** (١/ ٣٠٨)، و**«مغني اللبيب»** (١/ ٣١٤)، و**«المقاصد النحوية»** (٢/ ٢٨٧)، و**«المنصف»** (٣/ ١٢٩)، وبلا نسبة في **«خزانة الأدب»** (١٠/ ٣٩١) و**«رصف المباني»** ص: (١١٥)، و**«شرح المفصل»** (٨/ ٧١)، و**«المقتضب»** (٣/ ٩)، و**«همع الهوامع»** (١/ ١٤٢).

عتاب على سوء الخُلُقِ من بعض الناس، ومضمَّنه النهيُ عن مثل هذا، والأمرُ بالتسليم إلى اللَّه والضَّراعة إليه في كلِّ حال، والعلْمُ بأنَّ الخير والشر منه، لا رَبَّ غيره، وقوله: ﴿لجنبه﴾، في موضع الحال؛ كأنه قال: مُضْطَجِعاً، والضُّرُّ عامٌ لجميع الأمراض والرزايا.

وقوله: ﴿مر﴾ يقتضي أن نزولها في الكفَّار، ثم هي بعد تتناوَلُ كلَّ من دَخَلَ تحتَ معناها مِنْ كافرٍ وعاصٍ.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد أهلكنا القرون من / قبلكم ...﴾ الآية: آيةُ وعيدٍ للكفَّار، ٢٣٧ أ
وضرْبِ أمثالٍ لهم، و﴿خلائف﴾: جمع خليفة.

وقوله: ﴿لننظر﴾: معناه: لنبيِّن في الوجود ما عَلِمْناه أزلاً، لكنْ جرى القول على طريق الإِيجاز والفصاحةِ والمجاز، وقال عمر رضي اللَّه عنه: إنَّ اللَّه تعالَى إنما جَعَلَنَا خلفاء؛ لينظر كَيْفَ عَمَلُنا؛ فَأَرُوا اللَّه حُسْنَ أعمالكم في السر والعلانية(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ تتلى عليهم آياتنا بيِّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ يعني: بعْضَ كفار قريش: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غير هذا أو بدِّله﴾، ثم أمر سبحانه نبيه أَنْ يردَّ عليهم بالحق الواضح، فقال: ﴿قل لو شاء اللَّه ما تلوته عليكم﴾ ولا أعلمكم به، و﴿أدراكم﴾ بمعنى: أعلمكم، تقول: دَرَيْتُ بالأمْرِ، وأَدْرَيْتُ بِهِ غيري، ثم قال: ﴿فقد لبثْتُ فيكم عُمُراً من قبله﴾ يعني: الأربعين سنةً قبل بعثته عليه السلام، أي: فلم تجرِّبوني في كَذِبٍ، ولا تكلَّمتُ في شيءٍ مِنْ هذا ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أَنَّ من كان على هذه الصفة لا يصحُّ منه كذب بعد أَنْ ولَّى عمره، وتقاصَرَ أملُهُ، واشتدَّت حِنْكَته وخوفُه لربِّه.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٣٩) برقم: (١٧٥٩٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ١١٠)، والسيوطي (٣/ ٥٤٠)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن قتادة.

وقوله: ﴿فمن أظلم﴾: ٱستفهامٌ وتقريرٌ، أي: لا أحد أظلم ممَّن ٱفترى على اللَّه كذباً، أو ممَّن كذَّب بآياته؛ بَعْد بيانها، والضمير في ﴿يعبدون﴾ لكفَّار قريش، وقولهم: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه﴾: هذا قول النبلاء منهم، ثم أمر سبحانه نبيَّه أن يقرِّرهم ويوبِّخهم بقوله: ﴿أتنبئون اللَّه بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض﴾، وذكْر السمٰوات؛ لأن من العرب من يعبد الملائكة والشِّعْرَى، وبحسب هذا حَسُنَ أن يقول: ﴿هؤلاء شفعاؤنا﴾، وقيل: ذلك على تجوُّز في الأصنام التي لا تَعْقِلُ.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان الناس إلا أمَّة واحدةً فٱختلفوا﴾ قالت فرقة: المراد آدم كان أُمة وحده، ثم اختلف الناس بعده، وقالت فرقة: المراد آدم وبنوه مِنْ لدن نزوله إلى قتل أحد ٱبنيه الآخَرَ، ويحتمل أن يريد: كان الناس صِنْفاً واحداً بالفِطْرة معدًّا للاهتداء، وقد تقدَّم الكلام علَى هذا في قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله سبحانه: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يريد: قضاءه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقَّتة، ويحتمل أنْ يريد: الكَلِمَةَ في أمر القيامة، وأنَّ العقابَ والثوابَ إنما يكونُ حينئذٍ.

وقوله: ﴿فقل إنما الغيب للَّه﴾ أي: إنْ شاء فَعَلَ، وإن شاء لَمْ يَفْعَلْ.

وقوله: ﴿فانتظروا﴾: وعيدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً من بعد ضراء مستهم . . .﴾ الآية: هذه الآية في الكفَّار، وهي بعْدُ تتناول من العُصَاةِ مَنْ لا يؤدي شكر اللَّه عند زوال المَكْروه عنه، ولا يرتدعُ بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثيرٌ، والرحمة هنا بعد الضرَّاء؛ كالمطر بعد القَحْط، والأمن بعد الخَوْف ونحو هذا ممَّا لا ينحصر، والمَكْر: ٱلاستهزاء والطَّعْن عليها مِن الكُفَّار وٱطِّراح الشكر والخوف من العصاة.

وقال أبو عليٍّ: ﴿أَسْرَعُ﴾ من «سَرُعَ» لا من «أَسْرَعَ يُسْرِعُ»، إذ لو كان من «أَسْرَعَ»، لكان شاذًّا.

قال * ع[١] * وفي الحديث في نار جهنم: «لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ القَارِ»[٢] وما حفظ للنبيِّ ﷺ، فليس بشَاذٍ. * ص *: وَرُدَّ بأن «أَسْوَدُ» مِنْ «فَعِلَ» لا من «أَفْعَلَّ»: تقولُ: سَوِدَ فَهُوَ أَسْوَدُ، وإنما ٱمتنَعَ من «سَوِدَ» ونحوهِ عِنْد البَصْريِّين؛ لأنه لَوْنٌ. انتهى.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هو الذي يسيِّركم في البر والبحر ...﴾ الآية: تعديدُ نِعَمٍ منه سبحانه على عباده.

وقوله سبحانه: ﴿دعوا اللَّه مخلصين له الدِّين﴾: أي: نسوا الأصنام والشركاء، وأفردوا الدعاء للَّه سبحانه، وذكَر الطبريُّ في ذلك، عَنْ بعض العلماء حكايةَ قَوْلِ العَجَمِ: «هيا شرا هيا»، ومعناه: يا حَيُّ يَا قَيُّومُ، و﴿يبغون﴾: معناه: يُفسدون.

وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ متاع: خبر مبتدأ محذوفٍ، تقديره هو متاع، أو ذلك
٢٣٧ب مَتَاعٌ، ومعنى الآية: إنما بغيكم وإفسادكم / مُضِرٌّ لكم، وهو في حالة الدنيا، ثم تَلْقَوْنَ عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عُيَيْنة: إنما بغيكم على أنفسِكُمْ متاع الحياة الدنيا: أي تُعَجَّلُ لكم عقوبته؛ وعلى هذا قالوا: البَغْيُ يَصْرَعُ أهله.

قال * ع[٣] *: وقالوا: البَاغِي مصروعٌ: قال تعالى: ﴿ثُم بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّه﴾ [الحج: ٦٠]، وقال النبيُّ عليه السلام: «ما ذَنْبٌ أَسْرَعُ عُقُوبَةً مِنْ بَغْيٍ».

وقوله سبحانه: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ أي: تفاخُرُ الحياة الدنيا وزينَتُها بالمَالِ

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٢).
(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٤) برقم: (٢) عن أبي هريرة موقوفاً.
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٤).

والبَنِينَ، إذ مصيرُ ذلك إلى الفَناءِ؛ كمطرٍ نَزَلَ من السماءِ، ﴿فَٱخْتَلَطَ به نباتُ الأرضِ﴾، أي: ٱختلط النباتُ بعْضُهُ ببعض بسَبَبِ الماء، ولفظ البخاريِّ: قال ابن عباس: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِ نباتُ الأَرْضِ﴾: فنبت بالماء مِنْ كلِّ لونٍ[1] انتهى. و﴿أَخَذَتِ الأَرْضُ﴾ لَفْظَةٌ كثُرت في مثل هذا، كقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] والزُّخْرُف: التزيينُ بالألوان، وقرأ ابن مسعود[2] وغيره: «وتَزَيَّنَتْ»، وهذه أصل قراءة الجمهور.

وقوله: ﴿وظن أهلها﴾: على بابها، وهذا الكلامُ فيه تشبيهُ جملة أمْرِ الحياة الدنيا بهذه الجُمْلَةَ الموصُوفَة أحوالُهَا، و﴿حتى﴾ غايةٌ، وهي حرفُ ٱبتداءٍ؛ لدخولها على «إذا»، ومعناهما متَّصِلٌ إلى قوله: ﴿قادرون عليها﴾، ومن بعد ذلك بدأ الجوابُ، والأمْرُ الآتي: واحِدُ الأمور؛ كالرِّيحِ، والصِّرِّ، والسَّمُومِ، ونحوِ ذلك، وتقسيمُهُ ﴿ليلاً أو نهاراً﴾، تنبيهٌ على الخَوْف وٱرتفاعِ الأمْنِ في كلِّ وقت، و﴿حصيداً﴾، بمعنى محصودٍ، أي: تالفاً مستهلكاً، ﴿كأنْ لم تَغْنَ﴾: أي: لم تنضر، ولم تنعم، ولم تعمر بغَضَارتها، ومعنى الآية: التحذير من ٱلاغترار بالدنيا؛ إذ هي معرَّضة للتلف؛ كنبات هذه الأرض وخَصَّ المتفكِّرين بالذكْر؛ تشريفاً للمنزلة؛ وليقَعَ التسابُقُ إلى هذه الرتبة.

﴿والله يدعوا إلى دار السَّلام ...﴾ الآية: نصٌّ أن الدعاء إلى الشرْع عامٌّ في كل بَشَرٍ، والهداية التي هي الإرشادُ مختصَّةٌ بمَنْ قدِّر إيمانه، و﴿السَّلام﴾؛ هنا: قيل: هو ٱسمٌ من أسماء الله تعالى، والمعنَى: يدعو إلى داره التي هي الجنَّة، وقيل: ﴿السلام﴾ بمعنى السَّلامة.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٩٦) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس» وذكره معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق آخر عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿إنما مثل الحياة الدنيا...﴾، قال الحافظ: اختلط فنبت بالماء كل لون مما يأكل الناس كالحنطة والشعير وسائر حبوب الأرض، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٥٤٦) برقم: (٣/ ١٧٦).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٢/ ٣٤١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٤)، وزاد نسبتها إلى الأعمش وأبي بن كعب، وينظر: «البحر المحيط» (٥/ ١٤٥)، وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (٤/ ٢١).

أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقوله سبحانه: ﴿للذين أحسنوا الحسنَى وزيادة﴾: قال الجمهور: ﴿الحُسْنَى﴾: الجنةُ، والـ ﴿زيادةُ﴾: النَّظَر إِلَى وجهِ اللَّه عزَّ وجلَّ؛ وفي «**صحيح مسلم**» من حديثِ صُهَيْبٍ: «فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، وفي رواية: ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسنوا الحسنَى وزيادة﴾ وأخرج هذه الزيادة النَّسَائِيُّ عن صُهَيْبٍ، وأَخْرَجَهَا عن صُهَيْبٍ أَيضاً أَبو دَاوُدَ الطَّيَالِسِي[١] انتهى من «**التذكرة**»[٢].

وقوله سبحانه: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة . . .﴾ الآية. و﴿يَرْهَقُ﴾ معناه: يَغْشَى مع غلبةٍ وتضييقٍ، والـ ﴿قَتَر﴾: الغُبَار المُسْوَدُّ.

وقوله سبحانه: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ قالت فِرْقَةٌ: التقديرُ لهم جزاءُ سيئةٍ بمثلها، وقالت فرقة: التقديرِ جزاءُ سيِّئة مثلها، والباء زائدةٌ، وتعم السيئاتُ هٰهنا الكُفْرَ والمعاصِيَ، والـ ﴿عَاصِم﴾: المنجِّي والمُجير، و﴿أُغْشِيَتْ﴾: كُسِيَتْ، و«القَطْع»: جمع قِطْعة، وقرأ ابن كثيرٍ والكِسَائِيُّ: «قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ» ـ بسكون الطاء ـ[٣]، وهو الجُزْء من الليل، والمراد: الجُزْء من سواده، وباقي الآية بيِّن.

و﴿مَكَانَكُمْ﴾: اسْمُ فعلِ الأَمْرِ، ومعناه: قِفُوا وَٱسْكُنوا، * ت *: قال * ص *: وقدِّر بـ «اثبتوا» وأما من قدَّره بـ «ٱلْزَمُوا مكانَكُمْ»، فمردودٌ، لأن «الزموا» متعدٍّ، وَ﴿مَكَانَكُمْ﴾: لا يتعدَّى، فلا يقدَّر به، وإلا لكان متعدياً، واسم الفعل عَلَى حَسَب الفعلِ إِنْ متعدياً فمتعدٍّ، وإِنْ لازماً فلازِمٌ، ثم اعتذر بأنه يمكن أن يكون تقديره بـ «ٱلْزَمُوا» تقديرَ معنًى، لا تقديرَ إِعرابٍ، فلا اعتراضَ، انتهى.

قال * ع[٤] *: فأخبر سبحانَهُ عن حالةٍ تكُونُ لعبدة الأَوثانِ يوم القيامة يُؤْمَرُونَ

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥) ـ، كتاب «الإيمان» باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، حديث (٢٩٧ ـ ٢٩٨/ ١٨١)، والنسائي في «التفسير» (٢٥٤)، وابن ماجه (١٨٧)، والترمذي (٢٥٥٢).

(٢) ينظر: «**التذكرة**» للقرطبي (٢/ ٦٥٣).

(٣) وتحتمل هذه القراءة أن تكون مفرداً من الجمع، أو تخفيفاً من قِطَع مثل نطْع، ونطَع.
ينظر: «**الدر المصون**» (٤/ ٢٥).

(٤) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ١١٧).

بالإِقامة في موقف الخِزْيِ مع أصنامهم، ثم يُنْطِقُ اللّه شركاءهم بالتبريِّ منهم.

وقوله: ﴿فزيلنا بينهم﴾: معناه: فرَّقنا في الحُجَّةِ، والمذهب / روي عن النبيِّ ﷺ، ٢٣٨ أ
أَنَّ الكُفَّار، إِذَا رَأَوا العَذَابَ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ، قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ هَؤُلاَءِ، فَتَقُولُ الأَصْنَامُ: وَاللَّهِ، مَا كُنَّا نَسْمَعُ، وَلاَ نَعْقِلُ، وَمَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَيَقُولُونَ: واللَّهِ، لإِيَّاكُمْ كُنَّا نَعْبُد، فَتَقُولُ الآلِهَةُ: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . . .﴾[1] الآية، وظاهر الآية أنَّ محاورتهم إنما هي مَعَ الأصنام دون المَلاَئِكَةِ وَعِيسَى؛ بدليل القوْلِ لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾، ودون فِرْعَونَ ومَنْ عُبِدَ من الجنِّ؛ بدليل قولهم: ﴿إِنْ كنا عن عبادتكم لغافلين﴾، و«إنْ» هذه عند سيبَوَيْه[2] المخَفَّفَةُ من الثقيلة موجبَةٌ، ولزمتها اللام، فرقاً بينها وبين «إِنِ» النافيةِ، وعندَ الفَرَّاء: «إِنْ» نافيةٌ بمعنَى «مَا»، واللامُ بمعنى «إلاَّ»، وقرأ نافعٌ[3] وغيره: «تَبْلُوا» ـ بالباء الموحَّدة ـ؛ بمعنى: تختبر، وقرأ حمزة والكسائي: «تَتْلُوا» ـ بتاءين ـ؛ بمعنى تَتْبَعُ وتطلب ما أَسْلَفَتْ من أعمالها * ت *: قال * ص *: كقوله: [الرجز]

إِنَّ الـمُـرِيـبَ يَـتْـبَـعُ الـمُـرِيـبَـا   كَـمَـا رَأَيْـتَ الـذِّيـبَ يَـتْـلُـو الـذِّيـبَـا[4]

أي: يتبعه. انتهى. ويصحُّ أن يكون بمعنى تَقْرَأُ كُتُبَهَا التي تُدْفَع إِليها.

وقوله: ﴿ومن يدبِّر الأمر . . .﴾ الآية: تدبيرُ الأمْرِ عامٌّ في جميع الأشياءِ، وذلك ٱستقامةُ الأمور كلِّها على إِرادته عزَّ وجلَّ، وليس تدبيره سبحانه بفكْرٍ ورويَّةٍ وتغييراتٍ ـ تعالَى عن ذلك ـ بل علمه سبحانه محيطٌ كاملٌ دائمٌ.

﴿فسيقولون اللَّه﴾: أي: لا مَنْدُوحَةَ لهم عن ذلك، ولا تُمْكِنهم المباهَتَةُ بسواه، فإذا أَقرُّوا بذلك، ﴿فَقُلْ أَفلاَ تتقون﴾ في ٱفترائكم، وجَعْلِكم الأصنام آلهة.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٥٠)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

(٢) ينظر: «الكتاب» (١/ ٤٨٠).

(٣) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٥)، و«الحجة» (٤/ ٢٧١)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١)، «إعراب القراءات» (١/ ٢٦٧)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، و«معاني القراءات» (٢/ ٤٣)، و«العنوان» (١٠٥)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٥٠)، و«شرح شعلة» (٤٢١).

(٤) البيت من شواهد «البحر» (٥/ ١٥٥)، والقرطبي (٨/ ٣٣٤)، و«الدر المصون» (٤/ ٢٨).

رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله: ﴿فذلكم الله ربكم . . .﴾ الآية: يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربُّكم الحَقُّ، أي: المستوجِبُ للعبادةِ والألوهيَّة، وإِذا كان كذلك، فتشريكُ غيره ضَلاَلٌ وغيرُ حقٍّ.

قال * ع[1] *: وعبارة القُرآن في سوق هذه المَعاني تفُوتُ كلَّ تفسيرِ براعةً وإِيجازاً ووضوحاً، وحَكَمَتْ هذه الآيةُ بأنه ليس بَيْنَ الحَقِّ والضلال منزلةٌ ثالثةٌ في هذه المسألة التي هي توحيدُ الله تعالَى، وكذلك هو الأمر في نظائرها مِنْ مسائل الأصول التي الحَقُّ فيها في طَرَفٍ واحدٍ؛ لأن الكلام فيها إِنما في تقرير وجودِ ذاتٍ كَيْفَ هِيَ، وذلك بخلافِ مسائِلِ الفُرُوع التي قال الله تعالَى فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿فأنى تصرفون﴾: تقرير؛ كما قال: ﴿فَأَيْنَ تذهبون﴾ [التكوير: ٢٦] ثم قال: ﴿كذلك حَقَّت﴾ أي: كما كانَتْ صفاتُ الله كما وصفَ، وعبادته واجبة كما تقرَّر، وٱنصرافُ هؤلاء كما قَدَّر عليهم، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّت كَلِمَة ربك . . .﴾ الآية، وقرأ أبو عَمْرٍو[2] وغيره: «كَلِمَةُ»؛ على الإِفراد الذي يُرَادُ به الجَمْع؛ كما يقال للقصيدة «كَلِمَةٌ» فَعَبَّر عن وعيدِ الله تعالى بـ «كَلِمَة».

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده . . .﴾ الآية توقيفٌ على قصور الأصنامِ وعَجْزِها، وتنبيهٌ على قدرة الله عزَّ وجلَّ، و﴿تؤفكون﴾: معناه: تُصْرَفُونَ وتُحْرَمُونَ، وأرضٌ مَأْفُوكَةٌ؛ إِذا لم يُصِبْها مَطَرٌ، فهي بمعنى الخَيْبَةِ.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٨)

(٢) وحجة من جمع أنها والتي بعدها كتبتا في المصاحف بالتاء. وحجة الباقين: إجماع الكل على التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [االأنعام: ١١٥]، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٦)، «الحجة» (٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١)، «إعراب القراءات» (١/ ٢٦٧)، «إتحاف» (٢/ ١٠٩)، «العنوان» (١٠٥).

وينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ١٥٦)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾: أي: يبيِّن طرق الصواب، ثم وصف الأصنام بأنها لا تَهْدِي إلا أنْ تُهْدَى.

وقوله: ﴿إلاَّ أَن يُهْدَى﴾: فيه تَجوُّز، لأنا نجدها لا تُهْدَى وإنْ هُدِيَتْ، وقال بعضهم: هي عبارة عن أنها لا تنتقلُ إلا أنْ تُنْقَلَ، ويحتمل أنْ يكون ما ذَكَرَ اللَّه مِنْ تسبيح الجمادَاتِ هو ٱهتداؤُهَا، وقرأ نافع وأبو عمرو: «يَهْدِّي»[١] - بسكون الهاء، وتشديد الدَّال -، وقرأ ابن كثير وابنُ عامر: يَهَدِّي - بفتح الياء/ والهاء، وتشديد الدَّال[٢] - وهذه ٢٣٨ ب
رواية وَرْشٍ عن نافعٍ، وقرأ حمزة والكسائي: «يَهْدِي» - بفتحِ الياءِ، وسكون الهاء[٣] - ومعنى هذه القراءة: أَمَّنْ لا يَهْدِي أحداً إلا أن يُهْدى ذلك الأَحْدُ، ووقف القُرَّاء: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾، ثم يبدأ: ﴿كَيْفَ تحكُمُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما يتبع أكثرهم إلاَّ ظَنًّا . . .﴾ الآية: أخبر اللَّه سبحانه عن فساد طريقتهم، وضَعْفِ نَظَرِهم، وأنه ظَنٌّ، ثم بيَّن منزلة الظنِّ من المعارف، وبُعْدَهُ عن الحقِّ.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترَى من دون اللَّه ولكن تصديق الذي بين يَدَيْه﴾: هذا ردٌّ لقول من يقول: إنَّ محمداً يَفْتَرِي القرآن، و﴿الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: التوراةُ والإِنجيل، وهم يقطعون أنَّه لم يطالِعْ تلك الكُتُب، ولا هي في بَلَدِهِ، ولا في قومه، و﴿تفصيل الكتاب﴾ هو تبيينه.

وقوله: ﴿أم يقولون ٱفتراه . . .﴾ الآية: «أم» هذه ليست بالمعادلة لهمزة ٱلاستفهام،

---

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٦)، «الحجة» (٤/ ٢٧٤ - ٢٧٥)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١ - ٣٣٢)، «إعراب القراءات» (١/ ٢٦٨)، و«إتحاف» (٢/ ١٠٩)، و«معاني القراءات» (٢/ ٤٤)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٥١)، و«العنوان» (١٠٥)، «شرح شعلة» (٤٢٢): ينظر السابق.
وذكره ابن عطية (٣/ ١١٩)، وذكر أنها قراءة شيبة والأعرج، وأبي جعفر.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ١١٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ١١٩)

في قوله: أزيْدٌ قام أمْ عمرو؟ ومذهَبُ سِيبَوَيْهِ: أنها بمنزلة «بَلْ» ثم عجَّزهم سبحانه بقوله: ﴿قل فأتوا بسورةٍ مثله وٱدعوا من ٱستطعتم ...﴾ الآية: والتحدِّي في هذه الآية عند الجُمْهُور وقَعَ بجهتَي الإِعجاز اللَّتَيْنِ في القرآنِ:

إِحْداهما: النَّظْم والرَّصْف والإِيجازُ وَالجَزَالَة، كلُّ ذلك في التعريف.

والأُخرَى: المعاني مِنَ الغَيْبِ لِمَا مَضَى، ولما يُسْتَقْبَلُ.

وحين تحدَّاهم بـ «عَشْرِ مفترياتٍ» إِنما تحدَّاهم بالنَّظْم وحْده، ثم قال * ع[1] *: هذا قول جماعة المتكلِّمين، ثم اختار أنَّ الإِعجاز في الآيتين إِنما وقع في النَّظْمِ لا في الإِخْبارِ بالغُيُوبِ.

* ت *: والصوابُ ما تَقَدَّم للجمهور، وإِليه رَجَعَ في «سورة هود» وأوجُهُ إِعجاز القرآن أَكْثَرُ من هذا وٱنْظر «**الشفَا**».

وقوله: ﴿من ٱستطعتم﴾: إِحالةٌ على شركائهم.

وقوله سبحانه: ﴿بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ...﴾ الآية: المعنى: ليس الأمر كما قالوا مِنْ أنه مفترًى، ﴿بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله﴾، أي: تفسيره، وبيانُهُ، ويحتمل أنْ يريد بما لم يأتهم تأويله، أي: ما يؤول إليه أمره؛ كما هو في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وعَلَى هذا، فالآيةُ تتضمَّن وعيداً، و﴿الذين من قبلهم﴾: مَنْ سلف من أمم الأنبياء.

وقوله سبحانه: ﴿ومنهم من يؤمن به ...﴾ الآية: أيْ: ومِنْ قريشٍ مَنْ يؤمن بهذا الرسُولِ، ولهذا الكلام معنيان:

قالتْ فرقة: معناه: مِنْ هؤلاء القومِ مَنْ سيؤمن في المستقبل، ومِنْهُم من حَتَمَ اللَّه عَلَيْهِ أنَّه لا يؤمن به أبداً.

وقالتْ فرقة: معناه: ومنهم مَنْ يؤمن بهذا الرسُولِ إلاَّ أنَّه يَكْتُم إِيمانه حفظاً لرياسته، أو خوفاً مِنْ قومه، كالفِتْية الذين قُتِلُوا مع الكُفَّار بِبَدْرٍ.

قال * ع[2] *: وفائدة الآية على هذا التأويل: التفريقُ لكلمة الكُفَّار، وإِضعافُ

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ١٢٠).
(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ١٢٢).

نفوسهم، وفي قوله: ﴿وربُّك أعلم بالمفسدين﴾ تهديدٌ ووعيدٌ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإن كذبوك فقُل لي عملي ولكم عملكم﴾ الآية فيها منابذةٌ ومتارَكَةٌ، قال كثير من المفسِّرين، منهم ابن زيد: هذه الآية منسوخةٌ بالقتال، وباقي الآية بيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿ويوم نحشرهم . . .﴾ الآية: وعيدٌ بالحشر وخِزْيِهِم فيه، وتعارُفُهُمْ على جهة التلاوُمِ والخزْيِ من بَعْضِهِم لبعضٍ، حيث لا ينفع ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء اللَّه . . .﴾ إلى آخرها: حُكْمٌ من اللَّه عزَّ وجلَّ على المكذِّبين بالخُسْران، وفي اللفظ إغلاظٌ، وقيل: إن هذا الكلام من كلام المحشُورِينَ، عَلى جهة التوبيخ لأَنْفُسِهِم.

* ت *: والأول أبْيَنُ.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله: ﴿وإما نرينَّك . . .﴾ الآية: «إما» شرطٌ، وجوابه: ﴿فإلينا﴾، والرؤية في ﴿نُرِيَنَّك﴾ بصريةٌ، ومعنى هذه الآية: الوعيدُ بالرجوعِ إلى اللَّه تعالى، أي: إنْ أَرَيْنَاكَ عقوبتهم، أو لم نُرِكَهَا، فهم عَلى كلِّ حال راجعُونَ إلينا إلى الحسَابِ والعذابِ، ثم مع
ذلك، فاللَّهُ شَهِيدٌ من أوَّل تكليفهم عَلى جميعِ أَعمالهم، و«ثُمَّ» لترتيب الأَخبار / لا لترتيب ١٢٣٩أ
القصص في أنفسها، و«إما» هي «إنْ»، زِيدَتْ عليها «ما»، ولأجلها جازَ دخُولُ النون الثقيلة، ولو كانت «إنْ» وحدها، لم يجز.

* ص *: واُعْتُرِضَ بأنَّ مذهب سيبَوَيْهِ[1] جوازُ دخولها، وإن لم تَكُنْ «ما» انتهى.

(١) ينظر: «**الكتاب**» (٢/ ١٥٢).

وقوله سبحانه: ﴿ولكلِّ أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسْطِ﴾: قال مجاهد وغيره: المعنَى: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشَّهادة عليهم، صُيِّرَ قومٌ للجنَّة، وقومٌ للنار، فذلك القضاءُ بينهم بالقسْطِ[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويقولون متَى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسي ضَرًّا ولا نَفعاً إلا ما شاء اللَّه لكلِّ أُمة أجلٍ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون . . .﴾ الآية: الضميرُ في ﴿يقولون﴾ لكفَّار قريش، وسؤالهم عن الوعدِ تحريرٌ منهم ـ بزعمهم ـ للحجَّة أي: هذا العذابُ الذي تُوعِدُنا به، حَدِّدْ لنا وقته؛ لِنَعْلَمَ الصِّدْق في ذلك من الكَذِب، ثم أمر اللَّه تعالى نبيَّه أنْ يقول على جهة الردِّ عليهم: ﴿قل لا أملك لنفسي ضَرًّا ولاَ نَفْعاً إلا ما شاء اللَّه﴾، ولكن ﴿لكلِّ أمة أجلٌ﴾ انفرد اللَّه بعلْمِ حدِّه ووقتِهِ، وباقي الآية بَيِّن.

وقوله: ﴿ماذا يستعجلُ منه المُجْرِمُون﴾: أي: فمَا تستعجلون منه، وأنتم لا قِبَلَ لكم بِهِ، والضمير في «مِنْهُ» يحتمل أنْ يعود على اللَّه عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يعود على العَذَابِ.

وقوله: ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ المعنى: إذا وقع العذابُ وعاينتموه، آمنتم حينئذٍ، وذلك غَيْر نافعكم، بل جوابُكُمْ: الآن وقَدْ كُنْتُمْ تستعجلونَهُ مكذِّبين به، ﴿ويستنبئونك﴾: معناه: يستخبرُونَك، وهي عَلَى هذا تتعدَّى إلى مفعولَيْنِ؛ أَحدُهما: الكافُ، والآخرُ: الجملة، وقيل: هي بمعنى يَسْتَعلِمُونَكَ؛ فعلى هذا تحتاجُ إِلَى ثَلاثَةِ مَفَاعِيلَ.

* ص *: ورُدَّ بأن ٱلاستنباء لا يُحْفَظُ تعديه إلى ثلاثةٍ، ولاَ اسْتَعْلَمَ الذي هو بِمَعْنَاه. انتهى.

و﴿أحقٌّ هو﴾ قيل: الإشارة إِلى الشرعِ والقُرآن، وقيل: إلى الوعيدِ؛ وهو أَظْهر.

وقوله: ﴿إِي وربي﴾: أي: بمعنى «نَعَمْ»، وهي لفظة تتقدَّم القَسَم، ويجيء بعدها

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٦٥) برقم: (١٧٦٨١ـ ١٧٦٨٢) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٢٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٥٦).

حَرْفُ القسم، وقد لا يجيء؛ تقولُ: إي وربِّي، وإي ربِّي، و﴿معجزين﴾: معناه مفلتين.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمَتْ ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة...﴾ الآية، و﴿أسروا﴾: لفظة تجيءُ بمعنى «أَخْفَوا»، وهي حينئذٍ من السِّرِّ، وتجيء بمعنى «أظْهَرُوا»، وهي حينئذٍ من أساريرِ الوَجْهِ.

* ص *: قال أبو البقاء: وهو مستأنَفٌ، وهو حكاية ما يكون في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ألا إن للّه ما في السمٰوات والأرض...﴾ الآية، «ألاَ» ٱستفتاحٌ وتنبيهٌ، وباقي الآية بيِّن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم...﴾ الآية: هذه آية خُوطِبَ بها جميعُ العَالَم، والـ ﴿موعظةُ﴾: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقولٍ يأمُرُ بالمعروف ويزجُرُ، ويرقِّق القلوب، ويَعِدُ ويُوعِدُ، وهذه صفة «الكتاب العزيز»، وقوله: ﴿من ربكم﴾ يريد: لم يختلقْها محمَّد ولا غيره، و﴿ما في الصدور﴾: يريد به الجَهْلَ ونحوَهُ، وجَعْلُهُ موعظةً بحَسَب النَّاسِ أجْمَعَ، وجعْلُه هدىً ورحمةً بحسب المؤمنين فَقَطْ، وهذا تفسيرٌ صحيحُ المعنَى، إذا تُؤُمِّلَ، بان وجْهُه.

وقوله سبحانه: ﴿قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾، قال ابن عباس[1] وغيره: الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن، وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ: الفَضْل: القرآن، والرحمة: أن جعلهم مِنْ أهله.

وقال زيْدُ بن أسلم والضَّحَّاك: الفَضْل: القرآن، والرحمة: الإسلام.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٦٩) برقم: (١٧٦٩٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٢٦)، والسيوطي (٣/ ٥٥٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

قال * ع[١] *: ولا وجه عندي لشيْءٍ من هذا التخْصيصِ إلاَّ أن يستند شيءٌ منه إلى النبيِّ ﷺ، وإنما الذي يقتضيه اللفظُ، ويلزم منه أنَّ الفضْلَ: هو هدايةُ اللَّه تعالى إلَى دِينِهِ، والتوفيقُ إلى ٱتبَاعِ شرعه، والرحمةُ هي عفوه وسُكْنَى جنَّته التي جَعَلَها جزاءً على التشرُّع بالإِسلام والإِيمانِ به، ومعنى /الآية: قل، يا محمَّد، لجميع النَّاس: بفضلِ اللَّه ورحمته ٢٣٩ ب
فَلْيَقَعِ الفرحُ منكم، لا بأمور الدنيا وما يُجْمَعُ من حُطَامها، فإن قيل: كيف أمر اللَّه بالفَرَح في هذه الآية، وقد وَرَدَ ذمُّه في قوله: ﴿فَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] وفي قوله: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

قيل: إن الفرح إذا ورد مقيَّداً في خيرٍ، فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيَّداً في شرٍّ، أو مطلقاً لَحِقَهُ ذمٌّ، إذ ليس من أفعالَ الآخرة، بل ينبغي أنْ يغلب على الإِنسان حُزْنُهُ على دينه، وخوفُه لربِّه.

وقوله: ﴿مما يجمعون﴾: يريد: مالَ الدنيا وحُطَامَها الفانِيَ المُرْدِيَ في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿قل أرأيتم ما أنزل اللَّه لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً...﴾ الآية.

قال * ص *: ﴿أرأيتم﴾: مضمَّن معنى: أَخبِروني، و«ما» موصولة.

قال * ع[٢] *: هذه المخاطبة لكفَّار العرب الذين جعلوا البحائِرَ والسَّوائب وغَيْرَ ذلك، وقوله: ﴿أنْزل﴾: لفظة فيها تجوُّز.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

وقوله: ﴿وما ظنُّ الذين يفترون على اللَّه الكذب يوم القيامة﴾ آية وعيدٍ ـ لمَّا تحقَّقَ عليهم بتقسيم الآية التي قبلها؛ أنهم مفترون على اللَّه ـ عَظَّمَ في هذه الآية جُرْمَ ٱلافتراء، أي: ظَنُّهم في غايَةِ الرداءة؛ بحسب سُوء أفعالهم، ثم ثَنَّى بذكْرِ الفَضْل على النَّاس في الإِمهال لهم مع ٱلافتراء والعصيان؛ إذ الإِمهال لهم داعيَةٌ إلى التوبةِ والإِنابةِ، ثم الآية تَعمُّ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/١٢٦).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/١٢٧).

جميعَ فَضْلِ اللَّه سبحانَهُ، وجميعَ تَقْصير الخَلْقِ.

وقوله سبحانه: ﴿وما تكون في شأن . . .﴾ الآية: مَقْصِدُ هذه الآية وصْفُ إحاطة اللَّه عزَّ وجلَّ بكلِّ شيء، لا ربَّ غيره، ومعنى اللفظِ: وما تكُونُ يا محمَّد، والمرادُ هو وَغَيْرُهُ في شأن من جميع الشؤون، ﴿وما تتلو منه﴾: الضمير عائدٌ على شَأْن أي: فيه وبسببه «من قرآن»، ويحتمل أنْ يعود الضميرُ على جميع القرآن.

وقال * ص *: ضمير «منه» عائدٌ على «شأن» و﴿من قرآن﴾: تفسيرٌ للضمير. انتهى. وهو حَسَن، ثم عمَّ سبحانه بقوله: ﴿ولا تعملون من عمل﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إلاَّ كنا عليكم شهوداً﴾ تحذيرٌ وتنبيهٌ.

* ت * وهذه الآية عظيمةُ المَوْقِعِ لأَهْل المراقبة تثيرُ من قلوبهم أسراراً، ويغترفون من بَحْر فيضها أنواراً، و﴿تفيضون﴾ معناه: تأخذون وتَنْهَضُون بِجِدٍّ، ﴿وما يعزب﴾: معناه: وما يَغِيبُ ﴿عن ربك مِنْ مثقال ذرة﴾ والكتابُ المُبينُ هو اللوحُ المحفوظُ، ويحتملُ ما كتبته الحَفَظَةُ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء اللَّه . . .﴾ الآيةُ: «أَلا» استفتاحٌ وتنبيهٌ، و﴿أولياء اللَّه﴾: هم المؤمنون الذينَ وَالَوهُ بالطاعةِ والعبادةِ، وهذه الآية يُعْطِي ظاهرُها أَنَّ مَنْ آمَنَ واتقَى اللَّه، فَهُوَ داخلٌ في أولياء اللَّه، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعةُ في الوَلِيِّ، وروي عن النبيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ سُئِلَ، مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الَّذِينَ إِذَا رَأَيْتُهُمْ ذَكَرْتَ اللَّه»[1].

قال: * ع[2] *: وهذا وصفٌ لازِمٌ للمتَّقِين؛ لأنهم يَخْشَعُونَ ويُخَشِّعُونَ، وروي عنه ﷺ أيضاً أَنَّهُ قَالَ: «أَوْلِيَاءُ اللَّه قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وَاجْتَمَعُوا فِي ذَاتِهِ، لَمْ تَجْمَعْهُمْ قَرَابَةٌ وَلاَ مَالٌ يَتَعَاطَوْنَهُ». وروى الدارقطنيُّ في «سننه» عن النبيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «خِيَارُ عِبَادِ

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨١) وقال: رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٥٦)، وزاد في نسبته إلى ابن المبارك، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢٨).

اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُؤوا، ذُكِرَ اللَّهُ، وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ المَشَّاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ»[١]. انتهى من «**الكوكب الدُّرِّيِّ**».

وقوله: ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني: في الآخرةِ، ويحتملُ في الدنيا لا يخافُونَ أَحداً من أَهل الدنيا، ولا من أعراضها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأولُ أظهر، والعمومُ في ذلك صحيحٌ: لاَ يَخَافُونَ في الآخرة جملةً، ولا في الدنيا الخَوْفَ الدُّنْيَوِيَّ.

١٢٤٠ وذكر الطبريُّ عن جماعة / من العلماء مثْلَ ما في الحديثِ في الأولياء؛ أنهم هُمُ الَّذِينَ إِذَا رَآهُمْ أَحَدٌ، ذَكَرَ اللَّهَ، وروي فيهم حديث؛ «أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ قَوْمٌ يَتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ وَيُجْعَلُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَتُنِيرُ وُجُوهُهُمْ، فَهُمْ في عَرَصَاتِ القِيَامَةِ لاَ يَخَافُونَ وَلاَ يَحْزَنُونَ»[٢] وروى عمر بن الخطاب؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَاداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ؛ لِمَكَانَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهَ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ، وَلاَ أَمْوَالٍ . . .» الحديثَ، ثم قرأَ: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٣].

* ت * وقد خرَّج هذا الحديثَ أبو داود والنسائيُّ، قال أبو داود في هذا الحديث: فَوَاللَّهِ، إِنَّ وجوههم لَنُورٌ، وإِنهم لَعَلَى نُورٍ، ذكره بإِسنادٍ آخر. انتهى.

ورواه أيضاً ٱبْنُ المبارك في «**رقائقه**» بسنده، عن أبي مالك الأشعريِّ؛ أَنَّ النبيَّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاس، فَقَالَ: «يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱسْمَعُوا وَٱعْقِلُوا، وَٱعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَغْبُطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: انْعَتْهُمْ لَنَا، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: هُمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ النَّاسِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وتَصَافَوْا فيهِ، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُوراً وَثِيَابَهُمْ نُوراً، يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهُمْ لاَ يَفْزَعُونَ، وَهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧)، وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (٨/ ٩٦)، وقال: رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد وبقية رجال أحمد أسانيده رجال الصحيح.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٣١٠ ـ ٣١١) كتاب «البيوع» باب: في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، وهنّاد بن السري في «**الزهد**» رقم: (٤٧٥)، والطبري في «**تفسيره**» (١١/ ٩٢)، وأبو نعيم في «**الحلية**» (١/ ٥)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**» (٨٩٩٨ ـ ٨٩٩٩)، من حديث عمر بن الخطاب، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٥٥٧)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ». انتهى[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لهم البشرى . . .﴾ الآية: أَمَّا بشرَى الآخرة، فهي بالجنَّةِ؛ بلا خلاف قولاً واحداً، وذلك هو الفَضْل الكبير، وأَمَّا بُشْرَى الدنيا، فَتظاهَرَت الأَحاديث من طرق، عن النبيِّ ﷺ؛ أَنَّهَا «الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ»[(٢)]، وقال قتادة والضَّحَّاك: البُشْرَى في الدنيا: هِيَ ما يُبَشَّرُ به المؤمنُ عِنْد موته، وهو حَيٌّ عند المعاينة، ويصح أنْ تكون بُشْرَى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشِّرات؛ ويقوِّى ذلك بقوله: ﴿لا تبديلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، ويؤوِّل قوله ﷺ: «هِيَ الرُّؤْيَا» أنه أعطَى مثالاً يعمُّ جميع الناس.

وقوله سبحانه: ﴿لا تبديل لكلمات اللَّه﴾: يريد: لا خُلْفَ لمواعيده، ولا رَدَّ في أمره، وقد أخذ ذلك ابنُ عُمَرَ علَى نحو غَيْرِ هذا، وجَعَلَ التبديلَ المنفيَّ في الألفاظ، وذلك أنَّه روي أَنَّ الحجاج خَطَبَ، فَقَالَ: أَلاَ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْر قَدْ بَدَّلَ كِتَابَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤) رقم: (٦٨٤٢)، والطبري (١١/ ٩٢)، وابن المبارك في **«الزهد»** ص: (٢٤٨ - ٢٤٩) رقم: (٧١٤)، وابن أبي الدنيا في **«الإخوان»** (٦)، والطبراني في **«الكبير»** (٣٤٣٣ - ٣٤٣٤ - ٣٤٣٥) من طريق شهر بن حوشب، عن عبد الرحمٰن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري به، وذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (١٠/ ٢٧٩ - ٢٨٠) وقال: رواه أحمد، والطبراني، ورجاله وثقوا.
وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٥٨)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٣٤ - ٥٣٥) كتاب «الرؤيا» باب: قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾، حديث (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣) كتاب «تعبير الرؤيا» باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٨)، والدارمي (٢/ ١٢٣) كتاب «الرؤيا» باب: في قوله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾، وأحمد (٥/ ٣١٥) والطبري في **«تفسيره»** (٦/ ٥٧٧) رقم: (١٧٧٣٣ - ١٧٧٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٠)، والبيهقي في **«شعب الإيمان»** (٤/ ١٨٥ - ١٨٦) رقم: (٤٧٥٣)، والطيالسي (٢/ ١٩ - منحة) رقم: (١٩٥٥)، والخطيب في **«شرف أصحاب الحديث»** رقم: (٢٣٨) كلهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصامت به، وقال الترمذي: حديث حسن.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٥٩)، وزاد نسبته إلى الهيثم بن كليب، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.
وأخرجه الترمذي (٤/ ٥٣٤) كتاب «الرؤيا» باب: قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾، حديث (٢٢٧٣)، وأحمد (٦/ ٤٥٢)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥١)، والطبري في **«تفسيره»** (٦/ ٥٧٧ - ٥٧٨) رقم: (١٧٧٣٧)، والبيهقي في **«شعب الإيمان»** (٤/ ١٨٥) رقم (٤٧٥٢) كلهم من طريق عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به.
وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٥٩)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في **«نوادر الأصول»**، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: إِنَّكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ أَنْتَ، وَلاَ ٱبْنُ الزُّبَيْرِ؛ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وقد رُوِيَ هذا النظرُ عن ابن عباس في غيرِ مُقَاوَلَةِ الحَجَّاجِ، ذكره البخاريُّ[1].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾: أي: قولُ قُرَيشٍ، فهذه الآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، ولفظةُ القولِ تعمُّ جحودَهُمْ واستهزاءَهُمْ وخِدَاعهم وغَيْرَ ذلك، ثم ابتدأ تعالى، فقال ﴿إِنَّ العزة للَّه جميعاً﴾ أي: لا يقدرون لَكَ عَلَى شيءٍ، ولا يؤذُونَكَ، إلاَّ بما شاء اللَّه، ففي الآية وعيدٌ لهم، ثم ٱستفتح بقوله: ﴿أَلاَ إن للَّه من في السمٰوات ومن في الأرض﴾ أي: بالمُلْك والإِحاطة.

وقوله تعالى: ﴿وما يتّبع﴾: يصح أنْ تكونَ «ما» ٱستفهاماً، ويصحُّ أَنْ تكون نافيةً.

* ت *: ورجح هذا الثاني.

وقوله: ﴿إِنْ يتَّبعون إلا الظنَّ وإن هم إلاَّ يَخْرُصُون﴾ «إِنْ»: نافيةٌ، و﴿يخرُصُون﴾: معناه: يَخدِسُونَ وَيُخَمِّنون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكُنُوا فيه . . .﴾ الآية: في هذه الألفاظ إِيجازٌ وإِحالةٌ على ذِهْنِ السَّامع؛ لأن العبرة في أنَّ الليل مُظْلِمٌ يُسكن فيه، والنَّهار مُبْصِر يُتصرَّف فيه، فذكر طرفاً من هذا وطرفاً من الجهة الثانية، ودلَّ المذكوران على المتروكين.

٢٤٠ب وقوله: ﴿يسمعون﴾/ يريد: يوعون، والضمير في ﴿قالوا﴾ لكفَّارِ العرب، ثم الآية

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٢٩).

بعدُ تعمُّ كلَّ من قال نحو هذا القول؛ كالنَّصارَى، و﴿سبحانه﴾ معناه: «تنزيهاً له، وبراءةً من ذلك»؛ فسَّره بهذا النبيُّ ﷺ.

وقوله: ﴿إِن عندكم من سلطان بهذا﴾ «إِنْ» نافيةٌ، والسلطانُ: الحُجَّة، وكذلك معناه حيث تكرَّر في القرآن، ثم وبَّخهم تعالى بقوله: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِن الذين يفترون ...﴾ الآية: توعُّد لهم بأنهم لا يظفرون ببُغْيَة، ولا يَبْقَوْن في نعمة، إِذ هذه حالُ مَنْ يصير إِلى العذاب، وإِنْ نُعِّمَ في دنياه يسيراً.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿متاع﴾ مرفوعٌ على خبر ابتداءٍ؛ أي: ذلك متاعٌ.

قال * ص *: ﴿متاع﴾ جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنه قيل: كيف لا يُفلِحون، وهُمْ في الدنيا مفلحون بأنواعِ التلذُّذات؟! فقيل: ذَٰلِكَ مَتَاعٌ، فهو خبر مبتدإٍ محذوف. انتهى، وهذا الذي قدَّره * ص *: يُفْهَمُ من كلام * ع[1] *.

وقول نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كان كَبُر عليكم مقامي ...﴾ الآية: المَقَامُ: وقوف الرجل لكلام أو خُطْبَةٍ أو نحوه، والمُقَام ـ بضم الميم ـ: إقامته ساكناً في موضع أو بلدٍ، ولم يقرأ هنا بَضَمِّ الميم فيما علمتُ، وتذكيره: وعظُه وزَجْره، وقوله: ﴿فأجمعوا﴾: من أَجْمَعَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ، إذا عزم عليه؛ ومنه الحديثُ: ما لم يجمعْ مكثاً، و﴿أمركم﴾: يريد به: قُدْرَتكم وحِيَلَكُمْ، ونصب «الشركاء» بفعل مضمر؛ كأنه قال: وَٱدْعُوا شَرَكَاءَكُمْ؛ فهو مِنْ باب: [الرجز]

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِدَا ... حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا[2]

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣١).

(٢) ينظر: البيت بلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (٢/ ١٠٨)، (٧/ ٢٣٣) و«أمالي المرتضى» (٢/ ٢٥٩)، و«الإنصاف» (٢/ ٦١٢)، و«أوضح المسالك» (٢/ ٢٤٥)، و«الخصائص» (٢/ ٤٣١)، و«الدرر» (٦/ ٧٩)، و«شرح الأشموني» (١/ ٢٢٦)، و«شرح التصريح» (١/ ٣٤٦)، و«شرح ديوان الحماسة للمرزوقي» ص: (١١٤٧)، و«شرح شذور الذهب» ص: (٣١٢)، و«شرح شواهد المغني» (١/ ٥٨)، (٢/ ٩٢٩)، =

وفي مصحفِ أبيٍّ: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وَٱدْعَوا شُرَكَاءَكُمْ» قال الفارسيُّ[(١)]: وقد ينتصب «الشركاء» بـ«واو مع»؛ كما قالوا: جَاءَ البَرْدُ وَالطَّيَالِسَةُ[(٢)].

وقوله: ﴿ثم لا يكنْ أمركم عليكم غمة﴾: أي: ملتبساً مشكلاً؛ ومنه قوله عليه السلام في الهلال: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ».

وقوله: ﴿ثم ٱقضوا إليَّ ولا تُنظِرُون﴾: أي: أنفذوا قضاءكُم نَحْوِي، ولا تؤخِّروني، والنَّظِرَةُ: التأخير.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف﴾: مضَى شرح هذه المعاني.

وقوله سبحانه: ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المنذرين﴾: مخاطبة للنبيِّ ﷺ يشاركه في معناها جميعُ الخَلْق.

وقوله سبحانه: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم﴾: الضمير في ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ عائدٌ عَلى نوحٍ عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ثم بعثنا من بعدهم موسَى وهٰرون إلى فرعون وَمَلَئِهِ بآياتنا فٱستكبروا وكَانُوا قوماً مجرمين﴾: معنى هذه الآية ضَرْبُ المثلِ لحاضِرِي نبيِّنا محمَّد عليه السلام؛ ليعتبروا بمَنْ سلف، و﴿البيِّنات﴾ المعجزاتُ، والضمائر في ﴿مَا كَانُوا ليؤمنوا﴾ وفي ﴿كذبوا﴾ تعود الثلاثةُ على قوم الرسل، وقيل: الضمير في كذَّبوا يعود على «قوم نوح» وقد تقدَّم تفسير نظيرها «في الأعراف».

= و«شرح ابن عقيل» ص: (٣٠٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٢٨٧) (زجج)، (٣/ ٣٦٧) (قلد)، (٩/ ٢٥٥) (علف)، و«مغني اللبيب» (٢/ ٦٣٢)، و«المقاصد النحويّة» (٣/ ١٠١)، و«همع الهوامع» (٢/ ١٣٠).

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٢٨٩).

(٢) الطَّيْلَسَانُ: ضَرْبٌ من الأكسية.
ينظر: «لسان العرب» (٢٦٨٩) (طلس).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لَسِحرٌ مبين﴾ الآية: يريد بـ ﴿الحق﴾ آيَتَي العَصَا واليد.

وقوله: ﴿أسحرٌ هذا﴾: قالت فرقة: هو حكايةٌ عن موسَى عنهم، ثم أخبرهم موسَى عن اللَّه؛ أنَّ الساحِرِينَ لا يُفلحون، ثم اختلفوا في معنى قول قَوْمِ فرعونَ، فقال بعضهم: قالها منهم كلُّ مستفهِمٍ جاهلٍ بالأمر، فهو يسأل عنه، وهذا ضعيفٌ، وقال بعضهم: بل قالوا ذلك عَلَى معنى التَّعظيم لِلسحْرِ الذي رأَوْهُ، وقالت فرقة: ليس ذلك حكايةً عن موسَى عنهم، وإنما هو من كلام موسَى، وتقدير الكلامِ: أَتقولون للحَقِّ لما جاءكم سِحْرٌ، ثم ابتدأ يوقِّفهم بقوله: ﴿أَسِحْرٌ / هذا﴾ على جهة التوبيخ. ٢٤١ أ

وقولهم: ﴿لتلفتنا﴾: أي: لتصرفنا وتلوينا وتَرُدَّنا عن دين آبائنا، يقال: لفتَ الرَّجُلُ عُنُقَ الآخرِ؛ إِذا ألْواه، ومنه قولهم: ٱلْتَفَتَ؛ فَإِنَّهُ ٱفْتَعَلَ مِنْ لَفَتَ عُنُقَهُ إِذَا أَلْواه، و﴿الكبرياءُ﴾: مصْدَر من الكِبْرِ، والمراد به في هذا الموضع المُلْك؛ قاله أكثر المتأوِّلين؛ لأنه أعظم تَكَبُّرِ الدنيا، وقرأ أبو عَمْرٍو وحده: «به آلسِّحْرُ» - بهمزةِ ٱستفام ممدودةٍ -، وفي قراءة[1] أُبَيٍّ: «مَا أَتَيْتُمْ بِهِ سِحْرٌ»، والتعريف هنا في السِّحْرِ أَرْتَبُ؛ لأنه تقدَّم منكَّراً في قولهم: ﴿إِنَّ هذا لسحر﴾، فجاء هنا بلامِ العَهْدِ.

قال * ص *: قال الفَرَّاء: إنما قال: «السِّحْر» بـ «أَلْ»، لأن النكرة إِذا أُعيدَتْ، أُعيدَتْ بـ «أَلْ»، وتبعه ابن عطية[2]، ورُدَّ بأن شرط ما ذكراه ٱتِّحَادُ مدلول النكرةِ المُعَادة؛ كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] وهنا السِّحْر المنكَّر هو ما أتَى به موسَى، والمعروفُ ما أتَوْا به هُمْ، فَٱخْتَلَفَ

---

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٨)، «الحجة» (٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠)، «حجة القراءات» ص: (٣٣٥)، «إعراب القراءات» (١/ ٢٧٢)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١١٨)، و«شرح شعلة» (٤٢٣)، و«إتحاف» (٢/ ١١٨)، و«العنوان» (١٠٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣٥).

مدلولُهما، وٱلاستفهامُ هنا: على سبيل التحقِيرِ. انتهى. وهو حَسَن.

وقوله: ﴿إن الله سيبطله﴾: إِيجاب عن عِدَّةٍ من الله تعالى.

وقوله: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾: يحتمل أنْ يكون ابتداءَ خَبَرٍ مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ويحتملُ أَنْ يكون من كلام موسَى عليه السلام، وكذلك قوله: ﴿ويحق الله الحق . . .﴾ الآية، محتملٌ للوجهين، وكون ذلك كلُّه من كلام موسَى أقربُ، وهو الذي ذكر[1] الطبريُّ، وأما قوله: ﴿بكلماته﴾: فمعناه بكلماته السابقةِ الأزليَّة في الوَعْد بذلك.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿فما آمن لموسَى إلا ذرية من قومه على خوفٍ من فرعون وملئهم﴾ ٱختلف المتأوِّلون في عود الضمير الذي في ﴿قومه﴾، فقالتْ فرقة: هو عائدٌ على موسَى، وذلك في أول مبعثه، وَمَلأُ الذُّرِّيَّةِ، هم أشرافُ بني إِسرائيل.

قال * ص *: وهذا هو الظاهر، وقالت فرقةٌ: الضميرُ في ﴿قومه﴾ عائدٌ على ﴿فرعون﴾، وضمير ﴿مَلَئِهِمْ﴾ عائدٌ على الذريَّة.

قال * ع *: ومما يضعِّف عوْدَ الضميرِ علَى موسَى: أَنَّ المعروفَ مِنْ أخبار بني إِسرائيل أنهم كانوا قوماً تقدَّمت فيهم النبوَّاتِ، ولم يُحفظْ قطُّ أَنَّ طائفة من بَني إِسرائيل كَفَرَتْ به، فدَلَّ على أن الذريَّة مِنْ قوم فِرعون.

وقوله سبحانه: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكَّلوا . . .﴾ الآية: هذا ابتداءُ حكايةِ قوْلِ موسَى لجماعةِ بني إِسرائيل؛ مُؤَنِّساً لهم، ونادباً إِلى التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ الذي بيده النصْرُ قال المُحَاسِبيُّ: قُلْتُ لأبي جعفرٍ محمَّدِ بنِ موسَى: إِنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فما السَّبِيلُ إِلى هذا التوكُّل الذي نَدَبَ اللَّه إِلَيْهِ، وكيف دُخُولُ الناس فيه؟ قال: إِن الناس متفاوِتُون في التوكُّل، وتوكُّلُهم علَى قَدْرِ إِيمانهم وقوَّةِ عُلُومهم، قُلْتُ: فما معنى إِيمانهم؟ قال: تصديقُهُم بمواعيدِ اللَّه عزَّ وجلَّ، وثِقَتُهم بضَمَانِ اللَّه تبارَكَ وتعالَى، قلْتُ: مِنْ أَيْنَ فَضَلَتِ الخاصَّة

(١) ذكره الطبري (٦/ ٥٩٠).

منهم على العامَّة، والتوكُّل في عَقْد الإيمان مع كلِّ من آمن بالله عزَّ وجلَّ؟ قال: إنَّ الذي فَضَلَتْ به الخاصَّة على العامَّة دَوَامُ سكونِ القَلْب عن ٱلاضطراب والهُدُوِّ عن الحرَكَة، فعندها، يا فَتى، ٱستراحُوا من عذاب الحِرْصِ، وفُكُّوا مِنْ أُسْرِ الطمع، وأُعْتِقُوا من عُبُودِيَّة الدنيا، وأبنائِها، وحَظُوا بالرَّوْحِ في الدَّارَيْنِ جميعاً، فطوبَى لهم وحُسْنُ مَآب، قلْتُ: فما الذي يولِّدُ هذا؟ قال: حَالَتَانِ:

دَوَامُ لُزُومِ المعرفة، وٱلاعتِمَادُ على الله عزَّ وجلَّ، وتَرْكُ الحِيل.

والثانية: الممارسَةُ حتى يَأْلَفَهَا إِلفاً، ويختارها ٱختياراً، فيصير التوكُّل والهُدُوُّ والسكونُ والرضا والصبْرُ له شعاراً ودثاراً. انتهى من **«كتاب القَصْدِ إِلى الله سبحانه»**.

وقولهم: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾: المعنى: لا تُنْزِلْ بنا بلاءً بأيديهم أو بغير ذلك / مدَّةَ محاربتنا لهم؛ فَيُفْتَنُونَ لذلك، ويعتقدون صلاَحَ دينهم، وفَسَاد ديننا؛ قاله مجاهد وغيره، فهذا الدعاءُ على هذا التأويل يتضمَّن دفْعَ فصلين: ٢٤١ ب

أحدُهما: القَتْل والبلاء الذي توقَّعه المؤمنون.

والآخر: ظُهُورُ الشِّرك بٱعتقادِ أهله أنَّهم أَهْلُ الحَقِّ.

ونحو هذا قوله ﷺ: «بِئْسَ المَيِّتُ أَبُو أُمَامَةَ لِيَهُودَ وَالمُشْرِكِينَ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ يَمُتْ صَاحِبُهُ»[1].

ورَجَّح * ع[2] * في «سورة الممتحنة: ٥» قولَ ابْنِ عباس: إن معنى: ﴿لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾: لا تسلِّطهم علينا؛ فيفتنونا؛ ٱنظره هناك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨)، والحاكم (٤/ ٢١٤)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٦).

مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تَبَوَّءا لقومكما بمصْر بيوتاً﴾ رُوي: أَن فرعون أَخَافَ بني إسرائيل، وهدَّم لهم مواضعَ كانوا اتَّخذُوهَا للصلاة، ونَحْو هذا، فأوحَى اللَّه إِلَى موسَى وهارون، أنْ تَبَوَّآ أي: اتخذا وتَخيَّرا لبني إسرائيل بمصْر بيوتاً، قال مجاهد: مِصْر؛ في هذه الآية: الإِسْكَنْدَرِيَّة[1]، ومِصْرُ ما بين أَسْوَان[2] والإِسكندرية[3].

وقوله سبحانه: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلةً﴾: قيل: معناه: مساجدُ، قاله ابنُ عباس وجماعة[4]، قالوا: خافوا، فأُمِرُوا بالصَّلاة في بيوتهم، وقيل: معناه مُوجَّهة إِلى القبلة؛ قاله ابن عباس[5]، ومنْ هذا حديثٌ عن النبيِّ ﷺ، أنه قَالَ: «خَيْرُ بُيُوتِكُمْ مَا ٱسْتُقْبِلَ بِهِ القِبْلَة»[6].

وقوله: ﴿وأقيموا الصلاة﴾: خطابٌ لبني إِسرائيل، وهذا قبل نزول التوراة؛ لأَنها لم تَنْزِلْ إِلا بعد إِجازة البَحْر.

وقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾: أَمرٌ لموسَى عليه السلام، وقال الطبريُّ ومكيٌّ: هو أَمرٌ لنبينا محمَّد عليه السلام، وهذا غير متمكِّن.

وقوله سبحانه: ﴿وقال موسَى ربَّنا إِنك آتيت فرعون وملأه زينةً ...﴾ الآية: هذا

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٩٧) برقم: (١٧٨٢٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣٨)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٢٨) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(٢) بالضم، ثم السكون، وواو وألف ونون. ويقال: بغير همزة: مدينةٌ كبيرةٌ، وكورةٌ في آخر الصعيد. وأول بلاد النُّوبة، على النيل في شرقيّه، في جبالها مقطع العمد التي بالإسكندرية، ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/ ٧٨).

(٣) بَنَى الإسكندر ثلاث عشرة مدينة وسمّاها كلّها باسمه، ثم تغيرت أساميها بعده، والمشهور بهذا الاسم الاسكندرية العظمى في بلاد مصر.
ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/ ٧٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٥٩٦) برقم: (١٧٨٠٨ ـ ١٧٨٠٩ ـ ١٧٨١٠)، وذكره ابن عطية (٦/ ١٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٦)، وزاد نسبته إلى الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٥) أخرجه الطبري (٦/ ٥٩٧) برقم: (١٧٨٢٤) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٦) بنحوه، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٦) تقدم تخريجه بلفظ: خير مجالسكم ما استقبل به القبلة.

غضَبٌ من موسَى على القِبْطِ، ودعاءٌ عليهم، لمَّا عَتَوْا وعانَدوا، وقدَّم للدعاءِ تقريرَ نعم اللَّه علَيْهم وكُفْرِهِم بها، و﴿آتَيتَ﴾ معناه: أَعْطَيْتَ، واللام في ﴿لِيضلُّوا﴾ لام كَيْ، ويحتملُ أن تكون لامَ الصَّيْرورة والعَاقِبَةِ، المعنى: آتيتهم ذَلكَ، فصار أمرهم إِلى كذا، وقرأ حمزة وغيره: «لِيُضِلُّوا» (بضم الياء)؛ على معنى: لِيُضِلُّوا غيرهم.

وقوله: ﴿رَبَّنا ٱطْمِسْ عَلَى أَموالهم﴾: هو من طُمُوسِ الأَثَر والعين؛ وَطَمْسُ الوجوه منه، وتكْرِير قوله: ﴿ربَّنا﴾ ٱستغاثة؛ كما يقول الداعي: يا اللَّه، يا اللَّه، روي أنهم حين دعا موسَى بهذه الدعوة، رَجَعَ سُكَّرُهُمْ حجارةً، ودراهِمُهم ودنانيرهم وحُبُوبُ أطعمتهم، رَجَعَتْ حجارةً؛ قاله قتادة وغيره[(١)]، وقال مجاهد وغيره: معناه: أَهْلِكْها ودَمِّرها[(٢)].

وقوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾: بمعنى: ٱطْبَعْ وٱخْتِمْ عليهم بالكفر؛ قاله مجاهدٌ والضَّحَّاك[(٣)].

وقوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾: مذهب الأخفش وغيره: أنَّ الفعل منصوب؛ عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾، وقيل: منصوبٌ في جواب الأمر، وقال الفراء والكسائي: هو مجزومٌ على الدعاء، وجعل رؤية العذاب نهايةً وغايةً؛ وذلك لِعِلْمه من اللَّه أنَّ المؤمن عند رؤية العَذَاب لا ينفعه إِيمانه في ذلك الوَقْت، ولا يُخْرِجُهُ من كُفْره، ثم أجاب اللَّه دعوتهما، قال ابن عباس: العَذَاب هنا: الغَرَقُ[(٤)]، وروي أن هارون كان يُؤَمِّنُ على دعاء موسَى؛ فلذلك نَسَب الدعوة إِليهما؛ قاله محمد بن كَعْب القُرَظِيُّ[(٥)]، قال البخاريُّ: ﴿وَعَدْواً﴾: من العُدْوان. انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٦٠٠) برقم: (١٧٨٣٨، ١٧٨٤٠) نحوه، وبرقم: (١٧٨٣٤، ١٧٨٣٥)، عن محمد بن كعب القرظي (١٧٨٣٦) عن أبي العالية بنحوه،وبرقم: (١٧٨٤٠)، عن سفيان، برقم: (١٧٨٤١)، عن أبي صالح، نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٥ - ٣٦٦)، عن قتادة، ومحمد بن كعب، وابن عباس نحوه، وابن كثير (٢/ ٤٢٩) نحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٧).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٦٠٠ - ٦٠١) برقم: (١٧٨٤٥ - ١٧٨٤٦، ١٧٨٤٧، ١٧٨٤٨)، عن ابن عباس نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٥)، عن مجاهد نحوه، وابن كثير (٢/ ٤٢٩)، عن ابن عباس، ومجاهد، نحوه، والسيوطي في (٣/ ٥٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٦٠١) برقم: (١٧٨٥١، ١٧٨٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣٩).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٦٠١) برقم: (١٧٨٤٩، ١٧٨٥٠) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣٩)

(٥) أخرجه الطبري (٦/ ٦٠٣) برقم: (١٧٨٦٣ - ١٧٨٦٤) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٤٠)، وابن كثير (٢/ ٤٢٩) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٧) نحوه.

وقول فرعون: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . . .﴾ الآية: روي عن النبيِّ ﷺ «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَالَ: مَا أَبْغَضْتُ أَحداً قَطُّ بُغْضِي لِفِرْعَوْنَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿آمَنْتُ . . .﴾ الآيَةَ، فَأَخَذْتُ مِنْ حَالِ البَحْرِ، فَمَلأْتُ فَمَهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ تَلْحَقُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ»، وفي بعض الطرق: «مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَتَلْحَقُهُ الرَّحْمَةُ»[1].

قال * ع[2] *: فانظر إلى كلام فرعون، ففيه مَجْهَلَةٌ وَتَلَعْثُمٌ، ولاَ عُذْرَ لأحد في
جَهْلِ هذا، وإنما العذر فيما لا سبيلَ /إلى علمه، كقول عليٍّ رضي اللَّه عنه: أَهْلَلْتُ ١٢٤٢
بِإِهْلاَلٍ كَإِهْلاَلِ النَّبِيِّ ﷺ، والحَالُ: الطِّينُ، والآثار بهذا كثيرةٌ مختلفة الألفاظِ، والمعنَى واحدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿آلآن وقد عصيت قبل﴾، وهذا عَلى جهة التوبيخ له، والإعلان بالنقمةِ منه، وهذا الكلامُ يحتملُ أن يكونَ مِنْ مَلَكٍ مُوَصِّلٍ عن اللَّه، أو كيف شاء اللَّه، ويحتملُ أَنْ يكون هذا الكلامُ معنَى حاله وصورةَ خِزْيه، وهذه الآيةُ نصٌّ في رَدِّ توبةِ المُعَايِنِ.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فاليوم ننجِّيك ببدنك . . .﴾ الآية: يقوِّي أنه صورةُ حاله؛ لأن هذه الألفاظ إنما يظهر أنها قِيلَتْ بعد غَرَقِهِ، وسببُ هذه المقالة؛ على ما روي: أن بني إسرائيل بَعُدَ عِنْدَهم غَرَقُ فِرْعَوْنَ وهلاكُه، لِعِظَمِهِ في نُفُوسهم، وكَذَّبَ بَعْضُهُمْ أَنْ يكونَ فِرْعَوْنُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٨٧) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٧) من طريق علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس به.
وقال الترمذي: حديث حسن. ومن طريق علي أخرجه الطبري (٦/ ٦٠٥) رقم: (١٧٨٧٥).
وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٤٠)، والطبري (٦/ ٦٠٥) رقم: (١٧٨٧٢ ـ ١٧٨٧٣)، من طريق شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.
وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٤١).

يموتُ، فَنُجِّيَ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الأَرض، حتى رآه جميعهم ميتاً؛ كأنه ثَوْرٌ أحمر، وتحقَّقوا غَرَقَه.

والجمهور[١] على تشديدِ ﴿نُنَجِّيكَ﴾؛ فقالت فرقة: معناه: من النَّجَاةِ، أي: من غمراتِ البَحْرِ والماءِ، وقال جماعة: معناه: نُلْقِيكَ على نَجْوة من الأرض، وهي: ما ٱرتفع منها، وقرأ يعقوب[٢] بسكون النونِ وتخفيف الجيم، وقوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ قالت فرقة: معناه: بشَخْصِكَ، وقالتْ فرقة: معناه: بِدِرْعِكَ، وقرأ الجمهورُ[٣]: «خَلْفَكَ»، أي: من أَتَى بعدك، وقرىء شاذًا: «لِمَنْ خَلَفَكَ»[٤] ـ بفتح اللام ـ، والمعنى: ليجعلك اللَّه آيَةً له في عبادِهِ، وباقي الآية بيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد بوأنا بني إِسرائيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ ورزقناهم من الطيبات فما ٱختلفوا حتى جاءهم العلم﴾: المعنى: ولقد ٱخترنا لبني إِسرائيل أَحْسَنَ ٱختيارٍ، وأحللناهم مِنَ الأماكن أَحْسَنَ محلٍّ، و﴿مُبوَّأ صدق﴾: أي: يصدُقُ فيه ظَنُّ قاصده وساكنه، ويعني بهذه الآية إِحلالَهُمْ بلادَ الشَّامِ وبَيْتَ المَقْدِسِ؛ قاله قتادة وابن زَيْد، وقيل: بلاد الشام ومصر، والأول أصحُّ، وقوله سبحانه: ﴿فما ٱختلفوا﴾ أي: في نبوَّة نبينا محمَّد عليه السلام، وهذا التخصيصُ هو الذي وقع في كُتُب المتأوِّلين كلِّهم، وهو تأويلٌ يحتاج إِلى سند، والتأويل الثاني الذي يحتمله اللفظُ: أنَّ بني إِسرائيل لم يكن لهم ٱختلافٌ على موسَى في أول حاله، فلما جاءَهُم العلْمُ والأوامرُ، وغَرِقَ فرعَوْنَ، اختلفوا، فالآية ذامَّة لهم.

* ت *: فَرَّ رحمه اللَّه من التخصيص، فوقع فيه، فلو عمَّم ٱختلافهم على أنبيائهم موسَى وغيرِهِ، وعلَى نبيِّنا، لكان أَحْسَنَ، وما ذهب إِليه المتأوِّلون من التخصيص أَحْسَنُ لقرينةِ قوله: ﴿فإِن كنت في شك﴾، فالربطُ بين الآيتين واضحٌ، واللَّهُ أعلم.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ١٨٩)، و«الدر المصون» (٤/ ٦٧).
(٢) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ١٨٩)، و«الدر المصون» (٤/ ٦٧).
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٢).
(٤) وقرأ بها إسماعيل المكي، كما في «الشواذ» ص: (٦٣) وينظر: «البحر المحيط» (٥/ ١٨٩).

حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿فإن كنت في شك . . .﴾ الآية: الصوابُ في معنى الآية: أنها مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ، والمراد بها سِوَاهُ مِنْ كُلِّ من يمكِنُ أن يشُكَّ أو يعارِض.

* ت *: ورُوينا عن أبي داود سُلَيْمَانَ بْنِ الأَشْعَثِ، قال: حدَّثنا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، قال: حدَّثنا يزيدُ بن هَارُونَ، قال: حدَّثنا محمَّد بنِ عَمْرٍو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي اللَّه عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «المِرَاءُ في القُرْآنِ كُفْرٌ»[1]، قال عِيَاض في «**الشفا**»: تأول بمعنى «الشك»، وبمعنى «الجِدَال». انتهى.

﴿والذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾: من أسلم من أهْلِ الكتاب، كأبْنِ سَلاَم وغيره، وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لَمَّا نزَلَتْ هذه الآية: «أَنَا لاَ أَشُكُّ وَلاَ أَسْأَلُ»[2]، ثم جزم سبحانه الخَبَر بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءك الحقُّ من ربك﴾، واللام في «لَقَدْ» لامُ قَسَم.

وقوله: ﴿مما أَنزلنا إِليك﴾ يريد به: من أن بني إِسرائيل لم يختلفوا في أَمْره إِلا مِنْ بعد مجيئِهِ عَلَيْه السلام؛ هذا قول أهل التأويل قاطبة.

قال * ع[3] *: وهذا هو الذي يشبه أنْ تُرْجَى إزالةُ الشَّكِّ فيه مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الكتاب،

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٦١٠) كتاب «السنة» باب: النهي عن الجدال في القرآن، حديث (٤٦٠٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٦، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨)، وابن حبان (٥٩ ـ موارد)، والحاكم (٢/ ٢٢٣)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (٨/ ٢١٣)، وفي «**أخبار أصبهان**» (٢/ ١٢٣) كلهم من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٥٨)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٢٩)، وأبو يعلى (١٠/ ٣٠٣) رقم: (٥٨٩٧)، والخطيب في «**تاريخ بغداد**» (٤/ ٨١)، من طريق سعد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة به. وأخرجه أحمد (٢/ ٤٧٨، ٤٩٤)، والحاكم (٢/ ٢٢٣) كلاهما من طريق سعد بن إبراهيم، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.
وأخرجه الطبراني في «**الصغير**» (١/ ٥٧٤) من طريق شعيب بن أبي حمزة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به.
قال ابن أبي حاتم في «**العلل**» (٢/ ٧٤) رقم: (١٧١٤)، عن أبيه: هذا حديث مضطرب، ليس هو صحيح الإسناد ا هـ.
وفي الباب عن عمرو بن العاص: أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، وعن عبد الله بن عمرو: أخرجه الطيالسي (٢/ ٦ ـ منحة) رقم: (١٩٠٢).
وعن زيد بن ثابت: أخرجه الطبراني في «**الكبير**» (٥/ ١٥٢) رقم: (٤٩١٦).

(٢) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٦/ ٦١٠) برقم: (١٧٩٠٧) عن قتادة مرسلاً. وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٥٧١)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق.

(٣) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ١٤٣).

ويَحتملُ اللفظُ أَنْ يريد بـ ﴿مَا أنزلنا﴾/ جميعَ الشرع. ٢٤٢ ب

* ت *: وهذا التأويلُ عندي أَبْيَنُ إذَا لُخِّص، وإِن كان قد ٱستبعده * ع[1] *: ويكون المراد بـ ﴿مَا أنزلنا﴾: مَا ذكره سبحانه من قصصهم، وذِكْرِ صفته عليه السلام، وذكرِ أنبيائهم وصِفَتِهم وسيرهم وسائِرِ أخبارهم الموافِقَةِ لِمَا في كتبهم المنزَّلة على أنبيائهم؛ كالتوراة والإِنجيل والزَّبُور والصُّحُف، وتكون هذه الآية تَنْظُر إلى قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ...﴾ [يوسف: ١١١]، فتأمَّله، والله أعلم.

وأما قوله: هذا قولُ أهْل التأويل قاطبةً، فليس كذلكَ، وقد تكلَّم صاحب «الشفا» على الآية، فأحْسَنَ، ولفظهُ: واختلف في معنى الآية، فقيلَ: المرادُ: قُلْ يا محمَّد للشاكِّ: ﴿إِنْ كُنْتَ في شكٍّ ...﴾ الآية، قالوا: وفي السورة نَفْسِهَا ما دلَّ على هذا التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿قل يأيها النَّاس إن كنتم في شكٍّ من ديني ...﴾ الآية[يونس: ١٠٤]، ثم قال عياضٌ: وقيل: إن هذا الشكَّ: الذي أُمِرَ غَيْرُ النبيِّ ﷺ بسؤالِ الذين يقرؤون الكتاب عنه، إنما هو في ما قصَّهُ اللَّه تعالى من أخبار الأمم، لا فيما دعا إِلَيْه من التوحيد والشريعة. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذَّبوا بآياتِ اللَّه ...﴾ الآية: مما خوطِبَ به النبيُّ ﷺ، والمراد سواه.

قال * ع[2] *: ولهذا فائِدةٌ ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شدَّة التخويفِ؛ لأنه إِذا كان رسول اللَّه ﷺ يُحذَّرُ مِنْ مثل هذا، فغيره من النَّاسِ أَوْلَى أن يحذَّر ويتقى على نفسه.

وقوله سبحانه: ﴿إِن الذين حقَّت عليهم كلمت ربك﴾: أي: حقَّ عليهم في الأزل وخلقهم لعذابه ﴿لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية﴾ إلا في الوقت الذي لا يَنْفَعهم فيه الإِيمان؛ كما صنع فرعون وأشباهه، وذلك وقتُ المُعَايَنَةِ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٣).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٣).

ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلولا كانت قرية آمنت . . .﴾ الآية: وفي مصحف أُبيٍّ وابنِ[(١)] مسعودٍ: «فَهَلاَّ»، والمعنى فيهما واحدٌ، وأصل «لولا» التحضيضُ، أو الدلالةُ علَى مَنْع أَمرٍ لوجودِ غيرِهِ، ومعنى الآية: فَهَلاَّ آمَنَ أَهْلُ قريةٍ، وهم علَى مَهَلٍ لم يتلبَّس العذابُ بهم، فيكون الإِيمان نافعاً لهم في هذا الحال، ثم ٱستثنَى قومَ يُونُسَ، فهو بحَسَب اللفظ ٱستثناءٌ منقطعٌ، وهو بحسب المعنَى متَّصلٌ لأن تقديره: ما آمن أَهْلُ قريةٍ إِلا قَوْمَ يُونُسَ، وروي في قصَّة قوم يونُسَ: أن القوم لَمَّا كَفَروا، أي: تمادَوْا على كفرهم، أوحَى اللَّه تعالى إِليه؛ أَنْ أَنذِرْهم بالعذاب لثالثة، فَفَعَلَ، فقالوا: هو رَجُلٌ لا يَكْذِب، فَٱرْقُبُوه فَإِن أقام بَيْنَ أَظْهُرِكم، فلا عليكم، وإِن ٱرتَحلَ عنكم، فهو نزولُ العَذَابِ لا شَكَّ فيه، فلَمَّا كان الليلُ، تزوَّد يُونُسُ، وخَرَجَ عنهم، فأصبحوا فلَمْ يجدُوهُ، فتابوا ودَعوا اللَّه، وآمنُوا، ولَبِسُوا المُسُوحَ، وفَرَّقوا بين الأُمَّهات والأولادِ من النَّاسِ والبهائم، وكان العذَابُ فيما رُوِيَ عن ابن عباس: علَى ثُلُثَيْ مِيلٍ منهم[(٢)]، وروي: على مِيلٍ[(٣)]، وقال ابن جبير[(٤)]: غشيهمُ العذابُ؛ كما يَغْشَى الثوبُ القَبْرَ، فرفَع اللَّه عنهم العذابَ، فلمَا مضَتِ الثالثة، وعَلِمَ يونُسُ أن العذاب لم يَنْزِلْ بهم، قال: كَيْفَ أنصَرِفُ، وقد وجَدُوني في كَذِبٍ، فذهب مغاضباً؛ كما ذكر اللَّه سبحانه في غير هذه الآية، وذهب[(٥)] الطبريُّ إِلى أَنَّ قوم يونُسَ خُصُّوا من بين الأُمَم بِأَنْ تِيبَ عليهم مِنْ بَعْد معاينة العذاب، وذكر ذلك عن جماعة من المفسِّرين، وليس كذلك، والمعاينةُ التي لا تَنْفَعُ التوبةُ معها هي تلبُّس العذاب أو الموتِ بشَخْصِ الإِنسانِ، كقصَّة فرعون، وأمَّا قوم يونس فلم يَصِلُوا هذا الحَدَّ.

* ت *: وما قاله الطبريُّ عندي أَبْيَنُ، ﴿ومتعناهم إلى حين﴾: يريد: إِلى آجالهم
٢٤٣أ المقدَّرة في الأزل، وروي أن قوم يونس / كانوا بـ«نِينَوَى» من أرض المَوْصِلِ.

وقوله سبحانه: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾: المعنى: أفأنْتَ تكره

---

(١) ينظر: «**الكشاف**» (٢/ ٣٧١)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ١٤٣)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ١٩٢)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٦٩).

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٦١٣) برقم: (١٧٩١٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٤٤)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٥٧٣)، وعزاه لأحمد، وابن جرير.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ١٤٤).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٦١٣) برقم: (١٧٩١٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٤٤) والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٥٧٣)، وعزاه لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٦/ ٦١٤) بنحوه.

الناس بإدخالِ الإِيمَانِ في قُلوبهم، واللَّه عَزَّ وجلَّ قد شاء غَيْرَ ذلك، و﴿الرِّجْسُ﴾ هنا بمعنى العذاب.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض...﴾ الآية: هذه الآية أمر للكفَّار بالاعتبار والنَّظَرِ في المصْنُوعات الدالَّة على الصَّانع من آيات السمٰواتِ وأفلاكِها وكواكِبِها وسحابِها ونَحْوِ ذلك، والأرْضِ ونباتِهَا ومعادِنِها وغيرِ ذلك، المعنى: ٱنْظُرُوا في ذلك بالواجب، فهو يُنْهِيكُمْ إلى المعرفة باللَّه وبوَحْدَانيته، ثم أخبر سبحانه أنَّ الآيات والنُّذُرَ ـ وهم الأنبياء ـ لا تُغْنِي إلا بمشيئته؛ فـ «مَا»؛ على هذا: نافيةٌ، ويجوز أن تكون ٱستفهاماً في ضمنه نَفْيُ وقوعِ الغِنَى، وفي الآية على هذا: توبيخٌ لحاضِرِي النبيِّ ﷺ.

قال * ص *: و﴿النُّذُرُ﴾: جمع نذيرٍ، إما مصدرٌ بمعنى الإِنذارات، وإما بمعنى مُنذِرٍ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خَلَوْا من قبلهم...﴾ الآية: وعيدٌ إِذَا لَجُّوا في الكُفْرِ، حل بهم العذاب.

وقوله سبحانه: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾: أي: عادةُ اللَّه سَلَفَتْ بإِنجاء رسله ومتَّبعيهم عند نزولِ العذاب بالكَفَرَةِ ﴿كذلك حقًّا علينا نُنجِ المؤمنين﴾.

قال * ص *: أي: مثلَ ذلك الإِنجاء الذي نجينا الرسُلَ ومؤمنيهم نُنجِي من آمن بك. انتهى، وخط المُصْحف في هذه اللفظة «نُنج» بجيم مطلقة دون ياء، وكلهم قرأ «نُنجِّ» ـ مشددة الجيم ـ إلا الكسائيَّ وحفصاً عن عاصم؛ فإنهما قرآ بسكون النونِ وتخفيفِ الجيم[1].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٣٠)، «الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٣٠٥)، «حجة القراءات» ص: (٣٣٧)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٢٠)، و«شرح شعلة» (٤٢٥)، و«العنوان» (١٠٦).

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني ...﴾ الآية، مخاطبةٌ عامَّة للناس أجمعين إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وأنْ أَقِمْ وجهك للدين ...﴾ الآية: الوجْهُ في هذه الآية بمعنى المَنْحَى والمَقْصِد، أي: ٱجعلْ طريقك وٱعتمالَكَ للدِّين والشرْعِ.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكونَنَّ من المشركين * ولا تدع من دون اللّه ما لا ينفعك ولا يضرك ...﴾ الآية، قد تقدَّم أن ما كان مِنْ هذا النوع، فالخِطَابُ فيه للنبيِّ ﷺ، والمرادُ غيره.

وقوله سبحانه: ﴿وإِنْ يمسسك اللّه بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ له إلا هو ...﴾ الآية: مقصودُ هذه الآية أن الحَوْل والقُوَّة للّهِ، والـ ﴿ضُرُّ﴾ لفظ جامعٌ لكلِّ ما يكرهه الإِنسان.

وقوله: ﴿وإن يردك بخَيْرٍ﴾ لفظ تامُّ العموم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن ٱهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾: هذه مخاطبةٌ لجميع الكفَّار ومستمرَّةٌ مدَى الدهرِ، و﴿الحَقُّ﴾: هو القرآن والشرْعُ الذي جاء به النبيُّ ﷺ.

وقوله: ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾: منسوخَةٌ بالقتالِ.

وقوله سبحانه: ﴿واتبع ما يوحَى إليك وٱصبرْ حتى يحكُمَ اللّه وهو خير الحاكمين﴾. قوله: ﴿حتى يحكم اللّه﴾: وعدٌ للنبيِّ ﷺ بأنْ يغلبهم، كما وقع، وهذا الصبرُ منْسُوخٌ أيضاً بالقتالِ، وصلَّى اللّه على سيدنا ومولاَنَا محمَّدٍ وعلَى آله وصَحْبه وسَلَّم تسليماً.

تفسير سورة هود

مكية

إلا نحو ثلاث آيات

قال الداووديُّ: وعن أبي بَكْرِ الصِّدِّيق رضي الله عنه، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ؟! قَالَ: «شَيَّبَتْنِي «هُودٌ» وَ«الوَاقِعَةُ» وَ«المُرْسَلاَتُ» وَ«عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» وَ«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[(١)]، وفي رواية عن ابن عباس: «هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا». انتهى[(٢)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٠٢) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الواقعة، حديث (٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٤)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (٤/ ٣٥٠)، كلهم من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر الصديق به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.
وذكره من هذا الوجه السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٧٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في **«البعث والنشور»**.
وأخرجه أبو يعلى (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣) رقم: (١٠٧ ـ ١٠٨) من طريق أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن أبي بكر به، وذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (٧/ ٤٠)، وقال: رواه الطبراني في **«الأوسط»**، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر.
قال ابن أبي حاتم في **«العلل»** (٢/ ١١٠) رقم: (١٨٢٦): سُئِلَ أبي عن حديث أبي إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس، قال أبو بكر للنبي ﷺ: ما شيبك؟ قال: «شيبتني هود». والحديث متصل أصحّ، كما رواه شيبان، أو مرسلاً كما رواه أبو الأحوص مرسل قال: مرسل أصحّ، قلت لأبي: روى بقية عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر، عن النبي ﷺ؟ فقال: هذا خطأ ليس فيه ابن عباس ا هـ.
والحديث ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٧٦) من وجه آخر عن أبي بكر، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر من طريق مسروق عن أبي بكر وعزاه أيضاً إلى البزار، وابن مردويه، من طريق أنس، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٧٧)، وعزاه إلى ابن عساكر من طريق عطاء، عن ابن عباس.

قوله عز وجل: ﴿الۤر كتاب أحكمت آياته﴾ أي: أُتقِنَتْ وأجيدَتْ، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزَل، ثم فُصِّل بتقطيعه، وتَبْيين أحكامه وأوامره علَى محمَّد نبيه عليه السلام في
٢٤٣ ب أزمنةٍ مختلفةٍ؛ فـ «ثُمَّ» على بابها، / فالإِحْكَامُ صفةٌ ذاتية، والتفصيلُ إِنما هو بحسب من يفصِّل له، والكتابُ بأجمعه محكَمٌ ومفَصَّل، والإِحْكَام الذي هو ضدُّ النَّسْخ، والتفصيلُ الذي هو خلافُ الإِجمال، إِنما يقالان مع ما ذَكَرناه بٱشتراك.

قال * ص *: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: «ثُمَّ» لترتيب الأخبار؛ لا لترتيب الوقوع في الزمان، وَ﴿لَدُنْ﴾ بمعنى: «عند». انتهى.

قال الداووديُّ: وعن الحسن: ﴿أُحْكِمَتْ آياته﴾: قَالَ: أحكمت بالأَمْرِ والنهي، ثم فُصِّلَتْ بالوعْدِ والوعيدِ، وعنه: فُصِّلَتْ بالثوابِ والعقابِ. انتهى. وقدَّم الـ ﴿نذير﴾؛ لأن التَّحذيرَ من النَّار هو الأهمُّ. ﴿وأن ٱستغفروا ربكم﴾، أي: ٱطلبوا مغفرتَهُ؛ وذلك بطلب دُخُولكم في الإِسلام، ﴿ثم توبوا﴾ من الكُفْرِ ﴿يُمَتِّعْكُمْ متاعاً حسناً﴾، ووصف المَتَاع بالحُسْنِ؛ لطيب عيش المؤمن برجائِهِ في ثوابِ ربِّه، وفَرَحِهِ بالتقرُّب إِليه بأَداء مفتَرَضَاته، والسرورِ بمواعيدِه سُبْحانه، والكافِرُ ليس في شيء مِنْ هذا، ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾، أي: كلَّ ذي إِحسان ﴿فضلَه﴾، فيحتملُ أنْ يعود الضميرُ من «فَضْلِهِ» على «ذي فضل» أي: ثواب فَضْلِهِ، ويحتمل أنْ يعود على اللَّه عزَّ وجلَّ، أي: يؤتي اللَّه فضله كلَّ ذي فضلٍ وعملٍ صالحٍ من المؤمنين، ونَحْو هذا المعنى ما وعد به سبحانَهُ مِنْ تضعيف الحسنَاتِ، ﴿وإِن تولوا فإِني أخافُ عليكم﴾، أي: فقُلْ: إِني أخافُ عليكم عذابَ يوم كبيرٍ، وهو يومُ القيامة.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعْدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألا إِنهم يثنون صدورهم . . .﴾ الآية: قيل: إِن هذه الآية نزلَتْ في الكفَّار الذين كانوا إِذا لقيهم النبيُّ ﷺ تطامَنُوا وثَنَوْا صُدُورهم؛ كالمتستِّر، وردُّوا إِليه ظهورَهُم، وغَشُوا وجوهَهُمْ بثيابهم، تباعداً منهم، وكراهيةً للقائه، وهم يَظُنُّون أنَّ ذلك يخفَى عليه، أوْ عن اللَّه عزَّ وجلَّ، وقيل: هي ٱستعارةٌ للْغِلِّ والحِقْدِ الذي كانوا يَنْطَوُونَ

عليه، فمعنى الآية: أَلاَ إِنهم يُسِرُّون العداوةَ، ويَتَكَتَّمون بها، لِتَخفى في ظَنِّهم عن اللَّه وهو سبحانه حينَ تغشِّيهم بثيابهم، وإِبلاغِهِم في التستُّر، يعلَمُ ما يُسرُّون، و﴿يستغشُونَ﴾: معناه يجعلونها أغشيةً وأغطيةً.

قال * ص *: قرأ[١] الجمهور: «يَثْنُونَ» - بفتح الياء -؛ مضارع ثَنَى الشَّيْءَ ثَنْياً: طَوَاهُ. انتهى، وقرأ ابن عبَّاس[٢] وجماعة: «تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ» - بالرفع -؛ على وزن «تَفْعَوْعِلُ»، وهي تحتملُ المعنيين المتقدِّمين، وحكى الطبريُّ عن ابن عبَّاس على هذه القراءة. أنَّ هذه الآية نزَلَتْ في قوم كانوا لا يأتون النساءَ والحَدَثَ إِلاَّ ويستَغْشُونَ ثيابهم؛ كراهيةَ أنْ يُفْضُوا بفروجهم إِلى السماء[٣].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما من دابَّة في الأرض إِلا على اللَّه رزقها . . .﴾ الآية، المرادُ جميعُ الحيوانِ المحتاجِ إِلى رزقٍ، والمستقر: صُلْب الأبِ، و«المستودَعُ»: بَطْن الأُمِّ، وقيل غير هذا، وقد تقدَّم.

وقوله: ﴿في كتاب﴾: إِشارةٌ إِلى اللوح المحفوظ.

قال * ص *: ﴿لِيَبلوكم﴾ اللام متعلِّقة بـ«خَلَقَ» وقيل: بفعلٍ محذوفٍ، أي: أَعْلَمَ بذلك لِيَبْلُوَكُمْ، انتهى.

﴿ولَئِنْ قُلْت﴾: اللام في «لَئِنْ»: مُؤذنةٌ بأَنَّ اللام في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لامُ قسم، لا جوابِ شرطٍ، وقولهم: ﴿إِن هذا إِلا سحر مبين﴾ تناقُضٌ منهم؛ لأنهم مقرُّونَ بأن اللَّه خلق السمٰوات والأرض، وهم مع ذلك ينكرون ما هو أيْسَرُ من ذلك، وهو البَعْثُ مِنَ القبورِ، وإِذْ خَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ، أَكْبَرُ من خَلْقِ الناس.

---

(١) ينظر: **«البحر المحيط»** (٥/ ٢٠٣) و**«الدر المصون»** (٤/ ٧٨).

(٢) وممن قرأ بها مجاهد، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعبد الرحمٰن بن أبزي، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وأبو رزين، وأبو جعفر محمد بن علي، وعلي بن حسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، والضحاك، وأبو الأسود الدؤلي.
ينظر: **«الشواذ»** ص: (٦٤)، و**«المحتسب»** (١/ ٣١٨)، و**«المحرر الوجيز»** (٣/ ١٥٠)، و**«البحر المحيط»** (٥/ ٢٠٣)، و**«الدر المصون»** (٤/ ٧٨).

(٣) أخرجه الطبري في **«تفسيره»** (٦/ ٦٢٦) برقم: (١٧٩٦٥) بنحوه، وللحديث طريق آخر عن ابن عباس، وأخرجه البخاري (٨/ ٦٢٦) برقم: (٤٦٨١ - ٤٦٨٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٥١)، والبغوي في **«تفسيره»** (٢/ ٣٧٤)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٤٣٦)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٥٧٩)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، كلهم بنحوه.

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾، أي: المتوعَّد به ﴿إلى أمة معدودةٍ﴾، أي مدَّةٍ معدودة ﴿ليقولُنَّ ما يحبسه﴾، أي: ما هذا الحابسُ لهذا العذاب؛ على جهة التكذيب، ﴿وحاق﴾: معناه: حَلَّ وأحاطَ. البخاريُّ: حاق: نَزَلَ.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١٣)﴾

﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة . . .﴾ الآية: «الرحمة» هنا: تَعمُّ جميع ما ينتفعُ به مِنْ مطعومٍ وملبوسٍ وجَاهٍ وغيرِ ذلك، و﴿الإنسان﴾ هنا اسمُ جنْسٍ، والمعنَى: إن هذا
٢٤٤أ الخُلُقَ في سجيَّة الإنسان، ثم ٱستثنى منهم الذين ردَّتهم الشرائعُ والإيمانُ / إلى الصبْرِ والعملِ الصالحِ، و﴿كفور﴾ هنا: مِنْ كُفْر النعمة، والـ ﴿نعماء﴾: تَشْمَلُ الصحَّة والمَال، والـ ﴿ضَرَّاء﴾: من الضُّرِّ، وهو أيضاً شاملٌ؛ ولفظة ﴿ذهب السيئاتُ عَنِّي﴾: يقتضي بطَراً وجهلاً أنَّ ذلك بإنعام من اللّه تعالى، و﴿السيئات﴾ هنا: كلُّ ما يسوء في الدنيا، والـ ﴿فَرِح﴾؛ هنا: مطلَق؛ فلذلك ذُمَّ، إذ الفرحُ ٱنهمالُ النفْسِ، ولا يأتي الفرحُ في القرآن ممدوحاً إلا إذا قيد بأنه في خَيْرٍ.

وقوله: ﴿إلا الذين صبروا﴾: ٱستثناءٌ متصلٌ؛ على ما قدَّمنا مِنْ أَنَّ الإنسان عامٌ يراد به الجنْسُ؛ وهو الصواب، ومَنْ قال: إنه مخصوصٌ بالكافر قال: هٰهنا ٱلاستثناء منقطعٌ، وهو قول ضعيفٌ من جهة المعنَى، لا من جهة اللفظ؛ لأن صفة الكُفْر لا تطلق على جميع الناسِ؛ كما تقتضي لفظةُ الإنسان وٱستثنَى اللّه تعالى من الماشِينَ على سجيَّة الإنسان هؤلاءِ الذين حملَتْهم الأديان على الصبْرِ على المكارِهِ، والمثابرةِ على عبادةِ اللّهِ، وليس شَيْءٌ من ذلك في سجيَّة البَشَرِ، وإنما حمل على ذلك خَوْفُ اللّه وحبُّ الدَّارِ الآخرة، والصبْرُ على العملِ الصالحِ لا يَنْفَعُ إلاَّ مع هداية وإيمانٍ، ثم وعد تعالَى أهْلَ هذه الصفة بالمَغْفِرةِ للذُّنُوبِ والتفضُّلِ بالأجرِ والنَّعِيم.

وقوله سبحانه: ﴿فلعلَّك تاركٌ بعْضَ ما يوحَى إليكَ وضائقٌ به صدْرُكَ أَنْ يقولوا لولا أنزلَ عليه كَنْز﴾: سَبَبُ هذه الآية: أَنَّ كفَّار قريش قالوا: يا محمَّد، لو تركْتَ سبَّ آلهتنا، وتسفيه آبائنا، لَجَالَسْناك وٱتَّبَعْنَاكَ، وقالوا له: ٱئْتِ بِقُرآن غيرِ هذا أو بدِّله، ونحو هذا من

الأقوال، فخاطب اللّه تعالَى نبيَّه عليه السلام على هذه الصورة من المخاطَبَة، ووقَّفَهُ بها توقيفاً رَادًا علَى أقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنَى أنَّه عليه السلام هَمَّ بشيء من ذلك، فَزُجِرَ عنه، فإنه لم يُرِدْ قطُّ تَرْكَ شيء مما أوحِيَ إليه، ولا ضَاقَ صدْرُهُ به، وإنما كان يَضِيقُ صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعْدِهِم عن الإيمان.

قال * ص، وع[١] *: وعبَّر بـ ﴿ضائق﴾ وإن كان أقلَّ استعمالاً من «ضَيِّق» لمناسبة ﴿تارك﴾؛ ولأن ﴿ضَائِق﴾ وصفٌ عارضٌ؛ بخلاف «ضيق»؛ فإنه يدل على الثبوت، والصَّالحُ هنا الأولُ بالنسبة إليه ﷺ، والضمير في «به» عائدٌ على البغْضِ، ويحتمل أن يعود على «ما» و﴿أنْ يقولوا﴾ أي: كراهةَ أنْ يقولوا، أو لئلاً يقولوا، ثم آنسه تعالَى بقوله: ﴿إنما أنت نذير﴾، أي: هذا القدْرُ هو الذي فُوِّضَ إليك، واللّه تعالَى بَعْدَ ذلك هو الوكيلُ الممضي لإيمان من شاء، وكُفرِ من شاء ﴿أمْ يقولُونَ افتراه﴾: «أم» بمعنى: «بل»، والافتراء أخصُّ من الكذبِ، ولا يستعملُ إلا فيما بَهِتَ به المرءُ وكَابَر.

وقوله سبحانه: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتُمْ من دون اللّه إن كنتم صادقين﴾ تقدَّم تفسير نظيرها، وقال بعضُ الناس: هذه الآية متقدِّمة على التي في يُونُسَ؛ إذْ لا يصحُّ أنْ يعجزوا في واحدةٍ، ثم يكلَّفوا عشراً.

قال * ع[٢] *: وقائلُ هذا القولِ لم يَلْحَظْ ما ذكَرْناه مِنَ الفَرْقِ بين التكْليفين، في كمال المماثَلَةِ مرةً كما هو في «سورة يونس»، ووقوفها على النظْمِ مرَّة كما هو هنا، وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾: يريد في أنَّ القرآن مفترًى.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ
﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن
كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ
بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ
رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٤).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٥).

ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فإلم يستجيبوا لكم﴾، لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أنْ تكون المخاطبةُ من النبيِّ ﷺ للكفَّار، أي: ويكون ضمير ﴿يستجيبوا﴾؛ على هذا التأويل عائداً على معبوداتهم.

والثاني: أن تكون المخاطبةُ من اللَّه تعالَى للمُؤمنين، ويكون قوله؛ على هذا ﴿فاْعلموا﴾ بمعنى: دُومُوا علَى عِلْمِكُم قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿فهل أنتم مسلمونَ﴾: هو لأصحابِ محمَّد عليه السلام[١].

وقوله سبحانه: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ...﴾ الآية: قالت قتادةُ وغيره: هي في الكَفَرة[٢]، وقال مجاهد: هي في الكفرة وأهْلِ الرياءِ من المؤمنين[٣].

٢٤٤ ب / وإليه ذهب معاويَةُ، والتأويل الأول أرْجَحُ؛ بحسب تقدُّم ذكْرِ الكفَّار، وقال ابنُ العربيِّ في «أحكامِه»: بل الآية عامَّة في كلِّ من ينوي غيْرَ اللَّهِ بِعَمَلِه، كان معه إيمان أو لم يكُنْ، وفي هذه الآية بيانٌ لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ وإِنَّما لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مَا نَوَى»[٤]، وذلك أنَّ العبد لا يُعْطَى إلا عَلَى وَجْهِ قَصْدَهُ، وبحُكْم ما ينعقدُ في ضَمِيرِهِ، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه.

وقوله: ﴿نوفِّ إليهم أعمالهم فيها﴾: قيل: ذلك في صحَّة أبدانهم وإدرَارِ أرزاقهم، وقيل: إن هذه الآية مطْلَقَةٌ، وكذلك التي في «حمٓ عٓسٓقٓ»: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية [الشورى: ٢٠] إلى آخرها، قيَّدتْهما وفسَّرتْهما الآيةُ التي في «سورة سُبْحانَ»، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ...﴾ الآية [الإسراء: ١٨]، فأخبر سبحانه أنَّ العبد ينوي ويريدُ، واللَّه يحكُمُ ما يريدُ، ثم ذكر ابنُ العربيِّ الحديثَ الصحيحَ في النَّفَرِ الثلاثة الذين كَانَتْ أعمالهم رياءً، وهم رَجُلٌ جمع القرآن، ورجلٌ قُتِلَ في سبيل اللَّه، ورَجُلٌ كثيرُ المالِ، وقولَ اللَّهِ لكلِّ واحدٍ منهم: «مَاذَا عَمِلْتَ؟» ثم قال في آخر الحديث: ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْبَتَيَّ، وَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٢) برقم: (١٨٠٢٢، ١٨٠٢٤، ١٨٠٢٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٥٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٨٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ١٥٦).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ١٥٦).

(٤) تقدم تخريجه.

أُولَئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ، ثُمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرةِ إلا النَّار وحبط ما صنعوا فيها﴾»[١]، أي: في الدنيا وهذا نصٌّ في مراد الآية، واللَّه أعلم. انتهى.

و﴿حَبِطَ﴾: معناه: بَطَلَ وسَقَط، وهي مستعملةٌ في فَسَاد الأعمال.

قال * ص *: قوله: ﴿ما صَنَعُوا﴾: «ما» بمعنى: «الَّذِي»، أو مصدريةٌ، و«فيها»: متعلِّقٌ بـ «حَبِطَ»، والضمير في «فيها» عائد على الآخرة، أي: ظهر حبوطُ ما صَنَعُوا في الآخرة، أَو متعلِّق بـ «صَنَعُوا»؛ فيكون عائداً على الدنيا. انتهى.

و«الـ ﴿باطِل﴾: كُلُّ ما تقتضي ذاتُه أَلاَّ تُنَال به غايةٌ في ثوابٍ ونحوه، وقوله سبحانه: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾: في الآية تأويلات.

قال * ع[٢] *: والراجحُ عندِي مِنَ الأقوال في هذه الآية: أَنْ يكون «أَفَمَنْ» للمؤمنين، أوْ لهم وللنبيِّ ﷺ معهم، والـ ﴿بيِّنة﴾: القرآن وما تضمَّن، والـ ﴿شَّاهد﴾: الإِنجيلُ، يريد: أو إعجاز القرآن في قولٍ، والضميرُ في «يتلوه» للبيِّنة، وفي «منه» للربِّ، والضميرُ في «قبله» للبينة أيضاً، وغير هذا مما ذُكِرَ محتملٌ، فإن قيل: إذا كان الضمير في «قَبْله» عائداً على القُرآنِ، فَلِمَ لَمْ يذْكَر الإِنجيل، وهوَ قبله، وبَيْنَه وبَيْن كتاب موسَى؟، فالجوابُ: أنه خَصَّ التوراة بالذكْرِ؛ لأنه مجمَعٌ عليه، والإِنجيل ليس كذلك؛ لأن اليهود تخالِفُ فيه، فكان ٱلاستشهاد بما تقُومُ به الحجَّةُ على الجميع أولَى، وهذا يجري مَعَ قولِ الجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠] و﴿الأحزاب﴾؛ هُهنا يُراد بهم جميعُ الأُمَم، وروى سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، عن أبي موسَى الأَشعريِّ، عن النبيِّ ﷺ؛ أَنه قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَلاَ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ثُمَّ لاَ يُؤْمِنُ بي إلاَّ دَخَلَ النَّار»[٣]، قال سعيدٌ: فقلْتُ: أَيْنَ مِصْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ حَتَّى وَجَدتُّهُ فِي هَذِهِ الآيةِ، وَكُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ حَدِيثاً عن النبيِّ ﷺ طَلَبْتُ مِصْدَاقَهُ في كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[٤]، وقرأ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٩١، ٥٩٣) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في الرياء والسمعة، حديث (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٧).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره من هذا الوجه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٨٧)، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

الجمهورُ: «فِي مِرْيَةٍ»[١] ـ بكسر الميم ـ، وهو الشكُّ، والضمير في «منه» عائدٌ على كون الكَفَرة موعدُهُم النَّارُ، وسائر الآية بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿ويقول الأشهاد﴾: قالت فرقة: يُريدُ الشهداءَ مِنَ الأنبياء والملائكةِ، وقالت فرقة: الأشهادُ: بمعنى المشاهِدِينَ، ويريد جميعَ الخلائق، وفي ذلك إِشادةٌ بهم
١٢٤٥ وتشهيرٌ لخزيهم، وروي في نحو هذا حديثٌ: «أَنَّهُ لاَ يُخْزَى أَحَدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ / إِلاَّ وَيَعْلَمُ ذَلِكَ جَمِيعُ مَنْ شَهِدَ المَحْشَرَ»، وباقي الآية بيِّن مما تقدَّم في غيرها.

قال * ص *: وقوله: ﴿أَلا لعنة اللَّه على الظالمين﴾ يحتملُ أنْ يكون داخلاً في مفعولِ القولِ، وإِليه نحا بعضُهم. انتهى.

وقوله سبحانَهُ: ﴿مَا كانوا يستطيعون السمْعَ وما كانوا يُبْصِرُونَ﴾: يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنه وصف سبحانه هؤلاء الكُفَّار بهذه الصفة في الدنيا؛ علَى معنى أَنَّهم لا يسمعون سماعاً ينتفعُونَ به، ولا يبصرونَ كذلك.

والثاني: أنْ يكون وصفهم بذلك مِنْ أَجْلِ بِغْضَتِهِمْ في النبيِّ ﷺ فهم لا يستطيعُونَ أَنْ يحملوا نفُوسَهم على السَّمْعِ منه، والنَّظَرِ إِليه.

«وَمَا»؛ في هذين الوجهين: نافيةٌ.

الثالث: أنْ يكون التقديرُ: يضاعَفُ لهم العذابُ بما كانوا، أيْ: بسبب ما كانوا؛ فـ «مَا» مصدريةٌ، وباقي الآية بيِّن.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون * إِن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إِلى ربهم ...﴾ الآية: ﴿لا جَرمَ﴾ تقدم بيانها، ﴿وأخبتوا﴾: قال قتادة: معناه: خشعوا[٢]، وقيل: معناه أنابوا؛ قاله ابن عباس[٣]،

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ١٥٩) و«**البحر المحيط**» (٥/ ٢١٢)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٧/ ٢٦) برقم: (١٨١١٥)، وذكره ابن عطية في «**تفسيره**» (٣/ ١٦١)، والبغوي في «**تفسيره**» (٢/ ٣٧٩)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٥٩٠)، وعزاه إلى عبد الرزاق وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٧/ ٢٥) برقم: (١٨١٠٩)، وذكره ابن عطية في تفسيره(٣/ ١٦١)، والبغوي في «**تفسيره**» (٢/ ٣٧٩)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٥٩٠).

وقيل: اطمأنُّوا؛ قاله مجاهد[١] وقيل: خافوا؛ قاله ابن عباس[٢] أيضاً، وهذه أقوالٌ بعضها قريبٌ من بعض.

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الفريقين . . .﴾ الآيةَ، «الفريقان» الكافرون والمؤمنون، شبه الكافِرَ بالأعمَى والأصمِّ، وشبه المؤمنَ بالبصيرِ والسميعِ، فهو تمثيلٌ بمثالين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين * ألا تعبدوا إلا اللّه إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاَّ بشراً مثلنا . . .﴾ الآية: فيها تمثيلٌ لقريشٍ وكفَّار العرب، وإعلامٌ بأن محمَّداً عليه السلام ليس بِبِدْعٍ من الرسل، و«الأراذل» جَمْعُ الجمعِ، فقيل: جمع أَرْذُلٍ، وقيل: جَمْعُ أَرْذَالٍ، وهم سِفْلَةُ النَّاسِ، ومَنْ لا خَلاَقَ له ولا يبالِي ما يَقُولُ، ولا ما يُقَالُ له، وقرأ الجمهور[٣]: «بَادِيَ الرَّأْيِ» - بياء دون همز -؛ من بَدَا يَبْدُو، فيحتمل أنْ يتعلَّق «بَادِيَ الرَّأْيِ» بـ «نَرَاكَ»، أي: وما نراك بأولِ نَظَرٍ وأقلِّ فكرة، وذلك هو بَادِي الرأيِ إلاَّ ومتَّبِعُوكَ أراذلُنا، ويحتمل أنْ يتعلق بقوله: «اتَّبَعَكَ»، أيْ: وما نَرَاكَ اتبعكَ بَادِيَ الرَّأْيِ إِلا الأراذلُ، ثم يحتملُ علَى هذا قوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ معنيين:

أحدهما: أَنْ يريدوا: اتَّبَعَكَ في ظاهر أمرهم، وعسَى أنَّ بواطنهم ليستْ معك.

والثاني: أن يريدوا: اتبعُوكَ بأول نَظَرٍ، وبالرأْيِ البادِي، دون تثبُّت.

ويحتملُ أنْ يكون قولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ وصْفاً منهم لنوح، أي: تدَّعِي عظيماً وأَنْتَ مكشوفُ الرأيِ، لا حَصَافَةَ لك، ونصبُهُ على الحالِ، أو على الصفة لـ «بَشَر».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٥) برقم: (١٨١١٢ - ١٨١١٣ - ١٨١١٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/ ١٦١)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٧٩)، والسيوطي (٣/ ٥٩٠)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٥) برقم: (١٨١١١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/ ١٦١)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٨٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٣) و«البحر المحيط» (٥/ ٢١٥)، و«الدر [illegible]» (٤/ ٩١).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده...﴾ الآية: كأنه قال: أرأيتم إن هداني اللَّهُ وأضلَّكم أأُجبرُكُمْ على الهدَى، وأنتم له كارِهُونَ، وعبارة نوحٍ عليه السلام كانَتْ بلغته دالَّة على المعنى القائِم بنفْسه، وهو هذا المفهومُ مِنْ هذه العبَارة العربيَّة، فبهذا ٱستقام أنْ يقال: قال كذا وكذا؛ إذ القوم ما أفاد المعنى القائِمَ في النَّفْس، وقوله: ﴿على بينة﴾ أي: على أمْرٍ بيِّن جَلِيٍّ، وقرأ الجمهور: «فَعَمِيَتْ»[1] ولذلك وجهان من المعنَى:

أحدهما: خَفِيَتْ.

والثاني: أنْ يكون المعنَى: فَعَمِّيتُمْ أنتم عنها.

وقوله: ﴿أنلزمكموها﴾: يريد: إلزامَ جبر؛ كالقتال ونحوه، وأما إلزامُ الإيجاب، فهو حاصلٌ.

وقوله: ﴿وما أنا بطارد الذين آمَنُوا﴾: يقتضي أَنَّ قومه طلبوا طَرْدَ الضعفاءِ الذين بادَرُوا إلى الإيمان به نَظِيرَ ما اقترحَتْ قريشٌ، و﴿تزدري﴾: أصله: تزْتَرِي؛ تَفْتَعِلُ مِنْ زَرَى يَزْرِي، ومعنى: ﴿تزدَرِي﴾: تحتقر، و«الخير»؛ هنا: يظهر فيه أنَّهُ خيرُ الآخرة، اللَّهم إلا أنْ يكونَ ٱزدراؤُهم من جهة الفَقْر، فيكون الخَيْرُ المال؛ وقد قال بعضُ المفسِّرين: حيثُ ما ذَكَرَ اللَّه الخيرَ / في القرآن، فهو المَالُ. ٢٤٥ ب

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢١٧)، و«الدر المصون» (٤/ ٩٣).
وقد قرأ الأخوان، وحفص بالتشديد، هكذا «فَعُمِّيَتْ»، وحجتهم في حرف عبد اللَّه: «فَعَمَّاها عليكم».
ينظر: «حجة القراءات» (٣٣٨)، و«السبعة» (٣٣٢)، و«الحجة» (٤/ ٣٢٢) و«إعراب القراءات» (١/ ٢٧٩)، و«شرح شعلة» (٤٢٦)، و«العنوان» (١٠٧)، و«إتحاف» (٢/ ١٢٤).

قال * ع[١] *: وفي هذا الكلام تحامُلٌ، والذي يشبه أنْ يقال: إنه حيثُ ما ذُكِرَ الخير، فإنَّ المَالَ يدْخُل فيه.

* ت *: وهذا أيضاً غير ملخَّص، والصواب: أنَّ الخيرَ أعمُّ من ذلك كلِّه، وانظر قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] فإنه يشملُ المال وغيرَهُ، ونحْوُه: ﴿وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وانظر قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إلاَّ خَيْرُ الآخِرَةِ»[٢]، وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ [النور: ٣٣]، فهٰهنا لا مدْخَل للمالِ إلا علَى تجوُّز، وقد يكون الخير المرادُ به المَال فَقَطْ؛ وذلك بحَسَب القرائن، كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً...﴾ الآية [البقرة: ١٨٠].

وقوله: ﴿اللَّه أعلم بما في أنفسهم﴾: تسليمٌ للَّه تعالَى، وقال بعضُ المتأوِّلين: هي ردٌّ على قولهم: اتبعك أراذِلُنا في ظاهر أمرِهم؛ حَسَبَ ما تقدَّمَ في بعض التأويلات، ثم قال: ﴿إني إذاً﴾ لو فعلت ذلك، ﴿لمن الظالمين﴾، وقولهم: ﴿قد جادَلْتَنا﴾: معناه: قد طال منْكَ هذا الجِدَالُ، والمرادُ بقولهم: ﴿بما تعدنا﴾ العذابَ والهلاكَ، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾، أي: بمفلتين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أم يقولون ٱفتراه ....﴾ الآية: قال الطبريُّ[٣] وغيرُه: هذه الآيةُ ٱعترضَتْ في قِصَّة نوحٍ، وهي في شأن النبيِّ ﷺ مع قُرَيْشٍ.

قال * ع[٤] *: ولو صحَّ هذا بسندٍ، لوجب الوقوفُ عنده، وإلا فهو يَحتملُ أَنْ

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٦٢٤) كتاب «الصلاة» باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، حديث (٤٢٨)، ومسلم (٣/ ١٤٣١) كتاب «الجهاد» باب: غزوة الأحزاب، حديث (١٢٧/ ١٨٠٥) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٣٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٧).

يكون في شأن نوح عليه السلام، وتَتَّسِقُ الآية، ويكونُ الضمير في «افتراه» عائداً على ما توعَّدهم به، أو عَلى جميعِ ما أخبرهم به، و«أم» بمعنى «بل».

وقوله سبحانه: ﴿وأُوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . . .﴾ الآية، قيل لنوح هذا بَعْدَ أَنْ طال عليه كُفر القَرْن بعد القَرْن به، وكان يأتيه الرجُلُ بِٱبْنِهِ، فيقول: يا بُنَيَّ، لا تُصَدِّقْ هذا الشيخَ، فهكذا عَهِدَهُ أَبي وَجَدِّي كَذَّاباً مَجْنُوناً، رَوَاهُ عُبَيْدُ بن عُمَير وغيره، فروي أنه لما أوحِيَ إليه ذَلك، دَعَا، فقَالَ: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]، و﴿تبتئس﴾ من البُؤْس، ومعناه: لا تَحْزَنْ.

وقوله: ﴿بأعيننا﴾: يمكنُ أَنْ يريد بمرأى منا، فيكون عبارةً عن الإدراك والرعاية والحفظ، ويكونُ جَمْعَ الأَعْيُنِ، للعظمةِ لا للتكثير؛ كما قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿فَنِعْمَ القَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، والعقيدةُ أنه تعالَى منزهٌ عن الحواسِّ، والتشبيهِ، والتكييفِ، لا ربَّ غيره، ويحتملُ قوله: ﴿بأعيننا﴾ أي: بملائكتنا الذين جعلْناهم عيوناً على مواضع حِفْظِكَ وَمَعُونَتِك، فيكون الجَمْعُ على هذا التأويلِ: للتكْثير.

وقوله: ﴿ووحينا﴾ معناه: وتعليمنا له صُورَةَ العَمَل بالوحْيِ، ورُوِيَ في ذلك: «أَنَّ نوحاً عليه السلام لَمَّا جَهِلَ كَيْفِيَّة صُنْعِ السَّفِينَةِ، أَوْحَى اللَّه إِلَيْهِ، أَن ٱصنعها على مثال جُؤْجُؤِ[١] الطَّائِرِ» إلى غير ذلك ممَّا عُلِّمَهُ نوحٌ من عملها. وقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا . . .﴾ الآية، قال ابنُ جُرَيْج في هذه الآية: تقدَّم اللَّه إِلَى نوحٍ أَلاَّ يَشْفَعَ فيهم[٢].

وقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾: التقديرُ: فشَرَعَ يصْنَعُ، فحكيتْ حالُ ٱلاستقبال، والـ ﴿مَلأ﴾ هنا: الجماعة.

وقوله: ﴿سخروا منه . . .﴾ الآية: السُّخْر: ٱلاستجهال مع ٱستهزاءٍ، وإنما سخروا منه في أنْ صنعها في بَرِّيَّةٍ.

وقوله: ﴿فإنا نسخر منكم﴾ قال[٣] الطبريُّ: يريد في الآخرة.

قال * ع[٤] *: ويحتمل الكلام ـ وهو الأرجح ـ أن يريد: إنا نسخر منكم الآن،

---

(١) الجُؤْجُؤ: عظام صدر الطائر. ينظر: «لسان العرب» (٥٢٨) (جأجأ).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٣٥) برقم: (١٨١٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ١٦٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٩٢)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٣٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٧٠).

والعذابُ المُخْزِي: هو الغَرَق، والـ ﴿مُقِيم﴾: هو عذاب الآخرة، و«الأمر»: واحد الأمور، ويحتملُ أن يكون مصدر «أمَرَ»، فمعناه: أَمْرُنَا للمَاءِ بالفَوَرَانِ، ﴿وفَارَ﴾ معناه: ٱنبعَثَ بقُوَّة، وٱختلف النَّاس في التَّنُّور، والذي عليه الأكثَرُ، منهم ابنُ عباس وغيره: أنه هو تَنُّور الخُبْز الذي يُوقَدُ فيه[1]، وقالوا: كانَتْ هذه أمارَةً، جعلها اللَّه لنُوحٍ، أي: إذا فار التنُّور، فٱرْكَبْ في السفينة.

وقوله سبحانه: ﴿قلنا احملْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا مَنْ سبق عليه القول ومَنْ آمن . . .﴾ الآية، الزَّوْج: يقال في مشهورِ كلام العرب: للواحد مما له ازدواجٌ، فيقال: هذا زَوْجُ /هذا، وهما زَوْجَان، والزوج أيضاً في كلام العرب: النَّوْع، وقوله: ٢٤٦أ
﴿وأهلك﴾: عطْفٌ علَى ما عَمِلَ فيه ﴿ٱحمِلْ﴾ والأهل، هنا: القرابةُ، وبشَرْط مَنْ آمن منهم، خُصِّصُوا تشريفاً، ثم ذكر ﴿مَنْ آمَنَ﴾، وليس من الأهْل، واختلف في الذي سبق عليه القوْلُ بالعَذَابِ، فقيل: ابنُهُ يَام، أوْ كنعان، وقيل: امرأته وَالِعَةُ ـ بالعين المهملة ـ، وقيل: هو عمومٌ فيمن لم يؤمن مِنْ أهْل نوحٍ، ثم قال سبحانه إخباراً عن حالهم: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وقال ٱركبوا فيها﴾: أي: وقال نوحٌ لمن معه: ٱركبوا فيها، وقوله: ﴿باسم اللَّه﴾ يصحُّ أنْ يكون في موضع الحال في ضمير «ٱرْكَبُوا»، أي: اركبوا متبرِّكين بٱسْم اللَّه، أو قائلين: باسم اللَّه، ويجوزُ أن يكون: ﴿باسم اللَّه مجراها ومرسَاها﴾ جملةً ثانيةً من مبتدإٍ وخبرٍ، لا تعلُّق لها بالأولَى كأنه أمرهم أولاً بالركوب، ثم أخبر أن مجراها ومرساها باسم اللَّه. قال الضَّحَّاك: كان نوحٌ إذا أراد جَرْيَ السفينة، جَرَتْ، وإذا أراد وقوفَها، قال: باسم اللَّه، فتقف[2]، وقرأ الجمهور[3] بضم الميم من «مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا»

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥) برقم: (١٨١٦٩ ـ ١٨١٧٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/ ١٧٠)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥) برقم: (١٨٢٠١)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٧٢)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٥) برقم: (٤١).

(٣) وحجة من فتح الميم قوله سبحانه بعدها: «وهي تجري بهم في موج كالجبال»، ولم يقل: تُجْرَى. =

على معنى إجرائها وإرسائها، وقر الأَخَوَان حَمْزَةُ والكِسَائِيُّ وحفصٌ بفتح ميمِ «مَجْرِيهَا» وكسر الراء، وكلُّهم ضمَّ الميم في «مُرْسَاهَا».

* ت *: قوله: «وكسر الراء»: يريد إمالتها، وفي كلامِهِ تسامُحٌ، ولفظُ البخاريِّ: مُجْرَاها: مَسِيرُها، ومُرْسَاها: مَوْقِفُها، وهو مصدرُ: أُجْرَيْتُ وأَرْسَيْتُ. انتهى.

قال النوويُّ: ورُوِّينا في «كتاب ابن السُّنِّيِّ» بسنده، عن النبيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَانٌ لأُمَّتي مِنَ الغَرَقِ، إِذَا رَكِبُوا أَنْ يَقُولُوا: ﴿بِأسْمِ اللَّهِ مُجرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية [الأنعام: ٩١]»[1]، هكذا هو في النُّسَخ: «إِذَا رَكِبُوا»، ولم يقلْ: «في السفينة» انتهى.

وقوله: ﴿وكان في مَعْزِلٍ﴾ أي: في ناحيةٍ، أي: في بُعْدٍ عن السفينة، أوْ عن الدِّين، واللفظ يعمُّهما.

وقوله: ﴿ولا تكنْ مع الكافرين﴾: يحتمل أنْ يكون نهياً محضاً مع علمه بأنَّه كافرٌ، ويحتمل أنْ يكون خَفِيَ عليه كُفْره؛ والأول أبْيَنُ.

وقوله: ﴿لا عاصم اليوم من أمر اللَّه إلا من رَحِمَ﴾: الظاهر أنَّ ﴿لا عاصم﴾ اسمُ

= وحجة الجمهور في الضم إجماع الجميع على ضم الميم في «مُرْساها»، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.
ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٧٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٢٥)، و«الدر المصون» (٤/ ٩٩)، و«السبعة» (٣٣٣)، و«الحجة» (٤/ ٣٢٩)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٨١) و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٦٣)، و«العنوان» (١٠٧)، و«شرح شعلة» (٤٢٧)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٢٥).

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٠١) من حديث الحسين بن علي.
وفي سنده جبارة بن المغلس، ويحيى بن العلاء، ومروان بن سالم، والأول: ضعيف، والثاني والثالث: متهمان بالوضع.
وأخرجه أبو يعلى (١٢/ ١٥٢) رقم: (٦٧٨١): حدثنا جبارة، ثنا يحيى بن العلاء، عن مروان بن سالم، عن طلحة بن عبيد الله، عن الحسين بن علي به.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٥) وقال: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن المغلس، وهو ضعيف اهـ. وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٣/ ٢٣٧) رقم: (٣٣٦٥)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: فيه ضعف.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٢)، وزاد نسبته إلى الطبراني، وابن عدي، وأبي الشيخ، وابن مردويه.
وللحديث شاهد من حديث ابن عباس بلفظ حديث الحسين بن علي، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

فاعِلٍ على بابه، وقوله: ﴿إلا مَنْ رحم﴾: يريد: إِلا اللَّهَ الرَّاحِمَ، فـ «مَنْ» كنايةٌ عن اللَّه، المعنى: لا عاصِمَ اليَوْم إِلا الذي رَحِمَنَا.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ...﴾ الآية: البَلْع: تجرُّع الشيء؛ وٱزْدِرَادُهُ، والإِقلاع عن الشيء: تركُه، و﴿غِيضَ﴾ معناهُ: نَقَصَ، وأَكْثَرُ ما يجيء فيما هو بمعنى الجُفُوف، وقوله: ﴿وقضي الأمر﴾: إِشارة إِلى جميع القصَّة: بعثِ الماء، وإِهلاكِ الأُمَمِ، وإِنجاءِ أَهْلِ السفينة.

قال * ع[1] *: وتظاهرت الرواياتُ وكُتُبُ التفسير بأَنَّ الغرق نَالَ جميعَ أَهْلِ الأَرْضِ، وعَمَّ الماءُ جَمِيعَهَا؛ قاله ابن عباس وغيره، وذلك بَيِّن من أَمْرِ نوحٍ بحمل الأزواجِ مِنْ كلِّ الحيوانِ، ولولا خَوْفُ فنائها مِنْ جميعِ الأرضِ، ما كان ذلك، وروِيَ أَنَّ نوحاً عليه السلام رَكِبَ في السفينةِ مِنْ عَيْنِ الوَرْدَةِ بالشام أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ، وٱسْتَوَت [السفينة] على الجوديِّ في ذي الحِجَّة، وأقامَتْ عليه شهراً، وقيل له: ﴿ٱهْبِطْ﴾ في يوم عاشُورَاءَ، فصامه هو ومَنْ معه، وروي أنَّ اللَّه تعالى أوحى إِلى الجبالِ؛ أَنَّ السفينة تَرْسِي على واحد منها، فتطاوَلَتْ كلُّها، وبقي الجُودِيُّ، وهو جبلٌ بالمَوْصِلِ في ناحيةِ الجزيرةِ، لم يتطاوَلْ؛ تواضعاً للَّه؛ فاستوت السفينةُ بأَمْر اللَّهِ عليه، وقال[2] الزَّجَّاج: الجُودِيُّ: هو بناحية «آمد»، وقال قوم: هو عند باقردي، وأَكْثَرَ النَّاسُ في قصص هذه الآية، واللَّه أعلم بما صَحَّ من ذلك.

وقوله: ﴿وقيل بعداً﴾: يحتمل أنْ يكون من قول اللَّه عزَّ وجلَّ؛ عطفاً على قوله: ﴿وقيل﴾ الأولِ، ويحتملُ أن يكون من قول نوحٍ والمؤمنين، والأول أظهر.

وقوله: ﴿إِن ابني من أهلي ...﴾ الآية: ٱحتجاج من نوحٍ عليه السلام أَنَّ اللَّه أمره

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٧٥).
(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٥).

بحَمْلِ أهله، وٱبْنُهُ من أهله، فينبغي أن يُحْمَلَ، فأظهر اللَّه له أنَّ المراد مَنْ آمَنَ من الأهْلِ، وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام ظَنَّ أنَّ ابنه مؤمنٌ/. ٢٤٦ب

وقوله: ﴿إنه ليسَ من أهلك﴾ أي: الذين عَمَّهم الوعْد؛ لأنه ليس على دينك، وإن كان ٱبْنَكَ بالولادة.

وقوله: ﴿عملٌ غير صالح﴾: جعله وصفاً له بالمصدر؛ على جهة المبالغة في وصفه بذلك؛ كما قالت الخَنْسَاءُ تصفُ ناقَةً ذَهَبَ عنها ولَدُها: [البسيط]

تَـرْتَـعُ مَـا رَتَـعَـتْ حَـتَّـى إِذَا ٱدَّكَـرَتْ ... فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْـبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[1]

أي: ذاتُ إقبالٍ وإدبارٍ؛ ويبيِّن هذا قراءةُ الكسَائِيِّ «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ» فعلاً ماضياً، ونصب «غير» على المفعول لـ «عَمِلَ»، وقولُ من قال: «إن الولد كان لِغِيَّةٍ» خطأ محضٌ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ[2] والجمهور؛ قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فإنْ الواحدة كانَتْ تقول للناس: هو مجنونٌ، والأخرَى كانت تنبِّه على الأضيافِ، وأما خيانة غَيْرُ هذا، فلا؛ ويَعْضُدُه المعنَى، لشرف النبوَّة، وجوَّز المَهْدَوِيُّ أَنْ يعود الضمير في «إِنَّهُ» على السؤال، أي: إن سؤالك إيَّايَ ما ليس لَكَ به علْم عملٌ غَيْرُ صالحٍ؛ قاله النَّخَعِيُّ وغيره. انتهى. والأولُ أبينُ؛ وعليه الجمهورُ، وبه صدَّر المهدويُّ، ومعنَى قوله: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: إِذَا وَعَدتك، فٱعلم يقيناً؛ أنه لا خُلْفَ في الوعد، فإذا رأيتَ ولدك لم يُحْمَلْ، فكان الواجبُ عليك أنْ تقف، وتَعْلَمَ أَنَّ ذلك بحقٍّ واجبٍ عند اللَّه.

قال * ع[3] *: ولكنَّ نوحاً عليه السلام حملته شفقةُ الأُبوَّة وسجيَّة البَشَر على التعرُّض لنفَحَاتِ الرحْمة، وعَلَى هذا القَدْر وقَع عتابُهُ؛ ولذلك جاء بتلطُّف وترفيع في قوله سبحانه: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾، ويحتمل قوله: ﴿فلا تَسْأَلْنِ ما ليس لك به علم﴾ أي: لا تطلُبْ منِّي أمراً لا تعلم المصلحة فيه عِلْمَ يقينٍ، ونحا إلى هذا أبو عليٍّ

---

(١) ينظر: «ديوانها» ص: (٣٨٣)، و«الأشباه والنظائر» (١/ ١٩٨)، و«خزانة الأدب» (١/ ٤٣١)، (٢/ ٣٤)، و«شرح أبيات سيبويه» (١/ ٢٨٢)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٣٥٤) و«الكتاب» (١/ ٣٣٧) و«لسان العرب» (٧/ ٣٠٥) (رهط) (١١/ ٥٣٨) (قبل)، (١٤/ ٤١٠) (سوا)، و«المقتضب» (٤/ ٣٠٥)، و«المنصف» (١/ ١٩٧)، بلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (٢/ ٣٨٧)، (٤/ ٦٨) و«شرح الأشموني» (١/ ٢١٣)، و«شرح المفصّل» (١/ ١١٥)، و«المحتسب» (٢/ ٤٣).

(٢) ذكره البغوي (٢/ ٣٨٧)، وابن عطية (٣/ ١٧٧) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

الفارسيُّ، وهذا والأول في المعنَى واحدٌ.

وقوله: ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾: إنابة منه عليه السلام، وتسليمٌ لأمر ربه، والسؤالُ الذي وقع النهيُ عنه، إنما هو سؤالُ العَزْم الذي معه محاجَّة وطَلِبَةٌ مُلِحَّةٌ فيما قد حُجِبَ وجهُ الحكمة فيه، وأما السؤال؛ علَى جهة ٱلاسترشاد والتعلُّم، فغير داخل في هذا، ثم قيل له: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾، وذلك عند نزوله من السفينة، والـ ﴿سلام﴾؛ هنا: السلامةُ والأمن، والـ ﴿بركات﴾ الخيرُ والنموُّ في كلِّ الجهات، وهذه العِدَةُ، تعمُّ جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كَعْب القُرَظِيُّ، ثم قطع قَوْلَهُ: ﴿وأُمَمٌ﴾ علَى وجْه ٱلابتِدَاء، وهؤلاء هم الكُفَّار إلى يوم القيامة(١).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿تلك﴾ إشارة إلى القصة، وباقي الآية بيِّن.

وقوله عز وجل: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً ...﴾ الآية: عَطْفٌ على قوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ [هود: ٢٥].

﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

وقوله: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ...﴾ الآية: ٱلاستغفار: طَلَبُ المغفرة، فقَدْ يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإنابة القَلْب وطَلَب ٱلاسترشاد.

وقوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾، أي: بالإيمان من كُفْركم، والتوبَةُ: عقْدٌ في ترك مَتُوبٍ

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٧٩)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٧) برقم: (٤٨) بلا نسبة.

منه، يتقدَّمها علْمٌ بفساد المَتُوب مِنه، وصلاح ما يَرْجِعُ إليه، ويقترن بها نَدَمٌ على فَارِطِ المَتُوبِ منه، لا يَنْفَكُّ منه، وهو من شروطها و﴿مِدْرَاراً﴾ بناءُ تكثير، وهو مِنْ دَرَّ يَدُرُّ، وقد تقدَّمت قصة «عاد».

وقوله سبحانه: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ ظاهره العمومُ في جميع ما يُحْسِنُ اللَّه تعالى فيه إلى العباد، ويحتملُ أنْ خَصَّ القوة بالذكْرِ، إذ كانوا أقْوَى العَوَالِم، فوُعِدُوا بالزيادَةِ فيما بَهَرُوا فيه، ثم نهاهُمْ عن التولِّي عن الحقِّ، وقولهم: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾، أي: لا يكونُ قولُكَ سَبَبَ تركِنا، وقال * ص *: ﴿عن قولك﴾: حالٌ من الضمير في «تاركي»، أي: صادِرِينَ عن قولك، وقيل: «عن»: للتعليل، كقولِهِ: ﴿إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ [التوبة: ١١٤] وقولهم: ﴿إن نقول . . .﴾ الآية: معناه: ما نَقُولُ إلا أن بعض آلهتنا التي ضَلَّلْتَ عَبَدَتَهَا أصابَكَ بجُنُونٍ، يقال: /عَرَّ يَعُرُّ، واعْتَرَى يَعْتَرِي؛ إذا ألَمَّ بالشيء. ١٢٤٧

وقوله: ﴿فكيدوني جميعاً﴾: أي: أنتم وأصنامكم، ويذكر أن هذه كَانَتْ له عليه السلام معجزةً، وذلك أنَّه حرَّض جماعتهم عَلَيْه مع انفرادِهِ وقوَّتهم وكُفْرهم، فلم يَقْدِروا علَى نيله بسُوءٍ، و﴿تُنْظِرُون﴾: معناه: تؤخِّروني، أيْ: عاجلوني بما قَدَرْتم عليه.

وقوله: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يريد: إن أفعالَ اللَّه عزَّ وجلَّ في غاية الإحكام، وقوله الصِّدْقُ ووعْده الحَقُّ، و﴿عَنِيد﴾: من «عند» إذا عَتَا.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً . . .﴾ الآية: حَكَمَ عليهم سبحانه بهذا؛ لموافاتهم على الكُفْر، ولا يُلْعَنُ معيَّنٌ حيٌّ: لا مِنْ كافرٍ، ولا من فاسقٍ، ولا من بهيمةٍ،

كلُّ ذلك مكروهٌ بالأحاديث[(١)].

* ت *: وتعبيره بالكراهَةِ، لعلَّه يريد التحريمَ، ﴿ويَوْمَ﴾: ظَرفٌ، ومعناه: إن اللعنة علَيْهم في الدُّنيا، وفي يوم القيامة، ثم ذكَر العلَّة الموجِبَةَ لذلك، وهي كُفْرهم بربهم، وباقي الآية بيِّن.

وقوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . .﴾ الآية: التقديرُ: وأرسلنا إلى ثمودَ و﴿أنشأكم من الأرض﴾: أي: ٱخترعَكُمْ، وأَوْجَدكم، وذلك بٱختراع آدم عليه السلام.

وقال * ص *: ﴿من الأرض﴾: لابتداءِ الغاية بٱعتبار الأصلِ المتولِّدِ منه النباتُ المتولِّدُ منه الغذاءُ المتولِّدُ منه المَنِيُّ ودَمُ الطَّمْثِ المتولِّدُ عنه الإِنسان. انتهى.

وقد نقل * ع[(٢)] *: في غير هذا الموضع نَحْوَ هذا، ثم أشار إلى مرجوحيَّته، وأنَّه داعٍ إلى القول بالتولُّد، قال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»[(٣)]: قوله تعالى: ﴿وٱستعْمركُم فيها﴾: أيْ: خَلَقَكم لعمارتها، ولا يصحُّ أنْ يقال: هو طَلَبٌ من اللَّه لعمارتها؛ كما زعم بعضُ الشَّافعيَّة.

* ت *: والمفهومُ من الآية أنَّها سيقَتْ مساق ٱلامتنان عليهم. انتهى. وقولهم: ﴿يا صالح قد كنت فينَا مرجُوًّا قبل هذا﴾، قال جمهور المفسِّرين: معناه: مسوَّداً نؤمِّل فيك أنْ تكون سيِّداً سادًّا مسدَّ الأكابرِ، وقولهم: ﴿وإننا لفي شك مما تدْعُونا إِليه مريب﴾، معنى: ﴿مريب﴾: مُلْبِس متهم، وقوله: ﴿أرأيتم﴾: أي: أتدبرتم، فالرؤية قلبيَّةٌ، و﴿آتاني منه رحمةً﴾، يريد: النبوَّة وما ٱنْضَافَ إليها.

---

(١) قد ورد في تحريم اللعن عدة أحاديث منها، قول النبي ﷺ: «من لعن مؤمناً فهو كقتله».
أخرجه البخاري (١٠/ ٤٧٩) كتاب «الأدب» باب: ما ينهى من السباب واللعن، حديث (٦٠٤٧).
ومنها حديث أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعاناً».
أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٥) كتاب «البر والصلة» باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٨٤/ ٢٥٩٧)، وأحمد (٢/ ٣٣٧)، والبيهقي (١٠/ ١٩٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٣١٥ - بتحقيقنا).
ومنها أيضاً حديث عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس المؤمن بالطَّعان ولا باللَّعان ولا الفاحش ولا البذيء».
أخرجه الترمذي (٤/ ٣٠٨) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في اللعنة، حديث (١٩٧٧)، وأحمد (١/ ٤٠٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٧)، والحاكم (١/ ١٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٥٩).

وقال * ص *: قد تقرَّر في ﴿أرأيتم﴾؛ أنها بمعنى أخبروني. انتهى.

والـ ﴿تخسير﴾ هو من الخسَارَةِ، وليس التخسِيرُ في هذه الآية إلا لهم، وفي حَيِّزهم، وهذا كما تقولُ لمن تُوصِيهِ: أنا أريدُ بكَ خَيراً، وأَنْتَ تريدُ بي شرًّا.

وقال * ص *: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: من خَسِرَ، وهو هنا للنسبيَّةِ كـ «فَسَّقْتُهُ وَفَجَّرْتُهُ»؛ إذا نسبتهُ إليهما.

* ت *: ونقل الثعلبيّ عن الحسيْنِ بْنِ الفَضْل، قال: لم يكُنْ صَالِحٌ في خسارةٍ، حين قال: ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾، وإنما المعنى: ما تزيدُونَني بما تقولُونَ إلاَّ نسبتي إياكم للخَسَارة، وهو مِنْ قول العرب: فَسَّقْتُهُ وَفَجَّرْتُهُ؛ إذا نسبته إلى الفسوق والفُجور. انتهى. وهو حسنٌ. وباقي الآية بيِّن قد تقدَّم الكلامُ في قصصها.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وأخذ الذين ظلموا الصَّيْحَةُ﴾: قال أبو البقاء: في حَذْف التاءِ من «أخذ» ثلاثةُ أوْجُهٍ:

أحدها: أنه فَصَلَ بين الفعل والفاعل.

والثاني: أن التأنيث غير حقيقيٍّ.

والثالث: أن الصيْحَة بمعنى الصِّيَاحِ، فحُمِلَ على المعنى، انتهى.

وقد أشار * ع[1] *: إلى الثلاثة، واختار الأخير.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد جَاءَتْ رسلنا إبراهيم بالبشرَى﴾: الرسُلُ: الملائكة، قال المَهْدوِيُّ: ﴿بالبُشْرَى﴾ يعني: بالولدِ، وقيل: البُشْرَى بهلاك قومِ لوطٍ انتهى.

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ١٨٦).

﴿قالوا سَلاَماً﴾: أي: سلَّمنا عليك سلاماً، وقرأ حمزة[١] والكسائي: «قَالُوا سَلاَماً قالَ سِلْمٌ»، فيحتمل أنْ يريد بـ «السِّلْم» السلامَ، ويحتمل أن يريد بـ «السِّلْم» ضدَّ الحرب، و﴿حنيذ﴾: بمعنى: محنوذ، ومعناه: بعجْلٍ مشويٍّ نَضِجٍ، يقْطُر ماؤه، وهذا القَطْر يفصلُ الحَنيذَ من جملة المشويَّات، وهيئة المحنوذِ في اللغة:/ الَّذي يُغَطَّى بحجارةٍ أو رَمْلٍ مُحَمًّى ٢٤٧ ب
أو حائل بينه وبيْن النَّار يغطى به، والمُعَرَّض: من الشِّواء الذي يُصَفَّف على الجَمْر، والمُضَهَّب: الشِّوَاءُ الذي بينه وبين النَّار حائلٌ، ويكون الشِّواء عليه، لا مَدْفُوناً به، والتَّحْنِيذُ في تضمير الخَيْل: هو أنْ يغطَّى الفَرَس بِجِلٍّ على جُلٍّ؛ ليتصبَّب عَرَقُه، و﴿نَكِرَهم﴾ على ما ذكر كثيرٌ من النَّاس، معناه: أنْكَرهم ﴿وأَوْجَسَ منهم خيفةً﴾؛ من أجل آمتناعهم من الأكل؛ إذ عُرْفُ مَنْ جاء بِشَرٍّ ألاَّ يأكل طعامَ المنْزُولِ به، قال ابنُ العربيِّ في «أحكامه»[٢]: ذهب الليثُ بْنُ سَعْدٍ إلى أَنَّ الضِّيَافَةَ واجبةٌ، لقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، ومَا وَرَاءَ ذَلِكَ صَدَقَةٌ»[٣]، وفي رواية: «ثَلاَثَةُ أَيَّام، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يثوي[٤] عِنْدَهُ حتَّى يُخرِجَهُ»[٥] وهذا حديثٌ صحيحٌ، خرَّجه الأئمةِ، واللفظ للترمذيِّ، وذهب علماء الفقه إلى: أن الضيافة لا تجبُ، وحملوا الحديثَ على النَّدْب.

قال ابنُ العربيِّ: والذي أقولُ به أن الضيافَةَ فَرْضٌ على الكفَايَةِ، ومِنَ الناسِ مَنْ قال: إنها واجبةٌ في القُرَى حيثُ لا مَأْوَى ولا طَعَام؛ بخلاف الحواضِرِ؛ لتيسُّر ذلك فيها.

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٣٧ ـ ٣٣٨)، و«الحجة» (٤/ ٣٥٩)، و«إعراب القراءات السبع» (١/ ٢٨٨) و«حجة القراءات» (٣٤٦)، و«الإتحاف» (٢/ ١٣٠) و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٤٢)، و«الدر المصون» (٤/ ١١٢)، و«العنوان» (١٠٨)، و«شرح شعلة» (٤٣١).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٦١).

(٣) ينظر: الحديث الآتي.

(٤) الثَّوَاءُ: طول المُقَام. ينظر: «لسان العرب» (٥٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٦٠) كتاب «الأدب» باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٩)، وباب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٦١٣٥)، و (١١/ ٣١٤) الرقاق باب: حفظ اللسان (٦٤٧٦)، ومسلم (٣/ ١٣٥٣) في اللقطة، باب: الضيافة ونحوها (١٤، ١٦/ ٤٨)، وأبو داود (٢/ ٣٦٩) كتاب «الأطعمة» باب: ما جاء في الضيافة (٣٧٤٨)، والترمذي في «البر والصلة» باب: ما جاء في الضيافة، وغاية الضيافة كم هو؟ (١٩٦٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٢) في «الأدب» باب: حق الضيف (٣٦٧٥)، وأحمد (٤/ ٣١) (٦/ ٣٨٥)، ومالك (٢/ ٩٢٩) في كتاب «صفة النبي ﷺ» باب: جامع ما جاء في الطعام، والشراب (٢٢)، والبيهقي (٩/ ١٩٧)، والدارمي (٢/ ٩٨)، والحميدي (٢/ ٢٦٢) برقم: (٥٧٦)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ١٠٤) برقم: (٢٨٩٦) من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي شريح العدوي به مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال ابنُ العربيِّ: ولا شكَّ أن الضيْفَ كريمٌ، والضِّيافة كرامَةٌ، فإن كان عديماً، فهي فريضةٌ انتهى، و﴿أوجس﴾ معناه: أحس والتوجيسُ: ما يعتري النفسَ عند الحَذَرِ، وأوائلِ الفَزَعِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال الجمهور: هو الضَّحِكُ المعروفُ، وذكر الطبري(١) أن إبراهيم عليه السلام لَمَّا قَدَّم العجْل، قالوا له: إنَّا لا نأكل طعاماً إلاَّ بثمنٍ، فقال لهم: ثمنُهُ: أنْ تذْكُروا اللَّه تعالَى عليه في أوَّله، وتَحْمَدوه في آخره، فقال جبريلُ لأصحابه: بحَقٍّ اتَّخذَ اللَّهُ هَذَا خَلِيلاً، ثم بَشَّر الملائكةُ سَارَّة بإسحاق، وبأنَّ إسحاقَ سَيَلِدُ يعقُوبَ، ويسمَّى ولَدُ الوَلَد وراء، وهو قريبٌ من معنى «وراء» في الظرف، إذ هو ما يكونُ خَلْفَ الشيْء وبَعْده.

وقال * ص *: «وراء»؛ هنا: استعمل غَيْرَ ظرفٍ، لدخولِ «مِنْ» عليه، أي: ومِنْ بَعْدِ إسحاق. انتهى.

وقولها: ﴿يَا وَيْلَتى﴾: الألفُ بَدَلٌ من ياء الإضافة، أصلها: يَا وَيْلَتِي، ومعنى: «يَا وَيْلَتَا» في هذا الموضع: العبارةُ عَمَّا دَهَمَ النَّفْسَ من العَجَبِ في ولادةِ عَجُوزٍ، و﴿مِنْ أمر اللَّه﴾: واحدُ الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿رحمت اللَّهَ وبركاته عَلَيْكُم أهْلَ البيت﴾: يحتمل أنْ يكون دعاءً، وأنْ يكون خبراً.

* ص *: ونصبُ ﴿أهْلَ البَيْتِ﴾ على النداءِ أو على ٱلاختصاص، أو على المَدْحِ، انتهى. وهذه الآية تعطي أنَّ زوجة الرجل مِنْ أَهْلِ بيتِهِ.

* ت *: وهي هُنَا منْ أهْل البيت على كلِّ حال، لأنها من قرابَتِهِ، وٱبْنَة عَمِّه، و«البَيْتُ»، في هذه الآية، وفي «سورة الأحزاب» بيتُ السكْنَى.

وقوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الرَّوْع وجاءته البشرَى يجادلنا﴾: أي: أخذ يُجادِلُنا «في قوم لوطٍ».

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

---

(١) ذكره الطبري (٧/ ٧٠ - ٧١) بنحوه برقم: (١٨٣٢٨).

وقوله تعالى: ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاهٌ منيبٌ﴾ وُصِفَ عليه السلام بالحِلْم، لأنه لم يغضَبْ قطُّ لنفسه إلاَّ أَنْ يغضب للّه، وأَمْرُهُ بالإعراض عن المُجَادلة يقتضي أنها إنَّما كانَتْ في الكَفَرَةِ، حرصاً على إسلامهم، و﴿أمر ربك﴾ واحدُ الأمور، أي: نفذ فيهم قضاؤُهُ سبحانه، وهذه الآية مقتضيةٌ أنَّ الدعاء إنما هو أنْ يوفِّق اللّه الداعِيَ إلى طَلَب المَقْدور، فأما الدُّعاء في طَلَبِ غير المقدورِ، فغير مُجْدٍ ولا نافع.

* ت *: والكلام في هذه المسألة متَّسعٌ رَحْبٌ، ومن أحسن ما قيل فيها قولُ الغَزَّالِيِّ في «الإحياء»: فإنْ قلْتَ: فما فائدةُ الدُّعاءِ، والقَضَاءُ لا يُرَدُّ؟ فالجوابُ: أَنَّ من القضاءِ رَدَّ البلاءِ بالدعاءِ، فالدعاءُ سَبَبٌ لردِّ البلاء، وٱستجلابِ الرحمة؛ كما أن التُّرْسَ سَبَبٌ لردِّ السهم، والماء سبَبٌ لخروجِ النباتِ، انتهى. وقد أطال في المسألة، ولولا الإطالة لأَتَيْتُ بِنُبَذٍ يثلج لها الصدْرُ، وخَرَّجَ الترمذيُّ في «جامعه» عن أبي خزامة، واسمه رِفَاعَةُ، عن أبيه، قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ / اللّهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى ٢٤٨أ
نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللّه شَيْئاً؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللّهِ»[١]، قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسن، وفي بعض نُسَخِهِ: حسنٌ صحيحٌ، انتهى. فليس وراء هذا الكلام من السيِّد المعصوم مرمًى لأحدٍ، وتأمَّل جواب الفارُوق لأبِي عُبَيْدة، حِينَ هَمَّ بالرجوعِ مِنْ أجْلِ الدخول علَى أرْضٍ بها الطاعُونُ، وهي الشام[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠) كتاب «الطب» باب: ما جاء في الرقى والأدوية، حديث (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٣٧) كتاب «الطب» باب: ما أنزل اللّه داء إلا أنزل له شفاء، حديث (٣٤٣٧)، كلاهما من طريق الزهري، عن أبي خزامة عن أبيه، به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ولا نعرف لأبي خزامة عن أبيه غير هذا الحديث. وأخرجه الحاكم (٤/ ٤٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥) رقم: (٣٠٩٠) من طريق صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن عروة، عن حكيم بن حزام به، وسكت عنه الحاكم والذهبي، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٨٨)، وقال: رواه الطبراني، وفيه صالح بن أبي الأخضر، وهو ضعيف، يعتبر حديثه.

(٢) هذا القول ورد في حديث صحيح، أخرجه البخاري (١٠/ ١٨٩) كتاب «الطب» باب: «ما يذكر في الطاعون» رقم: (٥٧٢٩).
من حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما ـ أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان يسرع لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ـ قال ابن عباس: فقال عمر: «ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، فأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا عليه.
قال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. =

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنا لوطاً﴾: الرسُل هنا: الملائكة أضيافُ إبراهيم.

قال المهدويُّ: والرسُلُ هنا: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، ذكره جماعة من المفسِّرين. انتهى، واللّه أعلم بتعيينهم، فإن صحَّ في ذلك حديثٌ، صِير إليه، وإلا فالواجبُ الوقْفُ، و﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: أصابهُ سُوءٌ، و«الذَّرْع»: مصدرٌ مأخوذٌ من الذراع، ولما كان الذراعُ موضعَ قُوَّةِ الإنسان، قيل في الأمر الذي لا طَاقَةَ له به: ضَاقَ بِهَذَا الأمْرِ ذِرَاعُ فُلاَنٍ، وذَرْعُ فلانٍ، أيْ: حيلته بذراعِهِ، وتوسَّعوا في هذا حتَّى قلبوه، فقالوا: فلانٌ رَحْبُ الذِّرَاع، إذا وصَفُوه بٱتساع القدرةِ، و﴿عصيب﴾: بناء اسمِ فاعلٍ، معناه: يعصب

= وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول اللّه ﷺ ـ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوهم له فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوهم فلم يختلف عليه منهم رجلان.

قالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا نقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمر في الناس: «إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه». قال أبو عبيدة: أفراراً من قدر اللّه؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر اللّه إلى قدر اللّه، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر اللّه، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللّه؟

قال: فجاء عبد الرحمٰن بن عوف، وكان غائباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»، قال: فحمد اللّه ثم انصرف.

وأخرجه مسلم (٤/ ١٧٤٠) كتاب «السلام» باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٩/٩٨)، والبيهقي في **«السنن الكبرى»** (٧/ ٢١٧ ـ ٢١٨) كتاب «النكاح» باب: ولا يورد ممرض على مصح فقد يجعل اللّه تعالى بمشيئته مخالطته إياه سبباً لمرضه، والطحاوي في **«شرح معاني الآثار»** (٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) كتاب «الكراهية» باب: الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا؟، وعبد الرزاق (١١/ ١٤٧) كتاب **«الجامع»** باب: الوباء والطاعون، رقم: (٢٠١٥٩) نحوه

النَّاسَ بالشرِّ، فهو من العِصَابة، ثم كَثُر وصفهم لليَوْمِ بعصيبٍ؛ ومنه: [الوافر]

.... وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبِ[١]

وبالجملة فـ «عصيب»: في موضع شديدٍ وصعبِ الوطأة، و﴿يُهْرَعُونَ﴾ معناه: يُسْرِعون، ﴿ومِنْ قبل كانوا يعملون السيئات﴾: أيْ: كَانت عادتهم إتيان الفاحشة في الرجال.

وقوله: ﴿هؤلاء بناتي هُنَّ أطهر لكم﴾: يعني: بالتزويج، وقولهم: ﴿وإنك لَتَعْلَمُ ما نريدُ﴾: إشارة إلى الأضيافِ، فلما رأى لوطٌ ٱستمرارَهُم في غَيِّهم، قال: على جهة التفجُّع وٱلاستكانةِ: ﴿لَوْ أن لي بكم قوةً﴾.

قال * ع[٢] *: «لَوْ أنَّ»: جوابها محذوفٌ، أي: لَفَعَلْتُ كذا وكذا، ويروَى أنَّ الملائكةَ وَجَدَتْ عليه؛ حين قال هذه الكلماتِ، وقالوا: إنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، وقال النبيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ[٣] فَالْعَجَبُ مِنْهُ لما ٱسْتَكَانَ».

قال * ع[٤] *: وإنما خشي لوطٌ عليه السلام أنْ يمهل اللَّهُ أولئك العِصَابَةَ حتى يَغصُوهُ في الأضيافِ، كما أمهلهم فيما قَبْلَ ذلك، ثم إن جبريل عليه السلام ضَرَبَ القوم بجَنَاحِهِ، فطمس أعينهم، ثم أمروا لوطاً بالسُّرَى، وأعلموه بأنَّ العذاب نازلٌ بالقوم، فقال لهم لوطٌ: فَعَذِّبوهم السَّاعة، فقالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، أي: بهذا أمَرَ اللَّه، ثم آنَسُوه في قَلَقِهِ بقولهم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، و«القِطْع»: القطعة من الليل.

قال * ص *: ﴿إلاَّ ٱمرَأَتَكَ﴾: ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو بالرفع، والباقون بالنَّصْبِ[٥]، فقيل: كلاهما استثناءٌ من ﴿أَحَدٌ﴾، وقيل: النصب على ٱلاستثناء من ﴿أَهْلَكَ﴾ انتهى.

---

(١) عجز بيت وصدره:

وكـنـت لـزاز خـصـمـك ام أعـرّد ....

ينظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٩٤)، «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٧) «الدر المصون» (٤/ ١١٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩٥).

(٣) تقدم تخريجه وهو حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، الحديث.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩٥).

(٥) ينظر: «الحجة» (٤/ ٣٦٩)، و«إعراب القراءات السبع» (١/ ٢٩٢)، و«حجة القراءات» (٣٤٧)، و«الإتحاف» (٢/ ١٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٩٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٤٨)، و«الدر المصون» (٤/ ١١٩)، و«السبعة» (٣٣٨)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٩٢)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٧٠)، و«شرح شعلة» (٤٣١).

وقوله سبحانه: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجِّيلٍ﴾ ذهبت فرقةٌ، منهم ابن عباس إلى أن الحجارة التي رُمُوا بها كَانَتْ كالآجُرّ المطبوخِ[١]، كانَتْ من طينٍ قد تحجَّر، وأن سِجِّيلاً معناها: ماءٌ وطينٌ، وهذا القول هو الذي عليه الجمهورُ، وقالت فرقة: «من سِجِّيلٍ»: معناه: مِنْ جهنَّم؛ لأنه يقالُ: سِجّيل وسِجِّين، حَفِظَ فيها بَدَلَ النُّون لاماً، وقيل غير هذا ﴿ومنضود﴾: معناهُ: بعضه فوق بعض، متتابع، و﴿مسوَّمة﴾: أي: مُعْلَمةٌ بعلامة.

وقوله تعالى: ﴿وما هي﴾: إشارةٌ إلى الحِجَارة، والظالمون: قيل: يعني قريشاً، وقيل: يريد عمومَ كلِّ مَن اتّصف بالظُّلْمِ، وهذا هو الأصَحُّ، وقيل: يعني بهذا الإعلامَ بأنَّ هذه البلادَ قريبةٌ من مكّة، وما تقدَّم أبْيَن.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير . . .﴾ الآية: قوله: ﴿بخير﴾: قال ابن عباس: معناه: في رُخْصٍ من الأسعار[٢]، وقيل: قوله: ﴿بخير﴾: عامٌّ في جميع نِعَم اللّه تعالَى، و﴿تعثوا﴾: معناهُ تَسْعَوْنَ في فسادٍ، يقال: عَثَا يَعْثُو، وَعَثَى يَعْثِي؛ إذا أفسد.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٩٨).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٩٧) برقم: (١٨٤٨١)، وابن عطية (٣/ ١٩٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٦)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

وقوله: ﴿بقيت اللَّه خير لكم﴾: قال ابن عباس: معناه: الذي يُبْقِي اللَّه لكُمْ من أموالكم بَعْد توفيتكم / الكَيْلَ والوَزْن خيرٌ لكم مما تستكثرونَ به على غير وجْهه[1]، وهذا ٢٤٨ ب تفسيرٌ يليق بلفظ الآية، وقال مجاهد: معناه: طاعةُ اللَّه[2]، وهذا لا يعطيه لفظُ الآية.

قال * ص *: وقرأ الحسنُ[3]: «تَقِيَّةُ اللَّهِ»، أي: تقواه.

قال * ع[4] *: وإنما المعنى عندي: إبقاءُ اللَّه علَيْكُم إنْ أطعتم، وقولهم: ﴿أصلواتك تأمرك أنْ نترك ما يعبد آباؤنا﴾: قالت فرقة: أرادوا الصلواتِ المعروفةَ، وروي أن شعيباً عليه السلام كان أكْثَرَ الأنبياءِ صلاةً، وقال الحسنُ: لم يَبْعَث اللَّهُ نبيًّا إلا فرض عَلَيْه الصَّلاة والزَّكاة[5]، وقيل: أرادوا: أدعواتُكَ، وذلك أنَّ من حَصَّل في رتبةٍ مِنْ خير أو شَرٍّ، ففي الأكثر تَدْعُوه رتبته إلى التزيُّد من ذلك النوْع، فمعنى هذا: لما كنْتَ مصلِّياً، تجاوزتَ إلى ذمِّ شرعنا وحالِنا، فكأن حاله من الصلاة جَسَّرته علَى ذلك، فقيل: أَمَرَتْه؛ كما قال تعالَى: ﴿إنَّ الصَّلاَةَ تَنهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال * ص، وع[6] *: ﴿أَوْ أنْ نفعل﴾: معطوفٌ على ﴿ما يعبد﴾، و«أو» للتنويع، انتهى. وظاهر حالِهِمُ الذي أشاروا إليه هو بَخْسُ الكيل والوَزْنِ الذي تقدَّم ذكره، وروي أن الإشارة إلى قَرْضِهِمْ الدِّينار والدِّرْهم، وإجراء ذلك مع الصَّحِيح على جهة التدْلِيسِ؛ قاله محمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ[7]، وتؤوِّل أيضاً بمعنى تبديلِ السِّكَك التي يقصد بها أكْلُ أموالِ الناس، قال ابنُ العربيِّ[8]: قال ابن المسيَّب: قطع الدنانير والدَّراهم مِنَ الفَسَاد في

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٩٩)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٩٨).
(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٩٩) برقم: (١٨٤٩١، ١٨٤٩٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٩٩)، والبغوي (٢/ ٨٦١) بنحوه، وابن كثير (٢/ ٤٥٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٦)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٥/ ٢٥٣).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩٩).
(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٠٠).
(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٠٠).
(٧) أخرجه الطبري (٧/ ١٠٠) برقم: (١٨٥٠٢ ـ ١٨٥٠٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٠١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٧)، وعزاه إلى ابن المنذر.
(٨) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٦٤).

الأرْضِ؛ وكذلك قال زيد بن أسْلَمَ في(١) هذه الآية، وفَسَّرها به، ومثله عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ من رواية مالكٍ، قال ابنُ العَرَبِيِّ: وإذا كان قَطْعُ الدنانير والدَّراهم وقَرْضُها من الفسَادِ، عُوقِبَ مَنْ فَعَلَ ذلك، وقَرْضُ الدراهم غَيْرُ كَسْرها؛ فإن الكسر: فسادُ الوصفُ، والقَرْض: تنقيصٌ للقَدْر، وهو أَشَدُّ من كَسْرها، فهو كالسرقة. انتهى من «**الأحكام**» مختصراً، وبعضه بالمعنى، وقولهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾: قيل: إنهم قالوه؛ على جهة الحقيقة، أي: أنت حليم رشيدٌ، فلا ينبغي لك أنْ تَنْهَانا عن هذه الأحوالِ، وقيل: إنما قالوا هذا؛ على جهة ٱلاستهزاء.

وقوله: ﴿وزرقني مِنْهُ رزقاً حسناً﴾: أي: سالماً من الفَسَادِ الذي أدْخَلْتُم في أموالكم، وجوابُ الشَّرْط الذي في قوله: ﴿إنْ كنتُ عَلَى بينة من ربِّي﴾ محذوفٌ، تقديره: أَأَضِلُّ كما ضَلَلْتُمْ، أو أتركُ تبليغَ رِسَالَةِ ربِّي، ونحو هذا.

وقوله: ﴿لا يجرمنَّكم﴾: معناه: لا يُكْسِبَنَّكُمْ، و﴿شِقَاقِي﴾: معناه: مُشَاقتي، وَعَدَاوَتِي و«أَنْ»: مفعولةٌ بـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

قال * ص، وع(٢) *: ﴿وما قوم لوطٍ منكم ببعيدٍ﴾: أي: بزمانٍ بعيدٍ، أو بمكانٍ.

قال * ص *: ﴿وَدُود﴾ بناءُ مبالغةٍ مِنْ وَدَّ الشَّيْءَ، إذا أَحَبَّه، وآثره.

* ع(٣) *: ومعناه: أن أفعاله سُبْحَانَهُ وَلُطْفه بعباده لَمَّا كَانَتْ في غاية الإِحْسَان إليهمْ، كانَتْ كَفِعْلِ مَنْ يتودَّد وَيَوَدُّ المصنوعَ له، وقولُهم: ﴿ما نَفْقَهُ﴾: كقولِ قريشٍ: ﴿قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، والظاهر من قولهم: ﴿إِنَّا لَنَراكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾: أنهم أرادوا ضَعْفَ ٱلانتصارِ والقُدْرة، وأنَّ رهطه الكَفَرة يُرَاعُوْنَ فيه، والرَّهْط: جماعةُ الرجُلِ، وقولهم: ﴿لرجمناك﴾ أي: بالحجارة؛ قاله ابن زَيْد، وقيل(٤): بالسَّبِّ باللسان، وقولهم: ﴿بعزيز﴾: أي: بذي منعةٍ وعزةٍ، ومنزلةٍ، و«الظِّهْرِيُّ»: الشيءُ الذي يكونُ وراءَ الظهر، وذلك يكون في الكَلاَم على وجهين: إما بمعنى ٱلاطِّراح؛ كما تقولُ: جَعَلْتَ كلامِي وَرَاءَ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٠٠) برقم: (١٨٥٠١)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٦٢٧)، وعزاه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٣) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٠٢).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ١٠٤) برقم: (١٨٥٢٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٠٢)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٣/ ٦٣٠)، وعزاه لأبي الشيخ.

ظَهْرِكَ، ودَبْرَ أُذُنِكَ، وعلى هذا المعنَى حمل الجمهورُ الآيةَ، أي: اتخذتم أَمْرَ اللَّه وشَرْعَه وراء ظُهُوركم، أي: غَيْرَ مراعًى، وإما بأَنْ يستند إِليه ويلجأ؛ كما قال عليه السلام: «وألجأتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ»(١)؛ وعلى هذا المعنَى حمل الآية قَوْمٌ: أي: وأنتم تتَّخذون اللَّه سَنَدَ ظُهُورِكُمْ وعِمَادَ آمالكم.

وقوله: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ معناه: على حالاتكم، وفيه تهديدٌ.

وقوله: ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب﴾: والصحيحُ: أن الوقفَ في قوله: ﴿إني عاملٌ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وأخذَتِ الذين ظلموا الصيحة...﴾ الآية: ﴿الصَّيْحَةُ﴾: هي صَيْحَة/ جبريل عليه السلام. ٢٤٩أ

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كأن لم يغنوا فيها...﴾ الآية: ﴿يغْنَوْا﴾: معناه: يقيمون بِنَعْمَةٍ وخَفْضِ عيشٍ؛ ومنه المَغَانِي، وهي المنازلُ المعمورةِ بالأَهْل، وضمير «فيها» عائد على الديار.

وقوله: ﴿بُعْداً﴾: مصدرٌ دعا به؛ كقولك: سُحْقاً للكافرين، وفارَقَتْ هذه قولَهُمْ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢]؛ لأن ﴿بُعداً﴾ إخبارٌ عن شيء قد وَجَب وتحصَّل، وتلك إنما هي دعاء مرتجى، ومعنى البُعْد في قراءة: «بَعِدَتْ» ـ بكسر العين ـ: الهلاكُ، وهي قراءة الجمهور(٢)؛ ومنه قول خِرْنِق بِنْتِ هَفَّانَ: [الكامل]

لاَ يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ سُمُّ الْعُدَاةِ وآفَةُ الجُزْرِ(٣)

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٠٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٥٧)، و«الدر المصون» (٤/ ١٢٧).
(٣) البيت في «ديوانها» ص: (٤٣)، و«الأشباه والنظائر» (٦/ ٢٣١)، و«أمالي المرتضى» (١/ ٢٠٥)، و«الإنصاف» (٢/ ٤٦٨)، و«أوضح المسالك» (٣/ ٣١٤)، «الحماسة البصرية» (١/ ٢٢٧)، و«خزانة الأدب» (٥/ ٤١ ـ ٤٢، ٤٤)، و«الدرر» (٦/ ١٤)، و«سمط اللآلي» ص: (٥٤٨)، و«شرح أبيات سيبويه» (٢/ ١٦)، و«شرح التصريح» (٢/ ١١٦)، و«الكتاب» (١/ ٢٠٢)، (٢/ ٥٧ ـ ٥٨، ٦٤)، =

ومنه قولُ مالكِ بْنِ الرَّيبِ: [الطويل]

يَقُولُونَ لاَ تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي ... وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إلاَّ مَكَانِيَا[١]

وأما من قرأ: «بَعُدَتْ»، وهو السُّلَمِيُّ وأبو حَيْوَةَ[٢] فهو من البُعْدِ الذي هو ضدُّ القُرْب، ولا يُدْعَى به إلا على مبغوضٍ.

قال * ص *: وقال ابْنُ الأنباريِّ: من العرب مَنْ يُسَوِّي بين الهلاكِ والبُعْدِ الَّذي هو ضِدُّ القُرْب، فيقولون فيهما: بَعُدَ يَبْعُدُ، وبَعِدَ يَبْعَدُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾: أي: وخالفوا أَمْرَ موسَى، ﴿وما أَمْرُ فرعونَ بِرَشِيدٍ﴾، أي: بمرشِدٍ إلى خير.

وقال * ع[٣] *: ﴿برشيد﴾: أي: بمصيب في مَذْهَبِهِ ﴿يَقْدُمُ قومَهُ﴾: أي: يقدمهم إلى النار، و﴿الورد﴾، في هذه الآية: هو ورودُ دُخُولٍ.

قال * ص *: و﴿الوِرْدُ﴾: فاعلُ «بِئْسَ»، و﴿المَوْرُود﴾: المخصُوصُ بالذَّمِّ، وفي الأول حذْف، أيْ: مَكانُ الورْد، ليطابق المخصُوصَ بالذَّمِّ.

وجوَّز * ع[٤] *: وأبو البقاءِ أنْ يكونُ «المَوْرُود» صفةً لمكان الوِرْدِ، والمخصوص محذوفٌ، أي: بِئْسِ مكانُ الوِرْدِ الموْرودُ النارُ، و«الوِرْد»: يجوز أنْ يكون مصْدراً بمعنى الوُرُود، أو بمعنى الوَارِدَة من الإِبل، وقيل: الوِرْد: بمعنى الجَمْعِ للوَارِدِ، والمَوْرُود: صفةٌ لهم، والمخصُوصُ بالذمِّ ضميرٌ محذوف، أي: بئس القوم المَوْرُود بهم هُمْ، انتهى.

﴿وأُتبعوا في هذه لعنة﴾: يريد: دارَ الدنيا.

وقوله: ﴿بِئْسَ الرفْدُ المرفود﴾ أي: بِئْسَ العطاءُ المعطَى لهم، وهو العذابُ، والرِّفْدُ

= و«لسان العرب» (٥/ ٢١٤) (نضر)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٨)، و«المقاصد النحويّة» (٣/ ٦٠٢)، (٤/ ٧٢)، وبلا نسبة في «رصف المباني» ص: (٤١٦)، و«شرح الأشموني» (٢/ ٣٩٩).

(١) البيت من الطويل، وهو لمالك بن الريب في «ديوانه» ص: (٤٦)، و«خزانة الأدب» (٢/ ٣٣٨)، (٥/ ٤٦)، و«شرح شواهد المغني» (٢/ ٦٣٠)، و«لسان العرب» (٣/ ٩١) (بعد)، وبلا نسبة في «مغني اللبيب» (١/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: «مصادر القراءة السابقة»، و«الشواذ» ص: (٦٥)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٧)، و«الكشاف» (٢/ ٤٢٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٠٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٠٥).

في كلام العرب: العطيَّة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذلك من أنباء القُرَى ...﴾ الآية: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدَّم من ذكر العُقُوبات النَّازلة بالأُمَمِ المذكُورة، ﴿منها قائمٌ وحَصِيدٌ﴾: أي: منها قائمُ الجُدُرَاتِ، ومتهدِّمٌ دائر، والآية بجملتها متضمِّنة التخويفَ وضَرْبَ المثلِ للحاضرين مِنْ أَهْل مكَّة وغيرهم، والـ ﴿تَّتْبِيب﴾: الخُسْرَانُ؛ ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

وقوله: ﴿وكذلك﴾: الإشارةُ إلى ما ذكر من الأخذات في الأُمَم، وهذه آية وعيدٍ يعمّ قرى المُؤمنين والكافرينَ، فإِنَّ «ظالمة»: أعمُّ من «كافرة»، وقد يمهل اللّه تعالَى بعْضَ الكَفَرَة، وأما الظَّلَمَةُ، فمعاجَلُون في الغالِبِ، وقد يُمْلي لَبَعْضِهِمْ، وفي الحديث، من رواية أبي موسَى؛ أن رَسُولَ اللّه ﷺ قالَ: «إِنَّ اللّهَ يُمْلِي لِلظَّالِمَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ، لَمْ يُفْلِتْه»، ثم قرأ: ﴿وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ...﴾ الآية(١)، وهذه قراءة الجماعة، وهي تعطي بقاءَ الوَعِيدِ، واستمرارَهُ في الزمان؛ ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾: أي: لعبرةً وعلامةَ اهتداءٍ، ﴿لمن خَافَ عذابَ الآخرةِ﴾، ثم عَظَّمَ اللّه أمْرَ الآخرة، فقالَ: ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناس﴾، وهو يومُ الحَشْر، ﴿وذلك يومٌ مشهودٌ﴾ يَشْهَدُهُ الأوَّلون والآخِرُون؛ من الملائِكَةِ، والإِنس، والجنّ والحيوانِ؛ في قول الجمهور، ﴿وما نؤخِّره إلاَّ لأجلٍ معدودٍ﴾ لا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٠٥) كتاب «التفسير» باب: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، حديث (٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨) كتاب «البر والصلة» باب: تحريم الظلم، حديث (٦١/ ٢٥٨٣)، والترمذي(٥/ ٢٨٨) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة هود، حديث (٣١١٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢) كتاب «الفتن» باب: العقوبات، حديث (٤٠١٨)، والنسائي في «التفسير» رقم: (٢٦٥)، من حديث أبي موسى الأشعري.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٣٢)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال * ص *: والظاهر أنَّ ضمير فاعل: «يأت»: يعودُ على ما عاد عَلَيْه ضَمِيرُ «نُؤَخِّره»، والناصبُ لـ «يَوْم» «لا تَكَلَّمُ»، والمعنى: لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ يوم يأتي ذلك اليَوْمُ إلا بإذنه سبحانه. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فمنهم﴾: عائدٌ على الجمعِ الذي يتضمَّنه قوله: ﴿نَفْس﴾، إذ هو اسمُ جِنْسٍ يراد به الجَمْعُ ﴿فأما الذين شَقُوا ففي النار لَهُمْ فيها زفيرٌ وشهيقٌ﴾ وهي أصواتُ المكْروبين والمَحْزُونين والمعذَّبين، ونحو ذلك، قال قتادةُ: الزَّفير: أول صَوْتِ الحِمارِ، والشهيقُ: آخره[1]، فصياحُ أَهْلِ النَّار كذلك، وقال أبو العالية: «الزفير»: من الصدر، و«الشهيق»: من الحَلْق[2]، والظاهر ما قال أبو العالية.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿خالدين فيها ما دامَتِ السمٰوات والأرض﴾: يُرْوَى عن ابن عباس: أَنَّ اللَّه خلق السمٰوات والأرْضَ مِنْ نُورِ العَرْشِ، ثم يردهما إلى هنالك / في الآخرة[3]، ٢٤٩ب
فلهما ثَمَّ بَقَاءٌ دائمٌ، وقيل: معنى: ﴿ما دامت السمٰوات والأرض﴾: العبارة عن التأبيدِ بما تَعْهَدُهُ العرب، وذلك أنَّ من فصيح كلامِهَا، إذا أرادَتْ أن تخبر عَنْ تأبيد شيء أنْ تقول: لاَ أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا أَمَدَ الدهرِ، وما نَاحَ الحَمَامُ، وما دامت السمٰوات والأرْضُ، وقيل غير هذا.

قال * ص *: وقيل: المراد سَمٰواتُ الآخرةِ، وأَرْضها؛ يدلُّ عليه قوله: ﴿يوم تبدَّل الأرض غَيْرَ الأرض والسمٰوات﴾ [إبراهيم: ٤٨] انتهى. وأما قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾: في ٱلاستثناء ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: أنه متَّصل، أي: إلا ما شاء ربُّكَ من إخراج الموحِّدين؛ وعلَى هذا يكونُ قوله: ﴿فأما الذين شقوا﴾ عاماً في الكَفَرَةِ والعُصَاةِ، ويكون ٱلاستثناء من ﴿خالدين﴾،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١١٤) برقم: (١٨٥٨٢)، وابن عطية (٣/ ٢٠٧).
(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١١٤) برقم) (١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٠٧).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٠٨).

وهذا قولُ قتادة وجماعةٍ[(١)].

الثَّاني: أنَّ هذا ٱلاستثناء ليس بمتَّصل ولا منقطع، وإنما هو على طريق ٱلاستثناء الذي نَدَبَ إليه الشَّرْعُ في كلِّ كلام؛ فهو على نحو قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧].

الثالث: أنَّ «إلا» في هذه الآية بمعنى «سوى»، وٱلاستثناء منقطعٌ، وهذا قول الفَرَّاء، فإنه يقدِّر ٱلاستثناء المنقطع بـ «سِوَى» وسيبَوَيْهِ يقدِّره بـ «لكن»، أيْ: سوَى ما شاء اللَّه زائداً على ذلك؛ ويؤيِّد هذا التأويلَ قوله بَعْدُ: ﴿عَطَاءً غير مجذود﴾، وقيل: سِوَى ما أعد اللَّه لهم من أنواعِ العَذَاب، وأشدُّ من ذلك كلِّه سَخَطُهُ سبحانه عليهم، وقيل: ٱلاستثناء في الآيتين من الكَوْنِ في النار والجنَّة، وهو زمانُ المَوْقِفِ، وقيل: ٱلاستثناءُ؛ في الآية الأولى: من طُول المُدَّة، وذلك على ما روي أَنَّ جهنم تَخْرَبُ، ويُعْدَمُ أهلُها، وتخفقُ أبوابُهَا، فهم على هذا يَخْلُدون حتَّى يصير أمرهم إلى هذا.

قال * ع[(٢)] *: وهذا قولٌ محتملٌ، والذي رُوِيَ ونُقِل عن ابن مسعود وغيرهِ أنَّ ما يخلى من النَّار إنما هو الدَّرْكُ الأعلى المختصُّ بعصاة المؤمنين[(٣)]، وهذا الذي يسمَّى جَهَنَّمَ، وسُمِّي الكلُّ به تجوُّزاً.

* ت *: وهذا هو الصوابُ ـ إن شاء اللَّه ـ وهو تأويل صاحب **«العاقبة»**؛ أنَّ الذي يَخْرَبُ ما يَخُصُّ عصاةَ المُؤْمِنِين، وتقدَّم الكلام على نظير هذه الآية، وهو قوله في «الأنعام»: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال * ع[(٤)] *: والأقوال المترتِّبة في ٱلاستثناءِ الأوَّلِ مرتبةٌ في ٱلاستثناء الثاني في الذين سعدوا إلاَّ تأويلَ مَنْ قال: هو ٱستثناء المدة التي تخرَبُ فيها جهنَّم؛ فإنه لا يترتَّب هنا، والـ ﴿مجذُوذ﴾: المقْطُوع، والإشارة بقوله: ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ إلى كفَّار العرب، ﴿وإنا لموفُوهم نصيبهم غير منقوص﴾ معناه: من العقوبةِ، وقال الداووديُّ عن ابن عباس: ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾: قال: ما قُدِّر لهم من خَيْرٍ وشرٍّ انتهى[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١١٥) برقم: (١٨٥٨٥ ـ ١٨٥٨٦) نحوه.
(٢) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٢٠٨).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٠٨).
(٤) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٢٠٨).
(٥) أخرجه الطبري (٧/ ١٢٠) برقم: (١٨٦٠٩)، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٦٣٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

وقوله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاْختلفَ فيه﴾: أي: اْختَلَفَ الناسُ عَلَيْه، فلا يَعْظُم عليك، يا محمَّد، أمْرُ مَنْ كذَّبك.

وقال * ص *: «فيه»: الظاهرُ عودُهُ على الكتاب، ويجوزُ أنْ يعود على موسَى، وقيل: «في» بمعنى «على»، أي: عليه، انتهى.

والـ ﴿كلمة﴾؛ هنا عبارةٌ عن الحُكْم والقضاء ﴿لقضي بينهم﴾: أي: لَفُصِلَ بين المُؤمن والكافر؛ بنعيم هذا وعذاب هذا، ووَصَفَ الشَّك بالريب؛ تقويةً لمعنى الشك، فهذه الآية يحتملُ أنْ يكونَ المراد بها أمة موسَى، ويحتمل أن يراد بها معاصرو النبيِّ ﷺ، وأنْ يعمهم اللفظ أحْسَن، ويؤيِّده قوله: ﴿وإِنَّ كُلاًّ﴾، وقرأ نافع[١] وابن كثير: «وإِنْ كُلاًّ لَمَا» وقرأ أبو عمرو، والكسائِيُّ بتشديد «إِنَّ»، وقرأ حمزة وحَفْص بتشديد «إِنَّ»، وتشديد «لَمَّا»، فالقراءتان المتقدِّمتان بمعنًى فـ «إِنَّ» فيهما على بابها، و«كُلاًّ»، اسمها، وعُرْفُها أنْ تدخل على خبرها لامٌ، وفي الكلام قَسَمٌ تدخُلُ لامه أيضاً على خبر «إِنَّ»، فلما اجتمع لامَانِ، فُصِلَ بينهما بـ «ما»؛ هذا قول أبي عليٍّ، والخبر في قوله: ﴿ليوفينَّهم﴾، وهذه الآية وعيدٌ، ومعنى الآية: أنَّ كل الخَلْقِ موفًّى في عَمَلَهُ.

وقوله عز وجل: ﴿فاْستقم كما أُمِرْتَ ومَنْ تَاب معك﴾: أمر النبي ﷺ باْلاستقامةِ،
٢٥٠أ / وهو عليها إنما هو أمر بالدَّوَام والثبوت، وهو أمر لسائر الأمَّة، وروي أنَّ بعض العلماء رأى النبيَّ ﷺ في النوْم، فقال: يَا رَسُولَ اللَّه، بَلَغَنا عَنكَ أَنَّكَ قُلْتَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»، فَمَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْ هُودٍ؟ فقالَ لَهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاْسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٢].

قال * ع[٣] *: والتأويل المشهور في قوله عليه السلام: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا» أنه إشارة إلى ما فيها مما حَلَّ بالأُمَمِ السالفةِ، فكأنَّ حَذَرَهُ على هذه مِثْلَ ذلك شَيَّبه عليه السلام.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٣٩)، و«الحجة» (٤/ ٣٨١)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٩٤)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٧٣)، و«العنوان» (١٠٨)، و«شرح شعلة» (٤٣٢ ـ ٤٣٣)، و«الإتحاف» (٢/ ١٣٥).

(٢) تقدم تخريجه في سورة «هود» دون قول: «فاستقم كما أمرت».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٠٩).

وقوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ...﴾ الآية: الرُّكُون: السُّكون إلى الشيْء، والرضا به، قال أبو العالية: الركُونُ: الرِّضَا. قال ابنُ زَيْد: الرُّكُون: الادِّهان[١].

قال * ع[٢] *: فالركون يقع على قليلِ هذا المعنَى وكثيرِهِ، والنهْيُ هنا يترتَّب من معنى الركُونِ على المَيْلِ إِلَيهم بالشِّرْك معهم إلى أقلِّ الرُّتَبِ مِنْ ترك التَّغْيير عليهم مع القُدْرة، و﴿الذين ظَلَمُوا﴾ هنا: هم الكَفَرَة، ويدخُلُ بالمعنى أَهْلُ المعاصي.

وقوله سبحانه: ﴿وأقم الصلاةَ طرفَي النَّهار ...﴾ الآية: لا خلاف أنَّ ﴿الصلاة﴾في هذه الآية يرادُ بها الصلواتُ المفروضةُ، واختلفَ في طرفَي النَّهار وزُلَفِ اللَّيْل، فقيل: الطَّرَف الأَوَّل: الصُّبْح، والثَّاني: الظُّهْر والعَصْر، والزُّلَف: المغرب والعشاء؛ قاله مجاهد وغيره[٣]، وروي عن النبيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ فِي المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ: «هُمَا زُلَفَتَا اللَّيْلِ»[٤] وقيل: الطَّرَفُ الأوَّل: الصبحُ، والثاني: العصر؛ قاله الحسن وقتادة[٥]، والزُّلَف: المغرب والعشاء، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول، بل هي في غيرها.

قال * ع[٦] *: والأول أحسن الأقوالِ عِنْدِي، ورجَّح الطبريُّ[٧] القوْلَ بأن الطرفين الصُّبْح والمغرب، وهو قول ابن عبَّاس وغيره، وإنه لظاهر، إلا أن عموم الصلوات الخمْسِ بالآية أَولَى، والزُّلَف: الساعاتُ القريبُ بعضُها من بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿إن الحسناتِ يذهبْنَ السيئاتِ﴾، ذهب جمهورُ المتأوِّلين من صَحَابَةٍ وتابعينَ إلى أن الحسناتِ يرادُ بها الصَّلواتُ الخَمْسُ، وإلى هذه الآية ذَهَبَ عثْمانُ رضي اللَّه عنه في وضوئه على المَقَاعِدِ، وهو تأويلُ مالك، وقال مجاهد: ﴿الحسنات﴾:

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٢٤) برقم: (١٨٦٢٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٢).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ١٢٤) برقم: (١٨٦٢١ - ١٨٦٢٢ - ١٨٦٢٣)، عن مجاهد برقم: (١٨٦٢٤)، عن محمد بن كعب القرظي، وبرقم: (١٨٦٢٦)، عن الضحاك، وذكر طرفاً منه، وأخرج طرفه الآخر (٧/ ١٢٧) برقم: (١٨٦٤٩ - ١٨٦٥٠ - ١٨٦٥١)، عن مجاهد وبرقم: (١٨٦٤٦ - ١٨٦٤٧ - ١٨٦٤٨)، عن الحسن، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٢)، والبغوي (٢/ ٤٠٤)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٦٣٧).

(٤) أخرجه الطبري في **«تفسيره»** (٧/ ١٢٨) برقم: (١٨٦٥٢) عن الحسن مرسلاً، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٦٣٧)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ١٢٥) برقم: (١٨٦٣٢ - ١٨٦٣٣ - ١٨٦٣٤ - ١٨٦٣٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٢)، والبغوي في **«تفسيره»** (٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٦٣٧) بنحوه.

(٦) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٢١٢).

(٧) ينظر: **«تفسير الطبري»** (٧/ ١٢٤ - ١٢٥).

قول الرجلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ للَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، واللَّهُ أَكْبَرُ[١].

قال * ع[٢] *: وهذا كلُّه إنما هو على جهة المِثَالِ في الحسنات، ومِنْ أجل أنَّ الصلواتِ الخمْسَ هي معظَمُ الأعمال، والذي يظهر أنَّ لفظ الآية عامٌّ في الحسنات، خاصٌّ في السيئات؛ بقوله عليه السلام: «مَا ٱجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»، وروي أنَّ هذه الآية نزلَتْ في رجلٍ من الأنصار، وهو أبو اليُسْرِ بْنُ عَمْرو، وقيل: اسمه عَبَّاد، خَلاَ بامرأةٍ، فقبَّلها، وتلذَّذ بها فيما دُونَ الجِمَاع، ثم جاء إلى عُمَر، فشكا إليه، فقال له: قَدْ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَٱسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ، فَقَلِقَ الرجُلُ، فجاء أبا بَكْر، فشكا إليه، فقال له مثْلَ مقالةِ عُمَرَ، فَقَلِقَ الرجُلُ، فأتى النبيَّ ﷺ، فَصَلَّى معه، ثم أخبره، وقال: ٱقْضِ فيَّ ما شِئْتَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّهَا زَوْجَةُ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟!» قَالَ: نَعَمْ، فَوَبَّخَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «مَا أَدْرِي»، فنزلَتْ هذه الآية، فَدَعَاهُ النبيُّ ﷺ، فَتَلاَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَهَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ فَقَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةً»[٣].

قال ابنُ العربيِّ في «**أحكامه**»[٤]: وهذا الحديثُ صحيحٌ، رواه الأئمةِ كلُّهم، انتهى.

قال * ع[٥] *: ورُوِيَ: أن الآية قدْ كَانَتْ نزلَتْ قبْلَ ذلك، واستعملها النبيُّ ﷺ في ذلك الرَّجُل، وروي أنَّ عمر قال مَا حُكِيَ عن معاذٍ، وفي الحديث عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَالصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا؛ إِنِ ٱجْتُنِبَتِ الكبائر»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٣١) برقم: (١٨٦٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣١٣).

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ١٢) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: «وأقم الصلاة طرفي النهار»، حديث (٥٢٦)، وفي (٨/ ٢٠٦) كتاب «التفسير» باب: «وأقم الصلاة طرفي النهار»، حديث (٤٦٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١١٥، ٢١١٧) وكتاب «التوبة» باب: قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، حديث (٣٩، ٤١/ ٢٧٦٣)، والترمذي (٥/ ٢٩١) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة هود، حديث (٣١١٤)، والنسائي في «التفسير» (٢٦٧)، وابن ماجه (١/ ٤٤٧) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة، حديث (١٣٩٨)، وفي (٢/ ١٤٢١) كتاب «الزهد» باب: ذكر التوبة، حديث (٤٢٥٤)، وأحمد (١/ ٤٤٥)، وابن خزيمة (٣١٣)، وابن حبان (١٧٢٩ ـ ١٧٣٠)، والطبري في «**تفسيره**» (١٨٦٧٦)، والبيهقي (٨/ ٢٤١) من طرق عن عبد الله بن مسعود.

(٤) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٧٣).

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ١٢٥ ـ ١٢٦) برقم: (١٨٦٣٢ ـ ١٨٦٣٣ ـ ١٨٦٣٤)، وذكره البغوي (٢/ ٤٠٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٢) بنحوه.

(٦) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿ذلك ذكرى﴾: إشارة إلى الصلوات، أي: هي سببُ الذكْرَى، وهي العظَةُ، ويحتملُ أنْ تكونَ إشارةً إلى الإخبار بأن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ.

/ ويحتملُ أنْ تكون إشارةً إلى جميعِ ما تقدَّم من الأوامر والنواهِي والقَصَص في هذه ٢٥٠ ب
السُّورة، وهو تفسيرُ الطبريِّ.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية...﴾ الآية، ﴿لولا﴾: هي التي للتحضيض، لكن، يقترن بها هنا مَعْنَى التفجُّع والتأسُّف الذي ينبغي أنْ يقع من البَشر عَلَى هذه الأُمَمِ التي لم تَهْتَدِ، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ﴾ [يٰس: ٣٠]، والقرون من قبلنا قومُ نوحٍ وعادٍ وثمود، ومَنْ تقدم ذكْرُهُ.

وقوله: ﴿أولوا بقية﴾: أي: أولو بقيةٍ مِنْ عقْلٍ وتمييزٍ ودينٍ، ﴿ينهون عن الفسادِ﴾ وإنما قيل: ﴿بقية﴾؛ لأن الشرائِعَ والدوَل ونَحْوَها، قوَّتُها في أولها، ثم لا تزال تَضْعُفُ، فمن ثَبَتَ في وقْتِ الضعْفِ، فهو بقيَّة الصدْرِ الأول.

و﴿الفَسَاد في الأرض﴾: هو الكُفر وما اَقْتَرَنَ به من المعاصي، وهذه الآيةُ فيها تنبيهٌ لهذه الأُمَّةِ وحضٌّ على تغيير المُنْكَر، ثم اَستثنَى عزَّ وجلَّ القوم الذين نَجَّاهم معَ أنبيائهم، وهم قليلٌ بالإضافة إلى جماعاتهم، و﴿قليلاً﴾ اَستِثْنَاءٌ مُنْقطعٌ، أي: لكن قليلاً ممن أنجينا منهم، نَهَوْا عن الفساد، و«المُتْرَف»: المنعَّم الذي شغلَتْهُ تُرْفَتُهُ عن الحَقِّ حتى هلك؛ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم﴾ منه سبحانه وتعالى عن ذلك، ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمة واحدة﴾: أي مؤمنة لا يَقَعُ منهم كُفر؛ قاله قتادة[1]، ولكنه عزَّ وجلَّ لم يشأْ ذلك، فهم لا يزالُونَ مختلفين في الأديان والآراءِ والمِلَلِ، هذا تأويل الجُمهورِ، ﴿إلا مَنْ رحم ربُّك﴾، أي: بأن هداه إلى الإيمان؛ وقوله تعالى: ﴿ولذلك خلقهم﴾: قَالَ الحَسَن: أي: ولِلاختلافِ خلقهم[2].

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٣٧) برقم: (١٨٧١٢) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٥)

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٣٩) برقم: (١٨٧٣٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٥) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٣/ ٦٤٥)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

قال * ع[(١)] *: وذلك أن اللَّه تعالى خلق خَلْقاً للسعادة، وخَلْقاً للشقاوةِ، ثم يَسَّر كُلاً لما خلق له، وهذا نصٌّ في الحديث الصحيحِ، وجعل بَعْد ذلك ٱلاختلاف في الدِّين على الحَقِّ هو أمارةَ الشقاوةِ، وبه علَّق العقابَ، فيصحُّ أَنْ يُحْمَلَ قولُ الحَسَن هنا: وللاختلافِ خَلَقُهُمْ، أي: لثمرة الاختلافِ، وما يكونُ عنه مِنْ شقاوةٍ أو سعادةٍ، وقال أَشْهَبُ: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، فقال: خَلَقَهُمْ؛ ليكونَ فريقٌ في الجنةِ، وفريقٌ في السعيرِ، وقيل غير هذا.

وقوله تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربك﴾ أي: نفذ قضاؤه، وحَقَّ أمره، واللام في ﴿لأَمْلأَنَّ﴾: لام قسم.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكُلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾، و«كُلاًّ» مفعولٌ مقدَّم بـ «نَقُصُّ»، و«ما» بدلٌ من قوله: «وكُلاًّ»، و﴿نثبت به فؤادك﴾ أي: نؤنسك فيما تلْقَاه، ونجعل لك الإِسْوَة.

﴿وجاءك في هذه الحق﴾ قال الحسنُ: ﴿هذه﴾ إشارة إِلى دار الدنيا[(٢)]، وقال ابن عباس: ﴿هذه﴾، إشارة إِلى السورة[(٣)]، وهو قولُ الجمهور.

قال * ع[(٤)] *: ووجه تخصيص هذه السُّورة بوَصْفها بحقٍّ، والقرآن كلُّه حق أنَّ ذلك يتضمَّن معنى الوعيد للكفَرَة، والتنبيهِ للنَّاظر، أي: جاءك في هذه السورة الحَقُّ الذي أَصَابَ الأُمَم الماضيةَ، وهذا كما يقالُ عند الشدائدِ: جَاءَ الحَقُّ، وإِن كان الحَقُّ يأتي في غَيْر الشدائدِ، ثم وصَف سبحانَه أنَّ ما تضمَّنته السورةُ هو موعظةٌ وذكْرَى للمؤمنينَ.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٥).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣) برقم: (١٨٧٥٧، ١٨٧٦١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٤٠٧)، وابن كثير (٢/ ٤٦٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٣/ ٦٤٦).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ١٤٤) برقم: (١٨٧٧٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٤٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٦).

وقوله سبحانه: ﴿وقل للذين لا يؤمنون ...﴾ الآية: آيةُ وعيدٍ.

وقوله تعالى: ﴿ولِلَّه غيب السمٰوات والأرض ...﴾ الآية: أية تعظيم وانفرادٍ بما لا حَظَّ لمخلوقٍ فيهِ، ثم أمر سبحانه العَبْدَ بِعِبَادَتِهِ، والتوكُّلِ عليه، وفيهما زوالُ هَمِّهِ وصَلاَحُهُ، ووصُولُهُ إلى رضوان اللّه تعالى، فقال: ﴿فاعبده وتوكَّل عليه ومَا ربُّك بغافل عما تعملون﴾، اللّهم اجعلْنَا مِمَّن توكَّل عليك، ووفِّقْهُ لِعَبَادَتِكَ كما ترضَى، وصلَّى اللّه على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً، والحمد لله على جزيلِ مَا بِهِ أَنْعَمَ.

تفسير سورة يوسف

هذه السورةُ مكِّيَّةٌ، والسبب في نزولها أنَّ اليهود أمروا كُفَّار مَكَّة؛ أَنْ يسألوا رسولَ اللَّه ﷺ عَنِ السبَبِ الذي أَحَلَّ بني إِسرائيل بِمِصْرَ، فنزلَتِ السورة.

وقيل: سبب نزولها تسليةُ النبيِّ ﷺ عمَّا / يفعله به قومُهُ بما فَعَلَ إِخوةُ يوسُفَ بيُوسُفَ، وسورةُ يُوسُفَ لم يتكرَّر مِنْ معانيها في القرآن شيء؛ كما تكرَّرت قصص الأنبياءِ، ففيها حُجَّةَ على مَنِ اعترض بأن الفصاحة تمكَّنت بتَرْدَادِ القَوْل، وفي تلك القَصَص حجَّةٌ
١٢٥١ على مَنْ قال في هذه: لَوْ كُرِّرتْ، لَفَتَرَتْ فَصَاحتُها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

وقولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿الٓر تلك آيات الكتاب المبين﴾ ﴿الكتاب﴾؛ هنا القرآن، ووصفه بـ ﴿المبين﴾ من جهة بيان أحكامه وحَلاَله وحرامِهِ ومَوَاعِظِهِ وهُدَاهُ ونُوره، ومِنْ جهة بيانِ اللسانِ العربيِّ وجودَتِهِ، والضميرُ في ﴿أنزلناهُ﴾: للكتاب، و﴿قرآناً﴾ حالٌ، و﴿عربيًّا﴾: صفةٌ له، وقيل: ﴿قُرآناً﴾: توطئةٌ للحال، و﴿عربيًّا﴾ حالٌ.

وقوله سبحانه: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص ...﴾ الآية: روى ابن مسعودٍ، أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ مَلُّوا مَلَّةً، فقالوا: لَوْ قَصَصْتَ علينا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ، ثم مَلُّوا ملَّةً أُخرَى، فقالوا: لَوْ حَدَّثْتَنَا، يَا رَسُولَ اللَّه، فنزلَتِ: ﴿اللَّهُ نزَّلَ أحْسَنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً[1] ...﴾ الآية [الزمر: ٢٣] و﴿القصص﴾: الإخبار بما جرَى من الأمور.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥)، وعزاه لابن جرير عن عون بن عبد اللَّه.

وقوله: ﴿بما أوحينا إليك﴾: أي: بوحينا إليك هذا، و﴿القرآن﴾: نعت لـ «هذا» ويجوز فيه البَدَلُ، والضمير في «قبله»: للقصص العامِّ؛ لما في جميع القرآن منه، و﴿من الغافلين﴾، أي: عن معرفة هذا القصص، وعبارةُ المَهْدَوِيِّ: قال قتادة: أي: نقصُّ عليك من الكُتُب الماضيةِ، وأخبارِ الأمم السالفةِ أحْسَنَ القصص؛ بوحينا إليك هذا القرآن، ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ عنْ أخبار الأمم، انتهى.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيتُ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾: قيل: إنه رأى كواكِبَ حقيقةً، والشمْسَ والقَمَرَ، فتأوّلها يعقوبُ إِخْوَتَهُ وأَبَوَيْهِ، وهذا هو قولُ الجمهور، وقيل: الإخوةُ والأبُ والخالةُ؛ لأنَّ أُمَّه كانتْ ميِّتة، وروي أن رُؤْيَا يوسُفَ خَرَجَتْ بَعْدَ أربعينَ سَنَةً، وقيل: بعد ثمانينَ سَنَةً.

وقوله: ﴿يا بنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كَيْداً﴾ مِنْ هنا ومِنْ فعْل إخوة يوسُفَ بيوسُفَ: يظهر أنَّهم لم يكُونوا أنبياءَ في ذلك الوقْتِ، وما وَقَعَ في «كتاب الطَّبريِّ» لابْنِ زَيْد؛ أنهم كانُوا أنبياءَ يردُّه القطْعُ بعصمة الأنبياءِ عن الحَسَدِ الدنيوي، وعن عقوقِ الآباءِ، وتعريض مؤمنٍ للهلاكِ، والتآمرِ في قتله.

﴿وكذلك يجتبيك ربُّك﴾: أي: يختارُكَ ويصطفيك.

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد وغيره: هي عبارةُ الرؤيا[1] وقال الحسن: هي عواقِبُ الأمور[2] وقيل: هي عامَّة لذلك وغيره من المغيَّبات.

﴿ويتم نعمته عليك . . .﴾ الآية: يريد بالنبوَّة وما انضاف إِلَيْها من سائر النِّعَم، ويروَى: أَنَّ يعقُوبَ عَلِمَ هَذا مِنْ دَعْوَة إِسْحَاقَ لَهُ حِينَ تشبَّه بـ «عِيصُو»، وباقي الآية بيِّن.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٥١) برقم (١٨٨٠٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٠)، وابن كثير (٣/ ٤٦٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٤/ ٧)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٠).

وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾؛ إذ كلُّ أحد ينبغي أنْ يسأل عن مثلِ هذا القصص، إذ هي مَقَرُّ العبر والاتعاظ؛ وقولهم: ﴿وأخوه﴾: يريدون به «يَامينَ»، وهو أصغر من يوسُفَ، ويقال له: «بِنْيَامِينُ» قيلَ: وهو شقيقه، ﴿أَحَبُّ إِلى أبينا منَّا﴾: أي: لصغرهما ومَوْتِ أُمهما، وهذا مِنْ حُبِّ الصغير هي فطرةُ البَشَر، وقولهم: ﴿ونحن عصبة﴾: أي: جماعة تضرُّ وتنفعُ، وتحمِي وتخذل، أي: لنا كَانَتْ تنبغي المحبَّة والمراعاةُ، والعُصْبَة في اللغة: الجماعةُ، وقولهم: ﴿لفي ضلال مبين﴾، أي: لفي ٱنتلافٍ وخطإٍ في محبَّة يوسُفَ وأخيه، وهذا هو معنى الضَّلال، وإنما يصغر قَدْرُهُ، ويعظُم بحَسَبِ الشَّيء الذي فيه يَقَعُ ٱلانتلافُ، و﴿مبين﴾: معناه: ظاهر للمتأمِّل، وقولهم: ﴿أو ٱطرحوه / أرضاً﴾: أي: بأرضٍ بعيدةٍ؛ فـ «أَرْضاً» مفعولٌ ثانٍ بإسقاط حرف الجرِّ، والضمير في ٢٥١ ب
«بعده» عائدٌ على يوسُفَ، أو قتلِه، أو طرحِهِ، ﴿وصالحين﴾: قال مقاتل وغيره: إنهم أرادوا صلاَحَ الحالِ عند أبيهم[١]، والقَائِلُ منهم: «لا تقتلوه» هو: «رُوبِيلُ» أسنُّهم؛ قاله قتادة[٢] وابنُ إسحاق، وقيل: هو شَمْعُونُ؛ قاله مجاهد[٣]، وهذا عطْفٌ منه على أخيه لا محالَةَ؛ لما أراد اللَّه من إنفاذ قضائه، و«الغيابة»: ما غاب عنك، و﴿الجُبُّ﴾ البئر التي لم تُطْوَ؛ لأنها جُبَّتْ من الأرض فقطْ، قال المَهْدَوِيُّ: والجُبُّ؛ في اللغة: البئر المقطوعة التي لم تُطْوَ، انتهى. والـ ﴿سيارة﴾: جمعُ سَيَّارٍ، وروي أن جماعةً من الأعرابِ ٱلتقطَتْ يوسُفَ عليه السلام.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . . .﴾ الآية المتقدِّمة تقتضي أن أباهم قد كان عَلِمَ منهم إرادتهم السُّوءَ في جهة يوسُفَ، وهذه

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٢)
(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٥٣) برقم: (١٨٨١١)، وبرقم: (١٨٨١٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٢)، والبغوي (٢/ ٤١٢).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٢).

الآية تقتضِي أنهم علموا هُمْ منه بعلمه ذلك، وقرأ أبو عامر[١] وابنُ عمرو: «نَرْتَعْ ونَلْعَبْ» ـ بالنون فيهما وإِسكانِ العينِ والباءِ ـ، و«نَرْتَع»؛ على هذا: من الرُّتُوعِ، وهي الإِقامة في الخِصْب والمرعى في أكْلٍ وشربٍ، وقرأ ابن كثير: «نَرْتَعِ ونَلْعَبْ» ـ بالنونِ فيهما وكَسْرِ العين وإسكان الباء ـ، وقد رُوِيَ عنه «ويَلْعَبْ» ـ بالياء ـ و«نَرْتَع» على هذا: من رِعَاية الإِبَل. وقال مجاهد: من المُرَاعاة، أي: يرعَى بعضُنا بعضاً، ويحرسُه[٢]، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: «يرتَع وَيَلْعَبْ» بإسناد ذلك كلّه إلى يوسف، وقرأ نافع «يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ»، فـ «يَرْتَعِ»؛ على هذا: من رعاية الإبل، قال أبو علي: وقراءة ابنِ كثيرٍ «نَرْتَعَ» ـ بالنون ـ و«يَلْعَبْ» ـ بالياء ـ: منزعها حَسَنٌ؛ لإِسناد النظر في المال، والرعايةِ إِليهم، واللعب إلى يوسف لصباه، ولعبُهُمْ هذا داخلٌ في اللعبِ المباحِ والمندوبِ كاللعب بالخيلِ والرمْي؛ وعلَّلوا طلبه والخروجَ به بما يمكنُ أنْ يَستهوِيَ يوسُفَ لصبَاه مِنَ الرتوع واللعِبِ والنَّشَاطِ، وإنما خافَ يعقُوبُ عليه السلام الذئبَ دون سواه، وخصَّصه؛ لأنه كَانَ الحيوانَ العَادِيَ المنبَثَّ في القُطْر، ولصغَرِ يوسُفَ، و﴿أجمعوا﴾: معناه: عَزَموا.

وقوله سبحانه: ﴿وأوحينا إِليه﴾ يحتمل أن يكون الوحْيُ إلى يوسُف حينئذٍ برسولٍ، ويحتملُ أنْ يكون بإلهامٍ أو بنومٍ، وكلُّ ذلك قد قيل، وقرأ الجمهور[٣]: «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ» بالتاء من فوق.

وقوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾: قال ابن جُرَيْج: معناه: لا يشعُرُونَ وقْتَ التنبئةِ؛ أنَّكَ يوسف[٤]، وقال قتادة: لا يشعرُونَ بوَحْينا إِليك[٥].

---

(١) الصواب فيهما أبو عمرو، وابن عامر، ولعله سبق قلم من المصنف أو الناسخ.
وقد قرأ بقراءتهما ابن كثير، وحجتهم هي قولهم بعد: ﴿إنا ذهبنا نَسْتَبِقُ﴾، فكأنهم أسندوا جميع ذلك إلى جماعتهم إذا أسندوا الاستباق، فقيل لأبي عمرو: فكيف يلعبون وهم أنبياء اللّٰه؟ فقال: إذ ذاك لم يكونوا أنبياء اللّٰه.
ينظر: «**السبعة**» (٣٤٥ ـ ٣٤٦)، و«**الحجة**» (٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٣٠٣)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، و«**العنوان**» (١١٠)، و«**إتحاف**» (٢/ ١٤١).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٥٦) برقم: (١٨٨٣٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٤).

(٣) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٢٥)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٢٢٨)، و«**الدر المصون**» (٤/ ١٦٢).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ١٥٩) برقم: (١٨٨٥٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٥).

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ١٥٨) برقم: (١٨٨٤٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٦)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٤٧١)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» ((٤/ ١٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

وقوله: ﴿وجاءو وأباهم عشاء يبكون﴾: أي: وقتَ العشاءِ، وقرأ الحسن: «عُشى»[(١)]؛ على مثال «دُجىً»، جمع «عاشٍ»، ومعنى ذلك: أصابهم عشى من البكاء أو شبه العَشَى، إذ كذلك هي عَيْنُ الباكي؛ لأنه يتعاشَى، ومثَّل شُرَيْح آمرأةً بكَتْ، وهي مبطلة ببكاءِ هؤلاءِ؛ وقرأ الآية، و﴿نَسْتَبِق﴾: معناه: على الأقدام، وقيل: بالرمْي، أي: نَنْتَضِلُ، وهو نوعٌ من المسابقة؛ قاله الزَّجَّاج، وقولهم: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾: أي بمصَدِّق لنا، ﴿ولو كنا صادقين﴾، أي: ولو كنا موصوفين بالصِّدْقِ، ويحتمل أنْ يكون قولهم: ﴿ولو كنا صادقين﴾: بمعنى: وإن كنا صادقِينَ في معتَقَدِنا.

وقوله سبحانه: ﴿وجاءو وعلى قميصه بدم كَذِبٍ﴾: روي أنهم أَخَذُوا سَخْلَةً أَوْ جَدْياً، فذبحوه، ولَطَّخُوا به قميصَ يُوسُفَ، وقالوا لَيعقوب: هذا قميصه، فأخذه وبكَى ثم تأمَّله، فلم يَرَ خرَقاً، ولا أثر نابٍ؛ فٱستدلَّ بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئبُ حليماً يأكُلُ يوسُفَ، ولا يخرق قميصَهُ؛ قصَّ هذا القَصَصَ ابن عباس وغيره[(٢)]، وأجمعوا على أنه ٱستدلَّ على كذبهم بصحَّة القميصِ، وٱستَنَدَ الفقهاءُ إِلى هذا في إِعْمَالِ الأماراتِ في مسائِلَ؛ كالقَسَامة[(٣)] بها في قول مالكٍ إِلى غير ذلك. قال الشعبيُّ: كان في القميصِ ثلاثُ

---

(١) قال أبو الفتح: وكان قياسه عُشَاةٌ كماش ومُشَاة، إلا أنه حذف الهاء تخفيفاً وهو يريدها، كقوله:
أبلغ النعمان عني مألكا أنه قد طال حبسي وانتظار
أراد مألكة، فحذف الهاء.
ينظر: **«المحتسب»** (١/ ٣٣٥)، و**«المحرر الوجيز»** (٣/ ٢٢٦)، و**«البحر المحيط»** (٥/ ٢٨٨)، و**«الدر المصون»** (٤/ ١٦٢). وهي من **«شواذ ابن خالويه»** ص: (٦٧)، «عُشاء» بالمد منسوبة للحسن والأعمش.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٦١) برقم: (١٨٨٧١)، ورقم: (١٨٨٦٥ ـ ١٨٨٦٦ ـ ١٨٨٦٧)، وبرقم: (١٨٨٦٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٧)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١٦)، وعزاه إلى الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) القَسَامَةُ: في اللغة مأخوذة من القَسَم، وهو اليمين، والقَسَامَةُ الأَيْمَانُ تقسم على أولياء القتيل إذا ادّعوا الدم، يقال: قتل فلان بالقسامة إذا اجتمعت جماعة من أولياء القتيل، فادّعوا على رجل أنه قتل صاحبهم، ومعهم دليل دون البَيِّنة فكلفوا خمسين يميناً أن المدعى عليه قتل صاحبهم.
وفي اصطلاح الفقهاء هي الأيمانُ المُكَررة في دعوى القتل.
ذهب جمهور الفقهاء إلى أن القَسَامَةَ مشروعة، وقد استدلّوا على ذلك بأحاديث منها: ما روي عن سَهل بن أبي حثمة قال: انطلق عَبْدُ اللَّه بن سهل، ومحيصة بن مسعود إلى «خيبر» وهي يومئذ صلح،

آيات: دلالتُهُ على كذبهم، وشهادَتُهُ في قَدِّه، ورَدُّ بَصَرِ يَعقُوبَ به، ووصف الدَّم بالكَذِبِ الَّذي هو مَصْدَرٌ على / جهة المبالغةِ، ثم قال لهم يعقوب: ﴿بل سوَّلت لكم﴾، أي: ١٢٥٢أ
رَضِيَتْ وجَعَلَتْ سؤلاً ومراداً ﴿أمراً﴾، أي: صنعاً قبيحاً بيوسف(١).

وقوله: ﴿فصبر جميل﴾: إما على حذف المبتدأ، أي: فشأني صبرٌ جميلٌ، وإما على حَذْفِ الخبر، تقديره: فصبرٌ جميلٌ أَمْثَلُ، وجميلُ الصَّبْرِ: ألاَّ تقع شَكْوَى إلى البشر، وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ بَثَّ، لَمْ يَصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً»(٢).

وقوله: ﴿واللَّه المستعان على ما تصفون﴾: تسليم لأمر اللَّه تعالى، وتوكُّل عليه.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم﴾: قيل: إن السيارة جاءَتْ في اليومِ الثاني من طرحه، و«السيارةُ»: بناءُ مبالغةٍ للذين يردِّدون السيْرَ في الطُّرق.

قال * ص *: و«السَّيَّارَة»: جمع سَيَّار، وهو الكثيرُ السَّيْر في الأرض. انتهى.
و«الوَارِد»: هو الذي يأتي الماءَ يستَقِي منه لجماعته، وهو يَقَعُ على الواحدِ وعلى الجَمَاعَةِ.

= فتفرقا، فأتى محيّصة إلى عبد اللَّه بن سهل وهو يتشحّط في دَمِهِ قتيلاً، فدفنه، ثم قدم «المدينة» فانطلق عبدُ الرحمٰنُ بن سهل ومحيّصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبد الرحمٰن يتكلّم فقال ﷺ: «كبر كبر» وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما، فقال: «أتحلفون وتستحقُّون دم صاحبكم»، فقالوا: كيف نحلف ولم نشهد ولم نر، قال: «فتبرئكم يهود بخمسين يميناً»، فقالوا له: كيف نأخذ بأيمان قوم كفّار، فعقله النبي ﷺ من عنده.
وفي رواية متفق عليها قال ﷺ: «يقسم خمسون منكم على رَجُلٍ منهم، فيدفع برمته»، فقالوا: أمر لم نشهده كيف نحلف؟، قال: «فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم»، قالوا: يا رسول اللَّه قوم كفار، الحديث. فقوله ﷺ: «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم» دليل على مشروعية القَسَامَةَ، وإلى هذا ذهب جمهور الصحابة والتابعين، والعلماء، من «الحجاز» و«الكوفة» و«الشام»، كما حكى ذلك القاضي عِيَاضٌ، ولم يختلفوا في الجُملة، ولكن اختلفوا في التفاصيل.

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٦١ - ١٦٢)، برقم: (١٨٨٧٢ - ١٨٨٧٣ - ١٨٨٧٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٧)، وعزاه للشافعي.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٨٤) برقم: (١٩٧٣٨)، عن مسلم بن يسار به وذكره السيوطي في =

ورُوِيَ أنَّ مُدْلِيَ الدَّلْو كان يسمَّى مَالِكَ بْنَ دعر، ويروَى أنَّ هذا الجُبَّ كان بالأُرْدُنِّ على ثلاثةِ فراسِخَ من منزل يَعْقُوبَ، ويقال: أدلَى دلْوَهُ؛ إذا ألقاه ليستقِيَ الماءَ، وفي الكلام حذفٌ، تقديره: فتعلَّق يوسُفُ بالحَبْل، فلما بَصُرَ به المُدْلِي، قال: ﴿يا بُشْرَايَ﴾، ورُوِيَ أنَّ يوسُفَ كان يومئذٍ ابنَ سَبْعَ سِنينَ؛ ويرجِّح هذا لفظةُ ﴿غلام﴾؛ فإنها لِمَا بَيْنَ الحولَيْن إِلى البلوغ، فإن قيلتْ فيما فَوْقَ ذلك، فعلى ٱستصحابِ حالٍ، وتجوُّزٍ، **وقرأ** نافعٌ[1] وغيره: «يا بُشْرَايَ» بإضافةِ البُشْرَى إلى المتكلِّم، وبفتح الياء على ندائها؛ كأنه يقولُ: ٱحْضُرِي، فهذا وَقْتُكِ، **وقرأ** حمزة والكسائي: «يَا بُشْرى»، ويميلاَنِ ولا يضيفَانِ، **وقرأ** عاصمٌ كذلك إلاَّ أَنه يفتح الراءَ ولا يُمِيلُ، واختلف في تأويل هذه القراءة، فقال السدي: كان في أصحاب هذا الوارد رَجُلٌ ٱسمه «بُشْرَى»؛ فناداه، وأعلمه بالغلام[2]، وقيل: هو على نداءِ البُشْرَى؛ كما قدَّمنا.

وقوله سبحانه: ﴿وأسروه بضاعةً﴾ قال مجاهد: وذلك أنَّ الوُرَّاد خَشُوا من تُجَّار الرفْقة، إنْ قالوا وجدْنَاه؛ أنْ يشاركوهم في الغُلاَمِ الموجُودِ، يعني: أو يمنعوهم من تملُّكه[3]، إن كانوا أخياراً، فأسروا بينهم أنْ يقولُوا: أَبْضَعَهُ مَعَنَا بعْضُ أهْلِ المِصْرِ، و«بِضَاعةً»: حالٌ، والبضاعة: القطعةُ من المالِ يُتْجَرُ فيها بِغَيْرِ نصيبٍ من الرِّبْحِ؛ مأخوذٌ من قولهم: «بَضْعَة»؛ أي: قطعة، وقيل: الضمير في «أَسَرُّوه» يعود على إِخوة يوسف.

وقوله سبحانه: ﴿وشروه بثمن بخس﴾: «شروه»؛ هنا: بمعنى بَاعُوه، قال الداووديُّ: وعن أبي عُبَيْدة: ﴿وشروه﴾ أي: باعوه، فإذا ٱبْتَعْتَ أَنْتَ، قُلْتَ: ٱشْتَرَيْتُ

= **«الدر المنثور»** (٤/ ٥٩)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق. وله شاهد من حديث ابن عمر، بلفظ: «من كنوز البر إخفاء الصدقة وكتمان المصائب والأمراض ومن بث لم يصبر»، ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»**، وعزاه إلى ابن عدي، والبيهقي في **«شعب الإيمان»**.

(١) وقراءة الباقين فيها وجهان: أحدهما: أنهم جعلوه اسم رجل، فيكون دعا إنساناً اسمه بشرى. وحجتهم ما قد روي عن جماعة من المفسرين أنهم قالوا: كان اسمه «بشرى»، فدعاه المستقي باسمه.
والثاني: أن يكون أضاف البشرى إلى نفسه، ثم حذف الياء، كما تقول: يا غُلامُ لا تفعل، يكون مفرداً بمعنى الإضافة.
ينظر: **«حجة القراءات»** (٣٥٧)، و**«السبعة»** (٣٤٨)، و**«الحجة»** (٤/ ٤١٠)، و**«إعراب القراءات»** (١/ ٣٠٦)، و**«شرح الطيبة»** (٤/ ٣٨٠)، و**«العنوان»** (١١٠)، و**«شرح شعلة»** (٤٣٧)، و**«إتحاف»** (٢/ ١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٦٤) برقم: (١٨٨٩١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ١٦٥ ـ ١٦٦) برقم: (١٨٨٩٩، ١٨٩٠٢)، والبغوي في **«تفسيره»** (٢/ ٤١٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٩).

انتهى، وقال ابن العربيّ في «**أحكامه**»[(١)]: قوله تعالى: ﴿وشروه بثمن بَخْس﴾: يقال: ٱشتريْتُ بمعنى بِعْتُ، وَشَرَيْتُ بمعنى ٱشتريْتُ؛ لغة انتهى، وعلى هذا، فلا مانِعَ مِنْ حمل اللفظ على ظاهره، ويكون «شَرَوْهُ» بمعنى: «ٱشتروه».

قال * ع[(٢)] *: روي أن إخوة يُوسُفَ لمَّا علموا أن الوُرَّاد قد أخذوه جاؤوهم، فقالوا: هذا عَبْدٌ قد أَبَقَ منا، ونحنُ نبيعُهُ منكم، فقارَّهم يوسُفُ على هذه المقالة؛ خوفاً منهم، ولينفذ اللَّه أمره، والـ ﴿بَخْس﴾: مصدر وُصِفَ به الثمن، وهو بمعنى النَّقْصِ.

وقوله: ﴿دراهم معدودةٍ﴾: عبارةٌ عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم، لم تبلغْ أنْ توزَنَ لقلَّتها، وذلك أنهم كانوا لا يزنُونَ ما كان دون الأوقية، وهي أربعون درهماً.

وقوله سبحانه: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: وصفٌ يترتب في إخوة يوسف، وفي الوُرَّاد، ولكنَّه في إخوة يوسف أرتَبُ؛ إذ حقيقة الزهْدِ في الشيء إخراجُ حُبِّه من القَلْبِ ورَفْضُهُ من اليدِ، وهذه كانَتْ حالَ إخوة يوسُفَ في يوسُفَ، وأمَّا الورَّاد، فإنَّ تمسُّكَهم به وتَجْرَهُمْ يمانِعُ زُهْدَهم إلا على تجوُّزٍ، قال ابن العربيّ في «**أحكامه**»[(٣)]: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: أي: إخوته والواردة، أما إخوته؛ فلأنَّ مقصودهم زوالُ عَيْنِه، وأما الواردة، فلأنهم خافوا ٱشتراكَ أصحابهم معهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾: روي أنَّ مبتاع يوسُفَ وَرَدَ به مصْرَ البلدِ المعروفِ؛ ولذلك لا ينصرفُ، فَعَرَضَهُ في السُّوقِ، وكان أجْمَلَ الناس، فوقَعَتْ فيه مزايدةٌ / حتى بلغ ثمناً عظيماً، فقيل: وزنه من ذهبٍ، ومن ٢٥٢ ب
فضةٍ، ومن حريرٍ، فٱشتراه العزيزُ، وهو كان حَاجِبَ المَلِكِ وخازِنَه، وٱسْمُ المَلِك الرَّيَّانُ بْنُ الوَلِيدِ، وقيل: مُصْعَبُ بْنُ الرَّيَّانِ، وهو أحد الفراعِنَةِ، واسْمُ العزيزِ المذْكُورِ: «قطيفين»؛ قاله ابن عباس، وقيل: «أظفير»، وقيل: «قنطور»، وٱسم امرأته: «رَاعيل»، قاله ابنُ إسحاق، وقيل: «زُلَيْخا»، قال البخاريُّ: و﴿مثواه﴾: مَقَامُهُ.

وقوله: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي: نتبنَّاه، وكان فيما يُقَالُ: لا ولد له، ثم قال تعالى: ﴿وكذلك﴾، أي: وكما وصفنا ﴿مكَّنا ليوسُف في الأرض ولنعلمه﴾ فعلنا ذلك، و﴿الأحاديث﴾: الرؤيا في النومِ؛ قاله مجاهد، وقيل: أحاديث الأنبياء والأمم، والضمير

---

(١) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٧٩).
(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٢٩).
(٣) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٧٩).

في «أمره» يحتمل أنْ يعودَ على يوسف؛ قاله الطبري[(١)]، ويحتملُ أن يعود على اللَّهِ عزَّ وجلَّ؛ قاله ابن جُبَيْر، فيكون إِخباراً منبِّهاً على قدرة اللَّه عزَّ وجلَّ ليس في شأن يوسُفَ خاصَّة، بل عامًّا في كل أمر، و«الأَشُدَّ»: ٱستكمال القوة وتناهِي بِنْيَةِ الإِنسان، وهما أَشُدَّان: أولهما، البلوغ، والثاني: الذي يستعمله العرب.

وقوله سبحانه: و﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾: يحتمل أن يريد بالحُكْم: الحكمة والنبوَّة، وهذا على الأَشُدِّ الأعلَى، ويحتملُ أن يريد بالحُكْم: السلطانَ في الدنيا وحكماً بين الناس، وتدخُلُ النبوَّة وتأويلُ الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وعلماً﴾، وقال ابن[(٢)] العربيِّ: ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾: الحُكْم: هو العَمَلُ بالعلْمِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: عبارةٌ فيها وعد للنبيِّ ﷺ، أي: فلا يهولَنَّكَ فعل الكَفَرة وعتوّهم عليك، فاللَّه تعالى يصنع للمحْسِنِين أجْمَلَ صنع.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾: المراودة: الملاطفةُ في السُّوق إلى غرضٍ، و﴿التي هو في بيتها﴾ هي زُلَيْخَا امرأةُ العزيز، وقوله: ﴿عن نفسه﴾: كنايةٌ عن غرض المواقعة، وظاهرُ هذه النازلة أنها كانَتْ قبل أنْ ينبَّأ عليه السلام، وقولها: ﴿هَيْتَ لك﴾: معناه: الدُّعاء، أيْ: تعالَ وأقْبِلْ عَلَى هَذا الأمْرِ، قال الحَسن: معناها: هَلُمَّ، قال البخاريُّ: قال عكرمةُ: ﴿هَيْتَ لك﴾ بالحُورَانِيَّةِ: هَلُمَّ.

وقال ابن جبير: تَعَالَهْ، انتهى.

وقرأ هشام عن ٱبْنِ عامر[(٣)]: «هِئْتُ لَكَ» ـ بكسر الهاءِ والهمزِ وضمِّ التاء ـ، ورويت عن أبي عَمْرو، وهذا يحتملُ أنْ يكون من هَاءَ الرجُلُ يَهِيءُ، إذا حَسن هيئته، ويحتمل أنْ يكون بمعنى: تَهَيَّأْتُ، و﴿معاذ﴾: نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أعوذ باللَّهِ، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ١٧٤).
(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٨٢).
(٣) ينظر: «السبعة» (٣٤٧)، و«الحجة» (٤/ ٢٣)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٠٧)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٨٠)، و«العنوان» (١١٠)، و«شرح شعلة» (٤٣٨)، و«إتحاف» (٢/ ١٤٣)، و«حجة القراءات» (٣٥٨).

قال: ﴿إنه ربي أحْسَنَ مثوايَ﴾، فيحتمل أن يعود الضمير في «إنه» على اللّهِ عزَّ وجلَّ، ويحتمل أنْ يريد العزيزَ سيِّدَهُ، أي: فلا يصلح لي أنْ أخونه، وقد أكْرَمَ مثواي، وٱئتمنَنِي، قال مجاهد وغيره: «رَبِّي» معناه سَيِّدي[1] وإذا حفظ الآدميّ لإحسانه فهو عمل زَاكٍ، وأحرى أن يحفظ ربه، والضمير في قوله: ﴿إنه لا يلفح﴾ مرادٌ به الأمر والشأن فقطْ، وحكى بعض المفسِّرين أنَّ يوسُفَ عليه السلام لمَّا قال: مَعَاذَ اللّهِ، ثم دافَعَ الأمْرَ بٱحتجاجٍ وملاينةٍ، ٱمتحنَهُ اللّه تعالى بالهَمِّ بما هَمَّ به، ولو قال: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا باللّهِ، ودافَعَ بِعُنْفٍ وتغييرٍ، لم يَهِمَّ بشيء من المَكْروه.

وقوله سبحانه: ﴿وهم بها﴾: ٱختلف في هَمِّ يوسُفَ.

قال * ع[2] *: والذي أقولُ به في هذه الآية: أَنَّ كَوْنَ يوسُفَ عليه السلام نبيًّا في وقت هذه النازلة لم يصحَّ، ولا تظاهَرَتْ به روايةٌ، فإذا كان ذلك، فهو مؤمنٌ قد أوتِيَ حكماً وعلماً، ويجوز عَلَيْه الهَمُّ الذي هو إرادةُ الشيْءِ دون مواقَعَتِهِ، وأنْ يستصحب الخَاطِرَ الرديءَ؛ علَى ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضْنَاه نبيًّا في ذلك الوقْتِ، فلا يجوز عليه عندي إلاَّ الهَمُّ الذي هو الخاطرُ، ولا يصحُّ عندي شيْءٌ مما ذكر من حَلِّ تِكَّةٍ، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ العِصْمة مع النبوَّة، ولِلَهمِّ بالشيْءِ مرتبتانِ، فالخاطرُ المجرَّد دون ٱستصحابٍ يجوزُ عليه، ومع استصحابٍ لا يَجُوزُ عليه؛ إذ الإجماع منعقدٌ أَنَّ الهَمَّ بالمعصية واستصحابَ التلذُّذ بها غير جائزٍ، /ولا داخِلٍ في التجاوُزِ. ٢٥٣أ

* ت *: قال عياضٌ: والصحيحُ إن شاء اللّه تنزيهُهُمْ أيضاً قبل النبوَّة مِنْ كُلِّ عيْبٍ، وعصمتُهُم مِنْ كُلِّ ما يوجبُ الرِّيْب، ثم قال عياضٌ بعد هذا: وأما قولُ اللّه سبحانه: ﴿ولقد هَمَّت به وهم بها لولا أنْ رأى برهان ربِّه﴾، فعلى طريق كثيرٍ من الفقهاء والمحدِّثين؛ أنَّ همَّ النفس لا يؤاخذ به، وليس بسيِّئة، لقوله عليه السلام عن ربِّه: «إذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً»[3]؛ فَلاَ مَعْصِيَةَ في همه إذَنْ، وأما علَى مذهب المحقِّقين من الفقهاء والمتكلِّمين، فإن الهمَّ إذا وُطِّنَتْ عليه النفسُ سيئةٌ، وأما ما لم توطِّن عليه النفس مِنْ همومها وخواطرها، فهو المعفوُّ عنه، وهذا هو الحقُّ، فيكون إن شاء اللّه هَمُّ يوسُفَ من هذا، ويكونُ قوله: ﴿وما أُبَرِّىء نفسي ...﴾ الآية [يوسف: ٥٣]: أي:

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ١٨٠) برقم: (١٩٠١٤ ـ ١٩٠١٥ ـ ١٩٠١٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٣٣)، والسيوطي (٤/ ٢٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣٤).

(٣) تقدم تخريجه.

مِن هذا الهَمِّ، أو يكون ذلك مِنْهُ على طريق التواضُع. انتهى.

واختلف في البُرْهَان الذي رآه يوسُفُ، فقيل: ناداه جبريلُ: يا يوسُفُ، تَكُونُ في ديوانِ الأنبياءِ، وتفعلُ فِعْلَ السفهاءِ، وقيل: رأى يعقوبَ عَاضًا علَى إبهامه، وقيل غير هذا، وقيل: بل كان البرهَانُ فِكْرَتَهُ في عذابِ اللّهِ وَوَعِيدِهِ على المعصية، والبرهانُ في كلام العرب: الشيء الذي يُعْطِي القطْع واليَقِينَ، كان مما يَعلَمُ ضرورةً أو بخبرٍ قطعيٍّ أو بقياسٍ نظريٍّ «وأنْ» في قوله: ﴿لولا أنْ رأى﴾ في موضع رفع، تقديره: لولا رؤيته برهانَ رَبِّه، لَفَعَلَ، وذَهَبَ قومٌ إلى أنَّ الكلامَ تَمَّ في قوله: ﴿ولقدْ هَمَّتْ به﴾، وأن جواب «لولا» في قوله: ﴿وهم بها﴾، وأن المعنى: لولا أنْ رأَى البرهان لَهَمَّ، أي: فلم يهمَّ عليه السلام، وهذا قولٌ يردُّه لسانُ العربِ، وأقوالُ السلَفِ * ت *: وقد ساقَ عيَاضٌ هذا القولَ مساق ٱلاحتجاجِ به متَّصلاً بما نقَلْناه عنه آنفاً، ولفظه: فكيف، وقَدْ حكَى أبو حاتمٍ عن أبِي عُبَيْدة، أن يوسفَ لم يَهِمَّ، وأنَّ الكلام فيه تقديمٌ وتأخير، أي: ولقد همَّتْ به، ولوْلا أنْ رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، وقد قال اللّه تعالى عن المرأة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، [يوسف: ٢٣]وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ . . .﴾ الآية. انتهى. وكذا نقله الداوودي ولفظه: وقد قال سعيدُ بْنَ الحَدَّاد: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، ومعناه: أنه لولا أنْ رأى برهان ربِّه لَهَمَّ بها، فلمَّا رأى البرهان لم يَهِمَّ، انتهى. قال ابن العربيِّ في «**أحكامه**»[1]: وقد أخبر اللّه سبحانه عن حالِ يوسُفَ من حين بلوغه بأنه آتاه حكماً وعلماً، والحُكْم: هو العمل بالعلم، وكلامُ اللّه صادِقٌ، وخبره صحيحٌ، ووصفه حَقٌّ، فقد عَمِلَ يوسُفُ بما عَلَّمه اللّه من تحريم الزنا، وتحريم خيانةِ السيِّد في أهْله، فما تعرَّض لامرأةِ العزيز، ولا أناب إلى المُرَاودة، بل أَدْبَرَ عنها، وفَرَّ منها؛ حِكْمَةٌ خُصَّ بها، وعملٌ بما علَّمه اللّه تعالى، وهذا يطمس وُجُوهَ الجَهَلَةِ مِنَ النَّاس والغَفَلَةِ من العلماءِ في نسْبتهم إلى الصِّدِّيقِ ما لا يليقُ، وأقلُّ ما اقتحموا مِنْ ذلك هَتْكُ السراويلِ، والهَمُّ بالفَتْكِ فيما رَأَوْهُ من تأويلٍ، وحاشاه من ذلك، فما لهؤلاء المفسِّرين لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً؛ يقولون: فَعَلَ فَعَلَ، واللّه تعالى إنما قال هَمَّ بها، قال علماء الصوفيَّة: إن فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً . . .﴾ [يوسف: ٢٢] أن اللّه عزَّ وجلَّ أعطاه العلْمَ والحكْمة؛ بأن غلب الشهوة؛ ليكون ذلك سبباً للعصْمَة، انتهى.

والكافُ من قوله تعالى: ﴿كذلك لنصرفَ عنه السوء﴾: متعلِّقةٌ بمضمرٍ، تقديره: جَرَتْ أفعالنا وأقدارنا كذلك؛ لنصرفَ، ويصحُّ أن تكون الكافُ في موضِعِ رفعٍ بتقديرِ

---

(١) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٨٢).

عصمَتُنا له كَذلك، وقرأ ابن كثير وغيره: «المُخْلِصِينَ» - بكسر اللام[(١)] - في سائر القرآن، ونافع وغيره بفَتْحها.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿واستبقا الباب ...﴾ الآية: معناه: سَابَقَ كُلُّ واحدٍ منهما صاحبه إلى البابِ، هي لتردَّه إلى نفسها، وهو ليهرُبَ عنها، فقبضَتْ في أعلى قميصِهِ، فتخرَّق القميصُ عند طَوْقِهِ، ونَزَلَ التخريقُ إلى أسفلِ القميصِ، قال البخاريُّ: ﴿وألفيا﴾: أي: وَجَدَا؛ ﴿أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ﴾ [الصافات: ٦٩]: وجدوهم. انتهى، و«القَدُّ»: القطْع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طُولاً، والقَطُّ: يستعمل فيما كان /عَرْضاً، و﴿ألفيا﴾: وجدَا، والسيِّد: الزوْج؛ قاله زيد بن ثابتٍ ومجاهدٌ[(٢)]. ٢٥٣ ب

وقوله سبحانه: ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ...﴾ الآية: قال نَوْفٌ الشاميُّ: كان يوسُفُ عليه السلام لم يُبِنْ على كشف القصَّة، فلما بَغَتْ عليه، غَضِبَ، فقال الحقَّ، فأخبر أنها هي راوَدَتْه عَنْ نفسه، فرُوِيَ أن الشاهد كان ٱبْنَ عَمِّها، قال: انظروا إلى القميص، وقال ابن عباس: كان رجلاً من خاصَّة الملك[(٣)]؛ وقاله مجاهد[(٤)] وغيره، والضمير في «رأى» هو للعزيز، وهو القائلُ: ﴿إنه من كيدكُنَّ﴾؛ قال الطبريُّ[(٥)]، وقيل: بل

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر، وجعلوها اسم فاعل؛ لقوله تعالى: ﴿مخلصاً له ديني﴾ [الزمر: ١٤]. ينظر: «**السبعة**» (٣٤٨)، و«**الحجة**» (٤/ ٤٢١)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٣٠٩)، و«**حجة القراءات**» (٣٥٨)، و«**العنوان**» (١١٠)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٣٨٢)، و«**شرح شعلة**» (٤٣٩)، و«**إتحاف**» (٢/ ١٤٥).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١٩٠) برقم: (١٩١٠٣) وبرقم: (١٩١٠٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٣٥)، والسيوطي (٤/ ٢٥). وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ١٩٢) برقم: (١٩١٢٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٣٦)، وابن كثير (٢/ ٤٧٥)، والسيوطي (٤/ ٢٦)، وعزاه للفريابي، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ١٩٢) برقم: (١٩١٢٥ - ١٩١٢٦ - ١٩١٢٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٢٢)، وابن عطية(٣/ ٢٣٦)، وابن كثير (٢/ ٤٧٥).

(٥) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٧/ ١٩٤).

الشاهدُ، قال ذلك، ونَزَعَ بهذه الآية مَنْ يرى الحُكْم بالإمارة من العلماء؛ فإنها معتمدهم، و«يوسُفُ» في قوله: ﴿يوسُفُ أعرِضْ عن هذا﴾: منادًى، قال ابن عباس: ناداه الشاهدُ، وهو الرجلُ الذي كان مَعَ العزيز[١]، و﴿أعرض عَنْ هذا﴾: معناه: عن الكلام بِهِ، أي: اكتمه، ولا تتحدَّث به، ثم رَجَعَ إليها، فقال: ﴿واستَغْفِري لذنبك﴾، أي: استغفري زَوْجَكِ وسيِّدَكِ، وقال: ﴿من الخاطئين﴾، ولم يقل «من الخاطئات»؛ لأن الخاطئين أعمُّ.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾: ﴿نسوة﴾: جمع قلَّة، وجمعُ التكثير نساءٌ، ويروَى أنَّ هؤلاء النسوة كُنَّ أربعاً: امرأةُ خبَّازة، وامرأةُ ساقية، وامرأةُ بَوَّابة، وامرأةُ سَجَّانة، والعزيزُ: المَلِك، والفَتَى: الغلام، وعُرْفُه في المملوك، ولكنَّه قد قيل في غير المملوك؛ ومنه: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، وأصل الفتى، في اللغة: الشَّابُّ، ولكن لما كان جُلُّ الخَدَمَةِ شَبَاباً، استعير لهم اسْمُ الفتَى، و﴿شَغَفَهَا﴾: معناه بَلَغَ حتَّى صار مِنْ قلبها موضِعَ الشُّغافِ، وهو؛ على أكثر القولِ: غِلاَفٌ من أغشية القَلْبِ.

وقيل: الشُّغاف: سويداءُ القَلْبِ.

وقيل: الشُّغَافُ: داءٌ يصلُ إلى القلب.

﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلَتْ إليهن﴾؛ ليحضُرْن.

﴿وأعتدَتْ لهنَّ مُتكأً﴾: أي: أعدَّتْ ويَسَّرت ما يُتَّكَأُ عليه من فُرُشٍ ووسَائِد وغيْرِ ذلك، وقرأ ابن عباس[٢] وغيره: «مُتْكاً» ـ بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف ـ،

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٣٧).

(٢) وقرأ بها ابن عمر، والجحدري، وقتادة، والضحاك، والكلبي، وأبان بن تغلب، ورويت عن الأعمش. وأما معنى هذه القراءة ـ كما حكى المصنف ـ: هو الأُتْرُجُ، وقيل: أيضاً: هو الزُّمَاوَرْد، وهو طعام من اللحم والبيض.
=

واختلف في معناها، فقيل: هو الأُتْرُنج[١]، وقيل: هو اسمٌ يعمُّ جميع ما يُقْطَعُ بالسِّكِّين، وقولها: ﴿ٱخْرُجْ عليهن﴾: أمر ليوسف، وأطاعها بحسب المُلْك.

وقوله: ﴿أكبرنَهُ﴾: معناه: أعظمنَهُ وٱستهْوَلْنَ جَمَاله، هذا قولُ الجمهور.

﴿وقَطَّعن أيديهن﴾: أي: كَثَّرْنَ الحَزَّ فيها بالسَّكَاكين، وقرأ أبو عمرو[٢] وحده: «حاشَى للَّهِ»، وقرأ سائر السبعة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، فمعنى «حَاشَ للَّهِ»: أي: حاشَى يوسُفَ؛ لطاعته للَّه، أو لمكانه من اللَّهِ أنْ يرمَى بِمَا رَمَيْتِهِ به، أوْ يدعَى إلى مثله، لأَنَّ تلْكَ أفعال البشر، وهو لَيْسَ منهم، إنما هو مَلَكٌ، هكذا رتَّب بعضهم معنَى هذا الكلام على القراءَتَيْنِ، وقرأ الحسنُ[٣] وغيره: «مَا هَذَا بَشَراً إنْ هَذَا إلاَّ مَلِكٌ كَرِيمٌ» ـ بكسر اللام من «مَلِك»؛ وعلى هذه القراءة، فالكلامُ فصيحٌ: لَمَّا ٱستَعْظَمْنَ حُسْنَ صورته، قُلْنَ ما هذا مما يَصْلُح أنْ يكون عبداً بشَراً، إنْ هذا إلا مما يَصْلُح أنْ يكون مَلِكاً كريماً.

* ت *: وفي «**صحيح مسلم**» من حديث الإسراء: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإذَا بِيُوسُفَ ﷺ، وإذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»[٤] انتهى.

وقولها: ﴿فذلكن الذي لمتنني فيه﴾: المعنى: فهذا الذي لُمْتُنَّنِي فيه، وقطعتُنَّ أيدِيَكُنَّ بسببه: هو الذي جَعَلَنِي ضالَّةً في هواه، ثم أقرَّت ٱمرأة العزيزِ للنِّسوة بالمراودة،

= ينظر: «**المحتسب**» (١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٣٨)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٢٠٢)، و«**الدر المصون**» (٤/ ١٧٤).

(١) هو شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، حامض الماء.
قال في «**اللسان**»: الأُتْرُجُّ: معروف... والعامة تقول: أُتْرُنج، وَتُرُنج، والأول كلام الفصحاء.
ينظر: «**المعجم الوسيط**» (٤)، و«**لسان العرب**» (٤٢٥) (ترج).

(٢) وحجته أنه ليس أحد من العرب يقول: حاشك، ولا حاش لك. وإنما يقال: حاشاك، وحاشالك.
وحجة الباقين: أنها هكذا في المصحف.
ينظر: «**السبعة**» (٣٤٢)، و«**الحجة**» (٤/ ٤٢٢)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٣٠٩)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٣٨٣)، و«**العنوان**» (١١٠)، و«**شرح شعلة**» (٤٣٩)، و«**إتحاف فضلاء البشر**» (٢/ ١٤٦)، و«**حجة القراءات**» (٣٥٩).

(٣) وهي قراءة أبي الحويرث الحنفي، وعبد الوارث عن أبي عمرو.
ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٤٠)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٣٠٤)، و«**الدر المصون**» (٤/ ١٧٩).

(٤) سيأتي تخريجه في سورة الإسراء.

وٱستأمنتْ إِليهن في ذلك؛ إِذْ عَلِمَتْ أنهنَّ قد عَذَرْنَهَا.

و﴿استعصم﴾ معناه طلب العِصْمة، وتمسَّك بها، وعَصَاني، ثم جعلَتْ تتوعَّده، وهو يسمع بقولها.

﴿ولئن لم يفعل ما آمره . . .﴾ إِلى آخر الآية.

* ت *: واعترض * ص *: بأنَّ تفسير «ٱستعصم» بـ «اعتصم» أولى من جعله للطَّلبِ، إِذ لا يلزم من طلب الشيء حصُولُه. انتهى، واللام في «لَيُسْجَنَنَّ»: لام قَسَم، واللام الأولَى هي المؤذنَةُ بالمجيء بالقَسَم، و«الصاغرون»: الأذلاَّء، وقَوْلُ يوسُفَ علَيه السلام: ﴿ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ إِلى قوله: ﴿من الجاهلين﴾، كلامٌ يتضمَّن التشكِّيَ إِلى اللَّه تعالى من حاله معهن،/ و﴿أَصْبُ﴾: مأخوذ من الصَّبْوَة، وهي أفعالُ الصِّبا، ومن ذلك قولُ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ: [الطويل] ١٢٥٤أ

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ٱبْعَدِ[1]

قال * ص *: «أَصْبُ» معناه: أَمِلْ، وهو جوابُ الشرطِ، والصَّبابة: إِفراط الشوْقِ. انتهى.

﴿فٱستجاب له ربُّه﴾ أي: أجابه إِلى إِرادته، وصَرَفَ عنه كَيْدَهنَّ؛ في أنْ حال بيْنَه وبين المَعْصية.

---

(١) البيت في **«ديوانه»** (٦٩)، و**«التعازي والمراثي»** (٥/ ٢٢)، و**«نور القبس»** (٥٣).
معنى: صبا ما صبا: قال المرزوقي (٢/ ٨٢١) قوله: «صبا ما صبا» يجوز أن يكون صبا الأول من الصِّبا واللهو، وصبا الثاني من الصَّباء بمعنى الفَتاء فيكون المعنى:
تعاطى اللهو والصبا ما دام صبياً، فلما اكتمل وظهر في رأسه الشيب، فاشتعل، نحى الباطل عن نفسه زاهداً فيه، ورجوعاً إلى الحق ورغبة فيما يكسبه الأحدوثة الجميلة من أبواب الصلاح، ويجوز أن يكون المعنى: تعاطى الصبا ما تعاطاه إلى أن علاه المشيب فيسقط التجنيس من البيت وهو يحسن به.
وقال العلوي في الطراز (٢/ ٨٤): «فقوله: صبا ما صبا فيه من الإبهام البالغ ما لو تناهيت في تفسيره فإنك لا تجد له من البيان مثل ما تجده في إبهامه».
ابعد: قال المرزوقي قوله: (ابعد) (٢/ ٨٢١) قوله (ابعد) من بعِد يَبْعَدُ إذا هلك ولو أراد البُعْدَ لقال أبْعَدُ بضم العين».
وقال في **«جمهرة اللغة»** (١/ ٢٤٥) (ب ع د) «بَعِدَ يَبْعُد بُعْداً من النأي فإذا أمرت قلت: أَبْعَدِ، قال دريد: «البيت».
ويشتد إعجاب يونس بن حبيب بالبيت، ويراه أشعر بيت قالته العرب انظر: **«نور القبس»** (٥٣)، ينظر: **«ديوان دريد بن الصمة»** (٦٩)، تحقيق الدكتور عمر.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم بدا لهم مِنْ بعد ما رأوا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين﴾: ﴿بدا﴾ معناه: ظهر، ولما أبَى يوسُفُ عليه السلام من المعصية، وَيَئِسَتْ منه ٱمرأةُ العزيزِ، طالبته بأَنْ قالتْ لزوجها: إنَّ هذا الغُلاَمَ العِبْرَانِيَّ قد فَضَحَنِي في النَّاس، وهو يَعْتَذِرُ إِليهم، ويَصِفُ الأَمْرَ بحَسَب ٱختياره، وأنا محبوسَةٌ محجوبَةٌ، فإما أَذِنْتَ لي، فخرجْتُ إلى الناس، فٱعتذرتُ وكذَّبته، وإما حَبَسْته كما أنا محبوسةٌ، فحينئذٍ بَدَا لَهُمْ سَجْنُهُ.

* ع[١] *: و﴿ليسجننه﴾: جملة دخلَتْ عليها لام قسم، و﴿الآيات﴾: ذكر فيها أَهْلُ التفسير؛ أنها قَدُّ القميص، وخَمْشُ الوجهِ، وحَزُّ النساءِ أيدِيَهُنَّ، وكلامُ الصبيِّ؛ على ما رُوِيَ.

قال * ع[٢] *: ومَقْصِدُ الكلام إنما هو أنهم رَأَوْا سَجْنه بعد ظهورِ الآياتِ المُبَرِّئة له مِنَ التهمة، فهكذا يَبِينُ ظُلْمُهم لَهُ وَالـ ﴿حِينُ﴾؛ في كلام العرب، وفي هذه الآية الوَقْت من الزمان غير محدودٍ يقع للقليلِ والكثيرِ، وذلك بَيِّن من موارده في القرآن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ودخل معه السجن فتيان...﴾ الآية: المعنى: فسجَنُوهُ، فَدَخَلَ معه السجْنَ، غلامانِ سُجِنَا أيضاً، ورُوِيَ أنهما كانا للمَلِكِ الأعظَمِ الوَلِيدِ بْنِ الرَّيَّانِ؛ أحدهما: خَبَّازه، وٱسمهُ مجلث، والآخر: ساقيه، وٱسمه نبو، ورُوِيَ أَنَّ المَلِكَ ٱتهمهما بأن الخَبَّاز منهما أرادَ سَمَّه، ووافَقَهُ على ذلك السَّاقِي، فسجنهما، قاله السديُّ[٣]، فلما دخل يوسُفُ السجْنَ، ٱستمالَ الناسَ فيه بحُسْن حديثه وفَضْله ونبله، وكان يُسَلِّي حزينهم، ويعودُ مريضَهُمْ، ويسأل لفقيرِهِمْ، ويندُبُهُمْ إلى الخيرِ، فأَحبه الفَتَيَانِ، ولزماه، وأحبه صاحِبُ السجْنِ، والقَيِّم عليه، وكان يوسُفُ عليه السلام قد قال لأَهْلِ السجْنِ: إِني أَعْبُرُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٢).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٢) برقم: (١٩٢٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٣)، وابن كثير (٢/ ٤٧٧).

الرؤيا، وأَجيدُ، فرُوِيَ عن ابن مسعودٍ: أن الفتَيَيْنِ ٱستعْمَلاَ هاتَيْنِ المنَامَتَيْنِ ليجرِّباه[١]. وروي عن مجاهدٍ: أنهما رأيا ذلك حقيقةً[٢]، فقال أحدهما: إِني أراني أعصرُ خَمْراً: قيل فيه: إِنه سَمَّى العِنَبَ خمراً، بالمآلِ، وقيل: هي لغةُ أزدِ عُمَان؛ يسمُّون العِنَبَ خَمْراً، وفي قراءة أُبَيٍّ وٱبْنِ مسعودٍ: «أَعْصِرُ عِنَباً»[٣].

وقوله: ﴿إِنا نراك من المحسنين﴾: قال الجمهور: يريدان في العِلْمِ، وقال الضَّحَّاك وقتادة: المعنى: من المحسنين في جَرْيِه مع أَهْلِ السِّجْنِ وإِجماله معهم[٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إِلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾: رُوِيَ عن السُّدِّيِّ وابن إِسحاق: أن يوسُفَ عليه السلام لما عَلِمَ شدَّة تعبيرِ مَنَامَةِ الرائي الخُبْزَ، وأنها تُؤْذِنُ بقتله، ذهب إِلى غير ذلك من الحديثِ عَسَى أَلاَّ يطالباه بالتعْبير، فقال لهما؛ مُعْلِماً بعظيم عِلْمِهِ للتعبيرِ: إِنه لا يجيئُكما طعَامٌ في نومكما تَرَيَانِ أَنكما رُزِقْتُمَاهُ إِلاَّ أعلمتكما بتأويلِ ذلكَ الطَّعَامِ، أي: بما يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمره في اليقظة قَبْلَ أن يظهر ذلك التأويلُ الذي أُعْلِمُكُما به[٥]، فرُوِيَ أنهما قالا: ومِنْ أينَ لَكَ ما تَدَّعيه مِنَ العِلْمِ، وأنْتَ لَسْتَ بِكَاهِنٍ ولا منجِّم؟! فقالَ لهما: ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، ثم نهض يُنْحِي لهما على الكُفْر ويقبِّحه، ويحسِّن الإِيمان باللَّه، فرُوِيَ أنه قصد بذلك وجْهَيْنِ؛ **أحدهما**: تنسيَتُهما أَمْرَ تعبيرِ ما سألا عنه؛ إِذ في ذلك النِّذَارةُ بقَتْلِ أحدهما، **والآخر**: الطماعيَةُ في إِيمانهما؛ ليأخذ المَقْتُولُ بحظِّه من الإِيمان، وتسلم له آخرته، وقال ابنُ جُرَيْج: أراد يوسُفُ عليه السلام لا يأتيكما طعامٌ في / اليقظة[٦]. ٢٥٤ب

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٢) برقم: (١٩٢٧٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٢٥)، وابن عطية (٣/ ٢٤٣)، وابن كثير (٢/ ٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٢) برقم: (١٩٢٧٩)، وذكره البغوي (٢/ ٤٢٥).

(٣) ينظر: **«المحتسب»** (١/ ٢٤٣)، و**«الكشاف»** (٢/ ٤٦٨)، و**«المحرر الوجيز»** (٢/ ٢٤٤)، و**«البحر المحيط»** (٥/ ٣٠٨)، و**«الدر المصون»** (٤/ ١٨٣).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٤) برقم: (١٩٢٨٦ ـ ١٩٢٨٧) وبرقم: (١٩٢٨٨)، وذكره البغوي (٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦)، وابن عطية (٣/ ٢٤٤)، والسيوطي (٤/ ٣٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ، عن قتادة، وعزاه أيضاً لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في **«شعب الإيمان»**.

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٥) برقم: (١٩٢٩١ ـ ١٩٢٩٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٤)، وابن كثير (٢/ ٤٧٨).

(٦) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٦) برقم: (١٩٢٩٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٤)، والسيوطي (٤/ ٣٤)، وعزاه لأبي عبيدة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال * ع[1] *: فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيَّباتٍ لا تعلُّق لها برؤيا، وقصد بذلك أحَدَ الوجهَيْنِ المتقدِّمين، وهذا على ما روي أنه نبيء في السجن فإخباره كإخبار عيسَى عليه السلام.

وقوله: ﴿تركت﴾، مع أنه لم يتشبَّثْ بها جائزٌ صحيحٌ؛ وذلك أنه أخبر عن تجنّبه من أول بالترك، وساق لفظ التَّرْك ٱستجلاباً لهما عسَى أن يتركا التَرْكَ الحقيقيَّ الذي هو بَعْد الأخْذ في الشيء، والقَوْمُ المتروكُ ملتهم: المَلِك وأتباعه.

وقوله: ﴿وٱتبعتُ . . .﴾ الآية: تمَادٍ من يوسُفَ عليه السلام في دعائهما إلى الملَّة الحنيفيَّة.

وقوله: ﴿ما كان لنا أن نشرك باللَّه من شيء﴾، «مِنْ»: هي الزائدةُ المؤكِّدة التي تكونُ مع الجُحُودِ.

وقوله: ﴿لا يشكرون﴾: يريد: الشكْرَ التَّامَّ الذي فيه الإيمانُ باللَّه عزَّ وجلَّ.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وقوله: ﴿يا صاحبي السجن ءأربابٌ متفرِّقون خير أم اللَّه الواحد القهار﴾: وصْفُه لهما بـ ﴿صَاحِبَيِ السجْنِ﴾ من حيثُ سُكْنَاه؛ كما قال: ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةَ﴾ وَ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ونحو ذلك، ويحتمل أن يريد صُحْبَتَهُما له في السِّجْنِ، كأنه قال: يا صَاحِبَايَ في السجْنِ، وعرْضُه عليهما بطلاَنَ أمْرِ الأوثان بأنْ وصَفَها بالتفرُّق، ووَصْفُ اللَّه تعالى بالوَحْدة والقَهْر تلطُّفٌ حَسَنٌ، وأخْذٌ بيسيرِ الحُجَّة قبل كثيرها الذي ربَّما نَفَرَتْ منه طباعُ الجَاهِلِ وعانَدَتْه، وهكذا الوجْهُ في محاجَّة الجاهِلِ: أَنْ يؤخَذَ بدَرَجَةٍ يسيرةٍ من ٱلاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها، لزمته عَنها درجةٌ أخرى فوقها، ثم كذلك أبداً حتى يصلَ إلى الحقّ، وإن أُخِذَ الجاهلُ بجميعِ المَذْهَبِ الذي يُسَاقُ إليه دفعةً أباه للحين وعانَدَهُ، ولقد ٱبْتُلِيَ بأربابِ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٤).

متفرِّقين مَنْ يَخْدُم أبناء الدنيا ويؤمِّلهم.

وقوله: ﴿ما تعبدون من دون إلا أسماء﴾: أي: مسمَّيات، ويحتملُ ـ وهو الراجحُ المختار ـ أن يريد: ما تَعْبُدُون من دونه ألوهيَّة، ولا لكُمْ تعلُّق بإلٰه إلا بحَسَبِ أنْ سمَّيْتُمْ أصنامكم آلهةً، فليستْ عبادتكم لا للّه إلا بالاسم فقطْ لا بالحقيقة، وأما الحقيقة: فَهِيَ وسائرُ الحجارة والخَشَب سواءٌ، وإنما تعلَّقت عبادتكم بحَسَبِ ٱلاسم الذي وضعتم، فذلك هو معبودكُمْ، ومفعولُ «سميتم» الثاني محذوفٌ، تقديره: آلهة؛ هذا على أن الأسماء يراد بها ذواتُ الأصنام، وأما على المعنى المُخْتارِ من أنَّ عبادتهم إنما هي لمعانٍ تعطيها الأسماءُ، وليسَتْ موجودةً في الأصنام، فقوله: ﴿سميتموها﴾ بمنزلةِ وضَعْتُمُوهَا، ﴿إنِ الحكم إلا للّه﴾: أي ليس لأصنامكم، و﴿القَيِّم﴾: معناه المستقيمُ، و﴿أكثر الناسَ لا يعلمون﴾؛ لجهالتهم وكُفْرهم، ثم نادَى: ﴿يا صَاحِبَي السجْنِ﴾ ثانيةً؛ لتجتمع أنفسهما، لسماعِ الجواب، فروي أنه قال لنبو: أمَّا أنتَ، فتعودُ إلى مرتبتك وسقايةِ ربِّك، وقال لمجلث: أما أنتَ، فتُصْلَب، وذلك كلُّه بعد ثلاثٍ، فروي أنهما قالا له: ما رَأَيْنَا شيئاً، وإنما تحالمنا لنجرِّبك، وروي أنه لم يَقُلْ ذلك إلا الذي حدَّثه بالصَّلْبِ، وقيل: كانا رَأَيَا،
١٢٥٥أ ثم أنكرا، ثم أخبرهما / يوسُفُ عَنْ غَيْبٍ عِلمَهُ من اللّه تعالى، أَن الأمر قد قُضِيَ ووافَقَ القدر.

وقوله: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما ...﴾ الآية: الظَّنُّ؛ هنا: بمعنى اليقين؛ لأن ما تقدَّم من قوله: ﴿قضي الأمر﴾ يلزم ذلك، وقال قتادة: الظنُّ هنا على بابه؛ لأن عبارة الرؤْيا[1] ظنٌّ.

قال * ع[2] *: وقول يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الأمر﴾: دالٌّ على وَحْيٍ، ولا يترتَّب قول قتادة إلا بأَن يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ الأمْرُ﴾: أيْ: قُضِيَ كلامِي، وقُلْتُ ما عِنْدي، وَتَمَّ، واللّه أعلم بما يكُونُ بَعْدُ، وفي الآية تأويلٌ آخر: وهو أن يكون «ظَنَّ» مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربه خمراً؛ لأنه داخَلَه السرور بما بُشِّر به، وغلَبَ على ظَنِّه ومعتَقَدِهِ أنه ناج.

وقوله: ﴿ٱذْكُرني عِنْدَ رَبِّك﴾: يحتمل أنْ يريد أنْ يذكره بعلْمه ومكانته، ويحتمل: أنْ يذكرهْ بمَظْلَمَتِهِ، وما ٱمتحن به بغَيْر حَقٍّ، أو يذْكُره بِجُمْلَة ذلك، والضميرُ في ﴿أَنسَاهُ﴾

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٢٠) برقم: (١٩٣١٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٦).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٦).

قيل: هو عائدٌ إِلى يوسُفَ، أي: نسي في ذلك الوقْتِ أنْ يشتكي إِلى اللّه، فروي أَنَّ جبريلَ جاءه، فعاتَبَهُ عنِ اللّه عَزَّ وجلَّ في ذلك، قيل: أُوحِيَ إِلَيْهِ: يا يوسُفُ، اتَّخذْتَ مِنْ دوني وكيلاً، لأُطِيلَنَّ سَجْنَكَ، واللّه أعلم بصحَّته، وقيل: الضمير في ﴿أنساه﴾ عائدٌ على السَّاقي، قاله ابن إِسحاق، أي: نَسِيَ ذِكْرَ يوسُفَ عند ربِّه، وهو المَلِكُ[١]، والـ ﴿بِضْع﴾: اختلف فيه، والأكثر أنَّه من الثلاثةِ إِلى العَشَرةِ؛ قاله ابن عباس[٢]: وعلى هذا فِقْهُ مذْهَبِ مالكٍ في الدعاوَى والأيمان، وقال قتادة: الـ ﴿بِضع﴾: من الثلاثة إِلى التسعة[٣]، ويقوي هذا قولُهُ ﷺ لأَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ في قصة خَطَرِه مع قُرَيْش في غَلَبَة الرُّومِ لفَارِس: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ البِضْعَ مِنَ الثَّلاَثِ إِلى التِّسْعِ»[٤].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك إِني أَرَى سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبع عجاف﴾: روي أنه قال: رَأَيْتُهَا خَارِجَةً من نَهْرٍ، وخرجَتْ وراءَها سَبْعٌ عِجاف، فأكلَتْ تلك السِّمان، وحَصَلَتْ في بطونها، ورأى السنابلَ أيضاً؛ كما ذكر، و«الـ ﴿عِجَاف﴾: التي بَلَغَتْ غاية الهُزَال، ثم قال لحاضريه: ﴿يأيها المَلأ أفتوني في رؤياي إِن كنتم للرؤيا تعبرون﴾، وعبارة الرؤية: مأخوذة منْ عَبْرِ النَّهْرِ، وهو تجاوزه مِنْ شَطٍّ إِلى شَطٍّ، فكأَنَّ عابر الرؤيا يَنْتَهِي إِلى آخر تأويلها.

قال * ص *: وإِنما لم يضفْ «سبع» إِلى عِجَافٍ؛ لأَنَّ اسم العدد لا يضاف إِلى الصفة إِلا في الشِّعْرِ، انتهى.

وقولهُ سبحانه: ﴿قالوا أضغاث أحلام . . .﴾ الآية: «الضِّغْثِ»؛ في كلام العرب: أَقَلُّ من الحُزْمة، وأكثَرُ من القَبْضة من النباتِ والعُشْبِ ونحوه، وربَّما كان ذلك مِنْ جنْسٍ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٢٢) برقم: (١٩٣٢٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٧)، والسيوطي (٤/ ٣٧).
(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٢٢) برقم: (١٩٣٣٦)، والسيوطي (٤/ ٣٨).
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٢٢) برقم: (١٩٣٣٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٧)، وابن كثير (٢/ ٤٧٩)، والسيوطي (٤/ ٣٨).
(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الروم، حديث (٣١٩١) من طريق الزهري، عن عبيد اللّه بن عتبة، عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث الزهري، عن عبيد اللّه، عن ابن عباس.

واحدٍ، وربما كان من أَخْلاَط النباتِ، والمعنى: أنَّ هذا الذي رأيْتَ أيها الملكُ اْختلاطٌ من الأحلامِ بِسَبَبِ النوم، ولسنا من أهْلِ العلْمِ بما هو مختلطٌ ورديءٌ، و﴿الأحلام﴾: جمع حُلْم، وهو ما يخيَّل إِلى الإنسان في منامه، والأحلام والرؤيا ممَّا أثبتَتْه الشريعةُ، وقال رُسُولُ اللَّه ﷺ: «الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ مِنَ المُبَشِّرَةِ وَالحُلْمُ المُحْزِنُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ / ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا رَأَيْتُ، فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ»[(١)]. وما كان عن حديث النفْسِ في اليقظة، فإنه لا يلتفت إِليه، ولما سمع الساقي الذي نجا هذه المقالَةَ من المَلِكِ، ومُرَاجَعَةَ أصحابه، تذكَّر يوسُف، وعلْمَهُ بالتأويل، فقال مقالَتَه في هذه الآية، ﴿وادَّكَرَ﴾: أصله: «اْذْتَكَرَ» من الذِّكْرِ، فقلبتِ التاء دالاً، وأدغم الأول في الثاني، وقرأ جمهور الناس[(٢)]: «بَعْدَ أُمَّةٍ»، وهي المدَّة من الدهر، وقرأ ابن عباس[(٣)] وجماعة: «بَعْدَ أَمَهٍ»، وهو النسيانُ، وقرأ مجاهد[(٤)] وشبل: «بَعْدَ أَمْهٍ» - بسكون الميم -، وهو مصْدَرٌ من «أَمِهَ»؛ إِذا نَسِيَ، وبقوله: ﴿أدَّكَرَ﴾ يقوِّي قول من قال: إِن الضمير في «أنساه» عائدٌ على الساقي، والأمر محتمل، وقرأ الجمهور[(٥)]: «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ»، وقرأ

٢٥٥ ب

---

(١) أخرجه مالك في «**الموطأ**» (٢/ ٩٥٧) كتاب «الرؤيا» باب: ما جاء في الرؤيا، حديث (٢)، والبخاري (٦/ ٣٣٨) كتاب «بدء الخلق» (باب: صفة إبليس وجنوده، حديث (٣٢٩٢)، ومسلم (٤/ ١٧٧٢)، كتاب «الرؤيا»، حديث (٢/ ٢٢٦١)، وأبو داود (٢/ ٧٢٤) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في الرؤيا، حديث (٥٠٢١)، والترمذي (٤/ ٥٣٥ - ٥٣٦) كتاب «الرؤيا» باب: إذا رأى في المنام ما يكره ما يصنع، حديث (٢٢٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٦) كتاب «تعبير الرؤيا» باب: من رأى رؤيا يكرهها، حديث (٣٩٠٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٩٧، ٩٠٠ - ٩٠١)، وأحمد (٥/ ٣١٠)، وابن أبي شيبة (١١/ ٧٠)، والدارمي (٢/ ١٢٤)، وابن حبان (١٣/ ٤٢٣ - ٤٢٤) برقم: (٦٠٥٩)، والبغوي في «**شرح السنة**» (٦/ ٢٩٤ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن أبي قتادة به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٤٩).

(٣) وقرأ بها ابن عمر، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وأبو رجاء، وقتادة، وشُبَيْل بن عزرة الضُّبعي، وربيعة بن عمرو، وزيد بن علي.

ينظر: «**الشواذ**» (٦٨)، و«**المحتسب**» (٣٤٤٨)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٣١٣)، و«**الدر المصون**» (٤/ ١٨٨).

(٤) قال الزمخشري: ومن قرأ بسكون الميم فقد خطىء. (يعني: أثم) وقال مثله أبو عبيد كما في «**اللسان**» (أمه).

ينظر: «**الكشاف**» (٢/ ٤٧٦)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٤٩)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٣١٣)، و«**الدر المصون**» (٤/ ١٨٨).

(٥) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٤٩).

الحسن بْنُ أَبي الحسن[١]: «أَنَا آتِيكُمْ»، وكذلك في مُصْحَف أُبيٍّ.

وقوله: ﴿فأرسلون﴾: ٱستئذان في المُضِيِّ.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله: ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا﴾: المعنى: فجاء الرسُولُ، وهو الساقِي، إلى يوسُفَ، فقال له: يوسُفُ أيها الصديق، وسمَّاه صِدِّيقاً من حيث كانَ جَرَّب صدقه في غَيْرِ ما شَيْءٍ، وهو بناء مبالغة مِنَ الصِّدْق، ثم قال له: ﴿أَفْتِنَا في سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾، أي: فيمَنْ رأى في المنامِ سَبْعَ بقراتٍ.

وقوله: ﴿لعلهم يعلمون﴾، أي: تأويل هذه الرؤيا، فيزولَ هَمُّ المَلِكِ لذلك، وهَمُّ النَّاس، وقيل: ﴿لَعَلَّهم يعلمون﴾ مكانَتَك من العلْم، وكُنْهَ فضلك؛ فيكونَ ذلك سبباً لتخلُّصك و﴿دَأَباً﴾: معناه: ملازمةً لعادَتِكم في الزِّراعة.

وقوله: ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾: إشارة برَأْيٍ نافع؛ بحسب طعامِ مِصْرَ وحِنْطَتِهَا التي لا تبقَى عامين بوجْهٍ إلا بحيلةِ إبقائها في السُّنْبُلِ، والمعنَى: ٱتركوا الزرْعَ في السُّنبُلِ إلا ما لا غِنَى عنه للأكْلِ فيجتمع الطَّعام هكذا، ويتركَّب ويؤكَل الأَقْدَمُ فالأقدم، وروي أنَّ يوسُفَ عليه السلام لَمَّا خَرَجَ وَوَصَفَ هذا الترتيبَ للمَلِكِ، وأعجبه أمره، قال له المَلِكُ: قَدْ أَسْنَدتُّ إليك تولِّيَ هذا الأَمْرِ في الأَطْعِمَةِ هذه السنينَ المُقْبِلَة، فكان هذا أَوَّلَ ما وَلِيَ يوسُفُ، و﴿تُحْصِنُون﴾ معناه: تحرزون وتخزنون؛ قاله ابن عباس[٢]، وهو مأخوذٌ من الحِصْنِ، وهو الحِرْز والمَلْجَأُ؛ ومنه: تحصُّن النساءِ؛ لأنه بمعنى التحرُّز.

وقوله: ﴿يغاث الناس﴾: جائز أنْ يكون من الغيث، وهو قول ابن عبَّاس[٣]،

(١) وقرأ بها الحجاج، والحسن، ويحيى بن يعمر.
ينظر: «الشواذ» (٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٩)، و«الكشاف» (٢/ ٤٧٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣١٤)، و«الدر المصون» (٤/ ١٨٩).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٢٩) برقم: (١٩٣٨١)، وذكره البغوي (٢/ ٤٢٩)، وابن عطية (٣/ ٢٥١)، والسيوطي (٤/ ٤١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٣٠) برقم: (١٩٣٨٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٣٠)، بلا نسبة، وابن عطية (٣/ ٢٥١)، والسيوطي (٤/ ٤١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وجمهور المفسِّرين، أي: يُمْطَرُون، وجائزٌ أنْ يكون من أغاثهم اللَّهُ: إذا فَرَّجَ عنهم؛ ومنه الغَوْث، وهو الفَرَجُ، ﴿وفيه يَعْصِرُونَ﴾: قال جمهور المفسِّرين: هي من عَصْر النباتاتِ، كالزيتون، والعنَبِ، والقَصَبِ، والسِّمْسِمِ، والفِجْلِ، ومِصْرُ بَلَدُ عَصْرٍ لأشياء كثيرة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول ...﴾ الآية: لمَّا رأى المَلِكُ وحاضروه نُبْلَ التَّعْبير وحُسْنَ الرأيِ، وتضمُّن الغيب في أمْر العام الثامِنِ، مع ما وُصِفَ به من الصِّدْق عَظُمَ يوسُفُ في نَفْس الملك، وقال: ﴿ائتوني به فلما جاءه الرَّسول قال ارجِعْ إلى ربِّك﴾: يعني: المَلِكَ، ﴿فَاسْأَلْهُ ما بال النسوة اللاتي قَطَّعن أيديهن﴾، وقصْدُه عَلَيْه السلام بيانُ براءته، وتحقُّق منزلته من العِفَّة والخَيْرِ، فرسَمَ القصَّة بطَرَف منها، إذا وقع النظَرُ عَلَيْه، بان الأمْرُ كله، ونَكَبَ عن ذِكْرِ امْرأةِ العزيز؛ حُسْنَ عِشْرةٍ ورعايةٍ لذِمَام مُلْك العزيز له، وفي «صحيح البخاري»، عن عبد الرحمٰن /بن القاسِم صاحبِ مَالِكٍ، عن ١٢٥٦أ
النبيِّ ﷺ: «ولَوْ لَبِثْتُ في السِّجْنِ لُبْثَ يُوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِي»[١]: المعنى: لو كُنْتَ أنا، لَبَادَرْتُ بالخروج، ثم حاوَلْتُ بيان عُذْرِي بَعْدَ ذلك؛ وذلك أنَّ هذه القصص والنوازل، إنما هي معرَّضة ليقتدي النَّاسُ بها إلى يوم القيامة، فأراد ﷺ حَمْلَ الناسِ على الأحزمِ من الأمورِ؛ وذلك أن التاركَ لمِثْلِ هذه الفُرْصَة ربَّما نَتَجَ له بسَبَبِ التأخير خلافُ مقصوده، وإن كان يوسف قد أَمِنَ ذلك؛ بعِلْمِهِ من اللَّه، فغيْرُهُ من الناس لا يأمَنُ ذلك، فالحالة التي ذَهَبَ النبيُّ ﷺ بنفسه إلَيْها حالَةُ حَزْم ومدح؛ ليقتدى به، وما فعله يوسُفُ عليه السلام حالةُ صَبْرٍ وتجلُّد، قال ابنُ العربيِّ في «أحكامه»[٢]: وانظر إلى عظيم حلْم يوسُف عليه السلام وَوُفُورِ أدبه، كيف قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، فذكر النساءَ جملةً؛ لتدخُلَ فيهنَّ امرأة العزيزِ مدْخَلَ العموم؛ بالتلويح دون التصريح. انتهى. وهذه كانَتْ أخلاقُ نبيِّنا محمد ﷺ، لا يقابلُ أحداً بمكروهٍ، وإنما يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا»، من غير تعيينٍ، وبالجملة فكلُّ خَصْلة حميدةٍ مذكُورةٍ في القرآن اتَّصَفَ بها الأنبياءُ والأصفياءُ، فقد

---

(١) تقدم تخريجه وهو حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم».
(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٩١).

ٱتصفَ بها نبيُّنا محمَّد ﷺ، إذ كان خلقه القرآن، كما روته عائشةُ في الصحيحِ، وكما ذكر اللَّه سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] انتهى.

وقوله: ﴿إن ربي بكيدهن عليمٌ﴾، فيه وعيدٌ، وقوله: ﴿ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾: المعنى: فَجَمَعَ المَلِكُ النِّسوة، وٱمرأةُ العزيزِ معَهُنَّ، وقال لهنَّ: ﴿ما خطبكُنَّ . . .﴾ الآية: أي: أيُّ شيءٍ كانَتْ قصَّتكُن، فجاوب النساءُ بجوابٍ جيدٍ، تظهر منه براءَةُ أنفُسِهِنَّ، وأعطَيْنَ يوسُفَ بعْضَ براءةٍ، فقلْنَ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنا عليه من سوء﴾، فلما سمعت ٱمرأةُ العزيزِ مقالَتَهُنَّ وَحَيْدَتَهُنَّ، حضَرَتْها نيَّةٌ وتحقيقٌ، فقالتِ: ﴿الآن حَصْحَصَ الحقُّ﴾، أي: تبيَّنَ الحقُّ بعد خفائِهِ؛ قاله الخليل وغيره، قال البخاريُّ: حَاشَ وحَاشَى: تنزيهٌ وٱستثناءٌ، وحَصْحَصَ: وَضَح. انتهى.

ثم أقرَّتْ على نفسها بالمراودةِ، وٱلتزَمَتِ الذنْبَ، وأبرأَتْ يوسُفَ البراءةَ التامَّة.

وقوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنْهُ بالغيبِ﴾ إلى قوله: ﴿إن ربي غفور رحيم﴾: ٱختلفَ فيه أَهْلُ التأويل، هل هو مِنْ قولِ يوسُفَ أَو من قول ٱمرأةِ العَزيزِ.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك ٱئتوني به أستخلصه لنفسي﴾: المعنى: أن الملك، لَمَّا تَبيَّنَتْ له براءة يُوسُفُ وتحقَّق في القصَّة أمانته، وفَهِمَ أيضاً صبره وعُلُوَّ همته، عظُمَتْ عنده منزلتُهُ، وتيقَّن حُسْنَ خلاله، فقال: ﴿ٱئتوني به أستخلصه لنفسي﴾، فلما جاءه وكلَّمه قال: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾: قال ابنُ العربيِّ في «**أحكامه**»[(١)]: قوله: ﴿إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين﴾: أي: متمكِّن مما أردتَّ، أمين على ما ٱئتُمِنتَ عليه من شيء؛ أمَّا أمانته فلظهورِ براءَتِهِ، وأمَّا مكانته، فلثبوت عفَّته: ونَزَاهَتِهِ / انتهى، وَلَمَّا فهم يوسُفُ عليه السلام ٢٥٦ ب
من المَلِكِ أنَّه عزم على تصريفه وٱلاستعَانَة بنَظَرِهِ، قال: ﴿ٱجعلني على خزائن الأرض﴾، لما في ذلك من مصالح العباد.

قال * ع *[(٢)]: وطِلبَةُ يوسُفَ للعملِ إنما هي حِسْبَةٌ منه عليه السلام في رغبته في أنْ

(١) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٩١).
(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

يقع العدلُ، وجائزٌ أيضاً للمرء أنْ يُثْنِيَ على نفسه بِالْحَقِّ، إذا جهل أمره، والـ ﴿خزائن﴾: لفظٌ عامٌ لجميع ما تختزنه المَمْلَكَة من طعامٍ ومالٍ وغيره.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك مكَّنَّا ليوسف في الأرض﴾: الإشارة بـ «ذلك» إلى جميع ما تقدَّم من جميلِ صنعِ اللَّه به، فروي أن العزيز ماتَ في تلك الليالي، وقال ابنُ إسحاق: بل عَزَلَه المَلِكُ[1]، ثم مات أظفير، فولاه المَلِكُ مكانَهُ، وَزَوَّجه زوجَتَهُ، فلما دخَلَتْ علَيْه عَرُوساً، قال لها: أَلَيْسَ هذا خيراً مما كُنْتِ أردتِّ، فدخَلَ يوسُفُ بها، فَوَجَدَهَا بِكْراً، وولَدَتْ له ولدَيْنِ، ورُوِيَ أيضاً؛ أَنَّ الملك عزَلَ العزيزَ، وولَّى يوسُفَ موضعَهُ، ثم عظُمَ مُلْكُ يوسُفَ وتغلَّب على حالِ المَلِكِ أجمع، قال مجاهدٌ: وأَسْلَمَ المَلِكُ آخِرَ أمره[2]، ودَرَسَ أمر العزيز، وذهبتْ دنياه، وماتَ، وٱفتقَرَتْ زوجته، وشاخَتْ، فلما كان في بعض الأيام، لَقِيَتْ يوسُفَ في طريقٍ، والجنودُ حوله ووراءه، وعلى رأسه بُنُودٌ عليها مكتوبٌ: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] فَصَاحَتْ به، وقالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَنْ أَعَزَّ العبيدَ بالطَّاعة، وأذَلَّ الأربابَ بالمَعْصِيةِ، فعرفَهَا، وقالَتْ له: تَعَطَّفْ عَلَيَّ وٱرزقْنِي شيئاً، فدعا لها، وكلَّمها، وأشفَقَ لحالها، ودعا اللَّه تعالَىٰ فرَدَّ عليها جمالَهَا، وتزوَّجها، ورُوِيَ في نحو هذا مِنَ القصص ما لا يُوقَفُ عى صحَّته، ويطولُ الكلامُ بسَوْقه، وباقي الآية بيِّن واضحٌ للمستبصرين، ونورٌ وشفاءٌ لقلوب العارفين.

وقوله: «لِيُوسُفَ»: أبو البقاء: اللام زائدةٌ، أي: مَكَّنَّا يُوسُفَ، ويجوز ألا تكون زائدة، فالمفعول محذوفٌ، أي: مكنا ليوسف الأمورَ. انتهى.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٤٢) برقم: (١٩٤٦٦)، وذكره البغوي (٢/ ٤٣٣)، وابن عطية (٣/ ٢٥٦)، وابن كثير ((٢/ ٤٨٢)، والسيوطي (٤/ ٤٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٤٢) برقم: (١٩٤٦٩)، وذكره البغوي (٢/ ٤٣٣)، وابن عطية (٣/ ٢٥٦)، والسيوطي (٤/ ٤٤)، وعزاه لابن جرير.

مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وجاء إِخوة يوسُفَ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾، قال السدِّيُّ[(١)] وغيره: سبب مجيئهم أنَّ المجاعة ٱتصلَتْ ببلادِهِمْ، وكان النَّاس يمتارُونَ مِنْ عنْد يوسُفَ، وهو في رتبة العزيز المتقدِّم، وكان لا يعطي الوارد أكثر مِنْ حِملِ بَعِيرٍ يُسَوِّي بين الناس، فلما ورد إِخوته، عَرَفَهم، ولم يَعْرِفُوه لِبُعْدِ العهد وتغيُّر سنِّه، ولم يقعْ لهم بَسَبب مُلْكه ولسانِهِ القِبْطِيِّ ظنٌّ عليه، ورُوِيَ في بعض القصص، أنه لما عرفهم أراد أنْ يخبروه بجميعِ أمرهم، فباحَثَهُمْ بأنْ قال لهم بتَرْجُمَانٍ: «أظُنُّكُمْ جواسِيسَ»، فٱحتاجوا حينئذٍ إِلى التعريفِ بأنفسهم، فقالوا: نَحْنُ أبناءُ رجُلٍ صِدِّيقٍ، وكنا ٱثْنَيْ عَشَرَ ذهب منَّا واحدٌ في البَرِّيَّة، وبقي أصغرنا عنْدَ أبينا، وجئْنَا نَحْنُ للميرة، وسقنا بعير الباقي منَّا، وكنا عَشَرَةً، ولهم أحدَ عَشَرَ بعيراً، فقال لهم يوسف: ولِمَ تخلَّفَ أحدكم؟ قالوا: لمحبَّة أبينا فيه، قال: فأتوا بهذا الأخِ؛ حتى/ أعلم حقيقة قَوْلِكم، وأرَى لِمَ أحَبُّهُ أبوكم أَكْثَرَ منكم؛ إِنْ كنتم ٢٥٧أ
صادقين، وروي في القصص أنهم وَرَدُوا مصْرَ وٱستأذنوا على العزيز، وٱنْتَسَبُوا في ٱلاستئذان، فعرفَهُمْ، وأمر بإِنزالهم وأدخَلَهم في ثاني يوم على هيئة عظيمةٍ لمُلْكِه، وروي أنه كان متلثِّماً أبداً سَتْراً لجماله، وأنه كان يأخذ الصُّوَاعَ، فينقره، ويَفْهم منْ طنينه صِدْقَ الحديثِ منْ كذبه، فَسُئِلوا عن أخبارهم، فكلَّما صدقوا، قال لهم يوسف: صَدَقْتم، فلما قالوا: وكَانَ لَنَا أَخٌ أكله الذِّئب، أطنَّ يوسُفُ الصُّواع، وقال: كَذَبْتم، ثم تغيَّر لهم، وقال: أراكُمْ جواسيسَ، وكلَّفهم سَوْقَ الأخِ الباقي؛ ليظهر صدْقُهم في ذلك؛ في قصصٍ طويلٍ، جاءت الإِشارة إِليه في القرآن، «والجهاز» ما يحتاج إِليه المسافر من زَادٍ ومتاعٍ.

وقوله: ﴿بأخٍ لكم﴾ * ص *: نَكَّرَهُ، ليريهم أنه لا يعرفُهُ، وفَرْقٌ بين غلامٍ لك، وبين غلامِكَ، ففي الأول أنت جاهلٌ به، وفي الثاني أنْتَ عالمٌ، لأن التعريف به يفيدُ نَوْعَ عهدٍ في الغلامِ بَيْنَكَ وبين المخاطَب، انتهى.

وقول يوسف: ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل ...﴾ الآية: يرغِّبهم في نفسه آخراً

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٤٣) برقم: (١٩٤٧١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٥٧ - ٢٥٨).

ويؤنِّسهم ويَسْتميلهم، و﴿الْمُنزِلِينَ﴾: يعني: المُضِيفين، ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾، أي: في المستأنف، وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كَانَ يُوسُفُ يُلْقِي حَصَاةً فِي إِنَاءِ فِضَّةٍ مَخُوصٍ بالذَّهَبِ فَيَطِنُّ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الإِنَاءَ يُخْبِرُنِي أَنَّ لَكُمْ أَبَاً شَيْخاً»، ورُوِيَ أَنَّ ذلك الإِناء به كان يَكِيلُ الطعامَ، إظهاراً لِعزَّته بحسب غَلاَئِهِ، وروي أن يوسُفَ ٱستوفى في تلك السنين أَمْوَالَ الناسِ، ثم أملاكَهم، وظاهر كُلِّ ما فعله يوسُفُ معهم أنَّه بوحْيٍ وأمْرٍ، وإلا فَكَانَ بِرُّ يعقوب يقتضي أن يبادِرَ إِلَيْهِ ويستَدْعيه، لكنَّ اللَّه تَعَالى أعلمه بما يَصْنَعُ؛ ليكمل أجْرَ يعقوب ومِحْنته، وتتفسَّر الرؤيا الأُولَى.

وقوله: ﴿لعلهم يعرفونها﴾: يريد: لعلَّهم يعرفون لها يداً وتكرمةً يَرَوْنَ حقَّها؛ فيرغبون في الرجوعِ إلينا، وأما مَيْزُ البِضَاعة، فلا يُقَالُ فيه: «لَعَلَّ» وقيل: قصد يوسف بِرَدِّ البضاعة أَنْ يتحرَّجوا مِنْ أخْذِ الطعامِ بِلا ثَمنٍ، فيرجعوا لدَفْعِ الثمنِ، وهذا ضعيفٌ من وجوهٍ، وسرُورُهُم بالبضَاعةِ، وقولهم: ﴿هذه بضاعتنا ردَّتْ إِلَينا﴾ يكشف أنَّ يوسف لم يَقْصِدْ هذا، وإنما قصد أنْ يستميلهم، ويصلهم، ويُظْهِر أَنَّ ما فعله يوسف من صلتهم وجَبْرهم في تِلْكَ الشِّدَّة كان واجباً عليه، وقيلَ: عَلِمَ عَدَمَ البضاعةِ والدَّراهم عند أبيه؛ فرَدَّ البضاعة إليهم؛ لئلاً يمنعهم العُدْمُ من الرجوعِ إليه، وقيل: جعلها توطئةً لجَعل السقاية في رَحْلِ أخيه بعد ذلك، ليبيِّن أنه لم يَسْرِقْ لمن يتأمَّل القصَّة، والظاهر مِنَ القصَّة أنه إِنما أراد ٱلاستئلاف وصِلَةَ الرحِمِ، وأصْلُ «نَكْتَلْ»: «نَكْتَيِلْ»، وقولهم: ﴿مُنِعَ منا الكيل﴾: ظاهره أنهم أشاروا إِلى قوله: ﴿فلا كَيْلَ لكم عندي﴾، فهو خوفٌ في المستأنفِ، وقيل: أشاروا إِلى بعيرِ يَامِينَ، والأولْ أرجَحُ، ثم تضمَّنوا له حِفْظَه وحَيْطَته، وقول يعقوبَ عليه السلام: ﴿هل آمنكم عليه ...﴾ الآية: «هَلْ» توقيفٌ وتقريرٌ / ولم يصرِّح بمنعهم مِنْ حمله؛ لما ٢٥٧ب
رأَى في ذلك مِنَ المصلحة، لكنَّه أعلمهم بقلَّة طَمَأْنينَتِهِ إِليهم، ولكنْ ظاهر أمرهم أنهم قد أنابُوا إِلى اللَّه سُبْحانه، وانتقلَتْ حالهم، فلم يَخَفْ على يَامِينَ، كخوفه علَى يوسُفَ، وقرأ نافعٌ وغيره[1]: «خَيْرٌ حِفْظاً»، وقرأ حمزة وغيره: «خَيْرٌ حَافِظاً»، ونصب ذلك في القراءتين؛ على التمييز والمعنى: أنَّ حفظ اللَّه خَيْرٌ من حفظِكم، فٱستسلم يعقوبُ عليه

(١) وحجتهم في ذلك قولهم قبل: ﴿ونحفظ أخانا﴾، فلما أضافوا إلى أنفسهم، قال يعقوب: ﴿فالله خير حفظاً﴾ أي من حفظكم الذي نسبتموه إلى أنفسكم.
وحجة الباقين: قولهم قبل: «﴿وإنا له لحافظون﴾، فقال يعقوب رادًا عليهم: ﴿فالله خير حافظاً﴾.
ينظر: «العنوان» (١١١)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٨٦)، و«شرح شعلة» (٤٤٠)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣١٤).

السلام للَّهِ، وتوكَّل علَيْه، وقولهم: ﴿ما نبغي﴾: يحتمل أنْ تكون «ما» ٱستفهاماً؛ قاله قتادة: و﴿نبغي﴾: من البُغْية، أي: ماذا نَطْلُبُ بَعْدَ هذه التَّكْرِمَة؛ هذا مَالُنَا رُدَّ إلينا مع مِيرَتِنا، قال الزَّجَّاج[1]: ويحتمل أنْ تكون «ما» نافية، أي: ما بقي لنا ما نَطْلُبُ، ويحتمل أنْ تكون أيضاً نافيةً، و﴿نَبْغِي﴾ من البَغْيِ، أي: ما تَعَدَّيْنا فَكَذَبْنا على هذا المَلِكِ، ولا في وَصْف إجماله وإكرامه، هذه البضاعةُ رُدَّت إلينا، وقرأ أبو حَيْوة[2]: «ما تَبْغِي»؛ على مخاطبة يعقوبَ، وهي بمعنى ما تُرِيدُ، وما تطلب وقولهم: ﴿ونزداد كَيْلَ بعيرٍ﴾ يريدون بَعِيرَ أخيهم؛ إذ كان يوسُفُ إنما حمل لهم عَشَرَةَ أَبْعِرَةٍ، ولم يحملِ الحادِيَ عشر؛ لغيب صاحبه، وقولهم: ﴿ذلك كيلٌ يسير﴾: قيل: معناه: يسيرٌ على يوسف أنْ يعطيه.

وقال السدِّي: ﴿يسير﴾، أي: سريع لاَ نُحْبَسُ فيه ولا نُمْطَلُ[3].

وقوله تعالى: ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ الآية: أي لمَّا عاهدوه، أشْهَدَ اللَّه بينه وبينهم بقوله: ﴿اللَّه على ما نقول وكيل﴾، و«الوكيلُ»: القيِّم الحافظُ الضَّامن.

وقوله: ﴿إلاَّ أن يحاط بكم﴾: لفظٌ عامٌّ لجميع وجوه الغَلَبة، وٱنظر أنَّ يعقوبَ عليه السلام قد توثَّق في هذه القصَّة، وأشْهَدَ اللَّه تعالى، ووصَّى بنيه، وأخبر بعد ذلك بتوكُّله، فهذا توكُّل مع سبب، وهو توكُّل جميع المؤمنين إلا مَنْ شَذَّ في رَفْض السعْي بالكليَّة، وقَنِعَ بالماء وبَقْلِ البَرِّيَّة، فتلك غايَةُ التوكُّل، وعليها بعضُ الأنبياء عليهم السلام، والشارعُونَ منهم مثبتون سُنَنَ التسبُّب الجائز، قال الشيخُ العارِفُ باللَّه عَبْدُ اللَّه بْنُ أَبي جَمْرَةَ رضي اللَّه عنه: وقد ٱشتمل القُرْآنَ على أَحكامٍ عديدةٍ، فمنها: التعلُّق باللَّه تعالَى، وتركُ الأسبابِ، ومنها: عمل الأسبابِ في الظاهِرِ، وخُلُوُّ الباطن من التعلُّق بها، وهو أجلُّها وأزكاها؛ لأن ذلك جَمْعٌ بينَ الحكمَةِ وحقيقة التَّوْحيد، وذلك لا يكُونُ إلا للأفذاذِ الذين مَنَّ اللَّه عليهم بالتوْفيق؛ ولذلك مَدَحَ اللَّه تعالَى يعقُوبَ عليه الصلاة والسلام في كتابه، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨] لأنه عمل الأسباب، وٱجتهد
/ في توفيتها، وهو مقتضى الحكمةِ، ثم رَدَّ الأمر كلّه للَّه تعالى، وٱستسلم إليه، وهو حقيقةُ ١٢٥٨
التَّوحيد، فقال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للَّهِ . . .﴾ الآية، فأثنى

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٣/ ١١٨).

(٢) وهي قراءة ابن مسعود كما في «الكشاف» (٢/ ٤٨٦)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٢١)، و«الدر المصون» (٤/ ١٩٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٦١).

اللَّه تعالَى عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ جمعه بَيْن هاتين الحَالَتَيْنِ العظيمتين.

وقوله: ﴿لا تدخلوا من باب واحدٍ﴾: قيل: خَشِيَ عليهم العَيْنَ، لكونهم أحَدَ عَشر لرجلٍ واحدٍ، وكانوا أَهْلَ جمالٍ وبَسْطة؛ قاله ابن عباس وغيره[١].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولما دخلوا مِنْ حيث أمرهم أبوهم﴾، روي أنه لَمَّا ودَّعوا أباهم، قال لهم: بَلِّغوا مَلِكَ مِصْر سَلاَمِي، وقولُوا له: إنَّ أَبانا يصلِّي عليك، ويَدْعُو لك، ويَشْكُر صنيعك مَعَنا، وفي كتاب أبي مَنْصُورِ المهرانيِّ أنه خاطَبَه بكتابٍ قُرِىءَ على يوسف، فبكَى.

وقوله سبحانه: ﴿ما كان يغني عنهم من اللَّه من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾: بمثابة قولهم: لم يكُنْ في ذلك دَفْعُ قَدَرِ اللَّه، بل كان أرَباً ليعقُوبَ قضاه، فالاستثناء ليس من الأولِ، والحاجةُ هي أنْ يكون طَيِّب النفْس بدخولهم من أبواب متفرِّقة؛ خَوْفَ العين، ونظير هذا الفعْلِ أن النبيَّ ﷺ سَدَّ كُوَّةً في قَبْرٍ بِحَجَرٍ، وقال: «إِنَّ هَذَا لاَ يُغْنِي شَيْئاً، ولكِنَّهُ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِ الحَيِّ»، ثم أثنى اللَّه عزَّ وجلَّ على يعقوب؛ بأنه لُقِّنَ ما علَّمه اللَّه من هذا المَعْنى، وأن أكثر الناس لَيْسَ كذلك، وقال قتادة: معناه: لَعَامِلٌ بما علَّمناه[٢]، وقال سفيان: من لا يعمل لاَ يَكُونُ عالماً[٣].

قال * ع[٤] *: وهذا لا يعطيه اللفظُ، أمَّا أنَّه صحيحٌ في نفسه يرجِّحه المعنى وما تقتضيه منزلةُ يعقُوبَ عليه السلام.

وقوله: ﴿إني أنا أخوك﴾ قال ابنُ إسحاق وغيره: أخبره بأنه أخوهُ حقيقةً، واستكْتَمَهُ، وقال له: لا تبال بكلِّ ما تراه من المَكْروه في تَحَيُّلي في أخْذِكَ منهم، وكان

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٤٩) برقم: (١٩٤٩٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦١)، وابن كثير (٢/ ٤٨٤)، والسيوطي (٤/ ٤٩)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٥٠) برقم: (١٩٥٠٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٢)، وابن كثير (٢/ ٢٨٤)، والسيوطي (٤/ ٤٩)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٥٠) برقم: (١٩٥٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٢).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٢).

يَامِينُ شقيقَ يُوسُفَ.

وقوله: ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾: يحتمل أنْ يشير إلى ما عمله الإخوة، ويحتمل الإشارة إلى ما يعمله فتيانُ يُوسُفَ من أمرِ السقاية، ونحو ذلك، و﴿تبتئس﴾: من البُؤس، أي: لا تَحزَنْ، ولا تَهتَمَّ، وهكذا عَبَّر المفسِّرون.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحْل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾: هذا من الكَيْد الذي يَسَّره الله ليوسُفَ عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يَعْقُوبَ؛ أنْ يُسْتَبْعَدَ السارقُ، وكان في دِينِ مِصْرَ؛ أن يُضْرَبَ، ويُضَعَّف عليه الغُرْم، فعلم يوسُفُ أَنَّ إخوته لثقتهم ببراءة سَاحَتِهِمْ سَيَدْعُونَ في السَّرقة إلى حكمهم، فتحيَّل لذلك، واستسْهَلَ الأَمرَ على ما فيه مِنْ رَمْي أبرياء وإدخالِ الهَمِّ على يَعْقُوب وعَلَيْهِم؛ لِمَا علم في ذلك من الصَّلاح في الآجِلِ، وبوَحْيٍ لا محالة، وإرادةٍ مِنَ اللَّه محنَتَهُمْ بذلك، و﴿السِّقاية﴾: الإناء الذي به يَشْرَبُ المَلِكُ؛ وبه كان يَكِيلُ الطعام للنَّاس؛ هكذا نصَّ جمهور المفسِّرين ابنُ عباس وغيره، ورُوي أنه كان مِنْ فضَّة[1]، وهذا قولُ الجمهور، وكان هذا الجُعْل بغَيْرِ عِلْم من «يَامين»؛ / قاله السُّدِّيُّ[2] وهو الظاهر، «فلما ٢٥٨ ب
فَصَلَتِ العير» بأوقارها، وخرجَتْ من مصر فيما رُوِيَ أمر بهم فَحُبِسُوا، وأذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقُونَ، ومخاطبةُ العِير مجازٌ، والمراد أربابها.

* ت *: قال الهَرَوِيُّ: قوله تعالى: ﴿أيتها العير﴾: «العير»: الإبلُ والحمير التي يحمل عليها الأحمال، وأراد أصحاب العير؛ وهذا كقوله ﷺ: «يا خَيْلَ اللَّهِ، ارْكَبِي[3]» أراد: يا أَصْحَابَ خَيْلِ اللَّهِ ارْكَبِي، وأنَّث «أيًا»؛ لأنه للعيرِ، وهي جماعة، انتهى. فلما

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٥٥) برقم: (١٩٥٣٢)، وذكره ابن كثير (٢/ ٤٨٥)، والسيوطي (٤/ ٥٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبي الشيخ، وابن منده في **«غرائب شعبة»**، وابن مردويه، والضياء.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٥٣) برقم: (١٩٥٢٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٣٨).

(٣) قال السخاوي في **«المقاصد»** ص: (٤٧٣ ـ ٤٧٤): أخرجه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين، قال: كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام، فذكر القصة وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، وللعسكري من حديث عبد الله بن المثنى، عن ثمامة، عن أنس =

سمع إِخْوَةُ يوسُفَ هذه المقالة، أقبلوا عليهم، وساءهم أَنْ يُرْمَوْا بهذه المَثْلَبَة، وقالوا: ماذا تَفْقِدُونَ، ليقع التفتِيشُ، فتظهر براءتهم، ولم يلوذوا بالإِنكار من أوَّل، بل سألوا إكمال الدعوَى؛ عسى أنْ يكون فيها ما تبطل به، فلا يَحْتَاج إِلى خصام، قالوا: نفقدُ صُوَاعَ المَلِكِ، وهو المِكْيَالُ، وهو السِّقَايَةُ، قال أبو عُبَيْدة: يؤنَّث الصُّوَاع؛ مِنْ حيْثُ سمي سِقَايَةً، ويذكَّر من حيث هو صَاعٌ.

* ت *: ولفظ أبي عُبَيْدة الهَرَوِيِّ قال الأخفش: الصَّاع: يذكَّر ويؤنَّث، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فأنَّث، وقَالَ: ﴿لِمَنْ جَاءَ به حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ فذكَّرَ لأنه عنى به الصُّوَاع. انتهى.

وقوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾: أي: لمن دَلَّ على سارقه، وجَبَرَ الصواع، وهذا جُعْل.

وقوله: ﴿وأنا به زعيم﴾: حَمالَةٌ، قال مجاهد: «الزَّعيم»: هو المُؤَذِّن الذي قال أَيَّتُها العِير[1] و«الزعيم»: الضامنُ في كلام العرب.

= في حديث ذكره، قال: فنادى منادي رسول الله ﷺ: يا خيل الله اركبي، ومن حديث يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان؟ كيف أصبحت: الحديث وفيه أنه قال: يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له قال: فنودي يوماً بالخيل: يا خيل الله اركبي، قال: فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد، ولابن عائذ في **«المغازي»**، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذ يعني: يوم قريظة يوم الأحزاب منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي وعزى السهيلي في غزوة حنين من **«الروض»** هذه اللفظة **«لصحيح مسلم»** فيحرر، نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في **«الدلائل»** حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ إلى بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ صرخ في المدينة: يا خيل الله اركبوا، وجاءت أحاديث عن علي وخالد بن الوليد، ففي **«المستدرك»** للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة، عن أسير بن جابر، فذكر القصة وقال في آخرها: فنادى علي: يا خيل الله اركبي، وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: يا خيل الله اركبي، فركبوا وساروا إلى بني حنيفة، وقال أبو داود في **«السنن»**: باب: النداء عند النفير: يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمّى خيلنا خيل الله، وللعسكري من حديث موسى بن نفيع الحارثي عن مشيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صيح في خيل لله فكونوا أولَ من يشخص. وذكر حديثاً، قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي، هذا على المجاز والتوسع، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد.

(١) أخرجه الطبري (٧/٢٥٦) برقم: (١٩٥٥٠ ـ ١٩٥٥١)، وذكره البغوي (٢/٤٣٩)، وابن عطية (٣/٢٦٤)، والسيوطي (٤/٥١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قالوا تاللَّه لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾: روي أن إخوة يوسُفَ كانُوا رَدُّوا البِضَاعة المَوْجُودة في الرِّحَال، وتحرَّجوا مِنْ أخْذ الطعام بلا ثَمَنٍ؛ فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾؛ أي: لقد علمْتُمْ منا التحرِّي، وروي أنهم كانوا قَدِ ٱشتهروا بِمِصْرَ بصَلاَحٍ وتعفُّفٍ، وكانوا يجعلُونَ الأَكِمَّةَ في أفواه إبلهم، لَئَلاً تَنَالَ زروعَ الناسِ؛ فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتم﴾، والتاء في «تَاللَّهِ» بدلٌ من الواو، ولا تدخُلُ التَّاء في القَسَمِ إلاَّ في هذا ٱلاسم.

قال ابن العربيِّ في «**أحكامه**»[(١)]: قال الطبري[(٢)]: قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ على حذف مضافٍ، تقديره: جزاؤه استعبادُ أو ٱسترقاقُ مَنْ وجدَ في رَحْله. انتهى.

وقولهم: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾: أي: هذه سُنَّتنا ودِينُنا في أَهْل السَّرقة؛ أنْ يتملَّك السارق؛ كما تَمَلَّكَ هو الشيءَ المَسْرُوق.

وقوله سبحانه: ﴿فبدأ بأوعيتهم ...﴾ الآية: بدؤه أيضاً من أوعيتهم تمكينٌ للحِيلَةِ، وإبعادٌ لظُهُور أنها حيلةٌ، وأضافَ اللَّه سبحانَهُ الكَيْدَ إلى ضميره؛ لَمَّا خَرَجَ القَدْرُ الذي أباح به ليُوسُفَ أَخْذَ أخِيهِ مَخْرَجَ ما هو في ٱعتقادِ النَّاس كَيْدٌ، وقال السُّدِّيُّ والضَّحَّاك: ﴿كِدْنَا﴾: معناه: صَنَعْنَا[(٣)]، و﴿دين الملك﴾: فسَّرَه ابن عباس بسُلْطَانِهِ[(٤)]، وفسَّره قتادة بالقضاءِ والحُكْم[(٥)]، وهذا متقاربٌ، قال ابن العربيِّ في «**أحكامه**»[(٦)]: قوله تعالى: ﴿كذلك

---

(١) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٩٨).
(٢) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٧/ ٢٥٨).
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦١) برقم: (١٩٥٧٣)، وبرقم: (١٩٥٧٤)، والبغوي (٢/ ٤٤٠)، وابن عطية (٣/ ٢٦٥)، والسيوطي (٤/ ٥١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦١) برقم: (١٩٥٧٥)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٠)، وابن عطية (٣/ ٢٦٦)، والسيوطي (٤/ ٥١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦١) برقم: (١٩٥٧٧ ـ ١٩٥٧٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، والسيوطي (٤/ ٥٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٦) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٠٩٩).

كِدْنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾، إذ كان المَلِكُ لا يَرَى ٱسترقاقَ السَّارق، وإنما كان دِينُهُ أنْ يأخذ المجنيُّ / عليه من السارق مِثْلَي السَّرقَةِ. ﴿إلا أن يشاء اللَّه﴾: ٱلتزامُ ٢٥٨ ب الإِخوة لدين يعقوبَ بٱلاسترقاقِ، فَقَضَى عليهم به، انتهى.

قال * ع[1] *: وٱلاستثناء في هذه الآيةِ حكايةُ حال التقديرِ، إلا أنْ يشاء اللَّه مَا وَقَعَ من هذه الحيلةِ، وروَى أبو عمر بْنُ عَبْدِ البَرِّ بسنده، عن مالك، عن زيد بن أسلم؛ أنه قال في قَوْلِهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿نرفعُ درجاتٍ من نشاء﴾: قال: بالعلْمِ، انتهى من «**كتاب العلم**».

وقوله سبحانه: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾، المعنى: أنَّ البَشَرَ في العلْم درجاتٌ، فكلُّ عالمٍ فلا بُدَّ مِنْ أعْلَمَ منه، فَإِما من البَشرِ، وإِما اللَّه عزَّ وجلَّ، فهذا تأويلُ الحَسَن وقتادة وابْن عباس[2] وروي أيضاً عن ابن عبَّاس: إنما العليمُ اللَّهُ، وهو فوقَ كل[3] ذي علم.

قال ابن عطاء في «**التنوير**»: ٱعلم أنَّ العلْمَ حيثُ ما تكرَّر في الكتاب العزيز، أو في السُّنَّة، فإنما المراد به العِلْمُ النافِعُ الذي تقارنُهُ الخشية، وتكتنفه المَخَافة. انتهى.

قال الشيخ العارفُ أبو القاسم عبْدُ الرحمٰن بْنُ يوسُفَ اللَّجَائيُّ رحمه اللَّه: إذا كَمُلَتْ للعبدِ ثلاثُ خِصَالٍ، وصَدَقَ فيها، تفجَّرَ العِلْمُ مِنْ قَلْبِهِ على لسانه، وهي الزُّهْد، والإِخلاص، والتقوى، قال: ولا مَطْمَعَ في هذا العلْمِ المذكور إلا بَعْدَ معالجة القَلْبِ مِنْ علله التي تشينه، كالكِبْر، والحَسَد، والغَضَبِ، والرياء، والسُّمْعة، والمَحْمَدَة والجاه، والشَّرَف، وعُلُوِّ المنزلة، والطمَعِ، والحِرْصِ، والقَسْوة، والمُدَاهَنة، والحِقْد، والعَدَاوة، وكل ما عَدَدْنَاهُ من العلل، وما لم نَعُدَّهُ راجعٌ إلى أصل واحدٍ، وهو حبُّ الدنيا، لأنَّ حبها عنه يتفرَّعُ كلُّ شر، وعنه يتشعَّب كلُّ قبيح، فإذا زالَتْ هذه العِلَلُ ظهر الصِّدْق، والإِخلاص، والتواضُعُ، والحِلْم، والوَرَع، والقَنَاعة، والزُّهْد، والصَّبْر، والرِّضا، والأُنْسُ، والمَحَبَّة، والشَّوْق، والتوكُّل، والخَشية، والحُزْن، وقِصَر الأَمَلِ، وَمِزَاجُ النية بالعمل، فينبُعُ

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) برقم: (١٩٥٩٧ ـ ١٩٥٩٨ ـ ١٩٥٩٩ ـ ١٩٦٠٠) وبرقم: (١٩٥٩٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، وابن كثير (٢/ ٤٨٦)، والسيوطي (٤/ ٥٣)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٣) برقم: (١٩٥٨٧ ـ ١٩٥٨٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، وابن كثير (٢/ ٤٨٦)، والسيوطي (٤/ ٥٢)، وعزاه للفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في «**الأسماء والصفات**».

العِلْمُ، وينتفي الجَهْل، ويضيءُ القَلْب بنور إلاهيٍّ، ويتلألأ الإيمان، وتوضح المعرفةُ، ويتَّسِعُ اليقينُ، ويتقوَّى الإلهام، وتبدو الفراسَاتُ، ويصفى السرُّ، وتتجلَّى الأسرار، وتوجد الفوائدُ. قال رحمه اللَّه: وليس بَيْنَ العبدِ والترقِّي مِنْ سُفْلٍ إلى عُلْوٍ إلاَّ حُبُّ الدنيا؛ فإن الترقِّي يتعذَّر مِنْ أجْلِ حبِّها؛ لأنها جاذبة إلى العالَم الظلمانيِّ، وطباعُ النفوس لذلك مائلةٌ، فإنْ أردتَّ أنْ تقتفي أثَرَ الذاهِبينَ إلى اللَّه تعالى، فَٱسْتَخِفَّ بدنياك، وٱنْظُرْها بعَيْنِ الزَّوال، وأنْزِلْ نَفْسَكَ عندَ أخْذِ القُوتِ منها منزلَةَ المُضْطَرِّ إلى الميتة، والسَّلام. انتهى.

ورُوي أن المفتِّش كان إذا فَرَغَ من رَحْلِ رَجُلٍ، فلم يجدْ فيه شيئاً، ٱستغفر اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فعله ذلك، وظاهر كلام قتادة وغيره؛ أنَّ المستغفِرَ هو يُوسُفُ حتى انْتَهَى إلى رَحْلِ بِنْيَامِينَ، فقال: ما أظُنُّ هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: واللَّهِ، لاَ تَبْرَحْ حَتَّى تُفَتِّشَهُ، فهو أطْيَبُ / لنفسك ونفوسِنَا، فَفَتَّشَ حينئذٍ، فأخْرَجَ السِّقاية، وروي ١٢٥٩أ
أنَّ أُخوة يوسُفَ لما رأَوْا ذلك، عَنَّفُوا بِنْيَامِينَ، وقالوا له: كَيْفَ سَرَقْتَ هذه السِّقَايَةَ؟ فقال لهم: واللَّهِ، ما فَعَلْتُ، فَقَالُوا له: فَمَنْ وَضَعَهَا في رَحْلِكَ؟ قالَ: الذي وَضَعَ البِضَاعَةَ في رِحَالِكُمْ، والضمير في قوله: ﴿ٱستخرجها﴾: عائدٌ على السِّقاية، ويحتمل على السَّرقة.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿قالوا إن يسرقْ﴾ أي: قالوا إخوةُ يوسُفَ: إن كان هذا قَدْ سَرَقَ، فغير بِدْعٍ من ٱبْنَيْ رَاحِيلَ؛ لأَن أخاه يوسُفَ قد كان سَرَقَ، فهذا من الإخوة إنحاءٌ على ٱبْنَيْ رَاحِيلَ يُوسُفَ وَيَامِينَ، وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كَانَتْ بحسب الظاهِرِ، ومُوجِبِ الحُكْم في النازلتين، فلم يَعْنُوا في غِيبَةٍ ليُوسُفَ، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جَرَى؛ ليزولَ بعضُ المَعرَّة عنهم، ويختصَّ بها هذان الشقيقَان، وأما ما رُوِيَ في سَرِقَةِ يوسُفَ، فالجمهورُ عَلَى أنَّ عمَّته كانَتْ رَبَّتْهُ، فلما شَبَّ، أَراد يعقوبُ أخْذَهُ منها، فَوَلِعَتْ به، وأشفقَتْ من فِرَاقِهِ، فأخذَتْ مِنطَقَةَ إسحاق، وكانت متوارثةً عندهم، فنطَّقته بها مِنْ تَحْتِ ثيابه، ثم صاحَتْ، وقالَتْ: إني قَد فَقَدتُ المِنْطَقَةَ، ويوسُفُ قد خَرَجَ بها، ففتَّشَتْ، فَوُجِدَتْ عنده، فٱسترقَّته، حَسَبَ ما كان في شَرْعِهِم، وبقي عندَها حَتَّى ماتَتْ، فصار عِنْدَ أبيه.

وقوله: ﴿فأسرَّها يوسُفُ﴾: يعني: أسرَّ الحزَّة التي حَدَثَتْ في نفسه من قول الاخوة.

وقوله: ﴿أنتم شرٌّ مكاناً . . .﴾ الآية: الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً؛ كأنه أَسَرَّ لهم كراهيةَ مقالتهم، ثم نَجَهَهُمْ بقوله: ﴿أنتم شر مكاناً﴾: أي: لسوءِ أفعالكم، واللَّه أعلم؛ أنْ كان ما وصفتموه حقًّا، وفي اللفظ إشارةٌ إلى تكذيبهم؛ ومِمَّا يُقَوِّي هذا عِنْدِي أنهم تركُوا الشَّفاعة بأنفسهم، وعدَلُوا إلى الشفاعة بأبيهم عليه السلام، وقالتْ فرقة: لم يقُلْ هذا الكلامَ إلا في نَفْسه، وإنه تفسيرٌ للذي أَسَرَّ في نفسه، فكأَنَّ المراد: قال في نَفْسِهِ: أنتم شرٌّ مكاناً، وذكر الطبريُّ هنا قصصاً ٱختصارُهُ أنَّه لما ٱستخرِجَتِ السقايةُ مِنْ رَحْلِ يامين، قال إخوته: يا بَنِي رَاحِيلَ، لاَ يَزَالُ البلاءُ يَنَالُنا مِنْ جِهَتِكُمْ، فقال يَامِينُ: بل بَنُو رَاحِيلَ ينالُهُمُ البلاءُ منكم، ذهبتم بأخِي، فَأَهْلَكْتُمُوهُ، ووضع هذا الصُّواعَ في رَحْلِي الذي وَضَعَ الدراهمَ في رحالِكُمْ، فقالوا: لا تَذْكُر الدراهم، لَئَلاَّ نؤْخَذَ بها، ثم دَخَلُوا على يوسُفَ، فأخذ الصُّواع، فَنَقَرَهُ، فَطَنَّ، فقال: إنه يخبر أنَّكم ذهبتم بأخٍ لكم، فَبِعْتُمُوهُ، فَسَجَدَ يامين، وقال: أيها العزيزُ، سَلْ صُوَاعَكَ هذا يُخْبِرْكَ بالحقِّ، في قَصص يَطولُ آثرنا ٱختصارَهُ.

وروي أن رُوبِيلَ غَضِبَ، وقَفَّ شَعْرَه، حتى خرج من ثيابِهِ، فأمر يوسُفُ بنيًا له، فمسَّه فسكَنَ غضبه، فقال رُوبيلُ: لقد مسَّني أحدٌ من ولد يعقُوبَ، ثم إنهم تشاوَرُوا في محارَبَةِ يُوسُفَ، وكانوا أَهْلَ قُوَّةٍ، لا / يُدَانَوْنَ في ذلك، فلما أحَسَّ يوسُفُ بذلك، قام إلى ٢٥٩ ب
رُوبِيلَ، فلبَّبه وصَرَعَهُ، فرأوا مِنْ قُوَّته ما ٱستعظَمُوه، وقالوا: ﴿يأيُّها العَزِيزُ . . .﴾ الآية، وخاطبوه بٱسْم العزيز، إذ كان في تِلْكَ الخُطَّةَ بعَزْلِ الأول أو موته، على ما رُوِيَ في ذلك، وقولهم: ﴿فخُذْ أحدنا مَكَانَهُ﴾ يحتمل أنْ يكونَ ذلك منهم مجازاً، ويحتمل أنْ يكون حقيقةً علَى طريقِ الحَمَالَةِ؛ حتى يَصِلَ يَامِينُ إلى أبيه، ويعرف يعقوبُ جليَّة الأمر، فمَنَع يوسُفُ من ذلك، وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ . . .﴾ الآية.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما ٱستيأَسُوا منه . . .﴾ الآية: يقال: يَئِسَ وٱسْتَيْأَسَ بمعنًى واحدٍ، قال البخاريُّ: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾: اعتزلوا، والجَمْع أَنْجِيَةٌ، وللاثنين والجمع نَجِيٌّ

وأَنْجِيَة انتهى.

وقال الهَرَوِيُّ: ﴿خَلَصُوا نَجِيًا﴾: أي تَمَيَّزُوا عن الناس متناجين انتهى.

و﴿كَبيرُهم﴾: قال مجاهدٌ هو شَمْعُونُ، كان كبيرهم رَأياً وعِلْماً، وإِن كان رُوبِيلُ أَسنَّهم[١]، وقال قتادة: هو روبيلُ، لأنه أسنُّهم[٢]، وهذا أظهرُ ورجَّحه الطبريُّ[٣]، وذكرهم أخوهم ميثاقَ أبيهم: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقوله: ﴿فَلَنْ أبرح الأرض﴾: قال: * ص *: «بَرَحَ» التامَّةُ بمعنى ذَهَبَ وظَهَرَ؛ ومنه: برح الخَفَاء، أي: ظهر، والمتوجِّه هنا: معنى «ذهب»، لكنَّه لا ينصب الظرف المكانيَّ المختصَّ إِلا بواسطة، فَاْحتيج إِلى تضمينه معنى «فارق»، والأرض مفعولٌ به، ولا يجوزُ أَنْ تكون «أبرح»: ناقصةً انتهى.

وقوله: ﴿ٱرجعوا إِلى أبيكم﴾: الأمر بالرجُوعِ قيلَ: هُوَ مِنْ قولِ كبيرهم، وقيل: من قَوْلِ يوسُفَ، والأول أظهرُ، وذكر الطبرِيُّ أَنَّ يوسُفَ قال لهم: إِذا أتيتم أباكم فَاْقرؤوا علَيْه السَّلام، وقولوا له: إِنَّ مَلِكَ مِصْرَ يدْعُو لك أَلاَّ تَمُوتَ حَتَّى تَرَى ولدك يوسُفَ، ليعلم أَنَّ في أرض مِصْرَ صِدِّيقين مثله، وقرأ الجمهور: «سَرَقَ»، وروي عن الكسائي[٤] وغيره: «سُرِّقَ» - ببنائه للمفعول -.

﴿وما شهدناإلا بما علمنا﴾: أي: بٱعتبار الظَّاهر، والعِلْمُ في الغَيْبِ إِلى اللَّه، لَيْسَ ذلك في حِفْظنا، هذا تأويل ابْنِ إِسحاق، ثم ٱستشهدوا بالقرية التي كانوا فيهَا، وهي مِصْر؛ قاله ابن عباس[٥]، والمراد أَهلُها، قال البُخَارِيُّ: ﴿سَوَّلَتْ﴾: أي: زَيَّنَتْ، وقولُ يعقُوبَ: ﴿عَسَى اللَّه أن يأتيني بهم جميعاً﴾ يعنى بيوسُفَ ويَامِينَ ورُوبِيلَ الذي لَمْ يَبْرَحِ الأَرضَ،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٩) برقم: (١٩٦٢٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٢)، وابن عطية (٣/ ٢٦٩)، والسيوطي (٤/ ٥٤ - ٥٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٠) برقم: (١٩٦٣٠)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٢)، وابن عطية (٣/ ٢٦٩)، والسيوطي (٤/ ٥٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٧٠) برقم: (١٩٦٣٠ - ١٩٦٣١).

(٤) وقرأ بها أبو ذر وابن عباس، كما في «الشواذ» ص: (٦٩)، وقرأها مبنية للمفعول مشددة الكسائي في رواية ابن أبي شريح عنه، وقرأ بها أحمد بن جبير المكي، والوليد بن حسان، عن يعقوب، وغيرهم.
ينظر: «البحر المحيط» (٥/ ٣٢٩)، و«الدر المصون» (٤/ ٢٠٣).

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٣) برقم: (١٩٦٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٧١).

ورجاؤه هذا مِنْ جهاتٍ، منها: حُسْن ظَنّه باللَّه سبحانه في كلِّ حالٍ، ومنها: رؤيا يوسُفَ المتقدِّمة؛ فإنه كان ينتظرُها، ومنها: ما أخبروهُ عَنْ مَلِكِ مِصْر؛ أنه يدعو له برؤية ٱبْنِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وتولَّى عنهم﴾: أي: زال بوجْهه عنهم مُلْتَجِئاً إلى اللَّه: ﴿وقال: يا أَسَفَى على يوسف﴾.

قال الحسن: خُصَّت هذه الأمَّة بالاستِرجاعِ؛ ألاَ تَرَى إلى قول يعقُوبَ: ﴿يا أَسفَى﴾[1].

قال * ع[2] *: والمراد يا أسفِي، لكنْ هذه لُغَةُ مَنْ يردُّ ياء الإضافة ألفاً؛ نحو: يا غُلاَمَا، ويَا أَبَتَا، ولا يبعد أَنْ يجتمع ٱلاسترجاعُ، ويَا أَسَفَى لهذه الأُمَّة، وليعقوب عليه
٢٦٠أ السلام، وروي أن يعقوبَ عليه السلام/ حَزِنَ حُزْنَ سبعين ثَكْلَى، وأُعطِيَ أَجْرَ مَائَةِ شهيدٍ، وما ساءَ ظَنُّهُ باللَّه قطُّ، رواه الحَسَنُ عن النبيِّ ﷺ[3]، ﴿فهو كظيمٌ﴾ بمعنى: كاظِم، كما قال: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ووصف يعقوب بذلك، لأنه لم يَشْكُ إلى أَحَدٍ، وإنما كان يكْمد في نَفْسه، ويُمْسِك همَّه في صَدْره، فكان يكظمه، أي: يردُّه إلى قلبه.

* ت * وهذا ينظر إلى قولِ النبيِّ ﷺ: «القَلْبُ يَحْزَنُ وَالعَيْنُ تَدْمَعُ وَلاَ نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي الرَّبَّ . . .» الحديث، ذكر هذا ﷺ عنْدَ مَوْتِ ولده إبراهيم[4]، قال ابن المبارك في «**رقائقه**»: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، قَالَ: كَظم على الحُزْنِ، فلم يقُلْ إلا خَيْراً[5] انتهى، قال ابن العربيِّ في «**أحكامه**»: وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال في ٱبْنه إبراهيم: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضِي الرَّبَّ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»، وقال أيضاً في الصحيح ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلاَ بِحُزْنِ القَلْبِ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ بِهَذَا ـ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ـ أَوْ يَرْحَمُ»[6] انتهى. خرَّجه البخاريُّ وغيره.

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٢) بنحوه.
(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٧٢).
(٣) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٧/ ٢٨١) برقم: (١٩٧٢٥)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٥٨)، وعزاه لابن جرير.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٦) برقم: (١٩٦٧٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٤) نحوه.
(٦) أخرجه البخاري (٣/ ٢٠٩) كتاب «الجنائز» باب: البكاء عند المريض، حديث (١٣٠٤)، ومسلم (٢/ =

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قالوا تاللَّه تفتؤا﴾ الآية: المعنى: تالله لا تفتأ فتحذف «لا» في هذا الموضع من القسم؛ لدلالة الكلام عليها؛ فمن ذلك قول امرىء القيس: [الطويل]

فَـقُـلْـتُ يَـمِـيـنَ الـلَّـهِ أَبْـرَحُ قَـاعِـداً ... وَلَـوْ قَـطَـعُـوا رَأْسِـي لَـدَيْـكِ وَأَوْصَـالِـي (١)

ومنه قول الآخر: [البسيط]

تَـالـلَّـهِ يَـبْـقَـىٰ عَـلَـى الأَيَّـامِ ذُو حِـيَـدٍ ... . (٢)

---

٦٣٦) كتاب «الجنائز» باب: البكاء، حديث (١٢/ ٩٢٤)، والبيهقي (٤/ ٦٩) من حديث عبد اللَّه بن عمر به، والحديث أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٨٥ ـ بتحقيقنا)، وقال: هذا حديث متفق على صحته.

(١) ينظر البيت في: «ديوانه» ص: (٣٢)، و«خزانة الأدب» (٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩)، (١٠/ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥)، و«الخصائص» (٢/ ٢٨٤)، و«الدرر» (٤/ ٢١٢)، و«شرح أبيات سيبويه» (٢/ ٢٢٠)، و«شرح التصريح» (١/ ١٨٥)، و«شرح شواهد المغني» (١/ ٣٤١)، و«شرح المفصّل» (٧/ ١١٠)، (٨/ ٣٧)، (٩/ ١٠٤)، و«الكتاب» (٣/ ٥٠٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٤٦٣) (يمن)، و«اللمع» ص: (٢٥٩)، و«المقاصد النحويّة» (٢/ ١٣)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (١/ ٢٣٢)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ٩٣ ـ ٩٤)، و«شرح الأشموني» (١/ ١١٠)، و«مغني اللبيب» (٢/ ٦٣٧)، و«المقتضب» (٢/ ٣٦٢)، و«همع الهوامع» (٢/ ٣٨).

(٢) صدر بيت وعجزه:

.... بِـمُـشْـمَـخِـرٍّ بِـهِ الـظَّـيَّـانُ والآسُ

وهو لأبي ذؤيب الهذلي في «شرح شواهد الإيضاح» ص: (٥٤٤)، و«شرح شواهد المغني» (٢/ ٥٧٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٧٥) (ظين) ولأمية بن أبي عائذ في «الكتاب» (٣/ ٤٩٧)، ولمالك بن خالد الخناعي في «جمهرة اللغة» ص: (٥٧)، و«شرح أبيات سيبويه» (١/ ٤٩٩)، و«شرح أشعار الهذليين» (١/ ٤٣٩)، و«شرح شواهد الإيضاح» ص: (٣٠٤)، و«لسان العرب» (حيد)، (قرنس)، (ظيا)، ولعبد مناة الهذلي في «شرح المفصّل» (٩/ ٩٨) ولأبي ذؤيب أو لمالك في «شرح أشعار الهذليين» (١/ ٢٢٨)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية في «خزانة الأدب» (١٠/ ٩٥)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية أو لعبد مناف الهذليّ أو لِلفَضل بن عباس أو لأبي زبيد الطائي في «خزانة الأدب» (٥/ ١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ١٧٨)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأميّة أو لعبد مناف في «الدرر» (٤/ ١٦٢، ١٦٥)، ولأميّة أو لأبي ذؤيب أو للفضل بن العباس في «شرح المفصّل» (٩/ ٩٩)، وللهذليّ في «جمهرة اللغة» ص: (٢٣٨)، وبلا نسبة =

أراد: لا أَبْرَحُ، ولاَ يَبْقَى، و«فَتِيءَ»: بمنزلة زَالَ وبَرِحَ في المعنَى والعملِ؛ تقول: واللَّهِ، لا فَتِئْتَ قَاعِداً؛ كما تقول: لاَ زِلْتُ وَلاَ بَرِحْتُ، وعبارة الداوودي: وعن ابن عباس: تَفْتَأُ؛ أي: لا تزالُ تَذْكُرُ يوسُفَ، ﴿حتى تكونَ حرضاً﴾[١]. انتهى، والحَرَضُ: الذي قد نهاه الهَرَمُ أو الحُبُّ أو الحُزْنُ إلى حالِ فَسادِ الأَعضاء وَالبَدَنِ والحسِّ، يقال: رجلٌ حَارِضٌ، أي: ذو همٍّ وحزنٍ؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي حَتَّى بَلِيتُ وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ[٢]

والحَرِضُ بالجملة الذي فَسَدَ ودنا موته، قال مجاهد: الحَرَضُ: ما دون الموت[٣]؛ وفي حديث النبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمْرَضُ حَتَّى يُحْرِضَهُ المَرَضُ إلاَّ غُفِرَ لَهُ»[٤] انتهى من **«رقائق ابن المبارك»**.

ثم أجابهم يعقوبُ عليه السلام بقوله: ﴿إنما أشكوا بثي وحزني إلى اللَّه﴾: أي: إني لست ممَّن يَجْزَعُ ويَضْجَرُ، وإنما أشكو إلى اللَّه، والبَثُّ: ما في صَدْرِ الإنسان مما هو مُعْتَزِمٌ أَنْ يبثه وينشره.

وقال أبو عُبَيْدة وغيره: البَثُّ: أَشدُّ الحزن[٥] قال الداووديُّ عن ابن جُبَيْر، قال: مَنْ بَثَّ، فلم يصبِرْ، ثم قرأ: ﴿إنَّما أَشكو بثي وحزني إلى اللَّه﴾. انتهى.

وقوله: ﴿ولا تيأسوا من رَوْح اللَّه . . .﴾ الآية: «الرَّوْحُ»: الرحمة، ثم جعل اليأْسَ مِنْ رحمة اللَّه وتفريجه مِنْ صفة الكافرين؛ إذ فيه إما التكذيبُ بالرُّبوبية، وإما الجهلُ بصفاتِ اللَّه تعالى، / والـ﴿بضاعة﴾: القِطْعة من المال يُقْصَدُ بها شراءُ شَيْءٍ، ولزمها عُرْفُ الفقْهِ فيما لا حَظَّ لحاملها من الربْحِ، والـ ﴿مُزجَاة﴾: معناها: المدفوعَةُ المتحيَّل لها، ٢٦٠ ب

= في **«الأشباه والنظائر»** (٦/ ٢٣)، و**«الجنى الداني»** ص: (٩٨)، و**«جواهر الأدب»** ص: (٧٢)، و**«الدرر»** (٤/ ٢١٥)، و**«رصف المباني»** ص: (١١٨، ١٧١)، و**«شرح الأشموني»** (٢/ ٢٩٠)، والصاحبي في **«فقه اللغة»** ص: (١١٤)، و**«اللامات»** ص: (٨١)، و**«مغني اللبيب»** (١/ ٢١٤)، و**«المقتضب»** (٢/ ٣٢٤)، و**«همع الهوامع»** (٢/ ٣٢، ٣٩).

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٧) برقم: (١٩٦٨٦)، وذكره السيوطي (٤/ ٥٩)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) البيت للعرجي ينظر: **«أمالي ابن الشجري»** (١/ ٣٦٩)، و**«الطبري»** (١٦/ ٢٢٢)، و**«مجاز القرآن»** (١/ ٣١٧)، و**«الصحاح»** و**«التاج»** و**«اللسان»** (حرض)، **«روح المعاني»** (٥/ ١٩)، **«القرطبي»** (٩/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٨) برقم: (١٩٦٩٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في **«الزهد»** (١/ ٣٠).

(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٣).

وبالجملة؛ فمَنْ يسوق شيئاً، ويتلطَّف في تسييره، فقد أزجاه، فإذا كانَتِ الدراهمُ مدفوعةً نازلةَ القَدْر، تحتاج أنْ يُعْتَذَرَ معها، ويُشْفَعَ لها، فهي مزجاةٌ، فقيل: كان ذلك لأنها كانَتْ زيوفاً، قاله ابن عباس[١].

وقيل: كانَتْ بضاعتهم عروضاً، وقولهم: ﴿وتصدَّقَ علينا﴾: معناه ما بَيْنَ الدراهم الجيادَ وبَيْنَ هذه المُزْجَاة، قاله السُّدِّيُّ وغيره[٢] وقال الداوودي عن ابن جريجٍ: ﴿وتَصَدَّقْ علينا﴾: قال: ٱرْدُدْ علينا أخانا، انتهى[٣]، وهو حسن.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسُفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾، روي أنَّ يوسُف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسَّنا وأهلنا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، واستعطفوه رَقَّ ورحمهم، قال ابنُ إسحاق: وٱرفضَّ دمعه باكياً، فَشَرَعَ في كَشْفِ أمره إليهم، فروي أنه حَسَرَ قناعه، وقال لَهُمْ: ﴿هل علمتم...﴾[٤] الآية، و﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾: أي: التَّفْرِيق بينَهُما في الصِّغَر وما نالهما بسَبَبِكُم من المِحَن؛ ﴿إذ أنتم جاهلون﴾، نسبهم إِمَّا إلى جَهْلِ المعصيةِ، وإما إلى جَهْلِ الشَّبَابِ وقلَّةِ الحُنْكَة، فلمَّا خاطبهم هذه المخاطبة، تنبَّهوا، ووقَعَ لهم من الظَّنِّ القويِّ وقرائنِ الحال؛ أنه يوسُفُ فقالوا: ﴿أئنك لأنتَ يوسُفُ﴾؛ مستفهمين، فأجابهم يوسف كاشفاً عن أمره، ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ وباقي الآية بيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾: هذا منهم ٱسْتِنْزالٌ ليوسُفَ، وإِقرار بالذنْبِ في ضِمْنه ٱستغفارٌ منه، و﴿آثرك﴾: لفظٌ يعمُّ جميعَ التفضيل.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٢٨٦) برقم: (١٩٧٤٨) نحوه، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٦)، وابن عطية (٣/ ٢٧٥)، وابن كثير (٢/ ٤٨٨)، والسيوطي (٤/ ٦٢)، وعزاه لأبي عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٨٩) برقم: (١٩٧٨٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٦).
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٨٩) برقم: (١٩٧٩٣)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٦)، وابن عطية (٣/ ٢٧٦)، والسيوطي (٤/ ٦٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.
(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٢٩١) برقم: (١٩٧٩٧)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٦)، وابن عطية (٣/ ٢٧٦).

وقوله: ﴿لا تَثريب عليكم﴾ عفوٌ جميلٌ، وقال عكرمة: أوحى اللَّه إلى يوسف بِعَفْوِكَ عَنْ إخوتك، رَفَعْتُ لك ذكْرَك[١]، و«التثريب»: اللوْمُ والعقوبةُ وما جَرَى معهما من سوءِ مُعْتَقَدٍ ونحوه، وعبَّر بعضُ الناس عن التثْريب بالتعيير، ووقَفَ بعْضُ القَرَأَةِ ﴿عليكم﴾، وابتدأ[٢]: ﴿اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّه لكم﴾؛ ووقف أكثرهم: ﴿اليوم﴾ وابتدأ: ﴿يغفر الله لكم﴾ على جهة الدعاء وهو تأويلُ ابن إسحاق[٣] والطبريِّ، وهو الصحيحُ الراجح في المعنَى؛ لأن الوقْفَ الآخرَ فيه حُكْم على مغفرة اللَّه، اللَّهُمَّ إلا أَنْ يكون ذلك بوَحْيٍ.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وقوله: ﴿اْذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وَجْهِ أَبي﴾: قال النَّقَّاش: روي أن هذا القميصَ كَانَ مِنْ ثياب الجَنَّة، كساه اللَّه إبراهيم، ثم توارَثَهُ[٤] بنوه.

قال * ع[٥] *: هذا يحتاج إلى سندٍ والظاهرُ أنه قميصُ يوسُفَ كسائر القُمُصِ، وقولُ يوسف: ﴿يأت بصيراً﴾ فيه دليلٌ على أنَّ هذا كلَّه بوحْيٍ وإعلام مِنَ اللَّه تعالى، وروي أنَّ يعقوب وجد ريحَ يوسُفَ وبَيْنَهُ وبَيْنَ القَميصِ مسيرةُ ثمانيةِ أيام؛ قاله ابن عباس[٦]، وقال: هاجَتْ ريحٌ، فحملَتْ عَرْفَه، وقول يعقوب: ﴿إني لأَجِدُ ريحَ يُوسُفَ﴾: مخاطبةٌ لحاضريه، فروي أنهم كانوا حَفَدَتَهُ، وقيل: كانوا بَعْضَ بنيه، وقيل: كانوا / قرابتَهُ ٢٦١ أ
و﴿تُفَنِّدون﴾ معناه: تردُّون رأْيي، وتدْفَعُون في صَدْره، وهذا هو التفنيد لغة، قال مُنْذِرُ بن سَعِيدٍ: يقال: شَيْخٌ مُفند، أيْ: قد فسد رأيه[٧] والذي يشبه أنَّ تفنيدهم ليعقوبَ؛ إنما كان لأَنهم كانوا يعتقدون أنَّ هواه قد غَلَبَهُ في جانِبِ يوسُفَ.

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٧).
(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٧٨)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٣٣٨)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٢١٤).
(٣) ينظر: «**الطبري**» (٧/ ٢٩١).
(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٨).
(٥) ينظر: «**المحرر**» (٣/ ٢٧٨).
(٦) أخرجه الطبري (٧/ ٢٩٣) برقم: (١٩٨١٣)، وذكره البغوي (٢/ ٤٤٨)، وابن عطية (٣/ ٢٧٨)، والسيوطي (٤/ ٦٦)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٧) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٧٨).

وقال * [ص] *: معنى ﴿تفندون﴾: تسفِّهون، انتهى، وقولهم: ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾: يريدون: لَفِي ٱنتلافِكَ في مَحَبَّة يوسف، وليس بالضَّلال الذي هو في العُرْف ضدُّ الرشادِ؛ لأن ذلك من الجَفَاءِ الذي لا يَسُوغُ لهم مواجَهته به.

وقوله سبحانه: ﴿فلما أنْ جاء البشير ألقاه على وجهه فٱرتَدَّ بصيراً﴾: روي عن ابنَ عَبَّاسٍ؛ أن البشير كان يَهُوذَا؛ لأنه كان جَاءَ بِقَمِيصِ الدَّمِ(١) و﴿بَصيراً﴾: معناه: مُبْصراً، وروي أنه قال للبشير: على أيِّ دِينٍ تركْتَ يوسُفَ؟ قال: على الإسلام؛ قال: الحَمْدِ للَّهِ؛ الآن كَمُلَتِ النعمة.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قالوا يا أبانا ٱستغفر لنا ذنوبَنا ...﴾ الآية: روي أنَّ يوسُفَ عليه السلام لما غَفَر لإخوته، وتحقَّقوا أنَّ أباهم يغفر لهم، قال بعضُهم لبعض: ما يُغْنِي عنا هذا إنْ لم يغفر اللَّه لَنَا، فطلبوا حينئذٍ من يعقُوبَ عليه السلام أنْ يطلب لهم المغفرَةَ مِنَ اللَّه تعالى، وٱعترفوا بالخَطَإِ، فقال لهم يعقوب: ﴿سوف أستغفر لَكُمْ ربي﴾.

* [ت] *: وعن ابن عباس؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعليٍّ رضي اللَّه عنه: «إِذَا كَانَ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ في ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنَّها سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ وَالدُّعَاءُ فِيهَا مُسْتَجَابٌ، وقد قال أخي يعقوبُ لبنيه: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾، يقول: حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ ...»(٢) وذكر الحديث، رواه الترمذيُّ، وقال: حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مُسْلم، ورواه الحاكم في «**المستدرك على الصحيحين**»، وقال: صحيحٌ

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٦٣، ٥٦٥) كتاب «الدعوات» باب: دعاء الحفظ، حديث (٣٥٧٠)، والحاكم(١/ ٣١٦) من طريق الوليد بن مسلم، عن ابن جريج، عن عطاء، وعكرمة، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وقال الذهبي: هذا حديث منكر شاذ، أخاف ألا يكون موضوعاً، وقد حيرني واللَّهِ جودةُ إسناده.

على شرط الشيخين، يعني البخاريَّ ومسلماً انتهى من «**السلاح**».

وقوله سبحانه: ﴿ءاوى إليه أبويه﴾ قال ابنُ إسحاق، والحسن: أراد بالأبوين: أباه وأمَّه[1]، وقيل: أراد؛ أباه وخالته.

قال * ع[2] *: والأول أظهر؛ بحسب اللفظِ، إلا أنْ يثبت بِسنَدٍ أنَّ أمه قد كانَتْ ماتَتْ.

وقوله: ﴿إن شاء اللَّه﴾ هذا الاستثناءُ هو الذي نَدَبَ القرآن إليه؛ أَن يقوله الإنسانُ في جميعِ ما ينفذه في المستقبل، و﴿العَرْش﴾: سريرُ المُلْك، و﴿خَرُّوا له سُجَّداً﴾: أي: سجودَ تَحِيَّةٍ، فقيل: كان كالسُّجود المعهودِ عندنا من وَضعِ الوجْهِ بالأرض.

وقيل: بل دون ذلك كالرُّكوعِ البالغ ونحوه ممَّا كان سيرةَ تحيَّاتهم للملوكِ في ذلك الزمَانِ، وأجمع المفسِّرون؛ أنه كانَ سجُودَ تحيَّة لا سُجُودَ عبادةٍ، وقال الحسنُ: الضمير في «له» للَّه عزَّ وجلَّ، ورُدَّ هذا القولُ على الحَسَنِ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقًّا﴾: المعنى: قال يوسُفُ ليعقوبَ، هذا السجودُ الذي كانَ منكُم هو ما آلَتْ إليه رؤياي قديماً في الأحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمْس والقمر، ﴿قد جعلها ربِّي حقًّا﴾ ثم أخذ عليه السلام يعدِّد نعم اللَّه عَلَيْه، وقال: وقد أخرجني من السجن، وترك ذكر إخراجه من الجُبِّ؛ لأنَّ في ذكره
٢٦١ب تجْدِيدَ فعْلِ / إخوته وخِزْيِهِم، وتَحْرِيكَ تِلْكَ الغوائِلِ، وتخبيثَ النفوسِ، ووجْه آخر أنه خَرَجَ مِنَ الجُبِّ إلى الرِّقِّ، ومن السِّجْنِ إلى المُلْكِ، فالنعمةَ هنا أَوضَحُ، ﴿إنَّ رَبي لطيفٌ لما يشاء﴾، أي: من الأمور أنْ يفعله؛ ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾.

قال * ع[3] *: ولا وَجْه في ترك تعريفِ يُوسُفَ أباه بحاله مُنْذُ خَرَجَ من السِّجْنِ إلى العِزِّ إلا الوَحْيُ مِنَ اللَّه تعالَى؛ لَمَّا أراد أَن يمتحن به يَعْقُوب وبنيه، وأراد من صورة جمعهم، لا إله إلا هو.

وقال النَّقَّاش: كان ذلك الوحْيُ في الجُبِّ، وهو قوله سبحانه: ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٥]، وهذا محتمل.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٠٢) برقم: (١٩٨٨٨)، عن ابن إسحاق.
(٢) ينظر: «**المحرر**» (٣/ ٢٨١).
(٣) ينظر: «**المحرر**» (٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وقوله: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعَلَّمَتني من تأويل الأحاديث . . .﴾ الآية: ذكر كثيرٌ من المفسِّرين أنَّ يوسُفَ عليه السلام لما عَدَّد في هذه الآية نِعَمَ اللّه عنده، تشوَّق إلى لقاء ربِّه ولقاءِ الجِلَّة وصالحي سَلَفِهِ وغيرهم مِنَ المؤمنين، ورأى أن الدنيا قليلةٌ فتمنَّى المَوْت في قوله: ﴿توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

وقال ابن عبَّاس: لم يتمنَّ المَوْتَ نبيٌّ غَيْرُ يُوسُفَ[1]، وذكر المهدويُّ تأويلاً آخر، وهو الأقْوَى عندي: أنه ليس في الآية تمنِّي موتٍ، وإنما تمنى عليه السلام الموافَاةَ على الإسلام لا المَوْتَ، وكذا قال القرطبيُّ[2] في «التذكرة»؛ أنَّ معنى الآية: إذا جاء أَجَلِي، توفَّني مسلماً، قال: وهذا القول هو المختارُ عِنْدَ أهل التأويل، واللّه أعلم، انتهى، وقوله ﷺ: «لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْت لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ»[3]؛ إنَّما يريد ضَرر الدنيا؛ كالفَقْر، والمَرَضِ ونحو ذلك، ويبقَى تمنِّي الموت؛ مخافةَ فسادِ الدِّين مباحاً، وقد قال ﷺ في بَعْضِ أدعيته: «وَإِذَا أَرَدتَّ بِالنَّاسِ فِتْنَةً، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»[4].

وقوله: ﴿أنتَ وليي﴾: أي القائِمُ بأمري، الكفيلُ بنُصْرتي ورَحْمتي.

وقوله عز وجل: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدَّم من قصَّة يوسُفَ، وهذه الآية تعريضٌ لقريش، وتنبيهٌ على آية صدْقِ نبيِّنا محمَّد ﷺ، وفي

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٠٨) برقم: (١٩٩٤٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٣)، وابن كثير (٢/ ٤٩٢)، والسيوطي (٤/ ٧٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١/ ١٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١٣٢) كتاب «المرض» باب: تمني المريض الموت، حديث (٥٦٧١)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٤) كتاب «الدعاء والذكر» باب: كراهة تمني الموت لضر نزل به، حديث (١٠/ ٢٦٨٠)، وأبو داود (٢/ ٢٠٥) كتاب «الجنائز» باب: في كراهية تمني الموت برقم: (٣١٠٨ ـ ٣١٠٩)، والنسائي (٤/ ٤٥٣) كتاب «الجنائز» باب: تمني الموت، والترمذي (٣/ ٢٩٣) كتاب «الجنائز»، باب: ما جاء في النهي عن التمني للموت، حديث (٩٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٥) كتاب «الزهد» باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٦٥)، وأحمد (٣/ ١٠١)، وابن حبان (٩٦٨)، والبيهقي (٣/ ٣٧٧).

(٤) هو جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٢) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة صَ، حديث (٣٢٣٣)، وأحمد (٤/ ٦٦).

ضمن ذلك الطعْنُ على مكذِّبيه، والضمير في ﴿لديهم﴾: عائدٌ على إخوة يوسُفَ، و﴿أجمعوا﴾: معناه: عزموا، و«الأمر»، هنا: هو إلقاء يوسُفَ في الجُبِّ، وحكى الطبري[١] عن أبي عمران الجَوْنِيِّ؛ أَنه قال: واللّه ما قَصَّ اللّه نبأهم؛ ليُعَيِّرَهُمْ؛ إنهم الأَنبياءُ مِنْ أَهْلَ الجَنَّة، ولكنَّ اللّه قَصَّ علينا نبأهم؛ لئلاً يَقْنَطَ عَبْدُهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وما أكثر الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين . . .﴾ الآية خطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر . . .﴾ الآية توبيخٌ للكفَرة، وإقامةٌ للحُجَّةِ عليهم، ثم ٱبتدأ الإِخبَارَ عن كتابه العزيز؛ أنه ذكْرٌ وموعظةٌ لجميعِ العالَمِ، نفعنا اللّه به، ووفَّر حظنا منه.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكأين من آية في السمٰوات والأرض﴾: يعني بـ﴿الآية﴾؛ هنا: المخلوقاتُ المنصوبةُ للاعتبار الدالَّة على توحيد خالقها سبحانه، وفي مُصْحَفِ عبد اللّه[٢]: «يَمْشُونَ / عَلَيْهَا». ٢٦٢أ

وقوله سبحانه: ﴿وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون﴾: قال ابنُ عبَّاس: هي في أهْل الكتاب[٣]، وقال مجاهد وغيره: هي في العَرَب[٤]، وقيل: نزلَتْ بسبب قَوْل قُرَيْشٍ في الطَّوَافَ، والتلبيةِ: «لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ إلاَّ شَرِيكاً هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»، وروي أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إذا سَمِعَ أَحدَهُمْ يَقُولُ: لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، يَقُولُ له: قطْ قطْ، أي: قِفْ هنا، ولا تَزِدْ: إلا شريكاً هو لَكَ، والـ﴿غاشِية﴾: ما يغشَى ويغطِّي ويغمُّ، و﴿بغتة﴾: أيْ: فجأة، وهذه الآية من قوله: ﴿وكأين من آية﴾، وإِن كانَتْ في الكفَّار، فإن العصاة يأخُذونَ من ألفاظها بحظٍّ ويكون الإيمانُ حقيقةً، والشِّرْكُ لغويًّا، كالرياء، فقد قال

---

(١) ينظر: «**الطبري**» (٧/ ٣١٠ ـ ٣١١).

(٢) ينظر: «**المحتسب**» (١/ ٣٥٠)، و«**الكشاف**» (٢/ ٥٠٨)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٢٨٥)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٣٤٥).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٣١٣) برقم: (١٩٩٧٠) بلفظ: يعني النصارى، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٥).

عليه السلام: «الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»[١].

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى اللَّه ...﴾ الآية: إشارةٌ إلى دَعْوة الإِسلام والشريعة بأسرها، قال ابن زَيْد: المعنى هذا أمري وسُنَّتي ومِنْهاجي[٢] والـ ﴿بَصيرة﴾: ٱسْمٌ لمعتقد الإِنسان في الأمْر من الحقِّ واليقين.

وقوله: ﴿أنا ومن ٱتبعني﴾: يحتمل أنْ يكون «أنا» تأكيداً للضمير المستكنّ في «أدْعو» و«مَنْ» معطوفٌ عليه؛ وذلك بأنْ تكون الأمَّة كلُّها أُمِرَتْ بالمعروف داعية إِلى اللّه الكَفَرَةَ والعُصَاة.

قال * ص *: ويجوزُ أنْ يكون «أَنا» مبتدأ، و«على بصيرة» خَبرٌ مقدَّم، و«مَن» معطوفٌ عليه انتهى، ﴿وسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيهٌ للَّه، أي: وقل: سبحانَ اللَّهِ متبرِّياً من الشِّرْك.

وقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحي إِليهم ...﴾ الآية: تتضمَّن الردَّ على من ٱستغرب إِرسَالَ الرُّسُل من البَشَرِ، و﴿القُرَى﴾: المُدُن. قال الحسن: لم يَبْعَثِ اللَّه رسولاً قطُّ من أهْل البادية[٣].

قال * ع[٤] *: والتَّبَدِّي مَكْرُوه إلا في الفِتْنَة، وحين يُفَرُّ بالدين، ولا يعترضُ هذا بِبُدُوِّ يعقوب؛ لأن ذلك البُدُوَّ لم يكُنْ في أَهْل عمودٍ، بل هو بتَقَرٍّ، وفي منازلَ ورَبوع؛ وأيضاً إِنما جعله بُدْواً بالإِضافة إِلى مصْر؛ كما هي بناتُ الحَوَاضِر بَدْوٌ بالإِضافة إِلى

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، والبغوي في «**شرح السنة**» (٧/ ٣٤٣ - بتحقيقنا)، من حديث محمود بن لبيد، والحديث ذكره العراقي في «**تخريج الإحياء**» (٣/ ٢٩٤)، وعزاه لأحمد، والبيهقي، وقال: ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٣١٥) برقم: (١٩٩٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٥)، والسيوطي (٤/ ٧٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٦).

(٤) ينظر: «**المحرر**» (٣/ ٢٨٦).

الحواضر، ثم أحال سبحانه على ٱلاعتبار في الأمم السالفة، ثم حَضَّ سبحانه على الآخرة، وٱلاستعداد لها بقوله: ﴿ولدار الآخرة خير . . .﴾ الآية.

قال * ص *: ﴿ولَدَارُ الآخرة﴾: خرَّجه الكوفيُّون على أنَّه من إِضافة الموصُوفِ لصفته، وأصله: «ولَلدَّارُ الآخِرَةُ»، والبصريُّون على أنه عن حَذْف الموصوف، وإِقامة صفته مُقَامَهُ، وأصله: «ولَدَارُ المُدَّةِ الآخِرَةِ أو النَّشْأَةِ الآخِرَةِ». انتهى.

ويتضمَّن قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ أن الرسلَ الذين بعثهم اللَّهُ مِنْ أَهْل القُرَى، دَعَوْا أممهم، فلم يؤمنوا بهم، حتى نزلَتْ بهم المَثُلاَتُ، فصاروا في حَيِّز مَنْ يُعْتَبَرُ بعاقبته، فلهذا المضمَّن حَسُنَ أَنْ تدخل «حتى» في قوله: ﴿حتَّى إِذا ٱستيأس الرسُلُ﴾.

٢٦٢ ب وقرأ نافع وابن كثير[1] وأبو عمرو وابن عامر: «وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» /ـ بتشديد الذال ـ، وقرأ الباقون: «كُذِبُوا» ـ بضم الكاف، وكسْر الذال المخفَّفة، فأما الأولى، فمعناها أَنَّ الرسل ظَنُّوا أن أممهم قَدْ كَذَّبتهم، و«الظَّنُّ»؛ هنا: يحتملُ أَنْ يكون بمعنى اليَقِينِ، ويحتمل أَنْ يكون الظَّنُّ على بابه، ومعنى القراءة الثانية؛ على المشهور من قول ابن عباس وابنِ جُبَيْر: أي: حتَّى إِذا استيأس الرسُلُ من إِيمان قومِهِم[2]، وظَنَّ المُرْسَلُ إِليهم أَنَّ الرسُلَ قد كَذَبُوهُمْ فيما ٱدعَوْهُ من النبوَّة، أو فيما توعَّدوهم به من العذاب، لما طال الإِمهال، وٱتصلَتِ العافيةُ، جاءهم نَصْرنا.

وأسند الطبريُّ[3] أنَّ مسلم بن يَسَارٍ، قال لسعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّه، آيةٌ بَلَغَتْ مِنِّي كُلَّ مبلغ: «حَتَّى إذا ٱسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا»؛ فهذا هو الموت أَنْ تظنَّ الرسُلُ أنهم قَد كُذِبوا ـ مخفَّفة ـ، فقال له ابن جُبَيْر: يا أبا عبد الرحمٰنِ، إنما يَئِسَ الرسُلُ مِنْ قومِهِم؛ أَنْ يجيبوهم، وظَنَ قومهم أن الرسل قد كَذَبَتْهُمْ، فقام مُسْلِم إِلى سعيدٍ،

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٥١)، و«الحجة» (٤/ ٤٤١)، و«إعراب القراءات السبعة» (١/ ٣١٧)، و«حجة القراءات» (٣٦٦ ـ ٣٦٧)، و«الإتحاف» (٢/ ١٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٤٧)، و«الدر المصون» (٤/ ٢١٨).
وينظر: «معاني القراءات» (٢/ ٥٢)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٨٨)، و«العنوان» (١١١)، و«شرح شعلة» (٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٣١٦، ٣١٨) برقم: (١٩٩٨٨) وبرقم: (٢٠٠٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٨)، والسيوطي (٤/ ٧٧)، وعزاه لأبي عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٣١٩) برقم: (٢٠٠١٠).

فأعتنقه، وقال: فَرَّجْتَ عني، فَرَّجَ اللَّهُ عنك[١].

قال * ع[٢] *: فرضِيَ اللَّهَ عَنهم، كيف كَانَ خُلُقُهُمْ في العِلْم، وقال بهذا التأويل جماعةٌ، وهو الصَّواب، وأما تأويلُ مَنْ قال: إن المعنى: وظَنُّوا أنهم قد كَذَبَهُمْ مَنْ أخبرهم عن اللَّه، فغير صحيحٍ، ولا يجوزُ هذا على الرسُلِ، وأين العَصْمة والعِلْم.

* ت *: قال عِيَاضٌ: فإن قيل: فما معنَى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾؛ على قراءة التخفيف؟ قُلْنَا: المعنى في ذلك ما قَالَتْهُ عائشةُ رضي اللَّه عنها مَعَاذَ اللَّهِ، أنْ تَظُنَّ الرُّسُلُ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ، لَمَّا استيأسُوا، ظَنُّوا أَنَّ مَنْ وعدهم النصْرَ مِنْ أتباعهم، كَذَبُوهم[٣]؛ وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين، وقيل: الضمير في «ظَنُّوا» عائدٌ على الأتباع والأمم، لا على الأنبياء والرسل؛ وهو قول ابن عباس والنَّخَعِيِّ وابنِ جُبَيْر[٤] وجماعةٍ، وبهذا المعنى قرأ مجاهدٌ: «كَذَبُوا» بالفَتْح، فلا تَشْغَلْ بالك مِنْ شَاذِّ التفسير بسواه ممَّا لا يليقُ بِمَنْصِب العلماء، فَكَيْفَ بالأنبياء، انتهى من **«الشفا»**.

وقوله سبحانه: ﴿جاءهم نصرنا﴾: أي: بتعذيب أممهم الكافرة.

﴿فَنُجِّي من نشاء﴾: أي: من أتباع الرسلِ.

﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾: أي: الكافرين، و«البَأْسُ»: العذاب.

وقوله سبحانه: ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾: أي: في قصص يوسُفَ وإخوته وسائِرِ الرسلِ الذين ذُكِرُوا على الجملة، ولَمَّا كان ذلك كلُّه في القرآن، قال عنه: ﴿ما كان حديثاً يُفتَرى﴾، و﴿الذي بين يَدَيْه﴾ التوراةُ والإنجيلُ، وباقي الآية بيِّن واضحٌ.

* ت *: كنت في وَقْتٍ أَنْظُرُ في **«السيرة»** لابْنِ هِشام، وأتأمَّل في خُطْبة النبيِّ ﷺ، وهي أوَّلُ خُطْبة خَطَبَها بالمَدِينَةِ، فإذا هاتف يقولُ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى﴾، وقد كانَ حَصَلَ في القَلْبِ عِبْرَةٌ في أَمْرِهِ ﷺ وأفاضِل أصحابه، رضي اللَّه عنهم أجمعين، وسلك بنا مَنَاهِجَهُمُ المَرْضِيَّة، والحمد للَّه، وسَلاَمٌ على عباده الذين اصطفى / وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصَحْبه وسلَّم تسليماً. ٢٦٣أ

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٨)، وابن كثير (٢/ ٤٩٧)، والسيوطي (٤/ ٧٧)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: **«المحرر»** (٣/ ٢٨٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٨).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٨٨).

تفسير سورة الرعد

قيل: مَكِّيَّة إِلاَّ بَعْضَ آيات، وقيل: مدنية، والظاهر أنَّ المدنيَّ فيها كثيرٌ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿آلمر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾: قال ابن عباس: هذه الحروفُ هي مِنْ قوله: «أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ وَأَرَى»(١).

وقوله سبحانه: ﴿اللّه الذي رفع السمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ...﴾ الآية: قال جمهور النَّاس: لاَ عَمَدَ للسَّمٰوات ألبتَّة، وهذا هو الحَق و«العمدُ»: اسم جَمْعٍ.

قوله سبحانه: ﴿ثم ٱستوَى على العرش﴾: «ثم»؛ هنا: لعطفِ الجُمَلِ، لا للترتيبِ؛ لأن ٱلاستواء على العَرْش قبل رَفْع السمٰوات، ففي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ»(٢) وقد تقدَّم القول في هذا، وفي معنى ٱلاستواء.

* ت *: والمعتَقَدُ في هذا: أنه سبحانَهُ مستو على العرشِ على الوَجْهِ الذي قاله، وبالمعنَى الذي أراده ٱستواءً منزَّهاً عن المماسَّة وٱلاستقرارِ والتمكُّن والحلولِ وٱلانتقالِ، لا

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٣٠ ـ ٣٣١) كتاب «بدء الخلق» باب: ما جاء في قول اللّه تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، حديث (٣١٩١)، وفي (١٣/ ٤١٤ ـ ٤١٥) كتاب «التوحيد» باب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، حديث (٧٤١٨)، وأحمد (٤/ ٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦)، والترمذي مختصراً (٥/ ٧٣٢ ـ ٧٣٣) كتاب «المناقب» باب: مناقب في ثقيف وبني حنيفة، حديث (٣٩٥١)، وابن حبان (١٤/ ١١) برقم: (٦١٤٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص: (١٤)، والبيهقي (٩/ ٢ ـ ٣)، وفي **«الأسماء والصفات»** ص: (٢٣١) كلهم من طريق الأعمش عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين به.

يحملُهُ العَرْش، بل العرشُ وَحَمَلَتُهُ محمُولُون بلُطْفِ قُدْرته، ومَقْهُورون في قَبْضته، كان اللَّه ولا شيءَ معه، كان سبحَانه قَبْلَ أنْ يخلق المَكَانَ والزمَانَ، وهو الآنَ على ما عليه كان.

وقوله سبحانه: ﴿وسخر الشمْسَ والقَمَرَ﴾: تنبيهٌ على القُدْرة، وفي ضِمْن الشمسِ والقَمَر الكواكِبُ، ولذلك قال: ﴿كُلٌّ يجري﴾ أي: كلُّ ما هو في معنى الشَّمْسِ والقَمرِ، و«الأجلُ المسمَّى»: هو ٱنقضاء الدنيا، وفسادُ هذه البِنْيَةِ.

﴿يدبِّر الأمر﴾: معناه: يُبْرمه وينفذه، وعبَّر بالتدبير، تقريباً للأفهام، وقال مجاهد: ﴿يدبر الأمر﴾: معناه يقضيه وحْدَهُ.

و﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾: أي: توقنون بالبَعْثِ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي مَدَّ الأرض وجعل فيها رواسي﴾: لما فرغَتْ آيات السماء، ذُكِرَتْ آيات الأرض، والـ ﴿رواسي﴾: الجبالُ الثابتة.

وقوله سبحانه: ﴿جعل فيها زوجَيْن ٱثْنَيْن﴾: «الزَّوجِ»؛ في هذه الآية: الصِّنْف والنَّوْع، وليس بالزوْج المعروفِ في المتلازمين الفَرْدَيْن من الحيوان وغيره؛ ومنه قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها مِمَّا تُنبِتُ الأَرض ...﴾ الآية [يٰس: ٣٦]، ومنه: ﴿وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]، وهذه الآية تقتضِي أنَّ كلَّ ثمرةٍ، فموجودٌ منها نوعانِ، فإن ٱتفق أنْ يوجدَ من ثمرةٍ أكْثَرُ من نوعَيْنِ، فغير ضارٍّ في معنى الآية، و﴿قِطَعٌ﴾: جَمْعُ قِطْعَة، وهي الأجزاء، وقيد منها في هذا المثال ما جَاوَرَ وقَرُبَ بعضه من بعض؛ لأن ٱختلاف ذلك في الأكْلِ أغربُ، وقرأ الجمهور[1]: «وجَنَّاتٌ» - بالرفع -؛ عطفاً على «قِطَعٌ»، وقرأ نافع[2] وغيره: «وَزَرْعٍ ونَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ»

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٩٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٥٦)، و«الدر المصون» (٤/ ٢٢٥).

(٢) ينظر: «الحجة» (٥/ ٥ ـ ٦)، و«إعراب القراءات السبع» (١/ ٣٢٠)، و«حجة القراءات» (٣٦٩)، و«الإتحاف» (٢/ ١٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٩٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٥٦)، و«الدر المصون» (٤/ ٢٢٥)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٩١)، و«العنوان» (١١٣)، و«شرح شعلة» (٤٤٤)، و«معاني القراءات» (٥٥).

٢٦٣ب بالخفض في الكل ـ؛ عطفاً على «أعناب»، وقرأ ابن كثير وغيره: /«وزرعٌ» ـ بالرفع في الكل ـ؛ عطفاً على «قطع»، و﴿صنوان﴾: جمع صنو، وهو الفرع يكونُ مع الآخَرِ في أصْل واحدٍ، قال البراءُ بْنُ عازبٍ: «الصِّنْوَان»: المجتمع، وغَيْرُ الصِّنوان: المفترق فرداً فرداً[١] وفي «الصحيح»: «العَمُّ صِنْوُ الأَبِ»، وإنما نص على الصِّنوان في هذه الآية؛ لأنها بمثابة التجاوُر في القطع تظهر فيها غرابةُ ٱختلاف الأُكلِ، و﴿الأُكُلُ﴾ ـ بضم الهمزة ـ: ٱسْمُ ما يؤكل، والأكل المَصْدَر، وحكى الطبري[٢] عن ابن عبَّاس وغيره: ﴿قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾: أي: واحدة سبخة، وأخرى عَذْبَة، ونحو هذا من القولِ[٣]، وقال قتادة: المعنى: قُرًى مُتَجاوِرَاتٌ[٤].

قال * ع[٥] *: وهذا وجهٌ من العبرة، كأنه قال: وفي الأرض قِطَعٌ مختلفاتٌ بتخصيصِ اللَّه لها بمعانٍ فهي تُسْقَى بماءٍ واحدٍ، ولكن تختلف فيما تُخْرِجُه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاوُرِ؛ أنها من تُرْبةٍ واحدةٍ، ونوعٍ واحدٍ، وموضِعُ العِبْرة في هذا أَبْيَنُ، وعلى المَعْنَى الأول قال الحَسَنُ: هذا مَثَلٌ ضربه اللَّه لقلوبِ بَني آدم: الأرضُ واحدةٌ، وينزل عليها ماءٌ واحدٌ من السَّماء، فتخرجُ هذه زهرةً وثمرةً، وتخرجُ هذه سبخةً وملحاً وخبثاً، وكذلك النَّاس خُلِقُوا من آدم، فنزلَتْ عليهم من السماء تذكرةٌ، فَرَقَّتْ قلوبٌ وَخَشَعَتْ، وقَسَتْ قلوبٌ ولَهَتْ.

قال الحسنُ: فواللَّه، ما جالَسَ أحدٌ القُرْآن إلاَّ قَامَ عَنْه بزيادةٍ أو نقصانٍ، قال اللَّه تعالى: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَساراً﴾[٦] [الإسراء: ٨٢].

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٣٤) برقم: (٢٠٠٨٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٩٤)، والسيوطي (٤/ ٨٣)، وعزاه للفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) ينظر: «الطبري» (٧/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٣٣٢) برقم: (٢٠٠٧١ ـ ٢٠٠٧٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٩٤)، والسيوطي (٤/ ٨٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٣٣٢) برقم: (٢٠٠٧٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٩٤)، والسيوطي (٤/ ٨٣)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «المحرر» (٣/ ٢٩٤).

(٦) أخرجه الطبري (٧/ ٣٣٦) برقم: (٢٠١١٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٩٥)، والسيوطي (٤/ ٨٤)، وعزاه لابن جرير.

بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً إِئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، المعنى: وإن تعجبْ، يا محمَّد، مِنْ جهالتهم وإعراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ، فهم أهْلٌ لذلك، وَعَجَبٌ غريبٌ قولُهم: أنعود بعد كوننا تراباً، خلقاً جديداً؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾؛ لتصميمهم على الجُحُود وإنكارهم للبَعْث، ﴿وأُولَئِكَ الأغلال في أعناقهم﴾: أي: في الآخرة، ويحتملُ أنْ يكون خبراً عن كونهم مغلَّلين عن الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ...﴾ الآية: تبيينٌ لِخَطَئِهِمْ كطلبهم سقوطَ كِسَفٍ من السماء، وقولِهِمْ: ﴿أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو هذا مع نزول ذلك بأناسٍ كثيرٍ، وقرأ الجمهور[١]: ﴿المَثُلاَتُ﴾ - بفتح الميم وضم الثاء -، وقرأ مجاهد[٢] «المَثَلاَتُ» - بفتح الميم والثاء - أي: الأخذة الفَذَّة بالعقوبة، ثم رجَّى سبحانه بقوله: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾، ثم خوَّف بقوله: ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾: قال ابن المسيَّب: لما نَزلَتْ هذه الآية، قال رسُولُ اللَّه ﷺ: «لَوْلاَ عَفْوُ اللَّهِ وَمَغْفِرَتُهُ مَا تَهَنَّأَ أَحَدٌ عَيْشاً، وَلَوْلاَ عِقَابُهُ لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ»[٣]، وقال ابن عبَّاس: ليس في القرآن أرجى من هذه الآية[٤]: ﴿والمَثُلاَتُ﴾: هي العقوباتُ المنكِّلات التي تجعل الإنسان مثلاً يُتَمَثَّلُ به؛ ومنه التمثيلُ بالقَتْلى؛ ومنه: المُثْلَةُ بالعبيد.

٢٦٤أ ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾: هذه من اقتراحاتهم، / والآية هنا يرادُ بها الأشياءُ التي سمَّتها قريشٌ؛ كالمُلْكِ، والكَنْزِ، وغيرِ ذلك، ثم أخبر تعالى بأنه منذر وهاد، قال عكرمةُ، وأبو الضُّحَى: المرادُ بـ «الهادي» محمَّد ﷺ[٥]؛ فـ «هَادٍ» عطفٌ على «منذر»؛

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٩٦)، و«الدر المصون» (٤/٢٢٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٩٦)، و«البحر المحيط» (٥/٣٥٩)، وزاد نسبتها إلى الأعمش، وهي في «الدر المصون» (٤/٢٢٨).

(٣) ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/١٤٧)، وعزاه لابن أبي حاتم، والثعلبي.

(٤) ذكره ابن عطية (٣/٢٩٦).

(٥) أخرجه الطبري (٧/٣٤٢) برقم: (٢٠١٣٩)، وذكره البغوي (٣/٨)، وابن عطية (٣/٢٩٧).

كأنه قال: إنما أَنتَ مُنذِرٌ وهادٍ لكلِّ قوم، و«هاد»؛ على هذا التأويل: بمعنى داعٍ إلى طريق الهُدَى، وقال مجاهدٌ وابنُ زَيْد: المعنىٰ: إنما أَنتَ منذِرٌ، ولكلِّ أُمَّة سَلَفَتْ هادٍ، أي: نبيٌّ يَدْعُوهم[1]، أي: فليس أمرُكَ يا محمَّد ببدْعٍ، ولا مُنْكَر، وهذا يشبه غرَضَ الآية، وقالَتْ فرقة: «الهَادِي» في هذه الآية: اللَّه عزَّ وجلَّ، والألفاظ تَقْلَقُ بهذا المعنَى، ويعرف أنَّ اللَّه تعالَى هو الهادِي من غير هذا المَوْضِعِ، والقولانِ الأولان أَرْجَحُ ما تُؤوِّلَ في الآية.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿اللَّه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾: هذه الآيات أمثالٌ منبِّهات على قدرة اللَّه تعالَى القاضِيَةِ بتجويزِ البَعْثِ، ﴿وما تغيض الأرحام﴾: معناه: ما تنقُصُ، ثم ٱختلف المتأوِّلون في صُورَةِ الزِّيادة والنُّقْصَان، وجمهورُ المتأوِّلين على أنَّ غَيْضَ الرحِمِ هو نقْصُ الدم على الحَمْل، وقال الضَّحَّاك: غَيْضُ الرَّحِمِ: أنْ تسقط المرأة الوَلَدَ، والزيادةَ أنْ تضعه لمدَّةٍ كاملةٍ، ونحوُه لقتادة[2].

وقوله: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: عامٌّ في كل ما يدخلُهُ التقديرُ، و﴿الغَيْبُ﴾: ما غاب عن الإِدراكات، و﴿الشهادة﴾: ما شُوهِدَ من الأمور.

وقوله: ﴿الكبير﴾: صفةُ تعظيمٍ، و﴿المتعال﴾: من العلو.

وقوله سبحانه: ﴿سواء منكم من أسرَّ القول ...﴾ الآية: أيْ: لا يخفى على اللَّه شيءٌ، والـ ﴿سارِبُ﴾؛ في اللغة: المتصرِّف كيف شاء.

وقوله سبحانه: ﴿له معقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللَّه﴾: المعنى: جعل اللَّه للعبد معقِّباتٍ يحفظونه في كلِّ حالٍ من كلِّ ما جرى القَدَرُ بٱندفاعه،

(١) أخرجه الطبري (٧/٣٤٣) برقم: (٢٠١٤٩، ٢٠١٥٤) وبرقم: (٢٠١٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/٢٩٧)، وابن كثير (٢/٥٠١).

(٢) أخرجه الطبري (٧/٣٤٧) برقم: (٢٠١٩٤) وبرقم: (٢٠١٨٨) بلفظ مختلف فقال: ﴿ما تغيض الأرحام﴾ ما تنقص من التسعة (وما تزداد) أي: ما فوق التسعة، وذكره ابن عطية (٣/٢٩٨)، وابن كثير (٢/٥٠٢)، والسيوطي (٤/٨٧ ـ ٨٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

فإذا جاء المَقْدُور الواقعُ، أسلم المَرْءُ إليه، والـ ﴿معقِّبات﴾؛ على هذا التأويل: الحَفَظَةُ على العِبَادِ أعمالهم، والحَفَظَةُ لهم أيضاً؛ قاله الحسن[١]، وروى فيه عن عثمانَ بْنِ عَفَّان حديثاً عن النبيِّ ﷺ، وهذا أقوى التأويلات في الآية، وعبارةُ البخاريِّ: ﴿معقِّباتٌ﴾: ملائكةٌ حَفَظَةٌ يَعْقُبُ الأَوَّلُ منها الآخِرَ. انتهى.

وقالَتْ فرقةٌ: الضمير في «له» عائدٌ على ٱسمِ اللَّه المتقدِّم ذكره، أي: للَّه معقِّبات يحفظون عَبْده، والضمير في قوله: ﴿يديه﴾ وما بعده من الضمائر عائدٌ على العَبْد، ثم ذكر سبحانه أنه لا يغيِّر هذه الحالة مِنَ الحفْظِ للعبدِ؛ حتَّى يغير العبد ما بنَفْسِهِ، والـ ﴿معقِّبات﴾: الجماعاتُ التي يَعْقب بعضُها بعضاً، وهي الملائكةُ، وينظر هذا إلى قول النبيِّ ﷺ: «يَتَعَاقَبُ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بالنَّهَارِ . . .»[٢] الحديث، وفي قراءة أُبيِّ بْنِ كَعْب: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ /وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ»، وقرأ ابن[٣] عباس: «وَرُقَبَاءُ مِنْ خَلْفِهِ ٢٦٤ ب
يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ»، وقوله: ﴿يَحْفظونه﴾: أي: يحرسونه ويذبُّون عنه، ويحفظونَ أيضاً أعماله، ثم أخبر تعالى؛ أنه إذا أراد بقومٍ سوءاً، فلا مردَّ له، ولا حِفْظَ منه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤)﴾

وقوله سبحانه: ﴿هو الذي يريكم البَرْقَ . . .﴾ الآية: قد تقدَّم في أول البَقَرة تفسيرُهُ، والظاهر أنَّ الخوف إنما هو من صَوَاعِقِ البَرْق، والطَّمَع في الماء الذي يكونُ معه، وهو قولُ الحسن[٤]، و﴿السحاب﴾: جمع سحابَة؛ ولذلك جمع الصفة، و﴿الثقال﴾: معناه: بحملِ الماءِ، قاله قتادة ومجاهد[٥]، والعربُ تصفها بذلك، وروى أبو هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ، قَالَ: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»[٦]، وقال ابن أبي

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٠٠)، والسيوطي (٤/ ٩٠)، وعزاه لابن جرير.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٣٠٢)، و**«البحر المحيط»** (٥/ ٣٦٤).
(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٠٣).
(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٣٥٩) برقم: (٢٠٢٥٣) وبرقم: (٢٠٢٥٤، ٢٠٢٥٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٠٣)، وابن كثير (٢/ ٥٠٥)، والسيوطي (٤/ ٩٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٦) أخرجه الطبري في **«تفسيره»** (٧/ ٣٦٠) برقم: (٢٠٢٦٠)، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٩٧)، =

زكرياء: مَنْ قَالَ إذا سَمِعَ الرعْدَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وبِحَمْدِهِ، لَمْ تُصِبْهُ صَاعِقَةٌ.

* ت *: وعن عبد اللَّه بن عُمَرَ، قال: كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذَا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّواعِقَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ، لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»(١)، رواه الترمذيُّ والنسائيُّ والحَاكِمُ في «**المستدرك**»، ولفظهم واحد انتهى من «**السلاح**»، قال الداووديُّ: وعن ابن عَبَّاس، قال: مَنْ سمع الرعْدَ، فقال: «سُبْحَانَ الذي يُسَبِّح الرعْد بحَمْده، والملائِكَةُ مِنْ خيفته، وهو على كلِّ شيء قدير»، فإن أصابته صاعقةٌ، فعليَّ ديته، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ويرسل الصواعق . . .﴾ الآية: قال ابن جُرَيْج: كان سَبَبُ نزولها قصَّةَ أَرْبَدَ، وعَامِرِ بن الطُّفَيْلِ، سألا النبيَّ ﷺ أَنْ يجعلَ الأمْرَ بَعْده لعامِرِ بْنِ الطُّفَيْل، ويدخلا في دِينِهِ، فأبَى عليه السلام ثم تآمَرَا في قَتْل النبيِّ ﷺ فَقَالَ عَامِرٌ لأَرْبَدَ: أَنا أَشْغَلُه لَكَ بالحديثِ، وٱضْرِبْهُ أَنْتَ بالسَّيْف، فجعل عامرٌ يحدِّثه، وأَرْبَدُ لاَ يَصْنَعُ شيئاً، فلما ٱنصرفا، قَالَ له عَامِرٌ: وَاللَّهِ، يَا أَرْبَدُ، لاَ خِفْتُكَ أبداً، وَلَقَدْ كُنْتُ أخافُكَ قبل هذا، فقال له أَرْبَدُ: واللَّهِ، لَقَدْ أردتُّ إِخراج السَّيْفِ، فَمَا قَدَرْتُ على ذلك، ولَقَدْ كُنْتُ أَراكَ بَيْنِي وبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ، فمَضَيَا للحَشْدِ على النبيِّ ﷺ، فأصابَتْ أَربَدُ صَاعِقَةٌ، فقتلَتْهُ، و﴿المِحَال﴾: القوَّة والإِهلاك.

* ت *: وفي «**صحيح البخاري**»: ﴿المِحَالُ﴾: العقوبة.

وقوله عز وجل: ﴿له دعوة الحقِّ﴾: الضمير في «له» عائدٌ على ٱسْمِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

قال ابنُ عَبَّاس: و﴿دعوةُ الحَقِّ﴾: «لا إِلٰه إِلا اللَّه»(٢)، يريد: وما كان من الشريعةِ في معناها.

= وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٩) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا سمع الرعد، حديث (٣٤٥٠)، وأحمد (٢/ ١٠٠)، والنسائي في «**الكبرى**» (٦/ ٢٣٠) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق، حديث (١٠٧٦٣ ـ ١٠٧٦٤)، والحاكم (٤/ ٢٨٦)، وابن السني في «**عمل اليوم والليلة**» برقم: (٢٩٨) من حديث ابن عمر، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٩٧)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ، والخرائطي في «**مكارم الأخلاق**».

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) برقم: (٢٠٢٨٠ ـ ٢٠٢٨١)، وذكره البغوي (٣/ ١٢)، وابن عطية (٣/ ٣٠٥)، وابن كثير (٢/ ٥٠٧)، والسيوطي (٤/ ١٠١)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وقوله: ﴿والذين﴾: يراد به ما عُبِدَ من دون اللّه، والضّمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ لكفَّار قريشٍ وغيرهم، ومعنى الكَلاَم: والذين يدعونهم الكفَّارُ في حوائِجِهِم ومنافِعِهِم ﴿لا يجيبُونَهم بشيءٍ إلاَّ﴾، ثُمَّ مَثَّلَ سبحانه مثالاً لإجابتهم بالذي يَبْسُطُ كَفَّيْهِ نحو الماء، ويشير إليه بالإِقبال إلى فيه، فلا / يبلغ فَمَهُ أبداً، فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاعُ بهم لا يَقَعُ. ٢٦٥أ

وقوله: ﴿هو﴾: يريد به الماءَ، وهو البالغُ، والضمير في ﴿بالغه﴾ للفم، ويصحُّ أنْ يكون هو يراد به الفم، وهو البالغ أيضاً، والضمير في ﴿بالغه﴾ للماء؛ لأن الفم لا يَبْلُغ الماء أبداً على تلك الحال، ثم أخبر سبحانه عن دعاءِ الكافرين؛ أنه في ٱنتلافٍ وضلالٍ لا يفيدُ.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض . . .﴾ الآية: تنبيهٌ على قدرته وعظمته سبحانه، وتسخيرِ الأشياءِ له، والطَّعْنِ على الكفَّار التارِكِينَ للسُّجود، و﴿مَنْ﴾: تَقَعُ على الملائكةِ عموماً، و«سُجودُهُمْ»: طوع، وأما أهْلُ الأرض، فالمؤمنون داخلُونَ في ﴿مَنْ﴾، وسجودُهم أيضاً طَوْع، وأما سجودُ الكَفَرة، فهو الكَرْه، وذلك على معنيين، فإن جعلنا السجودَ هذه الهيئة المعهودَةَ، فالمراد من الكَفَرَة مَنْ أسلم، خَوْفَ سيفِ الإِسلام؛ كما قاله قتادة[1]، وإن جعلنا السُّجود الخضُوعَ والتذلُّل، حَسَب ما هو في اللغة، فيدخلُ الكفَّار أجمعون في ﴿مَنْ﴾؛ لأنه ليس من كافرٍ إلا ويلحقه من التذلُّل والاستكانة لقدرة اللّه تعالى أنواعٌ أكثر من أنْ تحصَى بحسب رَزَايَاهُ، واعتباراتِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وظلالهم بالغُدوِّ والآصالِ﴾: إخبار عن أنَّ الظِّلال لها سُجودٌ للّه

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٠٦)، والسيوطي (٤/ ١٠١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ . . .﴾ الآية [النحل: ٤٨]، وقال مجاهد: ظلُّ الكافر يسجُدُ طوعاً، وهو كاره[1] ورُوِيَ أن الكافر إذا سَجَد لصنمه، فإن ظلَّه يسجُدُ للَّهِ حينئذٍ، وباقي الآية بيِّن، ثم مَثَّل الكفَّار والمؤمنين بقوله: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾، وشبه الكافر بالأعمى، والكُفْرَ بالظلماتِ، وشبه المؤمنَ بالبصيرِ، والإيمان بالنور.

وقوله سبحانه: ﴿قل اللَّه خالق كل شيء﴾: لفظ عامٌّ يراد به الخصوصُ؛ كما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

وقوله سبحانه: ﴿أنزل من السماء ماء﴾: يريد به المَطَرَ، ﴿فسالَتْ أودية بقدرها﴾: «الأودية»: ما بين الجبالِ مِنَ ٱلانخفاضِ والخَنادِقِ، وقوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾: يحتمل أنْ يريد بما قُدِّرَ لها من الماءِ، ويحتمل أنْ يريد بقَدْر ما تحمله على قَدْر صغرها وكِبَرِها.

* ت *: وقوله: ﴿فٱحتمل﴾ بمعنى: حَمَلَ، كٱقْتَدَرَ وقَدَرَ قاله * [ص] *.

و﴿الزَّبَدُ﴾ ما يحمله السيْلُ من غُثَاء ونحوه، و«الرابِي»: المنتفخ الذي قَدْ ربا، ومنه الرَّبْوَة.

وقوله سبحانه: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾: المعنَى: ومن الأشياء التي توقِدُونَ عليها ابتغاءَ الحُلِيِّ، وهي الذَهَبُ والفضَّة، أو ٱبتغاء ٱلاستمتاعِ بها في المرافِقِ، وهي الحديدُ والرَّصَاصُ والنُّحَاسُ ونحوها من الأشياء التي تُوقِدُونَ عليها، فأخبر تعالَى أنَّ من هذه أَيضاً إذا أحمي علَيْها يكونُ لها زَبَد مماثِلٌ للزَّبَد الذي يحملُه
٢٦٥أ السَّيْل، ثم ضرب سبحانه ذلك مثَلاً للحقِّ والباطِلِ، أي: إن الماء الذي / تشربه الأرْضُ من السيل، فيقَعُ النفعُ به هو كالحَقِّ، والزَّبَد الذي يخمد وينفش ويَذْهَب هو كالبَاطِلِ، وكذلك ما يخلص من الذَّهَبَ والفضَّة والحديد ونحوه هو كالحَقِّ، وما يذهَبُ في الدُّخَان هو كالبَاطِلِ.

وقوله: ﴿جُفَاءً﴾: مصدر من قولهم: «أَجْفَأَتِ القدْرُ» إذا غلَتْ حتى خَرَجَ زَبَدُها وذهب.

وقال * ص *: ﴿جُفَاء﴾: حال، أي: مضمحلاً متلاشياً، أبو البقاء: وهمزته منقلبة

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٦٧) برقم: (٢٠٣٠٢)، وذكره البغوي (٣/ ١٢)، وابن عطية (٣/ ٣٠٦)، والسيوطي (٤/ ١٠٢)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ بنحوه.

عن واوٍ، وقيل: أصل. انتهى.

وقوله: ﴿ما ينفع الناس﴾: يريد الخالِصَ من الماء ومِنْ تلك الأحجار.

وقوله سبحانه: ﴿للذين ٱستجابوا لربهم الحسنَى﴾: ابتداءُ كلام، و﴿الحسنى﴾: الجنة. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾: هم الكَفَرة، و﴿سوء الحساب﴾: هو التقصِّي على المحاسَب، وألاَّ يقع في حسابِهِ من التجاوُزِ شَيْءٌ؛ قاله شَهْرُ بن حَوْشَبٍ والنَّخَعِيُّ وَفَرْقَدٌ السَّبَخِيُّ وغيرهم[١].

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى . . .﴾ المعنى: أسواءٌ مَنْ هداه اللَّه، فَعَلِمَ صدْقَ نبوَّتك، وآمن بك؛ كمن هو أعمَى البصيرةِ باقٍ على كُفره؛ روي أنَّ هذه الآية نزلَتْ في حمزةَ بْنِ عَبْدِ المطَّلب، وأَبِي جَهْل، وهي بَعْدَ هذا مثَالٌ في جميع العالم، ﴿إنما يتذكَّر أولوا الألباب﴾: «إنما»؛ في هذه الآية: حاصرة، أي: إنما يتذكَّر، فيؤمن ويراقب اللَّه مَنْ له لُبٌّ، ثم أخذ في وصفهم، فقال: ﴿الذين يوفون بعهد اللَّه . . .﴾ الآية: قال الثعلبيُّ: قال عبد اللَّهِ بنُ المبارَكِ: هذه ثمانِ خِلاَلٍ مسيَّرةٌ إلى ثمانيةِ أبوابِ الجنةِ[٢]، وقال أبو بَكْرٍ الوَرَّاقُ: هذه ثمانِ جُسُورٍ، فمن أراد القربة مِنَ اللَّه عَبَرَهَا. انتهى. وباقي الآية ألفاظها واضحَة، وأنوارها لِذَوِي البصائر لائحَة.

﴿ويدرءون﴾: يدفعون.

قال الغَزَالِيُّ: لما ذَكَرَ هذه الآيَةَ: والذي آثر غُرُورَ الدنيا على نعيمِ الآخرةِ، فَلَيْسَ من

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٧٣) برقم: (٢٠٣٢٦)، وذكره البغوي (٣/ ١٤)، وابن عطية (٣/ ٣٠٨)، والسيوطي (٤/ ١٠٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ولسعيد بن منصور، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره البغوي (٣/ ١٦).

ذوي الأَلْبَابِ، ولذلك لا تَتَكَشِفُ له أَسْرارُ الكتاب، انتهى.

و﴿جنات﴾: بدل من ﴿عُقْبَى﴾ وتفسيرٌ لها، و﴿عدن﴾: هي مدينةُ الجَنَّة ووَسَطُها، ومعناها: جنَّات الإِقامة؛ مِنْ عَدَنَ في المَكَانِ، إِذا أقام فيه طويلاً، ومنه المَعَادِنُ، و﴿جنَّاتُ عَدْنٍ﴾: يقال: هي مَسْكَن الأنبياءِ والشُّهَداء والعُلَماء فَقَطْ؛ قاله عبد اللّه بن عمرو بن العاص[1]، ويروَى أَنَّ لها خَمْسَةَ آلافِ باب، وقوله: ﴿ومن صلح﴾: أي: عمل صالحاً، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم﴾: أي: يقولون: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، والمعنى: هذا بما صَبَرْتُم، وباقي الآية واضحٌ.

وقوله سبحانه: ﴿والذين يَنْقُضُون عَهْدَ اللّه ...﴾ الآية: هذه صفةُ حالٍ مضادَّةٍ للمتقدِّمةِ ـ نعوذ باللّهِ من سَخَطه ـ.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ...﴾ الآية: لما أخبر عمَّن تقدَّم وصفه بأنَّ لهم اللعنةَ وسُوءَ الدار، أنْحَى بعد ذلك على أغنيائهم،/ وحقَّر شأنهم وشَأْنَ أموالهم، ٢٦٥ب
المعنى: إِنَّ هذا كلَّه بمشيئة اللّه يَهَبُ الكافرَ المالَ؛ ليهلكه بِهِ، ويَقْدِرُ على المؤمِنِ؛ لِيُعْظِمَ ذلك أَجْرَهُ وذُخْرَهُ.

وقوله: ﴿ويقدر﴾: من التَّقْدِيرِ المناقِضِ للبَسْط وَٱلاتساع.

﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إِن اللّه يضلُّ من يشاء ...﴾ الآية: رد على مقترحي الآيات من كفَّار قريشٍ؛ كما تقدَّم.

وقوله سبحانه: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللّه﴾: «الذين»: بدلٌ مِنْ «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وطمأنينة القلوبِ هي ٱلاستكانةُ والسرورُ بذكْر اللّه، والسكونُ به، كمالاً به، ورضاً بالثواب عليه، وجودة اليقين، ثم قال سبحانه: ﴿أَلا بذكر اللّه تطمئن القلوب﴾: أي: لا بالآياتِ المُقْتَرحةِ التي ربَّما كُفِرَ بعدها؛ فنزل العذاب، «والذين» الثاني:

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٧٦) برقم: (٢٠٣٤١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣١٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٥٠).

مبتدأ، وخبره ﴿طوبى﴾ لَهُمْ.

واختلف في معنى ﴿طوبى﴾، فقال ابن عباس: ﴿طُوبَى﴾: اسمُ الجنَّةِ بالحَبَشِيَّةِ[١]، وقيل: ﴿طُوبَى﴾: اسم الجنَّة بالهِنْدِيَّة، وقيل: ﴿طُوبَى﴾: اسم شجرة في الجنَّة، وبهذا تواترتِ الأحاديثُ؛ قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طُوبَى ٱسْمُ شَجَرَةٍ فِي الجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ المُجِدُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا . . .»[٢] الحديث.

قال * ص *: ﴿طُوبَى﴾: «فُعْلَى» من الطِّيب، والجمهور أنها مفردٌ مصْدَرٌ؛ كـ «سُقْيَا وبُشْرَى».

قال الضَّحَّاك: ومعناها: غِبْطَةٌ لهم[٣]، قال القُرطُبيُّ[٤]: والصحيحُ أنها شجرةٌ؛ للحديث المرفوع. انتهى.

* ت *: وروى الشيخُ الحافظ أبو بكْرٍ أحمدُ بنُ عَلِيِّ بنِ ثابتِ بنِ الخَطِيبِ البَغْدَادِيُّ في «تاريخه»، عن شيخه أبي نُعَيْم الأَصبهانيِّ بسنده عن أبي سَعِيدٍ الخدريِّ، عن النبي ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ! قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُم طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةَ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»[٥]. انتهى من ترجمة «أحمد بن الحَسَن».

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٨١) برقم: (٢٠٣٧٣)، وذكره البغوي (٣/ ١٨)، وابن عطية (٣/ ٣١٢)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٤/ ٥١٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٣٨١) برقم: (٢٠٣٦٥)، وابن عطية (٣/ ٣١٢)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٤/ ٥١٢)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١١١)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٤) انظر: **«الجامع لأحكام القرآن»** للقرطبي (٩/ ٢٠٨).

(٥) تقدم تخريجه.

وقوله تعالى: «كذلك أرسلناك في أمة قد خَلَتْ من قبلها أمم»: أي: كما أجرينا عادَتَنا، ﴿كذلك أرسلناك . . .﴾ الآية.

وقوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمٰن﴾: قال قتادة: نزلَتْ في قريش: لما كُتِبَ في الكتاب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في قصَّة الحُدَيْبِيَة، فقال قائلهم: نَحْنُ لاَ نَعْرِفُ الرَّحْمٰن[1].

قال * ع[2] *: وذلك منهم إِباءةُ اسمٍ فقطْ، وهروبٌ عن هذه العبارة التي لم يَعْرِفُوها إِلا مِنْ قِبَل النبيِّ عليه السلام، والـ ﴿مَتاب﴾: المرجعُ؛ كـ «المآب» لأن التوبة هي الرجُوعُ.

وقوله سبحانه: ﴿ولو أن قرآناً سيِّرت به الجبال أو قطعت به الأرض . . .﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: إِن الكفَّار قالوا للنبيِّ ﷺ: أَزِحْ عَنَّا وَسَيِّرِ جَبَلَيْ مَكَّةَ، فَقَدْ ضَيَّقَا
٢٦٦أ عَلَيْنَا، وَٱجْعَلْ لَنَا أَرْضَنَا قِطَعَ غِرَاسَةٍ وَحَرْثٍ، وَأَحْيِ لَنَا آبَاءَنَا وَأَجْدَادَنَا، / وَفُلاَناً وفُلاَناً، فنزلَتِ الآيةُ في ذلك معلمةً أنهم لا يُؤْمِنُونَ، ولو كان ذلك كله[3].

وقوله تعالى: ﴿أفلم يَيْئَس الذين آمنوا . . .﴾ الآية: «يَيْئَس»: معناه: يعلم، وهي لغة هَوَازِنَ، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وجماعة: «أَفَلَمْ يَتَبَيَّن»، ثم أخبر سبحانه عن كُفَّار قريشٍ والعرب؛ أنهم لا يزالُونَ تصيبُهُم قوارعُ من سرايا النبيِّ ﷺ وغزواته، ثم قال: «أَوْ تحلُّ أَنْتَ يَا محمَّد قريباً من دارهم». [هذا تأويلُ ابنُ عَبَّاس وغيره[4].

وقال الحسنُ بن أبي الحَسَن: المعنى: أو تَحُلُّ القارعةُ قريباً من دارهم][5]، و﴿وعد اللَّه﴾؛ على قول ابن عباس وغيره: هو فَتْحُ مَكَّة، وقال الحسن: الآيةُ عامَّة في الكُفَّارِ إِلى

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٨٥) برقم: (٢٠٣٩٦)، وذكره البغوي (٣/ ١٩) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٣١٢)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥١٥)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (١١٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «**المحرر**» (٣/ ٣١٢).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٣٨٦) برقم: (٢٠٣٩٩)، وذكره ابن عطية (٥/ ٣١٣)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥١٥) بنحوه، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (١١٦/٤)، وعزاه للطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٣٨٩) برقم: (٢٠٤١٧)، وذكره البغوي (٣/ ٢٠) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٣١٣)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥١٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (١١٩/٤)، وعزاه للطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «**الدلائل**».

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٣٩١) برقم: (٢٠٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣١٣)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥١٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (١١٩/٤)، وعزاه لابن جرير.

يوم القيامة، وإنَّ حال الكَفَرة هَكَذا هي إلى يوم القيامة، وَ﴿وَعْدُ اللَّهِ﴾: قيامُ الساعة، والـ ﴿قارِعَة﴾: الرزيَّة التي تقرع قلْبَ صاحبها[١].

وقوله سبحانه: ﴿ولقد ٱستُهزِئ برسُلٍ . . .﴾ الآية: تأنيسٌ وتسليةٌ له عليه السلام، قال البخاري: ﴿فأمْلَيْتُ﴾: أي: أطلت من المليي والملاوة[٢]؛ ومنه: مَلِيًّا، ويقال للواسِعِ الطويلِ من الأرض: مَلًى من الأرض. انتهى.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾: أي: أهو أحقُّ بالعبادة أم الجمادات.

وقوله: ﴿قل سمُّوهم﴾: أي: سَمُّوا من له صفاتٌ يستحقُّ بها الألوهية، و﴿مكرهم﴾: يعم أقوالهم وأفعالهم التي كانَتْ بسبيل مناقَضَةِ الشرع، و﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾: أي: بالقتل والأسْر والجُدُوبِ وغير ذلك، و﴿أشق﴾: من المشقَّة، أي: أصعب، والواقي الساتِرُ علَى جهة الحمايَةِ من الوقاية.

وقوله سبحانه: ﴿مثل الجنة التي وُعِدَ المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلُّها﴾: قد تقدم تفسير نظيره، وقوله: ﴿أكلها﴾: معناه: ما يؤكَلُ فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون . . .﴾ الآية: قال ابن زيْدٍ: المراد

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٩١) برقم: (٢٠٤٣٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣١٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥١٦) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١١٩)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨/ ٢٢١)، كتاب «التفسير» باب: سورة الرعد.

بالآية: مَنْ آمَنَ مِنْ أهلِ الكتاب؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلاَمٍ[١] وغيره.

قال * ع[٢] *: والمعنى مَدْحَهم، وباقي الآية بيِّن.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يمحوا اللَّه ما يشاء ويُثْبِتُ﴾: المعنى أنَّ اللَّه سبحانه يمحو من الأمور ما يشاء، ويغيِّرها عن أحوالها مما سَبَقَ في علْمه مَحْوُهُ وتغييرُهُ، ويثبتها في الحَالةِ التي يَنْقُلُها إِليها حَسَبَ ما سَبَقَ في علْمه.

قال * ع[٣] *: وأصوَبُ ما يفسَّر به ﴿أم الكتاب﴾: أنه كتاب الأمورِ المجزومَةِ التي قدْ سَبَقَ القضاء فيها بمَا هو كائنٌ، وسبق ألاَّ تبدَّل ويبقَى المحْوُ والتثبيت في الأمور التي سَبَقَ في القضاء أنْ تبدَّل وتمحَى وتُثْبَتَ؛ قال نحوه قتادة[٤]، وقوله سبحانه: ﴿وإِن ما نرينك بعض الذي نعدهم﴾: «إِن»: شرطٌ دخلَتْ عليها «ما»، وقوله: ﴿أو نتوفينك﴾، «أو» عاطفةٌ، وقوله: ﴿فإِنما﴾: جوابُ الشرط، ومعنى الآية: إِنْ نُبقكَ يا محمَّد، لترَى بعض الذي نَعِدُهم، أو نتوفينَّك قبل ذلك، فعلى كلا الوجْهَيْن، فإِنما يلزمُكَ البلاغَ فقَطْ، والضمير في قوله: ﴿أولم يروا﴾: عائد على كفَّار قريش؛ كالذي في ﴿نَعِدُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿نأتي﴾: معناه: بالقُدْرة والأمر. و﴿الأرض﴾: يريد بها ٱسْم الجنس، وقيل: يريد أرض الكفَّار المذكورين، المعنى: أو لم يروا أنا نأتي أرْضَ هؤلاء بالفَتْح / عليك، فننقصها بمَا يَدْخُلُ في دِينِكَ من القبائلِ والبلادِ المجاورَة لهم، فما يؤمنهم أنْ ٢٦٦ب
نمكِّنك منهم أيضاً؛ قاله ابن عباس، وهذا على أن الآية مدنيَّةٌ[٥]، ومَنْ قال: إِن الأَرْضَ

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٣٩٧) برقم: (٢٠٤٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣١٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٢١)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.
(٢) ينظر: «المحرر» (٣/ ٣١٥).
(٣) ينظر: «المحرر» (٣/ ٣١٨).
(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٤٠٤) برقم: (٢٠٥٠٧) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٣١٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٢٠) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٥)، وعزاه لابن جرير.
(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٤٠٦) برقم (٢٠٥١٤) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٢٤)، وابن عطية (٣/ ٣١٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٩٢٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧)، وعزاه لابن جرير.

ٱسْمُ جنسٍ، جعل ٱنتقاصَ الأرض بتخريبِ العُمْران الذي يُحِلُّه اللّه بالكُفَّار، وقيل: ٱلانتقاصُ بمَوْت البشر، ونقْصِ الثمرات والبَرَكَةِ، وقيل: بموتِ العلماءِ والأخيارِ؛ قاله ابن عباس أيضاً[١]، وكلُّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية، وجملةُ معنَى هذه الآية: الموعظَةُ وضَرْبُ المثل، وقال أبو عمر بن عَبْدِ البَرِّ في كتاب العلم بسنده عن عطاء بن أبي رَبَاح في معنَى ﴿نَنْقُصها مِنْ أطرافها﴾ قال: بذَهَابِ فقهائها، وخيار أهلها؛ وعن وكيع[٢] نحوه.

وقال الحسن: نقصانُهَا: هو بظهور المسلمين على المُشْرِكين[٣].

قال أبو عمر: وقول عطاء في تأويل الآية حَسَنٌ جِدًّا، تلَقَّاه أهل العلْمِ بالقبول، وقولُ الحسن أيضاً حسن. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فللّه المكر جميعاً﴾: أي: العقوبات التي أحلَّها بهم، وسمَّاها مكراً على عُرْفِ تسمية العقوبة بٱسْمِ الذنب، وباقي الآية تحذيرٌ ووعيدٌ.

﴿ويقول الذين كفروا لَسْتَ مرسلاً﴾: المعنى: ويكذِّبك يا محمَّد هؤلاءِ الكفرةُ؛ ويقولون: لستَ مرسلاً. ﴿قل كفى باللّه شهيداً﴾: أي: شاهداً بيني وبينكم، ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾: قال قتادة: يريدُ مَنْ آمَنَ منهم؛ كَعَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلاَمٍ وغيره[٤]، كَمُلَ تفسيرُ السُّورة، وصلى اللّه على سيِّدنا محمَّد وآله وصَحْبِهِ وسلَّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٠٦) برقم: (٢٠٥١٩)، (٧/ ٤٠٧) برقم: (٢٠٥٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣١٩)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٢٢)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١٢٧)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٤٠٨) برقم: (٢٠٥٣٣)، وذكره البغوي (٣/ ٢٤)، وابن عطية (٣/ ٣١٩)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٢٢)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١٢٦) وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ونعيم بن حماد في **«الفتن»**، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٠٦) برقم: (٢٠٥١٧)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٢٢)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١٢٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٤١٠) برقم: (٢٠٥٤٢)، وذكره البغوي (٣/ ٢٥) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٣٢٠)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٢١) بنحوه، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١٢٨)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

تفسير سورة إبراهيم

هذه السورةُ مكيَّة إلا آيتين، وهما قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفراً . . .﴾ [إبراهيم: ٢٨] إلى آخر الآيتين، ذكره مكيٌّ والنَّقَّاش.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ قال القاضِي ابنُ الطَّيب، وأبو المعالي وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلَّق بالكلام القَدِيم الذي هو صفةُ الذاتِ، لكنْ بالمعاني التي أفْهَمَها اللَّهُ تعالَى جِبْرِيلَ عليه السلام من الكَلاَمِ.

وقوله: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾: في هذه اللفظةِ تشريفٌ للنبيِّ ﷺ وعَمَّ الناس؛ إذ هو مبعوثٌ إلى جميعِ الخَلْق، وقرأ نافعٌ وابن عامرٍ[1]: «اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ» برفع اسْم اللَّه؛ على القطعِ والابتداءِ، وقرأ الباقون بخفضِ الهاء، ﴿وويل﴾: معناه: وشدَّةٌ وبلاءٌ، وباقي الآية بيِّن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

---

(١) ينظر: «الحجة» (٥/ ٢٥)، و«إعراب القراءات السبع» (١/ ٣٣٤)، و«حجة القراءات» (٣٧٦)، و«الإتحاف» (٢/ ١٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٢٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٩٣)، و«الدر المصون» (٤/ ٢٥٠)، و«السبعة» (٣٦٢)، و«معاني القراءات» (٢/ ٦١)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٩٦)، و«العنوان» (١١٥)، و«شرح شعلة» (٤٤٩ ـ ٤٥٠).

وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم ...﴾ الآية، هذه الآيةُ طَعْنٌ وردٌّ على المستغربين أمْرَ محمَّد ﷺ، وباقي الآية بيِّن.

٢٦٧أ وقوله سبحانه لموسَى: ﴿وذكِّرهم بأيام اللَّه﴾: أي: عظهم بالتهديدِ بِنقَمِ اللَّهِ التي / أحلَّها بالأمم الكافرة قبْلهم، وبالتَّعْديدِ لنعمه علَيْهم، وعَبَّرَ عن النعم وَالنِّقَم بـ «الأَيَّام»؛ إذ هي في أيامٍ، وفي هذه العبارةِ تعظيمُ هذه الكوائنِ المذكَّر بها، وفي الحديثِ الصحيحِ: «بَيْنَمَا مُوسَىٰ فِي قَوْمِهِ يُذَكِّرُهُمْ أَيَّامَ اللَّهِ ...» الحديث، في قصة موسَى مع الخَضِرِ.

قال عياضٌ في «**الإكمال**»: «أيامُ اللَّهِ»: نَعْمَاؤه وبلاؤه، انتهى. وقال الداوودي: وعن النبيِّ ﷺ: «﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾: قال: بِنِعَمِ اللَّهِ» وعن قتادة: ﴿لآياتٍ لكل صبَّار شكور﴾: قال: نعْمَ، واللَّهِ، العبدُ إذا ٱبْتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أُعْطِيَ شَكَرَ. انتهى[1].

وقال ابنُ العربيِّ في «**أحكامه**»: وفي ﴿أيام اللَّه﴾ قولان: **أحدهما**: نعمه. **والثاني**: نقمه. انتهى.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

وقوله: ﴿وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ...﴾ الآية: «تأذّن»: بمعنى آذَنَ، أي: أعلم.

قال بعضُ العلماء: الزيادةُ على الشُّكر ليستْ في الدنيا، وإنما هي مِنْ نعم الآخرةِ، والدنيا أهْوَنُ من ذلك.

قال * ع[2] *: وجائزٌ أن يزيدَ اللَّه المؤمِنَ علَى شُكْره من نعمِ الدنيا والآخرةِ، «والكُفر»؛ هنا: يحتمل أن يكون على بابه، ويحتملُ أنْ يكون كفرَ النِّعَمِ، لا كفرَ الجَحْد،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤١٨) برقم: (٢٠٥٨١)، وذكره ابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥٢٣)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٣٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٢٥).

وفي الآية ترجيةٌ وتخويفٌ، وحكى الطبريُّ[١] عن سفيان وعن الحسن؛ أنهما قَالاَ: معنى الآية: لَئِنْ شكرتم لأَزيدنكم مِنْ طاعتي.

قال * ع[٢] *: وضعَّفه الطبريُّ، وليس كما قال، بل هو قويٌّ حَسَنٌ، فتأَمَّلْهُ.

* ت *: وتضعيفُ الطبريِّ بيِّن؛ من حيثُ التخصيصُ، والأصلُ التعميمُ[٣].

وقوله: ﴿ألم يأتكم﴾: هذا أيضاً من التذكير بأيام اللّه، وقوله سبحانه: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾: قيل: معناه: رَدُّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم؛ إشارةً على الأنبياء بالسُّكوت، وقال الحسن: رَدُّوا أيدي أنفسهم في أفواه الرسُل تسكيتاً لهم، وهذا أشنَعُ في الرَّدِّ[٤].

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿قَالَتْ رسلهم أفي اللّه شكٌّ﴾: التقدير: أفي إلاهية اللّه شَكٌّ أو: أفي وحدانيَّة اللّهِ شكٌّ، و«ما»؛ في قوله ﴿ما آذيتمونا﴾ مصدريَّة، ويحتملُ أنْ تَكُونَ موصولةً بمعنى «الذي»، قال الداوودي: عن أبي عُبَيْدةَ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: مجازه حيثُ أُقيمُهُ بَيْنَ يَدَيَّ للحسابِ انتهى[٥]. قال عبد الحقِّ في «**العاقبة**» قال الربيع بن خُثَيْم: مَنْ خافَ الوعيدَ، قَرُبَ عليه البعيد، ومَنْ طال أمله، ساء عمله. انتهى، وباقي الآية بيِّن.

---

(١) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٧/ ٤٢٠) برقم: (٢٠٥٨٥ ـ ٢٠٥٨٦).

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٢٥).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٢٠) برقم: (٢٠٥٨٧ ـ ٢٠٥٨٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٢٥)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٣٣)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ذكره البغوي (٣/ ٢٧)، وابن عطية (٣/ ٣٢٦).

(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٠).

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿واستفتحوا وخابَ كُلُّ جبَّار عنيد﴾: ﴿ٱستفتحوا﴾: أي: طلبوا الحُكْم، و«الفَتَّاح» الحاكم، والمعنَى: أنَّ الرسل ٱستفتحوا، أيْ: سألوا اللَّه تبارَكَ وتعالَى إنفاذَ الحُكْمِ بنصرهم.

وقيل: بلِ ٱستفتَحَ الكفَّارُ على نحو قولِ قريشٍ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا . . .﴾ [ص: ١٦] وعلى نحو قول أبي جَهْل يوم بَدْرٍ: اللَّهم، أقطعنا للرَّحِم، وأتيانا بمَا لاَ نَعْرِفُ، فأَحْنِهِ الغَدَاةَ، وهذا قولُ ابنِ زيدٍ[١]، وقرأَتْ فرقةٌ: «وَٱسْتَفْتِحُوا»[٢] ـ بكسر التاء ـ؛ على معنى الأمر للرسُلِ، وهي قراءَة ابن عبَّاس ومجاهدٍ وابن مُحَيْصِنٍ: ﴿وخَابَ﴾: معناه: خسر ولم ينجَحْ، والـ ﴿جَبَّار﴾: المتعظِّم في نفسه، والـ ﴿عنيد﴾: الذي يعاند ولا يناقد.

وقوله: ﴿من ورائه﴾: قال الطبري[٣] وغيره: مِنْ أمامه، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وليس الأمر كما ذكروا، بل الوَرَاءُ هنا وهنَاكَ على بابه، أي: هو /ما يأتي بَعْدُ في الزمان، وذلك أن التقدير في هذه الحَوَادِثِ ٢٦٧ ب
بالأَمَامِ والوراءِ، إنما هو بالزَّمَانِ، وما تقدَّم فهو أمام، وهو بَيْن اليد؛ كما نقول في التوراة والإنجيل: إنهما بيْنَ يدَي القرآن، والقرآنُ وراءهم، وعلَى هذا فما تأخَّر في الزمَانِ فهو وراء المتقدِّم، ﴿ويُسْقَى مِنْ ماءٍ صديدٍ﴾: «الصديد»: القَيْح والدمُ، وهو ما يسيلُ من أجْسَادِ أهْلِ النَّار؛ قاله مجاهد[٤] والضَّحَّاك.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/٤٢٨) برقم: (٢٠٦٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٢٦) بنحوه.

(٢) وقرأ بها ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن.
قال أبو الفتح: هو معطوف على ما سبق من قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم﴾، أي: قال لهم: استفتحوا.
ينظر: «**المحتسب**» (١/ ٣٦٠)، و«**الشواذ**» ص: (٧٢)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٣٠)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٤١٠)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «**تفسير الطبري**» (٧/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٤٢٩) برقم: (٢٠٦٢٧)، وبرقم: (٢٠٦٣١) بنحوه، وذكر ابن عطية (٣/ ٣٣١)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٢٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٣٨)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «**البعث والنشور**».

عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

وقوله: ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾: عبارةٌ عن صعوبة أمره عليهم، ورُوي أنَّ الكافر يؤتَى بالشَّرْبة من شراب أهل النَّار، فيتكَّرهها، فإذا أدنيَتْ منه، شَوَتْ وجهه، وسقَطَتْ فيها فروة رأسِهِ، فإذا شربها، قَطَّعت أمعاءه، وهذا الخبر مفرَّق في آيات من كتاب اللّه عزَّ وجلَّ، ﴿ويأتيه الموتُ من كل مكان﴾، أي: مِنْ كل شعرة في بَدَنِهِ؛ قاله إبراهيمُ التَّيْمِيُّ[1]، وقيل: مِنْ جميع جهاته السِّتِّ، ﴿وما هو بميت﴾: لا يراحُ بالموت، ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ قال الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: العذابُ الغليظ: حَبْسُ الأنفاسِ في الأجسادِ، وفي الحديث: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ تَكَلَّمُ بِلِسَانٍ طَلِقٍ ذَلِقٍ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرُ بِهِمَا، وَلَهَا لِسَانٌ تَكَلَّمُ بِهِ، فَتَقُولُ: إِنِّي أُمِرْتُ بِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ، وِبِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وبِمَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَنْطَلِقُ بِهِمْ قَبْلَ سَائِرِ النَّاسِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فتنطوي علَيْهم، فتقذفُهُمْ في جهنَّم»، خرَّجه البزَّار[2]، انتهى من **«الكوكب الدري»**.

وقوله: ﴿في يوم عاصفٍ﴾ وصف اليوم بالعُصُوفِ، وهي من صفات الريحِ بالحقيقة؛ لما كانت في اليوم، كقول الشاعر: [الطويل]

.... وَنِـمْـتَ وَمَـا لَـيْـلُ الْـمَـطِـيِّ بِـنَـائِـمِ[3]

وباقي الآية بيِّن.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٣٠) برقم (٢٠٦٣٦)، وذكره البغوي (٣/ ٢٩)، وابن عطية (٣/ ٣٣١)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٢٦)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ١٣٩) وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٧٠١) كتاب «صفة جهنم» باب: ما جاء في صفة النار، حديث (٢٥٧٤) بنحوه، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

(٣) عجز بيت وصدره:
لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى ....
والبيت لجرير في **«ديوانه»** ص: (٩٩٣)، و**«خزانة الأدب»** (١/ ٤٦٥)، (٨/ ٢٠٢)، و**«الكتاب»** (١/ ١٦٠)، و**«لسان العرب»** (٢/ ٤٤٢) (ربح)، وبلا نسبة في **«الأشباه والنظائر»** (٨/ ٦٠)، و**«الإنصاف»** (١/ ٢٤٣)، و**«تخليص الشواهد»** ص: (٤٣٩)، والصاحبي في **«فقه اللغة»** (٢٢٢)، و**«المحتسب»** (٢/ ١٨٤)، و**«المقتضب»** (٣/ ١٠٥)، (٤/ ٣٣١).

﴿وبرزوا للَّه جميعاً﴾: معناه: صاروا في البِرَازِ، وهي الأرضُ المتَّسِعَة، ﴿فقال الضُّعفاءُ﴾، وهم الأتْبَاعُ ﴿للذين ٱستَكْبَروا﴾، وهم القادة وأَهْلُ الرأْي، وقولهم: ﴿سواءٌ علينا أجزعنا أم صبَرْنا ما لنا من محيص﴾: «المحيصُ»: المفرُّ وَالمَلْجَأ مأخوذٌ مِن حَاصَ يَحِيصُ؛ إذا نفر وفر؛ ومنه في حديث هِرَقْلَ: «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلى الأَبْوَاب» وروي عن ابن زيدٍ، وعن محمد بن كَعْب؛ أن أهْلَ النار يقولُونَ: إنما نال أَهْلُ الجَنَّةِ الرحْمَةَ بالصبر على طاعة الله، فتعالَوْا فَلْنَصْبِرْ، فَيَصْبِرُونَ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ، فلا ينتفعون، فيقولُون: هلمَّ فَلْنَجْزَعْ، فَيَضِجُّونَ ويَصِيحُونَ ويَبْكُونَ خَمْسَمِائَةِ سنة أُخرَى، فحينئذٍ يقولُونَ هذه المقَالَةَ ﴿سَوَاءٌ علينا . . .﴾ الآية، وظاهر الآية أنهم إنما يقولونها في مَوْقِفِ العرْض وقْتَ البروز بين يَدَي الله عزَّ وجلَّ[1].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝٢٣﴾

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر﴾: المراد هنا بـ «الشَّيْطَان» إبليسُ الأَقْدَمُ، وروي عن النبيِّ ﷺ من طريق عُقْبَة بنِ عَامِرٍ، أنه قال: يقوم يومَ القيامَةِ خَطِيبَان؛ **أحدهما**: إبليسُ يقوم في الكَفَرة بهذه الألْفَاظِ، **والثاني**: عيسَى ابنُ مَرْيَمَ يقومُ بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ . . .﴾ الآية [المائدة: ١١٧]، وروي في حديث؛ أنَّ إبليس إنما يقوم بهذه الألفاظ في النَّار علَى أهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] في الآية المتقدِّمة؛ فعلى هذه الرواية، يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾، أي: حصل أهْلُ / النار في النَّار، وأهْلُ الجنة في الجنة، وهو تأويلُ الطبريِّ[2]. ٢٦٨أ

وقوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾: أي: من حجة بيِّنة، و﴿إلا أنْ دعوتكم﴾؛ ٱستثناءٌ منقطعٌ، ويحتملُ أنْ يريد بـ «السُّلْطان» في هذه الآية: الغلبة والقُدْرة والمُلْك، أي: ما ٱضطَررتُكم، ولا خوَّفتكم بقُوَّة منِّي، بلْ عرضْتُ عليكم شيئاً فأتى رأْيُكُمْ عليه.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٣٣) برقم: (٢٠٦٤٠)، وبرقم: (٢٠٦٤١)، وذكره البغوي (٣/ ٣٠)، وابن عطية (٣/ ٣٣٣)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥٢٨)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٤٠)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «**الطبري**» (٧/ ٤٣٣).

وقوله: ﴿فلا تلوموني﴾: يريد: بزعمه؛ إذ لا ذَنْبَ لي، ﴿ولوموا أنفسكم﴾، أي: في سوء نَظَركم في اتِّباعي، وقلَّةِ تثبُّتكم؛ ﴿ما أنا بمصرخكم﴾: «المُصْرِخُ»: المغيث، والصَّارِخُ: المستغيث، وأما الصَّريخ، فهو مصدَرٌ بمنزلة البَريح، وقوله: ﴿إني كَفَرْتُ بما أشركتمون﴾: «ما» مصدريةٌ، وكأنه يقول: إني الآن كافرٌ بإشراككم إيَّايَ مع الله قَبْلَ هذا الوَقْتِ، فهذا تَبَرٌّ منه، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم﴾: «الإذن»؛ هنا: عبارةٌ عن القضاء والإمضاء.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: بمعنى: ألم تعلَمْ، قال ابنُ عَبَّاس وغيره: الكلمة الطَّيِّبة: هي لا إله إلا الله[1]، مَثَّلها الله سبحانه بالشَّجَرة الطَّيِّبة، وهي النَّخْلة في قول أكثر المتأوِّلين، فكأنَّ هذه الكلمة أصلها ثابتٌ في قلوبِ المؤمنين، وفَضْلُها وما يَصْدُرُ عنها من الأفعال الزكيَّة وأنواعِ الحسناتِ هو فَرْعُها يَصْعُد إلى السماء مِنْ قِبَلِ العبدِ، والحِين: القطعةُ من الزمان غيرُ مَحْدُودةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حين﴾ [ص: ٨٨]، وقد تقتضي لفظة «الحِين» بقرينتها تحديداً؛ كهذه الآية، و«الكلمةُ الخبيثةُ»: هي كلمة الكفر، وما قاربها مِنْ كلامِ السوءِ في الظلم ونحوه، و«الشجرة الخبيثة»: قال أكثر المفسِّرين: هي شجرة الحَنْظَل؛ ورواه أنس عن النبيِّ ﷺ[2] وهذا عندي عَلَى جهة المَثَلِ، «اُجتثَّتْ»: أي: اُقْتُلِعَتْ جثتها بنزع الأصولِ، وبقيَتْ في غاية الوَهَنِ والضَّعْفِ، فتقلبها أقلُّ ريحٍ، فالكافر يَرَى أنَّ بيده شيئاً، وهو لا يستقرُّ ولا يُغْنِي عنه؛ كهذه الشجرة الذي يُظَنُّ بها عَلَى بُعْدٍ أو للجَهْلِ بها أنها شيءٌ نافع، وهي خبيثةُ الجَني غير باقية.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٣٧) برقم: (٢٠٦٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم عليه السلام، حديث (٣١١٩)، والطبري (١٣/ ٢٠٥)، وأبو يعلى (٧/ ١٨٢ ـ ١٨٣) برقم: (٤١٦٥)، والحاكم (٣/ ٣٥٢)، وابن حبان (٤٦٨) من حديث أنس مرفوعاً به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾: ﴿القولُ الثَّابت في الحياة الدنيا﴾: كلمةُ الإخلاصِ والنجاةِ من النَّار: «لا إله إلا اللَّه»، والإقرارُ بالنبوَّة، وهذه الآية تعمُّ العالَمَ مِنْ لدنْ آدم عليه السلام إلى يوم القيامةِ. قال طَاوُسٌ، وقتادة، وجمهور من العلماء: ﴿الحياةُ الدنيا﴾ هي مدَّة حياةِ الإنسان، ﴿وفي الآخرة﴾ وَقْتُ سؤاله في قَبْرِهِ[1]، وقال البَرَاء بنَ عَازِبٍ وجماعة: ﴿في الحياة الدنيا﴾: هي وقتُ سؤاله في قَبْره، ورواه البَرَاءُ عن النبيِّ ﷺ في لفظ متأوَّلٍ، وفي الآخرة: هو يوم القيامة عندَ العَرْض، والأولُ أحسن، ورجَّحه الطبريُّ.

٢٦٨ ب * ت[2] *: ولفظ البخاريِّ عن البراءِ بْنِ عازِبٍ /أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «المُسْلِمُ إذَا سُئِلَ فِي القَبْرِ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ﴾». انتهى، وحديثُ البَرَاءِ خَرَّجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائيُّ وابنُ ماجه[3]، قال صاحب «التذكرة»[4]: وقد رَوَى هذا الحديثَ أبو هريرة وابن مسعود وابنُ عباس وأبو سَعِيدٍ الخدريُّ قال أبو سعيدٍ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥١) برقم: (٢٠٧٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٣٥)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٤٤٩) برقم: (٢٠٧٦٣) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٣٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٣٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٤٨)، وعزاه لابن أبي شيبة.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢٧٤) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء في عذاب القبر، حديث (١٣٦٩)، وفي (٨/ ٢٢٩) كتاب «التفسير» باب: ﴿يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت﴾، حديث (٤٦٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٠١) كتاب «الجنة» باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، حديث (٧٣/ ٢٨٧١)، وأبو داود (٢/ ٦٥١) كتاب «السنة» باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث (٤٧٥٠)، والترمذي (٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم، حديث (٣١٢٠)، والنسائي (٤/ ١٠١) كتاب «الجنائز» باب: عذاب القبر، حديث (٢٠٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧) كتاب «الزهد» باب: ذكر القبر والبلى برقم: (٤٢٦٩)، والطيالسي (٢/ ٢٠ ـ منحة) برقم: (١٩٥٩). كلهم من طريق سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب به، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٤٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١/ ١٦٦).

الخُدْرِيُّ: كُنَّا في جنازةٍ مع النبيِّ ﷺ فقَالَ: «يَأَيُّهَا النَّاسُ إنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى في قُبُورِهَا فإذَا الإنْسَانُ دُفِنَ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جاءَهُ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ، فَأَقْعَدَهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ في هَذَا الرَّجُلِ . . .» الحديث، وفيه: فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ إلاَّ هَبِلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ ويُضِلُّ اللَّهُ الظالِمِينَ ويَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1] انتهى.

قال أبو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ البرِّ: وُرِوِّينا من طرق؛ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ لِعُمَرَ: كَيْفَ بِكَ يَا عُمَرُ، إذَا جَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، إذَا مُتَّ، وَانْطَلَقَ بِكَ قَوْمُكَ، فَقَاسُوا ثَلاَثَةَ أَذْرُعٍ وشِبْراً في ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ، ثُمَّ غَسَّلُوكَ، وَكَفَّنُوكَ، وَحَنَّطُوكَ، ثُمَّ ٱحْتَمَلُوكَ، فَوَضَعُوكَ فِيهِ، ثُمَّ أَهَالُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ، فَإذَا ٱنْصَرَفُوا عَنْكَ أَتَاكَ فَتَّانَا الْقَبْرِ: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَصْواتُهُمَا كَالرَّعْدِ القَاصِفِ، وَأَبْصَارُهُمَا كَالبَرْقِ الخَاطِفِ يَجُرَّانِ شُعُورَهُمَا، مَعَهُمَا مِرْزَبَةٌ، لَوْ ٱجْتَمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ الأَرْضِ لَمْ يَقْلِبُوهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن فَرِقْنَا فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَفْرَقَ أَنُبْعَثُ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: إذَنْ أَكْفِيكَهُمَا»، انتهى[2]، و«الظالمون»؛ في هذه الآية: الكافرون، ﴿ويفعل اللَّه ما يشاء﴾، أي: بحقِّ الملك؛ فلا رادَّ لأَمره، ولا معقِّب لِحُكْمه، وجاءتْ أحاديثُ صحيحةٌ في مُسَاءلة العبد في قبره، وجماعة السُّنَّة تقولُ: إنَّ اللَّه سبْحَانه يَخْلُقُ للعَبْدِ في قَبْرِهِ إدراكاتٍ وتحصيلاً: إما بحياةٍ؛ كالمتعارفة، وإما بحضورِ النَّفْس، وإن لم تتلبَّس بالجَسَدِ كالعُرْف، كلُّ هذا جائزٌ في قُدْرة اللَّه تَبَارَكَ وتعالى غير أنَّ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ؛ «أَنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ النِّعَالِ»، ومنها: أنه يرى الضوء كَأَنَّ الشَّمْسَ دَنَتْ للغروب، وفيها أنه يُرَاجِعُ، وفيها: «فَيُعَادُ رُوحُهُ إلَى جَسَدِهِ»، وهذا كلُّه يتضمَّن الحياةَ، فسُبْحَانَ مَنْ له هذه القدرةُ العظيمةُ، وقوله سبحان: ﴿أَلَمْ تر إلى الذين بدَّلوا نعمت اللَّه كُفراً﴾: المراد بـ ﴿الذين بدَّلوا نِعْمَت اللَّه﴾: كَفَرَةُ قُرَيشٍ، وقد خرَّجه البخاريُّ وغيره مسنداً عن ابن عباس[3] انتهى، والتقديرُ: بدَّلوا شُكْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْراً، ونِعْمَةُ اللَّه تعالى؛ في

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤١٧ ـ ٤١٨) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٥١)، وقال: رواه أحمد، والبزار، ورجاله رجال الصحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٤٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا في ذكر الموت، وابن مردويه، والبيهقي في «عذاب القبر»، وقال السيوطي: سنده صحيح.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٥٣)، وعزاه إلى ابن أبي داود في «البعث»، والحاكم في «التاريخ»، والبيهقي في «عذاب القبر».

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٠)، والطبري (٧/ ٤٥٤) برقم: (٢٠٧٩٦)، وذكره البغوي (٣/ ٣٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٥٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

هذه الآية: هو محمَّد ﷺ ودِينُهُ، ﴿وأَحَلُّوا/ قومهم﴾، أي: مَنْ أطاعهم، وكأنَّ الإشارة ١٢٦٩أ
والتعنيف إنما هو للرؤوس والأعلام، و﴿البوار﴾: الهلاك، قال عطاءُ بنُ يَسَارٍ: نَزَلَتْ هذه الآيةُ في قَتْلَى[١] بدر، و«الأنداد»: جمع نِدٍّ، وهو المثيلُ، والمرادُ: الأصنام، واللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ - بضم الياء -: لام كَيْ، وبفتحها: لامُ عاقبةٍ وصيرورةٍ، والقراءتان[٢] سبعيَّتَانِ.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة . . .﴾ الآية: «العباد»: جمع عبدٍ، وعُرْفُه في التكرمة بخلافِ العبيدِ، و«السر»: صدقة التنفُّل، و«العلانية»: المفروضةُ؛ هذا هو مقتضى الأحاديثِ، وفسر ابن عباس هذه الآية بزكَاةِ الأموالِ مجملاً، وكذلك فسَّر الصلاة؛ بأنها الخَمْسُ وهذا عندي منه تقريبٌ للمخاطَب[٣]. و«الخلال»: مصدرٌ من «خَالَلَ»، إذا وادَّ وصافَى؛ ومنه الخُلَّة والخَلِيلَ، والمراد بهذا اليوم يَوْمُ القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّه الذي خلق السمٰوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾: هذه الآيةُ تذكيرٌ بآلائه سُبْحانه، وتنبيهٌ على قدرته التي فيها إِحْسَان إلى البَشَر؛ لتقوم الحُجَّة عليهم، وقوله: ﴿بأمره﴾: مصدر أَمَرَ يَأْمُرُ، وهذا راجعٌ إلى الكلامِ القديمِ القائمِ بالذاتِ، و﴿دائبين﴾: معناه: متمادِيَيْنِ، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجَمَلِ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥٥) برقم: (٢٠٨١٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٥٧)، وعزاه لابن جرير.

(٢) وتفصيل هذه القراءة على ما يلي: قرأ أبو كثير وأبو عمرو: «ليضلوا» بفتح الياء، أي: ليصيروا هم ضُلَّالاً.
وحجتهما: قوله تعالى: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ [النحل: ٣٠].
وقرأ الباقون: «ليُضلوا» بضم الياء، أي: ليضلوا غيرهم، وحجتهم: أن اللَّه سبحانه وصفهم قبل بأنهم ضالون في أنفسهم، فقال: ﴿وجعلوا للَّه أنداداً﴾، فكان الحال يقتضي زيادة معنى، وهو: أنهم لم يتوقفوا عن ضلالهم هم، بل عدوه إلى غيرهم.
ينظر: «شرح الطيبة» (٤/ ٣٩٦)، و«العنوان» (١١٥)، و«حجة القراءات» (٣٧٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٦٩).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥٧) برقم: (٢٠٨٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٣٩).

الذي بَكَى وأَجْهَش[(١)] إليه: «إنَّ هَذَا الجمَلَ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه»[(٢)]، أي: تديمه في الخِدْمَة والعَمَل، وظاهرُ الآية أنَّ معناه: دائبَيْن في الطلوع والغروبِ وما بينهما من المَنَافِعِ للناسِ التي لا تحصَى كثرةً، وعن ابن عباس أنَّه قال: معناه: دائِبَيْنِ في طاعة اللَّه[(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ المعنى: أنَّ جنس الإنسان بجملته قد أوتي من كلِّ ما شأنه أنْ يسأل وينتفع به، وقرأ ابن عباس[(٤)] وغيره: «مِنْ كُلٍّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ» ـ بتنوين كُلٍّ ـ، ورويت عن نافع، وقوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها﴾، أي: لكثرتها وعِظَمها في الحَوَاس والقُوَى، والإيجادِ بعد العَدَم والهدايةِ للإيمان وغيرِ ذلك، وقال طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ: إِنَّ حقَّ اللَّه تعالى: أَثْقَلُ من أَنْ يَقُومَ به العُبَّادُ، ونِعْمَهُ أَكثر مِنْ أَنْ يحصيها العبَادُ، ولكنْ أَصْبِحُوا توَّابين، وأَمْسُوا تَوَّابِين.

* ت[(٥)] *: وَمِنْ «الكَلِمِ الفارقيَّة»: أيها الحَرِيصُ على نيلِ عَاجِلِ حظِّه ومراده؛ الغافلُ عن الاستعداد لمعاده تنَبَّه لعظمة مَنْ وجودُكَ بإيجادِهِ؛ وبقاؤك بإِرْفاده؛ ودوامك بإِمداده، وأَنْتَ طفلٌ في حجْر لُطْفه؛ ومهد عَطْفه؛ وحضانة حفظه، يغذُك بلِبَانِ برِّهِ؛ ويقلِّبك بأيدي أياديه وفضله؛ وأنتَ غافلٌ عن تعظيم أمره؛ جاهلٌ بما أولاَكَ من لَطِيف سِرِّه؛ وفضَّلك به على كثيرٍ من خَلْقه، وأذْكُرْ عهد الإيجاد، ودوام الإِمْدَاد والإِرفاد؛ وحالَتِي الإِصْدَار والإِيراد؛ وفاتحة المبدإ وخاتمةَ المَعَاد. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِن الإِنسان﴾: يُرِيدُ به النوْعَ والجنْسَ، المعنَى: توجَدُ فيه هذه

---

(١) الجَهْشَ والإجهاش: أن يفزع الإنسان إلى غيره، وهو مع ذلك كأنه يريد البكاء، كالصبي يفزع إلى أمه وأبيه وقد تهيأ للبكاء.
ينظر: «**النهاية**» (١/ ٣٢٢) و«**لسان العرب**» (٧١٣).

(٢) ذكره السيوطي في «**الخصائص الكبرى**» (٢/ ٩٥)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في «**الدلائل**».

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥٨) برقم: (٢٠٨٢٦)، وذكره البغوي (٤/ ٣٦)، وابن عطية (٣/ ٣٣٩)، والسيوطي في «**الدر المنثور**»، وعزاه لابن جرير.

(٤) وقرأ بها الحسن، وجعفر بن محمد، وسلام بن منذر، والضحاك، ومحمد بن علي، وعمرو بن فائد، ويعقوب، قال أبو الفتح: أما على هذه القراءة فالمفعول ملفوظ به، أي: وآتاكم ما سألتموه أن يؤتيكم منه، وأما قراءة الجماعة. . . على الإضافة، فالمفعول محذوف: أي: وآتاكم سؤلكم من كل شيء.
ينظر: «**المحتسب**» (١/ ٣٦٣)، و«**الشواذ**» ص: (٧٣)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٤٠)، و«**البحر المحيط**»(٥/ ٤١٦)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٢٧٢).

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥٩) برقم: (٢٠٨٣٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٠)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥٤٠)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٥٨)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي في «**الشعب**».

الخِلاَلُ، وهي الظُّلم والكُفر، فإن كانَتْ هذه الخِلاَلُ من جاحِدٍ، فهي بصفةٍ، /وإن كانَتْ من عاصٍ فهي بصفةٍ أُخرَى. ٢٦٩ ب

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ ٱجعَلْ هذا البلد آمناً﴾ تقدَّم تفسيره.

وقوله: ﴿وٱجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام﴾: و﴿ٱجنبني﴾: معناه: ٱمْنَعْنِي، يقال: جَنَبَهُ كَذَا، وأَجْنَبَهُ؛ إذا مَنَعَهُ من الأمر وحَمَاهُ منه.

* ت *: وكذا قال * ص *: و«ٱجنبني»: معناه: ٱمنعْنِي، أصله من الجَانِبِ، وعبارةُ المَهْدَوِيِّ: أي: ٱجعلْني جانباً من عبادتها.

وقال الثعلبيُّ: ﴿وٱجنبني﴾، أي: بعِّدني وٱجعلْني منها على جانِبٍ بعيدٍ. انتهى، وهذه الألفاظ كلُّها متقاربة المعاني، وأراد إبراهيم عليه السلام بَنِيَّ صُلْبه، وأما باقي نَسْله، فمنهم مَنْ عبد الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إِفراطَ خَوْفه علَى نفسه ومَنْ حصل في رتبته، فكيف يَخَافُ أنْ يعبد صَنَماً، لكن هذه الآية ينبغي أنْ يُقْتَدَى بها في الخَوْفِ، وطَلَبِ حُسْنِ الخاتمة، و﴿الأصنام﴾: هي المنحوتةُ على خِلْقَة البَشَر، وما كان منحوتاً على غَيْرِ خلْقَة البَشَرِ، فهي أوثانٌ، قاله الطبريُّ عن مجاهد(١)، ونسب إِلى الأصنام أنها أَضَلَّتْ كثيراً من الناس تجوُّزاً، وحقيقةُ الإِضلال إِنما هي لمخترعها سبحانه، وقيل: أراد بـ ﴿الأصنام﴾ هنا: الدنانيرُ والدَّرَاهم.

وقوله: ﴿ومن عصاني﴾: ظاهره بالكُفْر؛ لمعادلة قوله: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾، وإذا كان ذلك كذلك، فقوله: ﴿فإنك غفورٌ رحيمٌ﴾: معناه: بتوبَتِكَ على الكَفَرَةِ؛ حتى يؤمنوا لا أنَّه أراد أنَّ اللَّه يغفر لكَافِرٍ، وحمله على هذه العبارة ما كَانَ يأخذ نَفْسَهُ به من القَوْلِ الجميلِ، والنُّطْقِ الحسنِ، وجميلِ الأَدَبِ ﷺ، قال قتادة: ٱسْمَعُوا قَوْلَ الخليلِ ﷺ: واللَّه ما كانُوا طَعَّانين ولا لَعَّانِينِ، وكذلك قولُ نبيِّ اللَّه عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٦٠) برقم: (٢٠٨٣٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤١).

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1] [المائدة: ١١٨]، وأسند الطبريُّ[2] عن عبد اللَّهِ بْن عَمْرو حديثاً: أن النبيَّ ﷺ، تلا هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، ثم دعا لأمته فبَشَّرَ فيهم[3]، وكان إِبراهيمُ التَّيْمِيُّ يقول: مَنْ يأمن على نفسه بَعْدَ خوف إِبراهيمَ الخليل على نَفْسِهِ مِنْ عبادة الأَصْنام.

وقوله: و﴿من ذريتي﴾: يريد: إِسماعيل عليه السلام، وذلك أَنَّ سارَّة لَمَّا غارتْ بهاجَرَ بَعْدَ أَنْ ولدَتْ إِسماعيل، تشوَّش قلبُ إِبراهيم مِنْهُما، فروي أَنَّه رَكِبَ البُرَاقَ هو وهَاجَر، والطفلُ، فجاء في يَوْم واحدٍ من الشام إِلى بَطْنِ مَكَّة، فتركَهُما هناك، ورَكِبَ منصرفاً من يومه ذلك، وكان ذلك كلُّه بوحْيٍ من اللَّه تعالى، فلمَّا ولى، دعا بمضمَّن هذه الآية، وأمَّا كيفيَّة بقاء هَاجَرَ، وما صَنَعَتْ، وسائرُ خَبَر إِسماعيل، ففي كتابِ البخاريِّ وغيره، وفي السيرِ، ذُكِرَ ذلك كلُّه مستَوْعَباً.

* ت *: وفي «**صحيح البخاري**» من حديثه الطويل في قصَّة إِبراهِيمَ مع هَاجَرَ
وولدِهَا، لما حَمَلَهُما إِلى مكَّة، قال: ولَيْسَ / بمكَّة يومَئِذٍ أَحَدٌ، وليس فيها ماءٌ، فوضعهما ٢٧٠أ
هنالِكَ، ووضَعَ عندهما جراباً فيه تمْر، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفَّى إِبراهيم منطلقاً، فتبعَتْهُ أُمُّ إِسماعيل، فقالَتْ: يا إِبراهيم، أَيْنَ تَذْهَبُ، وتَتْرُكُنا بهذا الوادِي الذي لَيْسَ فيهِ أَنِيسٌ، ولا شَيْء، فقالَتْ له ذلك مِرَاراً، وجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِليها، فقالَتْ لَهُ: آللَّه أَمَرَكَ بهذا، قال: نعمْ، قالتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثم رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبراهيمُ حتى إِذا كان عند الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بوجهه الْبَيْتَ، ثم دعا بهؤلاءِ الدعَواتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: «رَبِّ ﴿إِني أَسكَنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زَرْع عندَ بيتك المُحَرَّم﴾، حتى بَلَغَ: ﴿يشكرون﴾ . . .» الحديثَ بطوله[4] وفي طريقٍ: «قَالَتْ: يا إِبراهيم إِلى مَنْ تَتْرُكُنا، قال: إِلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: رَضِيتُ. انتهى. وفي هذا الحديثِ مِنَ الفوائِدِ لأرباب القلوبِ والمتوكِّلين وأَهْلِ الثقة باللَّه سُبْحَانه ما يَطُولُ بنا سرْدُهَا، فإِليك اسْتخراجَهَا، ولما انقطعَتْ هاجَرُ وابْنُها إِلى اللَّه تعالى، آواهما اللَّه، وأَنْبَعَ لهما ماءَ زَمْزَمَ المبارَكَ الذي جَعَله غذاءً، قال ابنُ العربي: وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»[5].

قال ابن العربيِّ: ولقد كُنْتُ مقيماً بمكَّة سنَةَ سَبْعٍ وثمانينَ وأربعمائة، وكنتُ أَشْرَبُ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٦١) برقم: (٢٠٨٤٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤١)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٦٠)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «**الطبري**» (٧/ ٤٦١).

(٣) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٧/ ٤٦١) برقم: (٢٠٨٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥٦، ٤٥٨) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: يزفون، حديث (٣٣٦٤).

(٥) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١١٢٤).

مَاءَ زَمْزَمَ كثيراً، وكلَّما شرِبْتُ، نَوَيْتُ بِهِ العِلْمَ والإِيمانَ، ونَسِيتُ أَنْ أشربه للعَمَلِ، ففتح لي في العِلْمِ، ويا لَيْتَنِي شربْتُه لهما معاً؛ حتى يُفْتَحَ لي فيهما، ولم يُقَدَّر، فكان صَغْوِي إِلى العلْمِ أَكْثَرَ منه إِلى العمل، انتهى من «**الأحكام**».

و«من»؛ في قوله: و﴿مِن ذُرِّيتي﴾؛ للتبعيضِ؛ لأن إِسحاق كان بالشَّام، و«الوادِي»: ما بين الجبَلَيْن، وليس مِنْ شرطه أَنْ يكون فيه ماءٌ، وجَمْعُه الضميرَ في قوله: ﴿ليقيموا﴾: يدلُّ على أن اللَّه قد أعلمه أنَّ ذلك الطِّفْلَ سَيُعْقِبُ هناك، ويكونُ له نسلٌ، واللام في ﴿ليقيموا﴾: لامُ كي؛ هذا هو الظاهر، ويصحُّ أَنْ تكون لام الأمر؛ كأنه رَغِبَ إِلى اللَّه سبحانه أَنْ يوفِّقهم لإِقامة الصلاة، و«الأفئدة» القلوبُ جمْع فؤادٍ، سمِّي بذلك، لاتِّقَادِهِ، مأخوذ من «فَأَد»، ومنه: «المُفْتَأَدُ»، وهو مستوقَدُ النَّار حيث يُشْوَى اللحْمُ.

وقوله: ﴿من الناس﴾: تبعيضٌ، ومراده المؤمنون، وباقي الآية بيِّن.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

وقوله: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾: دعاء إِبراهيم عليه السلام في أمْر كان مثابراً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإِنسان في مثْل هذا، فإِنما المَقْصِدُ إِدامةُ ذلك الأمْر، واستمراره، قال السُّهَيْلِيُّ: قوله تعالى: ﴿ربِّ اجعلني مقيمَ الصلاة ومن ذريتي﴾ بحرف التبعيض، ولذلك أسلم بَعْضُ ذريته دُونَ بعضٍ، انتهى، وفاقاً لما تقدَّم الآن.

وقوله: ﴿ربنا اغفرْ لي ولوالديَّ﴾: اختلف في تأويل ذلكَ، فقالَتْ فرقة: كان ذلك قَبْل يأسه من إِيمان أبيه، وتبيُّنه أنه عدوٌّ للَّه، فأراد أباه وأُمَّه؛ لأنَّها كانت مؤمنة، وقيل: أراد آدم / ونوحاً عليهما السلام، وقرأ الزُّهْرِيُّ[1] وغيره: «وَلِوَلَدَيَّ»؛ على أنه دعاءٌ لإِسماعيل ٢٧٠ ب
وإِسحاق، وأنكرها عاصِمٌ الجَحْدَرِيُّ، وقال: «إِن في مُصْحَفِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ وَلأَبَوَيَّ»[2].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ

---

(١) وقرأ بها الحسين بن علي، وإِبراهيم النخعي، وأبو جعفر محمد بن علي.
ينظر: «**المحتسب**» (١/ ٣٦٥)، و«**الكشاف**» (٢/ ٥٦٢)، وفيه الحسن بن علي بدلاً من الحسين، وينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٤٣)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٤٢٣)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٢٧٦).

(٢) ينظر: «**مختصر الشواذ**» ص: (٧٣)، و«**الكشاف**» (٢/ ٥٦٢)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٤٣)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٤٢٣)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٢٧٦).

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿ولا تحسبن اللّه غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم . . .﴾ الآية: هذه الآية بجملتها فيها وعيدٌ للظالمين، وتسليةٌ للمظلومين، والخطابُ بقوله: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ للنبيِّ ﷺ، و﴿تَشْخَصُ فيه الأبصار﴾، معناه: تَحِدُّ النظرَ، لفرط الفَزَعِ ولفَرْطِ ذلك يَشْخَصُ المُحْتَضرُ، و«المُهْطِع» المسرع في مَشْيه؛ قاله ابنُ جُبَيْر وغيره[١]، وذلك بذِلَّة وأستكانةٍ، كإسراع الأسير ونحوه، وهذا أرجحُ الأقوال، وقال ابن عباس وغيره: الإهطاع شدَّة النظر من غير أنْ يَطْرِفَ[٢]، وقال ابنُ زَيْدٍ: «المُهْطِع»: الذي لا يرفع رأسَهُ[٣]، قال أبو عُبَيْدة: قد يكون: الإِهْطَاعُ للوجْهَيْنِ جميعاً: الإسراع، وإِدَامَةُ النَّظَر[٤]، و«المُقْنِعُ»: هو الذي يَرْفَعُ رأْسَه قدُماً بوَجْهِهِ نحو الشيْءِ، ومِنْ ذلك قولُ الشاعر: [الوافر]

يُبَاكِرْنَ الْعِضَاهَ بِمُقْنَعَاتٍ نَوَاجِذُهُنَّ كَالْحَدَإِ الْوَقِيعِ[٥]

يصفُ الإبلَ عند رعْيها أعاليَ الشَّجَر، وقال الحسن في تفسير هذه الآية: وجوهُ الناسِ يوم القيامَةِ إلى السماء لا يَنْظُرُ أَحدٌ إلى أحد[٦]، وذكر المبرِّد فيما حَكَى عنه مكِّيٌّ: أن الإقناع يوجَدُ في كلامِ العَرب بمعنًى: خَفْضِ الرأسِ من الذِّلَّة.

قال ❊ ع[٧] ❊: والأول أشهر.

وقوله سبحانه: ﴿لا يرتدُّ إليهم طرفهم﴾؛ أي: لا يَطْرِفُونَ من الحَذَرِ والجزعِ وشدَّة الحال.

وقوله: ﴿وأفئدتهم هواء﴾: تشبيه محضٌ، وَجِهَةُ التشبيه يحتملُ أنْ تكون في فراغ الأَفئدة من الخَيْرِ والرَّجاء والطمعِ في الرحمة، فهي متخرِّقة مُشْبِهَةٌ الهواءَ في تَفرُّغه من الأشياء،

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٤٦٨) برقم: (٢٠٨٧١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٦٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٦٩) برقم: (٢٠٨٧٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٤).

(٥) البيت للشماخ ينظر: «ديوانه» ص: (٢٢٠)، و«اللسان» [قنع]، و«المخصص» (١/ ١٤٦)، و«التاج» حدأ، نجذ، قنع. والحدأة: بفتح الحاء: الفأس لها رأسان، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٤٣)، والطبري (١٣/ ١٤٢).

(٦) ذكره البغوي (٣/ ٣٩)، وابن عطية (٣/ ٣٤٤).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٤).

وٱنخراقِهِ، ويحتمل أنْ تكون في ٱضطراب أفئدتهم وجيشانها في صُدُورهم، وأنها تذهب وتجيءُ وتبلُغُ علَى ما رُوِيَ حناجرهم، فهي في ذلك كالهَوَاءِ الذي هو أبداً في ٱضطرابٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾: المراد باليَوْم: يومُ القيامةِ، ونصبُهُ على أنه مفعولٌ بـ «أَنْذِر»، ولا يجوزُ أن يكون ظرفاً، لأن القيامةَ لَيْسَتْ بموطنِ إنذار، قال الشيخُ العارفُ باللّهِ عبْدُ اللّهِ بْنُ أبي جَمْرَة: يجبُ التصْدِيقُ بكُلِّ ما أخبر اللّه ورسُولُهُ به، ولا يتعرَّض إلى الكيفيَّة في كلِّ ما جاء من أمْرِ الساعة وأَحْوَالِ يوم القيامةِ، فإنه أمْرٌ لا تسعه العُقُولُ، وطَلَبُ الكيفيَّة فيه ضعفٌ في الإيمانِ، وإنما يجبُ الجَزْم بالتصديقِ بجميعِ مَا أخبر اللّه بِهِ، انتهى.

قال الغَزَّالِيُّ: فَأَعلمُ العلماءِ وأعْرَفُ الحكماءِ ينكشفُ له عَقِيبَ المَوْت مِنَ العجائبِ والآياتِ ما لَمْ يَخْطُرْ قَطُّ بباله، ولا ٱختلَجَ به ضميره، فلو لم يكُنْ للعاقل هَمٌّ ولا غَمٌّ، إلا التفكُّر في خَطَر تلك الأحوال، وما الذي ينكشفُ عَنه الغِطَاء من شقاوةٍ لازمةٍ، أو سعادة دائمةٍ /لكان ذلك كافياً في ٱستغراقِ جميع العُمُر، والعَجَبُ من غَفْلتنا، وهذه العظائِمُ بَيْنَ ١٢٧١ أ
أيدينا. انتهى من «الإحياء».

وقوله: ﴿أو لم تكونوا ...﴾ الآية: معناه: يقال لهم، وقوله: ﴿ما لكم من زوال﴾: هو المُقْسَمُ عليه، وهذه الآية ناظرةٌ إلى ما حَكَى اللّه سبحانه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وسكنتم ...﴾ الآية: المعنَى: بقول اللّه عزَّ وجلَّ: وسكَنْتُم أيها المُعْرِضُون عَنْ آيات اللّه مِنْ جميع العالم في مَسَاكِنِ الذين ظَلَمُوا أنفسهم بالكُفر من الأمم السَّالفة، فنزلَتْ بهم المَثُلاَتُ، فكان حَقُّكُم ٱلاعتِبارَ وَٱلاتعاظ. وقوله: ﴿وعند اللّه مكرهم﴾: أي: جزاء مكرهم، وقرأ السبعة سوى الكسائِيِّ[1]: «وإنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ»

---

(١) ومعنى قراءة الكسائي حينئذ: وقد كان مكرهم يبلغ في المكيدة إلى إزالة الجبال، غير أن اللّه ناصر دينه، ومزيل مكر الكفار وماحقه، وحجته قراءة علي وابن مسعود: «وإن كاد مكرهم لتزول»، بالدال، واللام في قراءة الجمهور لام الجحود، والمعنى: ما كان مكرهم ليزول به أمر النبي ﷺ، وأمر دين الإسلام. وحجتهم ما روي عن الحسن: «كان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال».
ينظر: «السبعة» (٣٦٣)، و«الحجة» (٥/ ٣١)، و«معاني القراءات» (٢/ ٦٥)، و«إعراب القراءات» (١/ =

ـ بكسر اللام من «لِتَزُولَ» وفتح الأخيرة ـ؛ وهذا على أن تكون «إنْ» نافيةً بمعنى «مَا»، ومعنى الآية تحقيرُ مَكْرِهم، وأنه مَا كَانَ لِتَزُولَ منه الشرائعُ والنبوَّاتُ وإقدارُ اللَّه بها التي هي كالْجِبَالِ في ثبوتها وقوَّتها، هذا تأويلُ الحَسَن وجماعة المفسِّرين[1] وتحتملُ عندي هذه القراءةُ أنْ تكونَ بمعنى تَعْظِيم مَكْرهم، أي: وإن كان شديداً، وقرأ الكسائيّ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبَالُ» ـ بفتح اللام الأولَى من لَتَزُولُ، وضمِّ الأخيرة ـ، وهي قراءة ابن عبَّاس[2] وغيره، ومعنى الآية: تعظيمُ مكرِهِمْ وشدَّته، أي: أنه مما يشقى به، ويزيلُ الجبالَ عن مستقرَّاتها، لقوَّته، ولكنَّ اللَّه تعالى أبطله ونَصَرَ أولياءه، وهذا أشَدُّ في العبرة، وقرأ علي وابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبيٌّ: «وإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ»، وذكر أبو حاتم أنَّ في قراءة أبيّ: «وَلَوْلاَ كَلِمَةُ اللَّهِ لَزَالَ مِنْ مَكْرِهِمُ الجِبَالُ».

وقوله سبحان: ﴿فلا تحسبن اللَّه مخلف وعده رُسُلَهُ . . .﴾ الآية: تثبيت للنبيِّ ﷺ ولغيره من أمَّته، ولم يكُنِ النبيُّ عليه السلام ممَّن يَحْسَبَنَّ مثْلَ هذا، ولكنْ خَرجَتِ العبارةُ هكذا، والمراد بما فيها من الزجْرِ غَيْرُهُ؛ ﴿إِن اللَّه عزيزٌ﴾: لا يمتنعُ منه شيء، ﴿ذو انتقام﴾: من الكَفَرة.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يوم تبدل الأرض . . .﴾، الآية: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ للانتقام المذكُورِ قبله، وروي في تَبْدِيلِ الأرض أَخْبَارٌ منها في الصَّحِيح: «يُبَدِّلُ اللَّهُ هَذِهِ الأَرْضَ بأَرْضٍ عَفْرَاءَ بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا قرصة نَقي»، وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يُبَدِّلُهَا خُبْزَةً يَأْكُلُ الْمُؤْمِنُ مِنْهَا مِنْ

= ٣٣٦)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٤٠٢)، و«العنوان» (١١٥)، و«حجة القراءات» (٣٧٩)، و«شرح شعلة» (٤٥٢)، و«النشر» (٢/ ٣٠٠)، و«الشواذ» (٦٩)، و«إتحاف» (٢/ ١٧١).

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٧٧) برقم: (٢٠٩٣٧)، وذكره البغوي (٣/ ٤٠)، وابن عطية (٣/ ٣٤٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٤/ ١٦٥)، وعزاه لابن جرير.

(٢) نعم، قرأها هكذا ابن عباس، وابن مسعود، وعلي، وعمر، وأبيّ، وأبو إسحاق السبيعي، ولكن بإبدال «كاد» مكان «كان».

ينظر: «الشواذ» ص: (٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٢٦)، و«الدر المصون» (٤/ ٢٨٠).

تَحْتِ قَدَمَيْهِ»[١] وروي أنها تبدَّلُ أَرضاً من فِضَّةٍ، وروي أنها أرض كالفضَّة مِنْ بياضها، وروي أنها تبدَّل من نارٍ.

قال * ع[٢] *: وسمعتُ من أبي رحمه اللّه؛ أنه روي أنَّ التبديل يَقَعُ في الأرضِ، ولكنْ يبدَّل لكلِّ فريقٍ بما يقتضيه حالُهُ، فالمُؤْمِنُ يكونُ على خُبْزٍ يأكُلُ منه بحَسَبِ حاجته إليه، وفريقٌ يكونُ على فضَّة، إن صحَّ السند بها، وفريقُ الكَفَرَةِ يَكُونُونَ على نارٍ، ونحو هذا ممَّا كله واقِعٌ تحْتَ قدرةِ اللّهِ عَزَّ وجلَّ، وأكثر المفسِّرين على أنَّ التبديلَ يكونُ بأرضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ لَمْ يُعْصَ اللّهُ فيها، ولا سُفِكَ فِيهَا دَمٌ، وَلَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ، وروي عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «المؤمنون وقْتَ التبديل في ظلِّ العرش»، وروي عنه أنه قال: «النَّاسُ وقْتَ التبديل /على الصِّراط»، ورُوِيَ أنه قال: النَّاسُ حينئذٍ أَضْيَافُ اللّهِ، فلا يُعْجِزُهُم ما ٢٧١ ب
لَدَيْهِ»[٣] وفي «**صحيح مسلم**» من حديث ثَوْبَان في سؤال الحَبْرِ، وقوله: يا مُحَمَّدُ، أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ؟ فَقَالَ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجسر»[٤] الحديثَ بطوله، وخرَّجه مسلمٌ وابنُ مَاجَه جميعاً، قالا: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، ثم أسنَدَا عَنْ عائشة، قَالَتْ: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ﴾ فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسِ؟ قَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ»[٥]، وخرَّجه الترمذيُّ من حديث عائشة، قالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ، ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمٰوات

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٧٩) كتاب «الرقاق» باب: يقبض اللّه الأرض يوم القيامة، حديث (٦٥١٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ينظر: «**المحرر**» (٣/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه الطبري في «**تفسيره**» (٧/ ٤٨٣) برقم: (٢٠٩٧٦)، عن أبي أيوب الأنصاري به، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٦٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «**الدلائل**».

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ ـ نووي)، كتاب «الحيض» باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة، حديث (٣٤/ ٣١٥)، والبيهقي (١/ ١٦٩) من حديث ثوبان به.

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٥٠) كتاب «صفات المنافقين» باب: في البعث والنشور، حديث (٢٩/ ٢٧٩)، والترمذي (٥/ ٢٩٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم، حديث (٣١٢١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠) كتاب «الزهد» باب: ذكر البعث، حديث (٤٢٧٩)، وأحمد (٦/ ٣٥، ٢١٨)، والدارمي (٢/ ٣٢٨)، وابن حبان (٣٣١)، والحاكم (٢/ ٣٥٢) من حديث عائشة به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قلت: وقد وهما في ذلك فقد أخرجه مسلم.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٦٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فَأَيْنَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ يَا عَائِشَةُ»[١]، قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسن صحيح. انتهى من «**التذكرة**»[٢].

﴿وترى المجرمين﴾: أي الكفَّار، و﴿مقرَّنين﴾: أي: مربوطين في قَرْنٍ، وهو الحَبْلُ الذي تُشَدُّ به رؤوس الإِبلِ والبَقَرِ، و﴿الأَصْفَاد﴾: هي الأغلال، واحِدُها صَفَد، والسَّرابيل: القُمُصُ، والـ ﴿قَطِرَان﴾: هو الذي تهنأ به الإِبل، وللنار فيه اْشتعالٌ شديدٌ، فلذلك جعل اللَّهُ قُمُصَ أهْلِ النارِ منه، وقرأ عمر بن الخطاب وعليٌّ وأبو هريرة وابنُ عبَّاس وغيرهم[٣]: «مِنْ قِطْرِ آنٍ»، والقِطْر: القَصْدِير، وقيل: النُّحَاس، وروي عن عمر أنَّه قال: ليس بالقَطِرَانِ، ولكنَّه النُّحَاس يسر بلونه[٤]، و«آن»: صفة، وهو الذائبُ الحارُّ الذي تناهَى حَرُّه؛ قال الحَسَن: قد سُعِّرَتْ عليه جهنَّم منذُ خُلِقَتْ، فتناهَى حَرُّه[٥].

وقوله سبحانه: ﴿ليجزي اللَّه كل نَفْسٍ ما كسبت ...﴾ الآية: جاء من لفظة الكَسْب بما يعم المُسِيءَ والمُحْسِنَ؛ لينبِّه على أنَّ المحسن أيضاً يجازَى بإحسانه خيراً.

وقوله سبحانه: ﴿هذا بلاغٌ للناس ...﴾ الآية: إشارةٌ إلى القرآن والوعيدِ الذي تضمنَّه، والمعنى: هذا بلاغٌ للناس، وهو لينذروا به وليذَّكَّر أولو الألباب، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد وآله وصَحْبِهِ وسلَّم تسليماً.

---

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) ينظر: «**التذكرة**» (١/ ٢٦٣).

(٣) وقرأ بها عكرمة، وعلقمة، وسعيد بن جبير، وابن سيرين، والحسن، وسنان بن سلمة بن المحبّق، وعمرو بن عبيد، والكلبي، وأبو صالح، وعيسى بن عمر الهمداني، وقتادة، والربيع بن أنس، وعمرو بن فائد.
ينظر: «**الشواذ**» ص: (٧٤)، و«**المحتسب**» (١/ ٣٦٦)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٤٨)، و«**البحر المحيط**» (٥/ ٤٢٨)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٢٨٣).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٨)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٧٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٤٨٦) برقم: (٢٠٩٩٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٨).

تفسير سورة الحجر

مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ① رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ②﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾: قال مجاهد وقتادة: ﴿الكتابُ﴾: في الآية: ما نزل من الكُتُب قَبْل القرآن[1]، ويحتمل أنْ يراد بـ ﴿الكتاب﴾ القرآن: ثم تُعْطَفُ الصفةُ عليه، و«رُبَّمَا»: للتقليل، وقد تجيء شاذَّةً[2] للتكثير.

وقال قوم: إن هذه مِنْ ذلك، وأنكر الزَّجَّاج أنْ تجيءَ «رُبَّ» للتكثيرِ، واختلف المتأوِّلون في الوَقْت الذي يَوَدُّ فيه الكفَّار أنْ يكونوا مسلمين، فقالَتْ فرقة: هو عند معاينة المَوْتِ، حَكَى ذلك الضَّحَّاك[3]، وقالَتْ فرقة: هو عند معايَنَةِ أهْوَالِ يوم القيَامَة، وقال ابنُ عبَّاس وغيره: هو عِنْدَ دخولهم النَّار، ومعرفَتِهِم، بدخولِ المؤمنين الجَنَّة[4]، وروي فيه حديثٌ من طريق أبي موسَى.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٨٨) برقم: (٢١٠٠٤)، وابن عطية (٣/ ٣٤٩)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ١٧١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) رب: فيها قولان، أحدُهما: أنها حرفُ جرّ، وزعم الكوفيون وأبو الحسن وابن الطَّراوة أنها اسم، ومعناها التقليل على المشهور. وقيل: تفيد التكثير. وقيل: تفيد التكثير في مواضع الافتخار، وفيها لغات كثيرة أشهرها: «رُب» بالضم والتشديد والتخفيف، و«رَبّ» بالفتح والتشديد والتخفيف، و«رُبْ» و«رَبْ» بالضم، والفتح مع السكون فيهما، وتتصل تاء التأنيث بكل ذلك. وبالتاء قرأ طلحة بن مصرف، وزيد بن علي «رُبَّتَمَا» وإذا اتصلت بها التاء جاز فيها الإسكان، والفتح كـ«ثَمَّتَ»، و«لاَتَ» فتكثر الألفاظ، ولها أحكام كثيرة، منها لزوم تصديرها، ومنها تنكير مجرورها.
ينظر: **«الدر المصون»** (٤/ ٢٨٥).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٩١) برقم: (٢١٠٢١).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٤٩١) برقم: (٢١٠٢٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٠)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٤٦)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٥/ ٢١٧٢)، وعزاه لابن المبارك في **«الزهد»**، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في **«البعث»**.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتَّعوا ...﴾ الآية: وعيدٌ وتهديدٌ، وما فيه من المهادنة منسوخٌ بآية السيف، وروى ابنُ المُبارَك في «رقائقه»، قال: أخبرنا الأوزاعيُّ عن عُرْوَةَ بن رُوَيْم، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ / ﷺ: «شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ وُلِدُوا في النَّعِيم، وغُذُوا به، هِمَّتُهُمْ أَلْوَانُ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانُ الثِّيَابِ، يَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلاَمِ». انتهى[1].

١٢٧٢أ

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾: وعيدٌ ثانٍ، وحكى الطبريُّ[2] عن بعض العلماء؛ أنه قال: الأولُ في الدنيا، والثَّاني في الآخرة، فكيف تَطِيبُ حياةٌ بَيْنَ هَذَيْنِ الوعِيدَيْنِ.

وقوله: ﴿ويلههم الأمل﴾: أي: يشغلهم أملهم في الدنيا، والتزيُّد منها.

قال عبدُ الحَقِّ في «العَاقِبة»: اعْلَمْ رحمك اللَّه أنَّ تقصير الأمل مَعَ حُبِّ الدنيا متعذر، وانتظارَ المَوْتِ مع الإكباب عَلَيْها غَيْرُ مُتَيَسِّر، ثم قال: وَاعْلَمْ أنَّ كثرة الاشتغال بالدنْيَا والمَيْلَ بالكلِّية إليها، وَلَذَّةَ أمانيِّها تمنعُ مرارةَ ذكْرِ المَوْت؛ أَنْ تَرِدَ على القلْب، وأنْ تَلِجَ فيه؛ لأن القَلْبَ إذا امتلأَ بشَيْءٍ، لم يكُنْ لشيءٍ آخر فيه مَدْخَلٌ، فإذا أرَادَ صاحبُ هذا القَلْبِ سَمَاعَ الحِكْمَة، والانتفاعَ بالموعظة، لم يكُنْ لهُ بُدٌّ من تفريقه، لِيَجِدَ الذكْرُ فيه منزلاً، وتُلْفِيَ الموعظةُ فيه محلاًّ قابلاً، قال ابن السَّماك رحمه اللَّه: إن الموتَى لَمْ يبْكُوا من الموت؛ لكنهم بَكَوْا مِنْ حَسْرة الفوت، فَاتَتْهُمْ واللَّهِ، دَارٌ لَمْ يتزوَّدوا منها؛ ودخلوا داراً لم يتزوَّدوا لها. انتهى. وإنما حصل لهم الفَوْتُ؛ بسبب استغراقهم في الدنيا، وطولِ الأمل المُلْهِي عن المعادِ، ألهمنا اللَّه رُشْدَنا بمَنِّه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أهلكنا من قرية ...﴾ الآية: أي: فلا تستبطئَنَّ هلاكَهُم، فليس مِنْ قريةٍ مُهْلَكَةٍ إلا بأجَلٍ، وكتابٍ معلوم محدودٍ.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾

﴿وقالوا يَأيها الذي نُزِّل عليه الذكْرُ ...﴾ الآية: القائلون هذه المقالة هُمْ كُفَّار قُريشٍ، و«لو ما» بمعنى: لولا، فتكون تحضيضاً؛ كما هي في هذه الآية، وفي البخاريِّ:

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٦٢) رقم: (٧٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٤٩٢).

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾: هَلاَّ تأتينا.

وقوله: ﴿إِلا بالحقِّ﴾: قال مجاهدٌ: المعنى: بالرسالةِ والعذاب[1]، والظاهرُ أَنَّ معناه كما ينبغي ويَحِقُّ من الوحْيِ والمنافعِ التي أراها اللَّه لعباده، لا على ٱقتراحِ كافرٍ، ثم ذَكَر عادَتَهُ سبحانَهُ في الأُمَمِ من أنَّه لم يأتِهم بآيَةِ ٱقتراحٍ، إلا ومعها العَذَابُ في إِثْرِها إن لم يُؤْمِنوا، والنَّظِرَة: التأخير.

وقوله سبحانه: ﴿إِنا نحن نزلنا الذكْر﴾: رَدٌّ على المستَخفِّين في قولهم: ﴿يأيها الذي نُزّل عليه الذكْر﴾، وقوله: ﴿وإِنا له لحافظون﴾: قال مجاهدٌ وغيره: الضميرُ في «له» عائدٌ على القرآن[2]، المعنى: وإِنا له لحافِظُونَ من أنْ يبدَّل أو يُغَيَّر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَعِ الأولين﴾ الآية: تسليةٌ للنبيِّ ﷺ: أيْ: لا يضقْ صدْرُكَ، يا محمَّد، بما يفعله قومُكَ من ٱلاستهزاءِ في قولهم: ﴿يأيها الذي نُزّل عليه الذكر﴾، وغير ذلك، و«الشيعة»: الفرقة التابعة لرأسٍ مَّا.

* ت *: قال الفرَّاء ﴿في شِيَعِ الأولين﴾ إنَّه من إضافة الموصوفِ إلى صفته كـ ﴿حَقّ اليقين﴾ [الواقعة: ٩٥]، و«جَانِبِ الغربيّ» [القصص: ٤٤]، وتأوَّله البصريُّون على حذف الموصوفِ، أي: شيع الأمم /الأولين. انتهى من * ص *. ٢٧٢ ب

وقوله سبحانه: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به وقد خَلَتْ سُنَّةُ الأولين﴾: يحتمل أنْ يكون الضَّميرُ في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ يعودُ على الذكْر المحفوظِ المتقدِّم، وهو القرآن، ويكون الضميرُ في «به» عائداً عليه أيضاً، ويحتمل أن يعود الضميران معاً على الاستهزاء والشرك ونحوه، والباء في «به»: باء السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شركهم وٱستهزائهم، ويحتملُ أنْ يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ عائداً على ٱلاستهزاءِ والشركِ، والضمير في «به» عائداً على القرآن، والمعنى، في ذلك كلِّه، ينظر بعضه إلى بعض،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٩٣) برقم: (٢١٠٢٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٧٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٢).

و﴿نسلكه﴾: معناه: ندخله، و﴿المُجْرِمين﴾؛ هنا: يراد بهم كُفَّار قريش، ومعاصرو النبيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿لا يؤمنون به﴾ عمومٌ، معناه الخصوصُ فيمن خُتِمَ عليه، وقوله: ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾: أي: على هذه الوتيرَةِ، ﴿ولو فتحنا عليهم﴾، أي: على قريشٍ وكفَرَةِ العَصْر، والضميرُ في قوله: ﴿فظلوا﴾ عائدٌ عليهم، وهو تأويلِ الحَسَنِ، و﴿يعرجون﴾: معناه يَصْعَدُون، ويحتملُ أنْ يعود على الملائكةِ، أي: ولو رأوا الملائكة يَصْعَدُون ويتصرَّفون في بابٍ مفتوحٍ في السماء لما آمنوا، وهذا تأويلُ ابنِ عبَّاس[(١)]، وقرأ السبْعَةُ سِوَى ابن كثيرٍ: «سُكِّرَتْ» ـ بضم السِّين وشدِّ الكاف ـ، وقرأ ابن كثير[(٢)] بتخفيف الكافِ، تقول العربُ: سَكِرَتِ الرِّيحُ تَسْكَرُ سُكُوراً، إذا ركَدَتْ، ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وسَكِرَ الرجُلُ من الشَّرابِ، إذا تغيَّرت حاله وركَدَ، ولم ينفذ لما كان بسبيله أنْ ينفذ فيه، وتقول العرب: سَكَرْتُ البَثْقَ[(٣)] في مجاري المَاءِ سكراً؛ إذا طَمَسْتَهُ وَصَرَفْتَ الماء عنه، فلم يَنفذ لوجْهه.

قال * ع[(٤)] *: فهذه اللفظة «سُكِّرَتْ» ـ بشدِّ الكافِ ـ إن كانَتْ من سُكْرِ الشراب، أوْ من سُكُور الريحِ، فهي فعلٌ عُدِّيَ بالتضعيفِ، وإن كانَتْ من سكرِ مجاري الماءِ، فتضعيفُها للمبالغة، لا للتعدِّي، لأن المخفَّف من فعله متعدٍّ، ومعنى هذه المقالةِ منهم: أي: غُيِّرَتْ أبصارنا عما كانَتْ عليه، فهي لا تنفذ وتعطينا حقائقَ الأشياءِ: كما كانَتْ تفعلُ.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٩٦) برقم: (٢١٠٤٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٣)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٧٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «**السبعة**» (٣٦٦)، و«**الحجة**» (٥/ ٤٣)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٣٤٣)، و«**معاني القراءات**» (٢/ ٦٨)، و«**العنوان**» (١١٦)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٤٠٦)، و«**شرح شعلة**» (٤٥٣)، و«**حجة القراءات**» (٣٨١ ـ ٣٨٢)، و«**إتحاف**» (٢/ ١٧٤).

(٣) البَثْقُ: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه.
ينظر: «**لسان العرب**» (٢٠٨)، و«**المعجم الوسيط**» (٣٨).

(٤) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٥٣).

وقوله سبحانه: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾: «البروج»: المنازلُ، واحدها بُرْج، وسمي بذلك لظهوره؛ ومنه تَبَرُّج المرأة: ظهورُها وبدوُّها، و«حِفْظ السماء»: هو بالرجم بالشُّهُب؛ على ما تضمنته الأحاديثُ الصِّحاح، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَقْرُبُ مِنَ السَّمَاءِ أَفْوَاجاً، قَالَ: فَيَنْفَرِدُ المَارِدُ مُنها، فَيَعْلُو فَيَسْمَعُ، فَيُرْمَى بالشِّهَابِ، فَيَقُولُ لأَصْحَابِه: إِنَّهُ مِنَ الأَمْرِ كَذَا وَكَذَا، فَيَزِيدُ الشَّيَاطِينُ فِي ذَلِكَ، وَيُلْقُونَ إِلَى الكَهَنَةِ، فَيَزِيدُونَ مَعَ الكَلِمَةِ مِائَةً وَنَحْوَ هَذَا ...» الحديث[1]: و«إلاَّ»: بمعنى: «لكِنْ»، ويظهر أن ٱلاستثناء من الحِفْظِ، وقال محمَّد بن يحيى عن أبيه: ﴿إلا من ٱستَرَقَ السَّمْع﴾، فإنها لم تُحفَظْ منه.

وقوله: / ﴿موزون﴾: قال الجمهور: معناه: مقدَّر محرَّر بقصدٍ وإرادةٍ، فالوزن على هذا: مستعارٌ. ٢٧٤ أ

وقال ابنُ زَيْد: المراد ما يُوزَنُ حقيقةً؛ كالذهب والفضة وغيْرِ ذلك مما يُوزَن[2]، والـ ﴿معايش﴾: جمع مَعِيشَة، وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾: يحتمل أن يكون عطْفاً على ﴿معايش﴾؛ كأن اللَّه تعالى عدَّد النعم في المعايِشِ، وهي ما يؤكل ويُلْبَس، ثم عدَّد النعم في الحيوانِ والعَبِيدِ وغيرِ ذلك ممَّا ينتفعُ به النَّاسُ، وليس علَيْهم رِزْقُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾.

قال ابن جُرَيْج: هو المطر خاصَّة[3].

قال * ع[4] *: وينبغي أنْ يكون أعمَّ من هذا في كثيرٍ من المخلوقات.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأرسلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾: أيْ: ذاتَ لقح؛ يقال: لقحت الناقة والشجَرُ، فهي لاقحةٌ، إذا حَمَلَتْ، فالوجْهُ في الرِّيحِ مُلْقِحَةٌ، لا لاقحةٌ، قال الداووديُّ:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٠٤) برقم: (٢١٠٨٨)، والبغوي ذكره (٣/ ٤٧)، وابن عطية (٣/ ٣٥٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٧٧)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٠٤) برقم: (٢١٠٩٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٧٨)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٥٥).

وعن ابن عُمَرَ: الرِّياحُ ثمانٍ: أَرْبَعٌ رحْمَةٌ، وأربعٌ عذابٌ؛ فالرحمةُ: المرسلاتُ، والمُبَشِّرات، والنَّاشِرَاتُ، والذَّاريات، وأما العذاب: فالصَّرْصَرُ، والعقيمُ، والقاصِفُ، والعَاصِف، وهما في البَحْر. انتهى.

وقوله جلَّت عظمته: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميتُ ...﴾ الآياتِ: هذه الآياتُ مع الآيات التي قبلها تضمَّنت العِبْرَةَ والدلالةَ على قدرة اللّه تعالى، وما يُوجِبُ توحيدَهُ وعبادَتَهُ، المعنى: وإنا لَنَحْنُ نحيي من نشاء بإخراجه من العَدَمِ إلى وجودِ الحياةِ، ونميتُ بإزالة الحياةِ عَمَّن كان حَيًّا، ﴿ونحن الوارثون﴾، أي: لا يبقَى شيْءٌ سوانا، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ، لا ربَّ غيره.

﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾: أي: من لَدُنْ آدم إلى يوم القيامة، قال ابن العربيِّ في «أحكامه»: روى الترمذيُّ وغيره في سبب نُزُولِ هذه الآية، عن ابن عَبَّاس؛ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتِ ٱمْرَأَةٌ تصلِّي خَلْفَ رسُولِ اللّهِ ﷺ، قال ابن عبَّاس: وَلاَ، واللّهِ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قال: فَكَانَ بعْضُ المسلمين، إذا صَلَّوْا تقدَّموا، وبعضُهم يستأخر، فإذا سجدوا نَظَرُوا إليها مِنْ تَحْت أيديهم، فأنزل اللّه الآيَةَ[1]، ثم قال ابنُ العربيِّ: في شَرْحِ المراد بهذه الآية خَمْسَةُ أقوالَ:

أحدها: هذا.

القول الثاني: المتقدِّمين في الخَلْق إلى اليوم، والمتأَخِّرين الذين لم يخلقوا بَعْد، بيانٌ أن اللّه يَعْلَمُ الموجُودَ والمَعْدُومَ، قاله قتادة وجماعة[2].

الثَّالثُ: مَنْ مات، ومَنْ بقي؛ قاله ابن عَبَّاس أيضاً[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٢)، وأحمد (١/ ٣٠٥)، والنسائي (٢/ ١١٨) كتاب «الإمامة» باب: المنفرد خلف الصف، حديث (٨٧٠)، وابن ماجه (١/ ٣٣٢) كتاب «الصلاة» باب: الخشوع في الصلاة، حديث (١٠٤٦)، والطيالسي (٢/ ٢٠ ـ منحة) رقم: (١٩٦٠)، وابن خزيمة (١٦٩٦ ـ ١٦٩٧)، وابن حبان (١٧٤٩ ـ موارد)، والحاكم (٢/ ٣٥٣)، والبيهقي (٣/ ٧٨)، والطبراني في «**الكبير**» (١٢/ ١٧١) رقم: (١٢٧٩١)، من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس مرفوعاً به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه ابن خزيمة، وابن حبان، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**»، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وينظر: «**الدر المنثور**» (٤/ ١٨٠).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٠٧) برقم: (٢١١١٦) بنحوه، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥٤٩).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٠٨) برقم: (٢١١٢١)، وذكره البغوي (٤٨١٣)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٨١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

الرابع: المستَقْدِمين: سائرُ الأمم، والمستأخِرينَ أمّة سيِّدنا محمد ﷺ قاله مجاهد[١].

الخامس: قال الحَسَنُ: معناه: المتقدِّمين في الطاعة، والمستأخرين في المعصية[٢].

انتهى.

* ت *: والحديثُ المتقدِّم، إنْ صحَّ، فلا بد من تأويله، فإن الصحابة ينزِّهُونَ عن فعْلِ ما ذُكِرَ فيه، فيؤوَّل بأنَّ ذلك صَدَرَ من بعضِ المنافقين، أوْ بعضِ الأعراب الذين قَرُبَ عهدهم بالإسلام، ولم يَرْسَخ الإيمان في قلوبهم، وأما ابنُ عبَّاس، فإنه كان يومَئِذٍ / صغيراً ٢٧٤ ب
بلا شك، هذا إن كانت الآيةُ مدنيَّةً، فإن كانت مكيَّةً، فهو يومئذٍ في سِنِّ الطفوليَّة، وبالجملة فالظاهرُ ضَعْفُ هذا الحديثِ من وُجوهٍ. انتهى، وباقي الآية بيِّن.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ولقد خلقْنا الإنسان﴾: يعني: آدم، قال ابن عباس: خُلِقَ من ثلاثَةٍ: مِنْ طينٍ لازبٍ، وهو اللازقُ الجَيِّد، ومِنْ صلصالٍ، وهو الأرضُ الطَّيِّبَةُ يقع عليها الماءُ، ثم ينحسرُ؛ فيتشقَّقُ وتصيرُ مثْلَ الخزف، ومِنْ حَمإٍ مسنون، وهو الطينُ فيه الحمأة[٣]، والـ ﴿مَسْنُون﴾: قال مَعمرٌ: هو المُنْتِنُ[٤]، وهو مِنْ أَسِنَ الماءُ؛ إذا تَغَيَّر، وَرُدَّ من جهة التصريف، وقيل غير هذا، وفي الحديث: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ التُّرَابِ: الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ، وَالأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ»[٥].

وقوله: ﴿والجانَّ﴾: يراد به: جنسُ الشياطينِ، وسئل وهبُ بْنُ مُنَبِّهٍ عنهم، فقال هم

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٠٩) برقم: (٢١١٢٩)، وذكره البغوي (٤٨١٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٠٩) برقم: (٢١١٣٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٨١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥١١) برقم: (٢١١٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة».

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٥١١) برقم: (٢١١٦٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٩).

(٥) تقدم تخريجه من سورة البقرة.

أَجناسٌ[١].

قال * ع[٢] *: والمراد بهذه الخِلْقة إِبليسُ أبو الجِنِّ، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ لأَن إِبليس خُلِقَ قبل آدم بمدَّة، و﴿السموم﴾؛ في كلام العرب: إِفراطُ الحَرِّ حتى يقتلَ: مِنْ نارٍ، أو شمسٍ، أو ريحٍ، وأمَّا إِضافة «النار» إِلى «السموم» في هذه الآية، فيحتملُ أنْ تكون النار أنواعاً، ويكون السمومُ أمراً يختصُّ بنوعٍ منها، فتصحُّ الإِضافة حينئذٍ، وإِن لم يكن هذا، فيخرج هذا على قولهم: «مَسْجِدُ الجَامِعِ، ودَارُ الآخِرَةِ»؛ على حذف مضافٍ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وإِذ قال ربك للملائكة إِني خالق بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ * فإِذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إِلا إِبليس أَبَى أنْ يكون مع الساجدين * قال يا إِبليس ما لك أَلاَّ تكون مع الساجدين * قال لم أَكُنْ لأَسجد لبشر خلقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ﴾:

أخبر اللَّه سبحانه الملائكَةَ بعُجْبِ عندهم، وذلك أنهم كانوا مَخْلُوقين منْ نُورٍ، فهي مخلوقاتٌ لِطَافٌ، فأخبرهم سبحانه أنه يَخْلُقُ جِسْماً حيًّا ذا بَشَرَةٍ، وأنه يخلقه من صلصالٍ، والبَشَرة هي وَجْهُ الجِلْدِ في الأَشْهَرِ من القَوْل، وقوله: ﴿من رُوحِي﴾: إِضافة خَلْقٍ ومِلْكٍ إِلى خالقٍ ومَالكٍ، وقولُ إِبليس: ﴿لم أكن لأَسجد لبشر خلقته من صلصال ...﴾ الآية: ليس إِباءَتُهُ نفسَ كفره عنْدَ الحُذَّاق؛ لأَن إِباءَتَهُ إِنما هي معصيةٌ فقطْ، وإِنما كفره بمقتضى قولِهِ، وتعليلِهِ، إِذ يقتضي أَنَّ اللَّه خَلَقَ خَلْقاً مَفضولاً، وكلَّفَ خَلْقاً أفضلَ منه؛ أَنْ يَذِلَّ له، فكأنه قال: وهذا جَوْرٌ، وقد تقدَّم تفسير أكثر هذه المعاني.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿قال فَٱخرجْ منها فإِنك رجيمٌ * وإِن عليك اللعنَةَ إِلى يوم الدين * قال ربِّ فأنظرني إِلي يوم يبعثونَ * قال فإِنك من المُنْظَرين إِلى يوم الوقْت المعلوم * قال ربِّ بما أغويتني لأُزيِّنَنَّ لهم في الأرض ...﴾ الآية: قوله: ﴿بما أغويتني﴾: قال أبو عُبَيْدة وغيره: أَقْسَمَ بالإِغواء[٣].

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥١٤) برقم: (٢١١٧٠)، وذكره البغوي (٤٩١٣) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٣٥٩).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٥٩).
(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٦٢).

قال * ع[1] *: كأنه جعله بمنزلة قوله: ربُّ بقدرتِكَ عليَّ، وقضائِكَ، ويحتملُ أن تكون بَاءَ السَّبَب.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾: المعنى: هذا أمر إِلَيَّ يصيرُ؛ والعربُ تقول: طريقُكَ في هذا / الأمْرِ علَى فلانٍ، أي: إِليه يصيرُ النظر في أمْرِكَ، والآيةُ تتضمَّن ٢٧٥أ
وعيداً، وظاهرُ قوله: ﴿عبادي﴾: الخصوصُ في أهْلِ الإِيمانِ والتقوَى، فيكون ٱلاستثناءُ منقطعاً، وإِن أخذْنا العِبَادَ عموماً، كان ٱلاستثناءُ متصلاً، ويكون الأقلُّ في القَدْر من حيثُ لا قَدْرَ للكفار؛ والنظَرُ الأولُ أحسنُ، وإِنما الغَرَضُ ألاَّ يَقع في ٱلاستثناءِ الأَكْثَرُ من الأقل، وإِن كان الفقهاءُ قَدْ جَوَّزُوهُ.

وقوله: ﴿لَمَوْعِدُهم﴾: أي: موضعُ ٱجتماعهم، عافانا اللَّهُ من عذابه بمَنِّه، وعامَلَنَا بمَحْضِ جُوده وكرمه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِن المتقين في جناتٍ وعيونٍ * ٱدخلوها بسلام . . .﴾ الآية: الـ ﴿سَّلام﴾؛ هنا: يحتمل أن يكونَ السَّلامة، ويحتمل أن يكون التحيَّةَ، والـ ﴿غِلّ﴾: الحقْد، قال الداووديُّ: عن النبيِّ ﷺ: ﴿وَنزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهم . . .﴾ الآية، قال: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الصِّرَاطِ، حُبِسُوا عَلَى صِرَاطٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ بِمَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ في دُخُولِ الجَنَّةِ، وَاللَّهِ، لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْ مَنْزِلِهِ في الدُّنْيَا»[2]. انتهى.

والـ ﴿سُرر﴾: جمع سرير، و﴿متقابلين﴾: الظاهر أن معناه: في الوجوه، إِذ الأسرَّة متقابلةٌ، فهي أحسَنُ في الرتبة.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٢١) رقم: (٢١٢٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

قال مجاهد: لاَ يَنْظُرُ أَحَدُهُمْ في قفا صاحبه[1]، وقيل غير هذا مما لا يعطِيهِ اللفْظُ، والـ ﴿نصب﴾: التعب، و﴿نَبِّئْ﴾: معناه: أَعْلِم.

قال الغَزَّالِيُّ رحمه اللَّه في «منهاجه»: «ومن الآيات اللطيفة الجامعةِ بَيْنَ الرجاءِ والخَوْفِ قولُهُ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَني أنا الغَفُورُ الرَّحيمِ﴾، ثم قال في عَقِبه: ﴿وأَنَّ عذابي هو العذابُ الأليم﴾؛ لئِلاَّ يستولي عَلَيْكَ الرجاءِ بِمَرَّة، وقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ العِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، ثم قال في عقبه: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، لِئَلاَّ يستولي عَلَيْكَ الخوف، وأَعْجَبُ من ذلك قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ثم قال في عَقِبَهُ: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وأعجَبُ منه قولُهُ تعالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، فعلَّق الخشية بٱسْمِ الرحمٰنِ، دون اسْمِ الجَبَّار أو المنتقِم أو المتكبِّر ونحوه، ليكون تخويفاً في تأمينٍ، وتحريكاً في تسكينٍ كما تقولُ: «أَما تخشى الوالدةَ الرحيمة، أمَا تخشى الوالِدَ الشَّفِيقَ»، والمراد من ذلك أَنْ يكونَ الطَّريقُ عدلاً، فلا تذهب إلى أَمْنٍ وقنوطٍ جعلنا اللَّه وإِيَّاكم من المتدبِّرين لهذا الذكْرِ الحكيمِ، العامِلِينَ بما فيه، إنه الجَوَادُ الكَريم انتهى.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم ...﴾ الآية: هذا ابتداءُ قصصٍ بعدَ ٱنصرام الغرضِ الأول، و«الضيف»: مصدرٌ وصف به، فهو للواحدِ وٱلاثنينِ والجمعِ، والمذكر والمؤنَّث؛ بلفظٍ واحدٍ، وقوله: ﴿إنا منكم وجلون﴾، أي: فزعون، وإنما وَجِلَ منهم؛ لما قَدَّم إليهم العجْلَ الحنيذ، فلم يرهم يأكُلون، وكانَتْ عندهم العلامة المُؤَمِّنة أَكْلَ الطعام؛ وكذلك هو في غابِرِ الدهْرِ أَمْنَةٌ للنازلِ، والمنزولِ به.

وقوله: ﴿أنْ مسني الكبر﴾، أي: في حالةٍ قد مسَّني فيها الكِبَر، وقول إبراهيم عليه
٢٧٥ب السلام: ﴿فبم تبشِّرون﴾: / تقرير على جهة التعجُّب وٱلاستبعاد، لكبرهما، أو على جهة ٱلاحتقار وقلَّة المبالاة بالمَسَرَّات الدنيويَّة، لمضيِّ العمر، وٱستيلاءِ الكِبَر، وقولُهم:

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٢١) برقم: (٢١٢١١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٦٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٩)، وعزاه لهناد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿بشرناك بالحق﴾: فيه شدَّة مَّا، أي: أبشرْ بما بُشِّرْتَ به، ولا تكُنْ من القانِطِينَ، والقنوطُ: أتمُّ اليأس.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾: لفظةُ الخَطْب إنما تستعمل في الأمور الشِّدَاد، وقولهم: ﴿إلا آل لوطٍ﴾: ٱستثناءٌ منقطعٌ، و«الآلُ»: القومُ الذي يَؤُولُ أمرهم إلى المضافِ إليه؛ كذا قال سَيبَوَيْهِ؛ وهذا نصٌّ في أن لفظة «آل» ليست لفظة «أهْل»؛ كما قال النَّحَّاس، و﴿إلا امرأته﴾: استثناءٌ متصلٌ، وٱلاستثناءُ بعد ٱلاستثناءِ يردُّ المستثنى الثاني في حُكْم الأمر الأول، و﴿الغابرين﴾؛ هنا: أي: الباقين في العذابِ، و«وغَبَر»: من الأضدادِ، يقال في الماضِي وفي الباقي، وقولُ الرسُل للوط: ﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾، أي: بما وَعَدَكَ اللَّه من تعذيبهم الذي كانوا يَشُكُونَ فيه، و«الْقِطْعُ»: الجُزْءُ من الليل.

وقوله سبحانه: ﴿واتبع أدبارهم﴾، أي: كن خلفهم، وفي ساقتهم، حتى لا يبقَى منهم أحد، ﴿ولا يلتفتْ﴾: مأخوذٌ من ٱلالتفاتِ الذي هو نظر العين، قال مجاهد: المعنى: لا ينظر أحد وراءه،[1] ونُهُوا عن النظر مَخَافَةَ العُلْقَةِ، وتعلُّقِ النفسِ بِمَنْ خلف، وقيل: لِئلاَّ تنفطر قلوبُهُمْ من معايَنَة ما جَرَى على القَرْيَة في رَفْعها وطَرْحِها.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾، أي: أمضيناه وحَتَمْنَا به، ثم أدخل في

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٢٥) برقم: (٢١٢٢٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٦٨).

الكلام إِلَيْه من حيثُ أوحِيَ ذلك إِليه، وأعلمه اللَّه به، وقوله: ﴿يستبشرون﴾، أي: بالأضياف طَمَعاً منهم في الفاحِشَةِ، وقولهم: ﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾: روي أنهم كانوا تقدَّموا إِليه في ألاَّ يضيفَ أحداً، والعَمْر والعُمْر ـ بفتح العين وضمِّها ـ واحدٌ، وهما مدة الحياة، ولا يستعملُ في القَسَم إِلا بالفتحِ، وفي هذه الآية شرَفٌ لنبينا محمَّد ﷺ؛ لأن اللَّه عزَّ وجلَّ أقسَمَ بحياته، ولم يفعلْ ذلك مع بَشرٍ سواه؛ قاله ابن عباس[1].

* ت *: وقال: * ص *: اللام في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ للابتداءِ، والكافُ خطابٌ لِلُوطٍ عليه السلام، والتقديرُ: قالتِ الملائكةُ له: لَعَمْرُكَ، واقتصر على هذا.

وما ذَكَرَهُ * ع[2] *: هو الذي عَوَّل عليهِ عِيَاضٌ وغيره.

وقال ابن العربيِّ في «أحكامه»: قال المفسِّرون بأجمعهم: أقْسَمَ اللَّهُ في هذه الآيةِ بِحَيَاةِ محمَّد ﷺ، ولا أدْرِي ما أخرجَهم عن ذكْر لُوطٍ إِلى ذكْرِ محمَّد عليه السلام، وما المانعُ أنْ يُقْسِمَ اللَّه بحياةِ لوطٍ، ويبلغ به من التشريفِ ما شاءَ، وكلُّ ما يُعْطِي اللَّه لِلُوطٍ مِنْ فضلٍ، ويؤتيه مِنْ شَرَفٍ، فلنبيِّنا محمَّد عليه السلام، ضعفاه؛ لأنه أكرمُ على اللَّه منه، وإِذا أقسم اللَّه بحياةِ لوطٍ، فحياة نبينا محمَّد عليه السلام أرْفع، ولا يخرج من كلامٍ إِلى كلامٍ آخر غيره، لم يجْرِ له ذكْرٌ؛ لغير ضرورة. انتهى

* ت *: وما ذكَرَه الجمهورُ أحْسَنُ؛ لأن الخطاب خطابُ مواجهةٍ؛ ولأنه تفسير صحابيٍّ، وهو مقدَّم على غيره.

٢٧٦أ و﴿يعمهون﴾: معناه: يتردَّدون / في حيرتهم، و﴿مشرقين﴾: معناه: قد دَخَلوا في الإِشراق، وهو سطوعُ ضوءِ الشمس وظهوره؛ قاله ابن[3] زيد، وهذه الصَّيْحَةُ هي صيحة الوَجْبَة، وليستْ كصيحةِ ثمود، وأهلكوا بعد الفَجْرِ مُصْبحين، واْستوفاهم الهَلاَكُ مُشْرِقين، وباقي قصص الآية تقدَّم تفسير.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٢٦) برقم: (٢١٢٣٠)، وذكره البغوي (٣/ ٥٥)، وابن عطية (٣/ ٣٦٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٢)، وعزاه لابن أبي شيبة والحرث بن أبي أسامة، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي معاً في «الدلائل».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٠).

و«المتوسمين»: قال مجاهد: المتفرِّسون[١]، وقال أيضاً: المعتبرون[٢]، وقيل غير هذا، وهذا كلُّه تفسيرٌ بالمعنَى، وأما تفسير اللفظة، فالمتوسِّم هو الذي يَنْظُرُ في وَسْمِ المعنَى، فيستدلُّ به على المعنى، وكأن معصيةَ هؤلاء أبقَتْ من العذابِ والإِهلاكِ وَسْماً، فمَنْ رأى الوَسْم، ٱستدلَّ على المعصية به وٱقتاده النظر إلى تجنُّب المعاصِي؛ لئلا ينزل به ما نَزَلَ بهم؛ ومِنَ الشِّعْرِ في هذه اللفظة قولُ الشاعر: [الطويل]

تَـوَسَّـمْـتُـهُ لَـمَّـا رَأَيْـتُ مَـهَـابَـةً عَـلَـيْـهِ وَقُـلْـتُ الـمَـرْءُ مِـنْ آلِ هَـاشِـمِ[٣]

والضمير في قوله: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾: يحتمل أنْ يعود على المدينةِ المُهْلَكَة، أي: أنها في طريقٍ ظاهر بيِّن للمعتبِر، وهذا تأويلُ مجاهد وغيره[٤]، ويحتمل أن يعود على الآيات، ويحتملُ أنْ يعود على الحِجَارَةِ، ويقوِّيه ما روي عنه ﷺ؛ أنَّه قَالَ: «إِنَّ حِجَارَةَ العَذَابِ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مُنْذُ أَلْفَيْ سَنَةٍ لِعُصَاةِ أُمَّتِي».

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فأنتقمنا منهم﴾: ﴿الأيكة﴾: الغَيْضة والشجَرُ الملتفُّ المُخْضَرُّ، قال الشاعر: [الطويل]

أَلاَ إِنَّـمَـا الـدُّنْـيَـا غَـضَـارَةُ أَيْـكَـةٍ إِذَا ٱخْـضَـرَّ مِـنْـهَـا جَـانِـبٌ جَـفَّ جَـانِـبُ[٥]

وكان هؤلاءِ قوماً يسكنون غَيْضَة، ويرتَفِقُون بها في معايِشِهم، فبعث إِليهم شعيبٌ، فكفروا به، فسَلَّط اللّه عليهم الحَرَّ، فدام عليهم سبعةَ أيام، ثم رَأَوْا سحابة، فخرجُوا،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٢٧)، وذكره البغوي (٣/ ٥٥)، وابن عطية (٣/ ٣٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة».

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٥/ ٤٤٤)، والقرطبي (١٠/ ٤٣)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٠٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٤).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٥٢٩) برقم: (٢١٢٥٦)، وذكره البغوي (٣/ ٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧١).

فأستظلُّوا بها، فأمطرتْ عليهم ناراً، وحكى[١] الطبريُّ قال: بُعِثَ شعيبٌ إلى أُمَّتَيْنِ، فكفرتا، فعُذِّبتا بعذابَيْنِ مختلفينِ: أَهْلِ مَدْيَنَ عَذِّبوا بالصيحة، وأَصْحَابِ الأيكة بالظُّلَّة[٢].

وقوله: ﴿وإنهما لبإمام مبينٍ﴾: الضميرُ في «إنهما»: يحتملُ أنْ يعود على مدينةِ قوم لوطٍ، ومدينة أصحاب الأَيْكَة، ويحتملُ أنْ يعود على لُوطٍ وشُعَيْبٍ عليهما السلام، أي: إنهما على طريقٍ من اللّه وشَرْعٍ مبينٍ، و«الإمامُ»، في كلام العرب: الشيء الذي يهتدى به، ويؤتَمُّ به؛ فقد يكون الطريقَ، وقد يكون الكتابَ، وقد يكونُ الرَّجُلَ المقتدَى به، ونَحْوَ هذا، ومَنْ رأى عودَ الضميرِ على المدينتين، قال: «الإمام»: الطريقُ، وقيل على ذلك الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما، و﴿أصحاب الحِجْرِ﴾: هم ثمود، وقد تقدَّم قصصهم، و«الحِجْر»: مدينتهم، وهي ما بين المدينةِ وتَبُوك، وقال: ﴿المرسلين﴾؛ من حيث يلزم من تكذيبِ رسولٍ واحدٍ تكذيبَ الجميع، إذِ القولُ في المعتَقَدَاتِ واحدٌ.

وقوله: ﴿ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾: «النحت»: النَّقْر بالمعاوِلِ، و«آمنين»: قيل: معناه: من أنهدامها، وقيل: مِنْ حوادِثِ الدنيا، وقيل: من الموتِ؛ لاغترارهم بطول
٢٧٦ب الأعمار، وأصحُّ ما يظهر في ذلك؛ أنهم كانوا يأمنون عواقِبَ / الآخرة، فكانوا لا يعمَلُونَ بحسبها.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وما خلقنا السمٰواتِ والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾، أي: لم تخلق عبثاً ولا سدًى، ﴿وإن الساعة لآتية﴾، أي: فلا تهتمَّ يا محمَّد بأعمال الكَفَرة؛ فإن اللّه لهم بالمِرْصاد، وقوله عَزَّ وجلَّ: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾: ذهب ابنُ مسعودٍ وغيره إلى أن السبْعَ المثانِيَ هنا هي السبعُ الطُّوال: «البقرةُ»، و«آل عمران»، و«النساء»، و«المائدة»، و«الأنعام»، و«آلمَصّ»، و«الأنفال» مع «براءة»[٣]، وذهب جماعةٌ من الصحابة ومَنْ بعدهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٥٣٠).

(٢) الظُّلَّةُ: سحابة أنشأها اللّه تعالى كان فيها عذاب مدين؛ قيل: أصابهم ذلك اليومَ حَرٌّ عظيم إلى أن كادوا يهلكون، فأرسل اللّه ظلة كثيفة، أي: سحابة متراكمة، فهرعوا إليها يستجيرون بها من الحر، فلما تكاملوا تحتها أطبقت عليهم بعذابها، فلم ير يوم مثله.
ينظر: «عمدة الحفاظ» (٣/ ١٠).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٣٣) برقم: (٢١٢٨١) بنحوه وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٦)، وعزاه لابن جرير.

إلى أن السبْعَ هنا: آيات الفاتحةِ، وهو نصُّ حديثِ أبي بن كَعْب وغيره(١).

* ت *: وهذا هو الصحيحُ، وقد تقدَّم بيان ذلك أوَّل الكتاب.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾: حكى الطبريُّ عن سفيانَ بْنِ عُيَيْنة؛ أنه قال: هذه الآيةُ آمرة بالاستغناءِ بكتابِ اللَّهِ عَنْ جميع زينةِ الدنْيَا(٢).

قال * ع(٣) *: فكأنه قال: آتينَاك عظيماً خطيراً، فلا تَنظر إلى غيْرِ ذلك من أمورِ الدنيا وزينَتِها التي مَتَّعْنا بها أنواعاً من هؤلاءِ الكَفَرَةِ؛ ومن هذا المعنَى: قولُ النبيِّ ﷺ: «مَنْ أُوتِيَ القُرْآنَ، فَرَأَى أَنَّ أَحَداً أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ، فَقَدْ عَظَّمَ صَغِيراً وَصَغَّرَ عظيماً».

* ت *: وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي سعيد قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: «لا وَاللَّهِ، مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إلاَّ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا ...» الحديث، وفي رواية: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا»، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَرَكَاتُ الأَرْضِ ...» الحديث، وفي روايةٍ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ...» الحديثَ، انتهى. والأحاديثُ في هذه البابِ أكثرُ من أنْ يحصيها كتابٌ، قال الغَزَّاليُّ في «**المنهاج**»: وإذا أنعم اللَّهُ عَلَيْكَ بنعمةَ الدِّينِ، فإيَّاكَ أَنْ تَلتفتَ إلى الدنيا وحُطَامها، فإن ذلك منك لا يكونُ إلاَّ بضَرْبٍ من التهاوُنِ بما أولاكَ مَوْلاَكَ مِنْ نعم الدارَيْنِ؛ أَمَا تَسمعُ قولَهُ تعالَى لسيِّد المرسلين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيم * لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ...﴾ الآية، تقديره: إن من أوتي القرآن العظيمَ حُقَّ له ألاَّ ينظر إلى الدنيا الحقيرةِ نظرةَ باستحلاءٍ، فضلاً عن أنْ يكون له فيها رغبةٌ، فليلتزم الشكْرَ على ذلك، فإنه الكرامة التي حَرَصَ عليها الخليلُ لأبيهِ، والمصطفى عليه السلام لعمِّه، فلم يفعلْ، وأما حطامُ الدنيا، فإن اللَّه سبحانه يصبُّه علَى كلِّ كافرٍ وفرعونٍ وملحِدٍ وزنديقٍ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٣٧) برقم: (٢١٣٢٦).

(٢) ذكره الطبري (٧/ ٥٤٢)، وذكره البغوي (٥٨١٣) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٣٧٣)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٢/ ٥٥٧)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ١٩٨)، وعزاه لابن المنذر.

(٣) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٣٧٤).

وجاهلٍ وفاسقٍ؛ الذين هم أَهْوَنُ خَلْقِهِ عليه، ويَصْرِفُه عن كلِّ نبيٍّ وصفيٍّ وصِدِّيقٍ وعالمٍ وعابدٍ؛ الذين هم أَعَزُّ خَلْقِهِ عليه؛ حتى إنهم لا يكادُونَ يُصِيبُونَ كِسْرةً وخِرْقَةً، ويمنُّ عليهم سبحانه بألاَّ يلطخهم بقَذَرِها، انتهى.

وقال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»[1]: قوله تعالى: ﴿لا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾: المعنى: أعطيناكَ الآخِرَةَ، فلا تنظُرْ إلى الدنيا، وقد أعطيناك العِلْم، فلا
١٢٧٧ أ تتشاغلْ / بالشهواتِ، وقد مَنَحْنَاكَ لَذَّةَ القَلْب، فلا تنظر إلى لذة البَدَن، وقد أعطيناكَ القرآن، فٱستغْنِ به، فمَنِ ٱستغنَى به، لا يطمَحُ بنظره إلى زخارف الدنيا، وعنده مَعَارِفُ المولَى، حَيِيَ بالباقِي، وفَنِيَ عن الفاني. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقل إني أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المُقْتَسِمِينَ﴾.

قال * ع[2] *: والذي أقولُ به في هذا: أنَّ المعنَى: وقل أنا نذيرٌ، كما قال قبلك رُسُلنا، ونزَّلنا عليهم كما أنزلنا عليك، وٱختلف في ﴿المقتسمين﴾، مَنْ هُمْ؟ فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر: «المقتسمون»: هم أَهْلُ الكتابِ الذينَ فَرَّقوا دينهم، وجَعَلُوا كتابَ اللَّهِ أعضاءً، آمنوا ببعضٍ، وكَفَروا ببعض؛ وقال نَحْوَه مجاهدٌ[3]، وقالت فرقةٌ: «المقتسمون»: هم كفَّار قريشٍ جعلوا القرآن سِحْراً وشِعْراً وكَهَانة، وجعلوه أعضاءً بهذا التقسيم، وقالت فرقة: «عِضِينَ»: جمعُ عضةَ، وهي ٱسْمٌ للسحرِ خاصَّة بلغةِ قريشٍ؛ وقالَه عكرمة[4].

* ت *: وقال الواحديُّ: كما أنزلنا عذاباً على المقتسمين الذينَ ٱقْتَسَمُوا طُرُقَ مكَّة يصُدُّون الناسَ عن الإيمان. انتهى من «مختصره».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١١٣٦).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٤).
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٤٣) برقم: (٢١٣٦٨)، وبرقم: (٢١٣٧٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٨)، وعزاه للبخاري، وسعيد بن منصور، والحاكم، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٥٤٧) برقم: (٢١٣٩٢)، وبرقم: (٢١٣٧٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٨)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن جرير.

ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين ...﴾ الآية: ضميرٌ عامٌّ، ووعيدٌ محضٌ، يأخذ كلُّ أحد منه بحَسَب جُرْمه وعِصْيانه، فالكافرُ يسأل عن التوحيدِ والرسالةِ، وعن كُفْره وقَصْدِهِ به، والمؤمنُ العاصِي يُسْأل عَنْ تضييعه، وكلُّ مكلَّف عما كُلِّف القيامَ به؛ وفي هذا المعنى أحاديثُ، قال ابن عباس في هذه الآية يقال لهم: لِمَ عَمِلْتُمْ كذا وكذا، قال: وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمٰن: ٣٩]: معناه: لا يقال له: مَاذَا أذنَبْتَ، لأنَّ اللَّه تعالى أعلم بذنبه منه[١]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بما تؤمر﴾: «ٱصْدَعْ»: معناه: أنفِذْ، وصرِّح بما بُعِثْتَ به.

وقوله: ﴿وأعرضْ عن المشركين﴾: من آيات المهادَنَةِ التي نَسَخَتْها آية السَّيْف[٢]؛ قاله ابن عباس، ثم أعلمه اللَّه تعالَى بأنه قد كَفَاه المُسْتهزئين به مِنْ كُفَّار مَكَّة ببوائِقَ أصابَتْهم من اللَّه تعالى.

قال ابن إسحاق وغيره: وهُمُ الذين قُذِفُوا في قَلِيبِ بَدْرٍ؛ كأَبِي جَهْل وغيره. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾: آية تأنيس للنبيِّ ﷺ، و﴿اليقين﴾؛ هنا: الموتُ؛ قاله ابن[٣] عمر وجماعةٌ، قال الداووديُّ: وعن النبيِّ ﷺ؛ أنه قَالَ: «مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ، وأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ[٤]». انتهى، وباقي الآية بيِّن، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّد وعلَى آله وصَحْبِهِ وسلَّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٤٨) برقم: (٢١٤٠٣)، وذكره البغوي (٣/ ٥٨)، وابن عطية (٣/ ٣٧٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٩٩)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٠) برقم: (٢١٤١٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٣)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والديلمي.

تفسير سورة النحل

وهي مكية غير آيات يسيرة يأتي بيانها إن شاء الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

٢٧٧ ب قوله سبحانه: ﴿أتى أمر اللَّه فلا تستعجلوه﴾: روي أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ لما قال جِبْريلُ في سرد الوحْيِ: ﴿أتى أمر اللَّه﴾، وثَبَ رَسُولُ اللَّه ﷺ قائماً، فلما قال: / ﴿فَلاَ تَستعجلوه﴾، سكَنَ، وقوله: ﴿أمْرُ اللَّهِ﴾: قال فيه جمهور المفسِّرين: إنه يريدُ القِيَامَةَ، وفيها وعيدٌ للكفَّار، وقيل: المرادُ نَصْرُ محمَّد ﷺ، فَمَنْ قال: إن الأمر القيامَةُ، قال: إن قوله تعالى: ﴿فلا تسعجلوه﴾: ردٌّ على المكذِّبين بالبَعْثِ، القائلين: متَى هذا الوَعْدُ، واختلف المتأوِّلون في قوله تعالى: ﴿ينزِّل الملائكةَ بالرُّوح﴾، فقال مجاهدٌ: الرُّوحُ: النبوَّة[1]، وقال ابن عباس: الرُّوحُ الوحْيُ[2]، وقال قتادة: بالرحمةِ والوحْي[3]، وقال الربيع بنُ أنَسٍ: كلُّ كلام اللَّه رُوحٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾[4] [الشورى: ٥٢]، وقال الزَّجَّاج[5]: الرُّوح: ما تَحْيَا به القلوبُ من هداية اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وهذا قولٌ حَسَنٌ، قال الداووديُّ، عن ابن عباس[6] قال: الرُّوح: خَلْقٌ من خَلْق اللَّه، وأمْرٌ

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٤/ ٢٠٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٣/ ١٩٠).

(٦) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٥)، وعزاه =

من أمر اللَّه عَلى صُوَرِ بني آدم، وما يَنْزِلُ من السماءِ مَلَكٌ إلا ومعه رُوحٌ؛ كالحفيظ عليه، لا يتكلَّم ولا يراه مَلَك، ولا شيءٌ مما خَلَقَ اللَّه، وعن مجاهدٍ: الرُّوح: خَلْق من خَلْق اللَّه، لهم أيدٍ وأرجلٌ[١]. انتهى، واللَّه أعلم بحقيقةِ ذلك، وهذا أمرٌ لا يقَالُ بالرأْيِ، فإِن صحَّ فيه شيء عن النبيِّ ﷺ، وَجَبَ الوقوفُ عنده انتهى، و«مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هي للأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿خلق الإِنسان من نطفة﴾: يريد بـ «الإِنسان» الجنْسَ، وقوله: ﴿خصيم﴾ يحتملُ أنْ يريد به الكَفَرة الذين يجادلُونَ في آياتِ اللَّه؛ قاله[٢] الحسن البصريُّ، ويحتملُ أنْ يريد أعَمَّ من هذا، على أن الآية تعديدُ نعمةِ الذِّهْنِ والبَيَانِ على البَشَر.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿والأنعامَ خلقها لكم فيها دِفْءٌ﴾: الـ ﴿دفء﴾: السَّخانة، وذَهَاب البَرْد بالأَكْسِيَة ونحوها، وقيل: الـ ﴿دْفء﴾: تناسُلُ الإبل، وقال ابن عَبَّاس: هو نسْلُ كلِّ شيء[٣]، والمعنى الأول هو الصحيحُ، والـ ﴿منافعُ﴾: ألبانها وما تصرَّف منها، وحَرْثُها والنَّضح عليها وغَيْر ذلك.

وقوله: ﴿جمَال﴾، أي: في المَنْظَر، و﴿تريحونَ﴾: معناه: حين تردُّونها وقْتَ الرَّواح إلى المنازِلِ، و﴿تسرحون﴾: معناه: تخرجُونها غُدْوة إلى السَّرْح، و«الأَثْقَالُ»: الأمتعة، وقيل: الأجسام؛ كقوله: ﴿وأخْرجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] أي: أجسادَ بني آدم، وسمِّيت الخيلُ خيلاً؛ لاختيالها في مِشْيتها.

= لآدم بن إياس، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٩).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٦٠) برقم: (٢١٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

* ت *: ويجبُ على من ملكه اللّه شيئاً من هذا الحيوانِ أنْ يَرْفُقَ به، ويشكُر اللّه تعالى على هذه النعمة التي خَوَّلها، وقد رَوَى مالك في «الموطَّأ» عن أبي عُبَيْدٍ مولى سليمانَ بْنِ عبدِ المَلِكِ، عن خالدِ بْنِ مَعْدَانَ يرفعه، قال: «إن اللّه رفيقٌ يحبُّ الرِّفْق، ويرضَاهُ، ويعينُ عليه ما لاَ يُعِينُ على العُنْف، فإذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجْمَ، فأنزلوها منازِلَهَا، فإنْ كانَتِ الأرض جَدْبةً، فانجوا عليها بِنِقْيِهَا[١]، وَعَلَيْكُمْ بسير اللَّيْلِ؛ فإن الأرض تُطْوَى باللَّيْلِ ما لا تُطْوَى بالنهار، وإياكم والتَّعْرِيسَ على الطريقِ؛ فإنها طُرُق الدَّوابِّ، ومأوى الحَيَّات»[٢].

٢٧٨أ قال أبو عمر في «التمهيد»: هذا الحديث يستندُ عن / النبيِّ ﷺ من وجوهٍ كثيرةٍ، فأمَّا «الرفْقُ»، فمحمودٌ في كلِّ شيء، وما كان الرفْقُ في شيء إلاَّ زانه، وقد رَوَى مالك بسنده عن عائشة، وعن النبيِّ ﷺ، قَالَ: «إنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»[٣]، وأُمِرَ المسافرُ في الخِصْبِ بأنْ يمشي رويداً، ويكثر النزول، لترعَى دابته، فأما الأرْضُ الجَدْبة، فالسُّنَّة للمسافِرِ أَنْ يُسْرِع السير؛ ليخرجَ عنها، وبدابَّته شيءٌ من الشَّحْم والقُوَّة، و«النِّقْي» في كلام العرب: الشَّحْم والوَدَك. انتهى.

وروَى أبو داود عن أبي هُرَيْرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتِكِمْ» انتهى[٤].

وقوله سبحانه: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾: عبرةٌ منصوبةٌ على العمومِ، أي: إنَّ مخلوقاتِ اللّهِ مِنَ الحيوانِ وغيره لا يُحيطُ بعلْمها بَشَرٌ، بل ما يخفَى عنه أكْثَرُ مما يعلمه.

وقوله سبحانه: ﴿وعلى اللّه قصد السبيل ...﴾ الآية: هذه أيضاً من أجَلِّ نعم اللّه تعالى، أي: على اللّه تقويمُ طريقِ الهدَى، وتبيينُهُ بنَصْب الأدلَّة، وبعْثِ الرسل، وإلى هذا ذهب المتأوِّلون، ويحتمل أنْ يكون المعنى: أَنَّ مَنْ سلك السبيلَ القاصِد، فعلى اللّه،

---

(١) النِّقْوُ: عظم العضد، وقيل: كل عظم فيه مخ.
ينظر: «لسان العرب» (٤٥٣٢).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٧٩) كتاب «الاستئذان» باب: ما يؤمر به من العمل في السفر، حديث (٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٢) كتاب «الجهاد» باب: في الوقوف على الدابة، حديث (٢٥٦٧)، والبيهقي (٥/ ٢٥٥) من حديث أبي هريرة.

ورحمته وتنعيمه طريقهُ، وإلى ذلك مصيره، و«طريقٌ قَاصِد»: معناه: بيِّنٌ مستقيمٌ قريبٌ، والألف واللام في ﴿السَّبيل﴾، للعهد، وهي سبيلُ الشرْعِ.

وقوله: ﴿ومنها جائر﴾: يريد طريقَ اليهودِ والنصارَى وغيرِهِم، فالضمير في ﴿منها﴾ يعود على السُّبُلُ التي يتضمَّنها معنى الآية.

وقوله سبحانه: ﴿فيه تسيمونُ﴾: يقال: أَسَامَ الرَّجُلُ مَاشِيَتَهُ؛ إذا أرسلها ترعَى.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما ذرأ لكم﴾: ذرأ: معناه: بثَّ ونَشَرَ.

و﴿مختلفاً ألوانه﴾ أي أصنافه، ويحتمل أنْ يكون التنبيهُ على ٱختلافِ الألوان من حُمْرةٍ وصُفْرةٍ وغير ذلك، والأول أبيَنُ.

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي سخر البَحْرَ لتأكلوا منه لحماً طريًّا وتستخرجوا منه حِلْيَةً تلبسونها وترى الفلك مواخِرَ فيه ولتبتغوا من فضله ولعلَّكم تشكرون﴾: البَحْر: الماءُ الكثيرُ، ملْحاً كان أو عَذْباً.

قال ابنُ العربيِّ في «أحكامه»[(1)]: قولُهُ تعالى: ﴿وتستخرِجُوا منْهُ حلية تَلْبَسونها﴾: يعني به اللؤلُؤَ والمَرْجان، وهذا ٱمتنانٌ عامٌّ للرجال والنساء، فلا يحرم عليهم شيءٌ من ذلك. انتهى. و﴿مَوَاخِر﴾: جمعَ مَاخِرَة، والمَخْر؛ في اللغة: الصَّوْت الذي يكون من هبوبِ الريح علَى شيءٍ يشقُّ أو يصحب في الجملة الماءَ؛ فيترتَّب منه أنْ يكون المَخْر من الريحِ، وأنْ يكون من السفينةِ ونحوها، وهو في هذه الآيةِ من السُّفُنِ، وقال بعضُ النحاةِ: المَخْرُ؛ في كلامِ العرب: الشَّقُّ؛ يقال: مَخَرَ المَاءُ الأَرْضَ، وهذا أيضاً بيِّن أن يقال فيه للفلْكِ مَوَاخِر.

وقوله: ﴿وسبلاً لَعلَّكم تهتدون﴾: يحتملُ: تهتدون فِي مَشْيِكم وتصرُّفكُمْ في السُّبُل،

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١١٤٨).

٢٧٨ب ويحتملُ تهتدُونَ بالنَّظَر في دَلاَلَة هذه المَصْنُوعات علَى صَانِعِها. / ﴿وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون﴾: قال ابن عبَّاسٍ: العلامَاتُ: معالمُ الطُّرُق بالنهار، والنجومُ: هدايةُ[1] الليل، وهذا قولٌ حَسَن؛ فإنه عمومٌ بالمعنَى، واللفظةُ عامَّة؛ وذلك أَنَّ كُلَّ مَا دَلَّ على شيْءٍ وأعلَمَ به، فهو علامةٌ، و﴿النجم﴾؛ هنا: اسمُ جنسٍ، وهذا هو الصَّواب.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإن تعدوا نعمة اللَّه لا تحصوها ...﴾ الآية: وبحسب العَجْز عن عدِّ نعم اللَّه تعالى يلزمُ أَنْ يكون الشاكرُ لها مقصِّراً عن بعْضها؛ فلذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿لغفور رحيم﴾، أي: عن تقصيركُمْ في الشكْر عن جميعها؛ نحا هذا المنحَى الطبريُّ؛ ويرد عليه أن نعمةَ اللَّهِ في قولِ العبدِ: «الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ»، مع شرطها من النيَّة والطاعةِ يوازي جميعَ النِّعَم، ولكنْ أين قولها بشُرُوطها، والمخاطَبةُ بقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة اللَّه لا تحصُوهَا﴾. عامَّةٌ لجميع الناس. ﴿والذين يدْعُون من دون اللَّه﴾؛ أي: تدعونهم آلهةً، و﴿أموات﴾: يراد به الذين يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللَّهِ، ورفع ﴿أموات﴾؛ على أنه خبر مبتدإٍ مضمرٍ، تقديره: هم أمواتٌ، وقوله: ﴿غير أحياء﴾: أي: لم يقبلوا حياةً قطُّ، ولا اتّصفوا بها، وقوله سبحانه: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾: أي: وما يشعر الكُفَّار متَى يبعثون إلى التعذيب.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِلٰهكم إِلٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم مُنْكِرة﴾ أي: مُنْكِرَةٌ اتِّحاد الإِلٰه.

* ت *: وهذا كما حَكَى عنهم سبحانه في قولهم: ﴿أَجْعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عجَابٌ﴾ [ص: ٥].

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٧١) برقم: (٢١٥٤٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٨٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وقوله: ﴿لا جرم﴾ عبَّرت فرقةٌ من اللُّغويِّين عن معناها بـ «لاَ بُدَّ ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: حق أن اللَّه، ومذهَبُ سِيبَوَيْهِ أَنَّ «لا» نفيٌ لما تقدَّم من الكلامِ، و«جرم»: معناه: وَجَبَ أو حَقَّ ونحوه، هذا مذهبُ الزَّجَّاجِ[1]، ولكنْ مع مذهبهما، «لا» ملازِمَةٌ لـ «جَرَمَ» لا تنفَكُّ هذه مِنْ هذه.

وقوله سبحانه: ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾: عامٌّ في الكافرين والمؤمنين يأخذ كلُّ أحد منهم بِقِسْطه، قال الشيخُ العارفُ باللَّه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أبي جَمْرَةَ رحمه اللَّه موتُ النفوسِ حياتُهَا، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَا يَمُوتُ، ببَذْل أَهْل التوفيقِ نفوسَهُم وهوانِهَا عليهم، نالوا ما نالوا، وبِحُبِّ أَهْل الدنيا نفوسَهُم هانوا وطَرَأَ عليهم الهوانُ هنا وهناك، وقد ورد في الحديثِ: «أَنَّه مَا مِنْ عَبْدٍ إلا وَفِي رَأْسِهِ حِكْمَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، فَإِنْ تَعَاظَمَ، وَٱرْتَفَعَ، ضَرَبَ المَلَكُ فِي رَأْسِهِ، وَقَالَ لَهُ: ٱتَّضِعْ وَضَعَكَ اللَّهُ، وَإِنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ المَلَكُ، وَقَالَ لَهُ: ٱرْتَفِعْ، رَفَعَكَ اللَّهُ»، مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بما به يقرِّبنا إليه بمنِّهِ[2]. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم﴾: يعني: كفَّار قريشٍ: ﴿ماذا أنزلَ ربكم . . .﴾ الآية، يقال: إن سببها النضْرُ بْنُ الحارثِ، واللام في قوله: ﴿ليحملوا﴾ يحتملُ أن تكون لاَمَ العاقبةِ، ويحتمل أن تكون لامَ كَيْ، ويحتمل أن تكون لام الأمْرِ؛ على معنى الحَتْمِ عليهم والصَّغَارِ الموجِبِ لهم.

٢٧٩أ وقوله / سبحانه: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾: «من»: للتبعيضِ؛ وذلك أن هذا الرأس المُضِلَّ يحمل وِزْرَ نفسه ووزراً مِنْ وزر كلِّ مَنْ ضلَّ بسببه، ولا ينقُصُ من أوزار أولئك شيْءٌ، والأوزار هي الأثقال.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلهم فأتى اللَّهُ بُنْيَانهم . . .﴾ الآية: قال ابنُ

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٣/ ١٩٤).
(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٠٢)، عن أنس بن مالك، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٥٧٤٤)، وعزاه إلى ابن صصرى في «أماليه».

عبَّاس وغيره من المفسِّرين[1]: الإشارة بـ ﴿الذين مِنْ قَبلهم﴾ إلى نَمْرُوذَ الذي بَنَى صَرْحاً؛ لِيَصْعَدَ فيه إلى السماء بزعمه، فلما أَفرَطَ في عُلُوِّه، وطَوَّلَهُ في السماء فَرْسَخَيْنِ؛ على ما حكَى النَّقَّاش، بعث اللَّه عليه ريحاً، فهدَمَتْه، وخَرَّ سقفه عليه، وعلى أتباعه، وقيل: إن جبريلَ هَدَمَهُ بِجَنَاحِهِ، وألقَى أعلاه في البَحْر، وانْجَعَفَ من أسفله، وقالت فرقة: المراد بـ ﴿الذين من قبلهم﴾: جميعُ مَنْ كَفَر من الأمم المتقدِّمة، ومكَر، ونزلَتْ به عقوبةٌ، وقوله؛ على هذا: ﴿فأتى اللَّه بنيانَهُمْ من القواعِدِ . . .﴾ إلى آخر الآية، تمثيلٌ وتشبيهٌ، أي: حالُهم كحَالِ مَنْ فُعِلَ به هذا.

وقوله: ﴿يخزيهم﴾: لفظٌ يعمُّ جميع المكارِهِ التي تَنْزِلُ بهم؛ وذلك كلُّه راجعٌ إلى إدخالهم النَّار، ودخولهم فيها.

و﴿تشاقون﴾: معناه: تحاربون، أي: تكُونُونَ في شِقٍّ، والحَقُّ في شِقٍّ، و﴿الذين أوتوا العِلْم﴾: هم الملائكةُ فيما قال بعضُ المفسِّرين، وقال يحيى بن سلام: هم المؤمنون.

قال * ع[2] *: والصوابُ أن يعمَّ جميعَ مَنْ آتاه اللَّه عِلْمَ ذلك مِنْ ملائكةٍ وأنبياء وغيرهم، وقد تقدَّم تفسير الخِزْي، وأنه الفضيحةُ المُخْجلة، وفي الحديث: «إِنَّ العَارَ وَالتَّخْزِيَةَ لَتَبْلُغُ مِنَ العَبْدِ فِي المَقَامِ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ تَعَالَى مَا أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يُنْطَلَقَ بِهِ إِلَى النَّارِ وَيَنْجُوَ مِنْ ذَلِكَ المَقَامِ»[3] أخرجه البغويُّ في **«المسند المنتخب»** له. انتهى من **«الكوكب الدري»**.

وقوله سبحانه: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾: ﴿الذين﴾: نعتٌ لـ ﴿الكافرين﴾؛ في قول أكثر المتأوِّلين، و﴿الملائكة﴾ يريد القابضِينَ لأرواحهم، و﴿السَّلم﴾؛ هنا: ٱلاستسلامُ، واللام في قوله: ﴿فَلَبِئْسَ﴾ لامُ تأكيد، والـ ﴿مثوَى﴾: موضعُ الإقامة.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُوا خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٧٧) برقم: (٢١٥٦٧)، وذكره البغوي (٣/ ٦٦)، وابن عطية (٣/ ٣٨٨)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٦٦)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢١٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٣٨٩).

(٣) أخرجه ابن عدي في **«الكامل»** (٦/ ٢٠٣٩).

ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم . . .﴾ الآية: لما وصف سبحانه مقالَةَ الكفَّار الذين قالوا: ﴿أَساطِيرُ الأولين . . .﴾ [النحل: ٢٤] عادل ذلك بذكْرِ مقالةِ المُؤْمِنِين مِنْ أصحاب النبيِّ ﷺ، وأوجب لكلِّ فريقٍ ما يستحقُّ، وقولهم: ﴿خيراً﴾ جوابٌ بحسبِ السؤالِ، واختلف في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا . . .﴾ إلى آخر الآية، هل هو ٱبتداءُ كَلاَمٍ أو هو تفسيرٌ لـ «الخير» الذي أَنْزَلَ اللَّه في الوَحْي على نبِّينا خبراً أَنَّ من أحسَنَ في الدنيا بالطَّاعة، فله حسنةٌ في الدنيا ونعيمٌ في الآخرة، وروى أَنَسُ بنُ مالكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ المُؤْمِنَ حَسَنَةً؛ يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ»[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿جنات عدن يدخلُونَها . . .﴾ الآية: تقدَّم تفسيرُ نظيرِها، و﴿طيبين﴾: عبارةٌ عن صالح حالِهم، وٱستعدادهم للمَوْت، و«الطَّيِّب»؛ الذي لا خُبْثَ معه، وقولُ الملائكة: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم﴾: بشارةٌ من اللَّه تعالى، /وفي هذا المعنَى أحاديثُ ٢٧٩ ب
صحاحٌ يطول ذكْرها، وروى ابن المبارك في «رقائقه» عن محمد بن كَعْب القُرَظِيِّ قال: إِذا ٱستَنْقَعَتْ نَفْسُ العَبْدِ المؤمن، جاءه مَلَكٌ، فقال: السَّلامُ عَلَيْكَ، وليَّ اللَّهِ، اللَّهُ يُقْرِىءُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، ثُمَّ نَزَعَ بهذه الآية: ﴿الَّذِينَ تتوفاهُم الملائكةُ طَيِّبين يقولون سلامٌ عليكم . . .﴾ انتهى.[(٢)]

وقوله سبحانه: ﴿بما كنتم تعملون﴾: علَّق سبحانه دخولَهُم الجَنَّة بأعمالهم؛ من حيثُ جعَلَ الأعمالَ أمارةً لإِدخال العَبْدِ الجنَّةِ، ولا معارَضَةَ بيْنَ الآية، وقوله ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ!» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ»[(٣)]، فإن الآية تردُّ بالتأويل إِلى معنى الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦٢) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا، حديث (٥٦/ ٢٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٥).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٨٠) برقم: (٢١٥٧٩)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢١٩)، وعزاه لابن أبي مالك، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في **«العظمة»**، وأبي القاسم بن منده في كتاب **«الأحوال»**، والبيهقي في **«شعب الإيمان»**.

(٣) تقدم تخريجه.

قال * ع[1] *: ومن الرحمة والتغمُّد أنْ يوفِّق اللَّهُ العبْدَ إلى أعمالٍ بَرَّة، ومقصِدُ الحديثِ نفْيُ وجوبِ ذلك على اللَّه تعالى بالعَقْل؛ كما ذهب إليه فريقٌ من المعتزلة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين مِنْ قبلهم﴾: ﴿ينظرون﴾: معناه: ينتظرون، «وَنَظَرَ» متى كانَتْ من رؤية العين، فإنما تعدِّيها العربُ بـ «إِلَى» ومتَى لم تتعدَّ بـ «إلى»، فهي بمعنى «ٱنتَظَرَ»؛ ومنها: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ومعنى الكلام: أنْ تأتيهم الملائكةُ لقبض أرواحِهِمْ ظالمِي أنْفُسِهِمْ.

وقوله: ﴿أو يأتي أمْرُ ربِّكَ﴾: وعيدٌ يتضمَّن قيامَ الساعة، أو عذابَ الدنيا، ثم ذَكر تعالَى أَنَّ هذا كان فعْلَ الأمم قَبْلهم، فعُوقبوا.

وقوله سبحانه: ﴿فأصابهم سيئاتُ مَا عَمِلُوا﴾: أي: جزاءُ ذلك في الدنْيا والآخرة، و﴿حاق﴾: معناه: نَزَلَ وأحاطَ.

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذين أشركُوا لو شاء اللَّه ما عَبَدْنَا من دونه من شيء...﴾ الآية: تقدَّم تفسير نظيرها في «الأنعام»، وقولهم: ﴿ولا حرَّمنا﴾: يريد: من البَحِيرةِ والسَّائبة والوَصِيلة وغير ذلك.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٩١).

وقوله سبحانه: ﴿ولقد بعثنا في كلِّ أمة رسولاً أنِ اعبدوا اللَّه ...﴾ الآية: إلى قوله: ﴿فإن اللَّه لا يهدي مَن يضلُّ﴾، وقرأ حمزة والكسائيُّ وعاصم[1]: «لاَ يَهْدِي» - بفتح الياء وكسر الدال -، وذلك على معنيين: أيْ: إن اللَّه لا يَهْدِي من قضَى بإضلاله، والمعنى الثاني: أنَّ العربَ تقولُ: هَدَى الرَّجُلُ، بمعنى اهْتَدَى.

وقوله سبحانه: ﴿وأقسَموا باللَّه جَهْدَ أيمانهم لا يَبْعَثُ اللَّه من يَمُوتُ﴾: الضمير في ﴿أقسموا﴾ لكفَّار قريش، ثم رَدَّ اللَّه تعالى عليهم بقوله: ﴿بلى﴾، فأوجب بذلك البَعْث، و﴿أكثرُ النَّاس﴾ في هذه الآية: الكفَّار المكذِّبون بالبَعْث.

وقوله سبحانه: ﴿ليبيِّن﴾: التقدير: بلى يبعثه؛ ليبيِّن لهم الذي يَخْتَلِفُونَ فيه.

وقوله سبحانه: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه ...﴾ الآية: المَقْصدُ بهذه الآية إعلامُ مُنْكِرِي البَعْث بِهَوَانِ أمره على اللَّه تعالى، وقُرْبِهِ في قُدْرته، لا رب غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿والذين هاجروا في اللَّه من بعد ما ظُلِمُوا﴾: هؤلاء هُمُ الذين هاجروا إلى أرض الحبشةِ، هذا قول الجمهورِ،/ وهو الصحيحُ في سبب نزولِ الآية؛ لأن هجرة المدينة لم تكُنْ وقتَ نزول الآيةِ، والآيةُ تتناوَلُ كلَّ مَنْ هاجر أولاً وآخراً، وقرأ جماعة[2] خارجَ السبْعِ: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ»، واختلف في معنى الـ ﴿حسَنَة﴾ هنا، فقالتْ فرقة: الحسنةُ عِدَةٌ بِبُقْعةٍ شرِيفةٍ، وهي المدينةُ، وذهبَتْ فرقةٌ إلى أن الحسنة عامَّة في كلِّ أمرٍ ١٢٨٠أ

(١) وقرأ الباقون: «فإن اللَّه لا يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال، والمعنى أي: من أضله اللَّه لا يهديه أحد». ينظر: «السبعة» (٣٧٢)، و«الحجة» (٥/ ٦٤)، و«معاني القراءات» (٢/ ٧٩)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٥٣)، و«حجة القراءات» (٣٨٨)، و«العنوان» (١١٧)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٤١٣)، و«شرح شعلة» (٤٥٧)، و«إتحاف» (٢/ ١٨٤).

(٢) وقد رويت عن علي، وابن مسعود، ونعيم بن ميسرة، والربيع بن خيثم. ينظر: «المحتسب» (٢/ ٩)، و«الكشاف» (٢/ ٦٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٩٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٧٧)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٢٧).

مستحسَنٍ يناله ابنُ آدم، وفي هذا القولِ يدخُلُ ما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: أنه كَانَ يُعْطِي المَالَ وَقْتَ القِسْمَةِ الرَّجُلَ مِنَ المُهَاجِرِينَ، ويقُولُ له: خُذْ ما وَعَدَكَ اللّهُ في الدنيا، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ، ثم يتلو هذه[1] الآية، ويدخل في هذا القولِ النَّصْرُ على العدوِّ، وفتْحُ البلادِ، وكلُّ أَمَلٍ بلغه المهاجرون، والضمير في ﴿يعلمون﴾ عائدٌ على كفار قريشٍ.

وقوله: ﴿الذين صبروا﴾: من صفة المهاجرين.

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم﴾: هذه الآيةُ ردٌّ على كفَّار قريش الذين ٱستبْعدُوا أنْ يبعث اللّه بشراً رسولاً، ثم قال تعالَى: ﴿فاسألوا﴾، أي: قلْ لهم: ﴿فَٱسْأَلُوا﴾، و﴿أَهْلُ الذكْرِ﴾؛ هنا: أحبارِ اليهودِ والنصارَى؛ قاله ابن عباس وغيره[2]، وهو أظهر الأقوال، وهم في هذه النازِلَةِ خاصَّة إِنما يخبرون بأنَّ الرسُلَ من البَشَر، وأخبارُهم حجَّة على هؤلاء، وقدْ أرسلَتْ قريشٌ إِلى يهودِ يَثْرِبَ يسألونهم ويُسْنِدُون إِليهم.

وقوله: ﴿بالبينات﴾: متعلِّق بفعلٍ مضمرٍ، تقديره: أرسلناهم بالبيِّنات، وقالتْ فرقة: الباءُ متعلِّقة بـ ﴿أرسلنا﴾ في أول الآية، والتقدير على هذا: وما أرسلنا من قبلك بالبيِّنات والزُّبُرِ إِلاَّ رجالاً، ففي الآية تقديمٌ وتأخير، و﴿الزُّبُر﴾: الكُتُبُ المزبورة.

وقوله سبحانه: ﴿لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ...﴾ الآية.

* ت *: وقد فعل ﷺ ذلك، فبيَّن عن اللّهِ، وأوْضَح، وقد أوتي ﷺ جوامعَ الكَلِمِ، فأعرب عن دين اللّهِ، وأفصح، ولنذكُرِ الآن طَرَفاً من حِكَمِهِ، وفصيحِ كلامِهِ بحذف أسانيده، قال عِياضٌ في «شِفَاهُ»: وأما كلامُهُ ﷺ المعتادُ، وفصاحَتُه المعلومةُ، وجوامُع كَلِمِهِ، وحِكَمُه المأثورةُ، فمنها ما لا يُوَازَى فصاحةً، ولا يبارَى بلاغةً؛ كقوله: «المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»[3]، وقوله: «النَّاسُ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٨٦) برقم: (٢١٥٩٥)، وذكره البغوي (٣/ ٦٩)، وابن عطية (٣/ ٣٩٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٨٧) برقم: (٢١٦٠٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٩٥) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطيالسي (٢/ ٣٧ ـ منحة)، وأحمد (٢/ ٢١١)، وأبو داود (٣/ ١٨٣) كتاب «الجهاد» باب: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث (٢٧٥١)، وابن ماجه(٢/ ٨٩٥) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٥)، وابن الجارود في «المنتقى» (٧٧١)، والبيهقي (٨/ ٢٩) كتاب =

....

= «الجنايات» باب: فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٣٢)، والقضاعي في **«مسند الشهاب»** (١٧٠) من طرق عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»، وللحديث شاهد من حديث علي، وأخرجه أحمد (١/ ١٢٢)، وأبو داود (٤/ ٦٦٧) كتاب «الديات» باب: أيقاد المسلم بالكافر؟، حديث (٤٥٣٠)، والنسائي (٨/ ١٩) كتاب «القسامة» باب: القود بين الأحرار والمماليك في النفس، وأبو عبيد القاسم بن سلام في **«الأموال»** ص: (١٧٩) برقم: (٤٩٥)، والطحاوي في **«شرح معاني الآثار»** (٣/ ١٩٢)، وفي **«مشكل الآثار»** (٢/ ٩٠)، والدارقطني (٣/ ٩٨) كتاب «الحدود والديات» (٦١)، والحاكم (٢/ ١٤١)، والبيهقي (٨/ ٢٩)، والبغوي في **«شرح السنة»** (٥/ ٣٨٨ ـ بتحقيقنا) من طريق الحسن عن قيس بن عباد قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علي فقلنا: هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده للناس عامة؟ قال: «لا إلا ما كان في كتابي هذا»، فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، ومن أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين»، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وفي الباب عن ابن عباس، ومعقل بن يسار، وعائشة، وعطاء بن أبي رباح مرسلاً.

حديث ابن عباس: أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٩٥) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٣)، من طريق حنش عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم»، وذكره الحافظ البوصيري في **«الزوائد»** (٢/ ٣٥٣) وقال: هذا إسناد ضعيف، لضعف حنش، واسمه: حسين بن قيس.

حديث معقل بن يسار: أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٩٥) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٤)، وابن عدي في **«الكامل»** (٥/ ٣٣٢) من طريق عبد السلام بن أبي الجنوب، عن الحسن، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون يد على من سواهم، وتتكافأ دماؤهم».

واللفظ لابن ماجه، أما لفظ ابن عدي: «لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، والمسلمون يد على من سواهم، تتكافأ دماؤهم». وقال ابن عدي: وعبد السلام بن أبي الجنوب بعض ما يرويه لا يتابع عليه منكر.

وذكره الحافظ البوصيري في **«الزوائد»** (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤) وقال: هذا إسناد ضعيف؛ عبد السلام ضعفه ابن المديني، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والبزار، وابن حبان.

حديث عائشة: أخرجه الدارقطني (٣/ ١٣١) كتاب «الحدود والديات»، حديث (١٥٥) من طريق مالك بن محمد بن عبد الرحمٰن عن عمرة، عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ كتابان: إنه أشد الناس عتوّاً في الأرض رجل ضرب غير ضاربه، أو رجل قتل غير قاتله، ورجل تولى غير أهل نعجته فمن فعل ذلك فقد كفر بالله وبرسله، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وفي الآخر: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين».

وقال الزيلعي في **«نصب الراية»** (٣/ ٣٩٥)، ومالك هذا هو ابن أبي الرجال أخو حارثة، ومحمد، قال =

كَأَسْنَانِ المِشْطِ»[١]، «والمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[٢]، و«لاَ خَيْرِ فِي صُحْبَةِ مَنْ لاَ يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ»[٣]، و«النَّاسُ مَعَادِنُ»[٤]، و«مَا هَلَكَ ٱمْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ»، و«المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»، و«هو بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّم»[٥]، و«رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً قَالَ خَيْراً فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ عَنْ شَرٍّ فَسَلِمَ»،

= أبو حاتم: هو أحسن حالاً من أخويه ا هـ.

مرسل عطاء: أخرجه أبو عبيد في **«الأموال»** ص: (٢٩٠) برقم: (٨٠٣)، ثنا ابن أبي زائدة، عن معقل بن عبد الله الجزري، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون إخوة يتكافؤن دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، ومشدهم على مضعفهم ومتسريهم على قاعدهم».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الهندي في **«كنز العمال»** (٢٤٨٢٤)، وينظر: تخريج حديث: «الناس كأسنان المشط».

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٨١) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: قول الله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، حديث (٣٣٨٣)، (٨/ ٢١٢) كتاب «التفسير» باب: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، حديث (٤٦٨٩)، ومسلم (٤/ ١٨٤٦) كتاب «الفضائل» باب: من فضائل يوسف، حديث (١٦٨/ ٢٣٧٨)، والدارمي (١/ ٧٣) باب: الاقتداء بالعلماء، وأبو يعلى (١١/ ٤٣٨) رقم: (٦٥٦٢)، والبغوي في **«شرح السنة»** (٦/ ٥٠٧ ـ بتحقيقنا)، كلهم من طريق عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة به. وأخرجه أحمد (٢/ ٢٥٧)، والحميدي (٢/ ٤٥١) رقم: (١٠٤٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «تجدون الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٥٨) كتاب «فضائل الصحابة» باب: خيار الناس، حديث (١٩٩/ ٢٥٢٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، وابن حبان رقم: (٦٣٦) من طريق يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً باللفظ السابق، وأخرجه أبو يعلى (١٠/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) رقم: (٦٠٧٠)، وابن حبان رقم: (٩٢) من طريق أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً: «الناس معادن في الخير والشر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرجه الحميدي (٢/ ٤٥١) رقم: (١٠٤٦) من طريق يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة به. وللحديث شاهد من حديث معاوية بن أبي سفيان، أخرجه أحمد (٤/ ١٠١) بلفظ: «الناس تبع لقريش خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٣٣) كتاب «الأدب» باب: المستشار مؤتمن، حديث (٣٧٤٦)، والدارمي (٢/ ٢١٩) كتاب «السير» باب: المستشار، وأحمد (٥/ ٢٧٤)، وابن حبان (١٩٩١ ـ موارد)، والبيهقي (١٠/ ١١٢) كتاب «آداب القاضي» باب: من يشاور، والطبراني في **«الكبير»** (١٧/ ٢٣٠) رقم: (٢٣٨) كلهم من طريق أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن أبي عمر الشيباني، عن أبي مسعود به مرفوعاً.

قال ابن أبي حاتم في **«العلل»** (٢/ ٢٧٤) رقم: (١٩/ ٢٣): سألت أبي عن حديث رواه الأسود بن عامر. . . فذكر الحديث وقال: قال أبي: هذا خطأ، إنما أراد: الدال على الخير كفاعله، قلت: الخطأ ممن هو؟ قال: من شريك ا هـ. ومع ذلك فقد صححه ابن حبان. =

وقوله: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، و«أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»، و«إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي

= وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ١٨١): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات ا هـ.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم أبو هريرة، وجابر بن سمرة، وسمرة بن جندب، وأبو الهيثم بن التيهان، وعمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن الزبير، وأم سلمة.

حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٥٥) كتاب «الأدب» باب: في المشورة، حديث (٥١٢٨)، والترمذي (٥/ ١١٥) كتاب «الأدب» باب: إن المستشار مؤتمن، حديث (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٣) كتاب «الأدب» باب: المستشار مؤتمن، حديث (٣٧٤٥)، والبخاري في **«الأدب المفرد»**، حديث (٢٥٦)، والطحاوي في **«مشكل الآثار»** (١/ ١٩٥ - ١٩٦)، والحاكم (٤/ ١٣١)، والبيهقي (١٠/ ١١٢) كتاب «آداب القاضي» باب: من يشاور، كلهم من طريق عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة، مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

حديث جابر بن سمرة: أخرجه الطبراني في **«الكبير»** (٢/ ٢١٤) رقم: (١٨٧٩)، والخطيب في **«تاريخ بغداد»** (٥/ ٩٧) كلاهما من طريق قيس بن الربيع، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».

والحديث ذكره الهيثمي في **«المجمع»** (٨/ ١٠٠) وقال: رواه الطبراني في **«الكبير والأوسط»**، وفيه من لم أعرفه.

حديث سمرة بن جندب: أخرجه الطبراني في **«الكبير»** (٧/ ٢٦٦) رقم: (٦٩١٤)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (٦/ ١٩٠) كلاهما من طريق عبد الرحمٰن بن عمرو بن جبلة، ثنا سلام بن أبي مطيع، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».

قال أبو نعيم: غريب من حديث سلام، لم نكتبه عالياً إلا من هذا الوجه، وذكره الهيثمي في **«المجمع»** (٨/ ١٠٠) وقال: وفيه عبد الرحمٰن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك.

حديث أبي الهيثم بن التيهان: أخرجه ابن الجوزي في **«العلل المتناهية»** (٢/ ٧٤٧) رقم: (١٢٤٧) من طريق محمد بن جامع العطار، حدثنا عبد الحكيم بن منصور، نا عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي الهيثم بن التيهان مرفوعاً، وقال ابن الجوزي: وهذا لا يثبت، ولا يصح، أما عبد الحكيم فقال يحيى: كذاب، وقال الرازي: لا يكتب حديثه، وأما محمد بن جامع، فقد ضعفوه.

وذكره الهيثمي في **«المجمع»** (٨/ ١٠٠)، وقال: رواه الطبراني من طريق جده عبد الرحمٰن بن محمد بن زيد، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

حديث عمر بن الخطاب: أخرجه الخطيب في **«تاريخ بغداد»** (٩/ ٦٠ - ٦١)، ومن طريقه ابن الجوزي في **«العلل المتناهية»** (٢/ ٧٤٦) من طريق محمد بن سليمان قال: حدثني حزام بن هشام قال: سمعت أبي يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المستشار مؤتمن».

قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يثبت، كان الحميدي يتكلم في محمد بن سليمان، وضعفه النسائي، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع لا في إسناده ولا في متنه.

حديث ابن عباس: أخرجه القضاعي في **«مسند الشهاب»** (١/ ٣٩) رقم: (٥)، وذكره الهيثمي في **«المجمع»** (٨/ ٩٩)، وقال: رواه الطبراني في **«الأوسط»** وفيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك.

حديث ابن الزبير: أخرجه البزار (٢/ ٤٢٨ - ٤٢٩) رقم: (٢٠٢٧) من طريق أبي عوانة، عن =

مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقاً المُوطَّؤُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»، وقوله: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ، وَيَبْخَلُ بِمَا لاَ يُغْنِيهِ»، وقوله: «ذُو الوَجْهَيْنِ لاَ يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ
٢٨٠ ب وَجِيهاً» / وَنَهْيُهُ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المَالِ، وَمَنْعٍ وَهَاتِ، وَعُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ البَنَاتِ[1]، وقوله: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا،

= عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن عبد اللّٰه بن الزبير مرفوعاً، وقال البزار: لا نعلم أحداً تابع ابن إسحاق على هذه الرواية، وقد اختلفوا على عبد الملك، فرواه غير واحد عن أبي عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة مرسلاً، وروي عن عبد الملك بن عمير، عن أبي هريرة، ورواه الحكم بن منصور، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أبي الهيثم بن التيهان، ورواه شريك، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أم سلمة، وذكره الهيثمي في **«المجمع»** (٨/ ٩٩) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ا هـ.

قلت: أما المرسل الذي أشار إليه البزار عن أبي سلمة فأخرجه أحمد في «الزهد» ص: (٣٢).

حديث أم سلمة: أخرجه الترمذي (٥/ ١١٦) كتاب «الأدب» باب: إن المستشار مؤتمن، حديث (٢٨٢٣)، وأبو يعلى (١٢/ ٣٣٣) رقم: (٦٩٠٦) من طريق داود بن أبي عبد اللّٰه، عن ابن جدعان، عن جدته، عن أم سلمة مرفوعاً به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أم سلمة. وفي الباب عن علي بن أبي طالب أيضاً، والنعمان بن بشير أخرجه الطبراني في **«الأوسط»** كما في **«المجمع»** (٨/ ٩٩) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في **«الأوسط»** عن شيخه أحمد بن زهير عن عبد الرحمٰن بن عتبة الطبري، ولم أعرفهما.

وحديث النعمان بن بشير: ذكره الهيثمي في **«المجمع»** (٨/ ١٠٠) وقال: رواه الطبراني وفيه حفص بن سليمان الأسدي، وهو متروك، وحديث: «المستشار مؤتمن»، ذكره السيوطي في **«الجامع الصغير»** (٦/ ٢٦٨ ـ فيض) رقم: (٩٢٠٠ ـ ٩٢٠١ ـ ٩٢٠٢)، وقد عده متواتراً في **«الأزهار المتناثرة»** رقم: (٥٢).
وقال المناوي في **«الفيض»** (٦/ ٢٦٨): «المستشار مؤتمن» أي: أمين على ما استشير فيه فمن أفضى إلى أخيه بسره، وأَمَّنه على نفسه، فقد جعله بمحلها، فيجب عليه أنه لا يشير عليه إلا بما يراه صواباً، فإنه كالأمانة للرجل الذي لا يأمن على إيداع ماله إلا ثقة، والسر الذي يكون في إذاعته تلف النفس أولى بألا يجعل إلا عند موثوق به، وفيه حث على ما يحصل به معظم الدين، وهو النصح للّٰه ورسوله وعامة المسلمين وبه يحصل التحابب والائتلاف، وبضده يكون التباغض والاختلاف، قال بعض الكاملين: يحتاج الناصح والمشير إلى علم كبير كثير فإنه يحتاج أولاً إلى علم الشريعة، وهو العلم العام المتضمن لأحوال الناس، وعلم الزمان وعلم المكان، وعلم الترجيح إذا تقابلت هذه الأمور فيكون ما يصلح الزمان يفسد الحال أو المكان، وهكذا فينظر في الترجيح فيفعل بحسب الأرجح عنده؛ مثاله: أن يضيق الزمن عن فعل أمرين اقتضاهما الحال فيشير بأهمهما، وإذا عرف من حال إنسان بالمخالفة وأنه إذا أرشده لشيء فعل ضده يشير عليه بما لا ينبغي ليفعل ما ينبغي، وهذا يسمى علم السياسة، فإنه يسوس بذلك النفوس الجموحة الشاردة عن طريق مصالحها، فلذلك قالوا: يحتاج المشير والناصح إلى علم، وعقل، وفكر صحيح، ورؤية حسنة، واعتدال مزاج، وتؤدة، وتأنٍ، فإن لم تجمع هذه الخصال فخطأه أسرع من إصابته، فلا يشير ولا ينصح، قالوا: وما في مكارم الأخلاق أدق ولا أخفى ولا أعظم من النصيحة.

(١) تقدم تخريجه.

وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حسنٍ»[(١)]؛ و«خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُها»، وقوله: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَّا»، وقوله: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وقولِهِ في بَعْضِ دعائه: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعْثِي[(٢)]، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رَشَدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ فِي القَضَاءِ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ»، إلى غَيْرِ ذلكَ مِنْ بيانِهِ، وحُسْنِ كلامه مِمَّا روتْهُ الكافَّة عن الكافَّة مما لا يُقَاسُ به غيره، وحاز فيه سبقاً لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ؛ كقوله: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ في بَطْنِ أُمِّهِ»؛ في أخواتها مما يدرك الناظِرُ العَجَبَ في مضمَّنها، ويذهَبُ به الفكْرُ في أداني حِكَمِها، وقال ﷺ: «بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ»، فجمع اللَّه له بذلك قُوَّة عارضَةِ الباديةِ وجزالَتَهَا، وَنَصَاعَةَ أَلْفاظِ الحاضِرَةِ وَرَوْنَقَ كلامِهَا، إلى التأييد الإلٰهيِّ الذي مَدَدُهُ الوَحْي، الذي لا يحيطُ بعلمه بَشَرِيّ. انتهى. وبالجملة فليس بَعْدَ بيان اللَّه ورسُولِهِ بيانٌ لمن عَمَّر اللَّهُ قلْبَه بالإِيمان.

وقوله سبحانه: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات...﴾ الآية: تهديدٌ لكفَّار مكَّة ونُصِبَ السيئات بـ ﴿مَكَرُوا﴾ وعُدِّيَ ﴿مكروا﴾ لأنه في معنى عملوا، قال البخاريُّ: قال ابن عباس: ﴿في تقلّبهم﴾، أي: في اختلافهم[(٣)] انتهى.

وقال المهدويُّ: قال قتادة: ﴿في تقلُّبهم﴾: في أسفارهم[(٤)]، الضَّحَّاك: ﴿في تقلُّبهم﴾: باللَّيلِ انتهى.

وقوله: ﴿على تخوّف﴾، على جهة التخُوف، والتخُوفُ التنقُّص، وروي أن عمر بن الخطَّاب رضي اللَّه عنه خَفِيَ عليه معنى التخُوف في هذه الآية، وأراد الكَتْبَ إلى الأمصار يسأل عن ذلك، فيروَى أنه جاءه فَتًى مِن العرب، فقال: يا أمير المؤمِنِين، إنَّ أَبي يتخَّوفُنِي مَالي، فقَالَ عُمَرُ: اللَّهُ أَكْبَرُ! ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾[(٥)]، ومنه قول النابغة: [الطويل]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: تجمع بها ما تفرق من أمري.
ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٩٠) برقم: (٢١٦١٣)، وذكره البغوي (٣/ ٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٥٩٠) برقم: (٢١٦١٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٧١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٥٩١) برقم: (٨/ ٢١٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٩٦)، والسيوطي في «الدر =

تَخَوَّفَهُمْ حَتَّى أَذَلَّ سَرَاتَهُمْ بِطَعْنِ ضِرَارٍ بَعْدَ فَتْحِ الصَّفَائِحِ(١)

وهذا التنقُّص يتَّجه به الوعيدُ على معنيين:

أحدهما: أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف، أي: أفذاذاً يتنقَّصهم بذلك الشيءَ بعد الشيءِ، ويصيِّرهم إلى ما أعدَّ لهم من العذاب، وفي هذه الرتبةِ الثالثة مِنَ الوعيدِ رأفَةٌ ورحمةٌ وإمهال؛ ليتوبَ التائِبُ، ويرجِعَ الرَّاجع، **والثاني**: ما قاله الضَّحَّاك: أنْ يأخذ بالعذابِ طائفةً أو قريةً، ويترك أخرى، ثم كذلك حتَّى يَهْلِكَ الكُلُّ(٢).

٢٨١ أ وقالت فرقة: «التخُوف» هنا: من الخَوف، أي: فيأخذهم بعد تخُوف ينالهم / يعذِّبهم به.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء...﴾ الآية: قوله: ﴿من شيء﴾ لفظٌ عامٌّ في كلِّ شخصٍ وجرْم له ظلٌّ كالجبال والشجر وغير ذلك، وفَاءَ الظِّلُّ رجَعَ، ولا يقالُ: الفيء إلاَّ مِنْ بعد الزوال؛ في مشهور كلام العرب، لكنْ هذه الآية: الاعتبار فيها من أول النَّهار إلى آخره فكأنَّ الآية جاريةٌ في بعْضٍ؛ على تجوُّز كلام العرب واقتضائه، والرؤية، هنا: رؤيةُ القَلْب ولكنَّ الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكونُ في مرئيَّات بالعينِ، و﴿عن اليمين والشمائلِ﴾؛ هنا: فيه تجوُّز واتساعٌ، وذكَرَ(٣) الطبريُّ عن الضَّحَّاك، قال: إذا زالَتِ الشمْسُ، سَجَدَ كلّ شيء قِبَلَ القبْلة من نَبْت أو شجر(٤)؛ ولذلك كان الصالحُونَ يستحبُّون الصلاة في ذلك الوقْت. قال الداووديُّ: وعن النبيِّ ﷺ قال: «أرْبَعٌ

= **المنثور»** (٤/ ٢٢٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(١) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٥٩٠) برقم: (٢١٦٢٦)، وذكره البغوي (٣/ ٧٠) بنحوه، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٧١) بنحوه، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٢٣)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: **«تفسير الطبري»** (٧/ ٥٩٣).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٥٩٣) برقم: (٢١٦٣٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٩٨)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٢/ ٥٧٢)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٢٤)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم، عن الضحاك.

قَبْلَ الظُّهْرِ بَعْدَ الزَّوَال تُحْسَبُ بِمِثْلِهِنَّ في صَلاَةِ السَّحَرِ»، قَالَ: «وَلَيْسَ شَيْءٌ إِلاَّ يُسَبِّحُ لِلَّهِ تِلْكَ السَّاعَةَ»، وقرأ: ﴿يتفيؤا ظلاله ...﴾[١] الآية كلُّها. انتهى[٢]. و«الدَّاخر»: المتصاغر المتواضع.

وقوله سبحانه: ﴿يخافون ربهم﴾: عامٌّ لجميع الحيوانِ، و﴿من فوقهم﴾: يريد: فوقية القَدْر والعَظَمة والقَهْر.

وقوله سبحانه: ﴿وله ما في السمٰوات والأرض﴾: ﴿السمٰوات﴾ هنا: كلُّ ما ٱرتفَعَ مِنَ الخلق من جهة فَوْق، فيدخل في ذلك العرشُ والكرسيُّ وغيرهما، و﴿الدِّين﴾: الطاعة والمُلْك، و«الواصب»: الدائم؛ قاله ابن عباس[٣].

ثم ذكَّر سبحانه بِنِعَمِهِ، ثم ذَكَّر بأوقاتِ المَرَضِ، والْتجاءِ العِبادِ إِليه سبحانه، و«الضُّرُّ»، وإِن كان يعمُّ كل مكروه، فأكثرُ ما يجيء عن أرزاء البَدَنِ، و﴿تَجْأَرُونَ﴾ معناه: ترفعون أصواتكم بٱستغاثة وتضرُّع.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾: الـ ﴿فريق﴾، هنا: يراد به المشرِكون الذين يَرَوْن أن للأصنام أفعالاً من شفاء المرضَى، وجَلْبِ النفعِ، ودفعِ الضرِّ، فهم إِذا شفاهم اللَّهُ، عظَّموا أصنامهم، وأضافوا ذلك الشفاءَ إِليها.

وقوله سبحانه: ﴿ليكفروا﴾: يجوز أنْ تكون اللامُ لامَ الصيرورةِ، ويجوز أن تكونَ لام أمرٍ؛ على معنى التهديد.

وقوله: ﴿بما آتيناهم﴾: أي: بما أنعمنا عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٩) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النحل، حديث (٣١٢٨) من حديث عمر، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٩) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النحل، حديث (٣١٢٨) من طريق علي بن عاصم، عن يحيى البكاء، حدثني عبد الله بن عمر، عن عمر بن الخطاب به.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن عاصم.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٤)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٩٥) برقم: (٢١٦٤٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾: أي: لما لا يعلمون له حُجَّةً، ولا برهاناً، ويحتمل أن يريد بنفي العِلْم الأصنامَ، أي: لجماداتٍ لا تعلم شيئاً نصيباً، و«النصيب» المشار إليه هو ما كانَتِ العرب سَنَّته من الذبحِ لأصنامها، والقَسْمِ من الغَلاَّتِ وغيره.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويجعلون للّه البناتِ سبحانه . . .﴾ الآية: تعديدٌ لقبائحِ الكَفَرة في قولِهم: «الملائكةُ بناتُ اللّه»، تعالَى اللّه عن قولهم، والمراد بقوله: ﴿ولهم ما يشتهون﴾، الذُّكْرَانُ من الأولاد.

٢٨١ ب وقوله: ﴿ظَلَّ وجهه مُسْوَدًّا﴾: عبارة عما/ يعلو وجْهَ المغموم.

قال * ص *: «ظَلَّ»: تكون بمعنى «صَارَ»، وبمعنى «أقام نهاراً»؛ على الصفة المسنَدَةِ إلى اسمها، وتحتمل هنا الوجهين. انتهى، و﴿كظيم﴾: بمعنى: كاظم، والمعنى: أنه يُخْفي وجْدَه وهمَّه بالأنثى، ومعنى ﴿يتوارَى﴾: يتغيَّب من القوم، وقرأ[1] الجَحْدَرِيُّ: «أيُمْسِكُهَا أمْ يَدُسُّها»، وقرأ الجمهور[2]: «علَى هُونٍ»، وقرأ عاصمٌ الجَحْدَرِيُّ[3]: «عَلَى هَوَانٍ»، ومعنى الآية: يُدَبِرُ، أيمسِكُ هذه الأنثى على هوانٍ يتحمَّله، وهمٌ يتجلَّد له، أمْ يَئِدُها فيدفنُها حيَّةً، وهو الدسُّ في التراب.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ﴾: قالت فرقة: ﴿مَثَل﴾، في هذه الآية: بمعنى صفة، أي: لهؤلاء صفَةُ السَّوْء وللّه المَثَلُ الأعلى.

---

(١) ينظر: «الشواذ» (٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨٨)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨٨)، و«الدر» (٤/ ٣٣٩).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

قال * ع[١] *: وهذا لا يضطر إليه؛ لأنه خروجٌ عن اللَّفظِ، بل قوله: ﴿مَثَل﴾ على بابه، فلهم على الإطلاقِ مَثَلُ السوء في كلِّ سوء، ولا غاية أخزى من عذابِ النارِ، ولله سبحانه ﴿المَثَلُ الأعلى﴾ على الإطلاق أيضاً، أي: الكمال المستغْنِي.

وقوله سبحانه: ﴿ولو يؤاخذ اللَّه الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾: الضميرُ في «عليها» عائدٌ على الأرض، وتَمَكَّنَ ذلك مع أنه لم يَجْرِ لها ذكر؛ لشهرتها وتمكُّن الإشارة إليها، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول: «إِنَّ الظَّالِمَ لاَ يُهْلِكُ إِلاَّ نَفْسَهُ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَة: بَلَى، إِنَّ اللَّهَ لَيُهْلِكُ الحُبَارَى في وَكْرِهَا هزلاً بِذُنُوب الظَّلَمَةِ[٢]. و«الأجَلُ المسمَّى»؛ في هذه الآية: هو بحسبِ شَخْصٍ شخصٍ.

وقوله: ﴿ما يكرهون﴾ يريد البنات.

وقوله سبحانه: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أنَّ لهم الحسنى﴾: قال مجاهد وقتادة ﴿الحُسْنَى﴾: الذُّكور من الأولاد[٣]، وقالت فرقةٌ: يريد الجنة.

قال * ع[٤] *: ويؤيِّده قوله: ﴿لاَ جرم أنَّ لهم النار﴾، وقرأ السبعة[٥] سوَى نافع: «مُفْرَطُونَ» - بفتح الراءِ وخِفَّتِها - أي: مُقَدَّمون إلى النار، وقرأ نافع: «مُفرِطُونَ» - بكسر الراء المخفَّفة -، أي: متجاوِزُونَ الحدَّ في معاصِي اللَّه.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٦٠١) برقم: (٢١٦٦٩) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٧٤)، وابن عطية (٣/ ٤٠٣)، وابن كثير (٢/ ٥٧٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الشعب».

(٣) أخرجه الطبري(٧/ ٦٠٢) برقم: (٢١٦٧٣)، (٢١٦٧٤)، (٢١٦٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٣)، وابن كثير (٢/ ٥٧٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٨)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ولعبد الرزاق، وابن المنذر.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٠٣).

(٥) ينظر: «السبعة» (٣٧٣)، و«الحجة» (٥/ ٧٣)، و«معاني القراءات» (٢/ ٨٠)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٥٦)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٤١٥)، و«العنوان» (١١٨)، و«شرح شعلة» (٤٥٨)، و«حجة القراءات» (٣٩١)، و«إتحاف» (٢/ ١٨٥).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك . . .﴾ الآية: هذه آية ضرب مثل لهم بِمَنْ سَلَف، في ضِمْنها وعيدٌ لهم، وتأنيسٌ للنبيِّ ﷺ، وقوله: ﴿فهو وليهم اليوم﴾: يحتمل أنْ يريد بـ ﴿اليوم﴾ يومَ الإِخبار، ويحتملُ أنْ يريد يَوْمَ القيامةِ، أي: وليهم في اليَوْمِ المشهورِ.

وقوله سبحانه: ﴿إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾: ﴿لتبين﴾: في موضع المفعولِ من أجلِهِ، أي: إلا لأجل البيانِ، و﴿الذي اختلفوا فيه﴾: لَفظٌ عامٌّ لأنواعِ كُفْر الكفرة، لكن الإِشارة هنا إلى تشريكهم الأَصْنَامَ في الإِلٰهِيَّة.

ثم أَخَذَ سبحانه يَنصُّ العِبَرَ المؤدِّية إلى بيان وحدانيته، وعظيم قدرَتِهِ، فبدأ بنعمَةِ المَطَرَ التي هِيَ أَبينُ العبر، وهي مِلاَكُ الحياة، وهي في غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل.

وقوله: ﴿مما في بطونه﴾: الضمير عائد على الجِنْس، وعلى المذكور، وهذا كثيرٌ.

١٢٨٢ أ وقوله سبحانه: ﴿سائغاً للشاربين﴾ / «السائغ»: السَّهْلُ في الشرْبِ اللذيذُ.

* ت *: وعن ابن عبَّاس، قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ طَعَاماً، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبناً، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وزِدْنَا مِنْهُ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِىءُ مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ»[(١)]، رواه أبو داود والترمذيُّ وابن ماجه، وقال الترمذيُّ، واللفظ له: هذا حديثٌ حسنٌ، انتهى من «**السلاح**».

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٦٥) كتاب «الأشربة» باب: ما يقول إذا شرب اللبن، حديث (٣٧٣٠)، والترمذي (٥/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا أكل طعاماً، حديث (٣٤٥٥)، وفي «**الشمائل**» برقم: (٢٠٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٨٦ ـ ٢٨٧)، وأحمد (١/ ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٨٤)، من حديث ابن عباس، وقال الترمذي: حديث حسن.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتَّخذون منه سَكَراً . . .﴾ الآية: «السَّكَر»: ما يُسْكِرُ؛ هذا هو المشهور في اللغة، قال ابن عباس: نزلَتْ هذه الآية قبل تحريم الخَمْرِ[١]، وأراد بـ« السَّكَر»: الخمرَ، وبـ «الرِّزق الحسن» جميعَ ما يُشْرَبُ ويؤكل حلالاً من هَاتَيْنِ الشجرتَيْن، فالحَسَنُ؛ هنا: الحلال، وقال بهذا القولِ ابنُ جُبَيْر وجماعة[٢] وصحَّح ابنُ العربيِّ[٣] هذا القولِ، ولفظه: والصحيحُ أَنَّ ذلك كان قبل تحريم الخَمْرِ، فإن هذه الآية مكِّيَّة بٱتفاقِ العلماء، وتحريمُ الخَمْر مدنيٌّ انتهى من **«أحكام القرآن»**، وقال مجاهد وغيره: السكر المائعُ من هاتَيْنِ الشجرتَيْنِ، كالخَلِّ، والرُّبِّ، والنَّبِيذِ، والرزقُ الحَسَنُ: العنبُ والتمرُ[٤].

قال الطبريُّ[٥]: والسَّكَر أيضاً في كلام العرب ما يُطْعَم، ورجَّح الطبريُّ هذا القول، ولا مدخَلَ للخَمْر فيه، ولا نَسْخَ في الآية.

وقوله تعالى: ﴿وأوحَى ربك إلى النحل. . . .﴾ الآية: الوَحْيُ؛ في كلام العرب: إلقاء المعنى من المُوحي إلى الموحَىٰ إليه في خفاءٍ، فمنه الوَحْيُ إلى الأنبياء برسالةِ المَلَكِ، ومنه وَحْيُ الرؤيا، ومنه وَحْيُ الإلهام، وهو الذي في آيتنا؛ بٱتفاقٍ من المتأوِّلِين، والوَحْيُ أيضاً بمعنى الأمر؛ كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وقد جعل اللَّه بيوتَ النحل في هذه الثلاثة الأنواعِ: إمَّا في الجبالِ وكُوَاها، وإما في متجوِّفِ الأشجار، وإما فيما يَعْرِشُ ابنُ آدَمَ من الأَجْبَاحِ والحِيطان، ونحوها، وعَرَشَ: معناه: هيَّأ، والـ ﴿سُبُل﴾ الطرقُ، وهي مسالكها في الطيران وغيره، و﴿ذُلُلاً﴾: يحتمل أن يكون حالاً من «النحل»، أي: مطيعةً منقادةً، قاله قتادة[٦]. قال ابن زَيْد: فهم يخرجون بالنحل

---

(١) ذكره البغوي (٣/ ٧٥)، وابن عطية (٢/ ٤٠٥)، وابن كثير (٢/ ٥٧٥)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٢٨)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبي داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن مردويه، والحاكم صححه.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٦٠٩) برقم: (٢١٧٠٧)، (٢١٧٠٨)، (٢١٧٠٩)، وذكره البغوي (٣/ ٧٥)، وابن عطية (٣/ ٤١٥)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٢٩)، وعزاه للنسائي.

(٣) ينظر: **«أحكام القرآن»** (٣/ ١١٥٣).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٦١١) برقم: (٢١٧٣٧) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٧٥)، وابن عطية (٣/ ٤٠٥)، وابن كثير (٢/ ٥٧٧).

(٥) ينظر: **«تفسير الطبري»** (٧/ ٦١١).

(٦) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٣) برقم: (٢١٧٤٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٦)، وابن كثير (٢/ ٥٧٥)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٣٠)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر.

ينتجعون، وهي تتبعهم[(١)] وقرأ: ﴿أَو لَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعَاماً. . .﴾ [يسۤ: ٧١] الآية، ويحتملُ أنْ يكون حالاً من «السُّبُل»، أي: مسَّهلةً مستقيمةً؛ قاله مجاهد[(٢)]، لا يتوعَّر عليها سبيلٌ تسلُكه.

ثم ذكر تعالى؛ على جهة تعديد النعمة، والتنبيه على العِبْرة ـ أَمْرَ العَسَل في قوله: ﴿يخرج من بطونها شرابٌ﴾، وجمهور الناس على أنَّ العسل يخرُجُ من أفواهِ النَّحْلِ، واختلافُ الألوان في العسل بحسب اختلاف النَّحْلِ والمَرَاعِي، أي والفصول.

* ت *: قال الهرويُّ: قوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه﴾، وذلك أنه يستحيلُ في بطونها، ثم تمجُّه من أفواهها انتهى.

٢٨٢ ب وقوله: ﴿فيه شفاءٌ للناسِ﴾ الضمير للعَسَل؛ قاله الجمهور:/ قال ابن[(٣)] العربيّ في «أحكامه»؛ وقد روى الأئمة، واللفظُ للبخاريّ، عن عائشة، قالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُحِبُّ الحَلْوَاءَ والعَسَلَ[(٤)]، وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ: أنَّ رجلاً أَتى النبيَّ ﷺ فَقَالَ: إنَّ أخِي يَشْتَكي بَطْنَهُ فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلاً»، ثم أتاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلاً»، ثُمَّ أتاه فَقَالَ: فَعَلْتُ فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إلاَّ اسْتِطْلاَقاً، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «صَدَقَ اللَّهُ وكَذَبَ بَطْنُ أخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلاً» فسَقَاهُ، فَبَرأ[(٥)]، وروي أنَّ عوف بنَ مالك الأشْجَعِيَّ مَرِضَ، فقيل له: ألا نُعالِجُكَ؟ فَقَالَ: ائْتُوني بمَاءِ سَمَاءٍ، فإنَّ اللَّهَ تعالى يقُولُ: ﴿ونَزَّلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبارَكاً﴾ [قۤ: ٩]

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٣) برقم: (٢١٧٤٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٦)، وابن كثير (٢/ ٥٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره البغوي (٢/ ٧٦)، وابن عطية (٣/ ٤٠٦).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١١٥٧).

(٤) أخرجه البخاري (٩/ ٥٥٧) كتاب «الأطعمة» باب: الحلوى والعسل، حديث (٥٤٣١)، ومسلم (٢/ ١١٠١) كتاب «الطلاق» باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، حديث (٢١/ ١٤٧٤)، وأبو داود (٢/ ٣٦١)، كتاب «الأشربة» باب: في شراب العسل، حديث (٣٧١٥)، والترمذي (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) كتاب «الأطعمة» باب: ما جاء في حب النبي ﷺ الحلواء والعسل، حديث (١٨٣١)، وفي الشمائل(١٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١١٠٤) كتاب «الأطعمة» باب: الحلواء، حديث (٣٣٢٣)، والدارمي (٢/ ١٠٧)، وأحمد (٦/ ٥٩) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص: (٢٠٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٨٤ ـ بتحقيقنا)، كلهم من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري (١٠/ ١٣٩) كتاب «الطب» باب: الدواء بالعسل، حديث (٥٦٨٤)، ومسلم (٤/ ١٧٣٦) كتاب «السلام» باب: التداوي بسقي العسل، حديث (٩١/ ٢٢١٧)، وأحمد (٣/ ١٩)، والبيهقي (٩/ ٣٤٤)، وفي «دلائل النبوة» (٦/ ١٦٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٢٤٩ ـ بتحقيقنا).

وأتتوني بعَسَلٍ؛ فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿فِيهِ شفاءٌ للنَّاسِ﴾ وأتتوني بزيت؛ فإن اللَّه تعالى يقولُ: ﴿مِنْ شَجَرةٍ مُبارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥] فجاءوه بذلك كلّه فخَلَطَهُ جميعاً، ثم شَرِبَهُ، فَبَرأ انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العُمُر﴾، وأرذلُ العمر الذي تَفْسُدُ فيه الحواسُّ، ويختلُّ العَقْل، وخص ذلك بالرذيلة، وإن كانَتْ حالة الطُّفُولة كذَلِكَ مِنْ حيثُ كانَتْ هذه لا رَجَاءَ معها، وقال بعضُ الناس: أول أرذَلِ العُمُرِ خَمْسٌ وسَبْعُونَ سنةً، روي ذلك عن علي[١] رضي الله عنه.

قال * ع[٢] *: وهذا في الأغلَبِ، وهذا لا ينحصرُ إلى مدَّة معيَّنة، وإنما هو بحَسَبِ إنسانٍ إنسانٍ، ورُبَّ مَنْ يكون ابْنَ خمسين سنَةً، وهو في أرذَلِ عمره، وربَّ ابن تسعينَ ليس في أرذَلِ عمره، واللامُ في ﴿لكي﴾ يشبه أنْ تكون لامَ الصيرورةِ، والمعنى: ليصير أمره بعْدَ العِلْم بالأشياء إلى ألاَّ يعلم شيئاً، وهذه عبارة عن قلَّة علمه، لا أنه لا يعلم شيئاً ألبتَّة.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واللَّه فضل بعضَكُم على بعضٍ في الرزق﴾ إخبار يُرَادُ به العِبْرة وإنما هي قاعدةٌ بني المثل عليها، والمَثَل هو أن المفضَّلين لا يصحُّ منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أُعطُوا؛ حتى تستوي أحوالُهم، فإذا كان هذا في البَشَر، فكيف تنسبون أيها الكَفَرةُ إلى اللَّه؛ أنَّه يسمح بأنْ يشرك في الألوهيَّة الأوثانَ والأصْنَامَ وغيرها ممَّا عُبدَ مِنْ دونه، وهم خَلْقُه ومِلْكه، هذا تأويلُ الطبريِّ، وحكاه عن ابن عباس[٣] قال المفسِّرون: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِن ما مَلَكَتْ أَيمَانُكُم مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٥) برقم: (٢١٧٥٦)، وذكره البغوي (٣/ ٧٦)، وابن عطية (٣/ ٤٠٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٠٧).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٥ ـ ٦١٦) برقم: (٢١٧٥٧)، وذكره ابن كثير (٢/ ٥٧٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

شُرَكَاءَ في مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ. . .﴾ الآية [الروم: ٢٨] ثم وقفهم سبحانه على جَحْدهم بنعمته في تنبيهه لهم على مِثْلِ هذا مِنْ مواضِع النظرِ المؤدِّية إلى الإيمان.

وقوله سبحانهُ: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ هذه أيضاً آيةُ تعديدِ نِعَم، «والأزواجُ»؛ هنا: الزوجاتُ، وقوله: ﴿من أنفسكم﴾: يحتملُ أن يريد خِلْقَةَ حوَّاء من نَفْس آدم، وهذا قول قتادة[1] والأظهرُ عندي أنْ يريد بقوله ﴿مِنْ أنفسكم﴾، أي: مِنْ نوعكم كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والـ ﴿حفدةُ﴾: قال ابن عباس:
٢٨٣ أ هم أولاد البنين[2] وقال الحسن: هم بَنُوكَ وبَنُو بَنِيكَ[3]،/وقال مجاهد: الـ ﴿حفدة﴾ الأنصار والأعْوان[4] وقيل غير هذا، ولا خلاف أنَّ معنى «الحفْد» الخِدْمَةِ والبرُّ والمشْيُ مسرعاً في الطاعة؛ ومنه في القنوت: «وإِلَيْكَ نَسْعَى ونحفِدُ»، والحَفَدَانُ أيضاً: خَبَبٌ فوق المَشْي.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال. . .﴾ الآية: أي: لا تمثِّلوا لله الأمثال، وهو مأخوذ من قولك: هذا ضَرِيبُ هَذَا، أي: مثيله، والضَّرْب: النَّوْع.

﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً﴾ الآية: الذي هو مثالٌ في هذه الآية هو

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٦) برقم: (٢١٧٦٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٩) برقم: (٢١٧٩٧ ـ ٢١٧٩٨)، وذكره البغوي(٣/ ٧٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٨)، وابن كثير (٢/ ٥٧٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٨) برقم: (٢١٧٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٠٨)، وابن كثير (٢/ ٥٧٧) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٦١٨) برقم: (٢١٧٨٧)، وذكره البغوي (٣/ ٧٧)، وابن عطية (٣/ ٤٠٨)، وابن كثير (٢/ ٥٧٧).

عَبْدٌ بهذه الصفةِ، مملوكٌ لا يَقْدِرُ على شيء من المال، ولا أمْر نفسه، وإنما هو مُسَخَّرٌ بإرادة سَيِّده، مَدَبَّرٌ، وبإزاء العبْدِ في المثالِ رجُلٌ موسَّعٌ عليه في المال، فهو يتصرَّف فيه بإرادته، واختلف النَّاس في الذي له المَثَلُ، فقال ابن عباس وقتادة: هو مَثَلُ الكافر والمؤمنِ[١]، وقال مجاهد والضَّحَّاك: هذا المِثَال والمِثَالُ الآخر الذي بَعْدَه، إنما هو مثَالٌ للَّهِ تعالى، والأصنام، فتلك كالعَبْدِ المملوكِ الذي لا يَقْدِرُ على شيء، واللَّه تعالى تتصرَّف قدرته دون معقب[٢]، وكذلك فَسَّر الزَّجَّاج على نحو قول مجاهد، وهذا التأويلُ أصوبُ؛ لأن الآية تكُونُ من معنى ما قَبْلَها، ومدارُها في تبْيِين أمْر اللَّه والردُّ على أمْر الأصنام.

وقوله: ﴿الحمد للَّه﴾ أي: على ظهور الحجَّة.

وقوله سبحانه: ﴿وضرب اللَّه مثلاً رجلين أحدهما أبكم. . .﴾ الآية: هذا مثَلٌ للَّه عزَّ وجلَّ والأصنام، فهي كالأبكم الذي لا نُطْقَ له ولا يَقْدِرُ على شيء، «والكَلُّ» الثقيل المؤونة، كما الأصنامُ تحتاجُ إلى أنْ تُنقَلَ وتخْدَمَ ويتعذَّب بها، ثم لا يأتي مِنْ جهتها خَيْرٌ أبداً، والذي يأمر بالعدلِ هو اللَّه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وما أمر الساعة. . .﴾ الآية: المعنى، على ما قاله قتادة وغيره: ما تكونُ الساعةُ وإقامتها في قُدْرة اللَّه تعالى[٣] إلا أنْ يقول لها: كُنْ، فلو اتَّفَقَ أنْ يقف على ذلك محصِّلٌ من البشر، لكانَتْ من السرعة بحَيْث يشكُّ، هل هي كَلَمْحِ البَصرِ أو هي أقْرَبُ، «ولمح البصر» هو وقوعه على المرئيِّ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٢٢) برقم: (٢١٨٠٦ ـ ٢١٨٠٧ ـ ٢١٨٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤١٠)، وابن كثير (٢/ ٥٧٨) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم ولعبد بن حميد.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٤١٠)، وابن كثير (٢/ ٥٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٦٢٤) برقم: (٢١٨١٦) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخَّرات في جو السماء. . .﴾ الآية: «الجوُّ مسافةُ ما بين السماءِ والأرض، وقيل: هو ما يلي الأرض منها، والآيةُ عِبْرةٌ بيِّنة المعنى، تفسيرها تكلف مَخت، و﴿يوم ظعنكم﴾ معناه رَحِيلكم، والأصواف: للضأنِ، والأوبار: للإبل، والأشعار: للمعز، ولم تكُنْ بلادهم بلادَ قُطْن وَكَّتانٍ، فلذلك اقتصَرَ على هذه، ويحتملُ أنَّ تَرْكَ ذكْر القُطْن والكَتَّانِ والحرير إعراضٌ عن السَّرَف، إذ ملْبَسُ عبادِ اللَّهِ الصالحينَ إنما هو الصُّوف، قال ابن العربيِّ في «أحكامه» عند قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيها دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥]: في هذه الآية دليلٌ على لبَاسِ الصُّوفِ، فهو أوَّل ذلك وأولاه، لأنه شِعارُ المتقين، ولباسُ الصالحين، وشَارَةُ الصَّحابة والتابعين، وٱختيارُ الزُّهَّاد والعارفين، وإليه نُسِبَ جماعةٌ من النَّاس «الصُّوفِيَّةُ»؛ لأنه لباسُهم في الغالِبَ انتهى.

٢٨٣ ب / «والأثاث» متاعُ البيْت، واحِدُها أثاثَة؛ هذا قول أبي زَيْد الأنْصارِيِّ[١] وقال غيره: «الأثاثُ»: جميع أنواعِ المالِ، ولا واحدَ له من لفظه.

قال * ع[٢] *: والاشتقاق[٣] يقوي هذا المعنى الأعمَّ؛ لأنَّ حالَ الإنسان تَكُونُ بالمال أثِيثَةً؛ كما تقول: شَعْرٌ أثِيثٌ، ونَبَاتٌ أَثِيثٌ، إذَا كَثُر وٱلْتفَّ، والـ ﴿سرابيل﴾: جميعُ ما يُلْبَسُ عَلَى جميع البدنِ، وذكر وقاية الحَرِّ، إذ هو أمسُّ بتلك البلادِ، والبَرْدُ فيها معدومٌ في الأكثر، وأيضاً: فذكر أحدهما يدلُّ على الآخر، وعن عمر رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يقولُ: مَنْ لَبِسَ ثوباً جَدِيداً، فَقَالَ: «الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوارِي به عَوْرَتي وأَتَجَمَّلُ بِهِ في حَيَاتي، ثُمَّ عَمَدَ إلى الثَّوْب الَّذِي خَلقَ، فَتَصَدَّقَ به ـ كَانَ في كَنَفِ اللَّهِ، وفي حفظِ اللَّه، وفي سَتْرِ اللَّهِ حَيًّا ومَيْتاً[٤]» رواه الترمذيُّ، واللفظُ له، وابنُ ماجه، والحاكمُ في «المستدرك»، وعن عائشة قالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اشْتَرى عَبْدٌ ثَوباً

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٤١٢).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤١٢).
(٣) الاشتقاق هو: نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة، وهو يقابل الجمود ويضاده، وقد اختلف النحاة في الأصل الذي يقع فيه الاشتقاق، وهو ينقسم إلى كبير وصغير. ينظر: «التعريفات» للجرجاني ص: (٣٧) و«معجم المصطلحات النحوية والصرفية» ص: (١١٦).
(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥٨) كتاب «الدعوات» باب: (١٠٨)، حديث (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٨) كتاب «اللباس» باب: ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً، حديث (٣٥٥٧)، والحاكم (١/ ٥٠٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٦٧) من حديث أبي أمامة.

بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ، فحمِدَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِلاَّ لَمْ يَبْلُغْ رُكْبَتَيْهِ حَتَّى يغفِرَ اللَّهُ لَهُ»[١] رواه الحاكمُ في «المستدرك» وقال: هذا الحديث لا أعلم في إسناده أحداً ذكر بجرح. انتهى من «السلاح». والسرابيل التي تقي البأس: هي الدروعُ ونحوها، ومنه قولُ كَعْبِ بنِ زهيرٍ في المهاجِرِينَ: [البسيط]

شُمُّ العَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الهَيْجَا سَرَابِيلُ[٢]

والبأس: مسُّ الحديدِ في الحَرْب، وقرأ الجمهور[٣] «تُسْلِمُونَ» وقرأ ابن عباس[٤]: «تَسْلَمُونَ»؛ من السَّلاَمة، فتكون اللفظة مخصوصةً في بأس الحرْب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ أي: شاهداً على كُفرهم وإيمانهم، ﴿ثم لا يؤذَنُ﴾، أي: لا يُؤذن لهم في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن، و﴿يستعتبون﴾ بمعنى: يُعْتِبُونَ؛ تقول: أَعْتَبْتُ الرَّجُلَ، إِذَا كَفَيْتَهُ ما عُتِبَ فيه؛ كما تقول: أَشْكَيْتُهُ؛ إذا كَفَيْتَهُ ما شكا.

وقال قومٌ: معناه: لا يُسْأَلُونَ أنْ يرجعوا عمَّا كانوا عَلَيه في الدنيا.

وقال الطبريُّ[٥]: معنى ﴿يستعتبون﴾ يُعْطَوْن الرجوعَ إلى الدنيا فتقع منهم توبةٌ وعَمَلٌ.

* ت *: وهذا هو الراجحُ، وهو الذي تدلُّ عليه الأحاديثُ، وظواهر الآياتِ في غيرِ ما موضع.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٠٧).

(٢) البيت في ديوانه (٢٣).
والعرانين: الأنوف، وتكون أطراف الأنوف، الواحد منها عرنين.
والشم: حدة في طرف الأنف مع تشمير.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤١٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٨).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤١٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٨)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٥٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٦٣٠).

وقوله سبحانه: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ أي: إذا رأَوْهم بأبصارِهِمْ ﴿قالوا ربَّنا هؤلاء شركاؤنا...﴾ الآية، كأنهم أرادوا بهذه المقالة تذنيبَ المَعْبُودين، وقوله سبحانه: ﴿فألقَوْا إليهم القول...﴾ الآية: الضميرُ في ﴿أَلْقَوْا﴾ للمعبودينَ؛ أنطقهم اللَّه بتكذيب المُشْركين، وقد قال سبحانه في آية أخرى: ﴿فزيلنا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] الآية، انظر تفسيرها في سورة يونس وغيرها.

وقوله: ﴿وألقوا إلى اللَّه يومئذ السَّلَم﴾ الضمير في ﴿ألقوا﴾ هنا عائدٌ على «المشركين»، و﴿السَّلَم﴾ الاستسلام.

وقوله تعالى: ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب...﴾ الآية: رُوِيَ في ذلك عن ابن مسعود، أنَّ اللَّه سبحانَهُ يسلِّط عليهم عَقَارِبَ وحَيَّاتٍ، لها أنيابٌ، كالنَّخْلِ الطِّوال[1]، وقال
١٢٨٤أ عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ: حَيَّات لها أنيابٌ كالنخلِ[2] ونحو/ هذا، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن لجهنَّمَ سواحِلَ، فيها هذه الحياتُ وهذه العقاربُ، فيفر الكافرون إلى السَّواحِلِ، فتلقاهم هذه الحيَّاتُ والعقاربُ فيفرُّونَ منها إلى النار، فتَتْبَعهم حَتَّى تجد حَرَّ النار، فترْجِع[3]. قال: وهي في أَسْرَابٍ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً﴾ يعني: رسولَها، ويجوز أن يبعَثَ اللَّه شهوداً من الصَّالحين مع الرسُلِ، وقد قال بعضُ الصحابة: إذا رأَيْت أحداً على معصية،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٣٢) برقم: (٢١٨٤٧ ـ ٢١٨٤٨ ـ ٢١٨٤٩)، وذكره البغوي (٣/ ٨١)، وابن عطية (٣/ ٤١٥)، وابن كثير (٢/ ٥٨١)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٣٩)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٦٣٢) برقم: (٢١٨٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤١٥)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٣٩)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٦٣٣) برقم: (٢١٨٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤١٥)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٤٠)، وعزاه لابن جرير.

فأنهه، فإن أطاعك، وإلاَّ كُنْتَ شاهداً عليه يَوْمَ القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى هذه الأمَّة.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن اللَّه يأمر بالعدل والإحسان. . .﴾ الآية: قال ابن مسعود رضي الله عنه: أجمعُ آية في كتاب اللَّهِ هذه الآية[١]، ورُوِيَ عن عثمانَ بْنِ مظعون رضي الله عنه، أنه قال: لما نزلَتْ هذه الآيةُ، قرأْتُها على أَبِي طَالب، فَعجبَ، وقالَ: يَا آلَ غَالِبٍ، اتَّبِعُوهُ تُفْلِحُوا فواللَّهِ، إنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ ليأمرَ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ[٢].

قال * ع[٣] *: و﴿العَدلُ﴾ فعلُ كلِّ مفروضٍ، و﴿الإحسان﴾ فعلُ كلِّ مندوب إليه، ﴿وإيتاءِ ذي القربى﴾: لفظٌ يقتضي صلة الرحِم، ويعم جميع إسداء الخَيْرِ إلى القرابة، و﴿الفحشاء﴾ الزنا؛ قاله ابن عبَّاس[٤] ويتناولَ اللفظُ سائر المعاصِي التي شِنْعَتُهَا ظاهرة، ﴿والمنكر﴾ أعمُّ منه؛ لأنه يعمُّ جميع المعاصى والرذائلِ، والإذاءات على اختلاف أنواعها، و﴿البغي﴾ هو إنشاء ظُلْم الإنسان، والسعاية فيه، و﴿كَفيلاً﴾ معناه: متكفِّلاً بوفائكم، وباقي الآية بيِّن.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالَّتي نقَضَتْ غزلَهَا. . .﴾ الآية: شَبَّهت هذه الآيةُ الذي يَحْلِفُ أو يعاهِدُ ويُبْرِمُ عَقْده، بالمرأة تغزِلُ غزلها وتفتِله مُحْكماً، ثم تنقُضُ قُوَى ذلك الغَزْلِ، فتحلُّه بعد إبرامه، و﴿أنكَاثاً﴾ نصبٌ على الحالِ، «والنَّكْث» النقْضُ، والعربُ تقولُ انْتَكَثَ الحَبْلُ، إذا انتقضَتْ قواه، و«الدَّخَلُ» الدَّغَل بعينه، وهو الذرائِعُ إلى الخدْع والغدر،

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٣٥) برقم: (٢١٨٦٨ ـ ٢١٨٦٩) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٨٢)، وابن عطية (٣/ ٤١٥)، وابن كثير (٢/ ٥٨٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤١)، وعزاه لسعيد بن منصور والبخاري، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٤١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤١)، وعزاه لابن النجار من طريق العكلي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤١٦).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٦٣٤) برقم: (٢١٨٦٥)، وذكره البغوي (٣/ ٨٢)، وابن عطية (٣/ ٤١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤١)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

وذلك أن المحلوفَ له مطمئنٌّ، فيتمكنُ الحالفُ مِنْ ضَرَره بما يريدُ.

وقوله سبحانه: ﴿أن تكون أُمَّةٌ هي أربى من أمة﴾ المعنى: لا تنقضوا الأيمان مِنْ أجْل أنْ تكونَ قبيلةٌ أَزيدَ من قبيلةٍ في العَدَد والعزَّة والقوَّة، و﴿يُبلوكم﴾ أي: يختبركم، والضميرُ في «به» يحتمل أنْ يعود على «الرِّبَا»، أي: أنَّ اللَّه ابتلى عباده بالربا، وطَلَبِ بعضهم الظُّهُورَ على بعضٍ، وٱختبرَهُمْ بذلك؛ ليرى مَنْ يجاهد بنفسِهِ، ممَّن يتَّبِعُ هواها، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم...﴾ الآية: «الدَّخَل»؛ كما تقدَّم: الغوائلُ والخدائعُ، وكرَّر مبالغةً، قال الثعلبيُّ: قال أبو عُبَيْدة: كلُّ أمْرٍ لم يكنْ صحيحاً فهو دَخَل انتهى.

وقوله: ﴿فتزلَّ قدم بعد ثبوتها﴾ استعارةٌ للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تشتروا بَعْهد اللَّه ثَمَناً قليلاً...﴾ الآية: هذه آية نهي عن الرُّشَا[1]، وأخْذِ الأموال، ثم أخبر تعالى أنَّ ما عنده مِنْ نعيم الجنَّة، ومواهب الآخرة خَيْرٌ
٢٨٤ب لمن اتقى وعَلِمَ وٱهتدى، ثم بيَّن سبحانه/ الفرق بين حال الدنيا، وحال الآخرة، بأنَّ هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان، أو ينقضي عَنْها، ومِنَنُ الآخرةِ باقيةٌ دائمةٌ، و﴿صبروا﴾ معناه عن الشهوات وعلىٰ مكاره الطاعاتِ، وهذه إشارةٌ إلى الصبر عن شَهْوَةِ كَسْب المال بالوجوهِ المكْرُوهة.

واختلف النَّاسُ في معنى «الحياة الطَّيِّبة» فقال ابن عباس: هو الرزقُ الحَلاَل[2] وقال

---

(١) «الرشوة»: هي بكسر الراء وضمها والجمع رِشا وقد أرشاه من باب عدا و«ارتشى» أخذ الرشوة و«استرشى» في حكم طلب الرشوة عليه، و«أرشاه» أعطاه الرشوة.
ينظر: «**تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية**» بتحقيقنا (٥/ ٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٦٤١) برقم: (٢١٨٩٣ ـ ٢١٨٩٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤١٩)، وذكره ابن كثير (٢/ ٥٨٥)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٤٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

الحسن وعلي بن أبي طالب: هي القناعة[١].

قال * ع[٢] *: والذي أقولُ به أنَّ طِيبَ الحياةِ اللازمَ للصالحين إنما هو بنَشَاطِ نفوسهم ونُبْلها وقُوَّة رَجَائِهم، والرَّجَاءُ للنَّفْس أمرٌ مُلِذٌّ، فبهذا تطيب حياتهم، وأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عَنْهم، فإن انْضَافَ إلى هذا مَالٌ حلالٌ، وصِحَّةٌ أو قناعةٌ، فذلك كمالٌ، وإلا فالطِّيبُ فيما ذكرناه رَاتِبٌ.

وقوله سبحانه: ﴿ولنجزينهم﴾ الآية: وعْدٌ بنعيم الجنَّة.

قال أبو حَيَّان: وروي عن نافع: «ولَيَجزِيَنَّهُمْ» بالياء؛ التفاتاً من ضمير المتكلِّم إلى ضمير الغَيْبة، وينبغي أنْ يكون على تقدير قَسَم ثانٍ لا معطوفاً على «فَلَنُحْيِيَنَّهُ»، فيكون مِنْ عطف جملةِ قَسَمِيَّة على جملةِ قَسَمِيَّة، وكلتاهما محذوفةٌ، وليس من عطفِ جوابٍ، لتغاير الإسناد. انتهى[٣].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله...﴾ الآية: التقدير فإذا أخذتَ في قراءة القُرآن، والاَستعاذةُ ندْب، وعن عطاء أنَّ التعُّوذ واجبٌ[٤]، ولفظ الاَستعاذة هو على رتبة هذه الآية، والرجيم: المرْجُوم باللَّعْنة، وهو إبليس ثم أخبر تعالى أنَّ إبليسَ ليس له مَلَكةٌ ولا رياسة، هذا ظاهرُ السُّلْطان عندي في هذه الآية، وذلك أن السلطان إنْ جعلناه الحجَّةَ، فَلَيْسَ لإبليس حجة في الدنيا على أحد لا على مؤمنٍ ولا على كافر، إلا أنْ يتأول متأوِّل: ليس له سلطانٌ يوم القيامة، فيستقيمُ أنْ يكون بمعنى الحُجَّة؛ لأن إبليس له حُجَّة على الكافرين؛ أنَّه دعاهم بغير دَلِيل، فاَستجابوا له من قِبَلِ أنفسهم، و﴿يتولونه﴾: معناه يجعلونه وليًّا، والضمير في «به» يحتملُ أن يعود على اَسْم اللَّه عزَّ وجلَّ، والظاهر أنه يعودُ على اسْمِ العدوِّ الشيطانِ، بمعنى مِنْ أجله، وبسببه، فكأنَه قال: والَّذِينَ هم بَسَببه مشركُونَ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٤٢) برقم: (٢١٩٠١ - ٢١٩٠٢)، وذكره البغوي (٣/ ٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤١٩)، وذكره ابن كثير (٢/ ٥٨٥).

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٤١٩).

(٣) ينظر: «**البحر**» لأبي حيان (٥/ ٥١٧).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٢٠) وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٤٥)، وعزاه لعبد الرزاق في «**المصنف**»، وابن المنذر.

باللَّه، وهذا الإخبار بأنْ لا سلطانَ للشيطانِ على المؤمنين بَعقِبِ الأمر بالاستعاذة - يقتضي أنَّ الاستعاذةَ تصرِفُ كيده، كأنها متضمِّنة للتوكُّل على اللَّه، والانقطاع إليه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذا بدَّلنا آية مكان آية﴾ يعني بهذا التبديل النَّسْخَ، ﴿قالوا إنما أنْتَ مفترٍ﴾: أي قال كفَّار مكَّةَ، و﴿رُوحُ القُدُسِ﴾: هو جبريلُ؛ بلا خلاف.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ قال ابن عباس: كان بمكَّة غلامٌ أعجميٌّ لبعض قريشٍ يقال له: «بلعام»، فكان النبيُّ ﷺ يُعلِّمه الإسلام، ويرُومُهُ عليه، فقال بعضُ الكفَّار هذا يُعلِّم محمَّداً، وقيل: اسمُ الغلام «جبر»، وقيل: يَسار، وقيل: يَعيش، والأعجميُّ هو الذي لا يتكلَّم بالعربية، وأما العَجَمِيُّ، فقد يتكلَّم بالعربيَّة، ونسبته قائمة(١).

وقوله: ﴿وهذا﴾ إشارة إلى القرآن والتقدير: وهذا سَرْدُ لسانٍ، أو نطقُ لِسانٍ.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

٢٨٥أ وقوله/ سبحانه: ﴿إنما يفترى الكذب﴾: بمعنى: إنما يكْذِبُ، وهذه مقاومةٌ للذين قالوا للنبيِّ ﷺ: ﴿إنما أنتَ مفتر﴾ [النحل: ١٠١]، ومَنْ في قوله ﴿منْ كَفَر﴾ بدلٌ مِنْ قوله: ﴿الكاذِبُونَ﴾، فروي: أن قوله سبحانه: ﴿وأولئك هم الكاذِبُون﴾ يراد به مِقْيَسُ بنُ ضَبَابَةَ وأشباهه ممَّن كان آمن، ثم ارتدَّ باختياره مِنْ غيرِ إكراه.

وقوله سبحانه: ﴿إلا من أُكْرِه﴾، أي: كبلالٍ وعمَّارِ بنِ يَاسِرٍ وأمِّهِ وخَبَّابٍ وصُهَيْبٍ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٤٨) برقم: (٢١٩٣٣) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٨٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٢١)، وذكره ابن كثير (٢/ ٥٨٥) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٧)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند ضعيف.

وأشباههم؛ ممَّن كان يُؤذَى في اللّه سبحانه، فربَّما سامَحَ بعضُهم بما أراد الكفَّارُ من القَوْل؛ لِمَا أصابه من تَعْذيبِ الكفرة، فيروى: أنَّ عَمَّار بْنَ ياسِرٍ فعَلَ ذلك[1]، فأستثناه الله في هذه الآية، وبقيَّة الرخْصَةِ عامَّة في الأمر بَعْده، ويروى أن عمَّار بنَ ياسِرٍ شكَا إلى النبيِّ ﷺ ما صُنعَ به مِنَ العذاب، وما سَامَحَ به من القولِ، فقال له النبيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ» قالَ: أَجِدُهُ مُطْمَئِناً بالإِيمَانِ، قَالَ: «فأَجِبْهُمْ بِلِسَانِكَ؛ فإِنَّهُ لا يَضُرُّكَ، وإِن عادُوا فَعُدْ»[2].

وقوله سبحانه: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ معناه: أنبسَطَ إلى الكفر بأختياره.

* ت *: وقد ذكر * ع[3] * هنا نَبذاً من مسائِلِ الإِكراه، تركْتُ ذلك خشية التطويل، وإِذ محلُّ بسطها كُتُبُ الفقْهِ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذلك بأنهم أستحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة...﴾ الآية: ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إِلى الغضب، والعَذاب الذي تُوُعِّدَ به قبل هذه الآية، والضمير في أنهَم لِمَنْ شرح بالكُفْرُ صدْراً.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم إِن ربك للذين هَاجَرُوا من بعد ما فُتِنُوا...﴾ الآية: قال ابنُ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٥١) برقم: (٢١٩٤٤ - ٢١٩٤٥ - ٢١٩٤٦)، وذكره البغوي (٣/ ٨٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٢٢ - ٤٢٣) بنحوه، وذكره ابن كثير (٢/ ٥٨٧) بنحوه، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٤٩)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أبي مالك بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري في **«تفسيره»** (٧/ ٦٥١) برقم: (٢١٩٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٧) من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار، عن أبيه به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٢٤٨)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في **«الدلائل»**.

(٣) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٢٤).

إسحاق: نزلَتْ هذه الآية في عَمَّار بنَ ياسِرِ، وعَيَّاشِ بن أبيَ رَبيَعَةَ، والوليدِ بنِ الوليد[١].

قال ✽ ع ✽: وذِكْرُ عَمَّارِ في هذا عندي غيْرُ قويم، فإِنَهُ أرفَعُ من طبقة هؤلاءِ، وإِنما هؤلاء مَنْ تَابَ ممَّن شرَحَ بالكُفْرِ صدراً، فتح اللّه له بابَ التوبة في آخر الآية[٢]، وقال عكرمةُ والحَسَن: نزلَتْ هذه الآية في شَأنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أبي سَرْحٍ وأشباهه[٣] فكأنه يقول: مِنْ بَعْدِ ما فَتَنَهم الشَّيطانُ، وهذه الآية مدنية بلا خلافٍ، وإن وجد، فهو ضعيفٌ، وقرأ[٤] الجمهور: «مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا»؛ مبنيًّا للمفعول، وقرأ ابن عامر وحْده: «مَنْ بَعْدِ ما فَتَنُوا» ـ بفتح الفاء والتاء أي فَتَنُوا أنفسهم، والضمير في ﴿بعدها﴾ عائدٌ على الفِتْنَةِ، أو على الفَعْلة، أو الهِجْرةِ، أو التوبة، والكلامُ يعطيها، وإن لم يَجْر لها ذِكْرٌ صريُحٌ.

وقوله: ﴿يوم تأتي كلُّ نفس﴾: المعنى لغفورٌ رحيمٌ يَومَ، «ونَفْس» **الأولى**: هي النفسُ المعروفةُ، **والثانية** هي بمعنى الذَّاتِ.

✽ ت ✽: قال المهدويُّ: يجوز أنْ ينتصب ﴿يَوْم﴾؛ على تقدير لغَفُورٌ رحيمٌ يَوْمَ، فلا يوقَفُ على ﴿رحيم﴾.

وقال ✽ ص ✽: ﴿يَوْمَ﴾ تأتي ظرفٌ منصوبٌ بـ ﴿رحيم﴾ أو مفعولٌ به بـ ﴿اذْكُرْ﴾ انتهى، وهذا الأخير أظهر، والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿وتوفى كلُّ نفس ما عملت﴾، أي: يجازى كلُّ منْ أحْسَن بإحسانه، وكلُّ من أساء بإساءته.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٥٤) برقم: (٢١٩٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٢٥)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٥١)، وعزاه لابن جرير، عن ابن إسحاق بنحوه.

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٤٢٥).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٦٥٤) برقم: (٢١٩٥٥) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٨٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٢٥)، وذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٢٥٠)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ويكون المعنى على قراءة ابن عامر: أنهم هَجروا أوطانَهم وقد عرفوا ما في ذلك من الشدة، فيكونون فتنوا أنفسهم.
ينظر: «**الحجة**» (٥/ ٧٩)، و«**معاني القراءات**» (٢/ ٨٣)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٣٦١)، و«**العنوان**» (١١٨)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٤٢٠)، و«**شرح شعلة**» (٤٦٠)، و«**حجة القراءات**» (٣٩٤)، و«**إتحاف**» (٢/ ١٩٠).

رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وضرب اللّه مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً...﴾ الآية: قال ابن عبَّاس: القرية؛ هنا مكَّة، والمراد الضمائر كلُّها في الآيةِ أهلُ القرية[1]، ويتوجَّه عنْدِي في الآيةُ أنها قُصِدَ بها قريةٌ غير معيَّنة جُعِلَتْ مثلاً لمكَّة، على معنى التحذير، لأهلها ولغيرها مِنَ القُرَى إلى يوم القيامة/ وهو الذي يُفْهَمُ من كلام حَفْصَةَ أمِّ المؤمنين، و«أنعُم» جمع ٢٨٥ ب نِعْمة.

وقوله سبحانه: ﴿فأذاقها اللّه لباسَ الجوعِ والخوفِ﴾ استعاراتٌ، أي: لما باشرهم ذلك، صار كاللِّباس، والضميرُ في ﴿جاءهم﴾ لأهل مكَّة، والرسولُ محمَّد ﷺ، و﴿العذابُ﴾: الجوعُ وأَمْرُ بَدْرٍ ونحو ذلك، إن كانت الآية مدنيةً، وإن كانَتْ مكِّية، فهو الجوع فقطْ.

وقوله سبحانه: ﴿فكلوا مما رزقكم اللّه حلالاً طيباً...﴾ الآية: هذا ابتداءُ كلامٍ آخر، أي: وأنتم أيها المؤمنون، لستُمْ كهذه القريةِ فكُلُوا واشكُروا اللّه على تباين حَالِكم، من حال الكَفرة، وقوله: ﴿حلالاً﴾ حالٌ، وقوله: ﴿طَيِّباً﴾: أي مستَلَذًّا؛ إذ فيه ظهورُ النعمةِ، ويحتمل أن يكون «الطَّيِّب» بمعنى الحلالِ، كُرِّر مبالغة وتأكيداً.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام...﴾ الأية: هذه الآية مخاطَبَةٌ للكفَّار الذينَ حرَّموا البحائر والسَّوائب، قال ابنُ العربيِّ[2] في «أحكامه» ومعنى الآية: لا تصفوا الأعيان بأنها حلالٌ أو حرامٌ مِنْ قِبَلِ أنفسكم، إنما المحرِّم والمحلِّل هو اللّه سبحانه، قال ابن وَهْب: قال مالكٌ لم يَكُنْ مِنْ فُتْيَا النَّاسِ أنْ يقال لَهُمْ: هَذَا حَلاَلٌ، وهذا حَرَامٌ، ولكنْ يقول: أنا أَكْرَهُ هذا، ولَمْ أَكُنْ لأصنَعَ هذا، فكان النَّاسُ

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٥٥) برقم: (٢١٩٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٢٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٨٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥١)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١١٨٣).

يطيعون ذلك، ويرضَوْنَه، ومعنى هذا: أنَّ التحليل والتحريمَ إنما هو للَّه؛ كما تقدم بيانه، فليس لأحدٍ أنْ يصرِّح بهذا في عَيْن من الأعيانِ إلا أنْ يكون الباري تعالى يخبر بذلك عَنْه، وما يؤدِّي إِليه الاجتهادُ أنه حرامٌ يقول فيه: إِني أكْرَهُ كذا، وكذلك كان مَالِكٌ يفعلُ، ٱقتداءً بمن تقدَّم من أهْلِ الفتوى انتهى.

وقوله: ﴿متاع قليل﴾ إشارةٌ إلى عيشهم في الدنيا، ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾ بعد ذلك في الآخرة، وقوله: ﴿ما قصصنا عليك من قبل﴾ إشارةٌ إِلى ما في «سورة الأنعام» من ذي الظُّفَر والشُّحُوم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم إِن ربك للذين عملوا السُّوء بجَهَالة ثم تابوا من بَعْدِ ذلك وأصلحوا إن ربك من بَعْدِها لغفور رحيم﴾ هذه آية تأنيسٍ لجميعِ العالم فهي تتناوَلُ كلَّ كافرٍ وعاصٍ تَابَ من سوءِ حالِهِ، قالتْ فرقة: «الجهالة»؛ هنا: العَمْد، والجهالة؛ عندي في هذا الموضع: ليست ضد العلم، بل هي تَعَدِّي الطَّوْر ورُكُوب الرأس. ومنه قوله ﷺ: «أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»[(١)] وقد تقدَّم بيان هذا، وقلَّما يوجَدُ في العصاة مَنْ لم يتقدَّم له علم بحَظْر المعصيةِ التي يُوَاقِع.

وقوله سبحانه: ﴿إِن إِبراهيم كان أمةً قانتاً للَّه...﴾ الآية: لما كَشَفَ اللَّه فعْلَ اليهودِ وتحكُّمهم في شرعهم بذكْر ما حرَّم عليهم ـ أراد أنْ يبيِّن بُعْدَهم عن شرْع إبراهيم عليه السلام، «والأمة»، في اللغة: لفظةٌ مشتركةٌ تقع لِلْحِينِ، وللجَمْع الكثير، وللرَّجُل المنفردِ بطريقةٍ وحده، وعلى هذا الوجه سُمِّي إِبراهيم عليه السلام أمة، قال مجاهد: سُمِّيَ إِبراهيم أمةً؛ لانفراده بالإِيمان في وقته مدَّةً مَّا[(٢)]، وفي البخاريِّ؛ أنه قال لِسَارَةَ: «لَيْسَ عَلَى الأرْضِ اليَوْمَ مؤمنٌ غيري وغَيْرُكِ»، وفي البخاريِّ قال ابنُ مسعودٍ: الأُمَّة معلِّمُ الخَيْرِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٦٦١) برقم: (٢١٩٨٠) بنحوه، وذكره البغوي (٨٩١٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

والقانِتُ[١]: المطيعُ الدائِمُ على العبادَةِ، والحَنِيف: المائلُ إلى الخير والصَّلاح.

/ وقوله سبحانه: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾، الآية «الحسنةُ»: لسَانُ الصدق، وإِمامته ٢٨٦ أ
لجميعِ الخَلْق؛ هذا قول جميع المفسِّرين، وذلك أنَّ كل أمةٍ متشرِّعة، فهي مقرَّة أنَّ إيمانها إيمان إبراهيم، وأنه قُدْوَتُها، وأنه كان على الصواب.

* ت *: وهذا كلامٌ فيه بعض إجمالٍ، وقد تقدَّم في غير هذا الموضعِ بيانه، فلا نطوّل بسَرْده.

وقوله سبحانه: ﴿أن اتبع ملة إبراهيم...﴾ الآية: الـ ﴿مِلَّة﴾: الطريقةُ في عَقَائِدِ الشَّرْعِ.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنما جعل السبت...﴾ الآية: أي: لم يكُنْ من ملَّة إبراهيم، وإنما جعل اللّه فرضاً عاقب به القَوْمَ المُخْتَلِفين فيه؛ قاله ابن زَيْد؛ وذلك أن موسى عليه السلام أَمَرَ بَنِي إسرائيل أنْ يجعلوا من الجمعة يوماً مختصًّا بالعبادة، وأمرهم أنْ يكون الجُمُعَة، فقال جمهورهم: بلْ يكون يَوْمَ السَّبْتِ؛ لأن اللّه تعالى فَرَغَ فيه من خَلْق مخلوقاته، وقال غيرهم: بَلْ نقبَلُ ما أَمَرَ به موسى، فراجَعَهم الجمهورُ، فتابعهم الآخرون، فألزمهم اللّهُ يَوْمَ السَّبتِ إلزاماً قويًّا، عقوبةً لهم، ثم لم يكُنْ منهم ثبوتٌ، بل عَصَوْا فيه، وتعدَّوْا فأهلكهم[٢]، وورد في الحديث الصحيح، أنَّ اليَهُودَ والنَّصارَى ٱختلفوا في اليوم الذي يختصُّ من الجمعة، فأخذ هؤلاء السبْتَ، وأَخَذَ هؤلاء الأحدَ، فهدانا اللّهَ نحْنُ إلى يوم الجمعةِ، قال ﷺ: «فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي ٱخْتَلَفوا فِيهِ»[٣] فَلَيْسَ الاختلافُ المذكورُ في الآية هو الاختلافَ في هذا الحديث.

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٦٥) برقم: (٢١٩٧١)، وذكره البغوي (٣/ ٨٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٣)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم صححه.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٣١).

(٣) سيأتي تخريجه.

* ت *: يعني أنَّ الاختلاف المذكورَ في الآيةِ هو بَيْنَ اليهود فيما بينهم، والاختلاف المذكور في الحديثِ الصحيحِ هو فيما بَيْنَ اليهودِ والنصارى.

وقوله سبحانه: ﴿ادعُ إِلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ هذه الآيةُ نزلَتْ بمكَّة، أمر عليه السلام أنْ يدعو إِلى دينِ اللَّه وشَرْعِهِ بتلطُّف، وهكذا ينبغي أنْ يوعظَ المسلمون إِلى يوم القيامة.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإِن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به...﴾ الآية: أطبق أهل التفسير أنَّ هذه الآية مدنيَّة، نزلَتْ في شأن التمثيل بَحَمْزة وغيره في يَوْم أُحُدٍ، ووقع ذلك في «صحيحِ البخاريِّ» وغيره، وقال النبيُّ ﷺ: «لَئِنْ أَظْفَرَنِي اللَّهُ بِهِمْ لأُمَثِّلَنَّ بِثَلاَثِينَ»[1] كتاب «النحَّاس» وغيره: «بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ»، فقال الناس: إِنْ ظفرنا، لنفعلَنَّ ولنفعَلنَّ، فنزلَتْ هذه الآية، ثم عزم على النبيِّ ﷺ في الصَّبْر عن المجازاة بالتمثيل في القتلى، ويروى أنه عليه السلام قَالَ لأصحابه: «أَمَّا أنا فَأَصْبِرُ كَمَا أُمِرْتُ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟ فَقَالُوا: نَصْبِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كما نُدِبْنَا!!!».

وقوله: ﴿وما صبرك إلا باللَّه﴾ أي بمعونة اللَّهِ وتأييده على ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ قيل: الضمير في قوله: ﴿عليهم﴾ يعودُ على الكُفار، أي: لا تتأسَّف على أنْ لم يُسْلِمُوا، وقالتْ فرقة: بل يعودُ على القَتْلى حمزة وأصحابه الذين حَزِنَ عليهم ﷺ والأولُ أصوبُ. ﴿ولا تك في ضَيْقٍ مما يمكرون﴾ قرأ الجمهور[2]: «في ضَيْقٍ» ـ بفتح الضاد ـ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، وهما لغتان.

﴿إِن اللَّه مع الذين اتقوا﴾: أي بالنصرِ والمعونةِ، و﴿اتقوا﴾ يريدُ المعاصِيَ، و﴿محسنون﴾ هم الذين يتزيَّدون فيما نُدِبَ إِليه من فِعْلِ الخَيْرِ/ وصلَّى اللَّهُ على سَيِّدنا ٢٨٦ ب
محمدٍ وآله وصَحْبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) بهذا اللفظ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، وعزاه لابن أبي إسحاق، وابن جرير.

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٧٦)، و«الحجة» (٥/ ٨٠)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٦١)، و«معاني القراءات» (٢/ ٨٤)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٤٢٠)، و«شرح شعلة» (٤٦٠)، و«العنوان» (١١٨)، و«حجة القراءات» (٣٩٥) و«إتحاف» (٢/ ١٩١).

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكِّيَّةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ، قال ابن مسعود: في «بني إسرائيل»، و «الكهف»: إنها من العتاق الأولِ، وهنَّ من تِلادِي، يريد أنَّهنَّ من قديم كسبه[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾: جل العلماء على أن الإسراء كان بشَخْصه ﷺ، وأنه ركِب البُرَاق من مكّة، ووصل إلى بيت المقدس، وصلَّى فيه، وقالتْ عائشة ومعاوية: إنما أُسْرِي بِرُوحه[٢]، والصحيحُ ما ذهب إليه الجمهورُ، ولو كانتْ منامةً، ما أمكن قريشاً التشنيعُ، ولا فُضِّل أبو بكر بالتصديق، ولا قالَتْ له أمُّ هانىء: لا تحدِّث الناس بهذا، فيكذِّبوك، إلى غير هذا من الدلائل، وأما قول عائشة فإنها كانت صغيرة، ولا حدثَتْ عن النبيِّ ﷺ، وكذلك معاوية.

قال ابن[٣] العربيِّ: قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ قال علماؤنا: لو كان للنبيِّ ﷺ اسْمٌ هو أشرَفُ منه، لسماه الله تعالى به في تلك الحَالةِ العَلِيَّة، وقد قال الأستاذ جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هَوَازِنَ: لما رَفَعه الله إلى حضرته السَّنِيَّةِ وأرقاه فوق الكواكِب العُلْوِيَّة؛ ألزمه اسم العبوديَّة، تواضُعاً وإجلالاً للألوهية. انتهى من «**الأحكام**».

و﴿سبحان﴾ مصدر معناه: تنزيهاً لله، وروى طلحة بن عبيد الله الفَيَّاض أحد العَشَرة، أنه قال للنبيِّ ﷺ: ما معنى سبحان الله؟ قال: تَنْزِيهُ الله مِنْ كُلِّ سوء[٤]، وكان

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٤٣٤).
(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٦) برقم: (٢٢٠٣٣)، وذكره البغوي، وابن عطية (٣/ ٤٣٤).
(٣) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١١٩٢).
(٤) ذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١٠/ ٩٧ ـ ٩٨). وقال: رواه البزار وفيه عبد الرحمٰن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا، وغيره.

الإسراء فيما قال مقاتلٌ وقتادةُ: قبل الهجرة بعام[١]، وقيل: بعام ونصفٍ، والمتحقِّق أن ذلك كان بَعْدَ شَقِّ الصحيفة، وقبل بيعة العقبة، ووقع في «الصحيحين» لشَرِيك بن أبي نَمِرٍ، وَهْمٌ في هذا المعنى؛ فإنه روى حديثَ الإسراء، فقال فيه: وذلك قبل أنْ يوحى إليه، ولا خلاف بين المحدِّثين؛ أن هذا وَهْم من شريك.

قال * ص *: ﴿أسرى بعبده﴾ بمعنى: سَرَى، وليست همزتُهُ للتعدية، بل كـ«سَقَى وَأَسْقَى»، والباء للتعدية، و﴿لَيْلاً﴾ ظرفٌ للتأكيد؛ لأن السُّرَى لا يكون لغةً إلا بليلٍ، وقيل: يعني به في جوف الليل، فلم يكن إدْلاجاً ولا ادِّلاَجاً انتهى.

و﴿المسجد الأقصى﴾: بيت المقدس، «والأقصى» البعيدُ، والبركة حولَهُ منْ وجهين:

أحدهما: النبوَّة والشرائعُ والرسُل الذين كانوا في ذَلِكَ القُطْر، وفي نواحيه.

والآخر: النِّعَم من الأشجار والمياه والأرض المفيدة.

وقوله سبحانه: ﴿لنريه﴾ يريد لنري محمَّداً بعينه آياتنا في السموات والملائكة والجَنَّةَ والسِّدْرَةَ وغير ذلك من العجائبِ، مما رآه تلك الليلة، ولا خلاف أنَّ في هذا الإسراء فُرِضَت الصلواتُ الخمسُ على هذه الأمة.

٢٨٧ أ وقوله سبحانه: ﴿إنه هو/ السميع البصير﴾ وعيد للمكذِّبين بأمر الإسراء، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

﴿وآتينا موسى الكتاب﴾، أي: التوراة.

وقوله: ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلاً...﴾ الآية: التقديرُ: فعلنا ذلك؛ لَئِلاَّ تتخذوا يا ذرية فـ ﴿ذُرِّيَّة﴾: منصوبٌ على النداء، وهذه مخاطبة للعالَم، ويتجه نصبُ (ذرِّيَّة) على أنه مفعول بـ«تتخذوا»، ويكون المعنى ألاَّ يتخذوا بشراً إلاهاً من دون اللَّه، و قرأ أبو عمرو[٢]

---

(١) ذكره البغوي (٣/ ٩٢)، وابن عطية (٣/ ٤٣٥)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٢) وحجته أن الفعل قرب من الخبر عن بني إسرائيل، فجعل الفعل مسنداً إليهم، والمعنى حينئذ: جعلناه هدى لبني إسرائيل، لئلا يتخذوا من دوني وكيلاً.
=

وحده: «أَلاَّ يَتَّخِذُوا» بالياء، على لفظ الغائب، «والوكيل»؛ هنا من التوكيل، أي: متوكَّلاً عليه في الأمور، فهو ندٌّ للَّه بهذا الوجه، وقال مجاهد: ﴿وكيلاً﴾: شريكاً[١]، ووصف نوح بالشُّكْر؛ لأنه كان يحمد اللَّه في كل حالٍ، وعلى كل نعمةٍ من المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ﷺ، قاله سلمانُ الفارسيُّ وغيره[٢]، وقال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا ابنُ أبي ذئبٍ عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ عن أبيه عن عبد الله بن سَلاَمٍ: أن موسى عليه السلام قال: يا ربِّ، ما الشكْرُ الذي ينبغي لَكَ؟ قَالَ: يَا مُوسَى لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِي[٣]، انتهى، وقد رُوِّيناه مسنداً عن النبيِّ ﷺ أعني قوله: «لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللَّه»[٤].

وقوله سبحانَهُ: ﴿وقضينا إِلى بني إِسرائيل...﴾ الآية: قالَتْ فرقة: ﴿قضينا﴾ معناه: في أم الكتاب.

قال * ع[٥] *: وإنما يُلْبِسُ في هذا المكان تعديةُ ﴿قضينا﴾ بـ«إلى»، وتلخيصُ المعنى عندي: أنَّ هذا الأمر هو مما قضاه اللَّه عزَّ وجلَّ في أمِّ الكتاب على بني إسرائيل،

= ينظر: «السبعة» (٣٧٨)، و«الحجة» (٥/ ٨٣)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٦٣)، و«معاني القراءات» (٢/ ٨٧)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٤٢٢)، و«العنوان» (١١٩)، و«شرح شعلة» (٤٦١)، و«حجة القراءات» (٣٩٦)، و«إتحاف» (٢/ ١٩٣).

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٧) برقم: (٢٢٠٣٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٩٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٩) برقم: (٢٢٠٤٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٩٤)، وعزاه للفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٣٠) رقم: (٩٤٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٨) كتاب «الدعوات» باب: ما جاء في فضل الذكر حديث (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٦) كتاب «الأدب» باب: فضل الذكر، حديث (٣٧٩٣)، وابن أبي شيبة(١٠/ ٣٠١) رقم: (٥٩٠٢)، وأحمد (٤/ ١٩٠)، وفي «الزهد» ص: (٣٥)، والحاكم (١/ ٤٩٥)، وابن حبان (٢٣١٧ - موارد)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٥١)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٢٨) رقم: (٩٣٥)، والبيهقي (٣/ ٣٧١) كتاب «الجنائز» باب: طوبى لحسن طال عمره وحسن عمله، كلهم من طريق عمرو بن قيس الكندي، عن عبد اللَّه بن بسر قال: جاء أعرابيان إلى النبي ﷺ فقال أحدهما: يا رسول اللَّه أخبرني بأمر أتشبث به، قال: فذكر الحديث.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٣٧).

وألزمهم إياه، ثم أخبرهم به في التَّوْرَاة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرَيْنِ جميعاً في إيجازٍ، جعل ﴿قضينا﴾ دالَّة على النفوذ في أم الكتاب، وقَرَن بها «إلى» دالَّةً على إنزال الخير بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصودُ مفهومٌ خلالَ هذه الألفاظ، ولهذا فسر ابنُ عباس مرةً بأنْ قال: ﴿قضينا إلى بني إسرائيل﴾، معناه: أعلمناهم[(١)]، وقال مرَّةً: «قضينا عليهم[(٢)]»، و﴿الكتابُ﴾ هنا؛ التوراةُ لأن القَسَم في قوله: ﴿لتفسدن﴾ غير متوجِّه مع أنْ نجعل ﴿الكتابَ﴾ هو اللوح المحفوظ.

وقال * ص *: و﴿قضينا﴾: مضمَّنٌ معنى «أَوْحَيْنَا»؛ ولذلك تعدَّى بـ«إلى»، وأصله أنْ يتعدَّى بنفسه إلى مفعولٍ واحدٍ؛ كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسى الأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] انتهى، وهو حسنٌ موافق لكلام * ع *، وقوله «ولتعلُنَّ» أي: لتتجبَّرُنَّ، وتطلبون في الأرض العُلوَّ، ومقتضى الآيات أن اللّه سبحانه أَعْلَمَ بني إسرائيل في التوراة، أنه سيقع منهم عصيانٌ وكفرٌ لِنِعم اللّه، وأنه سيرسل عليهم أمةً تغلبهم وتذلُّهم، ثم يرحمهم بعد ذلك، ويجعل لهم الكَرَّةَ ويردُّهم إلى حالهم من الظهور، ثم تقع منهم أيضاً تلك المعاصِي والقبائِحَ، فيبعث اللّه تعالى عليهم أمةً أخرى تخرِّب ديارهم، وتقتلُهم، وتجليهم جلاءً، مبرِّحاً، وأعطى الوجودَ بعد ذلك هذا الأمْرَ كلَّه، قيل: كان بين المرتَيْنِ مِائَتَا سنةٍ، وعَشْرُ سنينَ مُلْكاً مؤيَّداً بأنبياء، وقيل: سبعون سنة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

٢٨٧ ب وقوله سبحانه: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ الضمير في قوله: ﴿أولاهما﴾ عائدٌ/ على قوله ﴿مرتين﴾، وعبَّر عن الشر بـ«الوعد»؛ لأنه قد صرَّح بذكْرِ المعاقبة.

قال * ص *: ﴿وعد أولاهما﴾، أي: موعود، وهو العقاب، لأن الوعد سبق

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠) برقم: (٢٢٠٥١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٩٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠) برقم: (٢٢٠٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٩٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما.

بذلك، وقيلَ: هو على حذف مضاف، أي وعد عقاب أولاهما. انتهى، وهو معنى ما تقدَّم

واختلف الناس في العبيد المبعوثِينَ، وفي صورة الحال ٱختلافاً شديداً متباعِداً، عيونُهُ أنَّ بني إسرائيل عَصَوْا وقتلوا زكريَّاء عليه السلام، فغزاهُمْ سِنْجارِيبُ مَلِك بابل، قاله ابن إسحاق وابن جُبَير(١).

وقال ابن عباس: غزاهُمْ جالوتُ من أهْل الجزيرة(٢)، وقيل: غزاهم بُخْتَ نَصَّرَ، وروي أنه دخل قَبْلُ في جيش من الفرس، وهو خامل يسير في مَطْبَخ الملك، فاطَّلع مِنْ جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفُرْسُ، فَلَمَّا انصرف الجيشُ، ذكر ذلك للملك الأعظَمِ، فلما كان بعد مدَّة، جعله الملك رئيسَ جيشٍ، وبعثه فخرَّب بيت المقدس، وقتلهم، وأجلاهم، ثم انصرَفَ، فوجد المَلِكَ قد ماتَ، فَمَلَكَ موضعه، وٱستمرَّتْ حاله حتى ملك الأرْضَ بعد ذلك، وقالت فرقة: إنما غزاهم بُخْتَ نَصَّرَ في المرَّة الأخيرة حين عَصَوْا وقتلوا يحيى بن زَكَرِيَّاءَ، وصورة قتله: أن الملك أراد أنْ يتزوج بِنْتَ امرأته، فنهاه يحيى عَنها، فعزَّ ذلك على امرأته، فزَّينت بنْتَها، وجعلَتها تسقي المَلِك الخمر، وقالت لها: إذا راوَدَكَ عن نفسك، فتمنَّعي حَتَّى يعطيَكِ المَلِكُ ما تَتَمَنَّيْنَ، فإذا قال لك: تَمنَّي عَلَيَّ ما أردتِّ، فقولي: رأسَ يحيى بن زكرياء، ففعلَتِ الجارية ذلك، فردَّها الملك مرَّتَيْنِ، وأجابها في الثالثة، فجيء بالرأسِ في طَسْتٍ، ولسانُهُ يتكلَّم، وهو يقول: لا تحلُّ لك، وجرى دمُ يحيى، فلم ينقطعْ، فجعل الملك عليه التُرابَ، حتى ساوى سور المدينةِ، والدمُ ينبعث، فلما غزاهم المَلِكُ الذي بُعِثَ عليهم بحسب الخِلاَفِ الذي فيه، قَتَلَ منهم على الدمِ سبعين ألْفاً حتى سكَنَ، هذا مقتضى خبرهم، وفي بعض الروايات زيادة ونقصٌ، وقرأَ الناس: «فَجَاسُوا»، وقرأ أبو السَّمَّال(٣): بالحاء، وهما بمعنى الغلبةِ والدخولِ قهراً، وقال مُؤَرِّجٌ: جَاسُوا خِلاَلَ الأزِقَّة.

* ت * قال * ص *: ﴿جاسوا﴾ مضارعُه يَجُوسُ، ومصدره جَوْسٌ وجَوَسَانٌ،

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٧) برقم: (٢٢٠٦٨)، وذكره البغوي (٣/ ١٠٦)، وابن عطية (٣/ ٤٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٢٧) برقم: (٢٢٠٦٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥).

(٣) ينظر: «المحتسب» (٢/ ١٥)، وقرأ بها طلحة كما في «الكشاف» (٢/ ٦٤٩)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٣٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٧٢)، ووقع في «مختصر الشواذ» ص: (٧٨)، نسبتها إلى أبي السمال بالحاء والشين «فحاشوا».

ومعناه: التردُّد، ﴿وخلال﴾ ظرف، أي: وسط الديار انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم...﴾ الآية عبارة عما قاله سبحانه لبني إسرائيل في التوراة، وجعل «رددنا» موضع «نَرُدُّ»، لما كان وعد اللّه في غاية الثِّقَة، وأنه واقع لا محالة، فعبَّر عن المستقبل بالماضي، وهذه الكرة هي بعد الجولة الأولى، كما وصفْنا، فغَلَبَتْ بنو إسرائيل على بيت المقدس، وملَكُوا فيه، وحَسُنت حالهم بُرْهةً من الدهرِ، وأعطاهم اللّه الأموالَ والأولادَ وجعلَهم إذا نفروا إلى أمْرِ أكثر النَّاس، فلما قال اللّه: إني سأفعل بُكم هكذا، عقَّب بوصيَّتهم في قوله: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم...﴾ الآية، المعنى: إنكم بعملكم تُجَازَوْنَ، و﴿وعد الآخرة﴾ معناه: من المرَّتَيْن.

١٢٨٨أ / وقوله: ﴿ليسوءوا﴾ اللام لام أمْرٍ، وقيل: المعنى: بعثناهم، ليسوؤوا وليدخلوا، فهي لام كَيٍ كلِّها، والضمير للعباد أُولي البأس الشديد، و﴿المسجد﴾ مسجد بيت المقدس، «وتَبَّر» معناه: أفسد بغشمٍ وركوب رأس.

وقوله: ﴿ما علوا﴾، أي: ما علوا عليه من الأقطار، وملكوه من البلاد، وقيل: «ما» ظرفية، والمعنى مدة علوهم وغلبتهم على البلاد.

وقوله سبحانه: ﴿عسى ربكم أنْ يرحمكم...﴾ الآية: يقول اللّه عزَّ وجلَّ لبقية بني إسرائيل: عسى ربكم إن أطعتم في أنفسكم واستقمتُم أنْ يرحمكم، وهذه العِدَةُ ليست برجوعِ دولةٍ، وإنما هي بأنْ يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة اتِّبَاعهم لعيسى ومحمَّد عليهما السلام، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقابُ اللّه عليهم بِضَرْبِ الذِّلة عليهم، وقتلِهِمْ وإذلالِهِمْ بِيَدِ كلِّ أمة، و«الحصير»: من الحَصْر بمعنى السَّجْن، وبنحو هذا فسَّره مجاهد وغيره[1]، وقال الحسن: «الحصير» في الآية: أراد به ما يفترشُ ويُبْسَطُ؛ كالحصير المعروف عند الناس[2].

قال * ع[3] *: وذلك الحصيرُ أيضاً هو مأخوذ من الحَصْر.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٤٢) برقم: (٢٢١٠٦)، ذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٢) برقم: (٢٢١٠٩)، وذكره البغوي (٣/ ١٠٧)، وابن عطية (٣/ ٤٤٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٠)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٠).

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...﴾ الآية: ﴿يهدي﴾، في هذه الآية بمعنى يرشدُ، ويتوجَّه فيها أن تكون بمعنى «يدعو» و «التي» يريد بها الحالَةَ والطريقةَ، وقالتْ فرقة: «التي هي أقوم»: لا إله إلا اللَّه، والأول أعمُّ، «والأجر الكبير» الجنة؛ وكذلك حيثُ وقع في كتاب اللَّه فضل كبير، وأجرٌ كبيرٌ، فهو الجنة، قال البَاجِيُّ قال ابنُ وَهْبٍ: سمعتُ مالكاً يقول: إن آستطعتَ أن تجعل القرآن إماماً، فافعلْ، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجَنَّة. قال أبو سليمان الداراني: ربَّما أقَمْتُ في الآية الواحدةِ خَمْسَ ليالٍ، ولولا أني أدَعُ التفكُّر فيها، ما جزتها، وقال: إنما يُؤتَى على أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة، أراد آخرها. قال الباجيُّ. وروى ابن لبابة عن العتبي عن سُحْنُون؛ أنه رأى عبد الرحمٰن بن القاسم في النوم، فقال له: ما فعلَ اللَّهُ بك؟ قال: وَجَدتُ عنده ما أَحْبَبْتُ! قال له: فأي أعمالِكَ وَجدتَّ أفضلَ؟ قال: تلاوة القرآن، قال: قلتُ له: فالمسائلُ، فكان يشير بأصبعه؛ كأنه يلشيها، فكنت أسأله عن ابن وَهْب، فيقول لي: هو في عِلِّيِّينَ. انتهى من «**سنن الصالحين**».

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾: سقطت الواوُ من ﴿يَدْعُ﴾ في خطِّ المصحف[1].

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: هذه الآية نزلَتْ ذامَّة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم في وقت الغَضَبَ والضَّجَر، فأخبر سبحانه أنهم يدْعُون بالشرِّ في ذلك الوقتِ، كما يدعون بالخير في وقت التثبُّت، فلو أجاب اللَّه دعاءهم، أهلكهم، لكنَّه سبحانه يصفَحُ ولا يجيبُ دعاء الضَّجر المستعجل[2]، ثم عَذَرَ سبحانه بعض العُذْرَ في أن الإنسان له عَجَلة

---

(١) قال الشيخ البنا: «واتفقوا على كتابة «ويدعُ الإنسانُ» بحذف الواو». ينظر: «**إتحاف فضلاء البشر**» (٢/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٤) برقم: (٢٢١١٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤١)، وابن كثير في «**تفسيره**» (٣/ ٢٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٣٠١)، وعزاه لابن جرير.

٢٨٨ب فطرية، ﴿والإنسان﴾ هنا: يراد به/ الجنس؛ قاله مجاهد وغيره[1].

وقال ابن عباس وسليمان: الإشارة إلى آدم لما نفخ الرُّوح في رأسه، عَطَس وأبصر، فلما مشى الرُّوح في بدنه قبل ساقيه، أعجبته نفسه، فذهب ليمشي مستعجلاً لذلك[2]، فلم يقدر، والمعنى؛ على هذا فأنتم ذَوُوا عجَلةٍ موروثةٍ من أبيكم، وقالت فرقة: معنى الآية: معاتبة الناس في دعائهم بالشرِّ مكانَ ما يجبُ أنْ يدعوه بالخير.

* ت *: قول هذه الفرقة نقله * ع *[3] غير ملخَّص، فأنا لخَّصته.

وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين...﴾ الآية هنا العلامةُ المنْصُوبة للنَّظَر والعِبْرة.

وقوله سبحانه: ﴿فمحونا آية الليل﴾ قالتْ فيه فرقة: سببُ تعقيب الفاء أن اللَّه تعالى خَلَق الشمْسَ والقَمَر مضيئَيْنِ، فمحا بعد ذلك القَمَرَ، محاه جبريلُ بجناحه ثلاثَ مرَّات، فمِنْ هنالك كَلَفُهُ، وقالت فرقة: إن قوله: ﴿فمحونا آية الليل﴾ إنما يريدُ في أصْلِ خلقته، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾، أي: يُبْصَرُ بها ومعها، ليبتغي الناس الرزْقَ وَفَضْلَ اللَّهِ، وجعَلَ سبحانه القمَرَ مخالفاً لحالِ الشمْسِ؛ ليعلم به العدَدُ من السنينَ والحسابُ للأشهرِ والأيامِ، ومعرفةُ ذلك في الشرْعِ إنما هو من جهة القمرِ، لا من جهة الشمس، وحكى عياضٌ في «المدارك» في ترجمة الغازي بن قَيْس قال: روي عن الغازي بن قَيْس؛ أنه كان يقول: ما مِنْ يوم يأتي إلاَّ ويقولُ: أَنَا خَلْقٌ جَدِيد، وعَلَى مَا يُفْعَلُ فيَّ شَهِيد، فَخُذُوا مِنِّي قَبْلَ أنْ أَبِيد، فإذاً أمْسى ذلك اليومُ، خَرَّ للَّهِ ساجِداً، وقال: الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي الْيَوم العَقِيم. انتهى. «والتفصيل» البيان.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره﴾ قال ابن عباس: ﴿طائره﴾ ما قُدِّر له

(١) ذكره الطبري (٨/ ٤٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤١).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٥) برقم: (٢٢١١٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن عساكر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤١).

وعليه[١]، وخاطب اللّه العربَ في هذه الآية بما تَعْرِف، وذلك أنه كان مِنْ عادتها التيمُّنُ والتشاؤم بالطَّيْر في كونها سانحةً وبارحةً، وكَثُر ذلك حتَّى فعلته بالظِّباء وحيوانِ الفَلاَ، وسمَّت ذلك كلَّه تَطَيُّراً، وكانتْ تعتقدُ أنَّ تلك الطِّيَرَةَ قاضية بما يلقى الإنسان من خيرٍ وشرٍّ، فأخبرهم اللّه تعالى في هذه الآية بأوجز لفظٍ، وأبلغ إشارةٍ، أن جميع ما يلقى الإنسانُ من خير وشر قد سَبَقَ به القضاء، وألزم حظه وعمله وتكسُّبه في عنقه، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾، فعَبر عن الحظِّ والعمل؛ إذ هما متلازمانِ، بالطائر؛ قاله مجاهد وقتادة[٢]، بحسب معتقد العرب في التطيُّرِ، ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾: هذا الكتابُ هو عمل الإنسان وخطيئاته، ﴿اقرأ كتابك﴾ أي: يقال له: اقرأ كتابك، وأسند الطبريُّ عن الحسن، أنه قال: يا ابْنَ آدم بُسِطَتْ لك صحيفةٌ، ووُكلَ بك مَلَكَانِ كريمانِ؛ أحدهما عن يمينِكَ يكتُبُ حسناتِكَ، والآخر عن شمالِكَ يحفظُ سيئاتكَ، فأمْلِلْ ما شئْتَ وأقلِلْ أو أكثِر حتَّى إذا مُتَّ طُوِيَتْ صحيفتُكَ فجعلَتْ في عنقك معَكَ في قَبْرك حتى تَخْرُجَ لك/ يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿اقْرأ كتابكَ كَفَى بنفسكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ ٢٨٩أ
حسيباً﴾ قد عَدَلَ واللّه فيكَ، مَنْ جعلك حسيبَ نَفْسِك[٣].

قال * ع *[٤] فعلى هذه الألفاظِ التي ذكر الحسنُ يكون الطائرُ ما يتحصَّل مع ابْنِ آدم من عمله في قَبْره، فتأمَّل لفظه، وهذا قول ابن عباس[٥]، وقال قتادة في قوله: اقرأ كتابك: إنه سيقرأ يومئذ من لم يكُنْ يقرأ[٦].

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٤٧) برقم: (٢٢١٣٣)، وذكره البغوي (٣/ ١٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٧) برقم: (٢٢١٣٣)، وذكره البغوي (٣/ ١٠٨)، وابن عطية (٣/ ٤٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٣)، وعزاه لأبي داود في كتاب «القدر»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره البغوي (٣/ ١٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٣)، وذكره ابن كثير (٣/ ٢٨) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ((٣/ ٣٠٤)، وعزاه لابن جرير.
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٣).
(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٤٩) برقم: (٢٢١٤١)، وذكره البغوي (٣/ ١٠٨)، وابن عطية (٣/ ٤٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٤)، وعزاه لابن جرير.
(٦) أخرجه الطبري (٨/ ٥٠) برقم: (٢٢١٤٥)، وذكره البغوي (٣/ ١٠٨)، وابن عطية (٣/ ٤٤٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذا أردنا أنْ نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾ قرأ الجمهور[١]: «أَمَرْنَا»؛ على صيغة الماضي، وعن نافع وابن كثير، في بعض ما رُوِيَ عنهما: «آمَرْنَا» بمد الهمزة؛ بمعنى كَثَّرنا، وقرأ أبو عمرو بخلاف عنه: «أَمَّرْنَا» بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان النَّهْديِّ، وأبي العاليةِ وابن عبَّاسٍ، ورُوِيَتْ عن علي، قال الطبري[٢] القراءة الأولى معناها: أمرناهم بالطَّاعة، فعصَوْا وفَسَقُوا فيها، وهو قولُ ابن عباس[٣] وابنِ جبير، والثانية: معناها: كَثَّرناهم، والثالثة: هي من الإِمارَةِ، أي ملَّكناهم على الناس، قال الثعلبي: واختار أبو عُبَيْد وأبو حاتم قراءة الجمهور، قال أبو عُبَيْد: وإنما اخترْتُ هذه القراءة، لأنَّ المعاني الثلاثةَ مجتمعةٌ فيها، وهي معنى الأَمْرِ والإِمارة والكثرة انتهى.

* ت *: وعبارة ابن العربي[٤]: ﴿أَمَرْنَا مترفيها﴾ يعني بالطاعة، ففسقوا بالمخالَفَة انتهى من كلامه على الأفعال الواقعة في القرآن، «والمترف»: الغنيُّ من المالِ المتنعِّم، والتُّرْفَةُ: النِّعمة، وفي مُصْحف أُبيٍّ بن كعب: «قَرْيَةً بَعَثْنَا أكابِرَ مُجْرِمِيها فَمَكَرُوا فيها».

وقوله سبحانه: ﴿فحق عليها القول﴾، أي: وعيدُ اللّه لها الذي قاله رسولهم، «والتدميرُ» الإِهلاك مع طَمْس الآثار وهَدْمِ البناء.

﴿وكم أهلكنا من القرون...﴾ الآية: مثال لقريشٍ ووعيدٌ لهم، أي: لستم ببعيد مما حصلوا فيه إِن كذبتم، واختلف في القرن، وقد روى محمَّد بن القاسم في خَتَنِهِ[٥] عَبْد اللّه بن بُسْر، قال: وضع رسُولُ اللّه ﷺ يَدَهُ على رأسه، وقال: «سَيَعِيشُ هَذَا الغُلاَمُ قَرْناً»

---

(١) ينظر: اختلاف القراء في هذا الحرف في: **«السبعة»** (٣٧٩)، و**«الحجة»** (٥/ ٩١)، و**«معاني القراءات»** (٢/ ٨٩)، و**«شرح الطيبة»** (٤/ ٤٢٦)، و**«إتحاف»** (٢/ ١٩٥)، و**«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٤٤)، و**«البحر المحيط»** (٦/ ١٧)، و**«الدر المصون»** (٤/ ٣٧٩)، و**«المحتسب»** (٢/ ١٥).

(٢) ينظر: **«الطبري»** (٨/ ٥١).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٥١) برقم: (٢٢١٥٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٤)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٣/ ٣٣)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٠٧)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: **«أحكام القرآن»** (٣/ ١١٩٦).

(٥) في الحديث: علي خَتَنُ رسول الله ﷺ، أي زوج ابنته.
ينظر: **«لسان العرب»** (ختن).

قُلْتُ: كم القَرْنُ؟ قالَ: مِائَةُ سنة[١] قال محمد بن القاسِمِ: فما زِلْنَا نَعُدُّ له حتى كملِ مِائَةَ سنةٍ، ثم ماتَ رحمه الله.

والباء في قوله: ﴿بربك﴾ زائدةٌ، التقديرُ وكفَى ربُّكَ، وهذه الباء إنما تجيء في الأغلب في مَدْحٍ أو ذمٍّ، وقد يجيء «كَفَى» دون باء، كقول الشاعر: [الطويل]

.... كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلاَمُ لِلْمَرْءِ ناهِيَا[٢]

وكقول الآخر: [الطويل]

وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ المَرْءِ هَدْيُهُ كَفَى الهَدْيُ عَمَّا غَيَّبَ المَرْءُ مُخْبِرَا[٣]

وقوله سبحانه: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد...﴾ الآية: المعنى فإن اللّه يعجِّل لمن يريدُ من هؤلاء ما يشاء سبحانه؛ على قراءة النون[٤]، أو ما يشاء هذا المريدُ؛ على قراءة الياء، وقوله: ﴿لمن نريد﴾ شرط كافٍ على القراءتين، وقال أبو إسحاق الفَزَارِيُّ: المعنى: لِمَنْ نريدُ هَلَكَتَه[٥]، و«المدحورُ»: المهان المُبْعَدُ المذَلل المسخُوطُ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿ومن أراد الآخرة﴾، أي: إرادَة يقين وإيمانٍ بها، وباللّهِ ورسالاتِهِ، ثم شرَطَ/ سبحانه في مريدِ الآخرة أنْ يَسعى لها سَعْيَها، وهو ملازمُة أعمالِ الخير على ٢٨٩ ب

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٢) عجز بيت وصدره:

عـمـيـرة ودع إن تـجـهـزت غـاديـا ....

ينظر: «الإنصاف» (١/ ١٦٨)، و«خزانة الأدب» (١/ ٢٦٧)، (٢/ ١٠٢ - ١٠٣)، و«سر صناعة الإعراب» (١/ ١٤١)، و«شرح التصريح» (٢/ ٨٨)، و«شرح شواهد المغني» (١/ ٣٢٥)، و«الكتاب» (٢/ ٢٦)، (٤/ ٢٢٥)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٢٦) (كفى)، و«مغني اللبيب» (١/ ١٠٦)، و«المقاصد النحويّة» (٣/ ٦٦٥)، وبلا نسبة في «أسرار العربيّة» ص: (١٤٤)، و«أوضح المسالك» (٣/ ٢٥٣)، و«شرح الأشموني» (٢/ ٣٦٤)، و«شرح عمدة الحافظ» ص: (٤٢٥)، و«شرح قطر الندى» ص: (٣٢٣)، و«شرح المفصل» (٢/ ١١٥)، (٧/ ٨٤)، (١٤٨)، (٨/ ٢٤، ٩٣، ١٣٨)، و«لسان العرب» (١٥/ ٣٤٤) (نهى).

(٣) البيت لزياد بن زيد العدوي، ينظر: في «الغراء» (٢/ ١١٩)، و«التهذيب»، و«اللسان» (هدى)، و«البحر» (٦/ ١٤)، و«الدر» (٤/ ٣٧٧).

(٤) قرأ الجمهور بالنون «نشاء». ونافع «يشاء» بالياء من تحت. ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٥٥) برقم: (٢٢١٧١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٦).

حُكْم الشرع، ﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ولا يشكر اللَّه سعياً ولا عملاً إلا أثابَ عليه، وغَفَر بسببه؛ ومنه قوله ﷺ في حديثِ الرجُلِ الذي سَقَى الكَلْبَ العاطِشَ: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ له[(١)]».

وقوله سبحانه: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ يحتملُ أنْ يريد بـ«العطاء» الطاعات لمريد الآخرةِ، والمعاصي لمريد العاجلةِ، وروي هذا التأويل عن ابن[(٢)] عباس، ويحتمل أن يريد بالعطاء رزقَ الدنيا، وهو تأويل الحسن بن أبي الحسن، وقتادة[(٣)]، المعنى أنه سبحانه يرزقُ في الدنيا من يريد العاجلَة ومريدَ الآخرة، وإنما يقع التفاضُلُ والتبايُنُ في الآخرةِ، ويتناسَبُ هذا المعنى مع قوله: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾، أي: ممنوعاً، وقَلَّمَا تصلح هذه العبارةُ لمن يُمَدّ بالمعاصي.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

وقوله: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية تُدلُّ دلالةً ما على أن العطاء في التي قبلها الرِّزْق، وباقي الآية معناه أوضَحُ من أن يبيَّن.

وقوله سبحانه: ﴿لا تجعل مع اللَّه إلٰهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ هذه الآية خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمراد لجميعِ الخلقِ، قاله الطبري[(٤)] وغيره، ولا مريةَ في ذمِّ مَنْ نحت عوداً أو حجراً، وأشركه في عبادة ربه.

قال * ص *: ﴿فتقعد﴾، أي: فتصير؛ بهذا فسره الفراء وغيرهُ ا هـ.

«والخذلان»؛ في هذا بإسلام اللَّه لعبده، ألا يتكفَّل له بنصرٍ، والمخذولُ الذي أسلمه ناصروه، والخَاذِل من الظباء التي تتركُ ولدها.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٥٢) كتاب «الأدب» باب: رحمة الناس والبهائم، حديث (٦٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٦).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٥٦) برقم: (٢٢١٧٥) وبرقم: (٢٢١٧٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٤٦)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» ((٤/ ٣٠٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «**الحلية**».

(٤) ينظر: «**الطبري**» (٨/ ٥٧).

مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...﴾ الآية: ﴿قضى﴾، في هذه الآية: هي بمعنى أمر وألزم وأوجب عليكم؛ وهكذا قال الناس، وأقول: إن المعنى وقَضَى ربك أمره، فالمقضِيُّ هنا هو الأمْرُ، وفي مصحفِ ابن مسعود[1]: «وَوَصَّى رَبُّكَ»، وهي قراءة ابن عباس وغيره، والضمير في ﴿تعبدوا﴾ لجميع الخلق؛ وعلى هذا التأويل مضى السلفُ والجمهور، ويحتمل أنْ يكون ﴿قَضَى﴾ على مشهورها في الكلامِ، ويكون الضمير في ﴿تعبدوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ معنى اللفظة أنها اسمُ فعل؛ كأن الذي يريد أن يقول: أَضْجرُ أو أتقذَّرُ أو أكْرَه، ونحوَ هذا، يعبِّر إيجازاً بهذه اللفظة، فتعطي معنى الفعْل المذكورِ، وإذا كان النهيُ عن التأفيفِ فما فوقه من باب أحرى، وهذا هو مفهومُ الخِطَابِ الذي المسكُوتُ عنه حُكْمُهُ حكمُ المذكور.

قال * ص *: وقرأ الجمهور ﴿الذُّلّ﴾ بضم الذال، وهو ضد العِزّ، وقرأ ابن عباس[2] وغيره بكسرها، وهو الانقيادُ ضدُّ الصعوبة انتهى، وباقي الآية بيِّن.

قال ابن الحاجب في «منتهى الوُصول»، وهو المختصَرُ الكَبِير: المفهومُ ما دَلَّ عليه اللفظُ في غَيْرِ مَحَلِّ النُّطق، وهو: مفهوم موافقة، ومفهومُ مخالفة، فالأول: أنْ يكون حُكْمُ المفهومِ موافقاً للمنطوق في الحُكْم، ويسمَّى فَحْوَى الخطابِ، ولَحْنَ الخِطَابِ، كتحريم الضَّرْبِ من قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ وكالجَزَاء/ بما فَوْقَ المِثْقالِ من قوله تعالى: ٢٩٠أ

---

(١) وقال ابن عباس: إنما التصقت الواو بالصاد.
ينظر: «مختصر شواذ ابن خالويه» ص: (٧٩)، و«الكشاف» (٢/ ٦٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٧)، وزاد نسبتها إلى النخعي، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، وأبي بن كعب.
وينظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢٣).

(٢) وقرأ بها سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، والجحدري، وحماد الأسدي، عن أبي بكر رضي الله عنه، ورويت عن عاصم بن أبي النجود.
قال أبو الفتح: الذِّل في الدابة: ضد الصعوبة، والذُّل في الإنسان، وهو ضد العِز.
ينظر: «المحتسب» (٢/ ١٨)، و«الشواذ» ص: (٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦)، و«الدر المصون» (٤/ ٣٨٦).

﴿ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَةٍ﴾ [الزلزله: ٧]، وكتأديةِ ما دُونَ القِنْطار من قوله تعالى: ﴿ومِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وعدم تأدية ما فوق الدينار من قوله تعالى: ﴿بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وهو من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى، والأعلى على الأدنى، فلذلك كان الحُكم في المسكوتِ أولى، وإنما يكون ذلك إذا عُرِفَ المقصودُ من الحُكْم، وأنه أشدُّ مناسبةً في المسكوت؛ كهذه الأمثلة، ومفهومُ المخالفة: أنْ يكونَ المَسْكُوتُ عنه مخالفاً للمنطوقِ به في الحُكْم ويسمَّى دليلَ الخطاب[1] وهو أقسامٌ: مفهومُ الصفة[2]؛ مثل: «في الغَنَمِ السَّائِمَةِ الزَّكَاةُ»، ....

(١) تقدم التعريف بـ «دليل الخطاب».

(٢) مَفْهُومِ الصِّفَةِ: هُوَ مَا يفهم من تعليق الحكم على الذَّاتِ بصفة من صفاتها، كما في قوله ﷺ: «فِي سَائِمَةِ الغَنَمِ زَكَاةٌ»، فإن الغنم ذَاتٌ، والسوم والعلف وصفان لها يعتورانها، وَقَدْ علق الحكم وهو وجوب الزكاة بأحدَ وصفيها، وهو السوم، فيُفْهَمُ منه نفي الوجوب عن المعلوفة؛ لانتفاء الصِّفَةَ التي علق الحكم بها، وهي السوم، وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فالفتيات: جمع فتاة، وهي ذات يَعْتورها الإيمان والشرك، وقد علق الحكم بأحدهما، وهو الإيمان، فيدل على نفيه عن غَيْرِ المؤمنات.

والمراد بالصفة عند الأصوليين: لفظ مقيد لآخر، وليس بشرطٍ، ولا استثناء، ولا غاية، وبعبارة أخرى: هي تقييد لفظ مشترك المعنى بلفظ آخر يختصُّ ببعض معانيه ليس بشرط، ولا استثناء، ولا غاية بعد أن كان صالحاً لما له تلك الصفة ولغيرها، سواء كان ذلك اللفظ المختص نعتاً نحوياً مثل: «فِي الغَنَمِ السَّائِمَةِ زَكَاةٌ»، أو مضافاً مثل: «فِي سَائِمَةِ الغَنَمِ زَكَاةٌ»، أو مضافاً إليه مثل قوله ﷺ: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ»، أو ظرف زمان مثل قوله ﷺ: «مَنِ ابْتَاعَ نَخلاً بَعْدَ أَنْ تُؤَبَّرَ فَثَمَرَتُهَا لِلْبَائِعِ»، أوظرف مكان مثل «بع في مكان كذا»، أو حالاً نحو: «أحسن إِلَى العَبْدَ مطيعاً»؛ لأن المخصوص بالكون في مكان أو زَمَانٍ موصوف بالاستقرار فيه، والحال وَصْفٌ لصاحبها في المعنى، أو كان ذلك اللفظ المختص علة مثل: «أعط السائل لحاجته»، فالمفهوم في المثال **«الأول»**، و**«الثاني»**: عدم وجوب الزكاة في الغنم المعلوفة.

«وفي الثالث»: أن مطلَ الفقير ليس ظُلْماً.

«وفي الرابع»: أن ثمرة النخلة المُؤَبَّرَةِ بعد البيع ليست للبائع، وإنما تكون للمشتري.

«وفي الخامس»: عدم البيع في غير المكان المخصوص.

«وفي السادس»: عدم الإحسان إليه إذا كان عاصياً.

«وفي السابع»: عدم الإعطاء عند عدم الحاجة؛ لأن المعلول ينتفي بانتفاء علَّته، فإن الحكم لما عُلق في هذه الأمثلة بصفة خاصة صار ثبوته مرتبطاً بثبوت تلك الصفة، وعليه فانتفاؤها يدل على انتفائه.

«والفرق بين مطلق الصفة، وخصوص العلة». أن الصِّفَةَ قد تكون علّة كالإِسْكَارِ، وقد لا تكون، بل هي متممة لها، كالسَّوْمِ، فإن وجوبَ الزكاة في الغَنَم السائمة ليس للسوم فقط، وإلا لوجبت في الوحوش السائمة، وإنما وجبت لنعمة الملك، وهي مع السوم أتم منها مع العلف، فالصفة أعم من العلة. وبذلك يعلم أن الصفة عند الأصُوليين أعم منها عند النحويين. =

ومفهومُ الشرط(١)، مثل: ﴿وإنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق: ٦] ....

= وقد اختلف في الحكم على المشتق نحو: «فِي السَّائِمَةِ زَكَاةٌ» هل ذلك يجري مجرى المقيد بالصفة مثل: «فِي الغَنَم السَّائِمَةِ زَكَاةٌ»؟
فقيل: لاَ يجري مجراه لاختلال الكلام بدونه، فيكون كاللقب.
وقيل: إنه يجري مجراه لدلالته على السَّوْم الزائد على الذات، بخلاف اللقب، فيفيد نفي الزكاة عن المعلوفة مطلقاً، كما يفيد إثباتها للسائمة مطلقاً، ويؤخذ من كلام ابن السمعاني، كما قال الجلال المحَلِيُّ: إن الجمهور على الثاني حيث قال: «الاسم المشتق، كالمسلم، والكافر والقاتل، والوارث يجري مجرى المقيد بالصفة عند الجمهور، قال شيخ الإسلام: وهو قوي؛ لأن تعريف الوصف صادق عليه.
غايته أن الموصوف مقدر، وذكر الموصوف أو تقديره لا تأثير له فيما نحن بصدده، وذلك نحو قوله ﷺ: الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا» فمنطوقه ثبوت أحقية الثيب في تزويج نفسها من وليها، ومفهومه المخالف عَدَمُ أَحَقِّيَّة غير الثيب، وهي البكر في تزويج نفسها؛ لانتفاء الصفة التي عُلِّق بها الحكم، وهي الثيوبة.
ينظر: **«البحر المحيط»** للزركشي (٤/ ٣٠)، و**«الإحكام في أصول الأحكام»** للآمدي (٣/ ٦٦)، و**«التمهيد»** للأسنوي (٣٤٥)، و**«نهاية السول»** له (٢/ ٢٠٥)، و**«غاية الوصول»** للشيخ زكريا الأنصاري (٣٩)، و**«المنخول»** للغزالي (٢١٣)، و**«حاشية البناني»** (١/ ٢٤٩)، و**«الإبهاج»** لابن السبكي(١/ ٣٧٠)، و**«الآيات البينات»** لابن قاسم العبادي (٢/ ٢٦)، و**«حاشية العطار على جمع الجوامع»** (١/ ٣٢٦)، و**«حاشية التفتازاني»** والشريف على **«مختصر المنتهى»** (٢/ ١٧٤)، و**«شرح التلويح على التوضيح»** لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (١/ ١٤٣)، و**«ميزان الأصول»** للسمرقندي(١/ ٥٧٩)، و**«نشر البنود»** للشنقيطي (١/ ٩٦)، وينظر: **«العدة»** (٢/ ٤٥٣)، و**«التبصرة»** (٢١٨)، و**«المنخول»** (٢٠٨)، و**«المسودة»** (٣٥١، ٣٦٠).

(١) مَفْهُوم الشَّرطِ هو: ما يفهم من تعليق الحكم على شَيْءٍ بأداة شرط كـ «إنْ»، و«إذَا»؛ مما يدل على سببية الأول، ومُسَبَّبِيَّة الثاني، كما في قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وإنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]؛ فإنه يفهم منه عند القائلين بمفهوم المخالفة أَو غير أولات الأحمال من المطلقات طَلاقاً بائناً - لا يجب الإنفاق عليهنّ، لأن المشروط ينتفي شرطه، وإنما قيدنا الطلاق بـ «البائن»؛ لأن المطلقة طلاقاً رجعيًا يجب الإنفاق عليها في العدة، حاملاً كانت أو لا؛ بالإجماع، والخلاف إنما هو في المبانة.
«والشرط في اللُّغَةِ»: هو العلامة، وجاء منه أشراط الساعة، أي: علاماتها، وفي العرف العام: ما يتوقَّف عليه وجود الشَّيء، وفي اصطلاح المتكلمين: ما يتوقف عليه تحقق الشيء، ولا يكون في ذلك الشيء، ولا مؤثراً فيه.
«وفي اصطلاح النحاة»: ما دخل عليه شَيْءٌ من الأدوات المخصوصة الدالَّة على سببية الأول ومسببية الثاني ذهناً أو خارجاً، سَوَاء كَانَ عِلَّة للجزاء؛ مثل: «إن كانت الشمس طالعة، فالنهار مَوْجُود» - أَوْ مَعْلُولاً؛ مِثْل: «إن كان النهار موجوداً، فالشمس طالعة» أو غير ذلك؛ مثل: إنْ دَخَلْتِ الدَّارَ، فَأَنْتِ طَالِقٌ».
ويسمى شرطاً لُغوياً أيضاً؛ لأن المركب من «إنْ» وأخواتها، ومن مدخولها - لفظ مركب وضع لمعنى يعرف من اللغة، وإن كَانَ النحوي يبحث عنه من وجه آخر، وهو المقصود بالذات، هنا لا الشرعي =

....

= كالطهارة للصلاة، ولا العقلي كالحياة للعلم، ولا العادي كنصب السُلَّم لصعود السطح، وإنما كان المقصود هو النحوي؛ لأن الكلام هنا فيما يفهم من تعليق الحكم على شيء بأداة مخصوصة، كما هو مقتضى تعريف مفهوم الشرط، وهذا إنما يتأتى في خصوص الشرط النحوي على ما لا يخفى.

هذا حاصل القول في تعريف مفهوم الشرط.

قبل الشروع في بيان مذاهب العلماء في حجية مفهوم الشرط واستدلالهم ينبغي أن نحرر مَحَلَّ النزاع في هذا المقام، ومجمل القول في ذلك؛ أنه لا نِزَاعَ بَيْنَ العلماء في انتفاء الحكم عند انتفاء شرطه، وإنما النزاع في الدال على هذا الانتفاء هل هو التعليق بالشرط، أو البراءة الأصلية؟ - وبيان ذلك أن في تعليق الحكم بالشرط؛ مثل: «إن دخلت الدار، فأنت طالق» - أموراً أربعة:

«الأمر الأول: ثُبوتُ الجَزَاءِ عند ثبوت الشرط.

«الأمر الثاني»: عَدَم الجَزَاءِ عَنْدَ عدم الشرط.

«الأمر الثالث»: دلالة التعليق على الأول.

«الأمر الرابع»: دلالته على الثاني.

واتفق العلماء على الثلاثة الأُوَل، وإنما النزاع في الأَمْرِ الرابع بعد الاتفاق على أن عدم الجزاء ثابت عند عدم الشرط.

فعند القائلين بالمفهوم: ثبوته لدلالة التعليق عليه، وعند النفاة ثابت بمقتضى البراءة الأصلية، فالنزاع إنما هو في دلالة حرف الشرط على العدم، لا على أصل العدم عند العدم؛ فَإِنَّ ذلك ثابت قبل أن ينطق الناطق بكلام، وهذا الكلام في سائر المفاهيم.

قال أبو زيد الدَّبُوسي، وهو من المنكرين له: «انتفاءُ المعلَّق حال عدم الشرط، لا يفهم من التعليق، بل يبقى على ما كان قبل ورود النص».

هذا هو تحرير محل النزاع، وإذا تحقَّق هَذَا، فنقول: اختلف العلماء والأصوليون في حجية مفهوم الشرط على مذهبين:

«المذهب الأول»: أنه حجة، أي: أن تعليق الحكم بالشرط يدل على انتفاء ذلك الحكم عند انتفاء الشرط؛ وإلى هذا ذهب جميع القائلين بمفهوم الصِّفَة، وبعض من لم يقل به، كالإمام فخر الدين الرَّازي، وابن سُرَيْج، وأبي الحسن البصري، وأبي الحسن الكرخي، ونقله أبو الحسين السهيلي في **«آداب الجدل»** عن أكثر الحنفية، وابنُ القشيري عن معظم أهل العراق، وإمام الحرمين عن أكثر العلماء.

«المذهب الثاني»: أنَّهُ ليس بحجة، أي: أن تعليق الحكم بالشرط لا يدلّ على انتفاء الحكم عند انتفاء الشرط؛ بل يبقى الحكم عند انتفاء الشرط على العدم الأصلي، وهذا مذهب أبي حنيفة والمحققين من أصحاب مذهبه، وأكثر المعتزلة؛ كما نقله عنهم صاحب **«المحصول»**، ونقله ابنُ التلمساني عن الإمام مالك كما اختاره القاضي أبو بكر الباقلاني، وحجة الإسلام الغزَّالي، وسيف الدين الآمدي، والقفال الشاشي، وأبو حامد المَرْوَزيّ من الشافعية.

ينظر: **«حاشية البناني»** (١/ ٢٥١)، و**«الإبهاج»** لابن السبكي(١/ ٣٨٠)، و**«الآيات البينات»** لابن قاسم العبادي (٢/ ٣٠)، و**«حاشية العطار على جمع الجوامع»** (١/ ٣٢٩)، و**«تيسير التحرير»** لأمير بادشاه (١/ ١٠٠)، و**«حاشية التفتازاني»** والشريف على **«مختصر المنتهى»** (٢/ ١٨٠)، و**«شرح التلويح على التوضيح»** لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (١/ ١٥٥)، و**«ميزان الأصول»** للسمرقندي (١/ ٥٨٠)، =

ومفهوم الغاية(١)، مثل: ﴿حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ....

= و«نشر البنود» للشنقيطي (١/ ٩٨).

(١) «مفهوم الغاية»: هو ما يفهم من تقييد الحكم بأداة غاية؛ كـ «إلى»، و«حتى»، وغاية الشيء آخره، وذلك كما في قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فمنطوق الآية تحريم قربان النساء مدة زمان الحَيْضِ، وقبل الغُسل، وتدل بمفهومها المخالف على جواز القربان منهن بعد انقضاء زمان الحيض، والاغتسال - وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فمنطوقه أن عدم حِلِّ المطلقة ثلاثاً لمطلِّقها - مُغَيا بنكاح الزوج الآخر، ومفهومه المخالف أنها تحل له بعد نكاح الزَّوْج الآخر لها بشرطه - وقول النَّبي ﷺ: «لاَ زَكَاةَ فِي مَالٍ، حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الحَوْلُ» فالمنطوق عدم وجوب الزكاة في المال قَبْلَ حَوَلانِ الحول عليه، والمفهوم المخالف وجوب الزكاة في المال بعد حولان الحول عليه - وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ فإنه يفهم منه عدم وجوب الصيام في الليل.

واختلف الأصوليون في حجية مفهوم الغاية، وبعبارة أخرى في القول به إثباتاً، ونفياً - على مذهبين:

«المذهب الأول»: أنه حجّة، بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية يدل على انتفاء ذلك الحكم عما بعدها؛ وإليه ذهب جميع القائلين بمفهوم الصفة والشرط، وبعضُ من لم يقل بهما؛ كحجة الإسلام الغزالي، وعبد الجبار المعتزلي، والإمام أبي الحسين البصري، والقاضي أبي بكر الباقلاني، وبعض الأصوليين من الحنفية.

وفي هذا يقول سليم الرازي: لم يختلف أهل العراق في ذلك.

وقال القاضي في «التَّقْرِيبِ»: صار معظم نفاة دليل الخطاب إلى أن التقييد بحرف الغاية يدل على انتفاء الحكم عما وراء الغاية.

قال: ولهذا أجمعوا على تسميتها غاية.

«المذهب الثاني»: أَنَّهُ ليس حجّة، بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية لا يدل على انتفاء الحكم عما بعدها، بل هو مسكوتٌ عنه غيرُ متعرِّض له بنفي أو إثبات؛ وَهُوَ مذهب أصحاب أبي حنيفة، وجماعة من الفقهاء والمتكلمين، واختاره سيف الدين الآمدي؛ طرداً لباب المنع من العمل بالمفاهيم.

هذا حاصل في حجية مفهوم الغاية، وَقَدِ اتضح لك أنه مفروض فيما وراء الغاية لا في الغاية نفسها وذهب بعضهم إلى أنه مَفْروضٌ في الغاية نفسها؛ بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية، هل يدلُّ على انتفاء ذلك الحكم في الغاية نفسها أو لا يدلّ؟ - فالذي يقول بمفهومها، يقول بانتفاء الحكم فيها، ومن لا فَلا، وَهُوَ مردود؛ لتصريح أكثر العلماء، لا سيما المحققين منهم؛ أن النزاع هنا إنما هو فيما بعد الغاية لا في الغاية نفسها، نعم في الغاية خلاف أيضاً، ولكنه خلاف آخر:

وحاصل هذا الخلاف: هل الغاية داخلة في حكم المغيا أو خارجة عنه؟ وهو خلاف لا دخل له في هذا المقام؛ فإن الكلام هنا في دلالة المخالفة وعدمها، والخلاف هناك في الدخول والخروج، وأين أحدهما من الآخر؟!

فإنه على التقدير الثاني لا يستلزم المخالفة فإن الخروج أعم من أن يدل على المخالفة، أو يكون مسكوتاً عنه بخلاف الأول، وهو ظاهر، على أنا إن قلنا: بخروج الغاية عن المُغَيَّا يأتي خلاف المفهوم فيها أيضاً، وبالجملة فهما خلافان مُتَغَايِران: =

ومفهوم إنَّما(١) مثل: «إنما الرِّبَا في النَّسِيئَةِ» ومفهومُ الاستثناء(٢) مِثل: ﴿لا إله إلا اللَّه﴾ ومفهوم العددِ الخاصِّ(٣)، مثلَ: ﴿فاْجلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، ومفهومُ حَصَرَ

= **«أحدهما»**: أن تقييد الحكم بالغاية، هل يدل على نفي الحكم عما بعدها أو لا؟
«والثاني»: أن هذه الغاية، هل هي داخلة في حكم المغيا أو لا؟ ولا ربط لأحدهما بالآخر، والمبحوث عنه هنا هو الأول دون الثاني، والثاني يجتمع مع القول بالمفهوم وعدمه كما أن النزاع الأول يجتمع مع القول بالدخول والخروج، ولا تنافي بينهما.
ينظر: **«البحر المحيط»** للزركشي (٤/ ٤٦)، و**«الإحكام في أصول الأحكام»** للآمدي (٣/ ٦٦)، و**«نهاية السول»** للأسنوي (٢/ ٢٠٥)، و**«حاشية البناني»** (١/ ٢٥١)، و**«الآيات البينات»** لابن قاسم العبادي (٢/ ٣٠)، و**«حاشية العطار على جمع الجوامع»** (١/ ٣٣٠)، و**«تيسير التحرير»** لأمير بادشاه (١/ ١٠٠)، و**«حاشية التفتازاني»** والشريف على **«مختصر المنتهى»** (٢/ ١٨١)، و**«الوجيز»** للكراماستي (٢٤)، وينظر: **«المسودة»** (٣٥١)، و**«الآيات البينات»** (٢/ ٣٠).

(١) اختلف العلماء في إفادة «إِنَّمَا» للحصر على مذهبين:
«المذهب الأول»: إنها تفيد الحصر بمعنى قَصْرِ الأول على الثاني من مدخوليها؛ بحيث لا يتجاوزه إلى غيره بمعنى أن تقييد الحكم بها يدل على إثباته للمذكور في الكلام آخراً ونفيه عن غيره مثل «إِنَّمَا الشُّفْعَةَ فِيمَا لَمْ يُقْسَمْ» فإنه يدل على إثبات الشفعة في غير المقسوم، ونفيها عما قسم، وهذا مذهب أكثر العلماء.
«المذهب الثاني»: إنها لا تفيد الحصر، بمعنى: أن تقييد الحكم بها لا يدل إلا على تأكيد إثبات الشفعة فيما لم يقسم، ولا دلالة له على نفيها عن غيره، بل هو مسكوت عنه غير متعرض له لا بنفي، ولا بإثبات، وإِلَيْهِ ذَهَبَ أصحاب أبي حنيفة، وجماعة ممن أنكر دليل الخطاب، واختاره سيف الدين الآمدي، وأبو حيان، ونسبه إلى النَّحْوِيِّينَ، غير أن الكمال بن الهمام تعقب نسبة هذا المذهب إلى الحنفية: بأن الحنفية كثر منهم نسبتهم الحصر إلى «إِنَّمَا» كما في **«كشف الأسرار»**، و**«الكافي»**، و**«جامع الأسرار»** وغيرها.
هذا هو حاصل الخلاف في مفهوم الحصر بـ «إِنَّمَا».
ينظر: **«البحر المحيط»** للزركشي (٤/ ٥٠)، و**«الإحكام في أصول الأحكام»** للآمدي (٣/ ٦٧)، و**«الآيات البينات»** لابن قاسم العبادي (٢/ ٤٣)، و**«حاشية التفتازاني»**، والشريف على **«مختصر المنتهى»** (٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣)، و**«نشر البنود»** للشنقيطي (١/ ٩٦).

(٢) **«المقصود بمفهوم الاستثناء»**: هو ما يفهم من تقييد الحكم بأداة الاستثناء، والاستثناء: هو إخراج ما لولاه لوجب دخوله، والمراد بالاستثناء هنا الاستثناء من الكلام التام الموجب، وذلك مثل: «قامَ القومُ إلاَّ زيداً» فَإِنَّهُ يُفْهَمُ منه انتفاء الحكم الثابت للمستثنى منه، وهو القوم عن المستثنى، وهو زيد، وإنما قيدنا الاستثناء بكونه من الإثبات لإخراج الاستثناء من النفي، فإنه نوع من أنواع الحصر.
ينظر: **«البحر المحيط»** للزركشي (٤/ ٤٩)، و**«الإحكام في أصول الأحكام»** للآمدي (٣/ ٦٧)، و**«الآيات البينات»** لابن قاسم العبادي (٢/ ٢٧)، و**«حاشية العطار على جمع الجوامع»** (١/ ٣٢٩).

(٣) إذا علق حكم بعدد معين، مثل: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] فهل يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى نفي الحكم عما عدا ذلك العدد أَوْ لا؟ اختلف العلماء في ذلك على طريقين:
«الطريق الأول»: أنه يدل، وإليه ذهب مالك ونقله عن الشافعي أبو حامد، وأبو الطيب الطبري، =

المبتدإ[١] مثل: العالمُ زَيْد، وشرطُ مفهومِ المخالفة عند قائله ألاَّ يظهر أن المسكوتَ عنه أولى ولا مساوياً؛ كمفهومِ الموافَقَةِ، ولا خرج مَخْرَجَ الأعمِّ الأغلب، مثل: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فأما مفهومُ الصفةِ، فقال به الشافعيُّ، ونفاه الغَزَّاليُّ وغيره. انتهى.

وفسَّر الجمهورُ الأوَّابين بالرَّجَّاعين إلى الخير، وهي لفظة لزم عُرْفُها أهْلَ الصلاح.

* ت *: قال عَبْدُ الحقِّ الأشَبِيليُّ: واعْلَمْ أنَّ الميت كالحيِّ فيما يُعْطَاه ويُهْدى إليه، بل الميت أكثر وأكثر؛ لأن الحي قد يستقلُّ ما يُهْدَى إليه، ويستحقرُ ما يُتْحَفُ به، والميت لا يستحقر شيئاً من ذلك، ولو كان مقدارَ جناحِ بعوضةٍ، أو وزْنَ مثقالِ ذرةٍ، لأنه يعلم قيمته، وقد كان يقدر عليه، فضيَّعه، وقد قال عليه السلام: «إِذَا مَاتَ الإِنسانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[٢] فهذا دعاءُ

= والماوردي وغيرهم، ونقَلَه أبو الخطاب الحَنْبَلِيُّ في **«تمهيده»** عن أحمد بن حنبل، وإليه ذهب داود الظاهري، وَكَذا الطحاوي، وصاحب **«الهداية»** والكرخي، ورضي الدين صاحب **«المحيط»** من الحنفية.

«الطَّريق الثَّاني»: أَنَّهُ لاَ يَدُلُّ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أصحاب الشافعي، وأبو حنيفة وأصحابهُ، وابن داود، والمعتزلة، والأشعرية، والقاضي أبو بكر الباقلاني، واختاره إمام الحرمين، والإمام البيضاوي في **«المنهاج»**، وَجَرَى عَلَيْهِ الإِمَام الرازي في **«المَحْصُولِ»** والآمدي في **«الإحكام»**.

(١) اختلف العلماء في دلالة تعريف المبتدأ باللام أو الإضافة على الحصر بمعنى نفي الحكم عن غير المذكور وعدمه على مذهبين:

«المذهب الأول»: إنه يدل على الحصر، وهذا مذهب حجة الإسلام الغزالي، وإمام الحرمين، والإمام الرازي، والجمهور من الفقهاء والمتكلمين.

«المذهب الثاني»: إنه لا يدل على الحصر، وإليه ذهب كثير من الحنفية، والقاضي أبو بكر الباقلاني وجماعة من الفقهاء والمتكلمين وهو ما اختاره الآمدي.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٥٥) كتاب «الوصية» باب: ما يلحق الإنسان من الثواب، حديث (١٤/ ١٦٣١)، والبخاري في **«الأدب المفرد»** رقم: (٣٨)، وأبو داود (٢/ ١٣١) كتاب «الوصايا» باب: ما جاء في فضل الصدقة عن الميت، حديث (٢٨٨٠)، والترمذي (٣/ ٦٦٠) كتاب «الأحكام» باب: في الوقف، حديث (١٣٧٦)، والنسائي (٦/ ٢٥١) كتاب «الوصايا» باب: فضل الصدقة على الميت، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، وابن خزيمة (٤/ ١٢٢) رقم: (٢٤٩٤)، وأبو يعلى (١١/ ٣٤٣) رقم: (٦٤٥٧)، وابن الجارود في **«المنتقى»** رقم: (٣٧٠)، والدولابي في **«الكنى والأسماء»** (١/ ١٩٠)، والطحاوي في **«مشكل الآثار»** (١/ ١٩٠)، والبيهقي (٦/ ٢٧٨) كتاب «الوصايا» باب: الدعاء للميت، وابن عبد البر في **«جامع بيان العلم وفضله»** (١/ ١٥)، والبغوي في **«شرح السنة»** (١/ ٢٣٧ ـ بتحقيقنا). كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمٰن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الولدِ يصلُ إلى والده، وينتفعُ به، وكذلك أمره عليه السلام بالسَّلاَمِ على أهْلِ القُبُورِ والدعاءِ لهمْ[1] ما ذاكَ إلا لكونِ ذلك الدعاءِ لهُمْ والسلام عليهِمْ، يصلُ إليهم ويأتيهم، والله

(١) أخرجه مالك (١/ ٢٨ ـ ٢٩) كتاب «الطهارة» باب: جامع الوضوء، حديث (٢٨)، ومسلم (١/ ٢١٨) كتاب «الطهارة» باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، حديث (٣٩/ ٢٤٩)، وأبو داود (٢/ ٢٣٨) كتاب «الجنائز» باب: ما يقول إذا زار القبور أو مرّ بها، حديث (٣٢٣٧)، والنسائي (١/ ٩٣ ـ ٩٥) كتاب «الطهارة» باب: حلية الوضوء، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٩) كتاب «الزهد» باب: ذكر الحوض، حديث (٤٣٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٠٠، ٤٠٨)، وأبو عوانة (١/ ١٣٨)، وأبو يعلى (١١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) رقم: (٦٥٠٢)، وابن حبان (١٠٣٢، ٣١٦٨)، وابن السني في **«عمل اليوم والليلة»**. رقم (١٨٩)، والبغوي في **«شرح السنة»** (١/ ٢٥٣ ـ بتحقيقنا). كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمٰن، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا بكم إن شاء الله لاحقون. . .».
وفي الباب عن عائشة وبريدة.
حديث عائشة: أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٩) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (١٠٢/ ٩٧٤)، والنسائي(٤/ ٩٣ ـ ٩٤)، كتاب «الجنائز» باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، والبيهقي (٤/ ٧٨ ـ ٧٩) كتاب «الجنائز» باب: ما يقول إذا دخل مقبرة (٥/ ٢٤٩) كتاب «الحج» باب: في زيارة القبور التي في بقيع الغرقد، والبغوي في **«شرح السنة»** (٣/ ٣٠٦ ـ بتحقيقنا)، وأبو يعلى (٨/ ١٩٩) رقم: (٤٧٥٨) كلهم من طريق شريك بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا وإياكم متواعدون غداً ومؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».
وأخرجه مسلم (٢/ ٦٦٩) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (١٠٣/ ٩٧٤) وعبد الرزاق(٦٧١٢) من طريق محمد بن قيس بن مخرمة، عن عائشة.
وأخرجه ابن ماجه (١/ ٤٩٣) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث (١٥٤٦)، وأبو يعلى (٨/ ٦٩) رقم (٤٥٩٣) كلاهما من طريق شريك بن عبد الله، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر، عن عائشة به. بلفظ: فقدت رسول الله ﷺ فاتبعته فأتى البقيع فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فرط وإنا بكم لاحقون، اللّهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم».
وأخرجه أبو يعلى (٨/ ٨٥ ـ ٨٦) رقم: (٤٦١٩) من طريق يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن عائشة.
حديث بريدة: أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (١٠٤/ ٩٧٥)، والنسائي (٤/ ٩٤) كتاب «الجنائز» باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، وابن ماجه (١/ ٤٩٤) كتاب «الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث (١٥٤٧) وابن أبي شيبة (٤/ ١٣٨)، وابن السني في **«عمل اليوم والليلة»** رقم: (٥٨٢)، وأحمد (٥/ ٣٥٣، ٣٥٩، ٣٦٠)، والبغوي في **«شرح السنة»** (٣/ ٣٠٤ ـ بتحقيقنا)، عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع نسأل الله العافية».

أعلم، وروي عنه عليه السلام؛ أنه قال: «لكون الميِّت في قَبْرِهِ كالغَرِيقِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ من ابْنِهِ أو أَخِيهِ أو صَدِيقِهِ، فَإِذَا لَحِقَتْهُ، كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيهَا» والأخبارُ في هذا الباب كثيرةٌ انتهى من «**العاقبة**».

* ت *: وروى مالك في «**الموطإ**» عن يحيى بن سعيدٍ، عن سعيد بن المسيَّب، أنه قال: كان يقال: إن الرجُلَ لَيُرْفَعُ بدعاءِ ولده من بعده وأشارَ بيَدِهِ نحو السماء[1]. قال أبو عمرو: وقد رُوِّيناه بإسناد جيِّدٍ، ثم أسند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ العَبْدَ الدَّرَجَةَ، فيقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَنَّى لي هَذِهِ الدَّرَجَةُ؟ فَيقالُ: باسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ» انتهى من «**التمهيد**»[2]، وروِّينا في «**سنن أبي داود**»؛ «أَنَّ رجُلاً مِنْ بني سَلَمَةَ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ برِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ، أَبَرُّهُمَا/ بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: نَعَمْ الصَّلاَةُ عَلَيْهِما، ٢٩٠ب
والاسْتِغْفَارُ لَهُما وإِنْفَاذُ عَهْدِهِما مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ التي لاَ تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا، وإِكْرَامُ صَدِيقِهِما»[3] انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وآتِ ذا القربى حَقَّه والمسكين وابْنَ السبيل...﴾ الآية: قال الجمهورُ: الآية وصيةٌ للنَّاس كلِّهم بصلة قرابتهم، خوطِبَ بذلك النبيُّ ﷺ والمراد الأمة، «والحَقُّ»، في هذه الآية، ما يتعيَّن له؛ مِنْ صلة الرحم، وسدِّ الخُلة، والمواساةِ عند الحاجة بالمالِ والمعونةِ بكلِّ وجه؛ قال بنحو هذا الحسنُ وابن عباس وعكرمة[4] وغيرهم، «والتبذير» إِنفاق المال في فسادٍ أو في سرفٍ في مباحٍ.

وقوله تعالى: ﴿وإما تعرضنَّ عنهم﴾، أي: عمَّن تقدَّم ذكره من المساكين وابن السبيل، ﴿فقلْ لهم قولاً ميسوراً﴾، أي: فيه ترجيةٌ بفضل اللَّه، وتأنيسٌ بالميعاد الحسنِ، ودعاءٌ في توسعة اللَّه وعطائه، وروي أنه ﷺ كان يقولُ بَعْدَ نزولِ هذه الآية، «إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطِي: يَرْزُقُنا اللَّهُ وإِيَّاكُمْ مِنْ فضله»[5] والـ ﴿رحمة﴾ على هذا التأويل: الرزق

---

(١) أخرجه مالك في «**الموطأ**» (١/ ٢١٧) كتاب «القرآن» باب: العمل في الدعاء، حديث (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩) من حديث أبي هريرة، وذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١٠/ ٢١٣)، وقال: رواه أحمد، والطبراني في «**الأوسط**»، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة، وقد وثق.

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٥٨) كتاب «الأدب» باب: في برّ الوالدين، حديث (٥١٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٨ ـ ١٢٠٩) كتاب «الأدب» باب: «صل من كان أبوك يصل»، حديث (٣٦٦٤)، والحاكم (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٦٧) برقم: (٢٢٢٤٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٠)، والسيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٣١٩)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الحسن رضي اللَّه عنه.

(٥) ينظر: «**القرطبي**» (١٠/ ٢٤٩).

المنتظر، وهذا قول ابن عباس[١] وغيره، والميسور: من اليسر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ استعارةٌ لليد المقبوضةِ عن الانفاق جملةً، واستعير لليد التي تستنفِذُ جميعَ ما عندها غايةَ البَسْطِ ضِدّ الغُلّ، وكلُّ هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد، فقليله وكثيره حرامٌ، أو الملامة هنا لاحقةٌ ممن يطلب من المستحقين، فلا يجدُ ما يعطى، «والمحسورُ» الذي قد استنفدَتْ قوته، تقولُ: حَسَرْتُ البَعِيرَ؛ إذا أتْعَبْتَهُ حتى لم تَبْقَ له قوة؛ ومنه البَصَر الحَسِير.

قال ابنُ العربيّ[٢] وهذه الآية خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والمراد أمته، وكثيراً ما جاء هذا المعنى في القرآن، فإن النبي ﷺ لمَّا كان سيِّدَهم وواسطتَهم إلى ربِّهم، عبَّر به عنهم، على عادة العرب في ذلك. انتهى من **«الأحكام»**، «والحسير»: هو الكالُّ.

﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ معنى ﴿يَقْدِرُ﴾: يضيِّق.

وقوله سبحانه: ﴿إنه كا بعباده خبيراً بصيراً﴾، أي: يعلم مصلحة قَوْمٍ في الفقر، ومصلحةَ آخرين في الغنى.

وقال بعضُ المفسِّرين: الآية إشارةٌ إلى حال العرب التي كانَتْ يصلحها الفَقْر، وكانت إذا شبعتْ، طَغَتْ.

* ت *: وهذا التأويلُ يَعْضُدُهُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا في الأَرْضِ...﴾ الآية [الشورى: ٢٧] ولا خصوصيَّة لذكر العرب إلا مِنْ حيث ضَرْب المَثَل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...﴾ الآية: نَهْيٌ عن الوأدِ الذي

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٧٠) برقم: (٢٢٢٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٠)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٢١)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: **«أحكام القرآن»** (٣/ ١٢٠٤).

كانت العرب تفعله، «والإملاق». الفقر وعَدَم المال، وروى أبو داود عن ابن عباس، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَئِدْهَا، ولَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا ـ قال: يَعْني الذُّكُورَ ـ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنة»[١] انتهى. والحق الذي تُقْتَلُ به النفس: قد فسَّره النبي ﷺ في قوله: «لاَ يُحِلُّ دَمَ المُسْلِمِ إلاَّ إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ: كُفْرٍ بَعْدَ/ إِيمَانٍ، أو زناً بَعْدَ ٢٩١أ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ»[٢] أي: وما في هذا المعنى مِنْ حرابةٍ أو زندقةٍ ونحو ذلك.

﴿ومن قتل مظلوماً﴾ أي: بغير الوجوه المذكورة، ﴿فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً﴾، ولا مدخل للنساء في ولاية الدَّم؛ عند جماعة من العلماءِ، ولهنَّ ذلك عند آخرين، «والسلطان»: الحجة والملك الذي جُعِلَ إليه من التخيير في قبول الدية أو العفو؛ قاله ابن عبَّاس[٣]. قال البخاريُّ: قال ابن عباس: كلُّ سلطانٍ في القرآن فهو حُجَّة[٤]. انتهى، وقال قتادةُ: «السلطان»: القود[٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الشافعي (٢/٩٦) كتاب «الديات»، الحديث (٣١٨)، والطيالسي ص: (١٣)، الحديث (٧٢)، وأحمد (١/ ٦١)، والدارمي (٢/٢١٨) كتاب «السير» باب: لا يحل دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله، والترمذي (٤/١٩) كتاب «الديات» باب: ما جاء، لايحل دم امرىءٍ مسلم، الحديث (١٤٠٢)، والنسائي (٧/١٠٣) كتاب «تحريم الدم» باب: الحكم في المرتد، وابن ماجه (٢/٨٤٧) كتاب «الحدود» باب: لا يحل دم امرىء مسلم إلا في ثلاث، الحديث (٢٥٣٣)، والحاكم (٤/ ٣٥٠) كتاب «الحدود»، وابن الجارود ص: (٢١٣) رقم (٨٣٦) من حديث عثمان.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وأخرجه الطيالسي ص: (٢١٦)، الحديث (١٥٤٣)، وأحمد (٦/ ٢١٤)، وأبو داود (٤/٥٢٢) كتاب «الحدود» باب: الحكم فيمن ارتد، الحديث (٤٣٥٣)، والنسائي (٧/ ١٠١ ـ ١٠٢) باب: الصلب، والحاكم (٤/٣٦٧) من حديث عائشة، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
وأخرجه البخاري (١٢/٢٠١) كتاب «الديات» باب: قوله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس﴾، حديث (٦٨٧٨).
ومسلم (٣/ ٧٣٠٢) كتاب «القسامة» باب: ما يباح به دم المسلم (٢٥/ ١٦٧٦)، والترمذي (١٤٠٢)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والنسائي (٧/ ٩٢)، وابن ماجه (٢٥٣٤)، والدارمي (٢/ ٢١٨)، والدارقطني (٣/ ٨٢)، والبيهقي (٨/ ١٩)، وأحمد (١١/ ٣٨٢، ٤٢٨، ٤٤٤، ٤٦٥)، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٧٥) برقم: (٢٢٢٨٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٣)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٢٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٧٥) برقم: (٢٢٢٨٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٣).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٧٥) برقم: (٢٢٢٨٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٣)، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٣٢٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ المعنى: فلا يَتَعَدَّ الوليُّ أَمْرَ اللَّه بأَنْ يقتل غير قاتِلِ وليِّه، أو يقتل اثْنَيْن بواحدٍ إلى غير ذلك من وجوه التعدِّي، وقرأ[١] حمزة والكسائيُّ، وابن عامر: «فَلاَ تُسْرِفْ» ـ بالتاء من فوق ـ، قال الطبري[٢]: على الخطاب للنبيِّ ﷺ والأئمة بعده.

قال ❊ ع ❊: ويصحُّ[٣] أنْ يراد به الوليُّ، أي: فلا تسرفْ أيُّها الولي، والضميرُ في «إنه» عائدٌ على «الوليِّ»، وقيل: على المقتول، وفي قراءة أبي بن[٤] كعب: «فَلاَ تُسْرِفُوا في القِتَالِ إِنَّ وليَّ المَقْتُول كانَ مَنْصُوراً»، وباقي الآية تقدَّم بيانه، قال الحسن: ﴿القِسْطاس﴾ هو[٥] القَبَّان[٦]، وهو القرسطون، وقيل: ﴿القِسْطاس﴾: هو الميزانُ، صغيراً كان أو كبيراً.

قال ❊ ع[٧] ❊: وسمعت أبي رحمه الله تعالى يَقُولُ: رأيْتُ الواعِظَ أبا الفضْلِ الجَوْهَرِيَّ رحمه الله في جامعِ عمرو بن العاص يعظُ النَّاسَ في الوزْن، فقال في جملة كلامه: إنَ في هيئة اليَدِ بالميزانِ عِظَةً، وذلك أنَّ الأصابعَ يجيءُ منها صُوَرةُ المكتوبة ألف ولامَانِ وهاء، فكأنَّ الميزان يقولُ: اللَّه، اللَّه.

قال ❊ ع ❊[٨]: وهذا وعظٌ جميلٌ، «والتأويل»، في هذه الآية المآلُ؛ قاله[٩] قتادة،

---

(١) وحجتهم: قراءة عبد اللَّه: «فلا تسرفوا في القتل». وحجة الباقين: أن هذا الكلام أتى عقيب خبر عن غائب، وهو قوله: ﴿من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾.
ينظر: «السبعة» (٣٨٠)، و«الحجة» (٥/ ٩٨ ـ ٩٩)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٧٢)، و«معاني القراءات» (٢/ ٩٤)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٤٣٠)، و«العنوان» (١١٩)، و«حجة القراءات» (٤٠٢)، و«شرح شعلة» (٤٦٣)، و«إتحاف» (٢/ ١٩٧).

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ٧٦).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٣).

(٤) ينظر: «الشواذ» ص: (٨٠)، و«الكشاف» (٢/ ٦٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣١).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٧٩) برقم: (٢٢٣٠٤)، وذكره البغوي (٣/ ١١٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٢٩)، وعزاه لابن المنذر، عن الضحاك.

(٦) هو الميزان ذو الذراع الطويلة المقسمة أقساماً، ينقل عليها جسم ثقيل يسمى الرمانة لتعين وزن ما يوزن.
ينظر: «المعجم الوسيط» (٧٢٠).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٥).

(٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٥).

(٩) أخرجه الطبري (٨/ ٧٩) برقم: (٢٢٣٠٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٥)، وابن كثير في «تفسيره» =

ويحتمل أنْ يكون التأويلُ مصدر تأولَّ، أي: يتأول عليكم الخَيْر في جميع أموركم، إذا أحسنتم الكيلَ والوَزْن.

وقال * ص *: ﴿تأويلاً﴾ أي: عاقبةً انتهى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقف﴾ معناه لا تقُلْ ولا تتَّبع، واللفظة تستعملُ في القَذْف؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ لاَ نَقْفُوا أُمَّنَا، وَلاَ نَنْتِفي مِنْ أَبِينَا»، وأصل[1] هذه اللفظة من اتباع الأثر، تقول: قَفَوْتُ الأَثَرَ، وحكى الطبريُّ[2] عن فرقةٍ؛ أنها قالَتْ: قَفَا وقَافَ، مثل عَثَا وعَاث، فمعنى الآية: ولا تتبع لسانَكَ من القول ما لا عِلْمَ لك به، وبالجملة: فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذفِ وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والمُرْدِيَة.

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ عبَّر عن هذه الحواسِّ بـ ﴿أولئك﴾. لأن لها إدراكاً وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالَةُ مَنْ يعقل.

* ت *: قال * ص *: وما توهمه ابنُ عطية ﴿أولئك﴾ تختصُّ بمن يعقل ليس كذلك؛ إذ لا خلاف بين النحاة في جواز إطلاق «أولاء» و «أولئك» على مَنْ لا يعقل.

* ت *: وقد نقل * ع[3] * الجَوَازَ عن الزَّجَّاجِ وفي أَلفِيَّةِ ابْنِ مالك: [الرجز]

وبِـأُولَـىٰ أَشِـرْ لِـجَـمْـعٍ مُـطْـلَـقَـا .... [4] ....

= (٣/ ٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٢٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٧١) كتاب «الحدود» باب: من نفى رجلاً من قبيلة، حديث (٢٦١٢) من طريق عقيل بن طلحة، عن مسلم بن هيضم، عن الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفضلهم فقلت: يا رسول الله ألستم منا؟ فقال: فذكره، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات؛ عقيل بن طلحة وثقه ابن معين والنسائي، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال الإسناد على شرط مسلم.

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ٨٠) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٦).

(٤) وبعده:

.... وَالْـمَـدُّ أَوْلَـى وَلَـدَى الـبُـعْـدِ انْـطِـقَـا =

فقال ولده بدر الدين: أي سواءٌ كان مذكَّراً أو مؤنَّثاً، وأكثر ما يستعمل فيمن يعقل، وقد يجيء/ لغيره؛ كقوله: [الكامل] ٢٩١ب

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى والعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ[١]

وقد حكى[٢] * ع * البيْتَ، وقال: الرواية فيه «الأقوام»، والله أعلم انتهى.

والضمير في ﴿عنه﴾ يعودُ على ما ليس للإنسان به عِلم، ويكون المعنى: إن الله تعالى يَسْأَل سَمْعَ الإنسان وبَصَره وفُؤَاده عمَّا قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه مِنْ جوارحه، وتلك غايةُ الخزي، ويحتمل أنْ يعود على ﴿كل﴾ التي هي السمْعُ والبصر والفؤاد، والمعنى: إن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده.

قال صاحبُ «الكَلِم الفَارِقِيَّة»: لا تَدَعْ جَدْوَلَ سمعِكَ يجري فيه أُجَاج الباطل؛ فيلهب باطنك بنار الحِرْص على العاجل، السَّمْعُ قُمْعٌ تغور فيه المعاني المَسْمُوعة إلى قرار وعاء القَلْب، فإنْ كانَتْ شريفةً لطيفةً، شرَّفَته ولطَّفَته وهذَّبَته وزكَّته، وإن كانَتْ رذيلةً دنيَّةً، رذَّلَته وخبَّثَته، وكذلك البصَرُ منفَذٌ مِنْ منافذ القَلْب، فالحواسُّ الخمْسُ كالجداول والرواضِعِ

= بِالكَافِ حَرْفاً دُونَ لام أَوْ مَعَهْ وَاللَّامُ إِنْ قَدَّمْتَ «هَا» مُمْتَنِعَهْ

أي: يشار إلى الجمع ـ مذكراً كان أو مؤنثاً ـ بـ «أولَى» ممدوداً أو مقصوراً، والمد أولى، لأنه لغة الحجاز، وبه جاء التنزيل، قال تعالى: ﴿هأنتم أولاء تحبونهم﴾ والقصر لغة تميم.

وأشار بقوله: «ولدى البُعد انطقا....» إلخ: إلى أن المشار إليه له رتبتان: قُرْبَى، وَبُعْدَى:

أما المرتبة القُرْبَى: فتكون بدون كاف الخطاب ولام البُعْد، سواءٌ مع «ها» التنبيه أو بدونها، تقول: (ذا ـ هذا)، و (ذي ـ هذي)، و (ذان ـ هذان)، و (تان ـ هاتان)، و (أولى ـ هؤلَى)، و (أولاء ـ هؤلاء).

والمرتبة البُعْدى: تكون بكاف الخطاب دون لام البعد أو معها، فإن جاءت معها اللام امتنعت «ها» التنبيه، وكنا إن تقدمت «ها» امتنعت اللام، وهذا ما أشار إليه الناظم بقوله: «واللام إن قدمت «ها» ممتنعه»، فتقول: (ذاك ـ هذاك ـ ذلك)، و (تيك ـ هاتيك ـ تلك)، وعلى ذلك قس، وعلى هذاك قول طرفة [من الطويل]:

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِي وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ

(١) البيت لجرير في «ديوانه» ص: (٩٩٠)، وفيه «الأقوام» مكان «الأيّام»، و«تخليص الشواهد» ص: (١٢٣)، و«خزانة الأدب» (٥/ ٤٣٠)، و«شرح التصريح» (١/ ١٢٨)، و«شرح شواهد الشافية» ص: (١٦٧)، و«شرح المفصّل» (٩/ ١٢٩)، و«لسان العرب» (١٥/ ٤٣٧) (أولي)، و«المقاصد النحويّة» (١/ ٤٠٨)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (١/ ١٣٤)، و«شرح الأشموني» (١/ ٦٣)، و«شرح ابن عقيل» ص: (٧٢)، و«المقتضب» (١/ ٨٥).

واستشهد فيه بقوله: «أولئك الأيام» حيث أشار بـ «أولاء» إلى «الأيّام» مِمّا يدلّ على جواز الإشارة بـ «أولاء» إلى جمع غير العاقل. ويروى «الأقوام» مكان «الأيّامِ»، ولا شاهد فيه حينئذ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٦).

تَرْضَعُ من أثداءِ الأشياء التي تُلاَبِسُها، وتأخذ ما فيها من معانيها وأوصافها، وتؤدِّيها إلى القَلْب وتنهيها. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تمش في الأرض مَرَحاً﴾ قرأ الجمهور[1] ﴿مَرَحاً﴾ بفتح الحاء مصدر: مَرِحَ يَمْرَحُ؛ إذا تسيَّب مسروراً بدنياه، مقبلاً على راحته، فنُهِيَ الإنسانُ أنْ يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه، وقرأت فرقةٌ[2]: «مَرِحاً» بكسر الراء، ثم قيل له: إنك أيها المَرِحُ المختال الفخورُ، لن تَخْرِقَ الأرض، ولن تطاول الجبال بفخْرك وكبْرك، «وخرق الأرض» قَطْعها ومَسْحها واستيفاؤها بالمشي.

وقوله سبحانهُ: ﴿كلُّ ذلك كانَ سَيِّئُه﴾ قرأ نافعٌ وابن كثير[3] وأبو عمرو: «سَيِّئَةً» فالإشارة بذلك على هذه القراءةِ إلى ما تقدَّم ذكره مما نهي عنه كقوله: ﴿أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقذف الناس، والمَرَحِ، وغيرِ ذلك، وقرأ عاصم وابن عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ «سَيِّئُهُ» على إضافة «سَيِّء» إلى الضمير، فتكون الإشارة؛ على هذه القراءة إلى جميع ما ذُكِرَ في هذه الآيات؛ من بِرٍّ ومعصيةٍ، ثم اختص ذكْر السَّيِّىء منه، بأنه مكروه عند الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك...﴾ الآية: الإشارةُ بـ ﴿ذلك﴾ إلى هذه الآداب التي تضَّمنتها هذه الآياتُ المتقدِّمة، و﴿الحكمة﴾: قوانينُ المعاني المُحكَمة، والأفْعَالِ الفاضلة.

* ت *: فينبغي للعاقل أنْ يتأدَّب بآداب الشريعة، وأنْ يحسن العِشْرَة مع عَبادِ اللَّه، قال الإمام فَخْرُ الدِّين ابْنُ الخَطِيب في «**شرح أسماء اللَّه الحسَنى**» كان بعضُ المشايِخ يقولُ: مَجَامِعُ الخَيْرَاتِ محصُورَةٌ في أمرَيْنِ صِدْقٍ مَعَ الحَقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْقِ انتهى، وذكر هشامُ بنُ عبْدِ اللَّهِ القرطبيُّ في تاريخه المسمَّى بـ «**بهجة النَّفْسَ**»، قال: دخَلَ عبدُ

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٤٥٦)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٣٩١).

(٢) وقرأ بها يحيى بن يعمر. ينظر: «**مختصر الشواذ**» ص: (٨٠)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٤٥٧)، و«**البحر المحيط**» (٦/ ٣٤)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٣٩١).

(٣) وحجتهم فيما قال أبو عمرو: «ولا يكون فيما نهى اللَّه عنه شيء حسن، فيكون سيئه مكروهاً».
وينظر: «**السبعة**» (٣٨٠)، و«**الحجة**» (٥/ ١٠٢)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٣٧٣)، و«**معاني القراءات**» (٢/ ٩٥)، و«**العنوان**» (١٢٠)، و«**شرح الطيبة**» (٤/ ٤٣١)، و«**حجة القراءات**» (٤٠٣)، و«**شرح شعلة**» (٤٦٣)، و«**إتحاف**» (٢/ ١٩٧).

الملكِ بْنُ مَرْوَانَ على معاوية، وعنده عَمْرُو بن العاصِ، فلم يَلْبَثْ أنْ نَهَضَ، فقال
١٢٩٢ معاوية/ لعمْرٍو: ما أكْمَلَ مُرُوءَةَ هذا الفتى! فقال له عمرو: إنه أخذ بأخْلاَقٍ أربعةٍ، وترك أخلاقاً ثلاثةً، أخذ بأحْسَنِ البشر إذا لقي، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّثَ، وبأحْسَنِ الحديثِ إذَا حَدَّث، وبأحسنِ الرَّدِّ إذا خولِفَ، وتركَ مُزَاحَ من لا يُوثَقُ بعقله، وتَرَكَ مخالَطَةَ لِئَامِ النَّاس، وتَرَكَ مِنَ الحديثِ ما يُعْتَذَرُ منه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تجعلْ مع اللَّه إلٰهاً آخر...﴾ الآية: خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والمراد غيره، «والمدحورُ» المهانُ المُبْعَدُ.

وقوله سبحانه: ﴿أفاصفاكم...﴾ الآية خطابٌ للعرب، وتشنيعٌ عليهم فَسَادَ قولهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾، أي صرَّفنا فيه الحِكَمَ والمواعظ.

وقوله سبحانه: ﴿إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ قال سعيدُ بن جُبَيْر وغيره: معنى الكلام: لاَبْتَغَوْا إليه سبيلاً في إفساد مُلْكِهِ ومُضَاهَاته في قُدْرته[١]، وعلى هذا: فالآية بيان للتمانُع، وجاريةٌ مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهة إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال * ع[٢] *: ونقتضب شيئاً من الدليل على أنه لا يجوزُ أَنْ يكونَ مَعَ اللَّهِ تبارَكَ وتعالى إلٰهٌ غيره؛ على ما قال أبو المَعَالي وغيره: أنا لو فَرَضْناه، لفَرَضْنا أن يريد أحدهما تسكينَ جِسْم والآخرُ تحريكَهُ، ومستحيلٌ أن تنفذ الإرادتانِ ومستحيلٌ ألاَّ تنفذَا جميعاً، فيكون الجِسْمُ لا متحركاً، ولا ساكناً، فإن صحَّت إرادة أحدهما دون الآخر، فالذي لم تتمَّ إرادته ليس بإلٰهٍ، فإن قيل: نفرضهما لا يختلفانِ، قُلْنا: اختلافُهما جائزٌ غيرُ مُمْتَنع عقلاً، والجائز في حُكْم الواقع، ودليلٌ آخر: أنَّه لو كان الاثنانِ، لم يمتنعْ أنْ يكونوا ثلاثةً، وكذلك ويتسلسل إلى ما لا نهاية له، ودليلٌ آخر: أنَّ الجزء الذي لا يتجزَّأ من المخترعات لا تتعلَّق به إلا قدرةٌ واحدةٌ لا يصحُّ فيها اشتراكٌ، والآخر كذلك دَأَباً، فكل جزءٍ إنما يخترعه

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٥٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٣١)، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٩).

واحدٌ، وهذه نبذة شرحُها بحَسَبِ التقصِّي يطولُ.

وقوله سبحانه: ﴿وإِنْ من شيء إلا يسبح بحمده...﴾ الآية: اختلف في هذا «التسبيح»، هل هو حقيقةٌ أو مجاز، * ت *: والصوابُ أنه حقيقة، ولولا خشية الإطالة، لأتينا من الدلائل على ذلك بما يُثْلِجُ له الصَّدر.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ يعني كفَّارَ مكَّة و﴿حجاباً مستوراً﴾ يحتمل أن يريد به حمايةَ نبيِّه منهم وقْتَ قراءته وصلاتِهِ بالمَسْجد الحرام؛ كما هو معلوم مشهورٌ ويحتمل أنه أراد أنه جعل بين فَهْم الكفرة وبَيْنَ فَهْم ما يقرؤه ﷺ حجاباً، فالآية على هذا التأويل: في معنى التي بعدها.

وقال الواحديُّ: قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن...﴾ الآية: نزلَتْ في قوم كانوا يؤذون النبيَّ ﷺ، إذا قرأ القرآن فحَجَبه اللَّه عن أعينهم عنْدَ قراءة القرآن، حتى يكونوا يَمُرُّونَ به ولا يَرَوْنَه.

وقوله: ﴿مستوراً﴾ معناه: ساتراً انتهى.

٢٩٢ ب «والأكنَّة» جمع كِنَان، وهو ما غطى الشيء، «والوَقْرُ»: الثِّقَل في الأُذُن، المانعُ/ من السمعِ، وهذه كلُّها استعاراتٌ للإِضلالِ الذي حَفَّهم اللَّه به.

وقوله سبحانُهُ: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به...﴾ الآية: هذا كما تقولُ: فلان يستمعُ بإعراضٍ وتغافلٍ واستخفافٍ، «وما» بمعنى «الذي»، قيل: المراد بقوله: ﴿وإذ هم نجوى﴾ اجتماعُهم في دار الندوة، ثم انتشرتْ عنهم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿انظر كيف ضربوا لَكَ الأمثال...﴾ الآية: حكى الطبري[1] أنها

---

(١) ينظر: «الطبري» (٨/٨٨).

نزلَتْ في الوليدِ بْنِ المُغِيرة وأصحابه.

وقوله سبحانه: ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾، أي: إلى إفساد أمرك وإطفاء نورك، وقولهم: ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الآية في إنكارهم البَعْثَ، وهذا منهم تعجُّب وإنكار واستبعاد و«الرُّفَاتُ» من الأشياء: ما مَرَّ عليه الزمانُ حتى بلغ غايةَ البِلَى، وقربه مِنْ حالة التُّرَاب.

وقال ابن عباس: ﴿رُفَاتاً﴾ غباراً[(١)] وقال مجاهد: تُرَاباً[(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿قل كونوا حجارةً أو حديداً...﴾ الآية: المعنى: قل لهم، يا محمَّد، كونوا إِن استطعتم هذه الأشياءَ الصَّعبة الممتَنِعَةَ التأتِّي لا بُدَّ من بعثكم، ثم احتَجَّ عليهم سبحانه في الإعادة بالفِطْرة الأولى من حيثُ خلقهم واختراعُهم من تُرَاب.

وقوله سبحانه: ﴿فسينغضون﴾ معناه يرفعون ويُخْفِضُون، يريد على جهة التكذيب والاستهزاء. قال الزَّجَّاج: وهو[(٣)] تحريك مَنْ يبطل الشيء ويَسْتَبْطِئُهُ ومنه قول الشاعر: [الرجز]

أَنْــغَــضَ نَــحْــوِي رَأْسَــهُ وَأَقْــنَــعَــا   كَــأَنَّــمَــا أَبْــصَــرَ شَــيْــئــاً أَطْــمَــعَــا[(٤)]

ويقال: أَنْغَضَتِ السِّنُّ؛ إذا تحرَّكَتْ، قال الطبري[(٥)] وابنُ سَلاَّمٍ: ﴿عَسى﴾ من اللَّه واجبةٌ، فالمعنى: هو قريبٌ، وفي ضمن اللفظِ توعُّد.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يوم يدعوكم﴾: بدل من قوله: ﴿قريباً﴾ ويظهرأنْ يكون المعنى «هو يَوْمَ» جواباً لقولهم: «متى هو»، ويريد يدعوكم من قبوركم بالنفْخ في الصُّور لقيامِ الساعة.

وقوله: ﴿فتستجيبون﴾، أي: بالقيامِ، والعودةِ والنهوضِ نَحْوَ الدعوة.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٨٩) برقم: (٢٢٣٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٩)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٨٨) برقم: (٢٢٣٤٥)، وذكره البغوي (٣/ ١١٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٩)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ٢٤٥).

(٤) البيت من شواهد: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٢).

(٥) ينظر: «الطبري» (٨/ ٩٢).

وقوله: ﴿بحمده﴾ قال ابن جُبَيْر: إن جميع العالمين يقومُونَ، وهم يَحْمَدُون اللّه ويمَجِّدونه، لما يظهر لهم مِنْ قُدْرته[١] * ص *: أبو البقاء ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: حامدين، وقيل: ﴿بحمده﴾ من قول الرسول، أي: وذلك بحمد اللّه على صدْقِ خَبَري، ووقع في لفظ * ع * حين قرر هذا المعنى: «عَسَى أن الساعة قريبةٌ» وهو تركيبٌ لا يجوزُ؛ لا تقولُ: عَسَى أنَّ زيداً قائمٌ انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ يحتملُ معنيين.

أحدهما: أنهم لَمَّا رجعوا إلى حالة الحياةِ، وتصرُّف الأجساد، وقع لهم ظَنٌّ أنهم لم ينفصلوا عن حال الدُّنْيا إلا قليلاً لمغيبِ عِلْم مقدار الزمان عنهم؛ إذ مَنْ في الآخرة لا يقدِّر زمن الدنيا؛ إذ هم لا محالة أشدُّ مفارقةً لها من النائمين، وعلى هذا التأويل عوَّل الطبري[٢].

والآخر: أنْ يكون الظنُّ بمعنى اليقينِ، فكأنه قال: يوم يَدْعُوكم فتستجيبون بَحْمِدِهِ، وتتيقنون أنكم إنما لبثتم قليلاً من حيثُ هو منقضٍ منحصرٌ.

وحكى الطبريُّ عن قتادة أنهم لما رأوا هولَ يوم القيامة، احتقروا/ الدُّنْيا، فظنوا أنهم ٢٩٣أ
لبثوا فيها قليلاً[٣].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ اختلف الناس في ﴿التي هي أحسَنُ﴾: فقالت فرقةٌ: هي لا إله إلا اللّه؛ وعلى هذا، فـ«العباد»: جميعُ الخلق، وقال الجمهور ﴿التي هي أحسن﴾: هي المحاورة الحَسَنة، بحسب معنى معنى، قال الحسن يقول: يَغْفِرُ اللّه لك، يَرْحَمُكَ اللّه[٤] وقوله: ﴿لعبادي﴾ خاص بالمؤمنين، قالت فرقة: أمر

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٩)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ١٠٣).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٩٣) برقم: (٢٢٣٦٩)، وذكره البغوي (٣/ ١١٩)، وابن عطية (٣/ ٤٦٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٠)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٩٣) برقم: (٢٢٣٧٠)، وذكره البغوي (٣/ ١١٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/ ٤٦٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٠)، وعزاه لابن جرير.

اللَّه المؤمنين فيما بينهم بُحسن الأدب، وخَفْضِ الجناحِ، وإلانة القَوْل، واطِّراحِ نَزَعاتِ الشيطان، ومعنى النَّزْغ: حركاتُ الشيطانِ بُسْرعة؛ ليوجب فساداً، وعداوةُ الشيطان البيِّنة: هي من قصة آدم عليه السلام، فما بعد، وقالَتْ فرقة: إنما أمر اللَّه في هذه الآية المؤمنين بإلانة القوْلِ للمشركين بمكَّة أيام المُهادنة، ثم نُسِخَتْ بآية السيف.

وقوله سبحانه: ﴿ربكم أعلم بكم﴾: يقوِّي هذا التأويل؛ إذ هو مخاطبةٌ لكفَّار مكَّة؛ بدليل قوله: ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ فكأن اللَّه عزَّ وجل أمر المؤمنين ألاَّ يخاشنوا الكُفَّار في الدين، ثم قال للكفَّار إنه أعلم بهم ورجَّاهم وخوَّفهم، ومعنى ﴿يَرْحَمكم﴾ بالتوبة عليكم من الكُفْر؛ قاله ابن جُرَيْج وغيره[١].

وقوله سبحانه: ﴿وآتينا داود زَبُوراً﴾ قرأ الجمهور[٢]: «زَبُوراً» بفتح الزاي، وهو فَعُولٌ بمعنى مَفْعُولٍ، وهو قليلٌ؛ لم يَجِيءْ إلا في قَدُوع وَرَكُوب وَحَلُوب، وقرأ حمزة[٣]: بَضَمِّ الزاي قال قتادة: زبور دَاوُدَ مَواعظُ ودعاءٌ، وليس فيه حلالٌ ولا حرامٌ[٤].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ هذه الآيةُ ليست في عبدة الأصنام، وإنما هي في عَبَدَةِ مَنْ يعقل، كعيسَى وأمِّه وعُزَيْرٍ وغيرهم. قاله ابن عباس[٥]، فلا يملكُونَ كَشْفَ الضرِّ ولا تحويله، ثم أخبر تعالى،

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٩٣) برقم: (٢٢٣٧١)، وذكره البغوي (٣/ ١١٩)، وابن عطية (٣/ ٤٦٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٦٥).

(٣) وقرأ بها يحيى والأعمش. ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٦٥)، و«السبعة» (٣٨٢)، و«الحجة» (٥/ ١٠٨)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٧٦)، و«العنوان» (١٢٠)، و«إتحاف» (٢/ ٢٠٠).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٥) والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٩٦) برقم (٢٢٣٨٥)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٠)، وابن عطية (٣/ ٤٦٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

أنَّ هؤلاء المعبودين يَطْلُبُون التقرُّب إلى اللَّه والتزلُّف إليه، وأنَّ هذه حقيقة حالِهِمْ.

وقوله سبحانه: ﴿ويرجون رحمته...﴾ الآية: قال عزُّ الدين بْنُ عَبْدِ السَّلاَمِ، في اختصاره لـ «رِعَايَة المُحَاسِبِيّ»: الخوفُ والرجاءُ: وسيلَتَانِ إلى فعْلِ الواجباتِ والمندوباتِ، وتركِ المحرَّمات والمكروهاتِ، ولكنْ لا بدَّ من الإِكباب على ٱستحْضَار ذلك وٱستدامته في أكثر الأوقات؛ حتى يصير الثواب والعقاب نُصْبَ عينيه، فَيَحُثَّاه على فعْلِ الطاعات، وتركِ المخالفات، ولَنْ يحصُلَ له ذلك إلا بتَفْريغ القَلْبِ مِنْ كل شيء سِوَى ما يفكر فيه، أو يعينه على الفِكْرِ، وقد مُثِّلَ القلْبُ المريضُ بالشهوات بالثوْبِ المتَّسِخِ الذي لا تَزُولُ أدرانه إلا بتَكْرير غَسْله وحَتِّه وقَرْضِهِ، انتهى. وباقي الآية بيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها...﴾ الآية: أخبر سبحانه في هذه الآية أنَّه ليس مدينةٌ من المُدُنِ إلا هي هَالِكَة قبل يوم القيامة بالموتِ والفناءِ، هذا مع السَّلامة وأخْذِها جُزءاً جُزءاً، أو هي معذَّبة مأخوذةٌ مرةً واحدةً.

٢٩٣ب / وقوله: ﴿في الكتاب﴾: يريد في سابقِ القَضاء، وما خَطَّه القلم في اللوْحِ المحفوظ، «والمسطور»: المكتوب أسطاراً.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما منعنا أنْ نرسل بالآيات...﴾ الآية: هذه العبارة في ﴿منعنا﴾ هي على ظاهر ما تَفْهَمُ العربُ، فسمى سبحانه سبْقَ قضائِهِ بتَكْذيب مَنْ كذَّب وتعذيبِهِ ـ مَنْعاً؛ وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على النبيِّ ﷺ أن يجعل لهم الصَّفَا ذَهَباً، ونحو هذا من الاقتراحات، فأوحى اللَّه إلى نبيه عليه السلام: إن شئْتَ أفعلُ لهم ذلك، ثم إن لم يؤمنوا، عاجَلْتُهُمْ بالعقوبة، وإن شئْتَ، استأْنَيْتُ بهم؛ عسى أن أَجْتَبِيَ منهم مؤمنين، فقال عليه السلام: بَلِ ٱسْتَأْنِ بِهِمْ يَا رَبِّ[1]، فأخبر سبحانه في هذه الآية؛ أنه لم يمنعه جلَّ وعلاَ من إِرسال الآياتِ المقْتَرَحةِ إِلا الاستئناءُ؛ إِذ قد سلفت عادته سبحانه بمعاجلة الأمم الذين

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٨٠) كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾، حديث (١١٢٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٧٤)، والحاكم(٢/ ٣٦٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧١) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٤)، وزاد نسبته إلى البزار وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

جاءتهم الآيات المقترحة، فلم يؤمنوا كثمودَ وغيرهم. قال الزَّجَّاج[(١)]: أخبر تعالى أنَّ موعد كفار هذه الأمة الساعة؛ بقوله سبحانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] فهذه الآية تنظُرُ إلى ذلك، و﴿مبصرة﴾ أي: ذاتُ إبصار وهي عبارةٌ عن بيان أمْر الناقة، ووضوح إعجازها، وقوله: ﴿فظلموا بها﴾، أي: بِعَقْرِها، وبالكُفر في أمرهَا، ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآياتِ غيرِ المُقْتَرَحِةِ؛ تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إمهال، فمن ذلك الكُسُوفُ والرعْدُ والزلزلةُ وقَوْسُ قُزَحَ، وغَيْرُ ذلك، وآيات اللَّه المعتَبرُ بها ثلاثةُ أقْسَام: فقسمٌ عامٌّ في كل شيء، إذ حيث ما وضَعْتَ نَظَرك، وجدت آيةً، وهنا فِكْرة للعلماء، وقِسْمٌ معتاد غالباً؛ كالكسوف ونحوه، وهنا فِكْرَة الجَهَلَةِ، وقسْمٌ خَارِقٌ للعادة، وقد انقضى بانقضاء النبوَّة، وإنما يعتبر به، توهُّماً لما سلف منه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ هذه الآيةُ إخبار للنبي ﷺ بأنه محفوظٌ من الكَفَرة آمِنٌ، أي: فَلْتُبَلِّغْ رسالةَ ربِّك، ولا تتهَيَّب أحداً من المخلوقين؛ قاله الطبريُّ[(٢)]؛ ونحوه للحَسَن[(٣)] والسُّدِّيِّ.

وقوله سبحانه: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك. . .﴾ الآية: الجمهورُ أنَّ هذه الرؤيا رُؤيا عينٍ ويقظةٍ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما كان صَبِيحَةَ الإسراء، وأخبر بما رأى في تلك الليلة من العجائب، قال الكفَّار: إن هذا لعجب، واستبعدوا ذلك؛ فافْتُتِنَ بهذا قومٌ من ضَعَفَةِ المسلمين؛ فارتدُّوا؛ وشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ؛ فنزلَتْ هذه الآية؛ فعلى هذا يحسُنُ

---

(١) ينظر: «تفسير الزجاج» (٣/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ١٠٠).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٠) برقم: (٢٢٤٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

أنْ يكون معنى قوله: ﴿أحاط بالناس﴾ في إضلالهم وهدايتهم، أي: فلا تهتمَّ/ ، يا محمَّد، ٢٩٤أ
بكُفْر من كفر، وقال ابن عباس: الرؤيا في هذه الآية هي رؤيا النبيِّ ﷺ أنه يدخُلُ مكَّة، فعجَّل في سنة الحُدَيْبِيَة، فَصُدَّ فَٱفْتَتِنَ المسلمون لذلك، يعني بعَضهم، وليس بفتْنَة كُفْر[١].

وقوله: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ معطوفة على قوله: ﴿الرؤيا﴾، أي جعلنا الرؤيا والشَّجرةَ فتنةً ﴿والشجرة الملعونة﴾؛ في قول الجمهورِ: هي شجرةُ الزَّقُّوم، وذلك أن أمرها لما نَزَلَ في سورة «والصَّافَّات» قال أبو جَهْلٍ وغيره: هذا محمَّد يتوعَّدكم بنَارٍ تَحْرِقُ الحِجَارة، ثم يزعُمُ أنها تُنْبِتُ الشجَرَ، والنار تأكلُ الشجَر، وما نعرفُ الزَّقُّوم إلا التمر بالزُّبْد، ثم أحضر تمراً وزُبْداً، وقال لأصحابه، تَزَقَّمُوا، فَٱفْتُتِنَ أيضاً بهذه المقالةِ بعْضُ الضعفاء، قال الطبري عن[٢] ابن عباس: أن الشجرة الملعونَةَ، يرُيد الملعونَ أُكُلُهَا؛ لأنها لم يَجْرِ لها ذكر[٣].

قال * ع *[٤] ويصحُّ أَن يريد الملعونَةِ هنا، فأكَّد الأمر بقوله: ﴿في القرآن﴾، وقالت فرقة: ﴿الملعونة﴾، أي: المُبْعَدَة المكْروهة، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله، ولا شك أن ما ينبت في أصْل الجحيمِ هو في نهاية البُعْدِ من رحمة الله سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿ونخوفهم﴾ يريد كفَّار مكَّة.

وقوله: ﴿أرأيتك هذا الذي كرَّمْتَ عَليّ﴾ الكافُ في «أَرَأَيْتَكَ» هي كافُ خطابٍ ومبالغةٍ في التنبيه، لا موضعَ لها من الإعراب، فهي زائدةٌ، ومعنى «أَرأَيْتَ»: أتأملت ونحوه، كأنَّ المخاطِبَ بها ينبِّه المخاطَبَ ليستَجْمِعَ لما ينصُّه بعْدُ.

وقوله: ﴿لأحتنكن﴾ معناه لأُمِيلَنَّ ولأَجُرَّنَّ، وهو مأخوذ من تَحْنِيكِ الدابَّة، وهو أن يشدَّ على حَنَكِها بحَبْلٍ أو غيره، فتقاد، والسَّنةُ تَحْتَنِكُ المالَ، أي: تجتره، وقال الطبري[٥] «لأحتنكَنَّ» معناه لأستأصلنَّ، وعن ابن عباس: لأستولين[٦]، وقال ابن زيد[٧]: لأُضِلَّنَّ.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٣) برقم: (٢٢٤٣٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٨)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٤٦)، وعزاه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في **«البعث»**.

(٢) ينظر: **«الطبري»** (٨/ ١٠٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٦٨).

(٤) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٦٨).

(٥) ينظر: **«الطبري»** (٨/ ١٠٧).

(٦) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٧) برقم: (٢٢٤٦١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٠)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٣/ ٤٩)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٤٧)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٧) برقم: (٢٢٤٦٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٠)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٣/ =

قال * ع *[١] وهذا بدلُ اللفظ، لا تفسير.

وقوله: ﴿اذهَبْ فمن تبعك منهم﴾، وما بعده من الأوامر: هي صيغةُ «افْعَلْ» بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] «الموفور»، المُكْمَل، ﴿واستفزز﴾ معناه: اْستخِفَّ واْخدَعْ، وقوله: ﴿بصوتك﴾: قيل: هو الغِنَاء والمزامير والمَلاَهي، لأنها أصواتٌ كلُّها مختصة بالمعاصي، فهي مضافةٌ إلى الشيطانِ، قاله مجاهد[٢]، وقيل: بدعائك إياهم إلى طاعتك. قال ابن عباس: صوته دعاءُ كُلِّ مَنْ دعا إلى معصيةِ[٣] اللَّه، والصوابُ أنْ يكون الصوتُ يعمُّ جميع ذلك.

وقوله: ﴿وأجلب﴾، أي: هوِّل، و«الجَلَبَة» الصوتُ الكثير المختلِطُ الهائل.

وقوله: ﴿بخيلك ورجلك﴾ قيل: هذا مجازٌ واْستعارة بمعنى اسع سعيك، وابلغ جهدك، وقيل: حقيقةٌ وإنَّ له خيلاً ورَجُلاً من الجنِّ، قاله[٤] قتادة، وقيل: المراد فرسان الناس، ورجالتهم المتصرِّفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم[٥]؛ قاله مجاهد.

٢٩٤ ب ﴿وشاركهم/ في الأموال والأولاد﴾ عامٌّ لكل معصية يصنعها الناس بالمال، ولكلِّ ما يصنع في أمر الذرِّية من المعاصي، كالإيلاد بالزنا وكتسميتهم عَبْدَ شَمْس، وأبا الكُوَيْفِر، وعَبْدَ الحارِثِ، وكلِّ اسْم مكروه؛ ومن ذلك: وأد البنات؛ ومن ذلك: صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخله النَّقَّاش من وطْء الجنِّ، وأنه يُحْبِلُ المرأة من الإِنسِ، فضعيفٌ كلُّه.

* ت *: أما ما ذكره من الحبل، فلا شك في ضَعْفه، وفسادِ قولِ ناقله، ولم أر في ذلك حديثاً لا صحيحاً ولا سقيماً، ولو أمكن أنْ يكون الحَبَلُ من الجنِّ، كما زعم ناقله،

= ٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٧)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(١) ينظر: «المحرر» (٣/ ٤٧٠).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٨) برقم: (٢٢٤٦٦)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٨)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٨) برقم (٢٢٤٦٨)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٨)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٨) برقم: (٢٢٤٧١)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٠)، وذكره ابن كثير (٣/ ٤٩).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٩) برقم: (٢٢٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٠).

لكان ذلك شُبْهَةً يدرأ بها الحَدُّ عمَّن ظهر بها حَبَلٌ من النساء اللواتِي لا أزواج لهنَّ؛ لاحتمال أنْ يكون حَبَلُها من الجنِّ؛ كما زعم هذا القائلُ، وهو باطلٌ، وأما ما ذكره من الوطء، فقد قيل ذلك؛ وظواهر الأحاديث تدلُّ عليه، وقد خرَّج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائي وابن ماجه، عن ابن عبَّاس، قال: قَالَ النبيُّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ في ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أبداً»[(١)] فظاهر قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ، جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزقتنا» ـ يقتضي أنَّ لهذا اللعين مشاركةً مَّا في هذا الشأنِ، وقد سمعتُ من شيخنا أبي الحسن عليِّ بن عِثمانَ الزَّواويِّ المَانْجلاَتِيِّ سَيِّدِ علماء بِجَايَةَ في وقْته، قال: حدَّثني بعضُ الناس ممَّن يوثَقُ به يخبر عن زوجته؛ أنها تجدُ هذا الأمْرَ، قال المخبِرُ: وأصْغَيْتُ إلى ما أخبرت به الزوجَةُ، فسمعتُ حِسَّ ذلك الشيءِ، والله أعلم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾: إِزجاء الفُلْك: سَوْقه بالريحِ الليِّنة والمجاذيفِ، و﴿لتبتغوا من فضله﴾ لفظ يعمُّ التَّجْر وغيره، وهذه الآية المباركةُ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٩١) كتاب «الوضوء» باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، حديث (١٤١)، وفي (٦/ ٣٨٨) كتاب «بدء الخلق» باب: صفة إبليس، وجنوده، حديث (٣٢٨٣)، وفي (٩/ ١٣٦) كتاب «النكاح» باب: ما يقول الرجل إذا أتى أهله، حديث (٥١٦٥)، وفي (١٠/ ١٩٥) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا أتى أهله، حديث (٦٣٨٨)، وفي (١٣/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، كتاب «التوحيد» باب: السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، حديث (٧٣٩٦)، ومسلم (٢/ ١٠٥٨) كتاب «النكاح» باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، حديث (١٦/ ١٤٣٤)، وأبو داود (٢/ ٦٥٥) كتاب «النكاح» باب: في جامع النكاح، حديث (٢١٦١)، والترمذي (٣/ ٣٩٢) كتاب «النكاح» باب: ما يقول إذا دخل على أهله، حديث (١٠٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٧٥) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا واقع أهله، وابن ماجه (١/ ٦١٨) كتاب «النكاح» باب: ما يقول الرجل إذا دخلت عليه أهله، حديث (١٩١٩)، وأحمد (١/ ٢١٧، ٢٢٠، ٢٤٣، ٢٨٣، ٢٨٦)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٤)، وعبد الرزاق(٦/ ١٩٤) رقم: (١٠٤٦٦)، وابن حبان (٩٨٤ ـ الإحسان)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ١٢٣ ـ بتحقيقنا). كلهم من طريق كريب، عن ابن عباس مرفوعاً.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

توقيفٌ على آلاء اللَّه وفَضْلِهِ ورحمته بعباده، و﴿الضُّرُّ﴾، هنا لفظ يعمُّ الغرق وغيره، وأهوال حالات البحر واضطرابه وتموجه، و﴿ضَلَّ﴾ معناه تلف وفُقِدَ.

وقوله: ﴿أعرضتم﴾، أي: فلم تفكَّروا في جميل صنع اللَّه بكم.

وقوله: ﴿كفوراً﴾ أي: بالنعم و﴿الإنسان﴾؛ هنا: الجنس، «والحاصب»: العارض الرامي بالبَرَدِ والحجارةِ؛ ومنه الحاصب الذي أصابَ قوْمَ لوطٍ، «والحَصْبُ» الرمْيُ بالحَصْبَاء، «والقاصف»: الذي يَكْسِر كلَّ ما يَلْقى ويقْصِفُه، و«تارةً» معناه: مرَّة أخرى، «والتبيع» الذي يطلب ثأراً أو دَيْناً؛ ومنْ هذه اللفظة قوله ﷺ: «إذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ على مَلِيٍّ فَلْيُتْبِعْ» فالمعنى: لا تجدون مَنْ يَتَتَبَّع فعلنا بكم، ويطلب نُصْرَتكم وهذه الآيات أنوارُهَا واضحةٌ للمهتدين.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

وقوله جلَّت عظمته ﴿ولقد كرمنا بني آدم...﴾ الآية: عدَّد اللَّه سبحانه على بني آدم
١٢٩٥أ ما خصَّهم به من المزايا مِنْ بين سائر الحيوان، ومن أفضل ما أكْرَم به الآدميَّ/ العقْلُ الذي به يعرفُ اللَّه تعالى، ويفهم كلامه، ويوصِّل إلى نعيمه.

وقوله سبحانه: ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ المراد بـ«الكثير المفضولِ» الحيوانُ والجنُّ، وأما الملائكة، فهم الخارجون عن الكثير المفضول، وليس في الآية ما يقتضي أن الملائكة أفضَلُ من الإنسِ؛ كما زعمت فرقة؛ بل الأمر محتملٌ أنْ يكونوا أفضَلَ من الإنس، ويحتمل التساوي.

وقوله سبحانه: ﴿يوم ندعوا كلَّ أناس بإمامهم﴾ يحتمل أن يريد باسْم إمامهم، فيقول: يا أمة محمَّد، ويا أتباع فِرْعَوْنَ، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم أنْ تجيء كل أمَّة معها إمامها من هادٍ ومضلٍّ، واختلف في «الإمام»، فقال ابن عباس والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم[١]، وقال قتادة ومجاهد: نبيهم[٢]، وقال ابن زيد: كتابهم الذي

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١١٦) برقم: (٢٢٥٢١)، وبرقم: (٢٢٥٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥١)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١١٥) برقم: (٢٢٥١٥)، وبرقم: (٢٢٥١٩)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٥)، =

نَزَلَ عليهم[١]، وقالت فرقة: متَّبَعُهُم مِنْ هادٍ أو مُضِلٍّ، ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كلَّه.

وقوله سبحانه: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾: حقيقةٌ في أن في القيامة صحائفَ تتطاير، وتوضعُ في الأيْمَان لأهلِ الأيمانَ، وفي الشمائل لأهل الكُفْر والخذلان، وتوضع في أيمان المذْنِبِين الذين يَنْفُذُ عليهم الوعيد، فيستفيدون منها أنهم غَيْرُ مخلَّدين في النار.

وقوله سبحانه: ﴿يقرءون كتابهم﴾: عبارةٌ عن السرور بها، أي: يردِّدونها ويتأمَّلونها.

وقوله سبحانه: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي: ولا أقلَّ، وقوله سبحانه: ﴿ومن كان في هذه أعَمى﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الإشارة بـ ﴿هذهِ﴾ إلى الدنيا، أي: مَنْ كان في هذه الدارِ أعمى عن النظرِ في آيات اللَّه وعِبَرِه، والإيمان بأنبيائه[٢]، فهو في الآخرة أعمى؛ على معنى أنه حيرانُ لا يتوجَّه لصوابٍ ولا يلوحُ له نُجْحٌ. قال مجاهد: فهو في الآخرة أعمى عن حُجَّته[٣]، ويحتمل أنْ يكون صفةَ تفضيلٍ، أي: أشدُّ عمًى وحيرةً؛ لأنه قد باشر الخَيْبة ورأى مخايل العذاب؛ ويقوِّي هذا التَّأويل قوله، عطفاً عليه: ﴿وأضَلُّ سبيلاً﴾ الذي هو «أَفْعَلُ مِنْ كَذَا» والعمى في هذه الآية هو عَمَى القلب، وقولُ سِيبَوَيْه: لا يقال أعمى مِنْ كَذَا، إنما هو في عمى العينِ الذي لا تفاضُلَ فيه، وأما في عمى القَلْبِ، فيقال ذلك؛ لأنه يقع فيه التفاضل * ت *: وكذا قال * ص * وقوله سبحانه: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره...﴾ الآية: الضمير في قوله: ﴿كادوا﴾ هو لقريشٍ، وقيل: لثقيفٍ، فأما لقريش، فقال ابن جبير ومجاهد: نزلَتِ الآية، لأنهم قالوا للنبيِّ ﷺ لاَ نَدَعُكَ تستلمُ الحَجَرَ الأسْوَدَ حتى تَمَسَّ أيضاً أوثانَنا على معنى التشرُّع[٤]، وقال ابن إسحاق وغيره: إنهم اجتمعوا إليه ليلةً، فعظَّموه، وقالوا له: أنْتَ سيِّدنا، ولكنْ أَقْبِلْ على بعض أمْرنا، ونُقْبِلُ على بعض أمرك، فنزلَتِ الآية في ذلك[٥].

= وابن عطية (٣/ ٤٧٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١١٦) برقم: (٢٢٥٢٦، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١١٧) برقم: (٢٢٥٣٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١١٨) برقم: (٢٢٥٣٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٤).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١١٨) برقم: (٢٢٥٣٦)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٦)، وابن عطية (٣/ ٤٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٥).

قال * ع *[١]: فهي في معنى قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وأما لثقيفٍ، فقال ابن عباسٍ وغيره: لأنهم طلبوا من رسولِ اللَّه ﷺ أنْ يؤخرهم بعد إِسلامهم سنَةً يعبدون فيها اللاَّتَ، وقالوا: إِنما نريد أن نأخذ ما يُهْدَى لها ولكن إِنْ خفْتَ أَنْ تنكر / ذلك عليك العربُ، فقل: أَوْحَى اللَّهُ ذلك إِلَيَّ، فنزلَتِ الآية في ذلك[٢]. * ت *: واللَّه أعلم بصحَّة هذه التأويلاتِ، وقد تقدَّم ما يجبُ اعتقاده في حَقِّ النبيِّ ﷺ، فالتزمه تُفْلِحْ. ٢٩٥ب

وقوله: ﴿وإِذاً لاتَّخذوك خليلاً﴾: توقيفٌ على ما نجاه اللَّه منه من مُخَالَّةِ الكفَّار، والولايةِ لهم.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولولا أن ثبتناك...﴾ الآية تعديدُ نعمه على النبيِّ ﷺ، وروي أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ هذه الآيةُ، قال: «اللَّهُمَّ، لاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ[٣] عينٍ» وقرأ الجمهور[٤] (تركن) بفتح الكاف، والنبيُّ ﷺ لم يركَنْ، لكنَّه كاد بَحسَب هَمِّه بموافقتهم؛ طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباريِّ إِلى أن معنى الآية: لقد كادوا أن يخبروا عنْكَ أنَّك ركَنْتَ ونحو هذا؛ ذهب في ذلك إِلى نفي الهمِّ عن النبيِّ ﷺ، فحمَّل اللفظ ما لا يحتملُ؛ وقوله: ﴿شيئاً قليلاً﴾ يبطلُ ذلك.

* ت *: وجزى اللَّه ابنَ الأنباريِّ خيراً، وإِن تنزيه سائر الأنبياء لواجبٌ، فكيف بسيِّد ولد آدم صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

قال أبو الفَضْل عياضٌ في «الشِّفَا»: قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إِليهم شيئاً قليلاً﴾: قال بعض المتكلِّمين: عاتب اللَّه تعالى نبيَّنا عليه السلام قبل وقوع ما يوجبُ العتاب؛ ليكون بذلك أشدَّ انتهاءً ومحافظةً لشرائط المحبَّة، وهذه غاية العناية، ثم انظُرْ كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذِكْر ما عاتبه عليه، وخيف أنْ يركن إِليه، وفي أثناء عتبه

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١١٩) برقم: (٢٢٥٤٠)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٦) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٤٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٣)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبد اللَّه بن أبي إسحاق «تركُن» بضم الكاف.
ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٦٢)، و«الدر المصون» (٤/ ٤١٠).

بَرَاءَتُه، وفي طَيِّ تخويفه تأمينُه.

قال عياضٌ رحمه الله: ويجبُ على المؤمن المجاهِدِ نفسَهُ الرائِضِ بزمامِ الشريعةِ خُلُقَهُ؛ أن يتأدَّب بآدابِ القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضَةُ الآداب الدينية والدنيوية انتهى.

قال * ع *[1]: وهذا الهمُّ من النبيِّ ﷺ إنما كان خَطْرة مما لا يمكِنُ دفعه، ولذلك قيل: ﴿كِدتَّ﴾ وهي تعطي أنه لم يقعْ ركونٌ، ثم قيل: ﴿شيئاً قليلاً﴾؛ إذ كانت المقاربة التي تضمنتها ﴿كِدتَّ﴾ قليلةً خطرةً لم تتأكَّد في النفْس.

وقوله: ﴿إذاً لأذقناك...﴾ الآية: يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابنُ الأنباريِّ.

* ت *: وما ذكره * ع * رحمه الله تعالى من البطلان لا يصحُّ، وما قدَّمناه عن عياضٍ حسنٌ؛ فتأمَّله.

وقوله: ﴿ضعف الحياة﴾: قال ابن عباس وغيره: يريد ضِعْفَ عذاب الحياةِ، وضِعْفَ عذاب الممات[2].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها...﴾ الآية: قال الحَضْرَمِيُّ: الضمير في «كادوا» ليهود المدينة وناحيتها، ذهبوا إلى المَكْرِ بالنبيِّ ﷺ، فقالوا له: إن هذه الأرضَ ليست بأرض الأنبياء، فإن كنت نبيًّا، فاْخرجْ إلى الشام، فإنها أرض الأنبياء، فنزلَت الآية، وأخبر سبحانه أن رسُول اللّه ﷺ لو خَرَج،/ لم يلبثوا بعده إلا[3] ٢٩٦أ
قليلاً، وقالت فرقة: الضمير لقريشٍ، قال ابن عباس: وقد وقع استفزازهم وإخراجهم له، فلم يلبثوا خلفه إلا قليلاً يومَ بَدْرٍ[4].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٠) برقم: (٢٢٥٤٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٣)، وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٢١) برقم: (٢٢٥٤٩)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٧)، وابن كثير (٣/ ٥٣) عن عبد الرحمٰن بن غنم، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٣)، وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٢١) برقم: (٢٢٥٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال مجاهد: ذهبَتْ قريش إلى هذا، ولكنه لم يقعْ منها؛ لأنه لما أراد اللَّه سبحانه استبقاء قُرَيْش، وألاَّ يستأصلها، أذِنَ لرسوله في الهجْرة، فخرج من الأرض بإذن اللَّه، لا بَقْهر قريشٍ، واستُبْقِيَتْ قريشٌ؛ لِيُسلِمَ منها ومِنْ أعقابها مَنْ أسْلَم[1].

* ت *: قال * ص *: قوله ﴿لا يلبثون﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: واللَّهِ، إن استُفْزِزْتَ، فخرجْتَ، لا يلبثون خلفك إلا قليلاً. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا...﴾ الآية: معنى الآية الإخبار أن سنة اللَّه تعالى في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخْرجَتْ نبيَّها من بين أظهرها، نالها العذاب، واستأصلها، فلم تلبثْ خلفه إلا قليلاً.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس...﴾ الآية: إجماع المفسِّرين على أنَّ الإشارة هنا إلى الصلوات المفروضة، والجمهورُ أنَّ دلوك الشمس زوالُها، والإشارةُ إلى الظهر والعصر، و﴿غَسَق الليْل﴾: أشير به إلى المغرب والعشاء، و﴿قرآن الفجْر﴾: يريد به صلاةَ الصبح، فالآية تعم جميعَ الصلواتِ، «والدلوكُ»؛ في اللغة: هو الميلُ، فأول الدلوكِ هو الزوالُ، وآخره هو الغروبُ، قال أبو حيان[2]: واللام في ﴿لُدُلوكِ الشمس﴾: للظرفية بمعنى بَعْد انتهى، ﴿وغَسَقُ الليْل﴾: اجتماعه وتكاثُف ظلمته، وعَبَّر عن صلاة الصبْحِ خاصَّة بالقرآن، لأن القرآن هو عظمها؛ إذ قراءتها طويلةٌ مجهورٌ بها.

وقوله سبحانه: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ معناه: يشهده حَفَظَة النهار وحَفَظَة الليل من الملائكة؛ حَسْبما ورد في الحديث الصَّحيح: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ؛ فَيَجْتَمِعُونَ في صَلاَةِ الصُّبْحِ وَصَلاَةِ العَصْرِ...» الحديث[3] بطوله، وفي «مسند[4] البَزَّار» عن النبيِّ ﷺ، أنَّهُ قال: «إنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ صَلاَةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، في جَمَاعَةَ، وَمَا أَحْسِبُ شَاهِدَهَا مِنْكُمْ إلاَّ مَغْفُور له»[5] انتهى من «**الكوكب الدري**».

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٢١) برقم: (٢٢٥٥٢)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٦).

(٢) ينظر: «**البحر المحيط**» (٦/ ٦٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره المتقي الهندي في «**كنز العمال**» (٧/ ٣٦٨) برقم: (١٩٣٠٧)، وعزاه للطبراني، عن ابن عمر.

(٥) أخرجه البزار (١/ ٢٩٨ ـ كشف)، برقم: (٦٢١)، من طريق عبيد اللَّه بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة به، وذكره الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (٢/ ١٧١)، وقال: رواه البزار والطبراني في «**الكبير**» و«**الأوسط**» كلهم من رواية عبيد اللَّه بن زحر، عن علي بن يزيد، وهما ضعيفان. ا هـ.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

﴿ومن الليل فتهجَّدْ به﴾ «مِنَ» للتبعيض، التقدير: ووقتاً مِنَ الليلِ، أيّ: قم وقتاً، والضمير في «به» عائدٌ على هذا المقدَّر، ويحتملُ أن يعود على القرآن، و«تهجَّد» معناه: اَطْرِحِ الهجودَ عَنك، «والهُجود»: النوم، المعنى: ووقتاً من الليل اَسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة، وقال علقمة وغيره: التهجُّد بعد نومة[1]، وقال الحَجَّاج بن عمرو: إنما التهجُّد بعد رقدة[2]، وقال الحسن: التهجُّد ما كان بعد العشاء الآخرة[3].

وقوله: ﴿نافلة لك﴾ قال ابن عباس: معناه: زيادةً لك في الفَرْضِ، قال: وكان قيامُ الليل فرضاً على النبيِّ ﷺ[4]، وقال مجاهدٌ: إنما هي نافلة للنبيِّ ﷺ؛ لأنه مغفورٌ له، والناس يحطُّون بمثل ذلك خطاياهم، يعني: ويجبرون بها فرائضهم؛ حَسْبما/ ورد في الحديثِ[5]، قال صاحب «المدخل»، وهو أبو عبد الله بن الحَاجّ؛ وقد قالوا: إنَّ مَنْ كان يتفلَّت منه القرآن، فليقُمْ به في الليْلَ، فإن ذلك يثبته له ببركة امتثال السُّنَّة سِيَما الثُّلُثُ الأخير من الليلِ؛ لما ورد في ذلك من البركَات والخَيْرَات، وفي قيامِ اللَّيْلِ من الفوائد جملةٌ، فلا ينبغي لطالب العلْم أنْ يفوته منها شيْءٌ. ٢٩٦ ب

فمنها: أنه يحطُّ الذنوب؛ كما يحطُّ الريحُ العاصفُ الوَرَقَ اليابس من الشجرة.

= وله شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠٧)، بلفظ: «أفضل الصوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة».

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٩) برقم: (٢٢٦١١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة».

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٩) برقم: (٢٢٦١٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٩) برقم: (٢٢٦١٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٠) برقم: (٢٢٦١٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٠) برقم: (٢٢٦١٨)، وذكره البغوي (٣/ ١٢٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، ومحمد بن نصر، والبيهقي في «الدلائل».

الثاني: أنه ينوِّر القلب.

الثالث: أنه يحسِّن الوجه.

الرابع: أنه يذهب الكسل، وينشِّط البدن.

الخامس: أن موضعه تراه الملائكة من السماء؛ كما يتراءى الكوكب الدُّرِّيُّ لنا في السماءِ، وقد روى الترمذيُّ عن أبي أمامة؛ أن رسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فإِنَّهُ مِنْ دأْبِ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إلى اللَّهِ تعالى، ومَنْهَاةٌ عَنِ الآثَامِ، وتَكْفِيرٌ للسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الجَسَدِ»[1] وروى أبو داود في «سننه» عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاصِ، قال: قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آياتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، ومَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، ومَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ» انتهى[2] من «**المدخل**».

وقوله سبحانه: ﴿عَسَى أَنْ يبعثك ربُّك مقاماً محموداً﴾: عِدَةٌ من اللَّه عزَّ وجلَّ لنبيِّه، وهو أمر الشَّفاعة الذي يتدافَعُه الأنبياء حتى ينتهي إِليه ﷺ، والحديث بطوله في البخاريِّ ومسلمٍ.

قال ابنُ العربيِّ في «**أحكامه**[3]»: واختلف في وَجْهِ كوْنِ قيامِ الليْلِ سَبَباً للمقامِ المْحُمودِ؛ على قَوْلين للعلماء:

أحدهما: أن البارِي تعالى يجعلُ ما يشاء مِنْ فضله سبباً لفضله من غير معرفةٍ لنا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣) كتاب «الدعوات» باب: في دعاء النبي ﷺ، حديث (٣٥٤٩)، من طريق بكر بن خنيس، عن محمد القرشي، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن بلال به، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه من قبل إسناده، قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد القرشي هو: محمد بن سعيد الشامي وهو ابن أبي قيس، وهو محمد بن حسان، وقد ترك حديثه، وقد روى هذا الحديث معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن ابن إدريس الخولاني، عن أبي أمامة، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة للإثم»، وقال الترمذي: وهذا أصحّ من حديث إدريس عن بلال ا هـ. قلت: ومن الوجه الذي ذكره الترمذي، أخرجه الحاكم (١/ ٣٠٨)، والبيهقي (٢/ ٥٠٢)، والبغوي في «**شرح السنة**» (٢/ ٤٥٨ ـ بتحقيقنا)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «**أحكام القرآن**» (٣/ ١٢٢٣).

بوَجهِ الحكمة.

الثاني: أنَّ قيام الليل فيه الخَلْوَة بالباري تعالى، والمناجاة معه دون الناسِ، فيعطى الخَلْوة به ومناجاتَه في القيامةِ، فيكون مقاماً محموداً، ويتفاضل فيه الخَلْق؛ بحسب درجاتهم، وأجلُّهم فيه درجة نبيِّنا محمَّد ﷺ، فيعطى من المحامدِ ما لم يعطَ أحدٌ، ويَشْفَعُ فَيُشَفَّع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقل رَبِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق...﴾ الآية: ظاهر الآية: والأحْسَنُ أن يكون دعا عليه السلام في أن يحسِّن الله حالته في كلِّ ما يتناول من الأمور ويحاولُ من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرُّف المقادير في المَوْت والحياة، فهي على أتمِّ عمومٍ، معناه: ربِّ، أصْلِحْ لي وِرْدِي في كلِّ الأمور، وَصَدَري.

وذهب المفسِّرون إلى تخصيص اللفظِ، فقال ابن عبَّاس وغيره: أَدْخِلْنِي المدينة، وأخرجني من مكَّة[١]، وقال ابن عباس أيضاً: الإدخال بالمَوْت في القبرِ، والإخراج: البعث[٢]، وقيل غير هذا، وما قدَّمت من العموم التَّامِّ الذي يتناول هذا كلَّه أصوبُ، «والصِّدق»؛ هنا صفة تقتضي رفْعَ المذامِّ وٱستيعابَ المَدْح، ﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً / نصيراً﴾ قال مجاهدٌ: يعني حجَّةً تنصرني بها على الكفَّار[٣].

وقوله سبحانه: ﴿وقل جاء الحق...﴾ الآية: قال قتادة: ﴿الحَقُّ﴾ القرآن، و﴿الباطل﴾ الشيطان[٤]. ٢٩٧أ

وقالت فرقةٌ: ﴿الحق﴾: الإيمان، و﴿الباطل﴾: الكُفران، وقيل غير هذا، والصواب تعميمُ اللفظ بالغايةِ المُمْكنة؛ فيكون التفسيرُ: جَاءَ الشرع بجميع ما ٱنْطَوَى فيه، وزَهَق الكُفر بجميع ما ٱنطوى فيه، وهذه الآية نَزَلَت بمكَّة، وكان يستشهد بها النبيُّ ﷺ يَوْمَ فتحِ مكَّة وقْتَ طعنه الأصنام وسقوطَها لطَعْنه إياها بالمِخْصَرَة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٤) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة بني إسرائيل، حديث (٣١٣٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٦) برقم: (٢٢٦٤٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٠)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٧) برقم: (٢٢٦٥٧)، وذكره البغوي (٣/ ١٣٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٩).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٨) برقم: (٢٢٦٦١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٠)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ...﴾ الآية: أي شفاءٌ بحسب إِزالته للرِّيَب، وكشفه غطاء القَلْب، وشفاءٌ أيضاً من الأمراض بالرقى والتعويذِ ونحوه.

وقوله سبحانه: ﴿وإِذا أنعمنا على الإِنسان أعرض ونأى بجانبه﴾: يحتمل أن يكون ﴿الإِنسان﴾ عامًّا للجنسِ، فالكافرُ يبالغ في الإِعراض، والعاصي يأخذ بحظٍّ منه وَ(نَأى) أي: بَعُد، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾، أي: على ما يليق به، قال ابن عباس: ﴿على شاكلته﴾ معناه: على ناحيته[1]، وقال قتادة: معناه: على ناحيته وعلى ما ينوي[2]. وقوله سبحانه: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ توعُّد بيِّن.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويسئلونك عن الروح﴾ روى ابن مسعود أن اليهود قال بعضُهم لبعْض: سَلُوا محمداً عن الرُّوحِ فإِن أجاب فيه، عرفْتم أنه ليس بنبي.

قال ❊ ع[3] ❊: وذلك أنه كان عندهم في التوراة؛ أَن الروح ممَّا انفرد اللَّه بعلْمه، ولا يَطَّلع عليه أحَدٌ من عباده، فسألوه، فنزلَتِ الآية.

وقيل: إِن الآية مكِّية، والسائلون هم قريشٌ، بإِشارة اليهودِ، واختلف الناس في الرُّوح المسؤول عَنه، أيُّ رُوحٍ هو؟ فقال الجمهُور: وقع السؤال عن الأرواحِ التي في الأشخاصِ الحيوانيَّة ما هي، فالرُّوح: اسم جنسٍ على هذا، وهذا هو الصوابُ، وهو المُشِكَل الذي لا تَفْسِيرَ له.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٤١) برقم (٢٢٦٧٠) وذكره البغوي (٣/ ١٣٣) وابن عطية (٣/ ٤٨١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٦٠) والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٤١) برقم: (٢٢٦٧٣)، وذكره البغوي (٣/ ١٣٣) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٤٨١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٦٠) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨١).

وقوله سبحانه: ﴿من أمر ربي﴾ يحتملُ أن يريد أنَّ الرُّوح مِنْ جملة أمور اللّه التي استأثر سبحانه بعلْمها، وهي إِضافةُ خَلْقٍ إلى خَالِقٍ، قال ابنُ رَاشِدٍ في «مرقبته»: أخبرني شيخي شهابُ الدِّينِ القَرافِيُّ عن ابْنِ دَقِيقِ العِيد؛ أنَهَ رأى كتاباً لبعض الحكماءِ في حقيقة النفسِ، وفيه ثَلاَثُمِائَةِ قولٍ، قال رحمه اللّه: وكثْرةُ الخلافِ تؤذنُ بكثرة الجهالاتِ، ثم علماءُ الإِسلام اختلفوا في جوازِ الخَوْضِ فيها على قولَيْن، ولكلٍّ حُجَجٌ يطُولُ بنا سَرْدُها، ثم القائلون بالجوازِ اختلفوا، هَلْ هي عَرَضٌ أو جوهرٌ، أو ليستْ بجوهرٍ ولا عرضٍ، ولا توصَفُ بأنها داخلُ الجسم ولا خارجُه، وإِليه ميل الإِمام أبي حامد وغيره، والذي عليه المحقِّقون من المتأخِّرين أنَها جسْمٌ نوارنيٌّ شفَّافٌ سارٍ في الجسْم سَرَيانَ النارِ في الفَحْم؛ والدليلُ على أنها في الجسْم قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] فلو لم تكن في الجِسْم، لما قال ذلك، وقد أخبرني الفقيهُ الخطيبُ أبو/ محمد البرجيني رحمه الله ٢٩٧ ب
عن الشيخ الصَّالح أبي الطاهر الرَّكْرَاكِيِّ رحمه الله قال: حَضَرْتُ عند وَلِيٍّ من الأولياء حين النَّزْعِ، فشاهدتُ نَفْسَهُ قد خَرَجَتْ من مواضع من جَسَده، ثم تشكَّلت على رأسِه بشَكْله وصُوَرَته، ثم صَعِدت إلى السماء، وصَعِدت نفسي معها، فلما انتهينا إلى السماء الدنيا، شاهَدتُ باباً ورِجْلَ مَلَكٍ ممدودةً عليه، فأزال ذلك المَلَكُ رِجْله، وقال لنفسِ ذلك الوليِّ: اصْعَدِي، فَصَعِدَتْ، فأرادَتْ نفسي أنْ تَصْعَدَ معها، فقال لها: ارْجِعي، فقد بقي لك وقْتٌ، قال: فرجعت فشاهدت الناسَ دائرين على جسْمي، وقائلٌ يقولُ: ماتَ، وآخر يقول: لم يَمُتْ، فدخلَتْ من أنفي، أو قال: مِنْ عَيْني، وقُمْتُ. انتهى.

* ت *: وهذه الحكايةُ صحيحةٌ، ورجال إِسنادها ثقاتٌ معروفون بالفَضْل، فابنَ راشِدٍ هو شارِحُ ابنِ الحاجِبِ الفَرْعِيِّ، والبرجينيُّ معروفٌ عند أهْل إِفريقيَّةَ وأبو الطاهر من أكابر الأولياء معظَّم عند أهل تُونُسَ، مزاره وقبره بالزلاج معروفٌ زرته رحمه الله، **وقرأ** الجمهور[(١)]: «وما أوتيتم»، واختلف فيمَنْ خوطب بذلك، فقالت فرقة: السَّائِلُونَ فقطْ، وقالت فرقة: العالم كلُّه، وقد نص على ذلك ﷺ؛ على ما حكاه الطبريُّ[(٢)].

وقوله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن...﴾ الآية: المعنى وما أوتيتم أنت يا محمَّد، وجميعُ الخلائق من العلْم إلا قليلاً، فاللّه يُعلِّم مَنْ علَّمه بما شاء، ويَدَعُ ما شاء، ولو شاء لذهب بالوحْيِ الذي آتاك، وقوله ﴿إلا رحمةً﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أي: لكنْ رحمةً من ربِّك تمسكُ

---

(١) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٨٢).
(٢) ينظر: **«الطبري»** (٨/ ١٤٤).

عليك قال الداووديُّ: وما روي عن ابن مسعود من أنه سَيُنْزَعُ القرآنُ من الصدور، وتُرْفَعُ المصاحف[1] لا يَصِحُّ وإنما قال سبحانه: ﴿ولئن شئنا﴾ فلم يشأ سبحانه، وفي الحديثِ عنه ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[2] قال البخاريُّ: وهم أهل العِلْم، ولا يكون العلْمُ مع فَقْد القرآن. انتهى كلامُ الداووديِّ، وهو حَسَن جدًا، وقد جاء في الصحيح ما هو أَبْيَنُ من هذا، وهو قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْتَزِعُ العِلْمَ انْتِزَاعاً وَلَكِنْ يَقْبِضِ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ...»[3]، الحديث.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن...﴾ الآية: سببُ هذه الآية أنَّ جماعة من قريش قالوا للنبيِّ ﷺ: لَوْ جِئْتَنَا بآيةٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ هذا القرآن، فإنا نَقْدِرُ نحنُ عَلَى المَجِيءِ بمثله، فنزلَتْ هذه الآية المصرِّحة بالتعجيز لجميع الخلائق.

قال * ص *: واللام في ﴿لَئِنَ اجتمعَت﴾ اللام الموطِّئة للقسم، وهي الداخلة على الشرطِ، كقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ [الحشر: ١٢] ﴿ولَئِنْ قُوتلوا﴾ [الحشر: ١٢] والجوابُ بعدُ للقَسَم لتقدُّمه، إذا لم يسبق ذو خبره لا للشرطِ، هذا مذهبُ البصريِّين خلافاً للفراء في إجازته الأمرين، إلا أنَّ الأكثر أنْ يجيء جواب قَسَمٍ، «والظهير» المعين.

/ قال * ع *[4]: وفهمت العرب الفصحاء بُخُلوصِ فهمها في مَيْزِ الكلامِ وَدُرْبتها به ٢٩٨ أ

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٤) برقم: (٢٢٦٩٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٢)، وذكره ابن كثير (٣/ ٦٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٣)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٢٣٤) كتاب «العلم» باب: كيف يقبض العلم، حديث (١٠٠)، وفي (١٣/ ٢٩٥) كتاب «الاعتصام» باب: ما يذكر من ذم الرأي، حديث (٧٣٠٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٨) كتاب «العلم» باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن، حديث (١٣/ ٢٦٧٣)، والترمذي (٥/ ٣١)، كتاب «العلم» باب: ما جاء في ذهاب العلم، حديث (٢٦٥٢)، وابن ماجه (١/ ٢٠) «المقدمة» باب: اجتناب الرأي والقياس، حديث (٥٢)، والدارمي (١/ ٧٧)، وأحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٤٧ ـ بتحقيقنا)، من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٣).

ما لا نفهمه نَحْنُ ولا كُلُّ من خالطته حضارةً، ففهموا العَجْزَ عنه ضرورةً ومشاهدةً، وعلمه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكلٍّ حصل عِلْم قطعيٌّ، لكن ليس في مرتبةٍ واحدةٍ.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآية: روي في قول هذه المقالة للنبيِّ ﷺ حديثٌ طويلٌ، مقتضاه: أنَّ عُتْبَة وشَيْبة ابْنَيْ ربيعَةَ، وعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبي أميَّةَ، والنَّضْرَ بْنَ الحَارِثِ وغيرهم من مَشْيَخَةِ قريشٍ وسادَاتِها، اجتمعوا عليه، فعرَضُوا عليه أنْ يملِّكوه إن أراد المُلْك، أو يجمعوا له كثيراً من المالِ؛ إن أراد الغنى ونحو هذا من الأقاويل، فدعاهم ﷺ عند ذلك إلى اللَّه، وقال: إنما جئتُكُم بأمرٍ منَ اللَّهِ فيه صَلاحُ دنياكم ودِينِكُم، فإن أطعتم، فَحَسَن، وإلا صَبَرْتُ حتَّى يحكم اللَّه بيني وبينكم[1] فقالوا له حينئذٍ: فإن كان ما تَزْعُمُ حقًّا، ففجِّر لنا من الأرض ينبوعاً... الحديث بطوله، «واليَنْبُوع»: الماء النابع، ﴿وخلالها﴾ ظرف، ومعناه أثناءها وفي داخلها.

وقوله: ﴿كما زعمت﴾ إشارة إلى ما تلا عليهم قبل ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ...﴾ الآية [سبأ: ٩] «والكِسَفُ» الشيء المقطوع، وقال الزجَّاج[2] المعنى: أو تسقط السماء علينا طبقاً، وقوله: ﴿قبيلاً﴾ قيل: معناه مقابلةً وعياناً، وقيل: معناه ضامناً وزعيماً بتصديقك؛ ومنه القبالة[3] وهي الضمان، وقيل: معناه نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا، ﴿أو يكون لك بيْتٌ من زخرفٍ﴾، قال المفسِّرون: الزُّخْرُفُ الذَّهب في هذا الموضع، ﴿أو ترقى في السماء﴾، أي: في الهواء

(١) أخرجه الطبري، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٥ - ٣٦٦)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «تفسير الزجاج» (٣/ ٢٥٩).

(٣) القَبَالَةُ: الكفالة، وهي في الأصل: مصدر قَبَل: إذا كَفَل، وقَبُل «بالضم» - إذا صار قبيلاً، أي: كفيلاً، وتَقَبَّل به: إذا تَكَفَّل.
ينظر: «لسان العرب» (٣٥٢).

علوًّا، ويحتمل أن يريد السماء المعروفَة، وهو أظهر.

* ت *: وذكر * ع *[1] هنا كلماتٍ الواجبُ طرحها، ولهذا أعرضتُ عنها، و﴿ترقى﴾ معناه تصعد، ويروى أن قائل هذه المقالة هو عبدُ اللَّهِ بْنُ أبي أميَّةِ، ويروى أن جماعتهم طلبَتْ هذه النحوَ منه، فأمره عزَّ وجلَّ أن يقول: ﴿سبحان ربي﴾، أي: تنزيهاً له من الإتيان إليكم مع الملائكةِ قبيلاً، ومن اقتراحِي أنا عليه هذه الأشياءَ، وهل أنا إلا بشر، إنما عليَّ البلاغ المبين فقطْ.

وقوله: ﴿مطمئنين﴾، أي: وادعين فيها مقيمين.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل كفى باللَّه شهيداً بيني وبينكم﴾ روي أن من تقدَّم الآن ذكرهم من قريش، قالوا للنبيِّ ﷺ في آخر قولهم: فَلْتَجِىءْ مَعَكَ بطائفةٍ من الملائكة تَشْهَدُ لك بِصِدْقك في نبوَّتك، وروي أنهم قالوا: فمن يشهدُ لك؟ ففي ذلك نزلَتِ الآية، أي: اللَّه يشهد بيني وبينكم، ثم أخبر سبحانه؛ أنه يحشرهم على الوُجُوه حقيقةً، وفي هذا المعنى حديثٌ، «قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَمْشِي الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قال: أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ في
٢٩٨ب الدُّنْيَا عَلَى رِجْلَيْنِ قَادِراً عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ/ في الآخِرَةِ عَلَى وَجهِهِ[2]؟» قال قتادة: بَلَى، وَعِزَّةِ رَبِّنا[3].

* ت *: وهذا الحديثُ قد خرَّجه الترمذيُّ من طريق أبي هريرة، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَة عَلَى ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ: رُكْبَاناً، ومُشَاةً، وعَلَى

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٣٥٠) كتاب «التفسير» باب: ﴿الذين يحشرون على وجوههم﴾، حديث (٤٧٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦١) كتاب «صفات المنافقين» باب: يحشر الكافر على وجهه، حديث (٢٨٠٦)، والطبري (١٩/ ١٢)، وأبو يعلى (٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦) برقم (٣٠٤٦)، وأحمد (٣/ ٢٢٩)، وابن حبان (٧٣٢٣)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٦٨)، وزاد نسبته إلى أبي نعيم في **«المعرفة»**، وابن مردويه، والبيهقي في **«الأسماء والصفات»**.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٧).

وُجُوهِهِم. . .»[(١)] الحديثَ، وقوله: ﴿كلما خبتْ﴾ أي: كلما فرغَتْ من إحراقهم، فسكن اللهيبُ القائمُ عليهم قَدْرَ ما يعادون، ثم يثورُ، فتلك زيادة السعير، قاله ابن عَبَّاس[(٢)].

قال * ع *[(٣)]: فالزيادة في حيِّزهم، وأما جهنَّم، فعلى حالها من الشدَّة، لا فتور، وخَبَتِ النارُ، معناه: سَكَن اللهيبُ، والجَمْرُ على حاله، وخَمَدَتْ معناه، سكَن الجَمْر وضَعُف، وهَمَدَتْ معناه: طُفِئت جملةً.

وقوله سبحانه: ﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا. . .﴾ الآية: الإشارة بـ ﴿ذلك﴾ إلى الوعيد المتقدِّم بجهنم.

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أو لم يروا أن اللّه الذي خلق السمٰوات والأرض. . .﴾ الآية: الرؤيةُ في هذه الآية هي رؤية القَلْبِ، وهذه الآية احتجاجٌ عليهم فيما استبعدوه من البَعْثِ، «والأَجَل»؛ ههنا: يحتمل أن يريد به القيامةَ، ويحتملُ أن يريد أَجَلَ الموت.

وقوله سبحانه: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائنَ رَحْمة ربي. . .﴾ الآية: الـ ﴿رحمة﴾، في هذه الآية: المال والنِّعم التي تُصْرَفُ في الأرزاق.

وقوله: ﴿خشية الإنفاق﴾ المعنى: خشية عاقبةِ الإنفاق، وهو الفَقْر، وقال بعض اللُّغويِّين، أَنْفَقَ الرجُلُ معناه: افتقَرَ؛ كما تقول أَتْرَبَ وأَقْتَرَ.

وقوله: ﴿وكان الإنسان قَتُوراً﴾ أي: ممسِكاً، يريدُ أنَّ في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو ملك خزائنَ رحمة الله، لأمسك خشيةَ الفَقْر، وكذلك يظنُّ أن قدرة اللّه تقفُ دون البَعْث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٥)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الإسراء، حديث (٣١٤٢)، من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٥٤).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٣) برقم: (٢٢٧٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٧)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٣/ ٣٦٩)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب **«الأضداد»**.

(٣) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٨٧).

لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات...﴾ الآية: اتفق المتأوِّلون والرواةُ؛ أن الآياتِ الخَمْسَ التي في «سورة الأعراف» هي من هذه التسْعِ، وهي: الطُّوفانُ والجَرَادُ والقُمَّل والضَّفادع والدَّمُ، واختلفوا في الأربَعِ. * ت *: وفي هذا الاتفاق نظَرٌ، وَرَوَى في هذا صفوانُ بنُ عَسَّال؛ أن يهوديًا من يهودِ المدينةِ، قال لآخَرَ: سِرْ بِنَا إِلى هذا النبيِّ نسأله عن آياتِ موسى، فقال له الآخَرُ: لاتَقُلْ له إنَّه نَبِيٌّ، فإنه لَوْ سَمِعَها، صَارَ له أربعة أعيُنٍ، قال: فَسَارَا إِلى النبيِّ ﷺ فسألاه، فقال: «هي لا تُشْرِكُوا باللَّه شيئاً، ولا تسرِقُوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، ولا تمشوا ببريءٍ إلى السلطان ليقتله، ولا تَسْحَرُوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المُحْصَنَات، ولا تَفِرُّوا يَوْمَ الزَّحْف، وعلَيْكُمْ ـ خاصَّةَ مَعْشَرِ اليهودِ ألاَّ تَعْدُوا في السبت»[(١)]. انتهى، وقد ذكر * ع *[(٢)] هذا الحديث.

وقوله سبحانه: ﴿فاسْأَلْ بني إسرائيل إذ جاءهم﴾، أي: إذ جاءهم موسى واختلف في قوله: ﴿مسحوراً﴾ فقالتْ فرقة: هو مفعولٌ على بابه، وقال الطبري[(٣)]: هو بمعنى
٢٩٩ أ ساحرٍ، كما قال/ ﴿حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ [الإسراء: ٤٥] وقرأ الجمهور: «لَقَدْ عِلِمْتَ»، وقرأ الكسائيُّ: «لَقَدْ عَلِمْتُ» بتاء المتكلِّم مضمومةً، وهي قراءة علي بن أبي طالب وغيره، وقال: ما علم عَدُوُّ اللَّه قطُّ، وإنما علم موسى والإشارة بـ ﴿هؤلاء﴾ إلى التسع.

وقوله: ﴿بصائر﴾: جمعُ بصيرةٍ، وهي الطريقةُ، أي طرائِق يُهْتَدَى بها، و«المثبور» المُهْلَكُ؛ قاله مجاهد[(٤)]، ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾، أي: يستخفهم ويقتلهم،

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة بني إسرائيل، حديث (٣١٤٤)، وأحمد (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، والنسائي (٧/ ١١١ ـ ١١٢)، كتاب «تحريم الدم» باب السحر، حديث (٤٠٧٨)، والحاكم (١/ ٩)، وأبو نعيم في **«الحلية»** (٥/ ٩٧ ـ ٩٨)، والطبري (١٥/ ١٧٢)، والطبراني في **«الكبير»** (٨/ ٨٣ ـ ٨٤) برقم: (٧٣٩٦)، وأخرجه ابن ماجه مختصراً برقم: (٣٧٠٥)، وذكره السيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٧٠)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن قانع، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في **«الدلائل»**.

(٢) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٨٨).

(٣) ينظر: **«الطبري»** (٨/ ١٥٨).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٩) برقم: (٢٢٧٥٩)، وذكره البغوي ((٣/ ١٤٠)، وابن عطية (٣/ ٤٨٩)، وابن كثير في **«تفسيره»** (٣/ ٦٧).

والأرض هنا أرْضُ مِصْر، ومتى ذكرت الأرض عموماً، فإنما يراد بها ما يناسب القصَّة المتكلَّم فيها، واقتضبَتْ هذه الآيةُ قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذكرت عِظَمَ الأمر وخطيره، وذلك طرفاه؛ أراد فرعون غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بَدْءَ الأمر؛ فأغرقه اللَّه وجُنُودَهُ، وهذا كان نهايةَ الأمر، ثم ذكر سبحانه أمْرَ بني إسرائيل بعد إغراق فرْعوْنَ بسُكْنَى أرض الشامِ و﴿وَعْدُ الآخرة﴾ هو يوم القيامة، «واللفيفُ»: الجَمْعُ المختلطُ الذي قد لُفَّ بعضُه إلى بعض.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وبالحق أنزلناه﴾ يعني القرآن نَزَلَ بالمصالح والسَّدادِ للناس، و﴿بالحقّ نزل﴾ يريد: بالحقِّ في أوامره ونواهيه وأخباره، وقرأ جمهور[(١)] الناس: «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الراء، ومعناه: بيَّنَّاه وأوضَحْناه وجَعَلْناه فرقاناً، وقرأ جماعةٌ خارجَ السبْع[(٢)]: «فرَّقْنَاهُ» بتشديد الراء، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملةً واحدة، ويتناسق هذا المعنى مع قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، وتأوّلت فرقةٌ قوله: ﴿عَلَى مُكْث﴾ أي: على ترسُّل في التلاوةِ، وترتُّل، هذا قول مجاهد وابن عباس وابن جُرَيْج وابن زيد[(٣)]، والتأويلُ الآخر، أي على مُكْثٍ وتطاوُلٍ في المدة شيئاً بعد شيء.

وقوله سبحانه: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ فيه تحقيرٌ للكفَّار، وضَرْب من التوعُّد، ﴿والذين أوتوا العلم من قبله﴾: قالت فرقة: هم مؤمنو أهْلِ الكتابِ، و﴿الأذقان﴾: أسافل الوجوه حيث يجتمع اللَّحْيَانَ.

---

(١) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٩٠)، و**«البحر المحيط»** (٦/ ٨٤)، و**«الدر المصون»** (٤/ ٤٢٦).

(٢) وهي قراءة أُبَيّ، وابن عباس، ومجاهد، وابن مسعود، وعلي، وأبي رجاء، وقتادة، والشعبي، وحميد، وعمرو بن فائد، وزيد بن علي، وعمرو بن ذر، وعكرمة، والحسين.
ينظر: **«مختصر الشواذ»** (٨١)، و**«المحتسب»** (٢/ ٢٣)، و**«المحرر الوجيز»** (٣/ ٤٩٠)، و**«البحر المحيط»** (٦/ ٨٤)، و**«الدر المصون»** (٤/ ٤٢٧).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٦٢) برقم: (٢٢٧٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٩١)، والسيوطي في **«الدر المنثور»** (٤/ ٣٧٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال الواحِدِيُّ: ﴿إِن كان وعد ربنا﴾ أي: بإنزال القرآن، وبعَث محمَّد ﴿لمفعولاً﴾. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ هذه مبالغةٌ في صفتهم، ومَدْحٌ لهم وحضٌّ لكل من توسَّم بالعلم، وحصَّلَ منه شيئاً أَنْ يجري إلى هذه الرتبة النفيسَةِ وحكى الطبريُّ عن التميميِّ؛ أن من أوتي من العلْم ما لم يُبْكِهِ لخَلِيق ألاَّ يكونَ أوتي عِلْماً ينفعه؛ لأن اللَّه سبحانه نعت العلماء، ثم تَلاَ هذه الآية كلَّها.

* ت *: وإِنه واللَّهِ لكذلكَ، وإِنما يخشَى اللَّهَ مِنْ عباده العلماءُ، اللهمَّ انْفَعْنا بما عَلَّمتنا، ولا تجعَلْه علينا حجَّةً بفضلك، ونقل الغزَّاليُّ عن ابن عبَّاس؛ أنه قال: إِذا قرأتم سَجْدَةَ «سُبْحَانَ»، فلا تعجلوا بالسُّجود حتى تَبْكُوا، فإِن لم تَبْكِ عينُ أحدِكُم، فَلْيبكِ قلبه. قال الغزَّالِيُّ: فإِن لم يحضرْهُ حُزْن وبكاءٌ؛ كما يحضر أرباب القلوب الصافيَةِ فليَبْكِ على فَقْدِ الحُزْن والبكاء، فإِن ذلك من أعظم المصائبِ. قال الغزَّالِيُّ: وٱعلَمْ أنَّ الخشوع ثمرةُ الإِيمان، ونتيجةُ/ اليقينِ الحاصلِ بعظمةِ اللَّه تعالى، ومَنْ رُزِقَ ذلك، فإِنه يكون خاشعاً في الصلاة وغيرها؛ فإِن موجب الخشوع استشعارُ عظمة اللَّه، ومعرفةُ اطِّلاعه على العَبْد، ومعرفةُ تقصير العَبْد، فمن هذه المعارفِ يتولَّد الخشوعُ، ولَيْسَتْ مختصَّةً بالصلاة، ثم قال: وقد دلَّت الأخبار على أن الأصل في الصَّلاة الخشوعُ، وحضورُ القَلْب، وأن مجرَّد الحركاتِ مع الغَفْلة قليلُ الجدوى في المعادِ، قال: وأعلم أنَّ المعاني التي بها تتمُّ حياة الصلاة تجمعها ستُّ جُمَلٍ، وهي: حضورُ القَلْبِ، والتفهُّمُ، والتعظيمُ، والهَيْبَة، والرجاءُ، والحياءُ، فحضور القَلْب: أن يفرِّغه من غير ما هو ملابسٌ له، والتفهُّم: أمر زائد على الحُضُور، وأما التعظيم، فهو أمر وراءَ الحضور والفَهْم، وأما الهَيْبة، فأمر زائد علي التعظيم، وهي عبارة عن خَوْفٍ مَنْشَؤه التعظيم، وأما التعظيم، فهو حالةٌ للقَلْب تتوَّلد من معرفتين: **إِحداهما**: معرفة جلالِ اللَّه سبحانه وعظمته، **والثانية**: معرفة حقارة النفْسِ، واعَلَمْ أَنَّ حضور القلب سببه الهِمَّة، فإِن قلبك تَابعٌ لهمَّتك، فلا يحضر إِلا فيما أهمَّك، ومهما أهمَّك أمر، حَضَر القَلْب، شاء أم أبى، والقلب إذا لم يحضُرْ في الصلاة، لم يَكُنْ متعطِّلاً؛ بل يكون حاضراً فيما الهمة مصروفةٌ إِليه. انتهى من «**الإِحياء**».

٢٩٩ ب

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل ادعوا اللّٰه أو ادعوا الرحمٰن...﴾ الآية: سبب نزول هذه الآية: أنَّ بعض المشركين سمع النبيَّ ﷺ يدعو: يا اللّٰه يا رَحْمَانَ، فقالوا: كان محمَّدٌ يأمرنا بدعاءِ إلٰه واحدٍ، وهو يدْعو إلٰهين، قاله ابن عباس[1]، فنزلَتِ الآية مبيِّنةً، أنها أسماء لمسمًّى واحد، وتقدير الآية: أيُّ الأسماءِ تدعو به، فأنت مصيبٌ، فله الأسماءُ الحسنى، وفي «صحيح البخاريِّ» بسنده عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿ولاَ تَجهَرِ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ قَالَ: نَزَلَتْ ورسُولُ اللّٰهِ ﷺ مُخْتَفٍ بمكَّةَ، كان إِذَا صَلَّى بأصحابه، رَفَعَ صَوْتَهُ بالقرآن، فإذا سمعه المشرِكُون، سَبُّوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال اللّٰه تبارك وتعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾، أي: بقراءتك، فيسمَعَ المشركونَ فيسبوا القرآن، ﴿ولا تخافِتْ بها﴾ عن أصحابك؛ فلا تسمعهم، ﴿وابتغ بَيْنَ ذلك سبيلاً﴾[2]، وأسند البخاريُّ عن عائشة: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافتْ بها﴾ قالتْ: أنزل ذلك في الدعاءِ انتهى[3].

قال الغَزَّاليُّ في «الإحياء»: وقد جاءت أحاديثُ تقتضي استحبابَ السِّرِّ بالقرآن، وأحاديثُ تقتضي استحبابَ الجَهْر به، والجَمْع بينهما أنْ يقال: إن التالي إذا خاف على نفسه الرِّياءَ والتصنُّع أو تشويش مُصَلٍ،/ فالسر أفضلُ، وإن أَمِنَ ذلك، فالجهر أَفْضَلُ؛ لأن ١٣٠٠
العمل فيه أكثر؛ ولأن فائدته أيضاً تتعدَّى إلى غيره؛ والخير المتعدِّي أفضلُ من اللازم؛ ولأنه يوقظ قَلْب القارىء، ويجمع همَّته إلى الفكْر فيه، ويصرف إليه سَمْعَه، ويطرد عنه النوْمَ برفْعِ صوته، ولأنه يزيدُ في نشاطه في القراءة، ويقلِّل من كسله؛ ولأنه يرجو بجهره تيقُّظ نائمٍ، فيكون سَبَباً في إعانته على الخير، ويسمعه بَطَّال غافلٌ، فينشط بسببه، ويشتاقُ لخدمة خالقه، فمهما حَضَرَتْ نيَّةٌ من هذه النيَّات، فالجهر أفضلُ، وإن اجتمعتْ هذه النيَّاتُ، تضاعَفَ الأجر، وبكثرة النياتِ يزْكُو عمل الأبرار وتتضاعف أجورهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولم يكُنْ له وَليٌّ من الذُّلِّ﴾ هذه الآية رادَّة على كَفَرة العرب في

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٦٥) برقم: (٢٢٨٠١)، وذكره البغوي (٣/ ١٤٢)، وابن عطية (٣/ ٤٩٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٦٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٧٣)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري (./٢٥٧)، كتاب «التفسير» باب: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾، حديث (٤٧٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥٧) كتاب «التفسير» باب: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾، حديث (٤٧٢٣).

قولهم: لولا أولياءُ اللَّه، لَذَلَّ ـ تعالى اللَّه عن قولهم ـ وقيد سبحانه نَفْيَ الولاية له بطريقِ الذُّلِّ، وعلى جهة الانتصار؛ إِذ ولايته سبحانه موجُودَةٌ بفضله ورحمته لمن والى من صَالح عباده.

قال مجاهد: المعنى لم يخالِفْ أحداً ولا ابتغى نصْرَ أحد سبحانه، لا إله إلا هو[1] وصلَّى اللَّه على سيدِنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصَحْبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٧٢) برقم: (٢٢٨٥٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٦٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٧٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

تفسِيرُ سُورَةِ الكَهفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذه السورةُ مكّيّة في قول جميع المفسِّرين، وروي عن قتادة أنَّ أول السورة نَزَلَ بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾ والأول أصحُّ، وهي من أفضل سور القرآن[١]، وروي أن النبي ﷺ قَالَ: «ألا أُخبِرُكُمْ بُسورَةٍ عِظَمُهَا مَا بَيْنَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ، ولِمَنْ جَاءَ بِهَا مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ ذَلِكَ؟ قَالُوا: أيُّ سُورَةٍ هِيَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: سُورَةُ الكَهْفِ، مَنْ قَرأَ بهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخرى، وَزِيَادَةَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ»[٢] وفي روايةِ أنسٍ: «مَنْ قَرَأَ بهَا، أُعْطِيَ نُوراً بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، ووُقِيَ بِهَا فِتْنَةَ القَبرِ».

* ت *: وعن البراء بن عازب، قال: كان رجُلٌ يقرأ سورة الكَهْف، وإِلى جانبه فَرَسٌ مربوطٌ بِشَطَنَيْنِ فغشيته سَحَابَةٌ، فجعلَتْ تدنو وتدنو، وجعَلَ فرسه ينفِر، فلما أصبَحَ أتَى النبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ بِالقُرْآنِ»[٣] رواه البخاريُّ، واللفظ له، ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، والرجُلُ المُبْهَمُ في الحديثِ هو أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وفي الحديثِ الصحيح من طريق النَّوَّاس بن سَمْعَانَ، عن النبيِّ ﷺ: «فَمَنْ أَدْرَكَ الدَّجَّالِ مِنْكُمْ فَلْيَقْرأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ...» وذكر الحديث. رواه مسلم[٤] وغيره، زاد أبو داود: «فإِنَّهَا جَوازُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ». وعن أبي الدرداء؛ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»[٥] رواه مسلم وأبو داود والترمذيُّ/ والنسائيُّ، واللفظ ٣٠٠ ب

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٧٩)، وعزاه إلى ابن مردويه، عن عائشة.

(٣) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

(٤) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

(٥) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٥) كتاب «صلاة المسافرين» باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، حديث (٢٥٧/ ٨٠٩)، وأبو داود (٢/ ٥٢٠) كتاب «الملاحم» باب: في ذكر خروج الدجال، حديث (٤٣٢٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥١)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، (٦/ ٤٤٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٨)، وابن حبان (٧٨٥ - ٧٨٦)، والبيهقي (٣/ ٢٤٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٥ - بتحقيقنا) من حديث أبي الدرداء.

لمسلم، وفي روايةٍ لمُسْلِم وأبي داود: «مِنْ آخر الكَهْفِ»، وعن أبي سعيد الخدريِّ، أن النبي ﷺ قال: من قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُوراً مِنْ مَقَامِهِ إِلى مَكَّةَ، وَمَنْ قَرأَ بِعَشْرِ آياتٍ مِنْ آخِرِهَا، فَخَرَجَ الدَّجَّالُ، لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ[(١)] رواه الترمذيُّ والحاكم في «المستدرك» والنسائيُّ، وقال الحاكمُ: صحيحٌ على شرط مسلم، وله في رواية: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ يَوْمَ الجُمُعةُ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ»[(٢)]، وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه الدَّارِمِيُّ في مسنده موقوفاً ورواته[(٣)] متَّفق على الاحتجاج بهم إلا أبا هاشم يحيى بن دينار الرُّمَّانِيَّ وقد وثَّقه أحمدُ ويحيى وأبو زُرْعَة وأبو حاتم. انتهى من «السلاح».

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الحمد للَّه الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ كان حفصٌ عن عاصم[(٤)] يَسْكُتُ عند قوله: ﴿عِوَجا﴾ سكتةً خفيفة، وعند ﴿مَرْقَدِنَا﴾ في يس [يس: ٥٢] وسبب هذه البداءة في هذه السورة أنَّ النبيَّ ﷺ لما سألته قريشٌ عن المسائِلِ الثَّلاثِ: الرُّوح، وأصحابِ الكهف، وذِي القَرْنَيْنِ، حسب ما أمرتهم به يهود ـ قال لهم ﷺ: «غداً أُخْبِرُكُمْ بِجَوَابِ مَا سَأَلْتُمْ» ولم يقلْ: إن شاء اللَّه، فعاتَبَهُ اللَّه عزَّ وجلَّ، وأمسك عنه الوحْيَ خَمْسَةَ عَشَرَ يوماً، وأرجف به كُفَّار قريشٍ، وشَقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ وبلَغ منه، فلما انقضى الأَمَدُ الذي أراد اللَّهُ عِتَابَ نبيِّه، جاءه الوحْيُ بجوابِ ما سألوه، وغير ذلك، فافتتح الوحي بـ ﴿الحمد للَّه الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، وهو القرآن.

وقوله: ﴿ولم يجعل له عِوَجا﴾، أي: لم ينزله عن طريق الاستقامة، «والعِوَج» فَقْدُ الاستقامة، ومعنى ﴿قيِّماً﴾، أي: مستقيماً؛ قاله ابن[(٥)] عباس وغيره، وقيل: معناه أنه قَيِّم

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥٢، ٩٥٤)، والحاكم (٢/ ٣٦٨)، والبيهقي (٣/ ٢٤٩)، عن أبي سعيد مرفوعاً، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٤) عن أبي سعيد موقوفاً.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦٨).

(٣) ينظر: «سنن الدارمي» (٢/ ٤٥٤).

(٤) ينظر: «العنوان» (١٢٢)، و«شرح الطيبة» (٥/ ٣)، و«شرح شعلة» (٤٦٨)، و«إتحاف» (٢/ ٢٠٨).

(٥) ذكره الطبري (٨/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، وابن عطية (٣/ ٤٩٥)، والبغوي (٣/ ١٤٤)، بلفظ عدلاً، والسيوطي =

على سائر الكتب بتصديقها، ولم يرتضه * ع *[١]، قال: ويصح أن يكون معنى «قيِّم» قيامَهُ بأمر اللَّه على العَالَمِ وهذا معنى يؤيِّده ما بعْده من النِّذارة والبشارة اللتَيْن عمتا العالَمَ، «والبأس الشديد» عذابَ الآخرة، ويحتملُ أنْ يندرج معه في النِّذارة عذابُ الدنيا ببَدْرٍ وغيرها، ﴿ومن لدنه﴾، أي: من عنده، والمعنى: لينذر العالَمَ و«الأجر الحسن» نعيمُ الجنة، ويتقدَّمه خير الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِن يقولون إِلا كذباً﴾، أي: ما يقولون، فهي النافية.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ هذه آية تسلية للنبيِّ ﷺ، والباخِعُ نَفْسَه هو مهلكها.

قال * ص *: «لعلَّ» للترجِّي في المحبوب، وللإِشفاق في المحذور، وهي هنا للإِشفاق. انتهى.

وقوله: ﴿على آثارهم﴾: استعارة فصيحةٌ من حيثُ لهم إِدبارٌ وتباعُدٌ عن الإِيمان؛ فكأنهم من فرط إِدبارهم قَدْ بَعُدُوا، فهو في آثارهم يحزَنُ عليهم.

٣٠١أ وقوله: ﴿بهذا/ الحديث﴾، أي: بالقرآن، «والأسف» المبالغة في حزنٍ أو غضبٍ، وهو في هذا الموضع الحزنُ؛ لأنه على مَنْ لا يملك، ولا هو تحت يدِ الآسِفِ، ولو كان الأَسَفُ من مقتدرٍ على من هو في قبضته ومِلْكه، لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فلَمَّا آسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] أي: أغضبونا. قال قتادة: ﴿أسفاً﴾: حُزْناً[٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنا جعلنا ما على الأرض زينة لها. . .﴾ الآية: بسط في التسلية، أي: لا تهتمَّ بالدنيا وأهلها، فإن أمرها وأمرهم أقلُّ؛ لفناء ذلك وذهابه، فإنا إِنما جعلنا ما على الأرض زينةً وامتحاناً واختباراً، وفي معنى هذه الآية قوله ﷺ: «الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ،

= (٤/ ٣٨١ ـ ٣٨٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق علي.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٩٥).

(٢) أخرجه الطبري(٨/ ١٧٧ ـ ١٧٨) برقم: (٢٢٨٧٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٦)، وابن كثير (٣/ ٧٢)، والسيوطي (٤/ ٣٨٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيا واتَّقُوا النِّسَاءَ»[١]

﴿لنبلوهم﴾ أي: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ مَّا.

قال سفيانُ الثَّوْرِيُّ: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها[٢]، وقال أبو عاصم العَسْقَلاَنِيُّ: ﴿أحسن عملاً﴾. الترك لها[٣].

قال * ع *[٤]: وكان أبي رحمه اللَّه يقولُ: أحسن العَمَلِ: أَخْذ بحقٍّ، وإِنفاقٌ في حقٍّ، وأداء الفرائض، واجتناب المحارِمِ، والإِكثار من المندوب إِليه.

وقوله سبحانه: ﴿وإِنا فيها لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي: يرجع ذلك كُله تراباً، «والجُرُز»: الأرض التي لا شيء فيها مِنْ عمارةٍ وزينةٍ، فهي البَلْقَعُ، وهذه حالة الأرض العَامِرَةِ لا بُدَّ لها من هذا في الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض، ثم يعمُّها ذلك بأجمعها عند القيامة، و«الصعيدُ» وجه الأرض، وقيل: «الصَّعيد»: التراب خاصَّة.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾، أي: ليسوا بعجب من آياتِ اللَّهِ، أي: فلا يَعْظُمْ ذلك عليك بحسب ما عَظَّمه السائلون، فإِن سائر آيات اللَّه أعظَمُ من قصتهم، وهو قول ابن عباس[٥] وغيره، واختلف الناس في ﴿الرقيم﴾ ما هو؟ اختلافاً كثيراً، فقيل: «الرقيم» كتابٌ في لوحِ نُحَاسٍ، وقيل: في لوحِ رَصَاصٍ، وقيل: في لوحِ حجارةٍ كتبوا فيه قصَّة أهْل الكهفِ، وقيل غير هذا، وروي عن ابن عباس؛

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٩٨) كتاب «الرقائق» باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث (٩٩/ ٢٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٤٨٣) كتاب «الفتن» باب: ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، حديث (٢١٩١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥) كتاب «الفتن» باب: فتنة النساء، حديث (٤٠٠٠)، وأحمد (٣/ ١٩، ٢٢، ٤٦)، وأبو يعلى (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) برقم: (١١٠١)، وابن حبان (٣٢٢١) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٧)، والسيوطي (٤/ ٣٨٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٧٨) برقم: (٢٢٨٧٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٩٧).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٨٠) برقم: (٢٢٨٩٠) بنحوه، وذكره ابن كثير (٣/ ٧٣)، والسيوطي (٤/ ٣٨٤) بنحوه، وعزاه لابن أبي حاتم.

أنه قال: ما أدرِي مَا الرَّقِيم[١]؟

قال * ع *[٢]: ويظهر من هذه الرواياتِ؛ أنهم كانوا قوماً مؤرِّخين، وذلك مِنْ نُبْل المملكة، وهو أمر مفيدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾: ﴿الفتية﴾، فيما روي؛ قوم من أبناء أشرافِ مدينةِ دِقْيُوس المَلِكِ الكافِرِ، ويقال فيه «دقيانوس»، وروي أنهم كانوا مُطَوَّقين مسَوَّرين بالذهب، وهم من الروم، واتبعوا دينَ عيسَى، وقيل: كانوا قبل عيسَى، واختلف الرواةُ في قصصهم، ونذْكُر من الخلافِ عُيُونَه، وما لا تستغني الآية عنه: فروي عن مجاهدٍ عن ابن عباس، أن هؤلاء الفتية كانوا في دينِ مَلِكٍ يعبد الأصنام[٣]، فوقَع للفتيةِ عِلْمٌ من بعض الحواريِّين، حَسْبما ذكره النَّقَّاش، أو من مؤمني الأمم قبلهم، فآمنوا باللَّه، ورأوا ببصائرهم قَبِيحَ فعْل الناس، فرفع أمرهم إلى المَلِك، فاستحضَرَهُمْ، وأمرهم بالرجُوعِ إلى دينه، فقالوا/ له فيما رُوِيَ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰواتِ والأرض...﴾ [الكهف: ١٤] الآية، ٣٠١ ب فقال لهم الملك: إنَّكُمْ شُبَّانٌ أغْمَارٌ، لا عَقْل لكم، وأَنا لا أَعْجَلُ عليكم، وضَرَبَ لهم أجلاً ثم سافر خِلاَلَ الأجَلِ، فتشاور الفتْيَةُ في الهروبِ بأديانهم، فقال لهم أَحَدُهم: إني أعْرِفُ كهْفاً في جَبَلِ كذا، فلنذهب إليه.

وروت فرقةٌ أنَّ أمر أصحاب الكهْف إنما كان أنهم من أبناء الأشْرَافِ، فحضر عيدٌ لأهْلِ المدينة، فرأى الفتْيَةُ ما ينتحله الناسُ في ذلك العِيدِ من الكُفْرِ وعبَادة الأصنام، فوقع الإيمانُ في قلوبهم، وأجمعوا على مفارقة دِينِ الكَفَرة، وروي أنهم خَرَجُوا، وهُمْ يلعبون بالصَّوْلَجَانِ والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم؛ لئلاً يشعر الناس بهم؛ حتى وصلوا إلى الكهف، وأما الكلب فروِيَ أنه كان كَلْبَ صيدٍ لبعضهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم رَاعياً له كلْبٌ، فاتَّبعهم الراعي على رأيهم، وذهب الكلْبُ معهم، فدخلوا الغَارَ، فروت فرقة أن اللَّه سبحانه ضَرَبَ على آذانهم عند ذلك، لما أراد مِنْ سَتْرهم وخَفِيَ على أهْل المملكة مكانُهم، وعَجِبَ الناسُ من غَرَابة فَقْدهم، فأرَّخوا ذلك ورقَّموه في لوحَيْنِ من رصاصٍ أو نحاسٍ، وجعلوه على باب المدينةِ، وقيل على الرواية: إن الملك بَنَى باب

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٨٢) برقم: (٢٢٩٠٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٨)، وابن كثير (٣/ ٧٣)، والسيوطي (٤/ ٣٨٤)، وعزاه لابن جرير من طريق ابن جريج.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٨).

الغار، وإنهم دفنوا ذلك في بِنَاءِ المِلِك على الغار، وروت فرقة، أن المَلِك لما علم بذَهَاب الفتية، أَمَرَ بقَصِّ آثارهم إلى باب الغار، وأمر بالدخول عليهم، فهَابَ الرجالُ ذلك، فقال له بعضُ وزرائه: «أَلَسْتَ أيها المَلِكُ إن أخرجتَهم قتلتَهم؟ قال: نعم، قال: فأيُّ قِتْلة أبلغُ من الجُوعِ والعَطَش، ابْنِ عليهم باب الغارِ، ودعْهم يموتوا فيه، ففعل، وقد ضَرَبَ اللَّه على آذانهم كما تقدَّم، ثم أخبر اللَّه سبحانه عن الفتْيَة أنهم لما أَوَوْا إلى الكَهْف، أي: دخلوه وجعلوه مأوًى لهم وموضعَ اعتصام دَعَوُا اللَّه تعالى بأن يؤتيهم من عنده رحمةً، وهي الرِّزقُ فيما ذكره المفسِّرون، وأن يهيِّىء لَهم من أمرهم رَشَدَاً؛ خلاصاً جميلاً، وهذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم، وألفاظهم تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقةٍ من رَشَدِ الآخرة ورحمتها، وينبغي لكُلِّ مؤمن أنْ يجعَلَ دعاءه في أمر دنياه بهذه الآية الكريمة فقطْ؛ فإنها كافية، ويحتمل ذكر الرحمة أن يراد بها أمْر الآخرة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فضربنا على آذانهم...﴾ الآية: عبارةٌ عن إلقاء اللَّه تعالى النَّوْمَ عليهم.

وقوله: ﴿عدداً﴾ نعت لـ«السنين» والقصد به العبارة عن التكثير.

وقوله: ﴿لنعلم﴾: عبارة عن خروج ذلك الشيءِ إلى الوجود، أي: لنعلم ذلك موجوداً وإلا فقد كان سبحانه علم أيَّ الحزبَيْن أحْصَى الأَمَدَ، و«الحزْبان»: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني هم
١٣٠٢ أهْل المدينة الذين بعث الفتية على/ عَهْدهم حين كان عنْدَهم التاريخُ بأمْر الفتية، وهذا قولُ الجمهور من المفسِّرين، وأما قوله: ﴿أحْصَى﴾ فالظاهر الجيد فيه أنَّه فعل ماض، و﴿أمداً﴾ منصوبٌ به على المفعول، «والأمد»: الغاية، ويأتي عبارةً عن المدَّة، وقال الزَّجَّاج: ﴿أحْصَى﴾ هو «أفْعَل»، ويعترض بأن «أفْعَل» لا يكون من فعل رباعيٍّ إلا في[1] الشاذِّ،

(١) يجوز فيه وجهان:
«أحدهما»: أنه أفعل تفضيل، وهو خبر لـ «أَيُّهُمْ»، و«أَيُّهُمْ» استفهامية، وهذه الجملة معلقة للعلم قبلها. و﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ حال من «أَمَداً»، لأنه لو تأخر عنه، لكان نعتاً له، ويجوز أن تكون اللام على بابها من العلة، أي: لأجل، قاله أبو البقاء، ويجوز أن تكون زائدة، و«ما» مفعوله إما بـ «أحْصَى» على رأي مَنْ يعمل أفعل التفضيل في المفعول به، وإما بإضمار فِعْلٍ، و«أَمَداً» مفعول «لَبِثُوا» أو منصوب بفعل مقدَّر يدلُّ عليه أفعل عند الجمهور، أو منصوب بنفس أفعلَ عند مَنْ يرى ذلك. =

و﴿أحصى﴾: فعلٌ رباعيٌّ؛ ويحتجُّ لقول الزَّجَّاج بأن «أفْعَل» من الرباعيِّ قد كثر كقولك: مَا

«والوجه الثاني»: أن يكون «أَحْصَى» فِعلاً مَاضياً. و«أَمَداً» مفعوله، و«لِمَا لَبِثُواْ» متعلق به، أو حال من «أَمَداً» واللام فيه مزيدة، وعلى هذا فـ «أَمَداً» منصوب بـ «لَبِثُواْ»، و«ما» مصدرية، أو بمعنى الذي، واختار الأول أعني كون «أَحْصَى» للتفضيل الزجاج، والتبريزي، واختار الثاني أبو علي، والزمخشري، وابن عطية، قال الزمخشري: فَإِنْ قُلْتَ فَمَا تقول فيمن جعله أفعل تفضيل؟ قُلْتُ: ليس بالوجه السديد، وذلك أَنَّ بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، نحو: «أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ». و«أَفْلَسَ مِنَ ابْنِ المُذَلَّقِ» شاذ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن «أَمَداً» إما أن ينتصب بأفعل وأفعل لا يعمل، وإما أن ينتصب بـ «لَبِثوا» فلا يسد عليه المعنى، فَإِنْ زَعَمت أني أنصبه بفعل مضمر، كما أضمر في قوله:

.... وَأَضْـرَبَ مِـنَّـا بِـالـسُّـيُـوفِ الْـقَـوَانِـسَـا

فقد أبعدت عن المتناول، حيث أردت أن يكون فعلاً، ثم رجعت مضطراً إليه، وناقشه الشيخ، فقال: أما دعواه أنه شاذ، فمذهب سيبويه خلافه، وذلك أن أَفْعَل فيه ثلاثة مذاهب: الجائز مطلقاً، ويُعْزَى لسيبويه. والمنع مطلقاً، وهو مذهب الفارسي. والتفصيل بين أن تكون همزته للتعدية فيمتنع، وبين أَنْ لا تكون، فيجوز، وهذا ليست الهمزة فيه للتعدية، وأما قوله: أفعل لا يعمل فليس بصحيح، لأنه لا يعمل في التمييز، و«أَمَداً» تمييز لا مفعولاً به كما تقول: زيداً أقطعُ النَّاسِ سَيْفاً، وزيداً أَقْطَعُ لِلْهَامِ سَيْفاً. «قُلْتُ: الذي أحوج الزمخشري إلى عدم جعله تمييزاً مع ظهوره في بَادِىءِ الرَّأْيَ عدم صحة معناه، وذلك أَنَّ التمييز شرطه في هذا الباب أن يصبح نسبة ذلك الوصف الذي قبله إليه، ويتصف به، أَلا تَرَى إلى مثاله في قوله: «زيداً أَقْطَعُ النَّاسِ سَيْفاً» كيف يَصِح أن يسند إليه، فيقال: «زيدٌ أَقْطَعُ سَيْفَهُ، وَسَيْفُه قَاطِعٌ» إلى غير ذلك، وهنا ليس الإحصاء من صفة «الأَمَدِ» ولا يصح نسبته إليه، وإنما هو من صفات الحزبين، وهو دقيق، وكان الشيخ نقل عن أبي البقاء نصبه على التمييز، وأبو البقاء لم يذكر نصبه على التمييز حال جعله «أَحْصَى» أفعل تفضيل، وإنما ذكر ذلك حين ذكر أنه فعل ماضٍ قال أبو البقاء: في «أَحْصَى» وجهان:

«أحدهما»: هو فهل ماضٍ، و«أَمَداً» مفعول «لَبِثُواْ». وهو خطأ، وإنما الوجه أن يكون تمييزاً، والتقدير: لما لبثوه.

«الوجه الثاني»: هو اسم، و«أَمَداً» منصوب بفعل دلَّ عليه الاسم، فهذا تصريح بأن «أَمَداً» حال جعله «أَحْصَى» اسماً ليس تمييزاً، بل مفعولاً به بفعلٍ مقدَّر، وأنه جعله تمييزاً عن «لَبِثُواْ».

ثم قال الشيخ: «وأما قوله: وأما أَنْ ينصب بـ «لَبِثُواْ» فلا يسد عليه المعنى، أي: لا يكون معناه سديداً، وقد ذهب الطبري إلى أنه منصوب بـ «لَبِثُواْ». قال ابن عطية: وهو غَيْرُ مُتَّجِهٍ انتهى، وقد يتجه، وذلك أَنَّ الأَمَد هو الغاية، ويكون عبارة عن المُدَّةِ، من حيث إنَّ المدة غاية في أمد المدة على الحقيقة، و«ما» بمعنى الذي و«أَمَداً» منصوب على إسقاط الحرف، وتقديره: لما لبثوا من أمد، أي: من مدة، ويصير «من أمد» تفسيراً لما أبهم من لفظ «ما»، كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ - ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ﴾، ولَمَّا سقط الحرف، وصل إليه الفعل. قُلْتُ: يكفيه أن مثل ابن عطية جعلهُ غير متجه، وعلى تقدير ذلك، فلا نسلم أَنَّ الطبري عنى نصبه بـ «لَبِثُواْ»، مفعولاً به، بل يجوز أن يكون عنى نصبه تمييزاً، كما قاله أبو البقاء، ثم قال: وأما قوله: فَإِنْ زَعَمْتَ إلى آخره، فتقول: لا نحتاج إلى ذلك، لأن لقائلٍ ذلك أن يذهب مذهب الكوفيين، في أنه ينصب القوانس بنفس «اضْرِبَ»، ولذلكِ جعل بعض النحاة أَنَّ «أَعْلَمُ» =

أَعْطَاهُ لِلْمَالِ، وكقوله عليه الصلاة والسلام في صفة جهنَّمِ: «أَسْود مِنَ القَارِ» وفي صفة حوضِهِ «أَبْيَض مِنَ اللَّبَنِ»[١].

* ت *: وقد تقَّدم أن «أسْوَد» من «سود»، وما في ذلك من النقْدِ، وقال مجاهدٌ: ﴿أمداً﴾ معناه عدداً[٢]، وهذا تفسيرٌ بالمعنى.

وقوله سبحانه: ﴿وزدناهم هدًى﴾، أي: يسَّرناهم للعمل الصالحِ، والانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ، ومباعدةِ الناسِ، والزهْدِ في الدنْيا، وهذه زياداتٌ على الإِيمان.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾: عبارة عن شدَّةِ عزم، وقوةِ صبرٍ، ولما كان الفَزَعُ وخَوَرُ النفس يشبه بالتناسُب الانحلالَ، حَسُنَ في شدَّة النفسِ، وقوَّة التصميم أنْ يُشْبه الربطُ، ومِنْه يقالُ: فلانٌ رَابِطُ الجأشَ؛ إذا كان لا تَفْرَقُ نفسه عند الفَزَعَ والحروبِ وغيرها، ومنه الربطُ على قَلْب أمِّ موسى.

وقوله تعالى: ﴿إذا قاموا﴾ يحتمل أنْ يكون وصف قيامهم بين يَدَي الملك الكافِرِ، فإنَّه مَقَامٌ يحتاج إلى الربطِ على القَلْب، ويحتمل أن يعبر بالقيام على انبعاثهم بالعَزْمِ على

= ناصب لـ «مَنْ» في قوله: ﴿أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾، وذلك لأنَّ أفعل مضمرة لمعنى المصدر، إذ التقدير: يريد ضربنا القوانس على ضرب غيرنا». قُلْتُ: هذا مَرْجُوحٌ، وأفعل التفضيل ضعيف، وإذا جعلنا «أَحْصَى» اسماً فجوَّز الشيخ في «أيّ» أنْ تكون الموصولة، و«أحْصَى» خبر لمبتدأ محذوف، هو عائدها، وأَنَّ الضمة للبناء على مذهب سيبويه، لوجود شرط البناء، وهو إضافتها لفظاً، وحذف صدر صلتها. وهذا إنما يكون على جعل العلم، بمعنى العِرْفَان، لأنه ليس في الكلام إلاَّ مفعول واحد، وتقدير آخر لا حاجة إليه، إلاَّ أنَّ إسناد «عَلِمَ» بمعنى عَرَف إلى الله تعالى إشكالاً، تقدم تحريره في الأنفال وغيرها. وإذا جعلناه فعلاً امتنع أن تكون موصولة، إذ لا حاجة لبنائها حينئذ وهو حسن.
ينظر: «**الدر المصون**» (٤/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤٧٤) كتاب «الرقاق» باب: الحوض، حديث (٦٥٨١)، والترمذي (٥/ ٤١٩) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكوثر، حديث (٣٣٦٠)، من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٨٨) برقم: (٢٢٩١٧)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٠)، والبغوي (٣/ ١٥٣)، والسيوطي (٤/ ٣٨٩)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

الهُرُوب إلى اللّه ومنابذة النّاس؛ كما تقول: قَامَ فُلاَنٌ إلى أَمْرِ كذا؛ إذا اعتزم عليه بغايةِ الجِدِّ، وبهذه الألفاظ التي هي: ﴿قَامُوا فَقَالُوا﴾، تعلَّقتِ الصوفيَّة في القيامِ والقَوْل، «والشَّطَط»: الجَوْر وتعدِّي الحدِّ والحقِّ بِحَسَبِ أَمْرٍ أَمْرٍ، و«السلطان»: الحجة، وقال قتادة: المعنى بعذرٍ[1] بيِّن، ثم عظموا جرم الداعين مع اللّه غيره، وظُلمهم بقولهم: ﴿فمن أظلم ممن افترى على اللّه كذباً﴾، وقولهم: ﴿وإذ اعتزلتموهم. . .﴾ الآية: المعنى قال بعضهم لبعضٍ، وبهذا يترجَّح أن قوله تعالى: ﴿إذ قاموا فقالوا﴾ إنما المراد به إذ عزموا ونَفَذُوا لأمْرِهم، وفي مصحف ابن مسعود: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ»، ومضمَّن هذه الآية الكريمة أن بعضهم قال لبعض: إذ قد فارَقْنا الكفَّار، وانفردنا باللّه تعالى، فلنجعل الكَهْفَ مأوًى، ونَتَّكل على اللّهِ تعالى، فإنه سيبسُطُ علينا رحمته، وينشرها علينا ويهيِّىءُ لنا من أمرنا مرفقاً، وهذا كله دعاءٌ بحَسَب الدنيا، وهم على ثِقَة من اللّه في أمر آخرتهم، وقرأ نافع وغيره: «مَرْفِقاً» بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ حمزة وغيره بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان معاً في الأمر، وفي الجارحة، حكاه الزَّجَّاج[2].

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾ و﴿تزاور﴾، أي: تميل، و﴿تقرضهم﴾ معناه/ تتركهم، والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم ٣٠٢ ب
شمسٌ ألبتة، وهو قول ابن عباس[3]، وحكى الزَّجَّاج[4] وغيره، قال: كان بابُ الكَهْفِ ينْظُرُ إلى بناتِ نَعْشٍ، وذهب الزَّجَّاج[5] إلى أن فعْلَ الشمس كان آيةً من اللّه تعالى دون أنْ يكون باب الكهْفِ إلى جهة توجِبُ ذلك، والـ ﴿فَجْوة﴾: المتَّسَع، قال قتادة: في فضاء منه؛ ومنه الحديث: «فَإِذَا وَجَد فَجْوَةً نَصَّ»[6].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٠) برقم: (٢٢٩٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠١).
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٢).
(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٢) برقم: (٢٢٩٢٦ ـ ٢٢٩٢٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٣)، وابن كثير (٣/ ٧٥) بنحوه، والسيوطي (٤/ ٣٩١) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه ابن عطية (٣/ ٥٠٣)، والزجاج (٣/ ٢٧٣)، والبغوي (٣/ ١٥٤).
(٥) أخرجه ابن عطية (٣/ ٥٠٣)، والزجاج (٣/ ٢٧٤).
(٦) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٣) برقم: (٢٢٩٣٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٣).

وقوله سبحانه: ﴿ذلك من آيات اللَّه﴾ الإشارة إلى الأمر بجملته.

وقوله سبحانه: ﴿ونقلبهم ذات اليمين...﴾ الآية: ذكر بعض المفسِّرين أن تقليبهم إنما كان حفظاً من الأرض، وروي عن ابن عبَّاس، أنه قال لو مَسَّتهم الشمْسُ، لأحرقتهم، ولولا التقليبُ، لأكلتهم[1] الأرض، وظاهر كلام المفسِّرين أن التقليب كان بأمر اللَّه وفعْلِ ملائكته، ويحتمل أنْ يكون ذلك بإقدار اللَّه إياهم على ذلك، وهم في غَمْرة النَّوْم.

وقوله: ﴿وكلبهم﴾: أكثر المفسِّرين على أنه كَلْبٌ حقيقةً.

قال * ع[2] *: وحدَّثني أبي رحمه الله قال: سَمِعْتُ أبا الفضل بن الجَوْهَرِيِّ في جامعِ مِصْرَ يقُولُ على منبر وعْظِهِ سنَةَ تسْعٍ وستِّينَ وأربعمائةٍ: مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الخير، نال مِنْ بركتهم، كَلْبٌ أحبَّ أهْل الفضل، وصَحبهم، فَذَكَره اللَّه في مُحْكَم تنزيله.

و«الوَصِيدُ» العَتَبة التي لباب الكهْفِ أو موضعها إن لم تكنْ، وقال ابن عباس: «الوصيد»[3] الباب والأول أصحُّ، والباب المُوصَدُ هو المُغْلَق، ثم ذكر سبحانه ما حفَّهم به من الرُّعْب، واكتنفهم من الهَيْبة، حفظاً منه سبحانه لهم، فقال: ﴿لو اطلعْتَ عليهم...﴾ الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى الأمر الذي ذكره اللَّه في جِهَتِهِمْ، والعبرة التي فعلها فيهم، «والبَعْث»: التحريك عن سكونٍ، واللام في قوله: ﴿ليتساءلوا﴾ لام الصيرورة، وقول القائلِ: ﴿كم لبثتم﴾ يقتضي أنه هَجَسَ في خاطره

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٤) برقم: (٢٢٩٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٤)، وابن كثير (٣/ ٧٦) بنحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٤).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٥) برقم: (٢٢٩٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٤)، والبغوي (٣/ ١٥٤)، وابن كثير (٣/ ٧٦)، والسيوطي (٤/ ٣٩٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

طُولُ نومهم، واستشعر أنَّ أمرهم خَرَجَ عن العادة بعضَ الخروجِ، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حالٍ منَ الوَقْت، والهواء الزمانيُّ لا يباين الحالة التي ناموا عليها، وقولهم: ﴿فابعثوا أحدكم بِوَرِقِكُمْ﴾ يروى أنهم انتبهوا، وهُمْ جيَاعٌ، وأنَّ المبعوثَ هو تَمْلِيخَا، وروي أن باب الكهف انهدَمَ بناءُ الكفَّار منه؛ لطول السنين، ويروى أن راعياً هدمه؛ ليدخل فيه غنمه، فأخذ تمليخا ثياباً رثَّةً منكَرة ولبسها، وخرَجَ من الكهف، فأنكر ذلك البِنَاءَ المهدُومَ؛ إذ لم يعرفه بالأمْسِ، ثم مَشى، فجعل يُنْكِر الطريق والمعالِمَ، ويتحيَّر وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تامًّا، بل يكذِّب ظنه فيما تغيَّر عنده حتى بَلَغَ بابَ المدينة، فرأى على بابها أمَارة الإِسلام، فزادَتْ حَيْرَتُه، وقال: كيف هَذَا بِبَلد دقْيُوس، وبالأمْسِ كنا معه تَحْتَ ما كنا، فنهض إلى بابٍ آخر، فرأى نحواً من ذلك؛ حتى مشَى الأبوابَ كلَّها، فزادَتْ حيرته، ولم يميِّز بشراً، وسمع الناس يُقْسِمُون باسم عيسى، فاستراب بنَفْسه، وظنَّ أنه جنَّ، أو انفسد عقله، فبقي حَيْرَان يدعو اللّه تعالى، ثم نهض إلى باب الطعام الذي أراد / اشتراءه، فقال: يا عبد اللّه، بِعْنِي من طعامك بهذه الوَرِقِ، فدفع إليه دَرَاهِمَ، كأَخْفَافِ ١٣٠٣أ الربع فيما ذُكِرَ، فعجب لها البائعُ ودَفَعَهَا إلى آخر يُعَجِّبُهُ، وتعاطَاهَا النَّاسُ، وقالوا له: هذه دراهِمُ عَهْدِ فلانٍ المَلِكِ، مِنْ أيْن أنْتَ؟ وكَيْفَ وجدت هذا الكَنْزَ، فجعل يبهت ويعجَبُ، وقد كان بالبلد مشهوراً هو وبَيْتُهُ، فقال: ما أعرفُ غير أنِّي وأصْحَابي خَرَجْنا بالأمْس من هذه المدينةِ، فقال النَّاس: هذا مجنونٌ، اْذهبوا به إلى المَلِكِ، ففزِعَ عند ذلك، فَذُهِبَ به حتى جيءَ به إلى المَلِكِ، فلما لم يَرَ دُقيُوس الكافِرَ، تأنَّس، وكان ذلك المَلِكُ مؤمناً فاضلاً يسمَّى تبدوسِيس، فقال له المَلِكُ: أين وجدت هذا الكَنز؟ فقال له: إنما خرجْتُ أنا وأصْحَابي أمْس من هذه المدينة، فأوينا إلى الكَهْف الذي في جَبَل أنجلوس، فلما سمع المَلِكُ ذلك، قال في بعض ما رُوِيَ: لعلَّ اللّه قَدْ بعث لكُمْ أيُّها الناس آيَةً فَلْنَسِرْ إلى الكهف، حتى نرى أصحابه، فساروا، وروي أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاءِ هُمُ الفتيةُ الذين وُرِّخَ أمرهم على عهد دقْيُوس المَلِك، وكتب على لُوح النُّحَاس بباب المدينةِ، فسار الملك إليهم، وسار الناس معه فلما انتهوا إلى الكهف، قال تَمْلِيخا: أدخُلُ عليهم لئلا يرعبوا، فدخل عليهم، فأعلمهم بالأمْر، وأن الأمة أمَّة إسْلام، فروي أنهم سُرُّوا وخَرَجُوا إلى الملك، وعظَّموه، وعظَّمهم، ثم رجعُوا إلى الكهف، وأكثرُ الروايات على أنهم ماتُوا حين حدَّثهم تملِيخَا، فانتظرهم النَّاسُ، فلما أبطأ خروجُهم، دَخَل الناس إليهم، فرعبَ كلُّ من دخل، ثم أقدموا فوجَدُوهم موتى، فتنازعوا بحَسَب ما يأتي، وفي هذه القصص من الآختلاف ما تَضِيقُ به الصُحفُ فاختصرته، وذكرت المهم الذي به تتفسَّر ألفاظ الآيةِ، واعتمدتُ الأصحَّ واللّه المعينُ برحمته، وفي هذا البَعْثِ بالوَرِقِ جوازُ الوَكَالةِ، وصحَّتُها.

﴿وأزكَى﴾ معناه: أكثر فيما ذكر عكرمة[١]، وقال ابن جُبَيْر: المراد أحَلّ[٢]، وقولهم: ﴿يرجموكم﴾ قال الزجاج: بالحجارة، وهو الأصح وقال حَجَّاج: «يرجموكم» معناه: بالقول وقوله سبحانه: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾: الإشارة في قوله: ﴿وكذلك﴾ إلى بعثهم ليتساءلوا، أي: كما بعثناهم، أعثرنا عليهم، والضمير في قوله: ﴿ليعلموا﴾ يحتمل أن يعود على الأمَّة المسلمة الذين بُعِثَ أهْل الكهف على عهدهم، وإلى هذا ذهب الطبريُّ[٣]؛ وذلك أنهم فيما روي دخلتهم حينئذٍ فتنةٌ في أمرِ الحَشْر وبَعْثِ الأجساد من القبور، فشَكَّ في ذلك بعضُ الناس، واستبعدوه، وقالوا: إنما تُحْشَر الأرواح، فشَقَّ ذلك على مَلِكهم، وبقي حَيرَان لا يَدْرِي كيف يبيِّن أمره لهم، حتى لَبس المُسُوح، وقعد على
٣٠٣ب الرَّمَادً وتضرَّع إلى الله في حُجَّة وبيانٍ، فأعثرهم الله على أَهْل الكهف، فلما/ بعثهم الله، وتبيَّن الناس أمرهم؛ سُرَّ الملِكُ، ورَجَعَ مَنْ كان شَكَّ في بعث الأجساد إلى اليقين به، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾؛ على هذا التأويل، ويحتمل أن يعود الضميرُ في ﴿يعلموا﴾ على أصحاب الكهف، وقوله: ﴿إذ يتنازعون﴾؛ على هذا التأويل: ابتداءُ خبرٍ عن القوم الذين بُعِثُوا على عهدهم، والتنازع على هذا التأويل إنما هو في أمر البناء أو المسجد، لا في أمر القيامة، وقد قيل: إن التنازع إنما هو في أنْ أُطلعوا عَلَيْهم، فقال بعضهم: هم أمواتٌ، وبعضٌ: هم أحياء، وروي أنَّ بعض القومِ ذهبوا إلى طمس الكَهْف عليهم، وتركِهم فيه مغيَّبين، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر: ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾، فاتخذوه، قال قتادة: ﴿الذين غلبوا﴾ هم الولاة[٤].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...﴾ الآية: الضميرُ في ﴿سيقولون﴾ يراد به أهْل التوراةِ من معاصري نبيِّنا محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهْل الكهف.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٣) برقم: (٢٢٩٦١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٦)، والبغوي (٣/ ١٥٥).
(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٣) برقم: (٢٢٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٦).
(٣) ينظر: «الطبري» (٨/ ٢٠٤).
(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٧)، والسيوطي (٤/ ٣٩٢) بنحوه، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿رَجْماً بالغيب﴾: معناه ظَنًّا وهو مستعارٌ من الرجْم، كأن الإنسان يرمي الموضع المُشْكِلَ المجهول عنده بظنه المرةَ بعد المَرَّة يرجُمُه به، عَسَى أن يصيبه، والواو في قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾: طريق النحاة فيها أنها واو عَطْفٍ دخلَتْ في آخر الكلام؛ إخباراً عن عددهم، لتفصِّل أمرهم، وتدلَّ على أن هذا نهايةُ ما قيل، ولو سقطَتْ، لصح الكلام، وتقول فرقةٌ منهم ابنُ خالَوَيْهِ: هي[١] واو الثَّمَانِيَةِ، وذكر ذلك الثعلبيُّ عن أبي بكر بن عَيَّاشٍ وأن قريشاً كانت تقول في عددها: ستة، سبعة وثمانية تسعةٌ، فتدخل الواو في الثمانية[٢].

قال * ع *[٣]: وهي في القرآن في قوله: ﴿والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] وفي قوله: ﴿وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وأما قوله: ﴿وأبْكَاراً﴾ [التحريم: ٥] وقوله: ﴿وثمانِيةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] فليستْ بواو الثمانيةِ بل هي لازمة إِذ لا يستغني الكلامُ عنها، وقد أمر اللّه سبحانه نبيَّه في هذه الآية، أنْ يرد علْمَ عدَّتهم إليه، ثم قال: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ يعني: مِنْ أهل الكتاب، وكان ابن عبَّاس؛ يقولُ: أنا من ذلك القليل[٤]، وكانوا سبعةً، وثامنهم كلبهم.

---

(١) في هذه الواو أوجه:
«أحدها»: أنها عاطفة، عطفت هذه الجملة على جملة قوله: هم سبعة، فيكونون قد أخبروا بخبرين:
«أحدهما»: أنهم سبعة رجال على البَتِّ.
«والثاني»: أن ثامنهم كلبهم، وهذا يؤذن بأن جملة قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ مِن المتنازعين فيهم.
«والثاني»: أن الواو للاستئناف، وأنه من كلام اللّه تعالى أخبر عنهم بذلك، قال هذا القائل. وجيء بالواو لتعطي انقطاع هذا مما قبله.
«الثالث»: أنها الواو الداخلة على الصفة تأكيداً، ودلالة على لصوق الصفة بالموصوف، وإليه ذهب الزمخشري، ونظره بقوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾.
وردَّ الشيخ عليه «بِأَنَّ أَحَداً مِنَ النُّحَاةِ لَمْ يَقُلْه».
«الرابع»: أن هذه الواو تسمى واو الثمانية، وأنَّ لغة قريش إذا عدوا يقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، فيدخلون الواو على عقد الثمانية خاصة. ذكر ذلك ابن خالويه، وأبو بكر راوي عاصم.
قُلْتُ: وقد قَالَ ذلك بعضهم، في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ في الزمر، فقال: دخلت في أبواب الجنة، لأنها ثمانية، ولذلك لم يُجَأْ بها في أبواب جهنم، لأنها سبعة.
ينظر: «الدر المصون» (٤/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦).
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٨).
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٨).
(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٦) برقم: (٢٢٩٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٨)، والبغوي (٣/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، وابن كثير (٣/ ٧٨)، والسيوطي (٤/ ٣٩٣)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال ✽ ع ✽[١]: ويدلُّ على هذا من الآية أنه سبحانه لَمَّا حكى قول من قال: ثلاثة، وخمسة، قَرَنَ بالقول؛ أنه رَجْم بالغيب، ثم حكى هذه المقالة، ولم يقدَحْ فيها بشيء، وأيضاً فَيَقْوى ذلك على القول بواوِ الثمانية؛ لأنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيحٌ.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ معناه على بعض الأقوال: أي: بظاهر ما أوحينا إليك، وهو ردُّ علْمِ عدتهم إلى اللَّه تعالى، وقيل: معنى الظاهر؛ أنْ يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا يحتجّ هو على أمر مقرَّر في ذلك، وقال التِّبْرِيزِيُّ: ﴿ظاهراً﴾ معناه: ذاهباً وأنشد: [الطويل]

.... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا[٢]

١٣٠٤ ولم يبح له في هذه/ الآية أن يماري، ولكن قوله: ﴿إلا مراءً﴾ مجازٌ من حيث يماريه أهْلُ الكتاب، سمِّيت مراجعته لهم مِرَاءً، ثم قيد بأنه ظاهرٌ، ففارَقَ المراءَ الحقيقيَّ المذمومَ، و«المِرَاء»: مشتقٌّ من المِرْيَة، وهو الشكُّ، فكأنه المُشَاكَكَة. ✽ ت ✽: وفي سماع ابن القاسم، قال: كان سليمان بن يَسَارٍ، إذا ارتفع الصوْتُ في مجلسه، أو كان مراءً، أخذ نعليه، ثم قام. قال ابنُ رُشْد: هذا مِنْ وَرَعه وفَضْله، و«المِرَاء» في العِلْم منهيٌّ عنه، فقد جاء أنه لا تُؤْمَنُ فتنته، ولا تفهم حِكْمته انتهى من «**البيان**».

والضمير في قوله: ﴿ولا تستفت فيهم﴾ عائد على أهل الكَهْف، وفي قوله: ﴿منهم﴾ عائدٌ على أهْل الكتاب.

وقوله: ﴿فلا تمار فيهم﴾، أي: في عدَّتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء اللَّه﴾ قد تقدَّم

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٥٠٨).

(٢) عجز بيت لأبي ذؤيب وصدره:

وعيَّرها الواشون أني أحبُّها ....

وهو في ديوانه (١/ ٢١)، و«**اللسان**» (ظهر).

أن هذه الآية عتاب من اللَّه تعالى لنبيِّه حيث لم يستثْنِ، والتقدير: إلا أنْ تقولَ إلاَّ أنْ يشاء اللَّه أو إلاَّ أنْ تقولَ: إن شاء اللَّه، والمعنى: إلا أن تذكُرَ مشيئَةَ اللَّهِ.

وقوله سبحانه: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ قال ابن عباس[١] والحسن[٢] معناه: الإشارة به إلى الاستثناء، أي: ولتستثْنِ بعد مدَّة إذا نسيت، أولاً لِتَخْرُجَ من جُمْلة من لم يعلِّق فعله بمشيئة اللَّه، وقال عكرمة: وٱذكر ربَّك إذا غَضِبْتَ[٣]، وعبارة الواحِدِيِّ: ﴿واذكر ربَّك إذا نسيت﴾، أي: إذا نسيتَ الاستثناء بمشيئة اللَّه، فاذكره وقُلْه إذا تذكَّرت. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿وقل عسى أن يهديَنِ ربي...﴾ الآية: الجمهورُ أنَّ هذا دعاءٌ مأمورٌ به، والمعنى: عسى أنْ يرشدني ربِّي فيما أستقبل من أمري، والآية خطابٌ للنبيِّ ﷺ، وهي بعدُ تعمُّ جميع أمته.

وقال الواحديُّ: ﴿وقل عَسى أن يهديني﴾، أي: يعطيني ربي الآياتِ من الدلالاتِ على النبوَّة ما يكون أقْرَبَ في الرشد، وأدلَّ من قصَّة أصحاب الكهف، ثم فعل اللَّه له ذلك حيثُ آتاه علْم غيْوب المرسَلِينَ وخَبَرَهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين...﴾ الآية: قال قتادة وغيره: الآية حكايةٌ عن بني إسرائيلُ[٤]، أنهم قالوا ذلك؛ واحتجوا بقراءة[٥] ابن مسعود وفي مُصحفه: «وقَالُوا لَبِثُوا في كَهْفِهِمْ»، ثم أمر اللَّه نبيَّه بأن يردَّ العلْم إليه؛ ردًّا على مقالهم وتفنيداً لهم، وقال المحقِّقون: بل قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم...﴾ الآية خبرٌ من اللَّه تعالى عن مُدَّة لبثهم، وقوله تعالى: ﴿قل اللَّه أعلم بما لبثوا﴾، أي: فليزل اختلافكم أيها المخرِّصون، وظاهر قوله سبحانه: ﴿وازدادوا تسعاً﴾ أنها أعوام.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٨)، برقم: (٢٢٩٩٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٩)، والبغوي (٣/ ١٥٧)، وابن كثير (٣/ ٧٩)، والسيوطي (٤/ ٣٩٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٨) برقم: (٢٢٩٩٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٩)، والبغوي (٣/ ١٥٧).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٩) برقم: (٢٢٩٩٣) بلفظ: «عصيت»، وذكره البغوي (٣/ ١٥٧)، وابن كثير (٣/ ٧٩)، والسيوطي (٤/ ٣٩٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في **«شعب الإيمان»**.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢١٠) برقم: (٢٢٩٩٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥١٠)، والبغوي (٣/ ١٥٧ - ١٥٨)، وابن كثير (٣/ ٧٩)، والسيوطي (٤/ ٣٩٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) ينظر: **«المحرر الوجيز»** (٣/ ٥١٠).

وقوله سبحانه: ﴿أبصِرْ به وأسمع﴾، أي: ما أَسْمَعَهُ سبحانه، وما أَبْصَرَهُ، قال قتادة: لا أحَدَ أبْصَرُ مِنَ اللَّه، ولا أسْمَعَ[١].

قال * ع *[٢] وهذه عبارةٌ عن الإدراك، ويحتملُ أن يكون المعنى: أبْصِرْ به أي: بوحيه وإرشاده، هُدَاكَ، وحُجَجَكَ، والحَقَّ من الأمور، وأَسْمِعْ به العَالَم، فتكون اللفظتان/ أمرين لا على وجه التعجُّب. ٣٠٤ب

وقوله سبحانه: ﴿مالهم من دونه من ولي﴾: الضمير في ﴿لهم﴾ يحتمل أنْ يرجع إلى أهْلِ الكهْفِ، ويحتمل أنْ يرجع إلى معاصري النبيِّ ﷺ من الكُفَّار، ويكونُ في الآية تهديدٌ لهم.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿اتل ما أوحي إليك﴾، أي: اتبع، وقيل: اسْرُدْ بتلاوتك ما أوحِيَ إليك من كتاب ربك، لا نَقْصَ في قوله، ولا مُبَدِّلَ لكلماته، وليس لك سواه جَانِبٌ تميلُ إليه، وتستند، و«المُلْتَحد» الجانب الذي يَمَالُ إليه؛ ومنه اللَّحْد.

* ت * قال النوويُّ: يستحبُّ لتالي القرآن إذا كان منفرداً أنْ يكون خَتْمُهُ في الصَّلاة، ويستحبُّ أن يكون ختمه أوَل الليلِ أو أول النهار، ورُوِّينا في مسند الإمام المُجْمَع على حفظِهِ وجلالته وإتقانه وبَرَاعته أبي محمَّدٍ الدَّارِمِيِّ رحمه اللَّه تعالى، عن سَعْدِ بنِ أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّه عنه قَالَ: إذَا وَافَقَ خَتْمُ القُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَإنْ وَافَقَ خَتْمُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ[٣]. قال الدارمي: هذا حديثٌ حسنٌ وعن طلحة بن مُطَرِّفٍ، قال: مَنْ خَتَمَ القُرْآنَ أَيَّةَ سَاعَةٍ كَانَتْ مِنَ النَّهَار، صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ، وأَيَّةَ سَاعَةٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وعن مجاهد نحوه انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢١٢) برقم: (٢٣٠٠٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥١٠)، وابن كثير (٣/ ٨٠)، والسيوطي (٤/ ٣٩٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٥١٠).

(٣) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٧٠) كتاب «فضائل القرآن» باب: «في ختم القرآن».

وقوله سبحانه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم...﴾ الآية: تقدَّم تفسيرها.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾، أي: لا تتجاوزْ عنهم إلى أبناء الدنيا، وقرأ[١] الجمهور: «مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ» بنصب الباء على معنى جَعَلْنَاهُ غافلاً، «والفُرُط»: يحتملُ أن يكون بمعنى التفريط، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، وقد فسَّره المتأوِّلون بالعبارتين.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل الحقُّ من ربكم﴾ المعنى: وقل لهم يا محمَّد هذا القرآن هو الحقُّ، * ت *: وقد ذم اللَّه تعالى الغافلين عَنْ ذكره والمُعْرِضين عن آياته في غيرما آية من كتابه، فيجبُ الحذر مما وقَع فيه أولئك، ولقد أحسن العارفُ في قوله: غَفْلَةُ ساعةٍ عَنْ ربِّكَ مُكَدِّرة لمرآة قلبكَ، فكيف بَغفلتكَ جميعَ عُمُركَ. وقد روي أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُروا اللَّهَ فِيه ولَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ، فإنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وإِنْ شَاءَ غَفَر لَهُمْ»[٢] رواه أبو داود والترمذيُّ والنسائي والحاكم وابنُ

---

(١) هذه قراءة الجمهور، وقد قرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: «مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ».
قال أبو الفتح: يقال أغفلت الرجل: وجدته غافلاً... فإن قيل: فكيف يجوز أن يجد اللَّه غافلاً؟ قيل: لما فعل أفعال من لا يرتقب ولا يخاف، صار كأن اللَّه سبحانه غافل عنه. «**المحتسب**» (٢/ ٢٨)، قلت: يعني أنه ظننا غافلين عنه.
والقراءة ذكرها ابن عطية في «**المحرر**» (٣/ ٥١٣)، ثم قال: وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة عمرو بن عبيد.
وينظر: «**البحر المحيط**» (٦/ ١١٤)، و«**الدر المصون**» (٤/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦١) كتاب «الدعاء» باب: في القوم يجلسون ولا يذكرون اللَّه، حديث (٣٣٨٠)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، وأحمد (٢/ ٤٤٦، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٩٥)، وإسماعيل القاضي في «**في فضل الصلاة على النبي**» (٥٤)، وابن السني في «**عمل اليوم والليلة**» (٤٤٣)، من طريق سفيان الثوري، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه، عن أبي هريرة اهـ.
وأخرجه أبو داود (٢/ ٦٨٠) كتاب «الأدب» باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر اللَّه، حديث (٤٨٥٦)، والنسائي في «**عمل اليوم والليلة**» (٤٠٤)، وابن حبان (٨٥٣) من طريق سعيد المقبري، عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد (٢/ ٤٣٢) من طريق إسحاق مولى عبد اللَّه بن الحارث، عن أبي هريرة، وذكر هذا الطريق الهيثمي في «**مجمع الزوائد**» (١٠/ ٨٣) وقال: وأبو إسحاق مولى عبد اللَّه بن الحارث بن نوفل لم يوثقه أحد، ولم يجرحه، وبقية رجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

حِبَّان في «**صحيحهما**» وهذا لفظ الترمذيِّ، وقال: حديثٌ حَسَن، وقال الحاكمُ: صحيحٌ على شرط مسلم، «والتِّرَةُ» ـ بكسر التاء المُثَنَّاة من فوقُ وتخفيفِ الراء ـ النقْصُ، وقيل: التبعة، ولفظ ابن حِبَّان: «إلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وإِنْ دَخَلُوا الجَنَّةَ» انتهى من «**السلاح**».

وقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن...﴾ الآية: توعُّد وتهديد، أي: فليختر كلُّ امرىءٍ لنفسه ما يجدُه غداً عند اللَّه عزَّ وجلَّ، وقال الداووديُّ، عن ابن عباس: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ يقول: من شاء اللَّه له الإيمان، آمن، ومن شاء له الكفر، كفر، هو كقوله:
١٣٠٥ أ ﴿وما تَشَاءُونَ/ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩][1] وقال غيره: هو كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] بمعنى الوعيد، والقولان معاً صحيحان. انتهى و﴿أعتدنا﴾ مأخوذٌ من العَتَاد، وهو الشيءُ المُعَدُّ الحاضر، «والسُّرادق» هو الجدار المحيطُ كالحُجْرة التي تدورُ وتحيطُ بالفسْطاط، قد تكون من نَوْع الفُسْطَاط أديماً أو ثوباً أو نحوه، وقال الزَّجَّاج[2]: «السُّرَادِق»: كل ما أحاط بشيء، واختلف في سُرَادِقِ النار، فقال ابن عباس: سرادقها حائطٌ من نارٍ[3]، وقالت فرقة: سرادقها دُخَانٌ يحيطُ بالكُفَّار، وهو قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقيل غير هذا، وروي عن النبيِّ ﷺ من طريق أبي سعيد الخدريِّ؛ أنه قَالَ سُرَادِقُ النَّارِ أربَعَةُ جُدُر كِثَف عَرْض كُلِّ جِدارٍ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً[4] و«المهل» قال أبو سعيد عن النبيِّ ﷺ: هو درديُّ الزيتِ، إذا انتهى حَرُّه[5]، وقال أبو سعيد وغيره: هو كلُّ ما أذيب من ذهب أو فضة، وقالت فرقةٌ: «المُهْل» هو الصديدُ والدمُ إذا اختلطا، ومنه قول أبي بكر رضي اللَّه عنه في الكَفَن: إنما هو للمهلة[6]، يريدُ لما يسيلُ من المَيِّت في قبره، ويقوى هذا بقوله سبحانه: ﴿ويُسْقى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] و﴿المُرتفق﴾: الشيء الذي يطلب رفقه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢١٧) برقم: (٢٣٠٣٠)، وذكره البغوي (٣/ ١٥٩)، والسيوطي (٤/ ٣٩٩) بلفظ: «هذا تهديد ووعيد»، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) ينظر: «**تفسير الزجاج**» (٣/ ٢٨٢).
(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٢١٧) برقم: (٢٣٠٣٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥١٣)، والبغوي (٣/ ١٦٠)، وابن كثير (٣/ ٨١)، والسيوطي (٤/ ٣٩٩)، وعزاه لابن جرير.
(٤) تقدم تخريجه في سورة هود.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) ذكره ابن عطية (٣/ ٥١٤).

جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ تقدَّم تفسير نظيره، واللَّه الموفِّق بفضله، و﴿أساور﴾ جمع «أَسْوَار»، وهي ما كان من الحُلِيّ في الذراع، وقيل: «أَسَاور» جَمْعُ أَسْوِرَة، وأَسْوِرَة جمع أَسْوَارٍ، و«السُّنْدس»: رقيق الدِّيباج «والإستبرق» ما غلظ منه، قيل: إستبرقٌ من البَرِيقِ، و﴿الأرائك﴾ جمع أريكة، وهي السريرُ في الحجالِ، والضمير في قوله: ﴿وحسنت﴾ للجنَّات، وحكى النَّقَّاش عن أبي عمران الجَوْنيِّ، أنه قالَ: «الإِستبرقُ»: الحريرُ المنسوجُ بالذهب.

وقوله سبحانه: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب. . .﴾ الآية الضمير في ﴿لهم﴾ عائدٌ على الطائفة المتجبِّرة التي أرادَتْ من النبيِّ ﷺ أنْ يطرد فقراء المؤمنين، فالمثل مضروبٌ للطائفتين، إذ الرجل الكافر صاحِبُ الجنتين هو بإزاء متجبِّري قريشٍ، أو بني تميم؛ على الخلاف في ذلك، والرجُلُ المؤمنُ المُقِرُّ بالربوبية هو بإزاء فقراءِ المؤمنين، «وحففنا» بمعنى جعلنا ذلك لَهُمَا منْ كُلِّ جهة، وظاهر هذا المَثَل أنَّه بأمْرٍ وَقَعَ في الوجودِ، وعلى ذلك فَسَّره أكثر المتأوِّلين، فروي في ذلك أنهما كانا أَخَوَيْنِ من بني إسرائيل، ورثا أربعَةَ آلاف دينارٍ، فصنع أحدهما بماله ما ذكر، واشترى عبيداً، وتزوَّج، وأثرى، وأنفق الآخَرُ ماله في طاعة اللَّه عزَّ وجلَّ حتى افتقَرَ، والتقيا، فافتخر الغنيُّ، ووبَّخ المؤمن، فجرَتْ بينهما هذه المحاورَةُ، وروي أنهما كانا شريكَيْن حَدَّادَيْنِ كسبا مالاً كثيراً، وصَنَعَا نحو ما رُوِيَ/ في أمر الأَخَوَيْنِ، فكان من أمرهما ما قَصَّ اللَّه في كتابه. ٣٠٥ ب

قال السهَيْلِيُّ: وذكر أن هذَيْن الرجلَيْن هما المذكوران في «والصافات» في قوله تعالى: «﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿فاطَّلَعَ فَرَآهُ في سَوَاءِ الجَحِيمِ﴾ وإلى قوله: ﴿لمثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥١ ـ ٥٥، ٦١] انتهى.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ الأُكُلُ: ثمرها الذي يؤكل ﴿ولم تَظْلِمْ مِنه شيئاً﴾ أي لم تنقص عن العُرْفِ الأتَمِّ الذي يشبه فيها، ومنه قولُ الشاعرِ: [الطويل]

وَيَـظْـلِـمُـنـي مَـالـي كَـذَا وَلَـوى يَـدي لَـوَى يَـدَهُ الـلَّـهُ الَّـذي هُـوَ غَـالِـبُـهْ(١)

وقرأ(٢) الجمهور: «ثُمُرٌ» و «بِثُمُرِهِ» [الكهف: ٤٢] ـ بضم الثاء والميم ـ جمع «ثِمَارٍ»، وقرأ أبو عمرو ـ بسكون الميم(٣) ـ فيهما، واختلف المتأوِّلون في «الثُّمُر» ـ بضم الثاء والميم ـ فقال ابن عباس وغيره: «الثُّمُر»: جميع المال من الذهَبِ والفِّضة والحيوانِ وغير ذلك(٤)، وقال ابن زيد: هي الأصول(٥)، و«المحاورة»: مراجعةُ القولِ، وهو من «حَارَ يَحُورُ».

وقوله: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾: هذه المقالة بإزاء مقالة متجبِّري قريْشٍ، أو بني تميم، على ما تقدَّم في «سورة الأنعام». * ت * وقوله: ﴿وأعز نفراً﴾ يضَعِّفُ قول من قال: «إِنهما أخوانِ» فتأمَّله، والله أعلم بما صحَّ من ذلك.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ودخَلَ جنَّته وهو ظالمٌ لنفسه...﴾ الآية: أفْرَد الجنة من حيثُ الوجودُ كذلك إذ لا يدخلهما معاً في وقت واحدٍ، وظلمه لنفسه هو كُفْره وعقائدُهُ الفاسدة في الشَّكِّ في البعث، وفي شكِّه في حدوث العالم، إن كانت إشارته بـ ﴿هذه﴾ إلى الهيئة من السمٰواتِ والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما الكلام تساخُفٌ واغترارٌ مفرِط، وقلَّة تحصيلٍ، كأنه من شدَّة العُجْب بها والسرور، أفرطَ في وصفها بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنْيا وظنَّ أنه لم يُمْلَ له في دنياه إلا لكرامةٍ يستوجبها في نَفْسه، فقال: فإن كان ثَمَّ رُجوعٌ، فستكون حالي كذاوكذا.

---

(١) البيت لأبي زبيد الطائي، «اللسان» (ظلم).

(٢) ويعني بهم: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة قراء المدينة ومكة، وخالف عاصم، فقرأ بفتح الميم والثاء «ثَمَره»، و«بِثَمَرِهِ».
ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٦)، و«السبعة» (٣٩٠)، و«الحجة» (٥/ ١٤٢)، و«شرح الطيبة» (٥/ ٨)، و«العنوان» (١٢٣)، و«حجة القراءات» (٤١٦)، و«إتحاف» (٢/ ٢١٤).

(٣) وهي قراءة الأعمش وأبي رجاء.
ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٣٠٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥١٦)، وابن كثير (٣/ ٨٣) بنحوه، والسيوطي(٤/ ٤٠٣)، وعزاه لابن عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٣٠٦٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥١٦).

وقوله: ﴿قال له صاحبه﴾ يعني المؤمن.

وقوله: ﴿خلقك من تراب﴾ إشارةٌ إلى آدم عليه السلام.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

وقوله: ﴿لكنا هو اللَّه ربِّي﴾ معناه: لكن أنا أقول هو اللَّه ربِّي، وروى هارون عن أبي عمرو[1] «لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، وباقي الآية بيِّن.

وقوله: ﴿ولولا إذْ دخلْتَ جنتك. . .﴾ الآية: وصيَّةٌ من المؤمن للكافر، ﴿ولولا﴾: تحضيض بمعنى «هلا»، و﴿ما﴾ تحتمل أنْ تكون بمعنى «الذي» بتقدير: الذي شاء اللَّه كائنٌ، وفي ﴿شاء﴾ ضميرٌ عائد على «مَا»، ويحتمل أن تكون شرطيةً بتقدير: ما شَاءَ اللَّهُ كَانَ، أو خبرَ مبتدإٍ محذوفٍ، تقديره: هو ما شاء اللَّهُ، أو الأمر ما شاء اللَّه.

وقوله: ﴿لا قوة إلا باللَّه﴾: تسليمٌ، وضدٌّ لقول الكافرِ: ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ [الكهف: ٣٥]، وفي الحديثِ: «إنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ، إذَا قَالَهَا العَبْدُ، قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: «أَسْلَمَ/ عَبْدِيَ وَاسْتَسْلَمَ»، قال النوويُّ: ورُوِّينا في «**سنن أبي داود والترمذيّ والنسائي**» وغيرهما، عن أنس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَالَ يَعْنِي - إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - باسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وتَنَحَّى عَنْكَ الشَّيْطان»[2]. قال الترمذيُّ: حديث حسن، زاد أبو داود في روايته: «فَيَقُولُ: - يَعْنِي الشَّيْطَانَ لِشَيْطَانٍ آخَرَ - كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ» انتهى. وروى الترمذيُّ عن أبي هريرة، قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَكْثِرْ مِنْ قَوْلَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ؛ فَإنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ»[3] انتهى. ١٣٠٦أ

قال المحاسبيُّ في «**رعايته**»: وإذا عزم العَبْدُ في القيامِ بجميعِ حقوق اللَّه سبحانَهُ،

---

(١) ينظر: «**المحرر الوجيز**» (٣/ ٥١٧ - ٥١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧) كتاب «الأدب» باب: ما يقول إذا خرج من بيته، حديث (٥٠٩٥)، والترمذي (٥/ ٤٩٠) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا خرج من بيته، حديث (٣٤٢٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، حديث (٨٩)، وابن السني (١٧٨)، وابن حبان (٢٣٧٥ - موارد) من حديث أنس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه ابن حبان.

(٣) تقدم تخريجه.

فليرغَبْ إليه في المَعُونَةِ مِنْ عِنْدِه على أداء حقوقه، ورعايتها، وناجاه بقَلْب راغِبٍ راهبٍ؛ إني أَنسَى إن لم تذكِّرني، وأعجِزُ إنْ لم تُقَوِّني، وأجْزَعُ إنْ لم تصبِّرني، وعَزَم وتوكَّل، واستغاثَ واستَعَان، وتبرَّأ من الحَوْل والقوَّة إلا بربِّه، وقطع رجاءه مِنْ نفسه، ووَجَّه رجاءه كلَّه إلى خالقه، فإنه سيجدُ اللَّه عزَّ وجلَّ قريباً مجيباً متفضِّلاً متحنِّناً. انتهى.

قال ابنُ العربيِّ في «أحكامه»(١) قال مالكٌ: ينبغي لكلِّ مَنْ دَخَل منزله أنْ يقول كما قال اللَّه تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ انتهى.

وقوله: ﴿فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾ هذا الترجِّي بـ«عَسَى» يحتملُ أن يريد به في الدنيا، ويحتمل أن يريد به في الآخِرَةِ، وتمنِّي ذلك في الآخرة أشرَفُ وأذهَبُ مع الخير والصلاح، وأنْ يكونَ ذلك يرادُ به الدنيا ـ أذْهَبُ في نِكَاية هذا المخاطَب، و«الحُسْبان» العذاب؛ كالبردِ والصِّرِّ ونحوه، و «الصَّعيد» وجه الأرض، «والزَّلَق»: الذي لا تثبت فيه قَدَم، يعني: تذهب منافعها حتى منفعةُ المشيِ فهي وَحَلٌ لا تثبُتُ فيه قَدَمٌ.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأحيط بثمره...﴾ الآية: هذا خبر من اللَّه عزَّ وجل عن إحاطة العذابِ بحالِ هذا المُمَثَّل به، و﴿يقلِّب كفيه﴾: يريد يضَعُ بطْن إحداهما على ظهر الأخرى، وذلك فعل المتلهِّف المتأسِّف.

وقوله: ﴿خاوية على عروشها﴾ يريد أن السقوف وَقَعَتْ، وهي العروش، ثم تهدَّمت الحيطانُ عليها؛ فهي خاوية والحيطان على العُرُوشِ.

* ت *: فسرَّ * ع *(٢) رحمه اللَّه لفظ ﴿خَاوِيَة﴾ في «سورة الحَجِّ والنَّمْل» بـ«خالية»، والأحسن أن تفسَّر هنا وفي الحجِّ بـ«ساقطة»، وأما التي في «النمل»، فيتَّجه أن تفسَّر بـ«خالية» وبـ «ساقطة» قال الزبيدِيُّ في «مختصر العَيْن» خَوَتِ الدَّارُ: باد أهلها، وخَوتْ: تهدَّمت انتهى، وقال الْجَوْهَرِيُّ في كتابه المسمَّى بـ «تاج اللُّغة وصِحَاح العَرَبِيَّةِ»: خَوَتِ النجومُ خَيًّا: أَمحلَتْ، وذلك إذا سقطَتْ ولم تُمطِرْ في نَوْئِهَا، وأَخْوَتْ مثله، وخَوَتِ

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٢٤٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٩).

الدارُ خُواءً ممدوداً:/ أقْوَتْ وكذلك إذا سقطَتْ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[النمل: ٥٢] أي: خاليةً، ويقال: ساقطة؛ كما قال: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥] أي ساقطة على سقوفها. انتهى وهو تفسيرٌ بارعٌ، وبه أقولُ، وقد تقدَّم إيضاحُ هذا المعنى في «سورة البقرة». ٣٠٦ب

وقوله: ﴿يا ليتني لم أشركْ بربي أحداً﴾ قال بعض المفسِّرين: هي حكايةٌ عن مقالة هذا الكافرِ في الآخرة، ويحتملُ أن يكون قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حلولِ المُصيبة، ويكون فيها زَجْرٌ لكَفَرة قريشٍ وغيرهم، «والفئة»: الجماعة التي يُلْجأُ إِلى نَصْرِها.

وقوله سبحانه: ﴿هنالك﴾ يحتمل أنْ تكون ظرفاً لقوله: ﴿منتصراً﴾ ويحتمل أنْ يكون ﴿الولايةُ﴾ مبتدأ، و﴿هنالك﴾: خبره، وقرأ حمزة[1] والكسائيُّ: «الوِلاَيَةُ - بكسر الواو -، وهي بمعنى الرِّيَاسَة ونحوه، وقرأ الباقون: «الوَلاَيَة» - بفتح الواو - وهي بمعنى المُوَالاَة والصِّلة ونحوه، وقرأ أبو عمرو[2] والكَسائيُّ: «الْحَقُّ» بالرفع؛ على النعت لـ«الولايةُ» وقرأ الباقون بالخفضِ على النعتِ لـ ﴿اللَّه﴾ عزَّ وجلَّ، وقرأ الجمهور: «عُقُباً» - بضم العين والقاف - وقرأ حمزة وعاصم - بسكون[3] القاف - والعُقْب والعُقُب: بمعنى العاقبة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ يريد حياة الإنسان، كما أنزلناه من السماء ﴿فاختلَطَ

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (٥/ ١٤٩)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٩٦)، و«معاني القراءات» (٢/ ١١١)، و«حجة القراءات» (٤١٨)، و«العنوان» (١٢٣)، و«إتحاف» (٢/ ٢١٦).

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (٥/ ١٤٩)، و«إعراب القراءات» (١/ ٢٩٦)، و«معاني القراءات» (٢/ ١١١)، و«العنوان» (١٢٣)، و«شرح الطيبة» (٥/ ١٠)، و«شرح شعلة» (٤٧٣)، و«حجة القراءات» (٤١٩) و«إتحاف» (٢/ ٢١٦).

(٣) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (٥/ ١٥٠)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٩٧)، و«معاني القراءات» (٢/ ١١٢)، و«شرح شعلة» (٤٧٣)، و«العنوان» (١٢٣)، و«إتحاف» (٢/ ٢١٦)، و«حجة القراءات» (٤١٩).

به﴾، أي: فاختلط النبات بعضه ببعض بسبب النماءِ، ﴿فأصبح هشيماً﴾ أصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك، و «الهَشِيم» المتفتِّت من يابس العُشْب، و﴿تذْرُوه﴾ بمعنى تفرِّقه، فمعنى هذا المَثَل تشبيهُ حالِ المَرْء في حياته ومالِهِ وعزَّته وبَطَره، بالنَّبات الذي له خُضْرة ونَضْرة عن الماءِ النازل، ثم يعودُ بعد ذلك هشيماً، ويصير إلى عُدْم، فمن كان له عَمَلٌ صالح يبقى في الآخرةِ، فهو الفَائِزُ.

وقوله سبحانه: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ لفظه الخبر، لكنْ معه قرينة الصِّفة للمال والبنين؛ لأنه في المَثَلِ قَبْلُ حَقَّر أمْرَ الدنيا وبيَّنه؛ فكأنه يقول: المال والبنون زينةُ هذه الحياة الدنيا المحقَّرة، فلا تُتْبِعُوهَا نُفُوسَكُمْ، والجمهور أنَّ ﴿الباقيات الصالحات﴾. هي الكلماتُ المذكورُ فضْلُها في الأحاديث: «سُبْحَانِ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّهِ، ولاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ»، وقد جاء ذلك مصرَّحاً به من لفظ النبيِّ ﷺ في قوله: «وَهُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ».

وقوله سبحانه: ﴿خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ أي: صاحبها ينتظرُ الثَّواب، وينبسطُ أمله، فهو خَيْرٌ من حال ذي المَالِ والبنينَ، دون عَمَلٍ صالحٍ، وعن أبي سعيد الخدريِّ؛ أن رسول اللَّه ﷺ قَالَ: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ» قيلَ: وَمَا هُنَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: «التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ والتَّسْبِيحُ وَالحَمْدُ للَّهِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ/ إلاَّ باللَّه»[1] ١٣٠٧
رواه النسائيُّ وابنُ حِبَّان في «**صحيحه**» انتهى من «**السلاح**».

وفي «**صحيح مسلم**» عن سَمُرة بن جُنْدُب، عن النبيِّ ﷺ قال: «أَحبُّ الكَلاَمِ إِلى اللَّهِ تَعالى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، والحَمْدُ لِلَّهِ، ولاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، واللَّهُ أَكْبَرُ، لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[2] وفي «**صحيح مُسْلِم**»، عن أبي مالِكٍ الأشعريِّ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ والحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَو تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ. . .»[3] الحديث انتهى.

قال ابن العربيُّ في «**أحكامه**»: وروى مالكٌ عن سعيد بن المسيَّب، أنَّ الباقيات الصالحات قولُ العبْدِ: اللَّهُ أكْبَرُ، وسبحانَ اللَّهِ، والحمدُ للَّهِ، ولا إله إلا اللَّه، ولا حَوْلَ

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٢/ ٥٢٤) برقم: (١٣٨٤)، وابن حبان (٢٣٣٢ ـ موارد)، والحاكم (١/ ٥١٢)، والطبري (١٥/ ٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٧٥).
وقال الحاكم: هذا أصح إسناد للمصريين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٥) كتاب «الآداب» باب: كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، ونحوه حديث (١٢/ ٢١٣٧)، وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى مسلم.

(٣) تقدم تخريجه.

ولاَ قوَّة إلا باللَّه»[١] وروي عن ابْنِ عباس وغيره؛ أن الباقياتِ الصَّالحات الصَّلواتُ الخَمس[٢]. انتهى.

* ت *: وما تقدَّم أولى، ومن كلام الشيْخ الوليِّ العارف أبي الحَسن الشَّاذِليِّ رضي اللَّه عنه قال: عليك بالمطهِّرات الخمس في الأقوال؛ والمطهِّرات الخمس في الأفعال، والتبرِّي من الحول والقُوة في جميع الأحوال، وغُصْ بعقلك إلى المعاني القائمة بالقَلْب، واْخُرُجْ عنها وعنه إلى الرَّبِّ واحفظِ اللَّه يحفظْك، واْحفظِ اللَّه تجدْهُ أمامك واْعبُدِ اللَّه بها، وكُنْ من الشاكرين، فالمطهِّراتُ الخمس في الأقوالِ: سُبْحَانَ اللَّه، والحمدُ للَّهِ، ولا إله إلا اللَّه، واللَّهُ أكبر، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، والمطهِّراتُ الخَمْسُ في الأفعال: الصلواتُ الخَمْسُ، والتبرِّي من الحول والقوة: هو قولُكَ: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وترى الأرض بارزةً﴾: يحتمل أن الأرض؛ لِذَهَابِ الجبال، والضِّرابِ والشَّجَرِ ـ بَرَزَتْ، وانكشفَتْ ويحتملُ أن يريد بُرُوزَ أهلها من بطنها للحشْرْ، و«المغادَرة»: الترك، ﴿وعرضوا على ربك صفًّا﴾، أي: صفوفاً وفي الحديث الصحيح: «يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ صُفُوفاً يُسْمِعُهُمُ الدَّاعي، ويَنْفُذُهُمُ البَصَرُ...» الحديث[٣] بطوله، وفي حديثٍ آخَرَ: «أَهْلُ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِائَةٌ وعِشْرُونَ صَفًّا، أَنْتُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا»[٤].

وقوله سبحانه: ﴿لقد جئتمونا كما خلقْناكم أول مرة﴾: يفسِّره قولُ النبيِّ ﷺ: إنكُمْ تُحْشَرُونَ إلى اللَّه حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿كما بَدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ[٥] نعيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]».

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ووضع الكِتَابُ فتَرَى المُجْرِمين مُشْفِقين ممَّا فيه...﴾ الآية:

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٣١) برقم: (٢٣٠٩٤)، وذكره ابن كثير (٣/ ٨٥)، والسيوطي (٤/ ٤٠٩) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد».

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) برقم: (٢٣٠٨٢) وبرقم: (٢٣٠٨٥)، ذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٠)، وابن كثير (٣/ ٨٥)، والسيوطي (٤/ ٤١٠)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

﴿الكتاب﴾ اسم جنس يراد به كُتُب النَّاس التي أحصتها الحَفَظة لواحدٍ واحدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، وباقي الآية بيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾ قالت فرقة: إبليسُ لم يكُنْ من الملائكةِ، بل هو من الجِنِّ، وهم الشياطينُ المخلوقون من مَارِجٍ من نارٍ، وجميعُ الملائكة إنما خلقوا من نورٍ، واختلَفَتْ هذه الفرقةُ، فقال بعضهم: إبليسَ من الجنِّ، وهو أولهم وبَدْأَتُهم، كآدمَ من الإِنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيلُهُ جِنًّا، لكن جميع الشياطين اليَوْمَ من ذريته، فهو كُنوح في الإنس، واحتجُّوا بهذه الآية.

وقوله: ﴿ففسق﴾ معناه فخرج عن أمر ربِّه وطاعته.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أفتتخذونه﴾ يريد: أَفتَتَّخِذُونَ إبليس.

وقوله: ﴿وذريته﴾: ظاهر اللفظ يقتضي المُوَسْوِسين من الشياطين، الذين يأمُرُون بالمنكَر، ويحملون على الأباطيل.

وقوله تعالى: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أي: بدل ولايةِ اللَّه عزَّ وجلَّ بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوُّض من الحقِّ بالباطلِ.

﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ما أشهدتهم خَلْق السمٰوات والأرض...﴾ الآية: الضمير في
٣٠٧ب ﴿أشهدتهم﴾ عائدٌ على الكُفَّار، وعلى النَّاس بالجملة/ فتتضمَّن الآية الرَّدَّ على طوائف من المنجِّمِين وأهْل الطبائعِ والمتحكِّمين من الأطبَّاء، وسواهم مِنْ كل من يتخرَّص في هذه الأشياء، وقيل: عائدٌ على ذرية إبليس، فالآية على هذا تتضمَّن تحقيرَهُم، والقولُ الأول أعظم فائدةً، وأقول: إنَّ الغرض أولاً بالآية هُمْ إبليس وذريته، وبهذا الوجْه يتَّجه الردُّ على الطوائف المذكورة، وعلى الكُهَّان والعربِ المصدِّقين لهم، والمعظِّمين للجنِّ، حين يقولون: أعُوذُ بِعَزِيز هذا الوَادِي، إذ الجميع من هذه الفِرَقِ متعلِّقون بإبليس وذريته، وهم أصلُ الجميع، فهم المرادُ الأول بـ ﴿المضلِّين﴾، وتندرج هذه الطوائفُ في معناهم، وقرأ الجمهور[1]: «ومَا كُنْتُ»، وقرأ أبو جعفر[2] والجحْدَرِيُّ والحسن، بخلافٍ «وَمَا كُنْت»، «والعَضُد»: استعارة للمعين والمؤازر، ﴿ويوم يقول نادوا شُرَكائي﴾ أي: على جهة

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٠)، و«الدر المصون» (٤/ ٤٦٤).

(٢) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

الاستغاثة بهم، واختلف في قوله: ﴿مَوْبِقاً﴾، فقال ابن عباس: معناه مهلكاً[١]، وقال عبد الله بن عمر وأنس بن مالك ومجاهد: ﴿مَوْبِقاً﴾ هو وادٍ في جهنَّم يجري بدَمٍ وصديدٍ[٢]. قال أنس: يحجز بين أهل النار وبَيْن المؤمنين[٣].

وقوله سبحانه: ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾، أي: مباشروها، وأطلق الناس أنَّ الظنَّ هنا بمعنى اليقين.

قال * ع *[٤]: والعبارة بالظَّنِّ لا تجيء أبداً في موضع يقينٍ تامٍّ قد قَالَهُ الحَسَن[٥] بل أعظم درجاته أن يجيء، في موضع متحقِّق، لكنه لم يقع ذلك المظْنُونُ، وإلاَّ فمذْ يقع ويُحَسُّ لا يكادُ توجَدُ في كلامِ العربِ العبارةُ عنه بالظَّنِّ، وتأمَّل هذه الآية، وتأمَّل كلام العرب، وروى أبو سعيد الخدريُّ، أن النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الكَافِرَ لَيَرى جَهَنَّم، ويَظُنُّ أَنَّها مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»[٦]، و«المَصْرِف»: المَعْدِل والمَرَاغ، وهو مأخوذ من الانصرافِ من شيء إلى شيء.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٣٩) برقم: (٢٣١٤٢)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٤)، وابن كثير (٣/ ٩٠)، والسيوطي (٤/ ٤١٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٠) برقم: (٢٣١٤٩)، وذكره الطبري (٨/ ٢٤١)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٣)، وذكره البغوي (٣/ ١٦٨)، وذكره ابن كثير (٣/ ٩٠) نحوه، والسيوطي في **«الدر»** (٤/ ٤١٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٣).

(٤) ينظر: **«المحرر»** (٣/ ٥٢٤).

(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٤).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، وابن حبان (٢٥٨١ ـ موارد)، والطبري (١٥/ ٢٦٥)، والحاكم (٤/ ٥٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

وقوله تعالى: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للنَّاس من كل مثلٍ وكان الإنسان أكْثَرَ شيء جدلاً﴾ ﴿الإنسان﴾ هنا يراد به الجنس، وقد استعمل ﷺ الآية على العموم في مروره بِعَلِيٍّ لَيْلاً، وأمْرِه له بالصلاة بالليل، فقال عليٌّ: إنما أنفُسُنَا يا رَسُولَ اللَّهِ بِيَدِ اللَّهِ، أو كما قال، فخرج ﷺ، وهو يضربُ فَخِذَه بيده، ويقول: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وما منع الناس أنْ يؤمنوا إذ جاءهم الهدى...﴾ الآية: ﴿النَّاسِ﴾، هنا يراد بهم كفَّار عصر النبيِّ ﷺ، و﴿سنة الأولين﴾، هي عذاب الأمم المذكورة في القرآن، ﴿أو ياتيهم العذاب قُبُلاً﴾، أي: مقابلةً عياناً، والمعنى: عذاباً غير المعهود، فتظهر فائدة التقسيمِ، وقد وقَعَ ذلك بهم يَوْمَ بدرٍ، وكأنَّ حالهم تقتضي التأسُّف عليهم، وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخُسْران ـ عافانا اللَّه من ذلك ـ.

و﴿يُدْحِضُوا﴾ معناه: يُزْهِقوا، «والدَّحَض»: الطين.

وقوله: ﴿فلن يهتدوا إذاً﴾: لفظ عامٌّ يراد به الخاصُّ ممن حتم اللَّه عليه أنه لا يؤمن، ولا يهتدي أبداً، كأبي جهل وغيره.

١٣٠٨أ /وقوله: ﴿بل لهم موعد﴾ قالت فرقة: هو أَجَلُ الموتِ، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري[2] هو يَوْمُ بَدْرٍ والحَشْر.

وقوله سبحانه: ﴿لن يجدوا من دونه موئلاً﴾، أي: لا يجدون عنه منجًى، يقال: وَأَلَ الرَّجُلُ يَئِلُ؛ إذ نجا، ثم عقَّب سبحانه توعُّدهم بذكْر الأمثلة من القرى التي نَزَلَ بها ما تُوعَّدَ هؤلاء بمثله، و﴿القُرَى﴾: المدنُ، والإشارة إلى عادٍ وثمود وغيرهم، وباقي الآية بيِّن.

قال * ص *: وقوله: ﴿لما ظلموا﴾ في ﴿لما ظلموا﴾: إشعارٌ بعلَّة الإهلاك؛ وبهذا استدلَّ ابن عُصْفُور على حرفية «لَمَّا»؛ لأن الظرف لا دلالة فيه على العِلِّيَّة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذ قال موسى لفتاهُ لا أبرح...﴾ الآية: ﴿موسى﴾ هو ابنُ عمرانَ، وفتاه هو يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ، أن موسى عليه السلام جَلَسَ يَوْماً في مَجْلِسٍ لبني إسْرَائيلَ، وخَطَبَ، فأَبْلَغَ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٦٠) كتاب «التفسير» باب: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»، حديث (٤٧٢٤).
(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ٢٤٣).

مِنْكَ؟ قَالَ: لاَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، دُلَّنِي عَلَى السَّبِيلِ إِلَى لقيه، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ بِطُولِ سَيْفِ البَحْرِ، حَتَّى يَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ، فَإِذَا فَقَدَ الحُوتَ، فإِنَّهُ هُنَالِكَ، وأُمِرَ أَنْ يَتَزَوَّدَ حُوتاً، وَيَرْتَقِبَ زَوَالَهُ عَنْهُ، فَفَعَلَ مُوسى ذَلِكَ، وَقَالَ لِفَتَاهُ على جِهَةِ إِمْضَاءِ العَزِيمَةِ: لاَ أَبْرَحُ أَسِيرُ، أي: لاَ أَزَالُ، وإنما قال هذه المقالَةَ، وهو سائرٌ، قال السُّهَيْلِيُّ: كان موسى عليه السلام أعلَمَ بعلْمِ الظاهر، وكان الخَضِرُ أعلم بعلْم الباطنِ، وأسرارِ المَلَكُوتِ، فكانا بَحْرَيْن اجتمعاً بمجْمَعِ البَحْرَيْن، والخضرُ شَرِبَ من عَيْن الحَيَاةِ، فَهوَ حَيٌّ إلى أن يخرج الدَّجَّال، وأنَّه الرجُلُ الذي يقتله الدَّجَّال، وقال البخاريُّ وطائفة من أهْل الحديث، منهم شيخُنا أبو بَكْرِ بْنُ العَرَبيِّ رحمه اللَّه: مات الخَضِرُ قبل انقضاء المِائَةِ من قوله ﷺ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِه، فإِنَّ إِلَى رَأْسِ مِائَةِ عَام مِنْهَا لا يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهَا أَحَدُ»(١) يعني من كان حيًّا حين قال هذه المقَالَةَ، وأما اجتماع الخضرِ مع النبيِّ ﷺ وتعزيته لأهْل بيته، فمرويٌّ من طرقٍ صِحَاح، وصحَّ عن رسول اللَّه ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ؛ لأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خضراء»(٢).

قال الخطابي: الفروة(٣) وجه الأرض، ثم أنشد على ذلك شاهداً انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٤) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: ذكر العشاء والعتمة، حديث (٥٦٤)، من حديث عبد اللَّه بن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٩٩) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: حديث الخضر مع موسى، حديث (٣٤٠٢)، والترمذي (٥/ ٣١٣) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكهف، حديث (٣١٥١)، وأحمد (٢/ ٣١٨)، وابن حبان (١٠٨/١٤ ـ ١٠٩) برقم: (٦٢٢٢)، والبغوي في «**معالم التنزيل**» (٣/ ١٧٢)، كلهم من طريق همام بن منبه، عن أبي هريرة به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، والحديث ذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٤٢٤)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.
تنبيه: وهم الحافظ نور الدين الهيثمي فأورد هذا الحديث في كتابه «**موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**» رقم: (٢٠٩٢)، وشرط كتابه كما هو معروف أنه أورد ما هو زائد على «**الصحيحين**» من «**صحيح ابن حبان**». وللحديث شاهد من حديث ابن اعباس، ذكره السيوطي في «**الدر المنثور**» (٤/ ٤٢٤)، وعزاه إلى ابن عساكر.

(٣) الفرو الحشيش الأبيض وما أشبهه، وقال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش. وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات، وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه، وحكي عن مجاهد أنه قيل له الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله. والخضر قد اختلف في اسمه قبل ذلك وفي اسم أبيه وفي نسبه وفي نبوته وفي تعميره، فقال وهب بن منبه: هو بليا بفتح الموحدة وسكون اللام وبعدها تحتانية، ووجد بخط الدمياطي في أول الاسم بنقطتين، وقيل: كالأول بزيادة ألف بعد الباء، وقيل: =

واختلف الناس في «مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ»، فقال مجاهد وقتادة هو مَجْمَعُ بَحْرِ فارس وبَحْرِ الروم[١]، وقالت فرقة ﴿مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾: هو عند طَنْجَة، وقيل غير هذا، واختلف في «الحُقُب»، فقال ابن عباس وغيره: الحُقُب: أزمانٌ غير محدودة[٢]، وقال عبد الله بن عمرو ثمانون[٣] سنة، وقال مجاهد: سبعون[٤]، وقيل: سنةٌ.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما بلغا مجمع بينهما﴾ الضمير في ﴿بينهما﴾: للبحرين، قاله

= اسمه الياس، وقيل: اليسع، وقيل: عامر، وقيل: خضرون ـ والأول أثبت ـ ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح، فعلى هذا فمولده قبل إبراهيم الخليل لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم، وقد حكى الثعلبي قولين في أنه كان قبل الخليل أو بعده، وقال وهب وكنيته أبو العباس، وروى الدارقطني في **«الأفراد»** من طريق مقاتل عن الضحاك، عن ابن عباس قال: هو ابن آدم لصلبه، وهو ضعيف منقطع، وذكر أبو حاتم السجستاني في **«المعمرين»** أنه ابن قابيل بن آدم رواه عن أبي عبيدة وغيره، وقيل: اسمه ارميا بن طيفاء حكاه ابن إسحاق، عن وهب، وارميا بكسر أوله وقيل: بضمه وأشبعها بعضهم واواً، واختلف في اسم أبيه فقيل: ملكان، وقيل: كليان، وقيل: عاميل وقيل: قابل والأول أشهر، وعن إسماعيل بن أبي أويس: هو العمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد.
ينظر: **«فتح الباري»** (٧/ ٩٣ ـ ٩٤).

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٦) برقم: (٢٣١٧٠)، (٨/ ٢٤٥)، برقم: (٢٣١٦٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٧)، وابن كثير (٣/ ٩٢).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٦) برقم: (٢٣١٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٨)، وابن كثير (٣/ ٩٢).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٦) برقم: (٢٣١٧٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٨)، والبغوي (٣/ ١٧١)، وابن كثير (٣/ ٩٢).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٦) برقم: (٢٣١٧٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٨)، وابن كثير (٣/ ٩٢) بنحوه.

مجاهد(١)، وفي الحديث الصحيح: «ثُمَّ انْطَلَقَ، وانْطَلَقَ مَعَهُ/ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، حَتَّى أَتَيَا ٣٠٨ب
الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا، فَنَامَا، واضْطَرَبَ الحُوتُ في المكتلِ، فَخَرجَ مِنْهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ، واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَباً، أي: مسلكاً في جوفِ الماءِ، وأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جَرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بالحُوتِ، فانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِما، ولَيْلَتِهِما حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لَقَدْ لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ ويعني بـ«النصب» تعب الطريق، قال: ولم يجدْ موسى النَّصَبَ حتَّى جاوَزَ المَكَانَ الذي أمره اللَّه به، قال له فتاه: ﴿أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحُوتَ﴾، يريد: ذكر ما جرى فيه، ﴿وما أنسانيه﴾، أي أن أذكره ﴿إلا الشيطان﴾، و﴿اتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال: فكان للحوتِ سَرَباً ولموسى وفتاه عَجَباً، فقال موسَى: ﴿ذلك ما كنَّا نبغ فارْتدا على آثارهما قَصصاً﴾، قال: فرجعا يَقُصَّان آثارهما حَتَّى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجُلٌ مُسَجًّى بثوبٍ، فسلَّم عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وأَنَّى بأرضِكَ السَّلاَمَ قال: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعم، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَني ممَّا عُلِّمْتَ رُشْداً، ﴿قال: إنك لن تستطيعَ مَعِيَ صبراً﴾ يعني: لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي لأن الظواهر التي هي عِلْمُكَ لا تعطيه، وكيف تُصْبِرُ على ما تراه خطأً، ولم تُخْبَرْ بوجه الحكمة فيه؟ يا موسى، إني على علم من علم اللَّه، علَّمنيه لا تَعْلَمُه، يريد: علم الباطنِ، وأنتَ على علم من علم اللَّه علَّمكه اللَّه، لا أعلمه، يريد: علْمَ الظاهرِ، فقال له موسى: ﴿ستجدني إنْ شاء اللَّه صابراً ولا أعصِي لك أمراً﴾، فقال له الخضر: ﴿فإنِ اتبعتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شيء حتى أُحْدِثَ لك منه ذكراً﴾، أي: حتى أشرح لك ما ينبغي شرْحُه، فانطلقا يمشيَانِ على ساحل البَحْرِ، فمرت بهم سفينةٌ، فكلَّموهم أنْ يحملوهم، فعرفوا الخَضِرَ، فحملوهم بغَيْر نَوْلٍ، يقول: بغير أجر، فلما ركبا في السفينة، لم يُفْجأْ موسى إلاَّ والخَضِرُ قد قلع لَوْحاً من ألواح السفينة بالقَدُومِ، فقال له موسى؛ قومٌ حملونا بغير نَوْلٍ، عَمِدْتَّ إلى سفينتهم، فخرقْتَها لتغرق أهلها، ﴿لقد جئت شيئاً إمْراً﴾، أي شنيعاً من الأمور، وقال مجاهد: الإِمْرُ المُنْكَر(٢)، ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقْنِي من أمري عسراً﴾ قال أَبَيُّ بْنُ كعب، قال النبيُّ ﷺ: «فكانَتِ الأُولى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً، قال: وَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ على حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ في البَحْرِ نُقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: ما عِلْمِي وعلْمُكَ مِنْ عِلْم اللَّهِ إلاَّ مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ»،

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٧) برقم: (٢٣١٧٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٨).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٥٧) برقم: (٢٣٢١٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٣١)، وابن كثير (٣/ ٩٧).

١٣٠٩أ وفي رواية: «واللَّهِ، مَا عِلْمِي وعِلْمُكَ في جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إلاَّ كما أَخَذَ / هَذَا الطَّائِرُ بِمنْقَارِهِ من البَحْرِ»، وفي رواية: «مَا عِلْمي وعِلْمُكَ وعِلْمُ الخَلاَئِقِ في عِلْمِ اللَّهِ إلاَّ مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هذا العُصْفُورُ منقاره»[(١)].

قال[(٢)] * ع *: وهذا التشبيهُ فيه تجوُّز؛ إذ لا يوجد في المحْسُوسَات أقوى في القِلَّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنها لا شَيْءَ، ولم يتعرَّض الخَضِرُ لتحرير موازَنَةٍ بين المِثَال وبَيْنَ عِلْم اللَّه تعالى، إذ علمه سبحانه غير متناهٍ، ونُقَطُ البحر متناهيةٌ، ثم خَرَجَ من السفينة، فبينما هما يَمْشِيَانِ على السَّاحل، إذ أبصر الخضرُ غُلاَماً يَلْعَبُ مع الغلْمَان، فأخذ الخَضِرُ رَأْسَهُ بيده، فاقتلعه فَقَتَلَهُ، فقال له موسى: أقتلت نفساً زاكية.

قال[(٣)] * ع *: قيل: كان هذا الغلامُ لم يبْلُغ الحُلْم، فلهذا قال موسى: نَفْساً زاكية، وقالت فرقة: بل كان بالغاً.

وقوله: ﴿بغير نفس﴾ يقتضي أنه لو كان عَنْ قَتْلِ نفسٍ، لم يكن به بأْسٌ، وهذا يدلُّ على كِبَرِ الغلامِ، وإلا فلو كان لم يحتلم، لم يجبْ قتله بنَفْس ولا بغير نفس. * ت *: وهذا إذا كان شَرْعُهم كَشَرْعنا، وقد يكونُ شرعهم أنَّ النفْسَ بالنفْسِ عموماً في البالغ وغيره، وفي العَمْد والخطأ؛ فلا يلزم من الآية ما ذَكَرَ.

وقوله: ﴿لقد جئت شيئاً نُكْراً﴾ معناه: شيئاً ينكر.

قال * ع *[(٤)]: ونصف القرآن بِعَدِّ الحروف. انتهى إلى النون من قوله: ﴿نكراً﴾.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦٩) من حديث أبي بن كعب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣١).
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٢).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٢).

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال: وهذه أشدُّ من الأولى ـ ﴿قال إن سألتك عن شَيْءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لَدُنِّي عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهْل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾، قال: مائل، فقال الخَضِرُ بيده هكذا، فأقامه، فقال موسى: قومٌ أتيناهم، فلم يُطْعِمُونا، ولم يضيِّفونا ﴿لو شِئْتَ لتخذت عليه أجراً﴾ قال سعيدُ بنُ جُبَيْر: أجراً نأكله[1] ـ «قال هذا فراق بيني وبينك» إلى قوله: ﴿ذلك تأويلُ ما لم تسطع عليه صبراً﴾، فقال رسول اللَّه ﷺ: وَدِدْنا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»[2] قال سعيد: فكان ابن عباس يَقْرأُ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ [صَالِحَةٍ] غَصْباً»، وكان يقرأ: «وأَمَّا الغُلاَمُ [فَكَانَ كَافِراً] وكَانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ»، وفي رواية للبخاريِّ: يزعمون عن غَيْر سعيدِ بْنِ جُبَيْر؛ أنَّ اسم المَلِكِ: هُدَدُ بْنُ بُدَدٍ، والغلام المقتولُ اسمه يزعمون حَيْسُورُ، ويقال: جَيْسُورَ مَلِكٌ ﴿يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً﴾، فأردتُ إذا هِيَ مَرَّتْ به أنْ يَدَعَها لِعَيْبِها[3]، فإذا جَاوَزُوا أصْلَحُوها، فانتفعوا بها، ومنهم من يقول: سَدُّوها بقَارُورة، ومنهم من يقول بالقَارِ، كان أبواه مُؤْمنَيْن، وكان كافراً، ﴿فخشينا أنْ يرهقهما طُغياناً وكُفراً﴾ أنْ يحملهما حبُّه على أنْ يتابعاه على دينه، ﴿فأردنا أنْ يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً﴾ لقوله: «أقتلْتَ نفساً زاكية»، ﴿وأقْرَب رحماً﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خَضِر، وزعم غير سعيد أنهما أُبْدلا جاريةً، وأما داوُدُ بن أبي عاصِمٍ، فقال عن غير واحدٍ: إنها جاريةٌ. انتهى لفظُ البخاريِّ.

* ت *: وقد تحرَّينا/ في هذا المختصر بحَمْد اللَّه التحقيقَ فيما علَّقناه جُهْد الاستطاعة، واللَّه المستعان، وهو المسؤول أن ينفع به بجُوده وكَرَمِهِ. ٣٠٩ ب

قال * ع *[4]: ويشبه أنْ تكون هذه القصَّة أيضاً أصلاً للآجالِ في الأحكام التي هي

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٣٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٢٠)، وعزاه لعبد بن حميد، ومسلم، وابن مردويه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٢٦٢، ٢٧٧) كتاب «التفسير»، حديث (٤٧٢٥ ـ ٤٧٢٦ ـ ٤٧٢٧) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٢).

ثَلاثَةٌ، وأيام التلوم ثلاثةٌ، فتأمَّله.

وقوله سبحانه: ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ وفي الحديث: «أَنَّهُمَا كَانَا يَمْشِيَانِ عَلَى مَجَالِسِ أُولَئِكَ القَومِ يَسْتَطْعِمَانِهِمْ».

قال * ع *[1]: وهذه عبرة مصرِّحة بهوان الدنيا على اللَّه عزَّ وجلَّ. * ص *: وقوله: ﴿فراق بيني﴾ الجمهور[2] بإضافة «فِرَاق»، أبو البقاء، تفريقُ وَصْلِنا، وقرأ ابن أبي عَبْلَةَ «فِراقٌ» بالتنوين[3]، أبو البقاء و«بَيْنَ»: منصوبٌ على الظرفِ انتهى.

قال[4] * ع *: و﴿وراءهم﴾ هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعًى بها الزمانُ، وذلك أنَّ الحادث المقدَّم الوُجُودِ هو الأمامُ، والذي يأتي بَعْدُ هو الوَرَاء، وتأمَّل هذه الألفاظ في مواضِعِها حيْثُ وردَتْ تجدها تَطَّرد، ومن قرأ[5]: «أَمامَهُمْ»، أراد في المكان.

قال[6] * ع *: وفي الحديث، «أنَّ هَذَا الغُلاَمَ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كافِراً»، والضمير في «خشينا» للخضِرِ، قال الداووديُّ: قوله: ﴿فخشينا أنْ يرهقهما﴾، أي: علمنا انتهى. «والزَكَاةُ» شرف الخُلُق والوقارُ والسكينةُ المنطويةُ على خَيْرٍ ونيَّة، «والرُّحْم» الرحمة، وروي عن ابن جُرَيْج، أنهما بُدِّلا غلاماً مسْلِماً[7]، وروي عنه أنهما بُدِّلا جارية، وحكى النَّقَّاش أنها وَلَدَتْ هي وَذُرِّيَّتُها سبعين نبيًا، وذكره المهدويُّ عن ابن عباس[8]، وهذا بعيدٌ، ولا تُعْرَف كثرة الأنبياءِ إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكُنْ فيهم، واختلف النَّاسُ في هذا الكنز المذكور هنا، فقال ابن عباس: كان عِلْماً في صُحُف مدفونةٍ[9]، وقال عمر مولى غُفْرَة: كان لَوْحاً من ذَهَبٍ قد كُتِبَ فيه: «عجباً للموقِنِ بالرِّزْقِ كيف يَتْعَبُ، وعجباً للموقِنِ بالحسابِ كيف يَغْفَلُ، وعجباً للموقِنِ بالمَوْتِ كيف يَفْرَحُ»، وروي نحو هذا مما هو في

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٣).
(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٦/ ١٤٤)، و«الدر المصون» (٤/ ٤٧٦).
(٣) ينظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٤)، و«الدر المصون» (٤/ ٤٧٦).
(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٥).
(٥) وقرأ بها ابن عباس، وابن جبير، كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٤).
(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٦).
(٧) أخرجه الطبري (٨/ ٢٦٧) برقم: (٢٣٢٥٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٣٦)، والبغوي (٣/ ١٧٧)، وابن كثير (٣/ ٩٨).
(٨) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٣٦).
(٩) أخرجه الطبري (٨/ ٢٦٨) برقم: (٢٣٢٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٣٧)، وابن كثير (٣/ ٩٨).

معناه، وقال الداووديُّ: ﴿وكان تحته كَنْزٌ لهما﴾، عن النبي ﷺ قال: «ذَهَبٌ وفِضَّة» انتهى، فإن صحَّ هذا الحديثُ، فلا نظر لأحَدٍ معه، فالله أعلم أيَّ ذلك كَانَ.

وقوله سبحانه: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ ظاهر اللفظِ، والسابقُ منه إلى الذهنِ أنه والدهما دِنيَةً[1]، وقيل: هو الأب السابعُ، وقيل: العاشر، فَحُفِظَا فيه، وفي الحديثِ: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ في ذُرِيتِهِ»، وقول الخضر: ﴿وما فعلته عن أمري﴾، يقتضي أنه نَبِيٌّ، وقد اختلف فيه، فقيل: هو نبيٌّ، وقيل: عَبْدٌ صالح، وليس بنبيٍّ؛ وكذلك اختلف في موته وحياته، والله أعلم بجميع ذلك، ومما يقضي بموت الخَضِر قوله ﷺ: «أرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإنَّ إلى رَأْسِ مِائَةٍ مِنْهَا لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ اليَوْمَ على ظَهْرِ الأرضِ أحد»[2].

قال القرطبيُّ في «**تذكرته**»: وذكر عن عمرو بن دِينَارٍ: الخَضِرُ وإلياسُ عليهما السلام
حَيَّانِ، فإذا رفع القرآن ماتا/ قال القرطبيُّ: وهذا هو الصحيحُ انتهى، وحكاياتُ مَنْ رأى ٣١٠أ
الخَضِرَ من الأولياء لا تحصَى كثرة فلا نطيلُ بَسْردها، وانظر «**لطائِفَ المِنَنِ**» لابن عطاء
الله.

وقوله: ﴿ذلك تأويل﴾: أي مآل، وحكى السُّهَيْلِيُّ أنه لما حان للخَضِر وموسى أن يفترقا، قال له الخَضر: لو صَبَرْتَ، لأَتَيْتَ عَلَى أَلْفِ عَجَبٍ، كلُّها أعجبُ ممَّا رأَيْتَ، فبكى موسى، وقالَ للخَضِر: أوْصِنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فقال: يا مُوسَى، اجْعَلْ همَّك في معادِكَ، ولا تَخُضْ فيما لا يَعْنِيك، ولا تأمَنْ مِنَ الخوفِ في أَمْنِكَ، ولا تيْئَس من الأمن في خوفك، وتدَبر الأمورَ في علانيتِكَ، ولا تَذَر الإحسانَ في قُدْرتك، فقال له موسى: زِدْنِي يرحمك الله، فقال له الخَضِر: يا مَوسَى، إياكَ واللَّجاجَةُ، ولا تَمْش في غير حَاجَةٍ، ولا تَضْحَكْ من غَيْر عَجَبٍ، ولا تعير أحداً، وابكِ على خطيئتك يَا بْنَ عِمران. انتهى.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا

---

(١) يقال: هو ابن عمي دِنْيَةً، إذا كان ابن عمه لحًّا.
ينظر: «**لسان العرب**» (١٤٣٦).

(٢) تقدم تخريجه.

يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين. . .﴾ الآية: «ذو القرنين»، هو المَلِكُ الإِسْكَنْدَرُ اليُونَانِيُّ، واختلف في وَجْه تسميته بـ «ذي القَرْنَيْنِ» وأحسنُ ما قيل فيه: أنه كان ذا ظَفِيرَتَيْنِ، من شَعْرهما قرناه، والتمكينُ له في الأرض: أنه مَلَكَ الدنيا، ودانَتْ له الملوك كلها، وروي أن جميع من مَلَكَ الدنيا كلَّها أربعةٌ، مُؤْمِنَانِ وكافران؛ فالمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام، والإِسْكَنْدَرُ، والكافِرَانِ: نُمْرُود، وبُخْتَ نَصَّرَ.

وقوله سبحانه: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ معناه: علْماً في كل أمْرٍ، وأقيسةً يتوصَّل بها إِلى معرفة الأشياء، وقوله: ﴿كل شيء﴾ عمومٌ معناه الخصوص في كلِّ ما يمكنه أنْ يعلمه ويحتاجُ إِلَيْه، وقوله: ﴿فأتبع سبباً﴾، أي: طريقاً مسلوكةً، وقرأ نافع وابن كثير[1]: وحفص عن عاصم: «في عَيْنٍ حَمِئَةٍ»، أي: ذاتِ حَمْأة، وقرأ الباقون: «في عَيْنٍ حَامِيَةٍ»، أي: حارَّة، وذهب[2] الطبريُّ إِلى الجمع بين الأمرين، فقال: يحتملُ أن تكون العين حارَّة ذاتَ حَمْأة؛ واستدلَّ بعضُ الناس على أن ذا القرنَيْن نبيٌّ بقوله تعالى: ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾، ومن قال: إِنه ليس بنبيٍّ، قال كانت هذه المقالةُ مِنَ اللَّهِ له بإِلهامٍ.

قال * ع *[3]: والقول بأنه نبيٌّ ضعيفٌ، و﴿إِما أن تعذب﴾ معناه: بالقَتْلِ على الكُفْر، ﴿وإِما أن تتخذ فيهم حسناً﴾، أي: إِن آمنوا، وذهب الطبري[4] إِلى أنَّ اتخاذه الحُسْن هو الأسْرُ مع كُفْرهم، ويحتمل أنْ يكون الاتخاذ ضَرْبَ الجزية، ولكنْ تقسيم ذي القرنين بعد هذا الأمْر إِلى كفر وإِيمان يردُّ هذا القوْلَ بعْضَ الردِّ، و﴿ظلَم﴾؛ في هذه الآية: بمعنى كَفَر، وقوله: ﴿عذاباً نُكراً﴾، أي: تنكره الأوهام، لِعَظَمِهِ، وتستهوله، و﴿الحسنَىٰ﴾ يراد بها الجَنَّة.

وقوله تعالى: ﴿ثم أتبع سبباً﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطُّرق المؤدِّية إِلى مَقْصِده، وكان ذو القرنَيْن، على ما وقع في كُتُب التاريخ يَدُوسُ الأرض بالجيوشِ الثِّقَال،

---

(١) ينظر: «السبعة» (٣٩٨)، و«الحجة» (٥/ ١٦٩)، و«إعراب القراءات» (١/ ٤١٢)، و«معاني القراءات» (٢/ ١٢١)، و«حجة القراءات» (٤٢٨)، و«العنوان» (١٢٤)، و«شرح الطيبة» (٥/ ١٨)، و«شرح شعلة» (٤٧٨)، و«إتحاف» (٢/ ٢٢٣).

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ٢٧٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٧٥).

والسِّيرةِ الحميدةِ، والحَزْمِ المستيقِظِ، والتأييدِ المتواصِلِ، وتقوى اللَّه عزَّ وجلَّ، فما لقي أُمَّةً، ولامَرَّ بمدينةٍ إلا ذَلَّتْ ودَخَلَتْ في طاعته، وكُلُّ من/ عارضه أوْ توقَّف عن أمْره، ٣١٠ب جعله عظةً وآيةً لغيره، وله في هذا المعنى أخبارٌ كثيرةٌ وغرائبُ، مَحَلُّ ذكرها كُتُبُ التاريخ.

وقوله: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ المراد بـ«القوم» الزِّنْج، قاله قتادة(١)، وهم الهنود وما وراءهم، وقال الناس في قوله سبحانه: ﴿لم نجعلْ لهم من دونها ستراً﴾ معناه: أنهم ليس لهم بنيانٌ، إذ لا تحتمل أرضهم البناءَ وإنما يدخلون مِنْ حَرِّ الشمس في أسْرَابٍ، وقيل: يدخلون في مَاءِ البَحْرِ؛ قاله الحسن(٢) وغيره، وأكْثَرَ المفسِّرون في هذا المعنى، والظاهر من اللفظ أنها عبارة بَلِيغَةٌ عن قُرْب الشمس منهم، ولو كان لهم أسرابٌ تغني لكان سِتْراً كثيفاً.

وقوله: ﴿كذلك﴾ معناه: فَعَلَ معهم كَفِعْله مع الأولين أهْلِ المَغْرب، فأوجز بقوله: ﴿كذلك﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

وقوله: ﴿حتى إذا بَلَغَ بين السَّدَّيْن...﴾ الآية: «السَّدَّان»، فيما ذكر أهل التفسير: جبلان سَدَّا مسالك تلك الناحية، وبَيْنَ طَرَفي الجبلين فَتْحٌ هو موضع الرَّدْم، وهذان الجَبَلان في طَرَفِ الأرضِ ممَّا يلي المَشْرِق، ويظهر من ألفاظ التواريخ؛ أنهما إلى ناحية الشمال.

وقوله تعالى: ﴿ووجد عندها قوماً﴾: قال السُّهَيْليُّ: هم أهل جابلَص، ويقال لها بالسُّرْيانية «جَرْجيسَا» يسكنها قومٌ مِنْ نَسْل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح.

وقوله تعالى: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ هم: أهلُ جابَلَقَ، وهم من نسل مؤمني قوم عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لها بالسُّرْيانيَّة: «مَرْقِيسيَا» ولكل واحدةٍ من المدينَتْينِ عَشَرة آلاف بابٍ، بين كلِّ بابين فرسَخٌ، ومر بهم نبيُّنا محمَّد ﷺ ليلةَ الإسراء، فدعاهم، فأجابوه، وآمنوا به، ودعا من ورائهم من الأمم، فلم يجيبوه في حديثٍ طويلٍ رواه الطبريُّ عن مقاتل بن حَيَّان، عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، واللَّه أعلم. انتهى،

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٧٧) برقم: (٢٣٣١٧)، وابن عطية (٣/ ٥٤٠)، وابن كثير (٣/ ١٠٣)، والسيوطي (٤/ ٤٤٨)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٧٦) برقم: (٢٣٣١٤) بنحوه، والبغوي (٣/ ١٧٩).

والله أعلم بصَّحته.

و﴿يأجوج ومأجوج﴾: قبيلان من بني آدم، لكنَّهم ينقسمون أنواعاً كثيرةً، اختلف الناس في عددها، واختلف في إفسادهم الذي وصَفُوهم به، فقيل: أَكْلُ بَني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم: هو الظُّلْم والغَشْم وسائرُ وجوه الإفساد المعلوم من البَشَر، وهذا أظهر الأقوال، وقولهم: ﴿فهل نجعلُ لك خَرْجاً﴾: استفهامٌ على جهة حُسْن الأدبِ، «والخَرْجُ»: المُجْبَى، وهو الخَرَاجَ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي:[1] «خَرَاجاً»، وروي في أمر يأجوج ومأجوج أنَّ أرزاقهم هِيَ من التِّنِّينِ يُمْطَرُونَ به، ونحو هذا مما لم يَصِحَّ، وروي أيضاً أنَّ الذَّكَر منهم لا يَمُوتُ حتى يولَدَ له أَلْفٌ والأنثى كذلك، وروي أنهم يتسافَدُونَ في الطُّرُق كالبهائِمِ، وأخبارُهُم تضيقُ بها الصُّحُف، فاختصرْتُ ذلك؛ لعَدَمِ صحَّته.

* ت *: والذي يصحُّ من ذلك كثْرَةُ عددهم على الجُمْلة، على ما هو معلوم من حديثِ: «أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ» وغيره من الأحاديث.

١٣١١ وقوله: ﴿ما مكَّنِّي/ فيه ربي خير﴾ المعنى: قال لهم ذُو القَرْنَيْنِ: ما بسطه الله لي من القُدْرة والمُلْك خَيْرٌ من خَرَاجكم، ولكن أعينوني بُقَّوة الأبدان، وهذا من تأييد الله تعالى له، فإنه تهَدَّى في هذه المحاورة إلى الأنفع الأنْزَه، فإنَّ القوم لو جمعوا له الخَرَاجَ الذي هو المالُ، لم يُعِنْهُ منهم أحدٌ، ولَوَكَلُوه إلى البنيان، ومعونَتُهم بالقوَّة أجْمَلُ به.

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

وقوله: ﴿آتوني زبر الحديد...﴾ الآية: قرأ حمزة[2] وغيره: «ائْتُوني» بمعنى «جيئوني»، وقرأ نافع وغيره: «آتوني» بمعنى «أعْطُوني»، وهذا كله إنما هو استدعاءُ

---

(١) الثابت أن الأخوين حسب من السبعة قرآ هذا الحرف هكذا، وإنما تابع المصنف ابن عطية في ذكره عاصماً.
ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٢)، و«السبعة» (٤٠٠)، و«الحجة» (٥/ ١٧٤)، و«إعراب القراءات» (١/ ٤١٩)، و«معاني القراءات» (٢/ ١٢٤)، و«شرح الطيبة» (٥/ ٢٢)، و«العنوان» (١٢٤)، و«حجة القراءات» (٤٣٣)، و«شرح شعلة» (٤٨٠)، و«إتحاف» (٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٢) والمقصود أن حمزة قرأ: «ائتوني» الثانية من الآية هكذا، وإلا فإن الأولى قرأها أبو بكر، عن عاصم «ائتوني»، دون حمزة، فلم يقرأها هكذا.

المناولة، وإِعمالُ القوَّة «والزُّبَر» جمع زُبْرة، وهي القطعة العظيمة منه، والمعنى: فرَصَفَه وبنَاه ﴿حتى إذا ساوى بين الصَّدَفَيْن﴾، وهما الجبلان، وقوله: ﴿قال انفخوا...﴾ إلى آخر الآية، معناه: أنه كان يأمر بوَضْع طاقة من الزُّبَر والحجارةِ، ثم يوقد عليها حَتَّى تحمَى ثم يؤتَى بالنُّحَاس المُذَاب أو بالرصاص أو بالحديد؛ بحسب الخلافِ في «القِطْر»، فيفرغه على تلك الطاقة المنضَّدة، فإذا التأم واشتدَّ، استأنَفَ رَصْفَ طاقةٍ أخرى إلى أن استوَى العَمَلُ، وقال أكثر المفسِّرين: «القِطْر»: النُّحَاس المُذَابُ، ويؤيِّد هذا ما روي أنَّ النبيَّ ﷺ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي رَأَيْتُ سَدَّ يَأْجُوجُ ومَأْجُوجَ، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: رَأَيْتُهُ كَالبُرُدِ المُحَبَّرِ؛ طَرِيقَةٌ صَفْرَاءُ، وَطَرِيقَةٌ حَمْرَاءُ، وطَرِيقَةٌ سَوْدَاءُ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ «قَدْ رَأَيْتَهُ»[١] و﴿يظهروه﴾ ومعناه: يعلونه بُصعُودٍ فيه؛ ومنه قوله في «**الموطَّإ**»، «والشَّمْسُ في حُجرتها قَبْل أَنْ تَظْهَرَ»، ﴿وما استطاعوا له نَقْباً﴾ لبُعْد عَرْضه وقوَّته، ولا سبِيلَ سَوى هذين: إما ارتقاءٌ، وإما نَقْب، وروي أن في طُولَه ما بَيْنَ طرفَي الجبلَيْنِ مِائَة فَرْسَخٍ، وفي عَرْضه خمسينَ فرسخاً، وروي غير هذا مما لم نَقِفْ على صحَّته، فاختصرناه، إذ لا غاية للتخرُّص؛ وقوله في الآية ﴿انفخوا﴾ يريد بالأَكْيَار.

وقوله: ﴿هذا رحمة من ربي...﴾ الآية: القائل ذو القرنين، وأشار بـ ﴿هذا﴾ إلى الرَّدْم والقوةِ عليه، والانتفاع به، والوعدُ يحتملُ أنْ يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به وقْتَ خروجِ يأْجُوجَ ومأجوج، وقرأ[٢] نافع وغيره: «دَكًّا» مصدر «دَكَّ يَدُكُ»، إذا هدم ورض، ونَاقَةٌ دَكَّاء لا سَنَام لها، والضمير في ﴿تركنا﴾ للَّه عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿يومئذ﴾ يحتملُ أنْ يريد به يوم القيامة، ويحتمل أنْ يريد به يَوْمَ كمالِ السَّدِّ، والضميرُ في قوله: ﴿بعضهم﴾ على هذا ليأجوجَ ومأْجُوجَ، واستعارة المَوْج لهم عبارةٌ عن الحَيْرة، وتردُّدِ بعضهم في بَعْضٍ، كالمُوَلَّهينَ مِنْ هَمٍّ وخوفٍ ونحوه، فشبَّههم بموجِ البَحْر الذي يضطرب بعضُه في بعض.

وقوله: ﴿ونفخ في الصور...﴾ إلى آخر الآية: يعني به يومَ القيامة بلا احتمالٍ

= ينظر: «**إتحاف**» (٢/ ٢٢٧)، و«**المحرر الوجيز**» (٣/ ٥٤٣)، و«**الحجة للقراء السبعة**» (٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، و«**معاني القراءات**» (٢/ ١٢٦)، و«**شرح شعلة**» (٤٨٢).

(١) ينظر: «**تفسير القرطبي**» (١١/ ٦٢).

(٢) وقرأ بها أبو عمرو، وابن عامر.
ينظر: «**السبعة**» (٤٠٢)، و«**الحجة**» (٥/ ١٨٢)، و«**إعراب القراءات**» (١/ ٤٢٢)، و«**حجة القراءات**» (٤٣٥)، و«**العنوان**» (١٢٥)، و«**إتحاف**» (٢/ ٢٢٨).

لغيره، ﴿والصُّور﴾ في قول الجمهور وظاهر الأحاديثِ الصِّحَاحِ: هو القَرْنُ الذي يَنْفُخُ فيه إِسرافيلُ للقيامة[١].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

٣١١ ب وقوله سبحانه: ﴿وعرضنا جهنَّم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ معناه / أبرزناها لَهُمْ؛ لتجمعهم وتحطِّمهم، ثم أكَّد بالمصدر عبارةً عن شدَّة الحال.

وقوله: ﴿أعينهم﴾ كنايةٌ عن البصائر، والمعنى: الذين كانَتْ فِكَرُهم بينها، وبَيْن ذكري والنَّظَرِ في شَرْعِي ـ حجابٌ، وعليها غطاءٌ ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ يريد لإعراضهم ونفارهم عن دعوة الحق، وقرأ الجمهور[٢]، «أَفَحسِبَ الَّذِين كَفَرُوا» ـ بكسر السين ـ بمعنى «أظَنُّوا» وقرأ علي بن أبي طالب[٣] وغيره وابنُ كَثِير، بخلافٍ عنه: «أَفَحَسْبُ» بسكون السين وضمِّ الباء، بمعنى «أَكافِيهِمْ ومنتهى غرضهم»، وفي مصحف ابن مسعود[٤]: «أَفَظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» وهذه حجة لقراءة الجمهور.

وقوله: ﴿أن يتخذوا عبادي﴾ قال جمهور المفسِّرين: يريد كلَّ مَنْ عُبِدَ من دون اللَّه؛ كالملائكة وعُزَير وعيسى، والمعنى: أن الأمر ليس كما ظَنُّوا، بل ليس لهم من ولاية هؤلاءِ المذكُورين شَيْءٌ، ولا يجدون عندهم منتفعاً و﴿أعتدنا﴾ معناه: يَسَّرنا، و«النُّزُل» موضع النزول، و«النُّزُل» أيضاً: ما يُقدَّم للضيفِ أو القادم من الطَّعام عند نزوله، ويحتملُ أنْ يريد بالآية هذا المعنى: أنَّ المعدَّ لهؤلاء بَدَلَ النُّزُلِ جهنَّم، والآية تحتملُ الوجهين، ثم قال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٥)، و«الدر المصون» (٤/ ٤٨٤).

(٣) وقرأ بها ابن عباس، وابن يعمر، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، ونعيم بن ميسرة، والضحاك، ويعقوب، وابن أبي ليلى.
ينظر: «المحتسب» (٢/ ٣٤)، و«الكشاف» (٢/ ٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٧)، وزاد نسبتها إلى ابن محيصن، وأبي حيوة، والشافعي، ومسعود بن صالح، وينظر: «الدر المصون» (٤/ ٤٨٤)، و«الشواذ» ص: (٨٥).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٧).

تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ الآية: المعنى قل لهؤلاء الكفرة؛ على جهة التوبيخ: هل نخبركم بالذين خَسِرَ عَمَلُهم، وضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم مع ذلك يظنُّون أنهم يحسنون فيما يصنعوه، فإذا طلبوا ذلك، فقل لهم: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائه﴾، وعن سعد بن أبي وقَّاص في معنى قوله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ قال: هُمْ عُبَّاد اليهودِ والنصارى، وأهْلُ الصوامع والدِّياراتِ وعن عَلِيٍّ: هم الخوارجُ؛ ويضعِّف هذا كلَّه قولُهُ تعالى بعْدَ ذلك: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾، وليس هذه الطوائف ممن يكفر باللَّه ولقائه، وإنما هذه صفة مشركي عَبَدَةِ الأوثان، وعليٌّ وسعْدٌ رضي اللَّه عنهما، ذكَرا قوماً أَخَذُوا بحظِّهم من صدر الآية[١].

وقوله سبحانه: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ يريد أنهم لا حسنَةَ لهم تُوزَنُ؛ لأن أعمالهم قد حَبِطَتْ، أي: بَطَلَتْ، ويحتمل المجاز والاستعارة، كأنه قال: فلا قَدْرَ لهم عندنا يومئذ، وهذا معنى الآية عندي، وروى أبو هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بالأَكُولِ الشَّرُوبِ الطَّوِيلِ فَلاَ يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ثم قَرَأَ: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾»[٢] وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى تَرْك إقامة الوزن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كانت لهم جنات الفردوس﴾: اختلف المفسِّرون في «الفِرْدَوس» فقال قتادة: إنه أعلى الجَنَّةَ وَرَبْوتها[٣]، وقال أبو هريرة: إنه جَبَلٌ تتفجَّر منه أنهارُ الجَنَّة[٤]، وقال أبو أُمَامَةَ: إنه سُرَّة الجنة ووسطها[٥]، وروى أبو سعيدِ الخُدْرِيُّ، أنه تتفجَّر منه أنهار الجَنَّة[٦]، وروي عن النبيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْس»[٧].

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٤٥).
(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٧)، وعزاه إلى ابن عدي، والبيهقي في «شعب الإيمان».
(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٦) برقم: (٢٣٤٠٠)، وذكره البغوي (٣/ ١٨٦)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٤٦).
(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٧) برقم: (٢٣٤٠٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٤٦).
(٥) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٤٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٥٧)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.
(٦) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٧) برقم: (٢٣٤٠٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٤٦).
(٧) ينظر: الحديث الآتي:

١٣١٢ ﴿ت﴾: ففي «البخاريِّ» من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ/ قَالَ: «إِنَّ في الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[1] انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لا يبغون عنها حِوَلاً﴾ «الحِوَلُ» بمعنى المتحوَّل.

قال مجاهدٌ: متحوَّلا[2].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

وأما قوله سبحانه: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربِّي...﴾ الآية: فروي أن سبب الآية أنَّ اليهود قالَتْ للنبيِّ ﷺ: كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيُّ الأُمَمِ كُلِّها وأَنَّكَ أُعْطِيتَ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنَ العِلْمِ، وأَنْتَ مُقَصِّرٌ، قَدْ سُئِلْتَ عَنِ الرُّوحِ، فَلَمْ تُجِبْ فيهِ؟، ونحو هذا من القول؛ فأنزل اللَّه الآية مُعْلِمَةً باتساع معلوماتِ اللَّه عزَّ وجلَّ، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببدْعٍ، فالمعنى: لو كان البحْرُ مداداً تكتب به معلوماته تعالى، لنَفِدَ قبل أنْ يستوفيها، «وكلماتُ ربِّي» هي المعاني القائمة بالنَّفْس، وهي المعلوماتُ، ومعلوماتُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لا تتناهى والبحر متناهٍ ضرورةً، وذكر الغَزَّالِيُّ في آخر «المنهاج» أن المفسِّرين يقولون في قوله تعالى: ﴿لنفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تنفد كلمات ربي﴾، أن هذه هي الكلماتُ التي يقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ لأهْلِ الجَنَّةِ في الجَنَّة باللُّطْفِ والإِكرام، مما لا تكيِّفه الأوهام، ولا يُحِيطُ به عِلْمُ مخلوق، وحُقَّ أنْ يكون ذلك كذلك، وهو عطاءُ العزيز العليم؛ على مقتضى الفَضْل العظيم، والجود الكريم، أَلاَ لِمِثْلِ هذا فليعملِ العَامِلُونَ. انتهى.

وقوله: ﴿مدَداً﴾، أي زيادة. ﴿ت﴾: وكذا فسَّره الهَرَوِيُّ ولفظه: وقوله تعالى: ﴿ولو جِئْنا بمثله مدداً﴾، أي زيادة انتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٤) كتاب «الجهاد» باب: درجات المجاهدين في سبيل اللَّه، حديث (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٨) برقم: (٢٣٤١٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٤٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٥٨)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: أنا بشرٌ ينتهي علْمي إلى حيثُ يوحى إِليَّ، ومما يوحَى إِليَّ ﴿أنّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملاً صالحاً﴾ وباقي الآية بيِّن في الشرك بالله تعالى، وقال ابن جُبَيْر في تفسيرها لا يرائي في عمله، وقد ورد حديثٌ أنها نزلَتْ في الرياء.

* ت *: وروى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبد الرحمٰن بن زَيْد بن أسْلَم، عن أبيه، أنه كَانَ يَصِفُ أمْرَ الرياء، فيقول: ما كَانَ مِنْ نَفْسِكَ فَرَضِيَتْهُ نَفْسُكَ لها، فإِنه مِنْ نَفْسِكَ فعاتبها، وما كان مِنْ نَفْسِك، فكرهَتْه نَفْسُك لها، فإِنه من الشيطان؛ فتعوَّذْ باللَّه منه، وكان أبو حَازِمٍ يقول ذلك[١]، وأسند ابنُ المبارك عن عبْدِ الرحمٰنِ بنِ أبي أُمَيَّة، قال: كُلُّ ما كَرِهَه العَبْدُ فليس منه[٢] انتهى، وخرَّج الترمذيُّ عن أبي سعيد بْنِ أبي فَضَالَة الأنصاريِّ، وكان من الصحابة، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عملٍ عَمِلَهُ للَّهِ أحَداً، فَلْيَطْلُبْ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»[٣]، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ انتهى، وقد خرَّج مسلم معناه.

* ت *: ومما جُرِّبته، وصحَّ من خواصِّ هذه السورة، أنَّ من أراد أن يستيقظ أيَّ وقتٍ شاء من الليل، فليقرأ عند نومه قولَهُ سبحانه: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يتخذوا عبادي/ من دوني أولياء...﴾ إلى آخر السورة، فإِنه يستيقظُ بإِذن اللَّه في الوقْت الذي ٣١٢ ب
نَوَاه، ولتكُنْ قراءته عند آخر ما يَغْلِبُ عليه النُّعَاس؛ بحيث لا يتجدَّد له عقب القراءة خواطِرُ، هذا مما لا شَكَّ فيه، وهو من عجائب القرآن المقطوعِ بها، واللَّه الموفِّق بفضله.

تنبيهٌ: رُوِّينا في «صحيح مسلم»، عن جابر رضي اللَّه عنه قال: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ في اللَّيلِ لسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلَ اللَّهَ خَيْراً مِنْ أَمْر الدُّنْيَا والآخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»[٤]، وذلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ، فإِن أردتَّ أن تعرف هذه الساعة، فاقرأ عند نومك مِنْ قوله

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٨٧) برقم: (٨٣١).
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٨٧) برقم: (٨٣٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣١٤) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكهف، حديث (٣١٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٦) كتاب «الزهد» باب: الرياء والسمعة، حديث (٤٢٠٣)، وأحمد (٣/ ٤٦٦)، وابن حبان (٢٤٩٩ ـ موارد)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٠٧) برقم: (٧٧٨). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان.
(٤) أخرجه مسلم (٣/ ٨٤ ـ الأبي) كتاب «صلاة المسافرين» باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، حديث (١٦٦ ـ ١٧٦/ ٧٥٧) من حديث جابر، وأخرجه أحمد (٣/ ٣١٣).

تعالى: ﴿إِنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس﴾ إلى آخر السورة، فإنك تستيقظ في تلك الساعة ـ إن شاء اللَّه تعالى ـ بفضله، ويتكرَّر تَيَقُّظَكَ، ومهما استيقظْتَ، فادْعُ لي ولك، وهذا مما ألهمنيه اللَّهُ سبحانه، فاستفِدْه، وما كتبته إلاَّ بَعْدَ استخارة، وإِياك أن تدعُوَ هنا على مُسْلِم، ولو كان ظالماً، فإن خالفتَني، فاللَّه حَسِيبُكَ وبَيْن يديه أكونُ خصيمَكَ، وأنا أرغَبُ إِلَيك أنْ تشركني في دعائِكَ، إِذ أفدتُّكَ هذه الفائدةَ العظيمةَ وكُنْتُ شيخَكَ فيها، وللقرآن العظيم أسرارٌ يُطْلِعُ اللَّه عليها من يشاء مِنْ أوليائه، جَعَلَنَا اللَّه منهم بفَضْله، وصلَّى اللَّه على سيدنا محمَّد وعلى آله وصَحْبِهِ وسلَّم تسليماً.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء الثالث من تفسير الثعالبي

ويليه الجزء الرابع وأوله:

سورة مريم

ولله الحمد والمنه

محتوى الجزء الثالث من تفسير الثعالبي

الأعراف ٥
الأنفال ١١٢
التوبة ١٦١
يونس ٢٣٣
هود ٢٧١
يوسف ٣١٠
الرعد ٣٥٨
إبراهيم ٣٧٤
الحجر ٣٩٣
النحل ٤١٠
الإسراء ٤٤٩
الكهف ٥٠٥

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي